كون إيغلدن

عظام على الهضاب

الجزء الثالث من

السيرة الملحمية للفاتح المغولي جنكيزخان





رواية



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عظام على الهضاب

رواية

الجزء الثالث من
السيرة الملحمية للفاتح المغولي جنكيزخان

تأليف
كون إيغلدن

ترجمة
مروان سعد الدين

مراجعة وتحرير
مركز التعريب والبرمجة

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc.

تمهيد



أصـــدرت النار حسحسة وسط الحلقة، وتمايلت الظلال بينما كانت أجساد داكنة تقفز وترقص حاملة السيوف، وتحرّكت ملابس بينما كانت الصرخات تعلو على أصوات أخرى، تنشد أغنية تشبه العويل، وجلس رجال يضعون آلات وترية على رُكبهم، يدندنون ألحاناً وإيقاعات، ويضربون الأرض بأقدامهم.

على مشارف النار، جثا صفٌّ من المحاربين المغول عراة الصدر وأيديهم موثقة خلــف ظهورهم. كشخص واحد، لم تكن وجوههم تنمّ عن أي تعبير لآسريهم المبتهجين بالنصر. كان قائدهم، كورخاسك، قد تعرّض لضرب مبرّح في المعركة، وكانــت الـــدماء تكسو فمه، وعينه اليمنى متورمة لا يمكنه فتحها؛ كان قد اختبر الأســـوأ. كان كورخاسك فخوراً بالطريقة التي رفض بها الآخرون إظهار الخوف علـــى محياهم، فراح يراقب محاربـــي الصحراء داكني البشرة، يصرخون ويغنون، ويلوّحـــون بسيوف مقوّسة عليها آثار دماء رجال كان يعرفهم، كانوا من سلالة غـــريبة – كما فكّر كورخاسك – أولئك الرجال الذين يلفّون رؤوسهم بعمامات من القماش، ويرتدون قمصاناً طويلة فضفاضة فوق سراويل عريضة. كان معظمهم ملتحين، ولهذا كانت أفواههم تبدو مثل خط أحمر محاط بشعر أسود. كمجموعة، كانـــوا أطـــول قامة، وأقوى بنية من أضخم محاربـــي المغول. كانت تفوح منهم روائــــح تـــوابل غـــريبة، وكـــان عدد من الرجال يمضغون جذوراً داكنة اللون، ويبصقونها قطعاً بنية على الأرض عند أقدامهم. أخفى كورخاسك كرهه لهم فيما كانوا يهتزون ويصرخون ويرقصون.

هـــزّ الضابط المغولي رأسه مستغرباً، إذ كانت ثقته بنفسه كبيرة. لقد أصبح يعرف ذلك الآن، فالعشرون رجلاً الذين أرسلهم تيموج معه كانوا محاربين أشدّاء،

لكنهم لم يكونوا فرقة غزو. لكن في أثناء محاولتهم حماية عربات الهبات والرّشى، كانت ردود فعلهم بطيئة للغاية، ووقعوا في الأسر. عاد كورخاسك بتفكيره إلى شهور خلت، وعرف أن المهمّة السلمية قد جعلته بطيئاً، ومتخلّياً عن الحذر. كان قد وجد ورجاله أنفسهم في أرض ذات تضاريس وعرة من الممرات الجبلية التي تسبّب الدوار. كانوا قد تجاوزوا ودياناً مزروعة بمحاصيل متنوعة، وقايضوا هدايا بسيطة مع مزارعين فقراء بشكل لم يروه من قبل. بالرغم من ذلك، كان الصيد وفيراً وقد شوى رجاله غزالاً سميناً. ربما كانت تلك غلطة. كان المزارعون قد أشاروا إلى الجبال محذّرين، ولكنه لم يفهم. لم يكن هناك خصام مع قبائل التل، لكن في الليل أدركهم حشد من المحاربين، خرجوا من الظلام، يطلقون صرخات عالية، ويضربون بسيوفهم الرجال النائمين. أغمض كورخاسك عينيه لبرهة، فقط ثمانية من مرافقيه نجوا من المعركة. و لم يكن قد رأى ابنه البكر منذ أول اشتباك مسلّح، كان الفتى يستطيع الطريق أمامهم، وتمنّى كورخاسك أن يكون قد نجا ليحمل خبر ما حدث إلى الخان؛ كانت تلك الفكرة وحدها تمنحه السعادة وسط استيائه الشديد.

كان رجال القبائل قد سلبوا الحلي من عرباتهم، وسرقوا الفضّة والجياد. فيما كان كورخاسك يراقب ما يجري خلسة، رأى أن العديد منهم يرتدون آنذاك ملابس مغولية عليها بقع داكنة من الدم.

اشتدّت وتيرة الغناء حتى تمكّن كورخاسك من رؤية لعاب أبيض يسيل من أطراف أفواه الرجال. شدّ قامته عندما سحب زعيم القبيلة سيفاً، وتقدم نحو الصف، صارخاً. وهنا، تبادل كورخاسك والآخرون النظرات.

صرخ فيهم: "بعد هذه الليلة، سنكون مع الأرواح، ونرى تلال الوطن، سيسمع الخان بما يحصل هنا، وسيدمر هذه الأرض عن بكرة أبيها".

بدا أن نبرته الهادئة دفعت حامل السيف إلى مستوى أعلى من الغضب. تمايلت الظلال على وجهه، وضرب بسيفه محارباً مغولياً، راقب كورخاسك ما يجري من دون أي انفعال. عندما كان الموت محتوماً، وشعر بأنفاسه على عنقه، كان قد اكتشف أنه بمكن وضع كل المخاوف جانباً ومواجهة المصير بهدوء. منحه ذلك على الأقل بعض الطمأنينة. لقد كان يأمل بأن تذرف زوجاته دموعاً كثيرة عندما يسمعن الخبر.

نادى كورخاسك: "كن قوياً يا أخي".

قبل أن يرد، بتر السيف رأس المحارب. اندفع الدم غزيراً، وصرخ رجال القبيلة استخفافاً، وضربوا بأقدامهم الأرض فرحاً، فابتسم الرجل الذي يحمل السيف، وكشف عن أسنان ناصعة البياض مقارنة ببشرته داكنة اللون. مجدداً، هوى السيف، ووقع مغولي آخر على الأرض الرملية. شعر كورخاسك بأن حنجرته تضيق من الغضب حتى كاد يختنق. كانت تلك أرض بحيرات وأنهار جبلية صافية، على بعد ألفي ميل إلى الغرب من ينكينغ، أُصيب القرويون الذين التقوا بهم بالدهشة من وجوههم الغريبة، إلا أنهم كانوا ودودين معهم. في صبيحة ذلك اليوم، كان كورخاسك قد سلك دربه محمّلاً بالأمنيات الطيبة والحلويات اللزجة التي جعلت أسنانه تلتصق ببعضها. لقد سار تحت سماء زرقاء ولم يخمّن أبداً أن قبائل التلال تتناقل خبر وجوده. لم يكن يعرف سبب تعرّضهم للهجوم، إلا أن الهجوم كان ببساطة بهدف سرقة الهبات والبضائع التجارية التي يحملونها. نظر إلى التلال بحثاً عن أثر لابنه، متمنياً مجدداً أن يشهد أحد موته؛ لم يكن موته ليضيع سدىً إن شاهده الفتى. كانت تلك آخر هدية يمكن أن يقدمها إليه.

تطلب الأمر من حامل السيف ثلاث ضربات ليبتر الرأس الثالث. عندما تحرّر الرأس أخيراً، رفعه من الشعر أمام رفاقه الذين أخذوا يضحكون ويغنون بلغتهم. راقب كورخاسك بصمت مطبق استمرار القتل حتى لم يبقَ في النهاية أحد غيره حياً.

رفع كورخاسك رأسه ليحدّق إلى الأعلى من دون وجل. شعر بالطمأنينة عندما لاحظ حركة بعيداً عن ضوء النار. بان شيء أبيض في العتمة، وابتسم كورخاسك. كان ابنه يقف هناك، يشير بيده. قبل أن يبتعد الابن، أطرق كورخاسك رأسه. اختفت الحركة البعيدة، لكن كورخاسك ارتاح، وزال منه كل التوتر. سيعرف الخان بالأمر.

نظر إلى الأعلى نحو حامل السيف فيما كان يسحب النصل الفولاذي إلى الخلف.

قال كورخاسك: "سيراك قومي مجدداً".

تردّد حامل السيف، غير قادر على فهم ما يقال.

صـــرخ: "ليملأ التراب فمك أيها الكافر". كانت الكلمات بالنسبة للضابط مجرد هذيان.

هـــزّ كورخاسك كتفيه مستغرباً. قال: "ليست لديك أدنى فكرة عمّا فعلته". وهوى السيف على رأسه.

القسم الأول



الفصل الأول

كانت الرياح تهب على الجبال العالية، وتجمّعت غيوم سوداء في الأعلى، وشكّلت مجموعات من الظلال تسبح فوق الأرض. كان الصباح هادئاً، وبدت الأرض خالية فيما كان الرجلان يتقدمان على جواديهما رتلاً صغيراً، من مئة محارب شاب. كان المغول وحيدين طيلة ألف ميل تقريباً، ولم يكن يكسر حاجز الصمت سوى طقطقة الجلد وصهيل الجياد. عندما توقفوا ليُرهفوا السمع، كان الأمر كما لو أن الصمت قد غلّف الأرض الرملية.

كان تسوبودي قائداً لدى الخان العظيم، وكان ذلك واضحاً من خلال الطريقة التي يتصرف بها. بالية وليس باليةً، مع ثقوب وصدأ في أماكن عديدة. كانت خوذته تحمل علامات على إنقاذها حياته أكثر من مرة، كانت كل معدّاته متهالكة، لكن الرجل نفسه بقي قوياً وقاسياً مثل أرض الشتاء. خلال ثلاثة أعوام من الترحال شمالاً، لم يكن قد هُزم سوى في معركة ثانوية واحدة، وعاد في اليوم التالي للهزيمة ليدمّر القبيلة قبل أن ينتشر خبر هزيمته. كان قد أتقن حرفته في أرض بدا أن الطقس فيها يصبح أكثر برودة مع كل ميل في البراري. لم تكن لديه خرائط لرحلته، وإنما مجرد شائعات عن مدن بعيدة مبنية على ضفاف أنهار متجمّدة.

كان على يمينه جوشي، ابن الخان البكر نفسه. بالكاد كان قد بلغ السابعة عشرة من عمره، إلا أنه كان بالرغم من ذلك محارباً قد يرث مقاليد الحكم، وقد يقود حتى تسوبودي في حرب. كان جوشي يرتدي درعاً مشابهة من الجلد المدبوغ والحديد، ولديه معدات السرج والأسلحة التي يحملها كل المحاربين. كان تسوبودي يعرف من دون أن يسأل أن جوشي يحمل حصته من الحليب والدم المجفف، ولا

يحتاج سوى إلى الماء لصنع حساء مغذٍ. فلم تكن الأرض تسامح أولئك الذين لا يأخذون البقاء أحياء على محمل الجد، وكان كلا الرجلين قد تعلّما دروس الشتاء.

شعر جوشي أنه موضع تمحيص، وومضت عيناه الداكنتان، المتحفّزتان دائماً. كان قد أمضى مع القائد الشاب وقتاً أطول مما أمضاه مع والده، لكن لا يمكن التخلي عن العادات القديمة بسهولة. كان صعباً عليه أن يثق بأحد، بالرغم من أن احترامه لتسوبودي لم يكن له حدود. كان قائد *الذئاب الفتية* يمتلك حساً بالحرب، بالرغم من أنه أنكر ذلك. كان تسوبودي يثق بالاستطلاع، والتدريب، والتكتيكات، والرماية على كل ما سواها، لكن الرجال الذين كانوا تحت إمرته لم يروا سوى أنه ينتصر، بغض النظر عن الظروف. مثلما كان آخرون يستطيعون صنع سيف أو سرج، كان بمقدور تسوبودي صنع جيوش، وكان جوشي يعرف أنه محظوظ ليتعلم إلى جانبه. تساءل إن كان شقيقه تشاغاتاي قد توغل عميقاً أيضاً في الشرق. كان سهلاً ان يستغرق في أحلام اليقظة في أثناء عبوره التلال، متخيلاً شقيقه ووالده مصابين بالذهول عندما يرون كيف كبر جوشي ليصبح قوياً.

قال تسوبودي فجأة: "ما أهم شيء لديك؟". رفع جوشي عينيه إلى السماء الصافية للحظة. كان تسوبودي يشعر بسعادة في اختباره.

"اللحم أيها القائد. من دون اللحم لا أستطيع القتال".

قال تسوبودي: "أليس قوسك؟ من دون قوسك، ماذا تكون؟".

"لا شيء أيها القائد، لكن من دون اللحم سأصبح ضعيفاً جداً لا أقوى على استعمال القوس".

همهم تسوبودي عندما سمع كلماته تتكرر.

"عندما ينتهي كل اللحم، إلى متى تستطيع العيش على الدم والحليب؟".

"ستة عشر يوماً على الأكثر، مع ثلاث مطيات لتشترك في تقديمها إليّ". لم يكن جوشي مضطراً إلى التفكير. كان قد تدرّب على الأجوبة منذ غادر وتسوبودي مع عشرة آلاف رجل ظلّ مدينة الإمبراطور تشن.

قال تسوبودي: "ما هي المسافة التي يمكنك قطعها في ذلك الوقت؟".

هزّ جوشي كتفيه استخفافاً. "أستطيع قطع ألف ومئتي ميل إذا قمت بتبديل المطيات. وهي مسافة أطول بمقدار النصف إذا نمت وتناولت الطعام على السرج".

رأى تسوبودي أن الشاب يجد صعوبة في التركيز وعيناه تلمعان عندما يتم تغيير الموضوع.

قال بحدّة: "ما المشكلة في السلسلة الجبلية أمامنا؟".

رفع جوشي رأسه، فزعاً. "أنا...".

"بسرعة! الرجال يتطلعون إليك لاتخاذ قرار. حياتهم معلقة على كلمة منك".

ابتلع جوشي ريقه، لكن مع تسوبودي كان قد تعلّم من خبير.

"الشمس خلفنا، لهذا ستكون مرئيين على مسافة أميال عندما نصل إلى القمة". بدأ تسوبودي يومئ برأسه، لكن جوشي تابع كلامه. "الأرض رملية. إذا عبرنا أعلى نقطة في السلسلة الجبلية بأي سرعة، فستثير عاصفة من الغبار خلفنا".

قال تسوبودي: "هذا جيد يا جوشي". بينما كان يتكلم، دفع بعقبيه على ردفي مطيته، وقادها لتعدو مسرعة نحو القمة أمامهم. كما كان جوشي قد توقع، أطلق المئة فارس غباراً من الرمل الضارب إلى الحمرة الذي اندفع فوق رؤوسهم. بالتأكيد، كان شخص ما سيرى ذلك وسيخبر عن موقعهم.

لم يتوقف تسوبودي عندما وصل إلى السلسلة الجبلية. قاد جواده للسير فوق الحافة، وكانت قائمتاه الخلفيتان تنزلقان على صخور مبعثرة. قلّده جوشي، ثم استنشق هواءً مليئاً بالغبار ما جعله يسعل. كان تسوبودي قد توقف على بعد خمسين خطوة وراء السلسلة الجبلية، حيث تبدأ الأرض الوعرة بالانخفاض نحو الوادي. من دون أوامر، شكّل رجاله صفاً مزدوجاً عريضاً حوله، مثل قوس مسحوب على الأرض. كانوا معتادين منذ وقت طويل على الطبع الحاد لقائد قد تم تعيينه عليهم.

حدّق تسوبودي إلى البعيد، مقطّب الحاجبين. كانت التلال تحيط بسهل واسع يجري فيه نهر يفيض بمياه الينبوع. على طول ضفته، كان هناك رتل يتحرك ببطء، ويحمل رايات وأعلاماً لامعة. في ظروف أخرى، ربما كان ذلك مكاناً مناسباً لالتقاط الأنفاس، وحتى عندما تقلّصت معدته، شعر جوشي ببعض الإعجاب. كان عشرة، وربما أحد عشر ألف فارس روسي يسيرون معاً، وأعلام ذهبية وحمراء تخفق فوق رؤوسهم. سار عدد مماثل تقريباً خلفهم في قافلة أمتعة من العربات والجياد، والنساء، والفتية، والخدم. اختارت الشمس تلك اللحظة لتطل من بين الغيوم السوداء بشعاع قويّ أضاء الوادي، مما جعل الفرسان يلمعون.

كانـت جـياده‍م حيوانات ضخمة كثة الشعر، وتبدو بضعف حجم الجياد المغولية تقريباً. حتى الرجال الذين يمتطونها كانوا سلالة غريبة بنظر جوشي. كانوا يجلـسون كما لو أنهم من حجر، أقوياء البنية يرتدون ملابس معدنية ثقيلة تغطيهم مـن رؤوسهم حتى أقدامهم. لم تكن سوى عيونهم الزرقاء وأيديهم مكشوفة. كان الفرسان المدرّعون قد جاؤوا مستعدين للمعركة، يحملون رماحاً طويلة مثل حراب، لكن أطرافها تنتهي بقطع فولاذية. كانوا يقودون جيادهم مع توجيه أسلحتهم إلى الأعلى، وأعقابها مثبتة بقطع من الجلد خلف الركاب. استطاع جوشي رؤية فؤوس وسيوف تتدلى من أحزمة الخصر، وكان كل رجل يقود مطيته مع درع تشبه ورقة نبات معلّقة إلى سرجه. كانت أعلام مثلثة الشكل تخفق فوق رؤوسهم، وبدوا بحلة بهية بشرائطهم الذهبية وظلالهم.

تمتم جوشي وهو ينظر إلى سحابة الغبار فوق رأسه: "لا بد من أنهم رأونا".

سمعه القائد يتكلم، واستدار في سرجه. "إنهم ليسوا رجال سهول يا جوشي. يكـادون لا يبـصرون عن مثل تلك المسافة. هل أنت خائف؟ إنهم ضخام جداً، هؤلاء الفرسان. كنت سأشعر بالخوف".

للحظـة، حدق إليه جوشي. بالرغم من ذلك، كان تسوبودي يتكلم وضوء يلمع في عينيه. كان القائد لا يزال في العقد الثاني من عمره، ويافعاً على قيادة مثل ذلـك العدد. بالرغم من ذلك، لم يكن تسوبودي خائفاً. كان جوشي يعرف أن القائد لا يأبه أبداً لجياد الحرب الضخمة أو الرجال الذين يمتطونها. بدلاً من ذلك، كان يثق بسرعة الذئاب الفتية وسهامهم.

كانت جاغون مؤلفة من عشر أربان، يقود كل منها ضابط. بناءً على أوامر تـسوبودي، كان هؤلاء الرجال العشرة فقط يرتدون دروعاً ثقيلة. كان الآخرون يـرتدون قمصاناً جلدية تحت ملابس مبطّنة. كان جوشي يعرف أن جنكيز يفضل الـدرع الثقيلة على الخفيفة، لكن بدا أن رجال تسوبودي يستطيعون تدبر أمرهم، وكـان بمقدورهم الضرب ودفع جيادهم للجري بسرعة أكبر من المحاربين الروس الـذين يفتقرون إلى الرشاقة و لم يكن هناك خوف بين صفوفهم. مثل تسوبودي، نظروا بتعطش إلى أسفل السفح نحو الرتل وانتظروا أن يراهم هؤلاء.

قال تسوبودي: "هل تعرف أن والدك أرسل خيّالاً لاستدعائي إلى الوطن؟".

أومأ جوشي: "كل الرجال يعرفون".

"كنت آمل بالتوغل شمالاً أبعد من ذلك، لكنني رجل والدك. يأمرني فأطيعه، هل تفهم؟".

حدّق جوشي إلى القائد، متناسياً للحظة الفرسان الذين يسيرون في الوادي في الأسفل. قال، من دون أن يفصح وجهه عن شيء: "بالطبع".

اســـتدار تسوبودي، وألقى نظرة عليه، مستمتعاً بما يحدث. "آمل أنك كذلك يـــا جوشـــي. إن والـــدك رجل يُحتذى. أتساءل كيف سيتصرف عندما يرى ما أصبحت عليه".

للحظـــة، عصر الغضب وجه جوشي قبل أن تنفرج أساريره ويسحب نفساً عمـــيقاً. كان تسوبودي أباً له اكثر من والده من وجوه عديدة، لكن لم ينسَ ولاء الـــرجل الحقيقـــي. بـــناءً على أمر من جنكيز، سيقتله تسوبودي. نظر إلى القائد الشاب، وفكّر في أنه سيُظهر بعض الأسف، لكن ليس بما يكفي ليمنعه من قتله.

قـــال جوشي: "سيحتاج إلى رجال أوفياء يا تسوبودي. لن يطلب منا والدي العودة لنبني أو نرتاح. سيكون قد وجد أرضاً جديدة يريد تمزيقها أشلاء. إنه مثل الذئب، جائع دائماً، حتى عندما تكون معدته ممتلئة".

تقطـــب حاجبا تسوبودي عبوساً عندما سمع الخان يُوصَف بتلك الطريقة. في ثلاثة أعوام، لم يكن قد رأى تأثراً عندما يتكلم جوشي عن والده، بالرغم من بعض الحـــزن الـــذي اضحى أقل أحياناً بمرور المواسم. كان جنكيز قد أرسل فتىً، لكن رجلاً سيعود إليه، وكان تسوبودي قد عمل جاهداً لضمان ذلك. بالرغم من كل المـــرارة التي كانت تعتصره، كان جوشي رابط الجأش في المعركة والرجال ينظرون إليه بفخر. كان سيبلي بلاءً حسناً.

قال تسوبودي: "لدي سؤال آخر لك يا جوشي".

ابتسم جوشي للحظة.

رد: "لديك سؤال دائماً أيها القائد".

"ســـؤالي يا جوشي هو التالي: هؤلاء الفرسان لا يشكلون شيئاً بالنسبة إليّ. لقـــد اســـتدعاني والدك إليه ويمكنني السير نحوه الآن، فيما لا تزال الجياد بدينة من أعشاب الصيف. إذاً، لماذا نحن هنا، أننتظر التحدي؟".

كانت عينا جوشي مغلقتين عندما رد. "سيقول والدي إن هذا ما نفعله، وإنه لا توجد طريقة يمضي الرجل بها حياته أفضل من خوض حرب مع أعداء. ربما يقول أيضاً إنك تستمتع بالأمر أيها القائد، وذلك هو كل السبب الذي تحتاج إليه".

لم تهتز نظرة تسوبودي. "ربما سيقول ذلك، لكن هل ستختبئ خلف كلماته. لماذا نحن هنا يا جوشي؟ لا نريد جيادهم الضخمة، حتى ولو للحصول على اللحم. لماذا أخاطر بحياة المحاربين لتدمير الرتل الذي تراه؟".

هزّ جوشي كتفيه بغضب. "إذا لم يكن ذلك هو السبب، فأنا لا أعرف".

قال تسوبودي بجدّية: "من أجلك يا جوشي. عندما تعود إلى والدك، ستكون قد رأيت كل أنواع المعارك، في كل المواسم. لقد استولينا سوياً على بلدات، وقمنا بشن غارات على مدن؛ تجولنا في الصحراء، وفي غابات كثيفة جداً لم نستطع عبورها سوى بصعوبة بالغة. لن يجد جنكيز نقطة ضعف فيك". ابتسم تسوبودي لمدة وجيزة من تعبير وجه جوشي المتصلّب كالصخر. "سأكون فخوراً عندما يقول الرجال إنك تعلمت مهاراتك تحت قيادة تسوبودي الباسل".

كان على جوشي أن يبتسم لسماع اللقب من تسوبودي نفسه. لم تكن هناك أسرار في المعسكر.

تمتم تسوبودي، وهو يشير إلى مراسل بعيد يتجه مسرعاً إلى مقدمة الرتل الروسي: "هذا هو. لدينا عدو يقود من المقدمة، إنه رجل شجاع جداً".

استطاع جوشي أن يتخيل حالة الفزع المفاجئة التي انتشرت بين الفرسان عندما نظروا إلى أعلى التلال، ورأوا المحاربين المغول. همهم تسوبودي بصوت خافت فيما كان صف كامل من المحاربين ينشقون عن الرتل، ويبدأون بتسلق المنحدر، ورماحهم الطويلة جاهزة. كشف عن أسنانه عندما بدأت المسافة تضيق. كانوا يهجمون صعوداً، بكل غطرستهم. كان متلهفاً لتلقينهم درساً.

"هل لديك بيتر يا جوشي؟ أرني إياه".

مد جوشي يده إلى الخلف حيث كان حامل قوسه مربوطاً إلى السرج. رفع غطاءً من الجلد القاسي، وأخرج صفيحة من الذهب القاسي منقوشاً عليها رأس ذئب. كانت ثقيلة إذ يبلغ وزنها عشرين أوقية (567 غراماً)، لكنها صغيرة بما يكفي ليمسكها بيده.

تجاهـل تسوبودي الرجال الذين يندفعون بعناد إلى أعلى التل لمواجهة الابن البكر لجنكيز.

"لـديك تلك والحق بقيادة ألف رجل إلى جانبـي يا جوشي. لدى أولئك الـذين يقودون جاغون قطعة من الفضة الخالصة، مثل هذه". رفع تسوبودي قطعة أكبر من معدن ضارب إلى البياض. "الفرق أن البيتز الفضية تُمنح لرجل يتم انتخابه من قِبَل ضباط كل أربان تحت قيادته".

قال جوشي: "أعرف ذلك".

ألقى تسوبودي نظرة إلى الخلف نحو الفرسان الذين يقتربون بكد.

"لقـد طلب ضباط هذا الجاغون أن تقودهم يا جوشي. لا دخل لي بذلك". مدّ البيتز الفضية وأمسك بها جوشي بفرح، وأعاد القطعة الذهبية إلى حيث كانت. كان تسوبودي رزيناً ورسمياً بشكل متعمد، لكن عينيه كانتا تلمعان.

"عـندما تعـود إلى والـدك يا جوشي، ستكون قد اختبرت كل الصفوف والمواقـع". أومأ القائد برأسه، وأشار في الهواء بيده. "الميمنة، الميسرة وفي القلب". نظـر من فوق رؤوس الفرسان المجهدين الذين يدفعون جيادهم لصعود التل، ورأى جسماً يتحرّك على صخرة كبيرة من بعيد. أومأ تسوبودي بحدّة.

"حان الوقت. تعرف ما ينبغي لك فعله يا جوشي. القيادة لك". من دون أن يتفوه بكلمة أخرى، ربت تسوبودي على كتف الشاب، واستدار عائداً بفرسه من حيث أتى، وترك جاغون الفرسان برعاية قائد شعر بالعصبية فجأة.

شعر جوشي بالنظرات المجتمعة لمئة رجل على ظهره فيما كان يكافح لإخفاء سـعادته. كانـت كل أربان من عشرة محاربين تنتخب رجلاً ليقودها، ثم ينتخب هؤلاء الرجال واحداً من بينهم ليقود المئة في حرب. كان الاختيار شرفاً بحدّ ذاته. همـس صـوت في أذنه أنهم لا يحترمون سوى والده، لكنه حطّمه، رافضاً الشك فيهم. كان قد كسب ذلك الحق وزادت ثقته بنفسه.

صرخ جوشي: "خطوط الأقواس". قبض على اللجام بقوة لإخفاء توتره فيما كـان الـرجال يشكلون خطاً واسعاً حتى يكون لكل قوس مجال خاص به. نظر جوشـي من فوق كتفه، لكن تسوبودي كان قد غادر فعلاً، وتركه وحده. كان الـرجال لا يزالون يترقبون، لذا ضبط نفسه حتى لا يتم وجهه عن شيء، مدركاً

أنهـــم ســـيتذكرون هدوءه. بينما كانوا يرفعون أقواسهم، رفع قبضته منتظراً وقلبه يخفق بقوة في صدره.

عند أربعمئة خطوة، أنـــزل جوشي قبضته، واندفعت أول موجة من السهام في الهـــواء. كانـــت المسافة بعيدة جداً، وتحطمت السهام التي وصلت إلى الفرسان على دروعهم، التي كانت تغطي كامل أجسادهم، حيث كان الرجل محمياً بأكمله تقريباً. أظهرت الدروع الطويلة الغاية منها عندما ضربت موجة ثانية الصفوف من دون إسقاط فارس واحد.

لم تكـــن الجياد القوية سريعة، لكن الفجوة ضاقت بالرغم من ذلك، وراقب جوشـــي ما يحدث. عند مئتي خطوة، رفع قبضته مرة أخرى وانتظرت السهام المئة الأخرى على أوتارها المشدودة. عند تلك المسافة، لم يكن يعرف إن كانت دروع الفرسان ستنقذهم. لم يكن شيء آخر نافعاً من قبل.

صرخ: "أطلقوا كما لو أنكم لم تمتلكوا سهماً من قبل".

ابتسم الرجال حوله، وانطلقت السهام فجأة. فرع جوشي بشكل فطري من السهام التي مرّت بسلام فوق رؤوس الأعداء، كما لو أن حمقى خائفين أطلقوها. لم تصب سوى بعض السهام هدفها، وطرح عدد أقل جواداً أو رجلاً أرضاً. آنذاك استطاعوا سماع صوت الهجوم ورؤية الصفوف الأولى تبدأ بخفض رماحها استعداداً للقتال.

في مواجهتهم، أخفى جوشي خوفه بثورة غضب مفاجئة. لم يكن يريد شيئاً أكثـــر من إشهار سيفه، ودفع مطيته لنـــزول السفح وملاقاة العدو. لكنه ارتعش إحباطاً، وأصدر أمراً مختلفاً.

صرخ جوشي: "تراجعوا نحو التلال". شد اللجام بقوة، وانطلق جواده يعدو. صـــرخ أفراد الجاغون كلٌ على حدة، واستداروا بفوضى ليلحقوا بقائدهم. خلفه، سمع صرخات ابتهاج وشعر بغصة في حلقه، بالرغم من أنه لم يعرف إن كانت من الخوف أو الغضب.

طـــرف إيليا ماجيف بعينيه لإخراج العرق منهما عندما رأى المغول يهربون مثل الجبناء. كما كان قد حدث معه ألف مرة من قبل، كان قد أطلق العنان لمطيته

وربّــت علــى صدره. وشعر بالقوة عندما كان فرسانه يندفعون فوق التل. كان رجالــه قد غادروا مدينة الكاتدرائية قبل عامين، حاملين الرسائل شرقاً إلى الأمير قبــل أن يــتجهوا أخــيراً إلى الجنوب، ويبدأوا الرحلة الطويلة التي ستقودهم إلى القدس. كان إيليا قد رهن حياته مع آخرين للدفاع عن المكان المقدّس من الكافرين الذين يسعون لتدمير مقدّساته.

كــان ينبغي أن تكون رحلة دينية قبل أن يستفيدوا من مهاراتهم في استعمال الــسلاح ضد رجال ملحدين. بدلاً من ذلك، تعرضوا لهجمات متكررة من جيش المغول الذي يغزو المنطقة. تحرّق إيليا شوقاً للاقتراب منهم بما يكفي لقتلهم، وانحنى إلى الأمام على السرج فيما كانت مطيته تعدو مسرعة خلف الخيّالة الهاربين.

همس لنفسه: "امنحني إياهم يا مولاي، وسأكسر عظامهم وأسحقهم".

كــان المغول يسبقونهم بمسافة كبيرة على السهل البعيد، لكن الجياد الروسية كانــت قــوية، وضاقت الفجوة تدريجياً، وشعر إيليا بمزاج الرجال من حوله فيما كانوا يصرخون وينادون بعضهم بعضاً. كانوا قد فقدوا رفاقاً بعد إطلاق موجات من السهام عليهم في الظلام. كان المستطلعون قد اختفوا من دون أثر، بل ما هو أسوأ، فقــد تم العــثور عليهم مثخنين بجراح تجعل المرء يتقيأ. في عام، كان إيليا قد رأى بلدات محترقة أكثر مما يستطيع أن يتذكر، وكانت سحب الدخان الأسود تجذبه في مطاردة يائسة. كان المغول المغيرون يختفون دائماً من دون أثر بحلول وقت وصوله. حــثّ مطيته على الجري بأقصى سرعتها، بالرغم من أن أضلاع الحيوان المتعب كانت تندفع بقوة آنذاك، وطارت خثرات من لعاب أبيض لتضرب ذراعيه وصدره.

صــرخ إيلــيا في الباقين: "قُدماً يا إخوان!". كان يعرف أنهم لن يتعبوا من مطــاردة رجــال القبائل، على الأقل أولئك الذين أصبحوا في متناول اليد. كان المغــول يهيــنون كــل ما يقدّره إيليا، من شوارع نوفجورود الهادئة، إلى سكون وجلال الكاتدرائية.

كــان المحاربــون المغول يتسابقون أمامه بفوضى عبر سحابة من الغبار الذي أثاروه بأنفسهم. أصدر إيليا أوامره، وشكّل رجاله رتلاً متماسكاً، خمسين صفاً من عشرين رجلاً جنباً إلى جنب. ربطوا الأعجمة إلى سروجهم، وانحنوا إلى الأمام فوق أعناق الجياد مع الدروع والرماح، وحثّوا الحيوانات على المضي قدماً بركبهم فقط.

بالتأكيد لم تكن هناك مثل تلك القوة من الرجال والحديد في تاريخ العالم! أظهر إيليا أسنانه متوقعاً إراقة دماء.

قادهم درب المغول الهاربين إلى خلف تلٍّ مغطى بأشجار الزان والدردار. بينما كان إيليا يصرخ عالياً، رأى شيئاً يتحرك في الأجمة الخضراء. لم يكن لديه وقت ليصرخ محذراً قبل أن يتملئ الجو بسهام تطنّ في الهواء. حتى عندها، لم يتردد. كان قد رأى السهام تتكسر على دروع رجاله. لذا، أصدر أمراً بالحفاظ على التشكيل، مدركاً أنهم يستطيعون شق طريقهم بالقوة.

صهل جواد، وارتطم به من جهة اليسار، ضرب قدمه، وكاد يُسقطه عن السرج. أطلق إيليا لعنة من الألم، وسحب نفساً عميقاً فيما كان يشاهد الفارس يتعلق بمطيته متررّحاً. جاءت موجة إثر أخرى من السهام من جهة الأشجار، وبرعب شاهد رجاله يسقطون عن سروجهم. اخترقت السهام الدروع المصنوعة من السلاسل كما لو أنها كتان، وجعلت دماء الرجال تسيل بغزارة. صرخ إيليا عالياً، وركل مطيته المجهدة للتقدم إلى الأمام. أمامه، رأى رتل مغول يقف بانتظام شديد، وقائده يحدّق إليه مباشرة. لم يتوقف المغول لشد أقواسهم. انطلقت جيادهم إلى الأمام معاً، وأطلق المحاربون السهام في أثناء قيادتهم لها.

شعر إيليا بسهم يضرب ذراعه، ثم اشتبكت القوتان معاً، وتمالك نفسه. أصاب برمحه صدر أحد المحاربين الأعداء فما كان من ذلك الأخير إلا أن سحب الرمح من حيث انغرز في صدره وانتزعه من قبضة إيليا حيث شعر هذا الأخير أن أصابعه قد تكسرت جراء ذلك. شهر سيفه بيد خدرة للغاية تكاد لا تقوى على حمله. كان الغبار الأحمر في كل مكان. وفي الوسط، كان المغول يتحركون ويرسلون سهامهم بهدوء إلى الصفوف المكتظّة برجاله.

رفع إيليا ترسه الذي تراجع إلى الخلف بعد أن أصابه سهم، وقد نفذ الرأس بوضوح من الخشب. خرجت قدمه اليمنى من الركاب وتمايل، بعد أن فقد كل توازنه. ضربه سهم آخر في فخذه قبل أن يستعيد توازنه وصرخ ألماً، ورفع سيفه فيما كان يتقدم من رامي السهام.

شاهده المغولي يتقدم نحوه، وكان وجهه خالياً من أي عاطفة. لم يكن أكثر من مجرد فتى غير ملتحٍ، كما رأى إيليا. لوّح الروسي بسيفه، لكن المغولي تفادى

الضربة، ودفعه في أثناء مروره بجانبه. دار العالم بصمت للحظة ثم وقع إيليا أرضاً، مذهولاً.

كانـــت قطعـــة الأنف من خوذته قد اندفعت إلى الداخل من تأثير الضربة، وكسرت أسنانه الأمامية. نهض إيليا، غير قادر على الرؤية من الدموع، وبصق دماً وقطعـــاً مـــن أسنانه. التوت قدمه اليسرى، وتعثر ليقع على الأرض، وهو بأمس الحاجة إلى العثور على السيف الذي كان قد سقط من يده.

سمـــع صـــوت وقع حوافر خلفه في اللحظة التي رأى فيها السلاح ملقى على الأرض الرملية. مدّ يده إلى القلادة التي تزيّن صدره، وتمتم بينما كان سيف المغولي يهـــوي علـــى عنقه، ويبتر رأسه. لم يعش ليرى بقية رجاله يُذبحون، والذين كانوا قـــليلين وبطيـــئين جـــداً للدفاع عن أنفسهم ضد محاربـــي تسوبودي، أحد قادة جنكيزخان.

تـــرجل جوشي ليتفحّص القتلى، بعد أن أمر اثني عشر رجلاً بتفتيش المنطقة، وتقـــديم تقريـــر عن حركة الرتل الرئيس. لم تكن الدروع الروسية المصنوعة من الســـلاسل قد أنقذتهم. كانت العديد من الجثث الممدة على الأرض قد تلقت أكثر مـــن ضربة واحدة. وحدها الخوذات بقيت سليمة. لم يستطع جوشي العثور على رجـــل واحـــد مات من جراء سهم اخترق رأسه. التقط خوذة ومرّر إصبعه فوق قطعة لامعة من المعدن حيث كان سهم قد ارتد عنها. كان تصميمها جيداً.

فكّـــر جوشي ساخراً في أن الكمين قد جرى كما خطط له تسوبودي تماماً. بـــدا أن القائد يقرأ أذهان أعدائه. تنفس جوشي بعمق، وبذل جهداً للسيطرة على الرعـــشة الـــتي يشعر بها بعد كل معركة. لن يكون جيداً أن يراه الرجال يهتز و لم يكـــن يعـــرف أنهـــم يراقبونه بمشي وقبضتاه مغلقتان ولا يرون سوى أنه لا يزال متعطشاً للقتال. فهو رجل لا يرضى أبداً بغض النظر عما يكون قد حقّقه.

كانت ثلاثة جاغونات أخرى قد شاركت في الكمين. رأى جوشي الضباط يخرجون من بين الأشجار حيث كانوا قد تواروا عن الأنظار منتظرين طوال الليل. بعد ثلاثة أعوام مع تسوبودي، كان يعرف كل رجل مثل أخ له، كما كان جنكيز قد أخبره أن يفعل ذات مرة. كان ميخالي وألتان رجلين قويين ووفيين، لكنهما لا

يتمتعان بخيال واسع. أومأ جوشي لكليهما فيما كانا يقودان فرسيهما للسير خبباً نحو حقل الموت. كان آخرهم، كارا، محارباً قصيراً قوياً وعلى وجهه ندبة من جرح قديم. بالرغم من أنه رسمي تماماً، إلا أن جوشي شعر ببغض لم يستطع فهمه. ربما كان الرجل الذي يحدّق إليه مستاءً منه بسبب والده. كان جوشي قد تعرض للكثير من الشبهات لارتقائه الصفوف. لم يكن تسوبودي بارعاً بالطريقة التي جعل بها جوشي يشارك في كل خطة وخدعة، كما كان جنكيز قد فعل من قبل مع الشاب من يورانخي الذي أصبح قائداً لديه. كان تسوبودي يتطلع إلى المستقبل فيما رجال مثل كارا يتخيلون أنهم لا يرون سوى أمير شاب مدلل، تتم ترقيته بغض النظر عن مهاراته.

فيما كان كارا يتجول في الأرجاء، ويهمهم لرؤية الفرسان القتلى، أدرك جوشي أنه لم يعد قائد الرجل. كان قد قبل القطعة الفضية والمعركة تلوح في الأفق ولا يزال يشعر بالشرف لوضع مئة حياة في عهدته. كان ذلك يعني، لبعض الوقت على الأقل، أن كارا يستطيع التصرف كما يحلو له بوجود ابن الخان. نظرة واحدة كانت كفيلة بإقناع جوشي أن المحارب قصير القامة والنحيل قد فكّر في الأمر.

قال كارا فجأة: "لماذا ننتظر هنا؟ سيهاجم تسوبودي فيما نحن نشم رائحة الأعشاب ونقف من دون حراك".

استاء جوشي من الكلمات، لكنه تكلم بلطف، كما لو أن كارا قد ألقى عليه التحية. إن كان الرجل قائداً حقيقياً، ينبغي له أن يبدأ آنذاك رحلة العودة إلى تسوبودي. بلمح البصر، فهم جوشي أن كارا لا يزال ينتظر تلقي الأوامر منه، بالرغم من تراجع مرتبته. ألقى نظرة خاطفة على ميخالي وألتان، ووجد أنهما ينتظران أيضاً. ربما كانت تلك هي عادتهما، لكنه شعر بأن فكرة قد بدأت تتشكل وعرف أنه لن يضيّع الفرصة.

قال: "هل ترى دروعهم يا كارا؟ القطعة الأولى التي تتدلى من الخوذة، وتغطي وجوههم ما عدا العينين. القطعة الثانية من الحلقات الحديدية تصل إلى ركبهم".

رد كارا وهو يهز كتفيه استخفافاً: "لم توقف سهامنا. عندما يسقطون عن جيادهم، يتحركون ببطء يجعل القضاء عليهم سهلاً. لسنا بحاجة إلى مثل تلك الحماية الهزيلة، كما أعتقد".

ابتسم جوشي للرجل، مستمتعاً بالإرباك الذي تسبب له به. "نحتاج إليها فعلاً يا كارا".

عالـياً في الـتلال فوق الوادي، وقف تسوبودي على قدميه، وفرسه تتنفس بـصوت مـسموع بين إبر الصنوبر الميتة المبعثرة على الأرض. كان حوالى خمسة آلاف رجـل يرتاحون حوله، وينتظرون قراره. كان ينتظر مجيء المستطلعين الذين أرسـلهم. كـان مئـتان منهم قد انتشروا في كل الاتجاهات، وكانت تقاريرهم ستسمح للقائد بتشكيل صورة عن المنطقة على بعد أميال عديدة عنهم.

كـان يعرف أن كمين جوشي قد نجح قبل أن ينتهي تقريباً. لم ينجُ من ألف فـارس للعدو سوى عشرة فقط، لكن العدد بالرغم من ذلك كان لا يزال كبيراً. كـان رتل الفرسان يتحرك ببطء عبر وادي النهر، ينتظر المجموعة المهاجمة أن تعود منتـصرة. لم يكونـوا قد أحضروا رماة سهام إلى البراري، وهي غلطة ستكلّفهم الكـثير. بالـرغم من ذلك، كانوا رجالاً ضخاماً وأقوياء جداً ولم يكن تسوبودي ليخاطر بدخول مواجهة مباشرة معهم. كان قد رأى فرساناً مثخنين بالجراح تابعوا القتال حتى قضوا على اثنين أو ثلاثة من رجاله. كانوا محاربين شجعان جداً، لكنه فكّـر في أن ذلـك لـن يكـون كافياً. يتقدم الرجال الشجعان إلى الأمام عندما يتعرضون لهجوم، وكان تسوبودي يخطط وفقاً لذلك. يمكن القضاء على أي جيش في الظروف المناسبة، وقد كان واثقاً من ذلك. ليس جيشه، بالطبع، لكن أي جيش آخر.

عاد اثنان من المستطلعين يقودان فرسيهما بأقصى سرعة لتحديد أحدث موقع للقـوة الروسـية. جعلهما تسوبودي يترجلان وطلب من أحدهما أن يرسم الموقع على الأرض بعصا حتى يتأكد من عدم وجود سوء فهم.

سأل: "كم مستطلعاً لديهم؟".

رد المحـارب الذي يرسم بالعصا من دون تردد: "عشرة في الصفوف الخلفية أيها القائد، منتشرون على مسافة كبيرة. عشرون في المقدمة وعلى الجانبين".

أومأ تسوبودي، فقد عرف ما يكفي ليتحرك أخيراً. "ينبغي أن يموتوا، خاصة أولـئك خلـف رتل الفرسان. يجب القضاء عليهم عندما تكون الشمس في كبد

السماء وعدم ترك حتى واحد منهم يهرب. سأهاجم حالما يُلوِّح بالراية أنه قد تم القضاء على المستطلعين. كرّر ما أمرتُ به".

تكلم المستطلع بسرعة، وبكلام واضح كما كان قد تدرب. لم يكن تسوبودي يسمح بحدوث ارتباك في الميدان. بالرغم من كل فائدة الرايات للاتصال عبر مسافات بعيدة، كان مضطراً إلى الاعتماد على الفجر والقمر والغروب كعلامات وحيدة على التوقيت. نظر إلى الأعلى عبر الأشجار فيما كان يفكر، ورأى أن الشمس لم تكن بعيدة عن وقت الظهيرة. لن يطول الأمر وشعر بالتشنّج المعتاد في معدته الذي يظهر قبل المعركة. كان قد قال لجوشي إن ذلك لتدريبه فتلك هي الحقيقة، ولكنها لم تكن الحقيقة كاملة. كان تسوبودي يعرف أن الفرسان يسافرون مع أدوات كثير محمولة في قافلة أمتعتهم. كان الحدّادون أكثر قيمة من أي حرفي آخر يمكن أسره، وكانت قد وصلت إلى تسوبودي تقارير تفيد أن هناك عربات حديدية تنفث ناراً في أثناء سيرها.

ابتسم تسوبودي لنفسه، مستمتعاً بالإثارة المتزايدة. مثل جنكيز، لم يكن يجد متعة في تدمير البلدات والقرى. كان ذلك شيئاً ينبغي القيام به، بالطبع، مثل رجل سيصب ماءً مغلياً على وكر نمل. كانت تلك هي المعارك التي يريدها تسوبودي، والتي تثبت أو تزيد كل منها مهاراته. لم يكن قد وجد متعة أكبر من التفوق على أعدائه في التخطيط، وإرباكهم، وتدميرهم. كان قد سمع عن الرحلة الغريبة التي كان الفرسان يقومون بها، إلى أرض بعيدة جداً لا يعرف أحد اسمها. لم يكن ذلك مهماً. لم يكن جنكيز ليسمح لرجال مسلحين بعبور أرضه؛ وكانت كل الأراضي له.

مسح تسوبودي الرسومات عن الأرض بطرف حذائه. ثم نظر إلى المستطلع الثاني الذي كان ينتظر بصبر خائفاً من القائد.

أمره تسوبودي: "اذهب إلى جوشي، واكتشف سبب تأخره. سيكون إلى يميني في هذا الهجوم".

قال المستطلع: "كما تشاء يا مولاي". وانحنى قبل أن يتراجع إلى جواده، وينطلق عبر الأشجار بسرعة كبيرة. نظر تسوبودي عبر الأغصان إلى الشمس. كان سيتحرك قريباً جداً.

مــع وقــع حوافر وصهيل عشرة آلاف جواد، نظر أناتولي ماجيف من فوق كــتفه إلى السلسلة الجبلية التي كان إيليا الصغير قد اختفى خلفها. إلى أين ذهب شقيقه؟ كان لا يزال يفكر فيه كإيليا الصغير، بالرغم من حقيقة أن شقيقه الأصغر يفــوقه قوة. هزّ أناتولي رأسه ضجراً. كان قد وعد والدته أنه سيعتني به. سيلحق إيليــا بــه، وكان واثقاً من ذلك. لم يكن قد تجرأ على إيقاف الرتل بعد أن ظهر المغول في المنطقة. كان أناتولي قد أرسل مستطلعين في كل الأرجاء، لكن بدا أنهم اختفوا أيضاً. نظر خلفه مجدداً، وأجهد عينيه بحثاً عن رايات ألف رجل.

أمامــه، ضاق الوادي إلى ممر عبر التلال يمكن أن يكون جزءاً من الفردوس. كانــت الــسفوح خــضراء والأعشاب كثيفة جداً لا يستطيع رجل اقتلاعها من جذورها في نصف يوم. أحب أناتولي ذلك المكان، لكن عينيه كانتا دائماً موجّهتين نحو الأفق، ويوماً ما سيرى القدس.

لقــي المستطلعون حتفهم قبل ذلك، كما كان يخشى. أطلق أناتولي لعنة، ولم يستطع سوى النظر إلى الخلف بحثاً عن إيليا مرة أخرى.

تعالــت صرخات من الخلف، واستدار أناتولي تماماً في السرج، مطلقاً لعنات لرؤية مجموعة أخرى من الخيّالة تقترب منهم بسرعة. كيف استطاعوا الاقتراب منه من دون أن يلاحظهم أحد؟ من غير المنطقي أن يكون العدو يتحرك مثل الأشباح عبر التلال.

كان يعرف أن رجاله يستطيعون بعثرة المغول إذا هاجموهم. آنذاك، كانوا قد فكّــوا دروعهم ورفعوها عالياً منتظرين أوامره. بوصفه الابن البكر لبارون، كان أناتــولي الــضابط الأعلــى. بالفعــل، كانت عائلته من موّلت الرحلة بأكملها، واستعملت بعضاً من ثروتها الطائلة لكسب ود الأديرة التي كانت قد أصبحت قوية جداً في روسيا.

كان أناتولي يعرف أنه لا يستطيع شن هجوم وقافلة الأمتعة والصفوف الخلفية مكــشوفة. لم يكــن مــن شيء يستطيع أن يوهن عزيمة رجال مقاتلين أكثر من تعرضــهم لهجــوم من الأمام والخلف في الوقت نفسه. لذا، أمر ثلاثة من ضباطه بالعــودة بوحداتهم ومعدّاتهم لحماية الصفوف الخلفية. عندما استدار، لفتت حركة على التلال انتباهه وابتسم ارتياحاً. من بعيد، كان صف من الجياد الروسية الثقيلة

يعــود إلــيهم من التلال، والرايات تخفق في النسيم. قدّر أناتولي المسافات، واتخذ قراره، ثم استدعى إليه مستطلعاً.

"اذهـــب إلى شـــقيقي، واطلب منه أن يضرب القوة التي تتبعنا. ينبغي له أن يمنعهم من الاشتراك في المعركة".

مـــضى الشاب مسرعاً، لا يحمل درعاً أو أسلحة. استدار أناتولي إلى المقدمة، وقـــد ازدادت ثقـــته بنفسه. مع تأمين الصفوف الخلفية، كان يفوق أولئك الذين يقـــودون جيادهم بأقصى سرعتها نحوه عدداً. كانت لحظات فقط قد انقضت منذ أصدر أوامره ويعرف أنه يستطيع شق صفوف المغول مثل قبضة مدرعة.

وضـــع أناتـــولي رأس رمحه الطويل فوق أذني جواده. "تشكيل الهجوم! إلى الأمام!".

دفع مستطلع أناتولي مطيته للجري بأقصى سرعة عبر الأرض الرملية. كانت الـــسرعة كل شيء مع توجه جيشين نحو الرتل. قاد مطيته وجسده منخفض قدر ما يستطيع، ورأس جواده يرتفع وينخفض مع رأسه. كان شاباً ومتحمساً وكاد يـــصل إلى رجـــال إيليا ماحيف قبل أن يتوقف مصدوماً. كان أربعمئة فقط قد عادوا من قمة التل، ويبدو عليهم أنهم عانوا الأمرّين. ظهرت بقع بنية من الدماء علـــى العديد منهم عندما اقتربوا وكان هناك شيء غريب بالطريقة التي يقودون الجياد بها.

فهم المستطلع فجأة وشد لجام جواده رعباً. كان الوقت قد فات. ضربه سهم في صدره وسقط فوق أذني الجواد، مما جعل الحيوان ينطلق مسرعاً.

لم ينظـــر جوشـــي والمغول الآخرون إلى الجسد الخائر عندما تجاوزوه. كان نـــزع الدروع المصنوعة من السلاسل عن أجساد القتلى قد استغرق وقتاً طويلاً، لكـــن الخدعة نجحت. لم تخرج قوة للتصدي لهم وكان الروس، بالرغم من أنهم لم يكونـــوا يعرفون ذلك، يتعرضون للهجوم من ثلاث جهات. عندما أصبح السفح أقـــل انحـــداراً، دفع جوشي عقبيه بردفي جواده، وأخرج الرمح الثقيل من حقيبته الجلدية. كان شيئاً ثقيلاً ينبغي له أن يبذل جهداً كبيراً للحفاظ على توازنه في أثناء اندفاعه ورجاله نحو الخاصرة الروسية.

كان أناتولي يقود جواده بأقصى سرعة، بعد أن أزهق بواسطته أرواح رجال يبلغ مجموع أوزانهم أكثر من نصف طن من اللحم والحديد تتركز في رأس الرمح. رأى الـــصفوف الأمامية تهتز عندما أطلق الرماة المغول سهامهم الأولى. كان العدو ســـريعاً، لكن الرتل لم يكن يستطيع التوقف أو حتى تغيير الاتجاه مع تلك السرعة. كانـــت ضوضــــاء ارتطام السهام بالدروع ووقع الحوافر تصم الآذان، ولكنه سمع صـــرخات خلفه، لذلك استدار لاستيضاح الأمر. كان القائد، ومع انجلاء الموقف، قـــد هـــزّ رأسه رعباً. راقب إيليا وهو يهاجم الخاصرة الرئيسة، ويقضي على كل رجل كان قد رهن نفسه لعائلة ماجيف في الرحلة هذه.

فغر أناتولي فاه دهشة، ورأى أن الرجال أقصر قامة، ويرتدون دروعاً حديدية ملطخـــة بالـــدماء. كان البعض قد فقدوا خوذهم في الاشتباك الأول لتكشف عن وجـــوه مغولـــية تصرخ. امتقع لونه خوفاً؛ عرف أن شقيقه لقي حتفه وأن الهجوم المـــزدوج ســـيسحق الصفوف الخلفية. لم يستطع الاستدارة وبالرغم من أنه صرخ بأوامره كالمسعور، إلا أن أحداً لم يسمعه.

في الأمـــام، تـــركهم المغول يتقدمون، وأطلقوا سهاماً بالآلاف نحو الفرسان الروس. تحطّمت الدروع، واهتز الرتل مثل حيوان مجروح. سقط الرجال بالمئات. كان الأمر يشبه منجلاً يتحرك من مقدمة الرتل، ويشق طريقه عبر رجال أحياء.

في الخلف، هاجم المغول قافلة الأمتعة، وقتلوا أي شخص على العربات يرفع ســـلاحاً. جاهـــد أناتولي ليفكر، وليستوضح التفاصيل، لكنه كان محاصراً من قبل العدو. مزّق رمحه عنق الجواد، مسبباً جرحاً بليغاً أصابته منه دماء دافئة. لمع سيف، وتلقـــى أناتولي الضربة على خوذته، وكاد يفقد وعيه. ضربه شيء ما على صدره وفجـــأة لم يعد يقوى على التنفس، أو حتى على طلب المساعدة. كافح للحصول علـــى بعض الهواء، نفخة فقط، لكنها لم تأت وانهار، ارتطم بالأرض بقوة جعلته يفقد الإحساس بالألم.

بعد إشعال النيران في تلك الأمسية، قاد تسوبودي جواده عبر معسكر العشرة آلاف. كـــان قـــد تم تجريد القتلى من أي شيء ذي قيمة، وأسعد القائد الرجال برفـــضه حـــصته من الغنائم. بالنسبة إلى أولئك الذين كانوا لا يتلقون أجراً مقابل

المعـــارك الــتي يخوضونها، كان جمع القلادات، والخواتم، والجواهر الملطخة بالدماء شيئاً مباحاً في المجتمع الجديد الذي كان جنكيز يحاول إنشاءه. كان بمقدور الرجل أن يـــصبح ثـــرياً في جيش القبائل، بالرغم من أنهم كانوا يفكرون دائماً في معايير الجـــياد التي يستطيعون شراءها بتلك الثروات. كانت أدوات كير الفرسان هي ما تـــثير اهتمام تسوبودي، كما هي حال عربات النقل ذات العجلات، المصنوعة من الحديد والتي يعد إصلاحها أسهل من العجلات الصلبة التي يستعملها المغول. كان تسوبودي قد أمر صانعي الدروع الأسرى بعرض مهاراتهم على جماعته.

كان جوشي يتفحّص حافر فرسه المفضلة عندما وصل تسوبودي إليه. قبل أن يـــتمكن الشاب من الانحناء، أومأ تسوبودي برأسه، مانحاً إياه شرفاً كبيراً، ووقف الجاغون الذي قاده جوشي بفخر.

رفـــع تسوبودي يده ليرى جوشي البيتز الذهبية التي كان قد أخذها منه قبل الظهـــر، وقـــال: "لقد جعلتني أتساءل كيف يمكن للروس العودة من الموت. كان ذلك هجوماً شجاعاً. خذ هذه يا جوشي. تستحق ما هو أكثر من الفضة".

رمـــى بالبيتز الذهبية في الهواء والتقطها جوشي، وهو يحاول الاحتفاظ برباطة جأشه. وحده المديح من جنكيز نفسه كان أفضل في تلك اللحظة.

قـــال تسوبودي للرجال وجوشي على حدٍّ سواء: "سنرحل إلى الديار غداً. كونوا مستعدين عند الفجر".

الفصل الثاني



شعر تشاغاتي بحكّة تحت إبطه الأيسر، حيث سال العرق تحت درعه المفضل. بالرغم من أنه كان الابن الثاني للخان، إلا أنه شعر بأنه من غير الملائم أن يحك تلك المنطقة في أثناء انتظاره ملك كوريو.

خاطر بإلقاء نظرة خاطفة على الرجل الذي كان قد اصطحبه معه إلى مدينة سونغدو البعيدة المحاطة بالأسوار. كانت قاعة الملوك تختنق من حرارة منتصف النهار، لكن جيلم لم يُظهر أي انزعاج من درعه المصقولة. مثل أفراد الحاشية والحرّاس الملكيين، كان القائد المغولي يبدو كما لو أنه منحوت من الخشب.

كان تشاغاتي يسمع خرير ماء من بعيد، وتضخم الصوت الرقيق بشكل ما في الحرارة الخانقة والصمت. أصبحت الحكّة لا تُطاق وكافح للتفكير في شيء آخر. عندما استقرت نظرته على سقف عالٍ من الجص الأبيض وعوارض الصنوبر القديمة، ذكّر نفسه أن ليس هناك سبب يجعله يشعر بالخوف. بالرغم من مقامها الرفيع، لم تستطع سلالة وانغ التغلب على خارا – كيتاي عندما جاء هؤلاء القوم إلى أرضهم من مناطق تشن، وبنوا حصوناً لهم. لو أن جيلم لم يكن قد تطوّع بجيشه للقضاء عليهم، لكان ملك كوريو لا يزال حبيس قصره. بعمر الخمسة عشر عاماً، شعر تشاغاتي باعتداد غامض بالنفس من تلك الفكرة. كان يتمتع بكل فخر وغطرسة محارب شاب، لكنه كان يعرف أنهما في تلك الحالة مبرّران. كان جيلم وجيشه قد اتجها شرقاً لاكتشاف إن كانت هناك جيوش تستطيع الوقوف ضدهم ورؤية المحيط للمرة الأولى. كانوا قد وجدوا أعداء في خارا – كيتاي وأخرجوهم من كوريو مثل كلاب تُضرب بسياط. كان تشاغاتي يعرف أن الملك سيدفع جزية، سواء أكان قد طلب المساعدة أم لا.

بيـنما كـان يتعرق في الهواء الخانق، عذّب تشاغاتي نفسه بذكرى النسيم الـذي يهب من البحر في الجنوب. كانت الريح الباردة هي الشيء الوحيد الجيد في ذلـك الامـتداد الأزرق الواسـع برأيه. أعجب جيلم بسفن كوريون، لكن فكرة السفر بحراً أربكت تشاغاتي. إذا لم تكن الجياد تستطيع احتيازه، فلا فائدة ترجى مـنه. حـتى ذكرى المركب الملكي الذي يرسو في الميناء جعلت معدته تتقلص.

رنّ جـرس في الساحة، وتردّد صداه عبر الحدائق حيث كان النحل يطنّ في خلايا حول زهر السنط. تخيل تشاغاتي رهباناً بوذيين يدفعون العارضة الخشبية التي تـضرب الجرس الكبير، واستقام قلقاً مرة أخرى من طريقة وقوفه. كان الملك في طـريقه إليهم، وسينتهي عذابه قريباً. كان يستطيع تحمل الحكة وقتاً أطول قليلاً: مجرد فكرة الارتياح جعلته يتحمّلها.

رنّ الجـرس مجـدداً، وفتح الخدم أبواباً خلفية، وملأ القاعة شذا الصنوبر مـن الـتلال المجـاورة. رغماً عنه، أطلق تشاغاتي تنهيدة عندما بدأت الحرارة الخانقـة تخـف. تحـرك الحشد برشاقة لرؤية الملك واستفاد تشاغاتي من لحظة الإلهـاء تلـك لـدس إصبعين تحت إبطه والحك بقوة. شعر بنظرة جيلم تستقر علـيه، وعـاد وجهه خالياً من أي تعبير عندما دخل عليهم ملك شعب كوريون أخيراً.

لم يكن أي منهم طويلاً، كما فكّر تشاغاتي، عندما شاهد الملك قصير القامة يدخل عبر بوابة عليها نقوش. افترض أن اسم الرجل هو وانغ، تيمناً بعائلته، لكن من يعرف أو يهتم بماذا يدعو هؤلاء القوم الهزيلون قصار القامة بعضهم بعضاً؟ نظر تـشاغاتي بدلاً من ذلك إلى خادمتين صغيرتين في حاشية الملك. كان جلدهما ذهبياً رقـيقاً، مما أثار اهتمامه أكثر من الرجل الذي تخدمانه. حدّق الشاب بينما كانت الفتاتان تدوران حول سيدهما، ترتبان ملابسه في أثناء جلوسه.

لم يكـن الملـك يـبدو قلقاً من المغول الذين يراقبونه فيما كان ينتظر انتهاء مـرافقتيه مـا تقومان به. كانت عيناه صفراوين داكنتين مثل عيني جنكيز تقريباً، بالرغم من أنهما كانتا تفتقران إلى قدرة والده على بث الرعب في قلوب الآخرين. مقارنة بالخان، كان ملك كوريون مجرد حمل وديع.

أخيراً، أنهت مرافقتاه عملهما، واستقرت نظرة الملك على الأربان المؤلف من عشرة محاربين كان جيلم قد أحضرهم معه. تساءل تشاغاتي كيف يستطيع الرجل تحمّل مثل ذلك القماش السميك في يوم صيفي.

عندما تكلم الملك، لم يفهم تشاغاتي كلمة مما قاله. مثل جيلم، كان عليه أن ينتظر الترجمة إلى لغة تشن التي كان قد اجتهد لإتقانها. حتى مع ذلك، لم يستطع أن يفهم المعنى كاملاً، وأصغى بإحباط متزايد. لم يكن يحب اللغات الأجنبية. بما أن الرجل يعرف كلمة جواد، فلماذا يستعمل غيرها؟ كان واضحاً أن تشاغاتي يفهم أن رجالاً من أراضٍ بعيدة ربما لا يعرفون الطريقة الصحيحة للكلام، لكنه شعر أنهم يدينون لأنفسهم بأن يتعلموا وألا يتابعوا الثرثرة من غير فائدة، كما لو أن كل اللغات متساوية القيمة.

قال المترجم بوقار مقاطعاً أفكار تشاغاتي: "لقد وفيتم بوعودكم. لقد احترق حصن خارا - كيتاي عدّة أيام، وقد ذهب هؤلاء القوم الفاسدون من الأرض السامية والجميلة".

أطبق الصمت مجدداً، وتململ تشاغاتي منزعجاً. كان يبدو أن بلاط كوريو يستمتع بالبطء. تذكر تجريبه لمشروب يدعونه نوك تشا. كان جبين جيلم قد تقطب عبوساً من الطريقة التي تجرّع بها تشاغاتي كوبه دفعة واحدة ومدّ يده طلباً لآخر. كان واضحاً أن السائل الأخضر ثمين للغاية ولا يمكن شربه مثل الماء. كما لو أن محارباً ينبغي له أن يهتم بالطريقة التي يتناول بها محارب آخر شرابه أو طعامه! كان تشاغاتي يأكل عندما يشعر بالجوع وغالباً ما ينسى حضور ولائم البلاط. لم يكن يفهم اهتمام جيلم بطقوس لا طائل منها، لكنه لم يكن قد عبّر عن أفكاره علانية. كان قد أخذ عهداً على نفسه أنه عندما يحكم أمة المغول، لن يسمح بتلك المظاهر. لم يكن الطعام شيئاً ينبغي التريث بشأنه، أو إعداده بألف نكهة. لم يكن غريباً أن شعب كوريو كانوا على قاب قوسين أو أقل من الهزيمة. سيكون مطلوباً منهم تكلّم لغة واحدة وتناول ربما طبقين أو ثلاثة أطباق مختلفة على الأكثر يجري تحضيرها بسرعة ومن دون جلبة. كان ذلك سيترك مزيداً من الوقت للتدرّب على استخدام الأسلحة وممارسة التمارين التي تجعل الجسد قوياً.

أخــيراً عندما تكلم جيلم، سكنت أفكار تشاغاتي الهائمة، وكان واضحاً أنه يزن كل كلمة. "من حسن الحظ أن خارا - كيتاي اختار مهاجمة فرق استطلاعي. التقت مصالحنا في تدميرهم. أتكلم الآن نيابة عن الخان العظيم، الذي أنقذ محاربوه بلدك من عدو فظيع. أين الجزية التي وعد بها وزراؤك؟".

مــع تواصل الترجمة، عدّل الملك جلسته قليلاً في كرسيه. تساءل تشاغاتي إن كــان الأحمــق قد شعر ببعض الإهانة من الكلمات. ربما نسي أن الجيش يعسكر خارج المدينة. بأمر واحد من جيلم، سيحرق جيشه الألواح الخشبية اللامعة حول رأس الملــك. كان عدم قيامهم بذلك لا يزال سراً غامضاً لتشاغاتي. هل أرسلهم جنكيز لشحذ مهاراقم حقاً؟ كان تشاغاتي يدرك أن هناك فناً في المفاوضات ينبغي له أن يتعلمه. كان جيلم قد حاول شرح الحاجة إلى التعامل مع قوى أجنبية، لكن تشاغاتي لم يكن يرى ذلك. كان الرجل إما عدواً أو صديقاً. إذا كان عدواً، يمكن الحــصول على كل ما يمتلكه. ابتسم تشاغاتي عندما اكتملت لديه تلك الفكرة. لم يكن الخان بحاجة إلى أصدقاء، وإنما إلى مجرد أتباع فقط.

مرة أخرى، استغرق في أحلام اليقظة بشأن حكم قومه. لن تقبل القبائل أبداً شــقيقه، جوشــي، حتى إن كان ابن الخان. كان تشاغاتي قد قام بدوره في نشر إشــاعة بأن جوشي ثمرة اغتصاب، قبل عدّة سنوات مضت. كان جنكيز قد سمح للإشــاعات بــأن تضرب جذوراً عميقة بأسلوب تعامله الغريب مع الفتى. ابتسم تــشاغاتي لنفسه عندما تذكر ذلك، وسمح ليده بأن تستقر على مقبض سيفه. كان والــده قــد منحه إياه بدلاً من جوشي، وهو سيف كان قد شهد ولادة أمة. في أعماق قلبه، كان تشاغاتي يعرف أنه لن يقسم بالولاء لجوشي أبداً.

انحــنى أحد وزراء الملك مقترباً من العرش ليهمس في أذنه. استغرق ذلك وقتاً طويلاً بما يكفي ليذوي أفراد الحاشية في ملابسهم ومجوهراتهم، لكن الوزير تراجع أخيراً. مرة أخرى تكلم الملك، وتُرجمت كلماته ببطء.

قــال الملك: "قد يقبل الحلفاء الكرام هبات كدليل على صداقة جديدة، كما نــوقش من قبل. مئة ألف قطعة من الورق الزيتي التي تم تجهيزها لكم، وهي نتاج عــدّة شهور من العمل". تمتم الحشد المجتمع من نبلاء كوريون لدى سماعهم تلك الكلمــات، بالــرغم من أن تشاغاتي لم يستطع أن يتخيل لماذا يعتبرون الورق ثميناً

جداً. "لقد تمت حياكة عشرة آلاف قميص حريري وإضافة الوزن نفسه من اليشم والفضة. وإليكم مئتا ألف كوان من الحديد ونفسها من البرونـــز التي أُحضرت من مـــناجم وجمعيات صناعة المعادن. من مخازني الخاصة، ستون قطعة من جلد النمور ملفـــوفة بالحريـــر والـــتي تم تجهيزها لأخذها معكم. أخيراً، ثمانية حمولة عربة من خـــشب الـــسنديان والزان هي هدية سلالة وانغ، تعبيراً عن الشكر للنصر الذي حققتموه لشعب كوريون. اذهبوا الآن بسلام وشرف واعتبرونا دائماً حلفاء".

أومأ جيلم بصلابة عندما أنهى المترجم كلامه. "أقبل جزيتك يا صاحب الجلالة".

كـــان احمـــرار بـــسيط قد ظهر على عنقه. تساءل تشاغاتي إن كان القائد ســـيتجاهل محاولة الملك إنقاذ ماء وجهه. كانت الجزية تُعطى للمنتصرين، ووقف جيلم صامتاً لوقت طويل فيما كان يفكر في كلام الملك. عندما تكلم مجدداً، كان صوته حاسماً.

"أطلـــب فقط أن يرافقنا ستمئة شاب تتراوح أعمارهم بين اثني عشر وستة عشر عاماً. سأدرّبهم على مهارات قومي، وسيخوضون الكثير من المعارك وينالون شرفاً كبيراً".

كافح تشاغاتي حتى لا تظهر موافقته على ذلك. ليختنقوا *بذلك*، مع كلامهم عن الهبات والحلفاء الشرفاء. كان طلب جيلم قد كشف التوازن الحقيقي للقوة في الغرفة وظهر الكرب على أفراد الحاشية بشكل واضح. أطبق الصمت على القاعة، وراقب تشاغاتي باهتمام فيما كان وزير الملك ينحني مرة أخرى. رأى براجم الملك تبـــيضّ عندما اشتدت قبضته على ذراع الكرسي. كان تشاغاتي متعباً من وقفتهم. حـــتى الفتاتان الرقيقتان عند قدمي الملك كانتا قد فقدتا فتنتهما. كان يريد الخروج إلى الهواء المنعش وربما الاستحمام في النهر قبل أن يفتر لهيب الشمس.

بالـــرغم مـــن ذلك، لم تتحرك عضلة في جيلم، وبدا أن نظرته تجعل الرجال حول الملك يشعرون بالعصبية. ضاعت نظراتهم المفاجئة على المحارب الصامت فيما كانـــوا يقفون وينتظرون جواباً حاسماً. لم يكن يوجد في مدينة سونغدو سوى أقل من ستين ألف نسمة وجيش لا يزيد عن ثلاثة آلاف جندي. يمكن للملك افتراض مـــا يشاء، لكن تشاغاتي كان يعرف حقيقة الموقف. عندما جاء الجواب أخيراً، لم يكن مفاجئاً.

قال الملك: "يشرّفنا أن تقبل مثل ذلك العدد من اليافعين ليكونوا بخدمتك أيها القائد".

كــان وجهــه متجهماً، لكن جيلم ردّ للمترجم، ونطق بتعابير أخرى عن الإرادة الطيــبة التي لم تعجب تشاغاتي. كان والده قد استدعى جيلم إلى الديار بعــد ثلاثة أعوام من استكشاف الشرق. سيكون أمراً طيباً رؤية الجبال مجدداً، وبالكــاد استطاع تشاغاتي إخفاء نفاد صبره من تلك الفكرة. بدا أن جيلم يفكر في أن تلك الأوراق ستكون مهمة، بالرغم من أن تشاغاتي شكّك في أنها ستكون ذات قــيمة كبيرة لجنكيز. في ذلك، على الأقل، كان يمكن توقع رد فعل والده. كــان أمراً جيداً أن جيلم حصل على الحرير والخشب أيضاً. كانت تلك الأشياء تستحق امتلاكها.

مــن دون أي إشارة واضحة، رنّ الجرس مجدداً في الساحة الخارجية، وانتهى بــذلك الاســتقبال. راقب تشاغاتي الفتاتين الخادمتين فيما كانتا تجهزان سيدهما للوقــوف وتــسيران خلفه. تنهد عندما انتهت المراسم في الغرفة حوله، مستمتعاً بالحــلىّ تحت إبطه مرة أخرى. الوطن. سيعود جوشي أيضاً مع تسوبودي. تساءل تــشاغاتي كــيف ســيكون شقيقه بعد غياب ثلاثة أعوام. بعمر السابعة عشرة، سيكون قد كبر أخيراً ولا شك في أن تسوبودي قد درّبه جيداً. دلّك تشاغاتي عنقه بيديه، متخيلاً التحديات القادمة.

في النــصف الجنوبــــي من أراضي تشن، كان محاربو جيش جنكيز الثالث يــشربون حــتى الثمالة. خلفهم، كانت مدن كيفنغ تنتظر خلف أسوار وبوابات عالــية، وقد فقدت الأمل آنذاك. كان بعض أبناء تشن قد رافقوا الإمبراطور نفسه عــندما جاء جنوباً من ينكينغ قبل ثلاثة أعوام. كانوا قد رأوا الدخان يتصاعد إلى الــسماء شمالاً عندما كانت تلك المدينة تحترق. لبعض الوقت، ظنّوا أن المغول قد تجاوزوهم، لكن جيش خاسار جاء في إثرهم، يرسم خطوط دمار عبر الأرض مثل حديد ساخن على جسد.

لم تعــد شوارع كيفنغ خاضعة لسلطة القانون حتى في قلب المدينة. استطاع أولــئك الذين كان لديهم حرّاس مسلحون تسلق الأسوار والنظر إلى الأسفل نحو

الجـيش الذي يحاصرهم. ما رأوه لم يجعلهم يشعرون بالراحة أو الأمل. بالنسبة إلى تشن، كان الحصار الذي فرضه خاسار يعد إهانة بحدّ ذاته.

في ذلك اليوم، كان شقيق الخان العظيم يسلّي نفسه بالمصارعة بين رجاله. كانت جمهرة خيام خاسار تفتقر إلى تشكيل واضح، وتجولت قطعان حيواناته الكبيرة على غير هدى في الأرض، ونادراً ما كانت تزعجها سياط الرعاة الطويلة. لم يكن قد مر وقت طويل على حصار المغول لكيفنغ بعد أن نصبوا معسكرهم هناك. بالنسبة إلى تشن الذين كانوا يكرهونهم ويخافونهم، كان من المزعج رؤية العدو يستمتع بالصيد والرياضة فيما كيفنغ تتضور جوعاً. بالرغم من أن تشن كانوا معتادين على القسوة، إلا أن المغول كانوا أكثر صلابة مما يمكن أن يتخيلوا. لم يكن جيش خاسار يهتم إطلاقاً لسكان كيفنغ الذين يذوقون الأمرّين، وأثاروا استياءهم بتأخير سقوط المدينة. كانوا هناك منذ ثلاثة شهور، وأظهروا صبراً كبيراً لا حدود له.

كانت مدينة الإمبراطور ينكينغ قد سقطت في أيدي هؤلاء الخيّالة البدائيين. لم تستطع جيوشها الكبيرة صدّهم. مع ذلك المثال، لم يكن لدى أحد في كيفنغ أمل حقيقي. كانت الشوارع تحكمها عصابات قاسية ووحده القوي يجرؤ على الخروج من منزله. كان يتم توزيع الطعام من مخزن مركزي، لكن في بعض الأيام لم يكن لديهم شيء. لم يكن أحد يعرف إن كان الطعام ينفد، أم يتعرض للسرقة على الطريق.

في المعسكر، نهض خاسار على قدميه، يصرخ مبتهجاً عندما رفع هوسا المصارع المعروف باسم بابغي، الدب، خصمه فوق رأسه. كافح الرجل الخاسر في البداية، لكن بابغي وقف بثبات مبتسماً مثل طفل أحمق لقائده. تضاءلت الرهانات شيئاً فشيئاً حتى انتهت تماماً. كان الرجل الذي حمله مرهقاً للغاية حتى إنه لم يستطع التخلص من قبضة بابغي القوية.

كان خاسار قد عثر على المصارع بين مجنديه من تشن، وميّزه مباشرة لحجمه وقوته. كان يتطلع قدماً لجعل الأحمق الضخم يتحدى أحد الأبطال في الديار. إذا كان حكمه صحيحاً، يمكنه التغلب على عدّة رجال في نزال واحد، وشقيقه تيموج بينهم.

انتظر بابغي من دون أي انفعال أمر خاسار. كان قلّة آخرون يستطيعون حمل محارب ناضج في مثل ذلك الوقت وكان وجه بابغي أحمر ويلمع من العرق.

حدّق خاسار إلى المصارع الكبير، وعادت أفكاره إلى الرسالة من جنكيز. كان المستطلع الذي أرسله شقيقه لا يزال واقفاً حيث تركه خاسار قبل ساعات. كان الذباب يتغذى على مفرزات جلد المستطلع، لكن الشاب لم يكن يجرؤ على التحرك.

زال مزاج خاسار الهادئ، وأشار بنزق إلى مصارعه البطل. قال بحدّة: "حطّمه".

أخذ الحشد نفساً عميقاً عندما جثا بابغي فجأة على ركبة واحدة، وأنزل خصمه على فخذه الممدودة. تردد صدى كسر العمود الفقري عبر الساحة، وصرخ كل الرجال، وتبادلوا علامات الرهان. ابتسم بابغي لهم. أشاح خاسار بنظره بعيداً فيما كان يتم قطع حنجرة الرجل الكسيح. كان لطفاً منهم عدم تركه حياً للكلاب والجرذان.

شعر أن أفكاره أصبحت سوداوية، أشار خاسار بيده لبدء النزال التالي، وأمر بقربة من الشراب الأسود: أي شيء لإبعاد الكآبة عنه. لو أنه كان يعرف أن جنكيز سيستدعي الجيوش، لكان استفاد بشكل أفضل من الوقت في التقدم عبر أراضي تشن. مع هوسا وابن جنكيز أوجيدي، كان قد أمضى سنوات ممتعة في حرق مدن وإعدام سكانها، واقترب طيلة الوقت من المكان الذي اتخذه الإمبراطور الفتى ملاذاً له. كان ذلك وقتاً سعيداً جداً بالنسبة إليه.

لم يكن رجلاً يفكر كثيراً في نفسه، لكن خاسار كان قد اعتاد الاستمتاع بالقيادة. بالنسبة إلى رجال مثل جنكيز، كان ذلك شيئاً طبيعياً. لم يستطع خاسار أن يتخيل أن جنكيز يسمح لأي شخص بأن يرشده إلى حفرة مرحاض، ناهيك عن قيادته في معركة. بالنسبة إلى خاسار، كان ذلك قد تملّكه ببطء، وتمت الحاجة مثل الطحالب. طيلة ثلاثة أعوام، لم يكن قد تكلم مع أي من أشقائه، جنكيز، كشيون، أو تيموج. كان محاربوه يتوقعون منه أن يعرف إلى أين يذهبون وماذا يفعلون حالما يصلون إلى المكان المنشود. كان خاسار قد وجد الأمر مجهداً في البداية، مثل كلب يسير في مقدمة الركب. كان يعرف ذلك جيداً، لكنه اكتشف

حقـيقة أخرى وهي أن القيادة ممتعة بقدر ما هي مجهدة. كانت أخطاؤه من صنع يديه، لكن انتصاراته كانت تدين بالفضل له أيضاً. مع مرور المواسم، كان خاسار قـد تغيّر و لم يكن يرغب في الذهاب إلى الديار. وبانتظاره سقوط كيفنغ، كان أباً لعشرة آلاف ابن.

نظـر حـوله بحثاً عن الرجل الذي قطع مسافة طويلة من الوطن. كان نائبه، سـاموكا، رصيناً كعادته، يشاهد المصارعة بمتعة خالصة. وكان أوجيدي يصرخ ويتصبب عرقاً، وقد بدا صغيراً بين المحاربين. نظر خاسار إلى الفتى، متسائلاً كيف سـيتقبل أبناء عودتهم. بعمر أوجيدي، كان كل شيء جديداً ومثيراً، وظن خاسار أنه سيكون سعيداً. تعكر مزاجه أكثر عندما تفحّص رجاله. كان كل واحد منهم قـد أثـبت أنه جدير بالاحترام. كانوا قد حصلوا على النساء، والجياد، والنقود، والأسـلحة بـالآلاف، وكان ذلك أكثر مما يمكنهم استخدامه طيلة حياتهم. أطلق خاسار تنهيدة كبيرة. بالرغم من ذلك، كان جنكيز الخان العظيم، و لم يكن خاسار يـستطيع تخيل التمرد ضد شقيقه الأكبر كما لا يستطيع تخيل أن ينبت له جناحان ويتجاوز أسوار كيفنغ طيراناً.

بدا أن هوسا أحسّ بمزاج القائد، وقدّم إليه قربة من الشراب الأسود، وكانت ضوضاء المصارعة تزداد حول الرجلين. ابتسم خاسار بتكلّف، من دون سعادة. مع ساموكا، كان هوسا قد سمع رسالة المستطلع. كان النهار قد انقضى وكلا الرجلين يعرفان ذلك.

كـان ضابط كزي كزيا قد هزّ كتفيه مرة استخفافاً من فكرة تناول الشراب مـع رجـال قبائل يغشيهم القمل. قبل أن يأتي المغول، كان هوسا قد عاش حياة تقـشف بـسيطة، فخوراً بمكانته في جيش ملكه. كان يستيقظ كل فجر لإجراء الـتمارين لمدة ساعة قبل أن يستحم، ثم يبدأ يومه بتناول الخبز والشاي الأسود مع العسل. كانت حياة هوسا مثالية تقريباً وكان يتوق إليها أحياناً، ويفزع من رتابتها في الوقت نفسه.

في اللـيالي الأشد حلكة، عندما يتخلى الرجال عن كل المظاهر، كان هوسا يعـرف أنه وجد مكاناً وحياة لم يكن ليستمتع بهما في كزي كزيا. كان قد ارتقى إلى المركـز الثالث في جيش المغول وكان رجال مثل خاسار يأتمنونه على حياتهم.

كانت عضات البراغيث والقمل ثمناً بسيطاً ينبغي دفعه بالمقابل. متابعاً نظرة خاسار المستجهمة، حدّق هوسا أيضاً بشمالة إلى كيفنغ. إذا كان كل ما يستطيع إمبراطورٌ فعله هو الاختباء خلف أسوار عالية، فلن يكون عندها إمبراطوراً بنظر هوسا. تناول جرعة أخرى من الشراب الأسود، وجحل عندما أحرق جرحاً في لثّته.

كـــان هوســـا يفتقر أحياناً إلى هدوء ورتابة حياته القديمة، لكنه كان يعرف أنهمـــا موجودان في مكان ما. كانت تلك الفكرة تجعله يشعر بارتياح عندما يكون متعباً أو مـــصاباً بجـــرح. وما ساعده أيضاً على ذلك أن لديه الكثير من الذهب والفضة. إذا عاد يوماً إلى الديار، فستكون لديه زوجات، وعبيد وثروة.

انتهـــى النـــزال الثاني بذراع مكسورة، وانحنى كلا الرجلين لخاسار قبل أن يـــسمح لهما بالمغادرة لمعالجة إصابتيهما. كانت نـــزالات يوم واحد تكلّفه حوالى اثـــنيّ عشرة إصابة وبعض القتلى، لكنها كانت ضرورية لتحفيز الآخرين. لم تكن هناك فتيات يافعات رشيقات، بالمحصلة.

حـــدّق خاســـار إلى المستطلع. كان خاسار نفسه من استولى على الحصون القلـــيلة التي يستعملها المغول كمحطات على الطريق لمراسليهم. كانت تمتد على خـــط متواصـــل على طول الطريق إلى البقايا المتفحّمة لينكينغ في الشمال. لو أن خاســـار أدرك أن طريق التجارة الجديد سيمكّن جنكيز من إصدار أمر بعودته قبل *ثمانية* عشر يوماً فقط، ربما لم يكن ليفعل ذلك. هل سيفهم شقيقه إذا انتظر عاماً آخر حتى تسقط المدينة المحصنة؟ ركل خاسار حجراً بقدمه مما أفزع المستطلع الذي كـــان يقـــف هناك. كان يعرف الجواب. كان جنكيز يتوقع منه التخلي عن كل شيء والعودة، مصطحباً ابن الخان أوجيدي معه. كان الأمر مزعجاً، حدّق خاسار إلى كيفنغ كما لو أنه يستطيع تدمير الأسوار بالغضب وحده. بالكاد رأى النـــزال الثالث من المصارعة، بالرغم من أن الحشد الثمل كان معجباً به.

قـــال خاسار فجأة: "كرّر الأوامر مجدداً". فوق صرخات المحاربين، كان عليه أن يكرر كلامه مرتين ليكون مسموعاً.

أحنى المستطلع رأسه، يحاول عبثاً فهم المزاج الذي كانت رسالته قد أحدثته. "عـــد إلى الديار وتناول الشراب الأسود مع قومنا يا شقيقي. في الربيع، سنشرب الحليب والدم".

قال خاسار بحدّة: "هذا كل شيء؟ قل لي كيف كان يبدو عندما أرسلك".
بــدا الانــزعاج على المستطلع. "كان الخان العظيم يناقش خططاً يا مولاي، مــع كبار قادته. كانت أمامهم خرائط مثبتة بقطع من الرصاص، لكنني لم أسمع ما قالوه قبل أن يتم استدعائي".
رفــع هوســا رأسه عند سماع ذلك، وعيناه تلمعان من تأثير الشراب. قال: "الحليب والدم يعنيان أنه يخطط لحرب جديدة".
انخفــض ضــجيج الحــشد فجأة عند سماع كلماته. كان أوجيدي قد تجمد ليصغي إليه. حتى المصارعان توقفا، غير متأكدين إن كان ينبغي لهما المضي قدماً في ما يفعلانه. طرفت عينا خاسار ثم هزّ كتفيه. لم يكن يهتم بمن يسمع ذلك.
"إذا كـــان شــقيقي قد أخرج تلك الخرائط الثمينة، فلا بد من أن هناك أمراً جلــلاً". تنهد؛ لو أن جنكيز كان يعرف أنه يقف أمام أسوار كيفنغ، لكان انتظر بكــل تأكــيد. كان الإمبراطور الفتي قد هرب منهم في ينكينغ. كانت فكرة قيام بلاط تشن بمراقبة المغول يغادرون لا تُحتمل تقريباً.
قال خاسار: "هل استدعى تسوبودي وجيلم؟".
ابتلع المراسل ريقه بصعوبة أمام أعين الكثيرين. "لم أحمل الرسائل يا مولاي".
"أنت تعرف ذلك. المستطلعون يعرفون دائماً. قل لي وإلا سأقطع لسانك".
ابــتلع المراسل الشاب ريقه وتكلم بسرعة. "خرج رحلان آخران لاستدعاء القائدين إلى الخان يا مولاي. هذا ما سمعته".
"والمقاتلون في الديار؟ هل يتدربون ويستعدون، أم أنهم ينتظرون فقط؟".
"إنهم ينفذون الأوامر بالتخلص من بدانة الشتاء يا مولاي".
شاهد خاسار ساموكا يكشّر، وأطلق لعنة بصوت خافت. "إذاً، إنها الحرب. عــد أدراجــك علــى طول الدرب الذي فتحته أنا وقل لشقيقي إنني قادم. هذا كاف".
سأل المستطلع: "هل يمكنني القول إنك ستكون هناك قبل الشتاء يا مولاي؟".
رد خاســار: "قبل تساقط الثلج للمرة الأولى". بصق على الأرض فيما كان المستطلع يغادر مسرعاً. كان قد استولى على كل مدينة على بعد مئة ميل حول كيفنغ، حاصر الإمبراطور بالدمار وقطع عنه الإمدادات. بالرغم من ذلك، سيغادر

عـــندما أصبح النصر في متناول يده. رأى أن عيني أوجيدي كانتا مليئتين بالإثارة، وأشاح خاسار بنظره بعيداً.

سيكون من الجيد رؤية أشقائه مجدداً، كما أدرك. تساءل من دون اهتمام إن كـــان جيلم أو تسوبودي يستطيعان تقديم الثروة نفسها التي كان قد استولى عليها مـــن مدن تشن. كان قد جنّد رجالاً من تشن أنفسهم، لهذا سيعود مع ألفي رجل أكثر مما كان قد أخذه معه. تنهد لنفسه. ما كان يريده هو تقديم عظام الإمبراطور إلى جنكيز، ولم يكن يهتم البتة لغنائم الحرب الأخرى.

الفصل الثالث



ترك جنكيز فرسه تتجه برأسها نحو السهل المكشوف، تعدو بأقصى سرعتها والهواء الدافئ يمرّ على وجهه، ويعبث بشعره الأسود الطويل. لم يكن يرتدي سوى قميص جلد خفيف يترك ذراعيه عاريتين، ويكشف شبكة كثيفة من الندوب البيضاء. كان السروال الذي يقبض بإحكام على خاصرتي الفرس قديماً، عليه علامات داكنة من دهن الضأن، وكذلك الحذاء المريح في الركاب. لم يكن يحمل سيفاً، بالرغم من أن حقيبة قوس جلدية كانت تستقر خلف فخذه وكنانة صيد صغيرة تقفز فوق كتفيه، وحزاماها الجلديان يمرّان فوق صدره.

كان الجو عائماً من الطيور فوق رأسه، وأجنحتها تخفق فيما صقور تنقض عليها، وتعيد الأفراس إلى سادتها. من بعيد، كان ثلاثة آلاف محارب قد شكلوا حلقة لا يمكن اختراقها، يقودون جيادهم للسير ببطء ويدفعون كل شيء حي أمامهم. لم يطل الأمر قبل أن تمتلئ منطقة الوسط بحيوانات الغرير، والغزلان، والثعالب، والجرذان، والكلاب البرية وألف حيوان صغير آخر. كان بمقدور جنكيز رؤية الأرض تصبح داكنة بسببها وابتسم بانتظار الصيد المتوقع. وثب غزال يطلق سيلاً فزعاً عبر الحلقة، واصطاده جنكيز بسهولة بإطلاق سهم على صدره خلف قائمته الأمامية. انهار الغزال، وركل بقائمتيه، واستدار جنكيز ليرى إن كان شقيقه كشيون قد شهد إطلاق السهم.

لم يكن هناك الكثير من الرياضة الحقيقية في صيد الحلقة، بالرغم من أنها كانت تساعد على تغذية القبائل مع انخفاض مخزون اللحم. بالرغم من ذلك، كان جنكيز يستمتع بها، ويمنح مراكز في الوسط لرجال يرغب في تكريمهم. إضافة إلى كشيون، كان أرسلان هناك، أول رجل يقدم إليه فروض الولاء. كان صانع

الـــسيوف العجوز يبلغ من العمر ستين عاماً ورفيعاً مثل سكين. كان يمتطي فرسه بـــشكل جـــيد، وبصلابة، وقد شاهده جنكيز يصطاد حمامة من الجو عندما حلق الطائر فوق رأسه.

كـــان المصارع تولوي يقود فرسه التي تجري بأقصى سرعتها في مدى رؤيته، يـــنحني إلى الأسفل على السرج ليضع غريراً بديناً على الأرض والذي انطلق خائفاً عـــبر الأعشاب. خرج ذئب من أجمة أعشاب طويلة مما جعل فرس تولوي تجفل، وكـــادت تلقي به أرضاً. ضحك جنكيز فيما كان المحارب الضخم يكافح للحفاظ علـــى توازنه. كان يوماً جميلاً والحلقة تضيق باستمرار. كان مئة من أفضل ضباطه يتـــسابقون هـــنا وهناك فيما تتجمع الحيوانات مشكّلة على الأرض شريطاً داكن اللـــون. تدافعت بكثافة حتى إن الأعداد التي سحقتها الحوافر فاقت تلك التي نالت منها سهام الصيد. ضاقت حلقة الخيّالة حتى وقفوا كتفاً إلى كتف، وأفرغ الرجال في الوسط كنانالهم، مستمتعين بما يحدث.

رأى جنكيز هراً جبلياً بين الحيوانات، ودفع بعقبيه بردفي فرسه خلفه. شاهد أن كـــشيون يطارد الحيوان نفسه، وشعر بالسعادة عندما ابتعد شقيقه مفسحاً له المجال ليطلق سهمه. كان كلا الرجلين في أواخر العقد الثالث، قويين ورشيقين. مـــع عودة الجيوش، كانا سيأخذان الأمة إلى أراضٍ جديدة، وكان جنكيز سعيداً بذلك.

كان قد عاد من عاصمة تشن ضعيفاً مبتلياً بالمرض. استغرق منه الأمر حوالى العـــام ليـــستعيد عافيـــته، لكن الضعف كان مجرد ذكرى آنذاك. مع اقتراب نهاية الـــصيف، شعر بقوته القديمة، ومعها، الرغبة بسحق أولئك الذين تجرأوا على قتل رجالـــه. كـــان يرغب بأن يكون أعداؤه فخورين بأنفسهم وأقوياء، حتى يستطيع إذلالهم أكثر بانتقامه منهم.

مدّ جنكيز يده إلى سهم آخر، ولم تطبق أصابعه على شيء، مما جعله يتنهد. كـــان فتـــيان وفتيات المخيم سيحرون آنذاك بالمطارق والسكاكين للإجهاز على الحيوانات والبدء بتجهيز الذبائح لوليمة رائعة.

كان مستطلعو الخان قد أفادوا أن جيشي خاسار وتسوبودي على بعد بضعة أيام فقط. سيتم تكريم قادته بشراب الأرز والشراب الأسود عندما يعودون. تساءل

جنكيز كيف سيبدو أولاده بعد الأعوام التي أمضوها بعيداً عن بعضهم. كان مثيراً للاهتمام التفكير في الخروج إلى حرب مع تشاغاتي وأوجيدي، والاستيلاء على أراض جديدة حتى يكونوا خانين أيضاً. كان يعرف أن جوشي عائد، لكن ذلك كان جرحاً قديماً و لم يُطِل التفكير فيه. كان قد استمتع بأعوام من السلام مع زوجتيه وأولاده اليافعين، لكن إذا كان أب السماء قد وضع له هدفاً، كان يعرف أنه ليس بتمضية وقته بهدوء فيما العالم نائم.

قاد جنكيز فرسه إلى كشيون فيما كان شقيقه يربت على كتف أرسلان. بينهم، كانت الأرض حمراء بالدم والفرو، واندفع الفتيان تحت الحوافر تقريباً وهم يصرخون وينادون بعضهم بعضاً فرحاً.

قال جنكيز للرجلين: "هل رأيتما الهر الكبير الذي اصطدته؟ تطلب الأمر سهمين فقط ليخففا سرعته".

صرخ كشيون، ووجهه يلمع من العرق: "كانت إصابة رائعة". اقترب أحد الفتية الهزيلين من ركاب كشيون كثيراً فيما كان يتكلم، ومدّ الأخير يده إلى الأسفل فصفع الغلام الذي وقع على الأرض، مما أثار ضحكات مرافقيه.

ابتسم أرسلان فيما كان الفتى الصغير ينهض ويحدّق إلى شقيق الخان قبل أن ينطلق مسرعاً.

قال: "إنهم يافعون جداً، يا لهذا الجيل الجديد! بالكاد يمكنني أن أتذكر أنني كنت صغيراً إلى هذا الحد".

أومأ جنكيز. لن يعرف فتيان القبائل أبداً الخوف من القتل كما اختبر وأشقاؤه. مصغياً إلى ضحكاتهم وأصواتهم العالية، لم يكن في وسعه سوى أن يتساءل عما كان قد حققه. لم يكن هناك سوى قلة من الرعاة الذين لا يزالون يتجولون في وديان وجبال أرضه. كان قد جمع الباقين وجعلهم أمة تحت قيادة رجل واحد وأب السماء. ربما كان ذلك هو السبب الذي دفعه لقبول التحدي من قبائل الصحراء. رجل من دون أعداء يصبح بسرعة رقيقاً وبديناً. ستلقى الأمة مصيراً سيئاً من دون شخص يتولى رعاية مخيماتها. ابتسم من تلك الفكرة. لم يكن هناك نقص بالأعداء في العالم وشكر الأرواح لأن أعدادهم بالملايين. لم يتخيل طريقة أفضل لعيش الحياة وكانت أعوام رائعة تنتظره.

تكلـــم أرسلان مجدداً، وكانت الرقة قد اختفت من صوته. "لقد فكرت طيلة شـــهور يـــا مولاي في أن الوقت قد حان لأتخلى عن موقعي كقائد. لقد أصبحت عجـــوزاً جداً على تحمّل قيادة حملة في الشتاء وربما حذراً أكثر من اللازم. يحتاج الرجال إلى شخص أكثر شباباً يمكنه المخاطرة بكل شيء بضربة واحدة".

رد كشيون بجدّية: "لا تزال أمامك أعوام على ذلك".

هـــزّ أرســـلان رأســـه، ونظر ليرى رد فعل جنكيز على كلماته. "لقد حان الوقت. سأنتظر عودة ابني جيلم، لكنني لا أتمنى مغادرة أرضي مجدداً. ولائي لك يـ جنكيـــز، ولن يُزعزع شيء هذا الولاء إذا طلبت مني ركوب الفرس، فسأفعل حتى أســـقط عنها". كان يتكلم عن الموت. لا يمكن أن يسقط محارب عن السرج وهو حي. توقف أرسلان قليلاً ليرى أن الخان يفهم ولاءه قبل أن يمضي قدماً.

"لا يمكـــن لرجل أن يحارب إلى الأبد. أشعر بالألم في وركيّ وكتفيّ، ويداي تـــتجمدان عند أول لسعة برد. ربما كانت تلك ثمرة سنوات من طَرقِ الحديد، لا أعرف".

زمّ جنكيز شفتيه، دفع مطيته للاقتراب أكثر ليستطيع الإمساك بكتف القائد.

قـــال بلطـــف: "لقد كنت معي منذ الأيام الأولى. لم يخدمني أحد بإخلاص أكثـــر مـــنك. إذا كنت ترغب في تمضية سنواتك الأخيرة بسلام، فسأعفيك من قسمك".

أحنى أرسلان رأسه، وكان الارتياح بادياً على محياه.

"شـــكراً لـــك يا مولاي الخان". عندما نظر إلى الأعلى، كان وجهه يتورد خجـــلاً. "عـــرفتك عندما كنت وحيداً ومُطارداً. رأيت فيك عظمة عندما نذرت حياتي لك. كنت أعرف أن هذا اليوم سيأتي وجهّزت نائبـــي لتولي زمام القيادة إنه قرارك، لكنني أوصي بأن يحل زورغادي محلي".

قـــال جنكيز فوراً: "لا يستطيع أحد أن يحل محلك. لكنني سأحترم اختيارك وحكمـــتك هـــذه المرة. أعرف زورغادي هذا، الشخص الذي ينادونه جيبـــي السهم".

ابتسم أرسلان قليلاً. "كما تشاء. لقد التقيته للمرة الأولى عندما حاربنا ضـ عشيرة بيسد قبل أعوام. لقد قتل جوادك".

أطلــق جنكيــز صرخة تعجّب. "اعتقدت أنني أعرف الاسم! يحق الأرواح، يمكنه استعمال قوس. هل كانت ثلاثمئة خطوة؟ أتذكر أنني كدت أهشّم رأسي".

"لقــد كان مملاً قليلاً يا مولاي، لكن ليس كثيراً. إنه مخلص لك منذ أبقيت على حياته في ذلك اليوم".

أومأ جنكيز. "إذاً، مرّر الييتز الذهبية له وادعُه إلى خيمة مجلسي. سنقيم وليمة احــتفالاً بحــياتك. سينشد الشعراء أشعاراً تمدحك لأب السماء، وسيعرف كل المحاربين الشباب أن رجلاً عظيماً قد غادر الصفوف".

فكّــر للحظة، وتلون وجه أرسلان افتخاراً. "ستحصل على ألف جواد من قطيعــي الخــاص واثــنتي عشرة امرأة كخادمات لزوجتك. سأرسل ثلاثة شباب لحمايــتك في ما تبقى من عمرك. لن تكون وحيداً في تقاعدك أيها القائد. سيكون لديك أغنام وماعز تكفي لجعلك بديناً مئة عام".

ترجل أرسلان، ومس رأسه بقدم جنكيز في الركاب.

"لقد شرّفتني يا مولاي، لكنني لا أحتاج سوى إلى النــزر اليسير. بعد إذنك، ســآخذ زوجتي وقطيعاً صغيراً من الماعز والجياد. معاً، سنجد مكاناً هادئاً بجانب جــدول ماء ونبقى هناك. لم يعد هناك لصوص في التلال، وإذا تواجدوا بالصدفة، فــلا يــزال بمقدور قوسي وسيفي التكلم نيابة عني". ابتسم للرجل الذي كان قد شــاهده يكــبر من فتى إلى قاهر الأمم. "ربما سأبني كيراً صغيراً وأصنع سيفاً أخيراً ليُدفن معي. أسمع أصوات المطرقة في ذهني حتى الآن وأنا أنعم بالسلام".

اغــرورقت عينا جنكيز بالدموع عندما نظر إلى الرجل الذي كان بمثابة والد ثان له. ترجل أيضاً واحتضن أرسلان لبرهة، مما جعل الفتيان الذين كانوا يصرخون من حوله يصمتون.

"إنه حلم جيد أيها الرجل العجوز".

كانــت الأراضي حول نهر أورخون خضراء داكنة أكثر مما يمكن العثور عليه في أي مكان آخر. كان النهر نفسه عريضاً ونظيفاً. كان ينبغي له أن يكون هكذا لإعالــة مــئتي ألف رجل وامرأة، وضعف ذلك العدد من الجياد عندما وصل إليه خاســار وتسوبودي بفاصل يوم واحد فقط بينهما. بقيادة الخان، كانت الأمة قد

ثمت وكان هناك دائماً أطفال يصرخون في مكان ما. منذ عودته من عاصمة تشن، كـــان جنكيـــز قد أقام مخيماً قريباً دائماً إلى جانب النهر، مبتعداً عن سهل أفراغا. كـــان صحيحاً أن سهل أفراغا سيبقى دائماً مهماً بصفته المكان الذي صهر الأمة، لكنه كان أرضاً جافة، منبسطة. بالمقابل، كان شلال قريب يحوّل مياه أورخون إلى رذاذ أبـــيض وكانـــت الجياد والأغنام تستطيع أن تشرب منه قدر ما تشاء. كان جنكيز قد سبح عدّة مرات في بركه العميقة، مستعيداً قوته.

كـــان خاســـار قـــد وصل أولاً واحتضن أشقاءه: جنكيز، كشيون، وحتى تـــيموج، الـــذي لم يكـــن محارباً وإنما يدير المخيمات، ويسوّي النـــزاعات بين العـــائلات. أحـــضر خاسار أوجيدي معه. كان الفتى بالكاد في الثالثة عشرة من عمـــره، لكنه وقف مفتول العضلات يكاد طول قامته يقارب طول قامة والده. في القسمات الحادة لوجه أوجيدي، استطاع الأشقاء رؤية صورة للفتى الذي كان قد أبقاهم على قيد الحياة عندما كانوا منفيين ووحيدين، بعيدين بضع لقمات فقط عن التـــضور جوعاً حتى الموت. قبض خاسار على الجزء الخلفي من عنق أوجيدي فيما كان يدفعه إلى الأمام لرؤية والده، وهو فخور به.

قـــال خاســـار، وهو يرفع قربة من الشراب الأسود، ويسكب جرعة منه في حلقه: "إنه ماهر بالقوس والسيف يا شقيقي".

سمـــع جنكيـــز صـــرخة فرح زوجته بورت من خيمة العائلة وعرف أن ابنه سيكون محاطاً بالنساء في غضون دقائق فقط.

قـــال علـــى عجل: "لقد كبرت يا أوجيدي. أرغب بسماع كل شيء عن رحلاتك الليلة". نظر إليه فيما كان أوجيدي ينحني بشكل رسمي، ووجهه لا يُظهر أي مـــشاعر. كانت ثلاثة أعوام وقتاً طويلاً أمضاه بعيداً، لكن جنكيز كان سعيداً بالمحـــارب الفـــتى الـــذي عـــاد إليه. كان لأوجيدي العينان الصفراوان نفسهما واستحـــسن جنكيـــز صلابته وهدوءه. لم يختبر ذلك باحتضانه، ليس والكثير من المحاربين يراقبون والذين ربما يقودهم أوجيدي في هجوم يوماً ما.

سأله جنكيز، فيما كان ينقل قربة بين يديه: "هل أنت كبير بما يكفي لتشرب أيهـــا الفـــتى؟". عندما أومأ ابنه برأسه، رماها في الهواء والتقطها أوجيدي بمهارة، تغمره مشاعر جيّاشة لرؤية وسماع قومه في كل الأرجاء. عندما تقدمت منه والدته

واحتضنته، بقي متسمراً في مكانه، يحاول أن يثبت لوالده أنه لم يعد فتى صغيراً يذوب بين ذراعيها. بدا أن بورت لم تلاحظ ذلك، وأمسكت بوجهه بيديها، تبكي لعودته سالماً.

تمتم جنكيز من خلف كتفها: "دعيه يقف يا بورت. إنه كبير بما يكفي ليقاتل ويقود جواده معي". تجاهلته زوجته، وتنهد جنكيز، ولان مزاجه قليلاً.

شعر جنكيز بصدره ينقبض عندما شاهد تسوبودي يقود فرسه للسير خبباً عبر سهل مكتظ بالناس نحوه، وجوشي إلى جانبه. ترجل الرجلان، ورأى جنكيز أن جوشي يمشي بخطوات نشيطة لمحارب بالفطرة. كان قد أصبح أطول من الخان بوصة، بالرغم من أن عينيه الداكنتين كانتا لا تزالان تذكّران جنكيز بأن رجلاً آخر ربما يكون والده. لم يكن يعرف كيف سيتصرف مع جوشي، لكن بالفطرة تكلم جنكيز مباشرة مع تسوبودي، وتجاهله.

قال: "هل دفعتهم جميعاً أمامك أيها القائد؟".

رد تسوبودي بضحكة خافتة. "لقد رأيت الكثير من الأشياء الغريبة يا مولاي الخان. كنت سأمضي إلى أبعد من ذلك لولا أنك دعوتنا للعودة. إذاً، هل هي الحرب؟".

تغيّر لون وجه جنكيز، لكنه هزّ رأسه. "لاحقاً يا تسوبودي، لاحقاً. سيكون هناك كلاب تضربها بالسياط، لكن أرسلان تنحّى عن القيادة وعندما يأتي جيلم، سنقيم وليمة احتفالاً بحياته".

أظهر تسوبودي حزناً عندما سمع النبأ. "أدين له بالكثير يا مولاي. شاعري رجل رائع. هل يمكنني تقديم خدماته؟".

ابتسم جنكيز. "من أجل القائد صانع السيوف، لديّ اثنا عشر شاعراً وراوياً يتقاتلون مثل قطط لنيل هذا الشرف، لكن رجلك يستطيع الانضمام إليهم أيضاً".

كان جنكيز يشعر أن والدة جوشي تراقبه في أثناء كلامه. كانت بورت ستبحث عن بعض القبول العلني لابنها البكر قبل أن ترحب به أيضاً في منزلها. عندما أطبق الصمت، استدار جنكيز أخيراً إلى جوشي. كان صعباً ألا يهتز تحت تأثير تلك النظرة السوداوية الثاقبة. كان قد مضى وقت طويل في المخيمات منذ

تجــرأ أي رجل على النظر في عيني الخان بتلك الطريقة وشعر جنكيز أن قلبه يخفق بقوة، كما لو أنه يواجه عدواً.

قــال جوشي بصوت أعمق مما كان جنكيز يتوقع: "أنا سعيد لرؤيتك معافى وقوياً يا أبــي. عندما غادرت، كنت لا تزال ضعيفاً من سم القاتل".

رأى جنكيــز يد تسوبودي ترتعش، كما لو أنه يريد رفعها لتحذير جوشي. كــان القائد يتمتع بفطنة أفضل من جوشي، على ما يبدو. وقف المحارب الشاب بفخر أمامه كما لو أنه لم يكن ثمرة اغتصاب، وبالكاد مرحب به في خيام عائلته.

كــافح جنكيز للحفاظ على هدوئه، مدركاً تماماً الوجود الصامت لزوجته. قال بلطف: "يبدو أنني رجل يصعب قتله. أهلاً بك في معسكري يا جوشي".

بقــي ابنه واقفاً من دون حراك، بالرغم من قيام جنكيز بمنحه حقوق الضيف مــثل أي محارب عادي، فكانت ملاحظة جارحة. لم يكن قد قال تلك الكلمات لتسوبودي أو لخاسار، و لم تكن لها حاجة بين أصدقاء.

قال جوشي، وهو يحني رأسه حتى لا يرى والده عينيه الغاضبتين: "لقد شرّفتني بذلك يا مولاي الخان".

أومــأ جنكيـــز، وتأمل الشاب فيما كان يمسك يدي والدته بلطف بين يديه ويــنحني، ووجهــه شاحب ومجهد. امتلأت عينا بورت بدموع الفرح، لكن كان هناك تحفّظ بين الأم والابن أكبر مما كان مع أوجيدي. في مثل ذلك الجو، لم تكن تــستطيع احتــضان المحارب الشاب الطويل. قبل أن يتكلم جنكيز مجدداً، استدار جوشي نحو شقيقه الصغير، وتخلى عن كل صلابته فجأة.

قال جوشي: "أراك بخير أيها الفتى".

ابتــسم أوجيدي، وتقدم ليربت على كتف جوشي، مما أثار نــزال مصارعة قــصير انتهى برأسه محصوراً تحت إبط جوشي. راقب جنكيز ذلك بغضب، وكان يرغب في قول شيء آخر يعكر صفو مزاج جوشي. بدلاً من ذلك، مشى جوشي بأوجيدي مبتعداً بالرغم من احتجاجاته المكتومة على فرك رأسه. لم يكن الخان قد سمح في الواقع لابنه بالانصراف، وفتح جنكيز فمه لإعادته.

قال تسوبودي قبل أن يتكلم: "لقد تعلم ابنك جيداً يا مولاي. لقد قاد ألف رجل في معارك ضد محاربــي روسيا والرجال يحترمونه".

عبس جنكيز، وكان يعرف أن اللحظة قد أفلتت منه بطريقة ما. قال: "لماذا قمت بترقيته بسرعة؟".

ربما كان رجل أضعف سيوافق على ذلك، لكن تسوبودي هزّ رأسه مباشرة، وفاءً للشاب الذي كان قد درّبه طيلة ثلاثة أعوام.

"تعلم معنى القيادة بسرعة يا مولاي، وجعل كل رجل يتطلع إليك وحدك بحثاً عن القوة. لدى شاعري العديد من الأبيات عن جوشي والرجال يتكلمون بالخير عن ابن الخان. يستطيع تولي القيادة. ليس لدي مديح أكثر من ذلك".

ألقى جنكيز نظرة إلى حيث كان جوشي يضحك مع أوجيدي. معاً، كانا يبدوان يافعين، وأكثر شبهاً بالفتية الذين كبروا في خيامه. أومأ متحفّظاً، لكن عندما تكلم مجدداً، تلاشت آمال تسوبودي.

"الدم الفاسد قد يظهر على السطح في أي وقت أيها القائد. في هجوم، أو معركة، يمكن أن ينقلب ضدك. احرص على ألا تخاطر بحياتك من أجله".

لم يكن بمقدور تسوبودي معارضة الخان من دون إهانته، بالرغم من أنه كان يتحرق للكلام ضد ذلك الظلم. في النهاية، بقي صراعه داخلياً وأحنى رأسه.

قال جنكيز، وقد تهللت أساريره: "جيلم وتشاغاتاي على بعد ثلاثة أيام فقط. ستري ابناً لي عندها يا تسوبودي، وتعرف لماذا أنا فخور به. سنضيء الأرض بمصابيح ونأكل ونشرب كفايتنا، وسيتكلم الرجال عن ذلك أعواماً".

رد تسوبودي وهو يخفي حزنه: "كما تشاء يا مولاي". طيلة ثلاثة أعوام، كان قد شاهد جوشي يكبر ليصبح رجلاً رائعاً، رجلاً يستطيع قيادة جيوش. لم يكن تسوبودي قد رأى ضعفاً به، وكان يعرف أنه يُحسن قيادة الرجال. بينما كان يتابع نظرة الخان إلى ابنه البكر، شعر تسوبودي بالأسى على الألم الذي يشعر به جوشي بالتأكيد. ينبغي ألاّ يكون أي رجل مرفوضاً من والده. لو أن جوشي لقي الاحترام من كل قائد آخر والازدراء من جنكيز، فسيشعر بالازدراء فقط. عندما استدار جنكيز مبتعداً مع خاسار وكشيون، هزّ تسوبودي رأسه قليلاً قبل أن يتمالك نفسه، وينضم إلى الرجال الآخرين استعداداً لإقامة الوليمة. كان جيلم وتشاغاتاي قادمين ولم يكن تسوبودي يتطلع قدماً لرؤية جنكيز يمتدح ابنه الثاني أكثر من الأول.

الفصل الرابع



أيقظ شيء جيلم من نوم عميق. في ظلمة حالكة، جلس يرهف السمع جيداً. كانت حفرة النار في خيمته مغطاة و لم تستطع عيناه التأقلم مع عدم وجود ضوء. إلى جانبه، تحركت امرأة تشن، ومدّ يده ليمس وجهها.

همس: "اهدأي". كان يعرف أصوات المعسكر: صهيل الجياد، الضحك أو البكاء في الليل الذي كان يساعده على النوم. كان يعرف أصوات قومه وأقل تغيير فيها. مثل كلب بري، كان جزء منه لا يستغرق في النوم أبداً. كان يتمتع بخبرة كبيرة ليصرف عنه الشعور الداهم بالخطر مثل حلم سيّئ. بصمت، أبعد عنه فراءه، ووقف عاري الصدر، لا يضع سوى زوج قدم من الطماقات.

كان منخفضاً وبعيداً، لكن صوت بوق المستطلع كان أكيداً. فيما كان الصوت يتلاشى، أمسك جيلم بسيف يتدلى من العمود المركزي. انتعل حذاءً مريحاً، ووضع معطفاً ثقيلاً فوق كتفيه، واندفع إلى الخارج.

كان المعسكر يستيقظ آنذاك من حوله، المحاربون يمتطون جيادهم وهم يتمتمون ويطقطقون لحيواناتهم. بالكاد كانوا على بعد مسيرة يوم من جنكيز و لم تكن لدى جيلم فكرة عمّن قد يكون مجنوناً بما يكفي ليخاطر بقيادة جياد ثمينة في الظلام. لم يتخيل جيلم عدواً في السهول الخاوية، أو أحداً يتجرأ على مهاجمته. بالرغم من ذلك، سيكون مستعداً. لن يؤخذ بالمفاجأة في معسكره.

جاء تشاغاتي يجري عبر الأعشاب السوداء، وطريقته المتعثرة في الجري تدل على كمية الشراب التي كان قد تناولها ذلك المساء. فزع الشاب عندما أُضيئت المصابيح حول خيمة جيلم، لكن القائد لم يتعاطف معه. ينبغي أن يكون المحارب مستعداً دائماً لامتطاء فرسه، وتجاهل شحوب ابن الخان.

قال بحدّة: "خذ مئة رجل يا تشاغاتي. استطلع الأرجاء بحثاً عن عدو، أو أي شيء. هناك شخص ما في الخارج الليلة".

انطلق الشاب بسرعة، يصفر لاستدعاء ضباطه. اندفع رجال نحو جيلم، ونظّمهم من دون تردد. كان المستطلعون قد منحوه وقتاً و لم يهدره. تشكلت الصفوف في الظلام، وأصبح الليل فجأة يعمّ بالضوضاء فيما كان كل رجل، وكل امرأة وطفل يجهّزون أسلحة أو إمدادات، ويقفزون على عربات. جرى حرّاس مسلحون عبر المعسكر، يبحثون عن مهاجمين أو لصوص.

جلس جيلم في مركز العاصفة، يراقب دوامة الحركة التي تجري حوله. لم تكن هناك صرخات إنذار، حتى ذلك الوقت، بالرغم من أنه سمع بوق مستطلع من بعيد يصدح مرة أخرى. في الضوء الخافت المتراقص لمصابيح دهن الغرير، أحضر تابعه جواده المفضل، وأمسك بالجعبة الكاملة التي تم تقديمها إليه.

في الوقت الذي قاد فيه جيلم جواده للسير مختبئاً في الظلام، كان جيشه على أهبّة الاستعداد. خرج أول خمسة آلاف محارب معه، وكانوا قوة من رجال أشدّاء، متمرّسين بالمعارك. لم يكن أحد يحب القتال في الظلام وإذا كان عليهم أن يشنوا هجوماً، فسيتم قتل الرجال والجياد. قبض جيلم بيده على فكّه من البرد الذي شعر به للمرة الأولى منذ استيقاظه.

قاد جنكيز فرسه بأقصى سرعتها في الظلام، ثملاً وخفيفاً يشعر بأن الركاب يمنعه من الطيران في الهواء. بمقتضى التقليد، كان قد بدأ تناول كل قربة شراب بإراقة بضع قطرات للأرواح التي تحمي قومه. كان قد بصق المزيد منه على نيران الوليمة، وجعله الوهج الذي نجم عن ذلك يدور في دخان حلو المذاق. بالرغم من كل ذلك، كان مقدار كاف قد وصل إلى حلقه و لم يعرف عدد القِرب التي رماها على الأرض.

كانت الوليمة قد بدأت قبل يومين. كان جنكيز قد رحب بابنيه والقائدين العائدين بشكل رسمي، وكرّمهم أمام القوم. كان تجهم جوشي المعتاد قد خفّ قليلاً مع تقديم أطباق لحم كبيرة من الصيد. كان خاسار وأوحيدي أيضاً قد انتقيا أفضل القطع بصرخة فرح. كانوا قد تناولوا الكثير من الأشياء الغريبة في

الأعوام التي أمضوها بعيداً، لكن لم يكن أحد في أراضي كوريو أو تشن يستطيع تقديم طبق من ضأن الأرض الخضراء على طاولة. كان قد دفن ذلك اللحم من شتاء سابق وقد تمّ إخراجه كله لدى عودة القادة. كانت عينا خاسار قد اغرورقتا بالدموع، بالرغم من أنه ادّعى أن ذلك بسبب الطعم اللاذع للحم المتخمّر وليس الحنين إلى الطعام الشهي النادر. لم يصدقه أحد، لكن ذلك لم يكن مهماً.

كانت الوليمة قد وصلت إلى ذروة الضوضاء والانغماس في الملذات. تجول أقوى المحاربين بين الخيام، يبحثون عن نساء. كانت نساء القوم بأمان، لكن جاريات تشن أو النساء الروسيات الأسيرات كن الهدف. كانت صرخاتهن عالية في الظلام، تعلو تقريباً على أصوات الطبول والأبواق حول النيران.

كان الشعراء قد بدأوا بإلقاء أشعارهم وهذا ما سيستغرق اليوم بأكمله لينتهي. كان البعض يلقون الشعر بأسلوب قديم بنبرتين مختلفتين من الحنجرة نفسها. بينما كان آخرون يلقونه بصوت مرتفع، يتنافسون في الفوضى لجذب اهتمام كل من يود الإصغاء. ازداد الحشد إلى جانب النيران حول جنكيز مع تحول الليلة الأولى إلى فجر.

لم يكن خاسار قد نام حتى ذلك الوقت، كما اعتقد جنكيز، وكان يبحث عن خيال شقيقه في الظلام. عندما انقضى اليوم الثاني، كان جنكيز قد رأى كيف احتفظ الشعراء بمديحهم لأرسلان، بانتظار ابن القائد. كان جنكيز نفسه هو مَن أعاد ملء كوب أرسلان بيده.

كان قد قال بصوت يعلو على الضوضاء والصراخ: "تشاغاتاي وجيلم على بعد مسافة قصيرة من هنا يا أرسلان. هل تأتي معي لاستقبال ابنينا؟".

كان أرسلان قد ابتسم ثملاً، وأومأ برأسه.

قال جنكيز، متلفظاً الكلمات بشكل غير واضح: "سأصطحب الشعراء إليهما لتعداد مآثرك أيها العجوز". كانت تلك فكرة رائعة، وبمشاعر جياشة استدعى مجلس قادته إليه. طلب تسوبودي وجوشي الجياد وجاء خاسار وأوجيدي وقد أصابهما الذهول. كان أوجيدي يبدو ساذجاً قليلاً وتجاهل جنكيز رائحة القيء الكريهة حول ابنه.

كـــان كشيون هو من جلب فرس الخان الرمادية، وكانت حيواناً رائعاً. ناداه كشيون مبتهجاً: "هذا جنون يا شقيقي! من يقود مطيته بسرعة في الليل؟ سيسقط أحدهم بالتأكيد".

أشـار جنكيز إلى الظلام ثم إلى مرافقيه. كان قد أعلن: "لسنا خائفين!"، قبل أن يهـتف الرجال حوله لذلك الرأي. "لدي عائلتي وقادتي. لدي صانع السيوف أرسـلان وتـسوبودي الباسل. ستخاف الأرض منا إذا سقطنا. سنفتحها بأيدينا العارية! هل أنت مستعد؟".

رد كـشيون بعـد أن فهـم المزاج السائد: "سأتبعك يا شقيقي". قاد كلا الرجلين فرسيهما إلى مقدمة رتلهما الصغير. كان يزداد عدداً كل لحظة مع انضمام آخرين إليه. كان كوكشو هناك، أحد القلائل الذين لم يكونوا قد أسرفوا في تناول الشراب. كان جنكيز قد بحث عن شقيقه الآخر، تيموج، ورآه واقفاً على قدميه، يهـزّ رأسه المدوّر دلالة على عدم الرضا. لم يكن ذلك مهماً، كما فكّر جنكيز. لا يستطيع الأحمق عديم الفائدة القيام بذلك أبداً.

كان قد نظر حوله، إلى عائلته، وتأكد أنهم جميعاً يحملون قرباً من الشراب الأسـود وشـراب الأرز. لن يكون الأمر نافعاً إذا نفد الشراب منهم. كان اثنا عـشر شـاعراً قد انضموا إليهم، ووجوههم تتورد إثارة. كان أحدهم قد بدأ آنـذاك بإلقـاء قـصيدة، وشعر جنكيز برغبة بركله ليسقط عن فرسه ويتركه خلفهم.

كـان هـناك ضوء نجوم خافت واستطاع رؤية أبنائه، أشقائه وقادته. ابتسم للحظة من فكرة خروج لص بائس أمام تلك المجموعة المخيفة.

"ســأمنح فرساً بيضاء لأي رجل يسبقني في الوصول إلى معسكر جيلم وابني تشاغاتاي". كان قد توقف برهة للتأكد من سماعهم ذلك، وشاهد ابتسامات الرجال العريضة.

كـان قد جأر عندها: "انطلقوا بأقصى سرعة إذا كنتم تمتلكون الشجاعة!"، ودفـع عقبيه في ردفي فرسه التي انطلقت تعدو مسرعة عبر المخيم. كان الآخرون سـريعين مـثله تقريباً، يصرخون ويتسابقون خلفه. ربما كان ألفا رجل قد لحقوا بالخـان إلى الظلام الحالك، وكانوا كل مَن استطاعوا الوصول إلى جيادهم عندما

قفز الخان على فرسه. لم يترنح أحد، بالرغم من أن الأرض كانت قاسية والسقوط يعني المخاطرة بالحياة من دون توقع العواقب.

ســـاعد ركــوب الفرس بسرعة كبيرة فوق أرض سوداء بجلاء ذهن جنكيز قلـــيلاً، بالرغم من أنه شعر بألم حاد ينبض خلف عينه اليسرى. كان هناك نهر في مكان ما قريب، كما يذكر. كانت فكرة غمر رأسه بالماء المتجمد مغرية جداً.

تعكّـــر مـــزاجه الطيب عندما شعر بحركة جانبية في الظلام. للحظة واحدة، تساءل إن كان قد خاطر بحياته، من دون رايات، طبول أو أي شيء آخر يشير إلى أنـــه الخـــان. ثم دفع مطيته للمضي قدماً وصرخ بجنون. لا بد من أن رجال جيلم يـــشكلون طوقين على كلا جانبيه. قاد فرسه مثل أخرق نحو وسط الصف، حيث كان يعرف أنه سيعثر على قائده.

كان خاسار وكشيون قريبين خلفه ثم شاهد جنكيز جوشي يتجاوزه، يرتمي فوق السرج ويهلل لمطيته في أثناء ذلك، ويحث الحيوان على الجري بسرعة.

معـــاً، اندفـــع الرجال الذين يشكلون رأس حربة الرتل المرهق نحو خطوط جـــيلم، بعد أن تجاوزوا الخان. سقط اثنان عندما اصطدمت فرساهما بعقبات غير مـــرئية. ارتطم المزيد منهم بالرجال والجياد المنتشرة في الظلام، غير قادرين على الـــتوقف. كـــسر ثلاثة آخرون سيقانهم وتم طرحهم أرضاً. ترجّل بعض الرجال ضاحكين من دون أن يصابوا بأذى فيما لن ينهض آخرون مجدداً. لم يكن جنكيز يهـــتم لأي من ذلك، وكان مصمماً تماماً على تفادي الخطر الذي يشكله رجال جيلم ورؤية ابنه.

لم يـــصرخ جوشي محذّراً خطوط جيلم، لهذا لم يفعل جنكيز ذلك. إذا اختار ابنه التقدم بسرعة نحو أعناق رجال قلقين يحملون أقواساً مشدودة، لم يكن بمقدور جنكيـــز ســـوى أن يشعر بقشعريرة مفاجئة تسري في جسده بالرغم من ثمالته. لم يكن بمقدوره سوى المضي قدماً.

نظـــر جيلم في الظلام، وكان رجاله مستعدين. كان المحاربون الذين يقودون جـــيادهم مـــثل مجانين قد وصلوا إليه تقريباً. كان قد وسّع الجناحين حول رتلهم،

وكانوا يندفعون نحو كَمين محكم. بالرغم من أنه لم يكن يرى شيئاً أكثر من حشد أسود في ضوء النجوم، إلا أنه كان يستطيع ملء الهواء بالسهام في طرفة عين.

تـــردّد. لا بـــد من أن ذلك جنكيز الذي يقود فرسه في المقدمة. من غيره قد يقـــوم بمثل ذلك العمل المتهور؟ بالرغم من ذلك، لم يكن هناك تحذير. كان جيلم يعـــرف أنـــه لن يدع عدواً يقضي على أفضل رجاله. سيرسل عاصفة من السهام أولاً.

أمعـــن النظر، أدار رأسه يساراً ويميناً ليتبين الخيالات المتحركة. هل يُعقل أن يكون الخان؟ كان بمقدوره أن يحلف أنه سمع شخصاً يغني في الرتل الذي يتجه نحوه مباشرة. في الظلام، وقف وحيداً في ضوء مشعل، ليراه الآخرون. رفع ذراعه وعلى طول الخط انحنت آلاف الأقواس معاً.

صرخ جيلم، بأعلى ما يستطيع: "بأمر مني!". شعر بالعرق يبرد في الهواء على وجهـــه، لكنه لم يكن خائفاً. لم يكن هناك أحد يسأله، أحد يخبره بما ينبغي له أن يفعلـــه. كـــان قراره وحده. ألقى جيلم نظرة واحدة أخيرة على الخيّالة القادمين المتـــشحين بالـــسواد وابتسم بتكلّف، وهزّ رأسه مثل نخيل يهتز في الريح. لم يكن *واثقاً*.

صرخ فجأة: "تمهّلوا. دعوهم يقتربون! تشكيل واسع".

كرّر ضباطه الأوامر عبر النسق. لم يكن بمقدور جيلم سوى الانتظار لرؤية إن كـــان الخيّالة سيتوقفون، أم يخترقون صفوفه ويبدأون القتال. شاهد ظلالاً مشوشة تـــصل إلى مـــئة خطـــوة، عميقاً في الكمين الذي نصبه الجناحان. خمسون خطوة وكانوا لا يزالون يتبعون الرجل الذي يقودهم، إلى حتفهم.

شـــاهد جيلم بعضهم يخففون من سرعة جيادهم ورجالاً في الجناحين يصرخون عـــندما سمعـــوا أصوات أصدقائهم وأفراد عائلاتهم. انفرجت أسارير جيلم، وحمد لأن إحـــساسه كـــان في محله. استدار إلى الخلف نحو المقدمة، وفغر فاه عندما اندفع صف المقدمـــة المتماســـك بإحكام نحو رجاله وكانت الصرخات تصم الآذان. تلاقت الجياد والرجال وفجأة كانت كل يد تحمل سيفاً أو تسحب قوساً مرة أخرى.

صـــرخ: "مشاعل! أحضروا مشاعل إلى هنا!". جرى عبيد عبر الصفوف لإضاءة المكان الذي تمدد فيه رجال يتأوهون ويركلون، وانتشرت في أرجائه الجواد.

عـــرف جيلم جنكيز في وسط المعمعة، وشحب لونه قليلاً، متسائلاً إن كان الخـــان سيطالب برأسه. هل كان ينبغي له أن يتراجع أو يفتح ممراً لهم عبر الجيش؟ أخـــرج زفـــيراً قصيراً عندما فتح جنكيز عينيه، وأطلق لعنة، وجلس مرهقاً. أشار جـــيلم إلى محـــاربَين لمساعدة الخان على الوقوف على قدميه، بالرغم من أنه أبعد ذراعيهما عنه.

نادى جنكيز وهو يهز رأسه: "أين أنت أيها القائد؟".

تقدم جيلم إلى الأمام، يبتلع ريقه بعصبية عندما شاهد جنكيز يمس فكّه ويُقبل عليه ملطخاً بالدم.

قـــال، وهـــو يشد قامته بشكل آلي: "أنا هنا يا مولاي الخان". لم يجرؤ على النظـــر إلى الـــرجال الآخرين الممددين على الأرض وهم يتأوهون، بالرغم من أنه عرف صوت خاسار الغاضب فيما كان يحاول إبعاد شخص فقد الوعي عنه.

استدار جنكيز نحو جيلم، واستقر بصره عليه أخيراً. "ستلاحظ أيها القائد أن لا أحد آخر وصل إلى خطوطك قبلي؟".

طرفت عينا جيلم، وقال: "أعتقد ذلك يا مولاي الخان".

أومـــأ جنكيز بإجهاد على أولئك الذين كانوا خلفه، راضياً. "الليل بدأ للتو وأشعر بدوار في رأسي".

ابتسم جنكيز، ورأى جيلم أن إحدى أسنانه مكسورة على الجانب الأيمن من فمـــه. راقب ما يجري فيما كان جنكيز يبصق الدم على العشب، يحدّق إلى محارب قريب ارتد إلى الخلف خائفاً بشكل ظاهر للعيان.

"أشـــعل الـــنيران يا جيلم. والدك في مكان ما قريب، بالرغم من أنه لم يكن ســـريعاً مثلي، ولا حتى قريباً مني. إذا كان أرسلان لا يزال حياً، فسنحتفل بحياته بتناول شراب الأرز والشراب الأسود وأي طعام لديك".

قـــال جـــيلم بشكل رسمي: "أهلاً بك في معسكري يا مولاي الخان". عندما فهـــم المـــزاج المـــشاغب للرجال الذين وصلوا إليه، أخذ يبتسم. كان حتى والده يضحك بصوت خافت غير مصدق لما يجري بعد أن وقف على قدميه، واستند إلى محارب شاب.

تمتم جيلم لوالده: "إذاً، لم تتوقف؟".

هزّ أرسلان كتفيه استخفافاً وهزّ رأسه، وعيناه تلمعان. "من يستطيع التوقف؟ لقد سحبنا جميعاً إلى هنا".

أكمل عشرة آلاف من رجال جيلم تناول الوليمة في البراري. وقد تم إيقاظ حتى الأطفال الصغار وإحضارهم لرؤية الخان العظيم فيما كان يمشي بخطوات واسعة عبر المخيم. قام جنكيز بوضع يده على رؤوس الصغار، ولكنه كان شارد الذهن ونافد الصبر لسماعه أبواقاً تشير إلى عودة الخيّالة، فعلم أن تشاغاتي قادم. لم يكن يستطيع لوم جيلم على استعداداته، ولكنه أراد رؤية ابنه.

أحضر أتباع جيلم شراباً وطعاماً بارداً للوافدين الجدد فيما كانت النيران توقد من أخشاب تمّ إحضارها من كوريو، وتُلقي بأشعة من الذهب في العتمة. وقد تمت تغطية الأعشاب الرطبة بملاءات من اللباد والكتان. عندما استقر في المكان المخصص له، جلس جنكيز، ووضع ساقاً على أخرى، إلى جانب أرسلان، وانضم إليهما كشيون، خاسار وتسوبودي أمام النيران الملتهبة، ومرّروا قربة من شراب الأرز في ما بينهم. فيما كانت الحلقة تكتمل، اتخذ جوشي مكاناً له إلى يمين خاسار، وبذلك كان أوجيدي أبعد منه في الصف. بدا أن القادة لم ينتبهوا إلى ذلك، بالرغم من اعتقاد جوشي أن كشيون قد رأى كل شيء. تقدم كوكشو بالشكر للانتصارات التي كان جيلم قد حققها والثروات التي أحضرها. شاهد جوشي كوكشو يدور ويزعق، ويرش قطرات من الشراب للرياح والأرواح. شعر جوشي بإحدى القطرات تمس وجهه وتسيل على ذقنه.

بينما كان كوكشو يعود إلى مكانه، عزف الموسيقيون إيقاعات عبر المخيم. تلاشت حسحسة احتراق قطع الخشب، وامتزجت الألحان الكئيبة ببعضها ليحيط صداها الجميع، وانتشرت في الأرجاء كلها. أنشد رجال ونساء أغانيَ وأشعاراً في وهج النار، ورقصوا حتى تصببوا عرقاً. كان أولئك الذين كانوا برفقة جيلم سعيدين للاحتفال بالخان العظيم.

كانت حرارة النار تلفح وجه جوشي، وتشتعل من جمرات برتقالية اللون وأشياء غريبة في الوسط. عندما جلس، حدّق جوشي إلى قادة والده، والتقت عيناه بعيني كشيون للحظة قبل أن يشيح ببصره بعيداً. حتى في ذلك الاتصال الوجيز،

كـــان هـــناك بعض التواصل. لم ينظر جوشي إلى الخلف، وقد أدرك أن كشيون سيراقبه باهتمام كبير. فالعيون تُظهر الروح ويصعب تغليفها بقناع على الدوام.

عندما وصل تشاغاتاي، رافقته صرخات جاغون محاربيه. كان جيلم سعيداً لأن ذهول ثمالة تشاغاتاي قد اختفى بعد قيامه بجولة سريعة. بدا ابن جنكيز نشيطاً وقوياً عندما ترجل عن صهوة جواده.

نهض جنكيز لتحيته، وصرخ المحاربون تقديراً عندما أمسك الوالد بذراع ابنه وربت على ظهره.

قـــال جنكيز: "لقد أصبحت طويلاً أيها الفتى". كانت عيناه تلمعان من تأثير الشراب ووجهه منتفخاً. انحنى تشاغاتاي كثيراً لوالده، وكان نموذج الابن المثالي.

حافظ تشاغاتاي على هدوء أعصابه فيما كان يتبادل المصافحة والتربيت على الأكتاف مع رجال والده. مع انـــزعاج جوشي الشديد، كان شقيقه يسير جيداً، وظهـــره مـــشدوداً مع أسنان بيضاء تلمع حين يضحك ويبتسم. في عمر الخامسة عـــشرة، لم يكن جلده يحمل ندوباً سوى على المعصمين والساعدين ولا أثر لمرض علـــيه. نظر إليه جنكيز بفخر. عندما رأى جوشي الترحيب بتشاغاتاي للجلوس في مكان قريب من جنكيز، ارتاح لإخفاء النار علامات غضبه. كان تشاغاتاي قد نظر إلى جوشـــي للحظة ببرود. لم يكن قد أزعج نفسه بقول كلمات يخص بها شقيقه الأكـــبر، حـــتى بعد ثلاثة أعوام. بقي وجه جوشي هادئاً، بالرغم من دهشته من مقـــدار الغضب الذي اشتعل بداخله من تلك النظرة فقط. لبضع لحظات، لم يكن يريد شيئاً أكثر من السير بين الحمقى الثملين، وطرح تشاغاتاي أرضاً. شعر بأن قوته تزداد في كتفيه عندما تخيل الضربة، ولكنه كان قد تعلم الصبر مع تسوبودي. فيما كان جنكيز يملأ كوب تشاغاتاي، جلس جوشي وحلم بجريمة قتل، مبتسماً مع كل الباقين.

الفصل الخامس



مع حلول الفجر، كان شاعر تسوبودي لا يزال يلقي قصيدة حول ممر بادغر، حيث قاتل أرسلان أكبر جيش لم يسبق أن رآه أحد من القوم. بوجود جنكيز والقادة الآخرين، كان الشاعر أكثر صدقاً من المعتاد في تعداده لمآثر أرسلان. كانوا جميعاً قد أبلوا بلاءً حسناً في ذلك الممر الجبلي المؤدي إلى ينكينغ. تذكر كل رجل تلك الأيام الدموية، وامتزج الفخر والدهشة بالشراب في دمائهم. لم يكن أحد آخر يفهم ما يعنيه الوقوف هناك معاً ضد إمبراطورية تشن ورؤيتها تنهار. كان ممر بادغر هو الرحم الذي أخرجهم إلى عالم جديد، أقوى وأخطر. كانوا قد اتجهوا شرقاً فيما كانت ينكينغ تحترق.

كشفت أشعة الشمس المشرقة آلاف الخيّالة الذين يتجولون في أرجاء أرض المخيم إلى جانب نهر أورخون، والعديد من النساء والأطفال على السروج. كان جنكيز هو الخان ويمكنه قيادة فرسه أينما يشاء، لكنهم جميعاً أرادوا سماع قصص أرسلان. مع ارتفاع شمس الصباح في السماء، كانت القصائد والحكايات تخرج من مئة فم، مراراً وتكراراً حتى بُحت أصوات الشعراء والرواة.

لم يكن حتى جنكيز قد أدرك أن كثيرين يرغبون في سماع قصص الأيام الخوالي، لكن قومه جلسوا يرهفون السمع، بمن فيهم أولئك الذين كانوا يشربون كثيراً ويحشون أفواههم بالضأن كثير الدهن ولحم الماعز. سمع مجدداً كيف أنقذه أرسلان من حفرة، وطرفت عيناه من ذكرى أليمة لدى سماعه أسماء لم تكن قد مرت عليه منذ سنوات. كان أرسلان أول من دان له بالولاء، إذ قدم له جياداً، وخياماً، وملحاً ودماً عندما لم يكن لدى جنكيز سوى والدته وشقيقته، وبضعة أشقاء ويتضور جوعاً مثل رفاقه. كانت تلك ثقة كبيرة، ووجد جنكيز نفسه

يتذكــر ويتأثــر مــرة أخرى بالتغييرات التي كان أرسلان قد شهدها وساهم في إحــداثها. كان ذلك هو هدف قول الحقيقة عن حياة الرجل، وكل أولئك الذين سمعوا تلك الحقيقة سيتذكرون ماذا كان يعني لهم وما حققه بمرور الأعوام.

توقــف ســرد القــصص وإلقــاء الأشعار ليرتاح الرواة والشعراء استعداداً لاحتفالات المساء. وبحلول ذلك الوقت، كان واضحاً أن أمة المغول كلها ستحتشد في ذلك المكان.

لم يكــن ذلــك هو المكان الذي ينوي جنكيز أن يكرّم أول قادته فيه. كان النهــر بعيداً جداً، والأعشاب متناثرة والأرض نفسها صخرية وجافة. بالرغم من ذلــك، كــان الافتقار إلى الاستقرار هو ما جعله يهمهم راضياً فيما كان يقضي حاجته على الأرض. لم يكن ينبغي لقومه أن يعتادوا على الراحة، كما قال لنفسه. كانت حياتهم القاسية تجعلهم أقوى من أولئك الذين يعيشون في المدن.

قاطعتــه صــرخات وهتافات قريبة أفكاره. بدا أن المحاربين يتجمّعون حول مكــان واحد مثل خلية نحل. عندما ركّز جنكيز بصره، رأى تشاغاتاي يعتلي عربة لمخاطبــتهم. تقطب جبين جنكيز عبوساً عندما أسكت صوت آخر الحشد، وكان صــراخاً أشــبه بالعويل الممزوج بالسعال الذي جعل شعر عنقه ينتصب. أنــزل جنكيــز يــده إلى قبــضة سيفه فيما كان يمشي بخطوات واسعة بين أفراد قومه، وجعلهم يتراجعون أمامه بدلاً من مس الخان وفقدان يد أو رأس.

كــان قادته قد تجمّعوا حول قفص حديدي على عربة، لكن جنكيز لم ينظر إليهم، ولا إلى تشاغاتاي، الذي وقف مثل مالك فخور بما لديه. كان الحيوان خلف القــضبان أكبر من أي هر سبق ورآه. لم يسع جنكيز سوى أن يهز رأسه مذهولاً، وأغلق إحدى عينيه ألماً من سنه المكسورة والصداع الذي يشعر به. لتسكين الألم، أشــار بطلــب المزيد من الشراب الأسود، وملأ فمه بجرعة منه. حتى مع ذلك، لم تبــتعد عيناه عن الوحش الذي كان يتحرك إلى الأمام والخلف، مكشّراً عن أنيابه البيــضاء المقوّســة تعــبيراً عن غضبه. كان قد سمع بنمر مخطط باللونين البرتقالي والأسود، لكن رؤية فكّيه وسماع صوت ارتطام ذيله بالأرضية في أثناء تحركه جيئة وذهابــاً في القفــص، جعــلا قلبه يخفق بقوة. كان هناك تحدٍّ في عينيه الصفراوين أخاف الحشد المندهش.

قال تشاغاتي: "أليس هدية للخان؟".

بالكاد ألقى جنكيز نظرة عليه، ولكن تشاغاتي فقد بعضاً من غروره في ذلك التحذير. كان الحشد حولهما قد التزم الصمت فيما كان ينتظر رد فعل الخان. كان واضحاً أن جيلم غير مرتاح، وأومأ إليه جنكيز بإعجاب.

" لم أرَ أبداً مثل هذا الحيوان أيها القائد. كيف أمسكت به؟".

"النمـر هديـة لك يا مولاي، من ملك كوريو. لقد ربّوه منذ كان صغيراً، لكـنهم لم يـستطيعوا ترويضه. قيل لي إنه سيهاجم حتى رجلاً على جواد، ويقتل كلاً من المطية والفارس".

وقـف جنكيـز قريباً جداً من القضبان، يحدّق إلى عينيِ النمر. عندما التقت العـيون، تحـرك الحـيوان من دون سابق إنذار، وهزّ ثقله القفص عندما اصطدم بالقـضبان. كان جنكيز ثملاً جداً لتفادي ذلك، وشعر بذراعه تتمزق عندما أصابه مخلب الحـيوان. نظر بدهشة كبيرة إلى الدماء التي على ردنه الممزق. كان مخلب واحد قد أصابه ومزّق لحمه عميقاً.

قـال مندهشاً: "سريع جداً... لقد رأيت أفاعيَ أبطأ. وبمثل هذا الحجم! يمكنني تـصديق حكايـة قتله لإنسان وجواده. يمكن لهذين الفكين أن يحطما جمجمة". تمايل قليلاً فيما كان يتكلم، ولكن لم يُشر أحد إلى الجرح كي لا يُحرج الخان.

قـال تشاغاتي بتواضع أكبر: "في كوريو، كان هناك محاربون يصطادون النمور، بالـرغم من أنهم يعملون في مجموعات ويستعملون أقواساً، رماحاً، وشباكاً". وقعت نظرة تشاغاتي على جوشي فيما كان يتكلم، وتغيرت معالم وجهه. كان شقيقه الأكبر مفتوناً بالحيوان مثل جنكيز نفسه ووقف قريباً جداً من القضبان.

حذّره تشاغاتي بصوت عالٍ: "توخَّ الحذر يا جوشي. سيضربك أنت أيضاً".

حملـق بـه جوشي. كانَ يرغب في تكذيبه، لكن لم يكن بمقدوره التفاخر بسرعته فيما كان والده واقفاً وهو ينـزف.

سأل جوشي: "هل اصطدت أحد تلك النمور في أرض كوريو؟".

هزّ تشاغاتي كتفيه استخفافاً. "لا تتواجد بكثرة حول قصور الملك". بعد أن رمقـه جوشي بنظرة ثاقبة، لم يسعه سوى أن يتابع: "كنت سأشترك في ذلك، إن كان ممكناً العثور على أحدها".

"ربما"، قالها جوشي عابساً. "بالرغم من أنني أشك في أن جيلم كان سيخاطر بحياة فتى يافع بمواجهة مثل هذا الوحش".

تـورّد وجـه تشاغاتي كله عندما ضحك بعض الرجال بصوت خافت. قبل لحظـات، كان سيد الموقف. بطريقة ما، كان والده وجوشي قد سرقا ذلك منه، لهـذا كـان عليه أن يدافع عن كبريائه. بعمر الخمسة عشر عاماً، لم يكن بمقدوره كبت غيظه، واندفع فجأة من دون تفكير ليهاجم الشخص الوحيد الذي يجرؤ على تحدّيه.

"هل تظن أنك تستطيع مواجهة نمر يا جوشي. سأراهن بثروة لرؤية ذلك".

فـتح جـيلم فمـه، لكن غضب جوشي انبثق وتكلم بسرعة. قال: "ضع شـروطك يا شقيقي. سأفكر في تعليم قطك بعض الاحترام. لقد أراق دم والدي، بالمحصلة".

قال جيلم بحدّة: "هذه حماقة سكارى".

رد تـشاغاتي بسرعة: "لا، دعه يحاول. سأراهن بحمولة مئة عربة من حصتي في جـزية كوريو. عاج، ومعدن، وذهب وخشب". لوّح بيده كما لو أنها لا تعني شيئاً: "إذا قتلت النمر، فستصبح ملكاً لك".

قـال جوشـي: "وستركع لي أمام كل القبائل". كان الغضب يأكله، ويجعله مـتهوراً. كانت عيناه تقدحان شرراً عندما حدّق إلى تشاغاتي، لكن الفتى الأصغر كان لا يزال يسخر منه.

"لتحظى بذلك، ينبغي لك أن تفعل ما هو أكثر من قتل نمر يا شقيقي. لتحقق ذلك، ينبغي لك أن تكون خاناً. ربما حتى ذلك لن يكون كافياً".

نـزلت يد جوشي إلى مقبض سيفه، وكان سيشهره لولا أن جيلم وضع يداً على معصمه.

"هل ستتقاتلان مثل طفلين أمام المخيم، في الليلة التي يتم فيها تكريم والدي؟ النمر هدية ملك للخان. لا يمكن لأحد آخر أن يقرر مصيره".

كانت عيناه غاضبتين، فخفض تشاغاتي بصره خانعاً. خلال تدريبه، كان قد تحمّل عقوبات قاسية، واستمع إلى محاضرات مريرة من القائد. كانت عادة الطاعة متأصلة به.

أخـيراً، تكلـم جنكيز بعد أن راقب الحديث كله. قال: "أقبل الهدية". لقد بـدت عيناه الصفراوان بلون عيني القط الكبير نفسه الذي يصدر ضرضرة خلفهم. أحـنى جوشـي وتشاغاتي رأسيهما كي لا يثيرا غضب الخان. عندما يكون ثملاً، يمكن لجنكيز أن يطرح رجلاً أرضاً إذا نظر إليه.

قال جنكيز بعد أن أمعن التفكير: "يمكننا تشكيل حلقة من محاربين مسلحين، يوجهـون سـيوفهم ورماحهم إلى الوسط. يمكن لرجل واحد أن يواجه الوحش عندها، إذا أراد ذلك".

قـال جـيلم بصوت مجهد: "هذه الحيوانات أكثر خطورة من أي شيء آخر رأيته من قبل. مع وجود نساء وأطفال في كل الأرجاء...". توقف بين الحاجة إلى إطاعة الخان والجنون الذي بدا أن جنكيز يفكر فيه.

رد جنكيـز وهو يهز كتفيه غير مبال: "اجعل النساء والأطفال يتراجعون إلى الخلف أيها القائد".

كـان تدريب جيلم متأصلاً به أيضاً، فأحنى رأسه لما بدا أمراً لا مفر منه. لم يجرؤ تشاغاتي على النظر إليه.

"حـسناً يـا مولاي. يمكن أن أجعل رجالي يربطون ألواحاً خشبية ثقيلة معاً لتشكيل حلبة مغلقة. ويمكننا استعمال المنجنيقات لتكون هيكلاً".

أومـأ جنكيز، من دون اكتراث لطريقة حل المشكلات. استدار إلى جوشي فيما كان الشاب يقف مذهولاً مما قاده إليه اندفاعه وافتخاره بنفسه. حتى تشاغاتي بـدا مندهـشاً، لكن جنكيز كان يتخذ كل القرارات ولم يكن في وسعهما سوى مراقبة ما يجري.

قـال جنكيز بلطف: "اقتل ذلك الوحش وربما سيركع شقيقك لك. ستراقب القبائل ما يحدث أيها الفتى. هل سيرون بك خاناً؟".

قال جوشي من دون تردد: "أو جثة، أو كليهما". لم يكن يستطيع التراجع، ليس ووالده وتشاغاتي ينتظران ذلك. نظر إلى الأعلى إلى النمر في قفصه وعرف أنه سيقتله، لكنه بطريقة ما لم يكترث لذلك. كان قد رافق الموت من قبل، في معارك مـع تسوبودي. بعمر السبعة عشر عاماً، كان يستطيع أن يغامر بحياته من دون أن يفكر كثيراً في الأمر. أخذ نفساً عميقاً، وهز كتفيه غير مبال.

قال جوشي: "أنا مستعد".

قال جنكيز: "إذاً، أقيموا الحلبة، وضعوا القفص داخلها".

حالما بدأ جيلم يرسل رجاله لجلب ألواح الخشب والحبال، أومأ جيلم إلى تشاغاتي، فقفز الشقيق الأصغر برشاقة إلى الأرض، هزّ العربة مما جعل النمر يصدر ضرضرة بصوت زاد من توتر الحشد.

قال جوشي: "سأحتاج إلى سيف جيد لمواجهة ذلك الحيوان. سيفك".

ضاقت عينا تشاغاتي، وكافح لإخفاء فرحته. لم يكن في وسع جوشي النجاة من مواجهة نمر. كان يعرف أن قوم كوريو يخرجون لاصطياد أحدها في مجموعات من ثمانية رجال على الأقل، مدرّبين جيداً. كان يحدّق إلى عيني رجل ميت ولم يكن يصدق حظه. بشكل مفاجئ، حلّ حزام السيف الذي كان جنكيز قد منحه إياه قبل ثلاثة أعوام. شعر بالخفة بعد أن أزال ثقله عنه، لكن بالرغم من ذلك كان قلبه يخفق بقوة.

تمتم: "سأستعيده بعد أن يمزق الوحش رأسك إرباً". لم يسمع ذلك أحد آخر.

قال جوشي: "ربما". لم يستطع منع نفسه من النظر إلى الحيوان في القفص. شاهد تشاغاتي النظرة، وضحك بصوت عال.

"هذا يناسبني تماماً يا جوشي. لم أتوقع أبداً أن أقبل وغداً ثمرة اغتصاب ليكون خاناً". مشى مبتعداً، وترك جوشي يحدّق إلى ظهره بغضب.

مع مغيب الشمس، ظهرت الحلبة على أعشاب السهل. بالنسبة إلى عيني جيلم اليقظتين، كانت متيناً من أخشاب السنديان والزان التي تم إحضارها من كوريو، مربوطة بحبال ثقيلة ومدعومة من كل الجهات بمنصات المنجنيقات. بقطر أربعين خطوة، لم تكن هناك بوابة أو مكان للهرب من الحلبة. كان على جوشي أن يتسلق المتاريس، ويفتح القفص بنفسه.

عندما أصدر جيلم أمراً بإشعال المشاعل حول الحلبة، تزاحمت الأمة كلها لتقترب قدر ما تستطيع. في البداية، بدا أن أولئك الذين يستطيعون تسلق الجدران هم فقط الذين سيحظون بمتعة المشاهدة، لكن جنكيز أراد أن يشاهد شعبه ما سيحدث، لهذا

قـام جيلم باستعمال عربات كمنصات في حلبة خارجية، وارتفع رجال على أهرامات مـن سلالم خشب الصنوبر، التي تم تثبيتها بقوة معاً باستعمال المسامير. احتشدوا فوق الأسـوار مـثل النمل، ووقع أكثر من أحمق ثمل على رؤوس أولئك الموجودين تحتهم، وكان الازدحام شديداً لدرجة أن الأرض اختفت عن الأنظار.

حظـي جنكيـز وقادته بأفضل الأماكن فوق الحلبة، وكان الخان قد جعلهم يـثملون حتى كادوا يفقدون الوعي مع انتهاء اليوم الثالث. كان الجميع قد شربوا نخـب أرسلان وكرّموه، لكن بحلول ذلك الوقت، كان المخيم كله يعرف أن ابن الخان سيقاتل وحشاً غريباً، وشعروا بالإثارة من دنو أجله. كان تيموج قد جاء مع آخر العربات من المخيم إلى جانب نهر أورخون. قبل معظم الرهانات من المحاربين، والتي كانت جميعها على القتال الآتي. لم يراهن أحد على فوز جوشي ضد المرعب المخطّط الذي يضرب بذيله الأرض ويتحرك جيئة وذهاباً محدّقاً إليهم.

بحلـول الليـل، كان الضوء الوحيد في ذلك السهل يصدر من تلك الحلبة، وكانت مثل عين ذهبية يحيط بها حشد كبير من أمة المغول. من دون توجيه، كان الفتـيان الطبّالون قد بدأوا ضرب إيقاعات الحرب. كان جوشي قد عاد إلى خيمة جيلم الخاصة ليرتاح بعد ظهر ذلك اليوم. لقد انتظروه وعيونهم شاخصة باستمرار لرؤية ابن الخان يخرج إليهم.

وقف جيلم ونظر نحو الشاب الجالس على سرير منخفض، وسيف والده فوق ركبتـيه. كـان جوشي يرتدي الدرع الثقيلة التي كان تسوبودي قد منحه إياها، والمـصنوعة من طبقات بسماكة إصبع من الحديد فوق ملابس سميكة، وتغطيه من عنقه حتى ركبتيه. كانت رائحة العرق الكريهة قوية في الخيمة.

قال جيلم: "إنهم ينادونك".

رد جوشي بتوتر: "إنني أسمعهم".

"لا يمكنني قول إنك لست مضطراً إلى الذهاب. افعل ذلك". شرع جيلم في مـدّ يـده لوضـعها على كتف الشاب. ولكن بدلاً من ذلك، تركها تـنـزل إلى الأسـفل وتنهد. "يمكنني القول إن هذه حماقة. لو أنني كنت أعرف ما ستؤول إليه الأمور، لكنت أطلقت سراح النمر في غابات كوريو".

تمـتم جوشي: "انتهى الأمر". نظر إلى الأعلى نحو القائد، وزمّ شفتيه بمرارة. "ينبغي لي أن أقتل القط الكبير الآن، أليس كذلك؟".

ابتسم جيلم بتكلّف. في الخارج، كانت ضوضاء الحشد قد ارتفعت، واستطاع آنذاك سماعهم يهتفون باسم جوشي. ستكون لحظة مجيدة، لكن جيلم كان يعرف أن الفتى لا يستطيع النجاة منها. عندما كان بناء الحلبة قائماً على قدم وساق، ويتم إنزال القفص عن ظهر العربة، كان قد تفحّص الحيوان، ورأى القوة الهائلة لعضلاته. كان أسرع من رجل، وأثقل منه بأربعة أضعاف، وسيكون إيقافه مستحيلاً. كان صامتاً بشكل ينذر بالشر عندما وقف جوشي عند قدميه، وحرّك كتفيه. كان ابن الخان البكر قد ورث سرعة والده المذهلة، لكن ذلك لن يكون كافياً. رأى القائد العرق يسيل على وجه جوشي بقطرات كبيرة. لم يكن جنكيز قد ترك له مجالاً لتفسير أوامره، لكنه كان لا يزال يكافح ضد الطاعة العمياء. كان جيلم قد أحضر النمر إلى الخان، ولم يكن بمقدوره ببساطة إرسال فتى إلى حتفه. عندما تكلم أخيراً، كان صوته خافتاً للغاية.

"سأكون على السور مع قوس جيد. إذا وقعت، حاول أن تتماسك وسأقتله". رأى وميض أمل في عيني الشاب لدى سماعه ذلك. تذكر جيلم طريقة الصيد الوحيدة التي كان قد شاهدها في كوريو، عندما تلقى نمر سهماً في قلبه وانتزع بالرغم من ذلك أحشاء رجل خبير باستعمال الشباك.

قال جيلم بلطف: "لا يمكنك إظهار الخوف. بغض النظر عمّا قد يحدث. إذا كان عليك أن تموت الليلة، فمت وأنت رابط الجأش. من أجل شرف والدك".

رداً على ذلك، ألقى جوشي نظرة غاضبة على القائد.

قال جوشي بحدّة: "إذا كان يعتمد عليّ من أجل شرفه، فسيكون أضعف مما توقعت".

تابع جيلم كلامه، متجاهلاً ثورة الغضب: "بالرغم من ذلك، كل الرجال يموتون. ربما يكون ذلك الليلة، العام القادم أو بعد أربعين عاماً، عندما تصبح من دون أسنان وضعيفاً. كل ما يمكنك فعله هو اختيار الطريقة التي تلقاه بها".

للحظة، ارتسمت على وجه جوشي ابتسامة. "لا تزد من ثقتي بنفسي أيها القائد. سأقدّر تلك الأعوام الأربعين".

هزّ جيلم كتفيه غير مبال، متأثراً بالطريقة التي أظهر بها جوشي شجاعته.
"عـــندها ينبغـــي لي أنّ أقول الآتي: اقتله وسيركع شقيقك لك أمام القبائل. ســـيكون اسمك معروفاً، وعندما ترتدي جلده، سينظر إليك كل الرجال بإعجاب. هل ذلك أفضل؟".

رد جوشي: "نعم، إنه كذلك. إذا لقيت حتفي، فكن مستعداً مع قوسك. لا أرغـــب بـــأن يأكلني". مع نفس عميق، أظهر أسنانه للحظة، ثم انحنى ليعبر الباب المـــنخفض ويخرج. صرخ قومه لرؤيته، وملأ الصوت السهول، وعلا على ضرضرة النمر الذي ينتظر.

أفسح له الحشد طريقاً ليمر بينهم ولم يرَ جوشي وجوههم المشجعة التي تحدّق إليه عندما اقترب من أسوار الحلبة. كان ضوء المشاعل يتمايل عندما تسلق برشاقة إلى الأعلى، ثم وثب على العشب في الأسفل. راقبه النمر بتركيز مرعب، لذلك لم يـــرغب بفتح القفص. نظر جوشي إلى الأعلى نحو وجوه قومه. كانت والدته هي المـــرأة الوحـــيدة التي استطاع رؤيتها، وبالكاد تمكن من النظر إلى عينيها. عندما الـــتقت عيونهما، رأى يدي بورت تهتزان على الخشب، كما لو أنها تريد مدّ يدها إلى ابنها البكر.

كـــان وجـــه والده صارماً بشكل لا يمكن تفسيره، لكنّ عمه كشيون أومأ إليه عـــندما الـــتقت عيونهما. كان وجه تسوبودي خالياً من أي تعبير، ويخفي الألم الذي يعـــرف جوشي أنه يشعر به. لم يكن القائد ليفعل شيئاً ضد رغبة الخان، لكن جوشي كـــان يعـــرف أنه على الأقل لن يستسيغ القتال. بشكل فطري، أحنى جوشي رأسه للقائـــد، ورد تسوبودي عليه بإيماءة من رأسه. علت ضرضرة النمر، ثم فتح فمه الكبير ليقـــضم قضيباً حديدياً من الإحباط، غاضباً من الحلبة التي يصرخ من حولها الرجال. كـــان الحيوان ذكراً يافعاً، كما رأى جوشي، لا يحمل جسده ندوباً ويفتقر إلى الخبرة. شـــعر بـــيديه تهتزان وفمه يجف كما يحدث معه عادة قبل أي معركة. أشعرته مثانته بوجـــودها، وأمـــسك بقوة بقبضة الذئب للسيف الخاص بوالده. كان سيفاً رائعاً وقد أراده مـــنذ وقت طويل. لم يكن قد عرف جده ياسوجي، وتمنّى فقط أن تمنحه روح الرجل العجوز القوة. وقف ثابتاً، ومنحه نفس عميق آخر الهدوء.

راقبه تشاغاتي بعينين تلمعان في ضوء المشاعل. ثبّت جوشي عينيه عليه لبعض الوقت، مظهراً للفتى ازدراءه له قبل أن يستدير إلى القفص. تعالت أصوات المحاربين عـــندما اقتـــرب من القضبان، ورفع يده إلى المسمار الحديدي الذي يُحكم إغلاق البوابة. بدا أن النمر يشعر بنيته ووقف ينتظر. التقت عيونهما، وتمتم جوشي بتحية للنمر الكبير.

قـــال بصوت خافت: "أنت قوي وسريع، وكذلك أنا. إذا قتلتك، فسأحمل جلدك متباهياً به حتى نهاية حياتي". شد المسمار، وفتح باب القفص، وتحرك بسرعة بعـــيداً. أطبق الصمت على الحشد، وحدّق كل محارب إلى الجسد المخطط الذي انسلّ خارجاً كما يندلق الزيت.

تراجع جوشي ست خطوات كبيرة، ووقف يحمل سيفه إلى الأمام والأسفل، مـــستعداً للطعـــن. خفق قلبه بقوة في صدره، وشعر بأن قدميه ثقيلتان وتعوزهما الرشاقة مقارنة بهذا الوحش الذي جاء ليقتله.

في الـــبداية، تجاهلـــه النمـــر. تحـــرك على طول الأسوار، يبحث عن طريق للخـــروج. هـــزّ ذيلـــه غضباً وانـــزعاجاً عندما استأنف الحشد صراخهم. أمعن جوشـــي النظـــر عـــندما تمدّد الحيوان ليبدو بكامل طوله إلى جانب أحد الألواح الخشبية، ومخالبه تضرب بغضب الخشب القاسي. في القفص، لم تكن قوته ورشاقته واضـــحتين تمامـــاً. عندما تحرك، كان ببساطة قاتلاً، وابتلع جوشي ريقه بعصبية، منتظراً التعرض لهجوم.

كـــان حـــذراً منه. رأى عينيه الذهبيتين تنظران إلى عينيه ثم ربض على الأرض ورأسه إلى الأعلى. كان ذيله يضرب العشب ومرة أخرى أطبق الصمت على الحشد.

لم يكـــن أي رجل يستطيع الصمود أمام مثل ذلك الوحش، وكان ذلك شيئاً مؤكداً. تلاشت الرعشة في يديه، ووقف ينتظر.

وهنا هجم النمر، لقد حدث ذلك بسرعة كبيرة جعلت جوشي يقف ساكناً تقـــريباً بـــلا حراك. في ثلاث خطوات، انتقل من تمثال إلى صورة مشوشة، وقفز مباشرة عليه.

لم يحاول جوشي استعمال السيف. رمى بنفسه إلى الجانب، وكان بالرغم من ذلـــك بطيـــئاً للغايـــة. تلقى ضربة من النمر جعلته يترنح على العشب، ويكافح

لاستعادة توازنه. لمح الحيوان يهبط على الأرض ويتحول بسرعة كبيرة نحوه مرة أخرى. أطبق فك أكبر من رأسه على ذراعه اليسرى التي تغطيها الدرع وصرخ ألماً ورعباً من الضغط الذي شعر به. نقل يده اليمنى إلى الأمام، دفع السيف في صدر الحيوان المخطّط فيما كان يتراجع إلى الخلف. تدحرجا معاً، وهاج الحشد الذي أخذ أفراده يصرخون تشجيعاً للرجل الشجاع الذي يقاتل في الأسفل.

شعر جوشي بضربات موجعة عندما انهالت عليه مخالب النمر الخلفية. حمت درعه بطنه، بالرغم من أن الصفائح المعدنية تطايرت عندما ضربتها مخالب بطول أصابعه. شعر بعظام ذراعه تنطحن، وتابع النمر الهجوم بقائمتيه الأماميتين، يركله ويضربه على العشب. كانت أنفاس الحيوان حارة على وجهه، ودفع سيفه إلى الأمام مراراً وتكراراً. لم يستطع النهوض من الثقل الجاثم على جسده، وعندما حاول النمر تحرير ذراعه لقضمها مجدداً، دفع بردن الدرع عميقاً في عنقه بالرغم من الألم الذي يشعر به.

تحشرج صوت النمر من الانسداد في حنجرته، وحرّك رأسه من جانب إلى آخر لتحرير أسنانه. لكن جوشي تشبّث به فيما كانت الأوتار تتمزق، ودموع الألم تملأ عينيه. هل آذاه؟ لم يكن يعرف. طعن بسيفه الفولاذي بعيداً حتى ضاع في الجلد السميك. شعر بألم جديد في ساقيه بعد أن مزّق الوحش درعه إرباً. أفلت سيفه من يده، وسحب سكيناً، دفعها في العنق المتلبد بعد أن تحرّرت ذراعه اليسرى.

صرخ جوشي عندما أغرق الدم اللزج وجهه، وشوّش رؤيته. لم يكن يرى شيئاً، وأضحى المحاربون الذين يراقبون ما يحدث بعيدين، وأصواتهم مثل همسات العبيد. شعر بالموت يغالبه. لكنه بالرغم من ذلك دفع السكين عميقاً، ومرّرها إلى الأمام وإلى الخلف.

انهار النمر فجأة، وجثم بثقله عليه حتى لم يعد يقوى على الحراك. كان جوشي ضائعاً في عالم الألم، ولم يرَ تسوبودي وجيلم يقفزان إلى الحلبة، وقد شدّا قوسيهما. سمع صوت والده، لكنه لم يستطع فهم الكلمات من أصوات أنفاس النمر المتحشرجة القريبة جداً من وجهه. كان النمر لا يزال حياً، لكن الضربات بالمخالب على بطنه وساقيه توقفت. ملأ لهاثه العالم، واستمر في استعمال سكينه بجنون بالرغم من ذلك.

فـيما كان جيلم يحميه بقوسه، دفع تسوبودي النمر بقدمه بعيداً عن المحارب المحطـم. تـرنح الرأس الكبير عندما سقط إلى جانب الجسد، لكن الصدر كان لا يزال يرتفع وينخفض والعينين تلمعان غضباً وكراهية. سالت الدماء من عنقه وكان الـصدر الأبيض لزجاً وملطخاً بها. راقب كل أولئك الموجودين حول الحلبة فيما كـان الحيوان يكافح للوقوف على قوائمه، ثم انهار، ليقع ساكناً من دون حراك في النهاية.

مـدّ تـسوبودي يده إلى جوشي، وأبعد اليد التي امتدت نحوه من دون وعي تحمـل سـكيناً. كانت عظام ذراع الشاب اليسرى شبه منسحقة وساقاه مليئتين بجـروح بلـيغة تسيل منها الدماء إلى قدميه. لم تكن بوصة من الجلد تحت الدماء سليمة. أبعد تسوبودي سكين جوشي، ومسح عينيه بإبهاميه، حتى يستطيع جوشي رؤية ما يجري. بالرغم من ذلك، كان واضحاً أن الشاب يشعر بالدوار، غير مدرك أنه قد نجا.

سأله تسوبودي بصوت عال: "هل يمكنك الوقوف؟ هل يمكنك سماعي؟".

تخـبّط جوشـي، وتـرك لطخة دموية على رداء القائد. أمسك تسوبودي بمعـصمه، ورفعه ليقف على قدميه. لم يستطع جوشي الوقوف لوحده وكان ثقلاً ميـتاً على القائد حتى ألقى جيلم قوسه، وأمسك به من تحت إبطه. ساعد القائدان ابن الخان على الوقوف بينهما، واستدارا به ليواجه والده.

أعلن تسوبودي مبتهجاً: "إنه حي يا مولاي الخان".

علت الدهشة وجوه مَن كانوا حول الحلبة، كما كان جيلم قد توقع. وحده تشاغاتي كافح لإخفاء غضبه. رأى جيلم المرارة في الشاب الذي كان قد درّبه طيلة ثلاثـة أعـوام، وتجهـم وجهه. كان جوشي يستحق الكثير من التكريم لشجاعته وتـشاور جـيلم قليلاً مع تسوبودي، ثم تركه يتحمل ثقل جوشي بأكمله وابتعد عـنهما. مدّ القائد يده إلى السيف الملطخ بالدماء الذي وقع على العشب، وأمسك به.

قال وهو يرفعه إلى الأعلى حتى رأى الجميع قبضة رأس الذئب: "لقد استحق هـذا الـسيف يا مولاي، أليس كذلك؟". صرخ المحاربون معبرين عن موافقتهم، وهزّت أصواتهم أرجاء الحلبة. لم يتأثر جنكيز بذلك، وقد بدا وجهه مثل قناع.

وقف جيلم ينتظر فيما كان ابن الخان ينـــزف. دارت أفكار الخان في ذهنه، وكانت مزيجاً من الافتخار والغضب. كان قد توقع أيضاً موت جوشي، و لم يخطط لمـثل تلـك النتيجة. شعر بالدوار مجدداً فيما كان يحدّق إلى الحلبة والمرارة تملأه. أخيراً، أومأ برأسه، وانحنى جيلم امتثالاً لرغبته.

من دون أن يتمكن أولئك الموجودون حول الحلبة من سماعه، تكلم جيلم إلى جوشي فيما كان يضع السيف بين أصابعه المتشنجة.

همس في أذن جوشي: "سيتذكرون ذلك أيها الفتى". لم تظهر على الشاب أي إشارة على أنه سمع ذلك، وأدرك جيلم أنه فقد وعيه.

قال تسوبودي لجيلم: "ربما تقتله جروحه".

هـــزّ القائد كتفيه غير مبالٍ. "المهم أنه وقف وجهاً لوجه ضد ذلك الوحش. لن ينسى ذلك كل من رآه".

فيما كان يتكلم، نظر جيلم مرة أخرى إلى تشاغاتي. كان الوجه المتمعض قد اختفى، وتنهد ارتياحاً. كان يضع يده على أضلاع جوشي عندما تعالت الأصوات خارج الحلبة. كان جنكيز قد صرخ بأمر في الظلام، وتحرك الحشد حول مكان لا يستطيع أولئك الذين يقفون داخل الحلبة رؤيته. عندما نظر جيلم إلى جنكيز، رفع الخان يداً، وأبقاه هناك مع تسوبودي والجسد الذي يحمله.

ظهر تشاغاتي مرة أخرى إلى جانب والده، مرتبكاً فيما المحاربون يدفعونه إلى الأمـــام. كانوا قد سمعوا جميعاً شروطه، وبدا أن جنكيز لن يسمح له بالاختفاء في الظلام. لم ينظر الخان إليه، لكن أمراً بصوت خافت جعل تشاغاتي يستشيط غضباً، ويتـــسلق الحاجـــز الخشبـــي. راقب جيلم وتسوبودي بصمت فيما كان تشاغاتي يقفز إلى الأسفل ويقترب منهم. كان يمكن لرجل أكبر سناً القيام بذلك بتباه، وأن يمـــنح ويتلقـــى التكريم بإشارة مهيبة. كان تشاغاتي يفتقر إلى مهارة تحويل موقف لمصلحته. وقف أمام شقيقه فاقد الوعي، يهتز غضباً وإذلالاً.

بـــصمت، نظر تشاغاتي إلى الأعلى مرة أخرى نحو والده. لم يكن هناك من مفرّ. جثا بسرعة على ركبة واحدة، وصرخ الحشد ساخرين. نهض تشاغاتي ببطء أكبر، ووجهه متجهم فيما كان يسير نحو الأسوار الخشبية، ويمسك بيد لتعيده إلى حيث كان.

أومـأ جيلم بحزن لنفسه. تمتم لتسوبودي: "أظن أنك حظيت بالابن الأفضل لتدريبه يا صديقي".

رد تسوبودي: "آمل أن يعرف والده ذلك".

تبادل الرجلان نظرة تفاهم قبل أن يستدعيا المحاربين إلى الأسفل للبدء بسلخ النمـر. سيغذي اللحم أكبر عدد ممكن، وسيضع لقيمات مشوية في أفواه المحاربين. كـان هناك كثيرون يرغبون بالحصول على سرعة وقوة مثل ذلك الحيوان. تساءل جيلم إن كان تشاغاتاي سيتذوق اللحم تلك الليلة، أم سيكتفي بغضبه فقط.

الفصل السادس



مرّت ثلاثة أيام أخرى قبل أن يأتي جنكيز لرؤية جوشي. بعد الليلة الصاخبة التي أعقبت القتال مع النمر، خلد كل مَن في المخيم تقريباً إلى النوم ولم ينهض جنكيز نفسه سوى ليتقيأ طيلة نهار وليلة بأكملهما بعد ثلاث ليال أمضاها في الشرب. أمضى الجميع يوماً آخر في نقل الحشد الكبير إلى ضفة نهر أورخون. كان معسكر جيلم مكاناً رائعاً للاحتفال بحياة أرسلان، لكن القطعان والجياد كانت بحاجة إلى الماء والأعشاب النضرة. بحيويته المعتادة، كان جنكيز قد استعاد نشاطه خلال الرحلة، بالرغم من أنه شعر بالألم في أمعائه عندما وقف أمام خيمة كوكشو. كان يُحزنه التفكير في أنه سيتخلص من تأثيرات كل ذلك الشراب بعد نوم ليلة واحدة فقط.

فتح جنكيز الباب الصغير إلى مكان هادئ ذكّره بموت والده. كان يشعر بالمرارة وولج إلى الداخل، وكانت نظرته قاسية عندما حدّق إلى الجسد المضمّد في الظل. كان كوكشو يمسح جسد جوشي بالماء، واستدار إلى الخلف غاضباً قبل أن يدرك من دخل عليه. جثا كوكشو على ركبتيه، وانحنى كثيراً أمام الخان.

كان الظل مريحاً بعد ضوء الشمس القوي، واسترخى جنكيز قليلاً، سعيداً لابتعاده عن المخيم الذي يعج بالحركة والنشاط.

سأل: "هل استيقظ؟".

هزّ كوكشو رأسه بكآبة. "للحظات فقط يا مولاي. لقد أشعلت الجروح جسده بالحمّى، لقد استيقظ وصرخ قبل أن ينام مرة أخرى".

اقترب جنكيز أكثر، وقد أخذت الذكريات تتوارد إلى ذهنه. كان إلى جانب جوشي السيف الذي فاز به، النصل الذي كان جنكيز نفسه قد ورثه. في قرابه،

أثار الكثير من الذكريات ولم يسعه سوى تنشق الهواء ليشم رائحة التعفن. كان من المؤلم تذكر الوقت الذي أمضاه والده على فراش الموت وجسده الفاني مبتل بالسم. سحب جنكيز نفساً عميقاً بسبب حالة ابنه التي يرثى لها. نظر إليه كوكشو متفحصاً، وحدّق إليه جنكيز بالمقابل بدلاً من ترك الأمر يمرّ من دون تحدٍّ.

"هل سيعيش يا كوكشو؟ لم أعد أعرف عدد المرات التي سُئلت بها عن ذلك؟".

نظر كوكشو إلى المحارب الشاب الذي يستلقي ساكناً بلا حراك. بالكاد كان الصدر يرتفع وينخفض، ولم يكن بمقدوره توقع ما سيحدث. أشار إلى الضمادات التي تلف كلتا ساقيه وجبيرة الذراع. "ترى جروحه يا مولاي. كسر الوحش عظمتين في ذراعه بالإضافة إلى ثلاث أضلاع. أُصيبَ أحد أصابع يده اليمنى بخلع، بالرغم من أن تلك إصابة طفيفة. لقد تورّمت الجروح وهي تنزّ قيحاً". هزّ رأسه. "لقد رأيت رجالاً يشفون مما هو أسوأ من هذا".

سأل جنكيز: "هل عالجت الجروح؟".

تردد كوكشو، قبل أن يتكلم بسرعة كبيرة. بعد سقوط ينكينغ، كان قد حصل على كتب حول الطب والسحر تساوي أكثر من كل الذهب واليشم. لم يكن يتوقع أن يواجه هذا التحدي في المعالجة وتكلم من دون ثقته المعتادة بالنفس.

"لدى نصوص تشن وهي مذهلة يا مولاي، لما يعرفونه عن الجسد. تتمثّل طريقة معالجتهم في صب شراب يغلي على الجرح قبل تقطيبه. لقد فعلت ذلك، بالإضافة إلى وضع الكمّادات للقضاء على الحمّى".

رد جنكيز، من دون أن يظهر على عينيه شيء: "إذاً، لم تقم بمعالجتها بأسلوب قومنا. اجعل أحداً يأتيك بمنقل حديدي إلى الخيمة وقم بكي الجروح بشكل مناسب. لقد رأيت ذلك يجدي نفعاً".

كان كوكشو يعرف أن عليه ألا يجادل في ذلك. قال: "كما تشاء يا مولاي". بالنسبة إلى الأب، كان سيكوي بقطعة من الحديد الساخن كل جرح، بالرغم من أنه كان يعتبر ذلك آنذاك عملاً قاسياً بحق رجل قام بتربيته. أخفى كوكشو امتعاضه، وبدا جنكيز راضياً. لاحظ كوكشو أن الخان ينوي أن يغادر المكان وتكلم مجدداً، وكان لا يزال يحاول أن يفهم الرجل الذي يقود القبائل.

"ســيكون الألم مبرّحاً يا مولاي. إذا أيقظه، هل ينبغي لي أن أنقل إليه رسالة منك؟".

أدار جنكيــز عينيه الشاحبتين نحو كوكشو ثمّ غادر من دون أن ينبس بكلمة أخرى.

اجتمع القادة في خيمة الخان، وكانت أعلى بمقدار النصف وأعرض مرتين من أي خيمة أخرى في المخيم. كان خاسار وكشيون قد جاءا مع تيموج، بالرغم من أنــه سيكون مسؤولاً فقط عن المخيم نفسه ولن يخرج معهم. كان قد تم استدعاء تسوبودي وجيلم وتشاغاتي، واتخذوا أماكنهم على مجموعة من الأسرّة الواطئة التي كانت تُستعمل كأرائك في مجلس الخان. كانت الخيمة بسيطة مثل خيمة أفقر راعٍ، وتذكروا جميعاً أن جنكيز لا يهتم أبداً للثروة أو مظاهرها.

كان آخر من دخل الخيمة قبل جنكيز أرسلان والشاب الذي كان قد اختار أن يخلفــه. لم يبدُ أن جيبــي، السهم، قد تأثر بوجود ذلك العدد الكبير من قادة قــومه في مكان واحد. عندما أشار إليه أرسلان بأن يجلس، أومأ إليهم كما لو أن لديــه الحق بالتواجد هناك. بالكاد نظر إليه الرجال الآخرون بالرغم من أنهم حيّوا أرســلان بحــرارة، وتخلّوا عن تجهمهم لإظهار إعجابهم بالرجل العجوز. لم يكن سيخرج معهم أيضاً. كان كل الرجال الحاضرين يعرفون أن أرسلان قد ربط أمتعة علــى ثلاثــة مهور وثلاثة جياد وأن زوجته سترحل معه إلى البراري بالإضافة إلى قطيع صغير.

كانــت عيــنا جيلم تلمعان فخراً بوالده، وأوضح ذلك بالتخلي عن مقعده لأرســلان. تبادل الرجلان النظرات، وبالرغم من أنهما لم يتكلما، إلا أن أرسلان بدا أيضاً متأثراً بأن تلك اللحظة قد حانت أخيراً.

عــندما دخــل جنكيز الخيمة، شدّ الرجال داخلها قاماتهم. اتخذ مكانه على كومة من السروج والبطانيات بمواجهة الباب، وأشار إلى خادم ليجلب له كوباً من حليب الماعز للتخفيف من ألم معدته.

انتظر أرسلان حتى أنهى الخان شرب الحليب قبل أن يتكلم.

"يا مولاي، أقدم إليك هذا الرجل، جيبــي، كما دعوته".

نظر جنكيز عبر الخيمة إلى الوجه الجديد، ولاحظ كتفيه العريضتين. كان جيبي يرتدي رداءً مفتوحاً فوق صدر عار، وجلده الضارب إلى الحمرة يلمع صحةً من دهن الضأن. حتى وهو جالس، بدا متزناً ومتحفزاً، ومحارباً بالفطرة. مما جعل جنكيز يشعر بأنه عجوز.

"أهلاً بك في خيمتي يا جيبي. مع كلام أرسلان عنك، ستكون دائماً موضع ترحيب. سيتم اختبارك في الأيام القادمة. تأكد من تشريفك لاسمه في كل ما تقوم به".

رد جيبي: "سأفعل يا مولاي". كانت ثقته بنفسه واضحة، وكشّر خاسار خفية عندما أشاح جنكيز بنظره بعيداً.

أخذ جنكيز نفساً عميقاً، ووضع يديه على ركبتيه. كان يعرف مثل أي شخص آخر أن اجتماع القادة ذاك سيغير العالم، واستمتع بلحظة الصمت فيما كانوا ينتظرون أن يتكلم.

"عندما تركتموني لإنهاء حصار ينكينغ، أرسلت مبعوثين إلى أراضٍ بعيدة. عاد البعض بسلع تجارية، وعقدوا تحالفات باسمي. تعرض آخرون للاعتداء أو لم يعودوا ببساطة". توقف قليلاً، لكن لم ينبس أي منهم ببنت شفة، وكانوا يتنفسون بصعوبة في أثناء إصغائهم إلى الرجل الذي سيطلقهم مثل ذئاب خلف طريدة. كان أفراد المخيم كلهم يعرفون أن الحرب قادمة، وكانوا سعيدين لكونهم أول من يسمع التفاصيل.

"ذهبت إحدى المجموعات إلى الغرب، على بعد أكثر من ألفي ميل. عاد مستطلع واحد، وذُبح الآخرون. في البداية، لم أفكر كثيراً في الأمر. منذ وقت طويل وفرق غزو تصل إلى أراضينا، ويلقى أفرادها حتفهم على أيدي مقاتلي أول قبيلة يواجهونها".

أومأ بعض الرجال الأكبر سناً، بالرغم من أن تسوبودي وجيلم بالكاد كانا يتذكران تلك الأيام.

"عرفت من المستطلع أن قائد تلك الأرض يدعو نفسه الشاه علاء الدين محمد". نطق جنكيز الاسم بصعوبة، ثم أشار إلى تيموج. "بناءً على نصيحة شقيقي، أرسلت مجموعة من أربعمئة محارب، مسلحين جيداً، لكن فقط كتهديد.

ســـافروا إلى أقـــرب مدينة، أطرار (فاراب في كازاخستان)، والتقوا الحاكم هناك. حملـــوا رســـائل ومعلومات مني إلى الشاه". عبس جنكيز عندما تذكر ما جرى. "تـــوقعت مـــنه تسليم الرجال المتورطين، أو على الأقل إرسال معلومة عن مكان مخـــيمهم. دعـــوته *الابن الحبيب* و لم أذكر سوى التجارة والصداقة". عندما ذكر ذلك، حدّق بقسوة إلى تيموج حتى أشاح شقيقه بصره بعيداً. كانت تلك نصيحته التي لقيت فشلاً ذريعاً.

"الـــسوق في أطـــرار مكان عام. أرسلت ثلاثة جواسيس مع المحاربين ليعرفوا طـــريقة تعاملهم". كشّر عن أسنانه فيما كان الغضب يعتمل داخله. "يقود الحاكم حامـــية مـــن عـــشرين ألف شخص، اعتقلوا رجالي، ومزّقوا رسائلي علانية أمام القوم". حدّق مرة أخرى إلى تيموج.

"بالرغم من ذلك، لم يبدر مني أيّ ردّ فعل! إنّ تابعَ ذلك الشاه أحمقٌ، لكنني ظنـــنت أنه ربما يمكن إعادته إلى جادة الصواب. عرفت بأمر مدن أعظم من أطرار في الـــشرق، وأرســـلت ثلاثـــة ضـــباط إلى الشاه نفسه، مطالباً باعتقال الحاكم، وتـــسليمي إياه لمعاقبته وتحرير رجالي. في *هذا أيضاً، سخروا مني*". كان وجهه قد تورّد غضباً، وشعر الرجال في الخيمة بقلوبهم تخفق بسرعة لسماع ذلك.

تابع جنكيز القول: "أرسل الشاه محمد رؤوسهم إليّ". شدّ على قبضته اليمنى ببطء. "لم أكن أنا من أثار هذه المشكلة، لكنني تضرعت لأمنح القوة لأنتقم".

مـــن بعيد، سمعوا صوت رجل يصرخ واهتز أكثر من رأس لسماعه. أرهف جنكيز السمع أيضاً وأومأ، راضياً.

"إنـــه جوشي. كوكشو يعالج جروحه". نظر إلى تشاغاتي فيما كان يتكلم، وطرح ابنه سؤالاً من دون تفكير: "هل سيأتي معنا أيضاً؟".

أشـــاح جنكيز بنظره بعيداً. "قتل النمر، أمام القوم. وقد ازدادت أعدادنا". تجهم وجهه عندما تذكر ركوع تشاغاتي. "*كمالك* مكانك، كذلك له مكانه، إذا عاش. فسنعبر جبال ألتاي متجهين غرباً، ونُظهر لرجال الصحراء هؤلاء حقيقة من أهانوا".

قال خاسار: "وأراضي تشن؟ هناك مدن أكثر ثراءً مما سبق ورأينا حتى الآن، ولا تزال على حالها في الجنوب".

لـــزم جنكيز الصمت عندما سمع ذلك. كان لا يزال يحلم بسحق إمبراطورية تشن الجنوبية تحت قدميه. كان نقل أمته إلى الغرب ينطوي على مخاطر جمّة، وكان إرســـال أحـــد الـــرجال ممن في الخيمة لسحق عدوه منذ أمد بعيد مغرياً. تذكّر تقديـــرات أعداد تشن وابتسم مجدداً. ضد ملايين، لم يكن جيشٌ واحد كافياً أبداً. بتردد، كان قد قرر أن على تشن الانتظار لرؤيته في الأفق.

"سنرى أنهم لا يزالون هناك يا شقيقي عندما نعود إليهم. سترى أراضي تشن مجدداً، أعدك".

عبس خاسار لسماع ذلك، وكان يرغب في الكلام مجدداً، لكن جنكيز تابع.

"اســـأل نفسك الآن: ما الذي يجعلنا نخوض حرباً ونخاطر بحياتنا؟ هل النقود الذهبية هي السبب أم بناء قصور تشبه التي دمّرناها؟ لا أهتم بتلك الأشياء. يمضي الرجل حياته في صراع، من ألم الولادة إلى آخر رمق". جال ببصره عليهم، واستقر أخيراً على جيبـــي وتشاغاي.

"سيقول لك البعض يا خاسار إنهم ينشدون السعادة، وأن لا شيء أكثر أهمية لحياتهم من ذلك الهدف البسيط. أقول لك الآن إن كل الأغنام سعيدة في السهول والصقور سعيدة في الجو. بالنسبة إلينا، السعادة شيء لا نأخذه في الاعتبار، وينبغي لـــنا إسقاطها من حسابات حياة المرء. كافحنا وعانينا لأننا نعرف من خلال تلك الأشياء أننا أحياء". تأفف. "ربما ترغب برؤية مدن تشن *تُقهر* يا خاسار، لكن هل يمكننـــا تـــرك هذا التحدي يمر مرور الكرام؟ كم سيطول الأمر قبل أن يتجرأ كل ملك صغير على أن يبصق على خيالي؟". أصبح صوته أكثر قسوة فيما كان يتكلم، ومـــلأ الخيمة. في الخارج، استطاعوا سماع صرخة أخرى من جوشي، وكان يبدو أنها تكملة مناسبة للتعبيرات التي تحملها هاتان العينان الصفراوان. "هل يمكنني ترك موت أفراد من قومي يمر من دون ثأر؟ ليس في هذا العالم أبداً".

كانوا جميعاً مقتنعين بذلك. كان يعرف ذلك، كما هي الحال دائماً.

"عـــندما أمـــوت، لا أريـــد أن يقول الرجال: *انظروا إلى حجم ثروته، ومدنه، وقصوره، وملابسه الفاخرة*". توقف جنكيز لحظة. "بدلاً من ذلك، أريدهم أن يقولوا: *تأكـــدوا أنه ميت. إنه رجل عجوز قاس وقهر نصف العالم*". ضحك من تلك الفكرة بصوت خافت، وخفّف ذلك من التوتر الذي كان أفراد المجموعة يشعرون به.

"لسنا هنا لنجني ثروات بأقواسنا. الذئب لا يفكر في أشياء رائعة، وإنما يعمل فقط ليكون قطيعه قوياً وألاّ يجرؤ ذئب آخر على عبور منطقته. ذلك كاف".

جـــال بـبـــصره عليهم وشعر بالرضا. وقف جنكيز، وتغيّر مزاجه لِيعبّر عن الاحترام فيما كان يشير إلى أرسلان.

قال: "جيادك جاهزة أيها القائد. سأفكّر فيك وأنت تريح عظامك فيما نحن ننطلق مجدداً".

قال أرسلان: "أتمنّى لك عمراً مديداً ونصراً مؤزّراً يا مولاي".

عندما وقفوا جميعاً، أصبحت الخيمة مكتظة فجأة. بصفته القائد الأعلى، كان بمقـــدور جنكيز أن يغادر أولاً، لكنه تراجع لإفساح المجال أمام أرسلان ليخرج إلى الضوء. واحداً تلو الآخر، تبعوه حتى لم يبقَ سوى جيبـــي يحدّق إلى خيمة الخان. تفحّصها المحارب الشاب جيداً، وأومأ برأسه، راضياً بشكل غريب من افتقارها إلى الـــزخارف. شعر بأن الخان رجل يحتذى، وأن كل ما أخبره به أرسلان صحيح، ابتسم جيبـــي قليلاً من دون أن يراه أحد، كان قد ولد على سفح تل، وشبّ في مواســـم شـــتاء قاســـية جداً حتى إن والده قد أحضر الأغنام إلى الخيمة الوحيدة لحمايتها. لمعت عيناه عندما تذكر ذلك. كان سيقود آنذاك جيشاً من أجل الخان. لـــو أن جنكيز يعرف فقط أنه قد أطلق ذئباً. أومأ جيبـــي برأسه، راضياً. سيُظهر للخـــان ما يمكن أن يفعله. في الوقت المناسب، سيعرف كل رجل وامرأة في المخيم اسمه.

في الخـــارج، تفقّـــد أرسلان أمتعته وجياده مرة أخرى، كأنه يرفض أن يدع مـــرارة اللحظة تغير عاداته. راقبه جنكيز يختبر كل عقدة، وأصدر تعليمات لثلاثة فتـــيان مـــن الـــرعاة سيرافقونه إلى مخيمه الأول. لم يتكلم أحد حتى أصبح الرجل العجـــوز جاهـــزاً. عندما بدت ملامح الرضا على وجهه، احتضن أرسلان جيلم واستطاعوا جميعاً رؤية عيني الابن تشعان فخراً. أخيراً، وقف أرسلان أمام جنكيز.

قـــال أرسلان: "كنت هناك منذ البداية يا مولاي. لو أنني كنت أصغر سناً، لكنت خرجت معك حتى النهاية".

رد جنكيـــز: "أعرف ذلك أيها القائد". أشار إلى المخيم الواسع على ضفتي النهر. "من دونك، لما كان شيء من هذا قد تحقق. سأكرّم اسمك دائماً".

لم يكـــن أرسلان أبداً رجلاً يحب المصافحة، لكنه أمسك يدي جنكيز بقبضة محــارب ثم امتطــى جواده. نظرت زوجته الشابة إلى الأعلى نحو زوجها، فخورة برؤية الرجل العظيم يكرّمه بوجودها.

نادى جنكيز عندما طقطق أرسلان بلسانه، وتحركت الجياد مبتعدة: "الوداع أيهـــا الصديق العجوز". استعمل الفتيان الرعاة عصيّهم لجعل الحيوانات تتحرك مع سيدهم.

مـــن بعـــيد، كانوا يسمعون ابن الخان يصرخ بعويل حزين بدا أنه سيستمر طويلاً.

لم يكـــن نقـــل مـــثل ذلك الحشد الهائل من الناس والحيوانات مهمّة سهلة. بالإضـــافة إلى مئة ألف محارب، كان ينبغي لهم الاعتناء بربع مليون فرس، والعدد نفـــسه من الأغنام، والماعز، والجمال، والثيران. كانت الحاجة إلى أراضي رعي قد ازدادت إلى مرحلة لم يعد بمقدور الأمة البقاء في مكان واحد أكثر من شهر في كل مرة.

في فجـــر شديد البرودة، والشمس بالكاد تمس الأفق من الشرق، قاد جنكيز فرســـه عـــبر المخـــيم النشيط، ولاحظ كل أثر لعجلات العربات التي تحمل نساءً وأطفالاً على متنها. كان الرتل يمتد أميالاً، محاطاً دائماً بالقطعان. كان قد عاش مع أصوات الحيوانات طيلة حياته، وبالكاد لاحظ الثغاء المستمر للماعز والأغنام. كان قادتـــه مستعدين، وأبناؤه كذلك. كان كل ما تبقى هو رؤية ما إذا كانت القبائل مـــستعدة لملاقـــاتهم في حرب. نتيجة غطرستهم، كانوا قد حكموا على أنفسهم بالفناء.

كـــان جوشي قد نجا بعد كيّ جروحه. بعد أن جعل جنكيز تشاغاتاي يتولى قـــيادة فـــرقة من عشرة آلاف محارب، لم يكن في وسعه فعل أقل من ذلك لابنه البكـــر، خاصـــة بعـــد أن كان قد انتصر على وحش ضارٍ. كان القوم لا يزالون يتحدثون عن ذلك. بالرغم من ذلك، كانت ستمرّ شهور قبل أن يستطيع جوشي تبوّؤ مكانته على رأسهم. حتى ذلك الوقت، كان سيرافق النساء والأطفال، ويبقى برعاية الخدم حتى يشفى.

في وسط الحشد، دفع جنكيز فرسه للسير خبباً متجاوزاً خيمة زوجته الثانية، تـشاكاهي، التي كانت في ما مضى أميرة مملكة كري كزيا. كان والدها قد بقي تابعاً وفياً طيلة عقد تقريباً، وزوّدت الجزية التي كان يدفعها المغول بالحرير وألواح الخـشب الثمينة. أطلق جنكيز لعنة بصوت خافت عندما أدرك أنه لم يكن قد اتخذ التـرتيبات اللازمة لتلحق به الجزية إلى الغرب. لم يكن يثق بأن الملك سيحتفظ بها لـه. كـان ذلك شيئاً آخر ينبغي إخبار تيموج به قبل أن تتحرك القبائل. تجاوز جنكيز العربة حيث كانت تشاكاهي تجلس مرتدية الفرو مع ثلاثة أطفال كانت قد أنجبتهم. أحنت الابنة الكبرى رأسها، وابتسمت لرؤية والدها.

لم يغادر الدرب للعثور على عربتي بورت ووالدته، هولن. كانت المرأتان قد أصبحتا متلازمتين بمرور الأعوام، وستكونان معاً في مكان ما. ابتسم جنكيز عندما خطرت في باله تلك الفكرة.

تجـاوز الخـان رجلين يطهيان لحم ماعز على نار خفيفة في أثناء انتظارهما. كانت لديهما مجموعة من أرغفة الخبز لصنع شطائر باللحم من أجل الرحلة. لدى رؤيـة الخـان، رفـع أحد الرجلين طبقاً خشبياً عليه رأس الحيوان، ومس العينين البيـضاوين بإصـبعه ليتأكد أن جنكيز قد رآهما. هزّ جنكيز رأسه، وانحنى الرجل كـثيراً. بعد أن تجاوزهما الخان، رمى المحارب إحدى العينين في الهواء قبل أن يدفع بالأخـرى في فمـه، ويمضغها بشهية. ابتسم جنكيز لرؤية ذلك. لم يكن قومه قد نـسوا بعـد العادات القديمة، أو أفسدتهم الثروات التي غنموها. فكّر في محطات الطـريق الجديـد التي تمتد نحو الشرق والجنوب، ويديرها محاربون مقعدون وكبار الـسن. كـان بمقـدور أي مستطلع استبدال جواده في اثني عشر مكاناً من تلك الأمـاكن، وقطـع مسافة بسرعة أكبر مما كان جنكيز يعتقد أنها ممكنة. كانوا قد قطعـوا شـوطاً طويلاً بعيداً عن الجوع، وقتال القبائل الذي كان قد عرفه يافعاً، لكنهم كانوا لا يزالون على حالهم.

أخـيراً، ترجل جنكيز بين حشد هائل من العربات والحيوانات، بعد أن قطع أكثـر مـن ميل من مقدمة الرتل. كانت شقيقته تيمولن هناك، وهي التي كانت رضـيعة بـين ذراعـي والدتها عندما هجرته قبيلته قبل أعوام مضت. كانت قد أصبحت شابة جميلة، وتزوجت محارباً من أوخونوت. كان جنكيز قد التقى الرجل

مـــرة واحـــدة فقـــط في حفـــل الزفاف، لكنه بدا قوياً، وكانت تيمولن سعيدة بالانسجام بينهما.

بيـــنما كان يعدل وضعية حزام البطن على فرسه، أمرت تيمولن خدم تشن بجمـــع آخر مقتنياتها. كان قد تم تفكيك خيمتها قبل الفجر، وتركت مكانها دائرة ســـوداء علـــى العـــشب. عندما شاهدت تيمولن جنكيز، ابتسمت وذهبت إليه، وأمسكت بلجام فرسه.

"لا تقلـــق يا شقيقي، نحن مستعدون، بالرغم من أنني لا أستطيع العثور على أفـــضل قـــدوري الحديدية. لا شك في أنها أسفل الأمتعة، تحت الأشياء الأخرى". كانـــت تـــتكلم بلطـــف، لكن عينيها تتساءلان. لم يكن الخان قد زارها قط منذ تزوجت. كان حضوره في أثناء استعدادهم للحرب قد أصابها بالقلق.

قـــال لها جنكيز، وقد انفرجت أساريره قليلاً: "لن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً الآن". كـــان يحـــب تيمولن، بالرغم من أنها ستبقى دائماً طفلة بالنسبة إليه بأوجه عديـــدة. لم تكـــن تتذكر المواسم الأولى من شتاء أمضوها وحيدين، عندما كانا وأشقاؤهما ووالدهما مطاردين ويتضورون جوعاً.

سألت: "هل زوجي بخير؟ لم أرَ بارشوك منذ ثلاثة أيام".

أقـــر جنكيز: "لا أعرف. إنه مع جيـــبي. لقد قرّرت أن يقود بارشوك ألف محارب، ويحمل البيتز الذهبية".

صفّقت تيمولن فرحاً.

"أنـــت شـــقيق طيب يا جنكيز. سيكون سعيداً بذلك". تقطّب جبينها قليلاً عندما فكرت في نقل النبأ السعيد إلى زوجها.

"هل فعلت ذلك من أجله، أم من أجلي؟".

طرفت عينا جنكيز لتغير مزاجها.

"من أجلك يا أختاه. ألا يجدر بـــي ترقية أفراد عائلتي؟ هل يمكنني ترك زوج شـــقيقتي الوحـــيدة بـــين صـــفوف المحاربين؟". رأى أن تعبيرات وجهها تنم عن الانـــزعاج. لم يكن في وسعه فهم ذلك النوع من الأشياء، بالرغم من أنه كافح لاستيعابه.

قال جنكيز: "لن يرفض يا تيمولن".

ردّت: "أعرف *ذلك*! لكنه سيقلق لأن الترقية جاءت منك".

رد جنكيز: "هذا صحيح".

نظرت تيمولن إلى وجه شقيقها للحظة. "أعني سيهمه أنه لا يستحق المنصب الجديد".

قـــال جنكيز بينما كان يهز كتفيه غير مبال: "إذاً، دعيه يثبت أنه يستحقه. يمكنني دائماً استعادة البيتز".

حـــدّقت تيمولن إلى شقيقها. "لن تجرؤ على فعل ذلك. إن عدم ترقيته على الإطلاق أفضل من تجريده من موقعه كما تشاء".

تـــنهد جنكيـــز لنفـــسه. "سأجعل جيبـــي يخبره. ما زال يعيد تنظيم جيش أرسلان. لن يكون ذلك غريباً جداً، إلا إن كان زوجك العزيز أحمق".

ردّت تيمولن: "أنت رجل طيب يا جنكيز".

نظـــر جنكيز حوله ليرى إن كان هناك أحد قريب بما يكفي ليسمع ما يدور بيـــنهما. "احتفظـــي بذلك سراً يا امرأة!". ضحك لنفسه، امتطى فرسه، وأمسك اللجام مجدداً.

"اتركـــي القدر خلفك إذا كنت لا تستطيعين العثور عليها يا تيمولن. حان وقت الذهاب".

كان الحافز القوي الذي جعله يستعرض العربات قد تلاشى عندما قاد فرسه عائـــداً إلى المقدمـــة. أومـــأ إلى قادته، ورأى أنهم أيضاً يشعرون بالسعادة الغامرة نفـــسها. كـــان أفراد قومه يتحركون مجدداً، وسيأتي كل يوم بأفق جديد. لم يكن هناك شيء مثل الشعور بالحرية الذي يمنحه ذلك لهم، مع كل العالم أمامهم. عندما وصـــل إلى أشقائه وقادته، نفخ جنكيز مطولاً في بوق مستطلع، وحثّ فرسه على السير خبباً. فتحركت الأمة خلفه ببطء.

الفصل السابع



كان الثلج يتساقط على المرتفعات. كانت جبال ألتاي بعيدة غرباً، ولم تكن معظم العائلات قد سافرت إليها من قبل. وحدها قبائل توركيتش، ويوغور، ويورنخاي كانت تعرف جيداً أنها مكان ينبغي لهم تجنّبه، وموقع لا صيد فيه ولا حياة في الشتاء.

بالرغم من أن الخيّالة يمتطون جيادهم، فقد كانوا يستطيعون عبور السلسلة الجبلية في يوم واحد، إلا أن العربات التي تنوء بحمولتها كانت تشكل عائقاً كبيراً، فقد كانت مخصصة للسهول المعشوشبة ولا تناسب أبداً المسالك الثلجية ودروب الماعز. كانت عجلات تسوبودي الجديدة أفضل من الأقراص الصلبة التي تنكسر بسهولة كبيرة، لكن لم يكن قد تم تعديل سوى عربات قليلة فقط، وكان التقدم بطيئاً. بدا أن هناك عقبة جديدة كل يوم، وكانت السفوح شديدة الانحدار في بعض الأماكن، حتى إنه كان ينبغي لهم إنزال العربات باستعمال حبال تمسكها فرق من المحاربين التي يكابد أفرادها الكثير من العناء. كانت هناك أوقات أصبح فيها الأوكسجين قليلاً، وأُصيب الرجال والحيوانات بالإعياء، ولا يقطعون أكثر من خمسة أميال في اليوم إذا كانوا محظوظين. كان خلف كل قمة واد متعرج وطريق وعر آخر لعبوره. بدا أن السلسلة الجبلية لا نهاية لها، وتجمّعت العائلات بائسة في فرائها، مكشوفة للرياح. عندما كانوا يتوقفون، كان تجمّد الأصابع يعيق الاندفاع لنصب الخيام قبل مغيب الشمس. كانوا ينامون تحت العربات كل ليلة، ملتحفين بالبطانيات ومحاطين بالأجساد الدافئة للماعز والأغنام التي يتم ربطها إلى العجلات. كان ينبغي عليهم ذبح الماعز لسدّ جوعهم، فتضاءلت أعداد القطيع الكبير مع تقدمهم.

بعد مرور ثلاثين يوماً على خروجهم من المخيم إلى جانب نهر أورخون، أمر جنكيز بالتوقف مبكراً في ذلك اليوم. كانت الغيوم منخفضة جداً تمسّ القمم حولهم. كان الثلج قد بدأ يتساقط عندما أقامت القبائل معسكراً مؤقتاً بملاذ جرف صخري كبير، يرتفع حاملاً الثلج فوق رؤوسهم. كانت هناك على الأقل بعض الحماية من البرد القارص في ذلك المكان، وأصدر جنكيز ذلك الأمر بدلاً من السير بهم فوق جبل مكشوف سيجبرهم على الاستمرار في الحركة بعد حلول الليل. كان لديه خيّالة يسبقونه مئات الأميال وآخرون يسيرون أمام الرتل الرئيس، لقد كانوا محاربين شباباً يستطلعون أفضل سبل العبور، ويبلّغون عن كل ما يجدونه. كانت الجبال تشكل نهاية العالم كما يعرفه جنكيز، وفيما كان يراقب خدمه يذبحون جدياً، تساءل كيف ستبدو المدن التالية. هل تشبه قلاع تشن الحجرية؟ أمام المستطلعين، كان قد أرسل جواسيس ليتقصّوا الأخبار من الأسواق عن الدفاعات. قد يكون أي شيء مفيداً للحملة المنتظرة. بدأ الخارجون الأوائل بالعودة إليه، وقد بدوا مرهقين وجائعين. كانت الصورة قد بدأت تتشكل في ذهنه، لكنها كانت لا تزال أجزاء.

جلس أشقاؤه معه في خيمة الخان المثبتة على عربة، فأصبحوا أعلى من رؤوس الآخرين. نظر جنكيز إلى الثلج الأبيض، واستطاع رؤية الخيام مثل مجموعة من الأصداف الشاحبة، وسُحب رقيقة من الدخان تعلو منها نحو السماء. كان مكاناً بارداً وموحشاً، لكن ذلك لم يثبط عزيمته. لم تكن أمته بحاجة إلى مدن، وكانت حياة القبائل تجري كالمعتاد من حوله، من النزاعات والصداقات إلى الاحتفالات العائلية وحفلات الزفاف. لم يكونوا مضطرين إلى التوقف لمتابعة حياتهم: كانت الحياة تمضي بغض النظر عما يحدث.

فرك جنكيز يديه معاً، نفخ فيهما فيما كان يراقب خدمه من تشن وهم يشقون صدر الجدي قبل أن يمدّوا أيديهم عميقاً ويقطعوا الوريد الرئيس حول قلبه. توقف الجدي عن الركل، وبدأوا بسلخه بمهارة. كانوا سيستفيدون من كل قطعة، وسيحمي الجلد أحد الأطفال اليافعين من برد الشتاء. راقب جنكيز فيما كان الخدم يُفرغون ما في المعدة على الأرض، ويُخرجون مادة لزجة من أعشاب كان قد اجترّها الحيوان. كان شواء اللحم أسرع من غليه ببطء كما تفضل

القبائل. سيكون اللحم صلباً وقاسياً على الأسنان، لكن في مثل ذلك البرد كان مهماً تناول الطعام بسرعة والحفاظ على القوة. مع تلك الفكرة، تحسس جنكيز بفزع السن التي كان قد كسرها في رحلته ثملاً إلى جيلم. كانت تؤلمه باستمرار، وفكّر في أن عليه استدعاء كوكشو لاقتلاع الجذر. فتعكر مزاجه من ذلك الاحتمال.

قال جنكيز لأشقائه: "سيضعونه على النار خلال وقت قصير".

رد خاسار: "لن يكون ذلك سريعاً بما يكفي بالنسبة إليّ. لم آكل منذ الفجر". كان يتم إعداد آلاف الوجبات الساخنة حولهم في ذلك المكان. كانت الحيوانات نفسها بالكاد ستحصل على القليل من الأعشاب الجافة التي لم تكن تتوفر بكثرة. بالرغم من صوت الثغاء المستمر، كانوا يستطيعون جميعاً سماع أصوات وأحاديث قومهم والتي كانت - بالرغم من البرد - تجعلهم يشعرون بالارتياح. بالرغم من أنهم كانوا في طريقهم إلى الحرب، إلا أن مزاجهم ظل جيداً.

من بعيد، سمع القادة هتافاً خافتاً، لذا، نظروا إلى كشيون الذي كان يعرف عادة كل ما يجري في الخيام. بمواجهة نظرات أشقائه، هزّ كتفيه غير مبال. قال: "ياو شو يدرب المحاربين الشباب".

استهجن تيموج الأمر بصوت خافت، لكن كشيون تجاهله. لم يكن سراً أن تيموج لا يحب البوذي الذي أحضره وخاسار من أراضي تشن. بالرغم من أن ياو شو كان مهذباً على الدوام، إلا أنه كان قد تشاجر مع كوكشو، عندما كان تيموج تابعه الأشد إخلاصاً. ربما بسبب تلك الذكريات، كان تيموج ينظر إليه شذراً، خاصة عندما يبشّر بالبوذية بين المقاتلين. كان جنكيز قد تجاهل احتجاجات تيموج، ولم يرَ فيها سوى غيرة من رجل يستطيع القتال بيديه وقدميه أفضل مما يمكن لمعظم الرجال القيام به مع سيوف.

أرهفوا السمع عندما تعالت هتافات أخرى، أقوى هذه المرة، كما لو أن مزيداً من الرجال قد اجتمعوا لمراقبة ما يحدث. كانت النساء يعددن الطعام في المخيم، كما كان من المألوف تماماً اشتراك الرجال في نزالات مصارعة أو التدرّب عندما تكون الخيام منتصبة. في الممرات الجبلية العالية، كانت تلك هي الطريقة الوحيدة تقريباً للمحافظة على الدفء.

وقــف خاســار، ومــال برأســه نحو جنكيز. "إن كان تجهيز ذلك الجدي سيــستغرق بعــض الوقت، فسأذهب، وأشاهد ما يجري يا شقيقي. ياو شو يجعل مصارعينا يبدون بطيئين تعوزهم الرشاقة".

أومــأ جنكيــز، ولاحظ كيف كشّر تيموج. نظر إلى معدة الجدي المنتفخة، وتنشق الهواء متلهّفاً.

لاحظ كشيون أن جنكيز يريد عذراً لمشاهدة التدريب وابتسم لنفسه.

"ربما يكون تشاغاتي يا شقيقي. كان وأوجيدي قد أمضيا وقتاً طويلاً مع ياو شو".

كان ذلك كافياً.

قال جنكيز، ووجهه يشع ألقاً: "سنذهب جميعنا". قبل أن يتمكن تيموج من الاحــتجاج، حثّ جنكيز الخطى في الرياح الباردة. تبعه الآخرون، بالرغم من أن تيموج نظر إلى الخلف نحو الجدي الذي يتم شواؤه، ولعابه يسيل.

كان ياو شو عاريَ الصدر، بالرغم من الموقع المرتفع. بدا أنه لا يشعر بالبرد، وفــيما كــان تشاغاتي يطوف حوله، ويجعله يستدير نحوه، كانت طبقة رقيقة من الــثلج قــد استقرت على كتفي ياو شو. كان ياو شو يتنفس بسهولة، فيما كان تشاغاتي آنذاك متورد الخدّين وجسده يحمل علامات كدمات من النــزال. كانت عيــناه تراقبان عصا ياو شو، قلقاً من ضربة مفاجئة. بالرغم من أن البوذي الصغير كــان يترفّع عن استعمال السيوف، إلا أنه كان يستخدم العصا كما لو أنه مخلوق لهــا. شعر تشاغاتي بآلام مبرّحة في أضلاعه، وقدمه اليسرى حيث تلقى الضربات. ولم يكــن قد أصاب ياو شو بضربة واحدة بعد، لذا، وصل الأمر بمزاجه إلى حدّ الغليان.

كان الحشد قد ازداد، حيث انضم إليه محاربون لا عمل لديهم. لم يكن هناك شــيء يمكنهم القيام به، وكانوا دائماً فضوليين. كان المكان ضيقاً لا يتسع لأكثر مــن بــضع مئات منهم لمراقبة التمرين، وتدافعوا وتزاحموا في ما بينهم فيما كانوا يحاولون إفساح المجال أمام المتصارعَين. شعر تشاغاتي بحركة في الحشد قبل أن يرى والــده وأعمامــه يمرون عبره، وتراجعت الصفوف بدلاً من أن تتدافع مع قادتها.

أمسك بفكه، وعقد العزم على توجيه ضربة جيدة واحدة على الأقل فيما جنكيز يراقب ما يحدث.

كان التفكير يعني القيام بشيء ما، واندفع تشاغاتي مهاجماً، وسدّد عصاه بضربة قصيرة حادة. لو أن ياو شو بقي في مكانه، لأصابت العصا رأسه، لكنه تفاداها، وضرب تشاغاتي على أضلاعه قبل أن يخطو مبتعداً.

لم تكن ضربة قوية، لكن تشاغاتي استشاط غضباً. فهزّ ياو شو رأسه.

تمتم ياو: "حافظ على هدوئك". كانت تلك نقطة ضعف الفتى الرئيسة في جولات التدريب. لم يكن هناك خطأ في توازنه أو ردود فعله، لكن مزاجه كان يخذله في كل مرة. كان ياو شو قد عمل طيلة أسابيع لجعل تشاغاتي يحافظ على هدوئه في المعركة، ويضع غضبه وخوفه جانباً. بدا أن الشعورين مرتبطان دائماً بالمحارب الشاب، وكان ياو شو يعرف أن التقدم سيكون بطيئاً.

دار تشاغاتي حول ياو شو، وعكس اتجاه مشيته لينطلق مهاجماً. تراجع ياو شو ليتفادى العصا التي جاءت منخفضة. صدّها بسهولة، ولكم بقبضته اليسرى خد تشاغاتي. رأى عيني الفتى تقدحان شرراً والغضب يتملكه، كما حدث عدّة مرات من قبل. أقبل تشاغاتي مسرعاً، يلوّح عصاه بيده. هتف الحشد بعد سماعهم أصوات العصا التي تم صدّها مراراً وتكراراً. كانت ذراعا تشاغاتي تؤلمانه عندما حاول الابتعاد، وفي تلك اللحظة وضع ياو شو قدمه أمام الفتى، وجعله يتعثر ويقع على الأرض.

كانت حركاتهما قد أوصلتهما إلى فسحة بين خيمتين. كان ياو شو سيتكلم إلى تشاغاتي، لكنه شعر بشخص قريب خلفه واستدار، متحفزاً دائماً.

كان كشيون من يقف هناك، ووجهه خال من أي تعبير. انحنى ياو شو قليلاً للقائد، وكان لا يزال يسمع صوت تشاغاتي يقترب منه مجدداً.

قرّب كشيون رأسه منه، بالرغم من أن الحشد الصاخب لم يكن يستطيع سماع شيء.

تمتم كشيون: "ألن تمنحه شيئاً يا ياو شو، ووالده يراقب والرجال الذين سيقودهم؟".

نظر ياو شو إلى القائد المغولي من دون انفعال. كان قد تدرّب منذ كان فتى صغيراً أن يسيطر على جسده. كانت فكرة أن يدع فتى متبجحاً مثل تشاغاتي

يــضربه أمراً لا يمكن تصوره. لو أنه كان محارباً أكثر تواضعاً، ولن يتباهى بالأمر طــيلة شهور، لربما كان ياو شو يوافق. أما في ما يخص ابن الخان الثاني المدلل، فقد اكتفى بهزّ رأسه.

كان كشيون سيتكلم مجدداً، إلاّ أن تشاغاتي هاجم من الخلف، إذ كان بأمس الحاجة إلى الاستفادة من أي أفضلية. زمّ كشيون شفتيه انــزعاجاً فيما كان يراقب يــاو شو يبتعد بخطوات رشيقة، وهو يكاد ينــزلق فوق الأرض. كان يحافظ على توازنه دائماً، وعرف كشيون أن تشاغاتي لن يمسّه في ذلك اليوم. راقب ببرود فيما كــان يــاو شو يصد ضربتين أخريين، ثم يهاجم بقوة أكبر وأسرع من ذي قبل، موضحاً جوابه لكشيون.

سمــع كل المحاربين "آه" تشاغاتي عندما أخرجت ضربة عصا الهواء من رئتيه. قــبل أن يــستعيد توازنه، ضربه ياو شو على يده اليمنى مما أدّى إلى وقوع العصا أرضاً. من دون توقف، ضرب ياو بعصاه قدمي تشاغاتي، وجعله يقع على الأرض المــتجمدة. لم يهلل الحشد فيما كان ياو شو ينحني لابن الخان المنهك. توقعوا أن يــرد تــشاغاتي التحية، لكنه بدلاً من ذلك نهض ووجهه يستشيط غضباً، ومشى مبتعداً عن الساحة من دون أن ينظر إلى الخلف.

وقــف يــاو شــو بالوضعية نفسها لوقت أطول مما ينبغي، مُظهراً غضبه للتجاهل الــذي لقيه. كان من عادته أن يناقش ما جرى في جولات القتال مع المحــاربين الــشباب، ويشرح لهم نقاط الفشل والنجاح في أدائهم. خلال خمسة أعــوام أمــضاها مــع القبائل، كان قد درّب العديد من الرجال الذين يقودهم جنكيــز، وتابــع تعليم أفضل عشرين منهم. لم يكن تشاغاتي أحد هؤلاء، لكن كانــت لــدى ياو شو خبرة تكفي ليفهم أن لبقائه ثمناً. في ذلك اليوم، كان قد وصل إلى مستوى جديد بالنسبة إليه. تجاوز كشيون حتى من دون أن يلقي نظرة على القائد.

بالرغم من أن كثيرين في الحشد نظروا إلى جنكيز ليروا رد فعله على تصرف ولده الفظ، إلا أن وجه الخان بقي خالياً من أي تعبير. استدار نحو تيموج وخاسار بعد أن شاهد ياو شو يتجاوز كشيون.

قال: "أعتقد أن ذلك الجدي قد أصبح جاهزاً الآن".

ابتسم تيموج للحظة، بالرغم من أن ذلك لم يكن له علاقة بالطعام الساخن. لبراءته، كان ياو شو قد جعل من رجال عنيفين أعداء له. ربما سيعلّمونه التواضع. كانت حصيلة ذلك اليوم أفضل كثيراً مما كان تيموج يأمل.

كــان يــاو شو رجلاً قصير القامة، لكن بالرغم من ذلك، كان عليه الانحناء ليدخل خيمة زوجة الخان الثانية. عندما دخل، انحنى لتشاكاهي كما يناسب أميرة كــزي كــزيا. في الحقيقة، لم يكن يهتم إطلاقاً لألقاب الرجال، لكنه كان معجباً بالطــريقة الــتي اتخذت بها تلك المرأة مكاناً لها في مجتمع المغول. لم يكن يشبه أبداً البلاط الذي عرفته مرة، لكنها كانت قد تابعت حياتها وكان ياو شو يودّها.

كــان هوســا هناك، يرتشف الشاي الأسود الذي يرسله والدها إلى المخيم. أومأ ياو شو إليه، وقبل كوباً صغيراً يتصاعد منه البخار من يدي تشاكاهي قبل أن يجلــس. كان المخيم مكاناً صغيراً بطريقة ما، بالرغم من امتداده الشاسع وحجمه الكبير. كان ياو شو يظن أن كشيون يعرف عدد المرات التي التقى بها الثلاثة، وربما كــان لديــه من يسترق السمع إليهم في الخارج. جعلت تلك الفكرة طعم الشاي يبدو مراً في فمه، وكشّر ياو شو قليلاً. لم يكن ذلك عالمه. كان قد جاء إلى المخيم لنــشر تعاليم بوذا. لم يكن يعرف إن كان ذلك خياراً صحيحاً. كان المغول شعباً غــريباً. بــدا أنهم يقبلون كل ما يقال لهم، خاصة إذا قدّم إليهم الدروس بشكل قــصص. كــان ياو شو قد نقل الكثير من الحكمة التي تعلّمها صغيراً، لكن عندما صــدحت أبواق الحرب، تخلى المغول عن تعاليمه وسارعوا للانخراط في المعارك. لم يكــن يفهمهم، لكنه كان قد قبل ذلك درباً له. فيما كان يرتشف الشاي، تساءل إن كانت تشاكاهي تقبل تماماً بدورها.

لم يتكلم ياو شو لوقت طويل، فيما كان هوسا وتشاكاهي يناقشان أوضاع جنود تشن في فرق الخان. ربما كان ثمانية آلاف رجل في المخيم قد عاشوا سابقاً في مــدن تشن، أو كانوا جنوداً للإمبراطور نفسه. بالرغم من ذلك، كان كثيرون قد جــاؤوا مــن قبائل توركيتش في الشمال. لم يكن لمحتدي تشن نفوذ كبير، لكن تــشاكاهي كانــت قد سعت لأن يكون كل خدم القادة البارزين من قومها. عن طريقهم، كانت تعرف مثل كشيون نفسه ما يجري في المعسكرات.

راقب ياو شو المرأة الرقيقة فيما كانت تؤكد لهوسا أنها ستتكلم إلى زوجها بشأن مراسم الجنازة لدى جنود تشن. شرب ياو شو كوبه كاملاً مستمتعاً بطعم الشاي المر وصوت لغته في أذنيه. كان ذلك شيئاً يفتقده، من دون شك. توقفت أفكاره عن الدوران في رأسه عندما سمع اسمه.

قالت تشاكاهي: "... ربما يمكن أن يخبرنا ياو شو. لقد أمضى مع أبناء زوجي وقتاً طويلاً مثل أي شخص آخر".

أدرك ياو شو أنه لم يكن قد سمع السؤال، وأخفى إحراجه بمد يده ليتم ملء كوبه من جديد.

ثم سأل: "ماذا تريدين أن تعرفي؟".

تنهدت تشاكاهي. "لم تكن تصغي يا صديقي. سألت متى سيكون جوشي لائقاً بما يكفي ليأخذ مكانه بين رجاله".

رد ياو شو مباشرة: "ربما بعد دورة أخرى للقمر. لقد شُفيت جروحه، بالرغم من أن ساقيه وذراعيه ستحمل دائماً ندوباً من الكي بالحديد الساخن. عليه بناء عضلاته مجدداً. يمكنني العمل معه. إنه يصغي على الأقل، بعكس شقيقه الأحمق".

تسمّر كل من تشاكاهي وهوسا قليلاً فيما كان يتكلم. كان قد تم إرسال الخدم بعيداً في مهمة، لكن كانت هناك دائماً آذان تصغي.

قال هوسا: "شاهدت التدريب في وقت سابق اليوم". تردّد مدركاً خطورة الموضوع. "ماذا قال لك القائد كشيون؟".

نظر ياو شو إلى الأعلى، غاضباً من الطريقة التي تحول بها صوت هوسا إلى مجرد همس. "هذا ليس مهماً يا هوسا أكثر من الحرص على كلماتي في هذه الخيمة. أقول الحقيقة كما تبدو لي". تنهّد. "وبالرغم من ذلك، كنت في الخامسة عشرة من عمري وأحمق. ربما يمكن أن يصبح تشاغاتي رجلاً قوياً، لا أعرف. مما يبدو، ليس سوى فتىً غاضب".

بالنسبة إلى ياو شو، كانت تلك ثورة غضب مدهشة وطرفت عينا هوسا من المفاجأة.

قالت تشاكاهي بلطف: "ذلك *الفتى الغاضب* قد يقود القبائل يوماً ما".

نفخ ياو شو في كوبه الساخن.

"أظـــن أحياناً أنني عشت مع القبائل وقتاً طويلاً للغاية. لا أهتم إطلاقاً للرجل الـــذي ســيرث راية ذيول الجياد من والده، أو حتى إن كان هؤلاء الأعداء الجدد سيسحقونها تحت أقدامهم في التراب".

قال هوسا: "لديك أصدقاء هنا يا ياو شو. لماذا لا تهتم لما يحدث لنا؟".

تقطـــب جبين ياو شو عبوساً. "ظننت مرة أنني قد أصبح صوت المنطق في هـــذا المخـــيم، وأتمتع بنفوذ على الخان وأشقائه". أطلق صوتاً مميزاً من حنجرته. "تلـــك هي غطرسة الشباب. ظننت عندها أنني ربما أستطيع إحلال السكينة على قلـــوب الأبناء الممتلئة حقداً". "بدلاً من ذلك، ربما سأشـــهد يوماً يقود فيه تشاغاتي قوم والده إلى دمار أكبر مما يمكن أن يتخيله أي منا".

تمتمت تشاكاهي متأثرة بانـــزعاج ياو شو الشديد: "كما قلت أنت، لا يزال مجرد فتى. سيتعلم، أو سيقود جوشي القبائل".

انفرجت أسارير ياو شو عندما سمع ذلك، ومدّ يده ليربت على كتفها. "لقد كان يوماً شاقاً أيتها الأميرة. تجاهلي ما كنت قد قلته. غداً، سأكون رجلاً مختلفاً، مـــع ماضٍ انقضى ومستقبل مجهول، كما هي الحال دائماً. أنا آسف لأنني عبّرت عـــن غـــضبـــي هنا". زمّ شفتيه ساخراً. "أحياناً، أظن أنني بوذي سيئ، لكنني لن أذهب إلى أي مكان آخر".

ابتسمت تشاكاهي له، وأومأت برأسها. ملأ هوسا كوبه بالشاي الثمين مرة أخـــرى، واستغرق في تفكير عميق. عندما تكلم، كان صوته خافتاً جداً وبالكاد يمكن سماعه.

"إذا ســـقط جنكيز في معركة، فسيكون كشيون هو الخان. لديه أبناء وكل هذا سيكون مثل أوراق في مهب الريح".

أمالـــت تشاكاهي رأسها لتسمع ما يقوله. كانت جميلة في ضوء المشاعل، مما جعـــل هوســـا يفكر مجدداً في أن الخان رجل محظوظ ليحظى بمثل تلك المرأة التي تنتظره في إحدى خيامه.

"إذا عين زوجي وريثاً من بين أبنائه، أظن أن كشيون سيقبل بذلك".

قال هوسا: "إذا دفعته للقيام بذلك، سيسمّي تشاغاتي. المخيم كله يعرف أنه لا يفـضّل جوشـــي، فيما لا يزال أوجيدي وتولي يافعين". توقف قليلاً، وظنّ أن جنكيـز لـــن يكـــون سـعيداً بأن يتكلم رجال آخرون إلى زوجته في مثل ذلك الموضوع. بالرغم من ذلك، كان فضولياً. "هل تكلمت إلى الخان بهذا الشأن؟".

ردّت تـشاكاهي: "لـيس بعد، لكنك محق. لا أريد أن يرث أبناء كشيون العـرش. أين سأكون عندها؟ لم يمضِ وقت طويل على تخلي القبائل عن عائلات الخانات الذين ماتوا".

قـال هوسا: "يعرف جنكيز ذلك أفضل من أي شخص آخر. لن يرغب في تركك تعانين كما عانت والدته".

أومـأت تـشاكاهي. كان يسعدها أن تتكلم علانية بلغتها الغريبة تماماً عن المقاطـع الـصوتية المتحشرجة لكلام المغول. أدركت أن العودة إلى والدها أفضل بالنـسبة إليها من رؤية تشاغاتي يصبح خاناً كما تبدو عليه الحال، وكان هوسا قد نطـق بالحقيقة. كان لدى كشيون زوجات وأبناء. هل سيعاملها أي منهم بلطف إن قـضى زوجهـا نحبه؟ سيكرّمها كشيون، وربما يعيدها إلى ملك كزي كزيا. بالـرغم من ذلك، سيكون هناك دائماً أشخاص يعتبرون أن زوجات وأبناء خان راحل يمثلون تهديداً. سيكون كشيون أكثر أماناً إذا ماتوا جميعاً في اليوم نفسه الذي يـسقط فـيه شـقيقه في معركة. عضت شفتها السفلى عندما فكّرت في الأمر، منـــزعجة مـــن ورود مـــثل تلك الأفكار المظلمة إلى خيمتها. لن يقبل جنكيز جوشـــي، وكانـــت شبه واثقة من ذلك. كان يتماثل للشفاء منذ أكثر من شهر، وينبغـــي أن يـــرى الـــرجال قائدهم إن كان لا يرغب في أن يطويه النسيان. حتى عـــندها، لم تكن تعرفه، وبدا لها تشاغاتي خياراً سيئاً. كانت واثقة بأن أطفالها لن يصمدوا طويلاً من صعود نجمه. تساءلت إن كانت تمتلك المهارة لضم تشاغاتي إلى صفها.

قالت للرجلين: "سأفكر في الأمر. سنجد طريقة مناسبة".

خـــارج خيمـــتها، كانوا يستطيعون سماع صوت الريح تهب على العربات وخـيام أمـــة المغول. لاحظ الرجلان حزناً في صوت تشاكاهي عندما أذنت لهما بالانصراف إلى خيمتيهما، ليخلدا إلى النوم.

حالما خرج ياو شو إلى الريح والثلج، ارتعش، وشدّ رداءه حول كتفيه. لم يكن ذلك بسبب البرد فقط، الذي لم يكن يهتم له كثيراً بعد عدّة سنوات أمضاها لا يرتدي سوى ثوب رقيق. أحياناً، كان يشعر أنه قد سلك طريقاً غير صحيح بانضمامه إلى قوم الجواد. كان يحبهم، بالرغم من كل غطرستهم الطفولية واعتقادهم أنهم يستطيعون تنظيم العالم كما يحلو لهم. كان الخان رجلاً يمكن الاقتداء به، وكان ياو شو معجباً به. بالرغم من ذلك، كان قد فشل في الحصول على آذان صاغية لتعاليم بوذا. لم يكن سوى تولي الصغير منفتح الذهن لها، وفقط لأنه كان يافعاً جداً. ضحك تشاغاتي بفظاظة من أي فلسفة لا تتضمن سحق الأعداء تحت عقبيه وبدا أن جوشي يستمع إليه من دون اهتمام، وتدخل الكلمات والأفكار من أذن لتخرج من الأخرى.

كان ياو شو ضائعاً في أفكاره في أثناء سيره على الدروب المغطاة بالثلج في المخيم. حتى عندها، بقي حذراً مما يوجد حوله، وعرف أن هناك رجالاً حوله حالما بدأوا يحيطون به. تنهد لنفسه. كان هناك فتى أحمق واحد يمكن أن يرسل محاربين لمهاجمته في تلك الليلة. لم يكن ياو شو قد أحضر حتى عصا التدريب الخاصة به إلى خيمة تشاكاهي، معتقداً أنه بأمان.

بالرغم من ذلك، لم يكن طفلاً يوقعه حمقى في كمين. تساءل إن كان تشاغاتي قد طلب منهم أن يقتلوه، أو أن يكسروا عظامه فقط. لم يكن ذلك مهماً: سيكون رد فعله كما كان دائماً. مع تطاير الثلج في الهواء، اندفع ياو بين خيمتين وهاجم أول شخص غير واضح المعالم ظهر أمامه. كان الرجل بطيئاً للغاية، وأسقطه ياو شو بضربة على ذقنه بعد أن دفعه بقدمه إلى الخلف. لم يكن ينوي قتل أحد في ذلك المكان الجبلي، لكنه سمع أصواتاً أخرى تستجيب لصوت الرجل الذي أوقعه أرضاً، وعرف أن هناك العديد منهم. سمع وقع خطوات رشيقة من كل الاتجاهات، وسيطر ياو شو على الغضب المتزايد في صدره. لم يكن يعرف الرجال على الأرجح، أو يعرفونه. لن يكون هناك ضغينة في الهجوم، إلا إن قتل أحدهم. هزّ كتفيه غير مبال، وفكّر مجدداً في أن الوقت الذي أمضاه بين القبائل قد غيّره كثيراً. كان بوذا سيتركهم ينقضون عليه من دون أن يرفع يده غضباً. هزّ ياو شو كتفيه استخفافاً فيما كان يمشي نحو ظل آخر. على الأقل لم يكن يشعر بالبرد آنذاك.

همس رجل، على بعد خطوة واحدة: "أين هو؟".

قفـز يـاو شو خلفه، ودفع الرجل إلى الأرض قبل أن يتمكن من إبداء أي مقاومة وتجاوزه. تردد صدى صرخة المحارب المندهش من التلال العالية، وسمع ياو شو رجالاً آخرين يقتربون بسرعة.

لقي أول من وصل لكمة قوية على أضلاعه. شعر ياو شو بالأضلاع تنكسر تحت يده، وتراجع قبل أن يضغط العظام المكسورة على أعضاء حيوية. أحنى رأسه بـشكل فطـري عندما تحرك شيء آخر، لكن في الثلج الأبيض لم يكن قد رأى محاربين، وأمسك به أحدهما من خصره، وألقى به على الأرض القاسية.

ركـل ياو شو بقدمه التي أصابت شيئاً قاسياً، مما آلمه. وقف على قدميه فيما كانت مجموعة من الرجال تقترب منه ونظر إلى الوجوه المتجهمة. أزعجه أن يرى أن ثلاثـة منهم كانوا من المجموعة التي يدرّبها. لم ينظروا على الأقل في عينيه. كان الآخرون غرباء يحملون عصياً ثقيلة.

همهم أحدهم: "نلنا منك الآن يا ياو شو".

جهّز ياو شو نفسه، انحنى قليلاً، وأصبح توازنه مثالياً. لم يكن يستطيع الدفاع عـن نفـسه ضـد ذلك العدد الكبير من الرجال، لكنه كان مستعداً مرة أخرى لتلقينهم درساً.

اندفع ثمانية رجال نحو مركز الحلقة، وانسلّ ياو شو بين اثنين منهم في طريقه للابتعاد عنهم. مصادفة، أمسك أحدهم بردائه. شعر ياو شو بأصابع تـنـزلق على جلـد جمجمته، وأرجع رأسه إلى الخلف. تلاشت الأصابع القاسية، وسدّد ياو شو ركلة بقدمه اليمنى. سقط رجل آخر إلى الخلف صارخاً، وقد أصاب ركبته، لكن خـلال ذلك كانوا قد ضربوه مرات عديدة، وشعر ياو شو بالدوار. كان لا يزال يـضرب بـيديه، وركبتيه، ورأسه كل من يستطيع، لكنهم ألقوه أرضاً. ارتفعت العـصي الثقيلة، ونـزلت بغضب عارم. لم يصرخ، حتى عندما داس أحدهم على قدمه اليمنى، وكسر العظام الصغيرة.

قـبل أن يفقد الوعي، ظنّ ياو شو أنه سمع صوت كشيون يصرخ، وشعر بأن الأيدي تبتعد عنه. كانت كلمات معلّميه تدور في ذهنه عندما انهار في الثلج. كانوا قـد قـالـوا له إن السيطرة على الغضب مثل الإمساك بجمرة. سيحترق بها فقط.

بالرغم من ذلك، بعد أن تفرّق الرجال، وشعر بذراعين قويتين ترفعانه عن الأرض، كان ياو شو يمسك بالجمرة ولا يشعر سوى بالدفء.

الفصل الثامن



نظــر يــاو شو إلى الأعلى عندما دخل كشيون الخيمة التي كان يتم معالجة جــروحه فــيها. خــلال النهار، كان الرجال والنساء المرضى يسافرون على متن عــربات، متدثرين جيداً بالفراء. كان هناك دائماً بعض الأشخاص الذين يحتاجون إلى معالجــة إصبع متقرّح أو تضميد جرح أو غير ذلك. كان ياو شو يعرف ثلاثة من الرجال معه. كانوا أولئك الذين جرحهم بنفسه. لم يكن قد تكلم إليهم، وبدوا محرجين من صمته، و لم ينظروا في عينيه.

أشــرق وجه كشيون عندما حيّا جوشي، جلس على طرف سريره، وتحدّث إلــيه قليلاً. أعجبه جلد النمر المخطط عند قدمي جوشي، ومرّر يديه فوق الطيات القاسية والرأس المسطح في أثناء حديثهما. رأى ياو شو أن الرجلين صديقان. كان تسوبودي يزوره أيضاً مع بزوغ كل فجر، وبالرغم من عزلته، كان جوشي يعرف جيداً ما يجري في الخارج. راقب ياو شو الثنائي يتكلمان ببعض الفضول فيما كان يختبر الجبيرة على قدمه وفزعاً.

عــندما انتهت المحادثة، استدار كشيون إلى ياو شو، وكان واضحاً أنه يبحث عــن الكلمات المناسبة. كان يعرف مثل أي شخص آخر أن تشاغاتي أمر بضربه. كــان يعــرف أيضاً أنه لا يمكن إثبات ذلك أبداً. كان تشاغاتي يمشي متباهياً في أرجاء المخيم، وكان هناك عدد لا بأس به من المحاربين الذين يوافقون على ما فعله. لم يكــن هــناك عار بالنسبة إليهم بأخذ الثأر، وكان بمقدور كشيون أن يخمّن ما يفكر فيه جنكيز بهذا الشأن. لم يكن الخان يعتمد على آخرين لتوضيح موقفه، لكن الــنوم لم يكن ليجافيه لو أنه فعل ذلك. كان المخيم عالماً قاسياً، وتساءل كشيون كيف يمكن شرح ذلك لياو شو.

قــال: "يقــول كوكـــشو إنـــك ستتمكن من السير خلال بضعة أسابيع فقط".

هــزّ ياو شو كتفيه غير مبالٍ. "أتماثل للشفاء أيها القائد. الجسد مجرد حيوان، بالمحصلة. الكلاب والثعالب تُشفى وكذلك أنا".

كذب كشيون: "لم أسمع أي شيء آخر عن الرجال الذين هاجموك". انتقلت عينا ياو شو إلى الآخرين في الخيمة الصغيرة، وتورّد كشيون قليلاً من الخجل. قال وهو يفتح ذراعيه: "هناك دائماً شجار في المخيم".

نظر إليه ياو شو بهدوء، مندهشاً من أن القائد يبدو كما لو أنه يشعر بالذنب. لم تكن له يد في ذلك، بالمحصلة، وهل كان مسؤولاً عن تشاغاتي؟ لم يكن كذلك. في الواقـــع، ربمـــا كان الضرب أسوأ كثيراً لو أن كشيون لم يأتِ ويفرّقهم. كان المحاربـــون قـــد عادوا إلى خيامهم، يحملون آثار إصاباتهم. كان ياو شو يعتقد أن كشيون يستطيع تسمية كل واحد منهم إذا رغب في ذلك، ربما مع أسماء عائلاتهم أيـــضاً. لم يكن ذلك مهماً. كان المغول يحبون الانتقام، لكن ياو شو لم يكن يشعر بالغضب تجاه شباب حمقى يلتزمون بالأوامر. كان قد قطع عهداً على نفسه بتلقين تشاغاتي درساً آخر في الوقت المناسب.

كـــان يـــزعج ياو شو أن إيمانه البوذي يأتي في المرتبة الثانية بعد تلك الرغبة الأساســـية، لكنه كان لا يزال يستسيغ الاحتمال. لم يكن يستطيع أن يفصح عن رغبـــته هذه بوجود رجال تشاغاتي في الخيمة، لكنهم كانوا يتماثلون للشفاء أيضاً ولـــن يطـــول الأمر قبل أن يبقى وحيداً مع جوشي. بالرغم من أنه ربما يكون قد أوجـــد عـــدواً في تشاغاتي، لكن ياو شو كان قد رأى القتال مع النمر. فيما كان ينظر إلى الجلد المخطط الكبير عند سرير جوشي، فكّر في أنه كسب بالتأكيد حليفاً أيضاً. ستكون أميرة كزي كزيا سعيدة، كما توقع.

وقـــف كـــشيون بشكل تلقائي، عندما سمع صوت جنكيز في الخارج. دخل الخان ورأى ياو شو أن وجهه بأكمله منتفخ وأحمر، وعينه اليسرى مغلقة تقريباً.

لاحـــظ الخان وجود الرجال في الخيمة، وأومأ إلى ياو شو قبل أن يتكلم إلى كشيون. تجاهل جوشي كما لو أنه غير موجود.

"أين كوكشو يا شقيقي؟ عليه أن يقتلع هذه السن المكسورة من فمي".

دخل كوكشو فيما كان يتكلم، تفوح منه رائحة غريبة جعلت أنف ياو شو يتغضن. لم يكن يحب ذلك الرجل الهزيل الذي يعمل بالشعوذة. كان قد اكتشف أن كوكشو يجيد تجبير العظام المكسورة، لكن كوكشو كان يعالج المرضى كما لو أنهم مصدر إزعاج، ثم يتزلف إلى القادة وجنكيز نفسه من دون خجل.

تذمر جنكيز: "السن يا كوكشو. لقد حان الوقت".

كان العرق يتصبب فوق جبينه، وخمّن ياو شو أنه يعاني من ألم مبرّح، بالرغم من أن الخان وقف مثل صنم من دون أن يظهر عليه شيء. كان ياو شو يتساءل أحياناً إن كانوا مجانين، هؤلاء المغول. كان الألم مجرد جزء من الحياة، ينبغي لهم تقبّله وتفهمه، وعدم كبته.

رد كوكشو: "نعم يا مولاي الخان. سأقتلعها، وأمنحك أعشاباً لمعالجة الورم. استلقِ على ظهرك يا مولاي، وافتح فمك بأقصى ما تستطيع".

بتردد، جلس جنكيز على آخر سرير في الخيمة، وأرجع رأسه قدر ما يستطيع إلى الخلف حتى أصبح بمقدور ياو شو رؤية التهاب داخله. لم تكن أسنان المغول جيدة، كما فكّر. كان الجذر البني يبرز من بين الأسنان البيضاء. تساءل ياو شو إن كان طعامهم من اللحم مسؤولاً عن قوتهم وعنفهم. لم يكن يتناول اللحم، معتقداً أنه مسؤول عن المزاج السيئ في الدم. بالرغم من ذلك، بدا أن المغول يعيشون عليه، بمزاجهم السيئ وكل شيء آخر.

حلّ كوكشو عقدة قطعة جلدية ليكشف عن كمّاشتي حدّاد صغيرتين ومجموعة من السكاكين الدقيقة. لاحظ ياو شو أن عيني جنكيز اضطربتا لرؤية الأدوات، ثم نظر الخان إليه، وشعر باطمئنان كبير. كان الرجل قد قرر أن تكون المعالجة اختباراً له، كما لاحظ ياو شو. تساءل كوكشو إن كان ذلك الانضباط الذاتي سيبقى متماسكاً.

طقطق كوكشو إحدى الكمّاشتين، وأخذ نفساً عميقاً لتثبيت يديه. نظر إلى فم الخان المفتوح وزمّ شفتيه.

"سأسرع قدر المستطاع يا مولاي، لكن ينبغي لي أن أقتلع الجذر".

قال جنكيز بحدّة: "قم بعملك كوكشو. اقتلع هذا الجذر اللعين"، ومجدداً تأكد ياو شو أن الألم الذي يشعر به الخان مبرح حتى يتكلم بتلك الطريقة. فيما

كـــان كوكشو يجس السن المكسورة، شدّ الخان قبضتيه ثم أرخى يديه، واستلقى كما لو أنه نائم.

راقـــب ياو شو باهتمام فيما كان كوكشو يعمل داخل الفم بالكمّاشة محاولاً إمـــساك الجـــذر. انـــزلقت الأداة المعدنية مرتين عندما حاول الضغط عليه. مع تكشيرة، عاد كوكشو إلى قطعته الجلدية واختار سكيناً.

قال بعصبية: "ينبغي لي أن أشق اللثة يا مولاي".

لاحظ ياو شو أن كوكشو يرتعش كما لو أن حياته على المحك. ربما كانت كذلك. لم يُزعج جنكيز نفسه ليرد عليه، بالرغم من أنه شد قبضتيه مرة أخرى ثم استرخى فيما كان يكافح للسيطرة على جسده. تسمّر الخان فيما كان كوكشو يمـــيل نحـــوه بالسكين، ويدفعها داخل فمه. غصّ جنكيز بمزيج من القيح والدم، وأبعد كوكشو حتى يستطيع أن يبصق على الأرض قبل أن يستلقي مجدداً. كانت عيـــناه تـــتوهجان، كما لاحظ ياو شو، وأُصيب بدهشة كبيرة من إرادة الرجل القوية.

مـــرة أخـــرى، شق كوكشو اللثة، وحرّك السكين، ثم مدّ يديه بالكمّاشة، وأمسك بالجذر بإحكام وشدّه إلى الخارج. كاد كوكشو يقع عندما خرجت قطعة طويلة من الجذر وهمهم جنكيز، ونهض ليبصق مرة أخرى.

قال كوكشو: "هذا كله تقريباً يا مولاي".

حـــدّق جنكيز إليه، ثم استلقى مجدداً. اقتُلعَت القطعة الثانية بسرعة، وجلس الخان على السرير، يمسك بفكه الذي يؤلمه وكان واضحاً أنه مرتاح لانتهاء الأمر. كان فمه ملطخاً بالدم، وراقبه ياو شو فيما كان جنكيز يبتلع ريقه بمرارة.

كان جوشي قد راقب أيضاً اقتلاع الجذر، بالرغم من أنه حاول أن لا يبدو غير مهـــتم بذلك. عندما وقف جنكيز مجدداً، استلقى جوشي على سريره، وحدّق إلى أغـــصان البتولا التي تشكل هيكل سقف الخيمة. ظن ياو شو أن الخان سيغادر من دون أن يـــتكلم إلى ابنه، واندهش عندما توقف جنكيز وضرب قدم جوشي ضربة خفيفة.

قال جنكيز: "تستطيع السير، أليس كذلك؟".

أدار جوشي رأسه ببطء، وقال: "نعم، أستطيع السير".

"إذاً، تستطيع امتطاء جواد". لاحظ جنكيز سيف قبضة الذئب الذي لم يدعه جوشـــي يغيب عن ناظريه أبداً، وارتعشت يده شوقاً لحمله. كان فوق جلد النمر، الذي مرّر جنكيز أصابعه عليه.

قال له جنكيز مجدداً: "إذا كنت تستطيع السير، فستتمكن من امتطاء جواد". كان بمقدوره أن يستدير مبتعداً عندها، لكنّ دافعاً ما جعله يتسمّر في مكانه.

قال جنكيز: "اعتقدت أن ذلك النمر سيقتلك".

رد جوشي: "كاد يفعل ذلك".

لدهشته، ابتسم جنكيز عندما سمع ذلك، وكشف عن أسنان حمراء.

"بالرغم من ذلك، تغلبت عليه. أصبحت قائد فرقة، وسنخرج للغزو".

لاحـــظ ياو شو أن الخان كان يحاول مدّ جسور بينهما. كان جوشي سيقود عشرة آلاف رجل، وهو منصب يدل على ثقة كبيرة به ولا يمكن منحه لأيٍّ كان. لخيبة أمل ياو شو، أدلى جوشي بملاحظة ساخرة.

"ماذا غير ذلك يمكنني أن أطلب منك يا مولاي؟".

خيّم الصمت على الخيمة عندها، حتى هزّ جنكيز كتفيه استخفافاً.

"كما تقول أيها الفتى. لقد منحتك أكثر مما هو كاف".

اســـتغرق الأمـــر من حشد العربات والحيوانات أياماً للخروج من الجبال إلى السهول. إلى الجنوب والغرب كانت تقع المدن التي يحكمها الشاه محمد. كان كل الـــرجال والنساء قد سمعوا بتحدي خالهم وموت مبعوثيهم. كانوا لا يطيقون صبراً للأخذ بالثأر.

حول المجموعة الرئيسة من القوم، كان المستطلعون يدورون في حلقات واسعة في أثـــناء ترحالهم، تاركين الجبال الباردة خلفهم. كان القادة قد ألقوا العظام للفوز بشرف قيادة فرقة غزو وكان جيبـــي مَن كسب الرهان. عندما سمع جنكيز ذلك، اســـتدعى خلـــيفة أرسلان إليه ليزوّده بالأوامر. كان جيبـــي قد وجد الخان مع أشـــقائه مـــستغرقين في الحديث في أثناء تخطيطهم للحرب القادمة. عندما لاحظ جنكيـــز أخـــيراً الـــشاب واقفاً عند الباب، أومأ إليه، بعد أن رفع نظره لبرهة عن الخرائط الجديدة المرسومة بالفحم والحبر.

قال جنكيز: "أحتاج إلى معلومات أكثر من أكوام من القتلى أيها القائد. يمكن أن يكون لدى الشاه مدن عظيمة مثل تلك الموجودة في أراضي تشن. لن يكون غافلاً عما يجري ونحن نعبر أراضيه. ينبغي لنا أن نلقى جيوشه، لكن عندما نفعل، سيكون ذلك وفقاً لقواعدي. حتى ذلك اليوم، أحتاج إلى كل ما يمكنك أن معرفته. إذا كان في بلدة أقل من مئتي محارب، اجعلهم يستسلمون. أرسل تجارهم إليّ، فهؤلاء رجال يعرفون القليل عن العالم حولهم".

سأل جيبي: "وإذا لم يستسلموا يا مولاي؟".

ضحك خاسار بصوت خافت من دون أن ينظر إلى الأعلى، لكن نظرة الخان الصفراء، ارتفعت عن الخرائط.

رد جنكيز: "عندها مهّد الطريق".

فيما كان جيبي يستدير ليغادر، أطلق جنكيز صفيراً خافتاً. استدار جيبي نحوه مستفسراً.

"إنهم محاربوك الآن يا جيبي، وليسوا تحت قيادتي، أو قيادة أي رجل آخر هنا. سيتطلعون إليك أولاً. تذكر ذلك. لقد رأيت محاربين شجعان يتعرضون للهزيمة ويهربون، ثم يتصدّون لمهمات مستحيلة بعد بضعة شهور. كان الفرق الوحيد أن قادتهم قد تغيروا. لا تظن أبداً أن رجلاً آخر يستطيع القيام بعملك. هل تفهم؟".

رد جيبي: "نعم يا مولاي". كان قد كافح لإخفاء سعادته، بالرغم من أنه شعر بالدوار. كانت تلك أول عملية يقودها مستقلاً. كان عشرة آلاف محارب سينظرون إليه وحده، وحياتهم وشرفهم بين يديه. ابتسم جنكيز لنفسه، مدركاً تماماً حالة القلق التي تنتاب الشاب وأن قلبه يخفق بقوة.

قال الخان وهو يعود إلى خرائطه: "إذاً، اذهب".

في صبيحة يوم ربيعي، خرج جيبي مع عشرة آلاف محارب، متلهفاً لصنع اسم لنفسه. خلال بضعة أيام فقط، دخل تجار عرب إلى المخيم كما لو أن الشيطان نفسه كان خلفهم. كانوا مستعدين لمقايضة البضائع وبيع المعلومات لهذه القوة الجديدة في الأرض، ورحّب جنكيز بالكثير منهم في خيمته، وودّعهم بأكياس مليئة بالفضة. خلفهم، ارتفعت سحب بعيدة من الدخان ببطء.

انـــضم جوشي إلى رجاله بعد يومين من رؤية جنكيز له في الخيمة المخصصة للمرضـــى. كـــان هزيلاً وشاحباً بعد ستة أسابيع من العزلة، لكنه امتطى صهوة جـــواده المفضل بثبات، وعض على شفتيه من الألم. كانت ذراعه اليسرى ملفوفة بجـــبيرة والجروح في ساقيه لم تلتئم تماماً بعد، لكنه ابتسم عندما دفع جواده للسير خبـــباً نحو الصفوف. كان قد قيل لرجاله إنه قادم ووقفوا في التشكيل المعتاد لتحية قائدهم؛ ابن الخان البكر. بقيت تعبيرات وجه جوشي صارمة، وركّز على ضعفه. رفـــع يداً لتحيتهم، وهتفوا لنجاته، وجلد النمر كان قد وضعه بين السرج وجلد الجواد. كان سيتم ربط الرأس الجاف إلى قربوس السرج دائماً.

عـــندما أخـــذ موقعه في الصف الأمامي، أدار جواده، ونظر إلى الخلف نحو الرجال الذين كان والده قد وضعهم تحت إمرته. من بين العشرة آلاف، كان أكثر من أربعة آلاف محارب من مدن تشن. كانوا يمتطون جياداً ومسلحين مثل المغول، لكـــنه كـــان يعرف أنهم لا يستطيعون إطلاق السهام بسرعة أو دقة المغول. كان ألفـــان آخران من قبائل توركيتش إلى الشمال والغرب، وهم رجال داكنو البشرة يعرفون الأراضي المقصودة أفضل من المغول أنفسهم. ظن أن والده قد جعلهم تحت قيادته لأنهم من سلالة أدنى، لكنهم كانوا أقوياء الشكيمة ويعرفون الأرض وبارعين بالـــصيد. كان جوشي سعيداً بهم. أما آخر أربعة آلاف محارب فقد كانوا من أبناء قـــومه: نيمنـــز، أويرات وجاجيرات. جال جوشي ببصره على صفوفهم، وشعر عـــندها بضعف في وجوههم المتجهمة. كان المغول يعرفون أن جوشي ليس الابن المفـــضل للخـــان، وربمـــا ليس ابنه على الإطلاق. لاحظ شكوكاً في الطريقة التي ينظرون بها إلى بعضهم بعضاً وعدم تحمسهم بالهتاف مثل الآخرين.

شـــعر جوشي بغضبه يتزايد واستجمع إرادته. كان يودّ أن ينتظر مدة أطول حـــتى تشفى ذراعه. بالرغم من ذلك، كان قد رأى تسوبودي يدمج رجالاً معاً، وكان متلهفاً للبدء بالعمل.

صـــرخ فـــيهم: "أرى رجالاً أمامي". كان صوته قوياً وتجهّم كثيرون. "أرى محاربين، لكنني لا أرى بعد جيشاً".

انفرجت الأسارير عندما أشار إلى الحشد الكبير من العربات الذي يخرج من الجبال خلفهم.

قال: "لدى قومنا ما يكفي من الرجال لإبقاء الذئاب بعيداً. سيروا معي اليوم، وسأرى ما يمكنني أن أصنعه منكم".

دفع بعقبيه في ردفي مطيته، بالرغم من أن ساقيه كانتا قد بدأتا تؤلمانه آنذاك. خلفه، بدأ عشرة آلاف رجل يدفعون جيادهم للهرولة نحو السهول. كان سيرهقهم، كما قال في نفسه، حتى يصيبهم الإعياء، أو تؤلمهم أطرافهم لدرجة لا يستطيعون معها الوقوف بعد ذلك. ابتسم جوشي عندما خطرت في باله تلك الفكرة. كان سيتحمل الألم، ولطالما فعل ذلك.

كانت مدينة أطرار إحدى جواهر خوارزم العديدة، والتي أثّرت نتيجة وقوعها في تقاطع طرقات إمبراطوريات قديمة قدم وفّر الحماية للغرب طيلة ألف عام، وحظيت بنصيبها من الثروة التي تدفقت على طول الطرقات التجارية. كانت أسوارها تحمي آلاف المنازل المصنوعة من الآجر التي يرتفع بعضها ثلاثة طوابق ومطلية باللون الأبيض لحمايتها من أشعة الشمس الحارقة. كانت الشوارع مزدحمة دائماً وكان بمقدور أي شخص شراء أي شيء في العالم من أطرار، إذا كان لديه ما يكفي من الذهب. كان حاكمها، إنالشوك، يخطب في الناس كل يوم في المسجد، ويُظهر علانية التزامه الشديد بسنّة النبي (صلعم).

عندما كانت الشمس تغيب خلف التلال، كانت الحرارة في أطرار تنخفض ببطء والشوارع تفقد نشاطها وحيويتها بعد أن يعود الرجال والنساء إلى منازلهم. مسح إنالشوك العرق عن عينيه، واندفع بسيفه نحو الرجل الذي يعلّمه المبارزة. كان الرجل سريعاً، وكانت هناك أوقات ظن فيها إنالشوك أنه سمح لمعلّمه بتسجيل نقاط عليه. لم يكن يمانع ذلك طالما كان المعلّم ماهراً. إذا سنحت الفرصة، كان إنالشوك يضرب بقوة كبيرة، ويترك أثراً أو كدمة. كانت تلك لعبة، مثل أي شيء آخر.

بطرف عينه، شاهد إنالشوك حاجبه يتوقف عند طرف الساحة. اندفع معلّمه نحوه لانتهاز لحظة عدم الانتباه، وتراجع إنالشوك إلى الخلف قبل أن يوجه ضربة منخفضة، وأصاب بطرف سيفه غير الحاد معدة الرجل. وقع المعلّم بقوة على الأرض، وضحك إنالشوك.

"لـــن تجعلـــني أرفعـــك عن الأرض يا أكرم. لن تنطلي عليّ تلك الخدعة مجدداً".

ابتسم المعلّم، وقفز على قدميه، لكن الضوء كان يتلاشى، وانحنى إنالشوك له قبل أن يضع السيف جانباً.

مـــع مغـــيب الشمس، سمع إنالشوك أصوات المؤذنين عبر أطرار. كان ذلك وقـــت صـــلاة المغرب، وبدأت الساحة تمتلئ بأهل بيته. كانوا يحملون سجاجيد صـــغيرة، ووقفوا في صفوف خاشعين. اتخذ إنالشوك موقع الإمام، واختفت أفكار وبواعث قلق ذلك اليوم.

فـــيما كانوا يؤدون الصلاة، كان إنالشوك يتطلع قدماً إلى إفطار ذلك اليوم. كـــان شهر رمضان المبارك يقترب من نهايته، ولم يكن هو نفسه يجرؤ على تجاهل تعالـــيمه. كان الخدم يثرثرون مثل عصافير، وكان يعمل جاهداً حتى لا يمنحهم أي دليل يمكن أن يستخدموه ضده في محاكم الشريعة.

قال بصوت عال: "الله أكبر!". سجد مرة أخرى، وكان نموذجاً للتقوى أمام أســرته. كانـــت الشمس قد غابت خلال الصلاة وإنالشوك يتضور جوعاً. لفّ سجادة الصلاة، ومشى الهوينا عبر الساحة، وحاجبه يتبعه.

قال إنالشوك له: "أين جيش الخان؟".

كـــان حاجـــبه يحمـــل مجموعة من الأوراق كما يفعل دائماً، بالرغم من أن إنـــالشوك لم يكن يشك في أنه يعرف الجواب سلفاً. كان زايد بن صالح قد أمضى وقتاً طويلاً في خدمته، لكن التقدم في العمر لم يوهن ذكاءه.

قـــال زايد: "جيش المغول يتحرك ببطء يا سيدي. الحمد لله على ذلك. إنهم يغطون الأرض على كل الطريق إلى الجبال".

عبس إنالشوك.

"أكثر مما ظننا سابقاً؟".

"ربما مئة ألف مقاتل يا سيدي، بالرغم من أنني لا أستطيع أن أكون واثقاً مع ذلك العدد الكبير من العربات. إنهم يزحفون مثل أفعى ضخمة على الأرض".

ابتسم إنالشوك من التشبيه. "حتى مثل تلك الأفعى لها رأس واحد يا زايد. إذا كان الخان رجلاً يثير المتاعب، فسأجعل الحشاشين يقطعون رأسه".

كشّر الحاجب، وأظهر أسناناً مثل عاج أصفر. "سأحتضن عقرباً بدلاً من التعامل مع هؤلاء يا سيدي. إنهم خطيرون أكثر من خناجرهم...".

ضحك إنالشوك، وربت على كتف زايد. "إنهم يخيفونك يا زايد الصغير، لكن يمكن شراؤهم وليس هناك أفضل من رجل يمكن شراؤه. ألم يضعوا كعكة مسمومة على صدر صلاح الدين في أثناء نومه؟ *ذلك* هو المهم. إنهم يلتزمون باتفاقياتهم وكل جنونهم الغامض للعرض فقط".

ارتعش زايد قليلاً. كان الحشّاشون يحكمون حصونهم الجبلية وحتى الشاه نفسه لم يكن يستطيع إخراجهم منها. كانوا شغوفين بالموت والعنف، وشعر زايد أن على إنالشوك ألا يعتاد التكلم عنهم، حتى في منزله. كان يأمل بأن يتم اعتبار صمته اعتراضاً مبطناً، لكن إنالشوك انتقل إلى فكرة أخرى خطرت في باله.

قال: "لم تأتِ على ذكر أي كلمة عن الشاه محمد. هل يمكن ألا يكون قد أجاب بعد؟".

هزّ زايد رأسه. "ليست هناك تعزيزات بعد يا سيدي. لدي رجال ينتظرونهم جنوباً. سأعرف حالما يظهرون".

كانا قد وصلا إلى جناح الاستحمام في منزل الحاكم. لأنه رجل، لم يكن زايد يستطيع عبور الباب، وتوقف إنالشوك معه، يمعن التفكير في الأمر.

"لدى ابن عمي أكثر من مليون رجل تحت السلاح يا زايد، وهذا أكثر من كاف لسحق هذا الجيش من العربات والماعز الهزيلة. ابعث برسالة أخرى تحمل ختمي الشخصي. قل له... لقد عبر مئتا ألف محارب مغولي الجبال. ربما سيفهم أن حاميتي لا تستطيع سوى التراجع أمام مثل ذلك العدد الكبير".

"ربما لا يصدق الشاه أنهم سيهاجمون أطرار يا سيدي. هناك مدن أخرى ليس لها أسوارنا".

أطلق إنالشوك صوت استهجان، ومرّر يده على شعر لحيته المدهون بالزيت. "إلى أين قد يتجهون غير هذا المكان؟ هنا جلدت رجال الخان في السوق. هنا كدّسنا كومة من الأيدي بارتفاع خصر رجل. ألم يوجهني ابن عمي في ذلك؟ لقد نفذت أوامره، وأنا أعرف أن جيشه سيكون جاهزاً لردّ المغول على أعقابهم. لقد طلبت العون منه ومع ذلك تأخر عني".

لم يــرد زايد. لم تكن أسوار أطرار قد تحطمت من قبل، لكن تجاراً كانوا قد بــدأوا يتوافدون من أراضي تشن. تحدثوا عن استعمال المغول لآلات يمكنها تدمير مــدن. لم يكن مستبعداً أن يكون الشاه قد قرر ترك حامية أطرار تختبر عزيمة خان المغــول. كــان هناك عشرون ألف رجل داخل الأسوار، لكن زايد لم يكن يشعر بالثقة.

قــال إنالشوك: "ذكّر ابن عمي أنني أنقذت حياته مرة عندما كنا لا نــزال يافعين معاً. لم يكن قد ردّ لي ذلك الدين".

أحنى زايد رأسه. "سأرسل كلمتك إليه يا سيدي، على أسرع الجياد".

أومــأ إنالــشوك بتكلّف، واختفى داخل الباب. راقبه زايد يذهب، وتقطّب جبينه عبوساً. كان السيد سينغمس في ملذاته مثل كلب في الحر حتى الفجر، ويترك تخطيط الحملة العسكرية لخدمه.

لم يكــن زايــد يفهم سيده، تماماً مثلما لم يكن يفهم رجالاً مثل الحشّاشين الــذين اختاروا تناول قطع بنية لزجة من الحشيش التي تجعلهم لا يخافون ويمتلئون رغــبة بالقتل. كان جسده قد عذّبه عندما كان شاباً، لكن إحدى نعم التقدم في العمر هي الراحة من متطلبات الجسد. كانت السعادة الوحيدة التي اختبرها حقاً قد انبثقت من التخطيط والتعلّم.

أدرك زايد أن عليه أن يأكل لأن ليلة طويلة بانتظاره. كان لديه أكثر من مئة جاسوس على درب جيش المغول، وكانت تقاريرهم ترد كل ساعة. لم يكن زايد يــشكّ أن الــشاه محمد يحلم بأن يصبح صلاح الدين جديداً. كان إنالشوك مجرد شــاب يافع، لكن زايد تذكر عهد الملك العظيم. كان يحتفظ بذكريات عن مرور محاربــي صلاح الدين عبر بخارى إلى القدس قبل أكثر من ثلاثين عاماً. كان ذلك عصراً ذهبياً!

لم يكن الشاه ليدع أطرار تسقط، وكان زايد شبه واثق من ذلك. كان هناك قادة كُثر انضووا تحت لوائه، لكنهم كانوا سيترقبون نقطة ضعف. كانت تلك لعنة كل الرجال الأقوياء و لم يكن الشاه ليتخلى عن مدينة ثرية. بالمحصلة، لم يكن تشن أضعف حالاً من قبل. إذا كان ممكناً إيقاف جنكيز عند أطرار، سيكون هناك عالم يمكن الظفر به.

لا شك في أن إنالشوك كان يضع نصب عينيه عرش الشاه. إذا استطاع دحر المغول بسرعة، ربما يصبح العرش في متناول يديه.

كان الممر بارداً بعد المغيب وبالكاد لاحظ زايد العبيد يشعلون مصابيح الزيت علـــى طوله. لم يكن متعباً. كانت تلك أيضاً إحدى نعم التقدم في العمر، ولم يكن يحتاج إلى الكثير من النوم. مشى مبتعداً نحو الدجنة، وفي ذهنه ألف شيء ينبغي أن يقوم به قبل الفجر.

الفصل التاسع



لم يعد جيبي يعرف عدد الأميال التي كان قد قطعها بعد شهر من مغادرته أرض الخان. في البداية، كان قد توجه جنوباً، ووصل إلى بحيرة كبيرة على شكل هلال. لم يكن جيبي قد رأى من قبل مثل ذلك المسطح من الماء العذب، الواسع لدرجة أن مستطلعاً حادّ البصر لا يرى الطرف الآخر. طيلة أيام، كان ورجاله قد اصطادوا بالحراب سمكاً أخضر كبيراً لم يعرفوا اسمه، وتغذوا على اللحم قبل أن يمضوا قدماً. كان جيبي قد قرر ألا تخوض الجياد في البحيرة، وقاد فرقته بدلاً من ذلك على طول ضفافها الطينية. كانت الأرض مليئة بالحيوانات التي يمكن تناولها، من الغزال والوعل إلى دب بني خرج يجأر من غابة صغيرة، وكاد يصل إلى مجموعة صغيرة من الفرسان قبل أن تطرحه السهام أرضاً. علّق جيبي فرو الدب فوق ظهر جواده، وكان غنياً بالدهن. كانت الصقور والنسور تحلق في الرياح الدافئة فوق رؤوسهم، وذكّرت التلال والوديان الخضراء جيبي بالديار.

كما أمر جنكيز، ترك القرى الصغيرة وشأنها، وتجاوزها رجاله مثل كتلة داكنة بينما هرب المزارعون أو حدّقوا إليهم خائفين. كان مثل هؤلاء الرجال يذكّرون جيبي بالماشية ولم يسعه سوى أن يهزّ كتفيه استخفافاً بأسلوب العيش ذاك، المرتبط بمكان واحد طيلة الوقت. كان قد دمر أربع بلدات كبيرة وأكثر من اثني عشر حِصناً على الطريق، ودفن الغنائم في أماكن ترك عليها علامات في التلال. كان رجاله سيعرفون أنه قائد بكل ما للكلمة من معنى، وساروا معه مرفوعي الرأس، مستمتعين بأسلوبه في الهجوم السريع، وقطع مسافات كبيرة في عدّة أيام فقط. كان أرسلان أكثر حرصاً كقائد، لكنه كان قد أحسن تعليم جيبي، وها هو الخلف يقودهم بقوة. كان عليه أن يصنع لنفسه

اسمياً بين القادة ولم يسمح بظهور نقطة ضعف أو تردد بين أولئك الذين يعملون تحت قيادته.

إذا استسلمت أيُّ بلدة بسرعة، كان جيبي يرسل تجارها شمالاً وشرقاً إلى حيث يظن أن جنكيز ربما يكون قد وصل مع العربات البطيئة، ووعدهم بالذهب، وأغراهم بنقود تشن كإثبات على السخاء الذي ستتم معاملتهم به. كان قد تم إرغام الكثيرين منهم على رؤية منازلهم تحترق ولم يحبوا القائد الشاب، لكنهم قبلوا الهدايا وانطلقوا مبتعدين. لم يكونوا يستطيعون إعادة بناء أي شيء وجنكيز قادم إلى الجنوب، لقد وجدهم جيبي أكثر واقعية من قومه، وأكثر قبولاً للقدر الذي يمكن أن يرفع من شأن رجل واحد، ويحطّ من آخر من دون داعٍ أو سبب. لم يعجبه موقفهم، بالرغم من أنه كان يناسب أهدافه جيداً.

بحلول نهاية الشهر القمري الجديد، الذي عرف جيبي أنه شهر رمضان لدى المسلمين، وصل إلى سلسلة جديدة من الجبال إلى الجنوب من بحيرة الهلال. كانت أطراف إلى الغرب، وأبعد منها تقع مدن الشاه الذهبية، التي تحمل أسماء نطقها جيبي بصعوبة. عرف بأمر سمرقند وبخارى، وجعل مزارعين يرسمون موقعيهما على خرائط سيقدّرها جنكيز عالياً. لم يسافر جيبي لرؤية تلك الأماكن المحاطة بأسوار. عندما يفعل، سيكون ذلك وأمة المغول خلفه.

مع انقضاء الشهر، انطلق جيبي في اندفاعة أخيرة نحو تلال الجنوب، وضع خريطة بمواقع كل مصادر الماء وحافظ على جهوزية رجاله. كان جاهزاً تقريباً للعودة وخوض حرب. بالرغم من أن فرقته كانت قد بقيت بعيدة أكثر من شهر قمري، إلا أنه لم يكن يحمل خياماً معه وأقام معسكره في واد، ووضع مستطلعين على كل القمم حوله. كان أحد هؤلاء قد عاد إلى المعسكر وفرسه تتصبب عرقاً.

"لقد رأيت خيّالة أيها القائد، على مسافة بعيدة".

سأل جيبي: "هل رأوك؟".

هزّ المحارب الشاب رأسه بفخر. "ليس في هذه الحياة أيها القائد. كان الوقت غسقاً قبل مغيب الشمس وعدت فوراً". تردد الرجل، وانتظر جيبي أن يتكلم مجدداً.

"أظــن... أنهــم ربما يكونون مغولاً أيها القائد، من الطريقة التي يمتطون بها الجياد. كانت مجرد لمحة قبل أن يحل الليل، لكن كان هناك ستة رجال يسافرون معاً وربما يكونون منا".

نهض جيبـــي، وقد نسي وجبته من لحم الأرنب عند قدميه. تمتم: "من غيره سـيقطع كـل تلك المسافة جنوباً؟". بصافرة خافتة جعل رجاله يتركون طعامهم ويمـتطون جيادهم. كانت الظلمة حالكة ولا يمكن للجياد أن تعدو بسرعة، لكنه كـان قـد رأى قافلة تعبر التلال قبل المغيب و لم يستطع جيبـي مقاومة الاقتراب مـنها في الليل. بحلول الفجر، سيكون في موقعه. نقل أوامره إلى ضباطه، وجعلهم يبلّغون الرجال. في وقت قصير للغاية، كانوا يطقطقون بهدوء لمطياتهم، ويتحركون في رتل.

مـن دون ضـوء قمر، كان الليل حالكاً جداً، لكنهم نفّذوا أوامره وابتسم جيبـي لنفسه. إذا كان خاسراً، أو أفضل منه، تسوبودي، لن يحب شيئاً أكثر من مفاجـأة قـوة المغول عند الفجر. فيما كان يدفع مطيته لتتقدم الرتل، أصدر أمراً بصوت خافت بخروج المستطلعين، وكان يعرف أن قادة الخان سيشعرون بالسعادة لفعـل الشيء نفسه له. بخلاف الرجال الأكبر سناً، كان عليه أن يصنع اسماً لنفسه واستساغ تحدي الأرض الجديدة. كان ارتقاء تسوبودي قد أثبت أن جنكيز يفضل المهارة على قرابة الدم، دائماً.

أفاق جوشي من نومه مثل رجل ميت في غابة صنوبر، على منتصف سفح جبل. كان مستلقياً في ظلمة حالكة، رفع يده اليسرى أمام وجهه وطرفت عيناه. كـان المـسلمون يحـددون الفجر بالوقت الذي يمكن فيه تمييز الخيط الأبيض مـن الأسـود و لم يكن هناك ضوء كاف آنذاك لفعل ذلك. تأوه وعرف أنه لن يـنام مجـدداً وأن جسده المنهك قد دفع نفسه للاستيقاظ. كانت قدماه تتيبّسان صـباحاً، وكـان يبدأ كل يوم بفرك الزيت على الندوب التي أصابته من الكي بالحديد الساخن ومخالب النمر. ببطء، دلّك الجلد المتغضن بإبهاميه، وتأوه ارتياحاً عـندما استرخت العضلات. سمع عندها وقع حوافر في الظلام وأحد مستطلعيه ينادي.

قـــال: "هنا". ترجل المستطلع وجثا إلى جانبه. كان أحد جنود تشن، وسلّمه جوشـــي قدر الزيت ليتابع ما كان يقوم به بينما أرهف هو السمع. تكلم المستطلع بسرعة بلغته، لكن جوشي قاطعه مرة واحدة فقط ليسأل عن معنى كلمة.

قـــال جوشي، متألماً من إبهامي محارب تشن اللتين وصلتا إلى منطقة ضعيفة: "خـــلال ثلاثـــة أســـابيع، لم نرَ إشارة على قوة مسلحة، والآن يزحفون نحونا في الظلام".

تمتم المستطلع: "يمكن أن نبتعد أميالاً بحلول الفجر أيها القائد".

هـــزّ جوشي رأسه. كان رجاله سيسمحون له بالتراجع إذا كانت لديه خطة مـــا لـــسحب عدو إلى كمين. كان الانسحاب ببساطة سيقوّض سلطته بين كل مجموعات فرقته.

أطلق لعنة بصوت خافت. في حلكة الليل الذي يفتقر إلى ضوء القمر، لم يكن يعـــرف موقع العدو أو عدد أفراد الجيش القادم نحوه. كان أفضل متعقبـــي الأثر لديه عديمي الجدوى، والأفضلية الوحيدة التي يتمتع بها أنه يعرف الأرض. كان قد جعـــل الوادي المعزول إلى الجنوب ساحة تدريبه مدة نصف شهر، وقد استفاد منه لدفع رجاله إلى مستوى جديد من الصلابة. إلى جانب مستطلعيه، كان يعرف كل التضاريس وأماكن الاختباء في كل أرجائه.

قـــال للمستطلع: "أحضر ضباطي إليّ". كان الضباط العشرة يستطيعون نقل أوامره بسرعة إلى آلاف الأفراد من فرقته. كان جنكيز قد ابتكر النظام الذي أثبت فاعليته. كان جوشي قد أضاف فقط فكرة تسوبودي بتسمية قائد كل ألف وكل جاغون من مئة رجل. كان ذلك يخفف من الارتباك في المعركة وكان سعيداً بهم.

ســـلّمه مستطلع تشن قدر الزيت، وأحنى رأسه قبل أن ينطلق مبتعداً. وقف جوشـــي، وشـــعر بالسعادة عندما اكتشف أن ساقيه لم تعودا تؤلمانه، على الأقل لبعض الوقت.

بحلـــول الـــوقت الذي كان فيه رجاله يقودون مطاياهم إلى أعلى التل الذي يؤدي إلى واد خلفه، كان مستطلعان آخران قد جاءا. لم تكن الشمس قد أشرقت بعـــد، لكـــنّ الضوء الرمادي للفجر كان يغمر التلال، عندما شعر الرجال بالحياة تدب في أوصالهم. رأى جوشي مستطلعين يضحكان بصوت خافت، فأشار إليهما

ليأتـيـا إليه. كانا من قوم تشن أيضاً، لكن، كان واضحاً أن المحاربين الصليين عادة سعيدان بشيء ما.

سأل جوشي بنفاد صبر: "ما الأمر؟".

تبادل الرجلان نظرة. "هؤلاء القادمون مغول أيها القائد".

طـرفت عينا جوشي حيرة. كان صحيحاً أنه يستطيع تمييز وجوه المستطلعين في الظلام الحالك، لكنهما كانا قد قادا فرسيهما في الليل للعودة إليه.

سأل: "كيف تعرفان ذلك؟".

لدهشته، فرك أحدهما أنفه. "الرائحة أيها القائد. النسيم يهب من الشمال إلى الجنوب ولا مجال للخطأ في ذلك. المحاربون المسلمون لا يستعملون دهن الضأن".

كـان واضحاً أن المستطلعين يتوقعان أن يرتاح جوشي، لكن بدلاً من ذلك ضـاقت عينـاه، وصرفهما بإشارة غاضبة. لا يمكن أن تكون سوى فرقة، بقيادة الـرجل الجديـد الذي عينه والده في ذلك المنصب. لم تكن قد سنحت له فرصة التعـرف إلى جيبـي قـبل أن يرسله جنكيز في مهمة. أظهر جوشي أسنانه في الظـلام. كـان سـيلتقيه وفقاً لقواعده الخاصة على الأقل، على أرض لا يعرفها جيبـي مثله.

أصـدر جوشـي أوامر جديدة، وزاد رجاله من سرعتهم، وكانوا بحاجة إلى الوصول إلى الوادي قبل حلول الفجر. كانوا قد سمعوا جميعاً نبأ الفرقة الأخرى في المـنطقة، وكانوا متلهفين، مثل قائدهم، لإظهار ما يمكنهم القيام به. لم يكن تدمير جـيوش الـشاه محمـد يجعلهم يشعرون بالرضا مثل التفوق على فرقة أخرى من جيشهم.

مـع ارتفـاع الشمس فوق خط الأفق، تحرك جيبـي ببطء إلى الأمام. كان محاربـوه قـد خـرجوا مع آخر خيوط الظلام، يتحركون خلسة لمحاصرة واد فيه محاربون وجياد. انتقل الصهيل بعيداً في التلال، وكان جيبـي قد ترك أربعين فرساً خلفه.

جعـل ضوء الشفق الأول القائد يبتسم لرؤية التضاريس أمامه. كان المحاربون يتحـركون بكـتل داكـنة علـى الأرض، محاطين من كل الجهات بالمنحدرات

والــصخور. كان الرجال من أمثال كوكشو يسردون قصصاً عن حجارة ضخمة تهبط من النجوم وتحفر ودياناً. كان ذلك يبدو أحد تلك الأماكن. لاحظ جيبــي قمــة بارزة حيث يستطيع توجيه المجموعات المهاجمة مستفيداً من الأشجار كغطاء للتحــرك نحوها، متوارياً دائماً عن أنظار أولئك الموجودين على أرض الوادي. لم يكــن يــنوي قتل أحد، وإنما أن يثبت فقط لفرقة المغول أن بمقدوره تدميرها. لن ينــسوا منظــر صفوفه المسلحة التي يصرخ أفرادها في أثناء هبوطهم بسرعة على سفوح التلال.

كــان بــصر جيبــي حادًّا، وشعر بالسعادة لعدم رؤية أي إشارة إنذار لدى أولــئك الــذين يــراقبهم. كان واضحاً أنهم يتدرّبون، واستطاع رؤية صف من الأقــراص البعيــدة التي لا يمكن أن تكون سوى أهداف من القش للتدريب على الــرماية. كان صف إثر آخر يندفع أفراده على جيادهم بسرعة ويطلقون سهامهم قــبل أن يستديروا عائدين للقيام بمحاولة أخرى. ضحك جيبــي بصوت خافت عندما سمع صوت أبواق المغول من بعيد.

مــع ضابطين وحاملي رايات، ربط جيبــي لجام جواده إلى شجرة صنوبر، وجــثم قبل أن يتحرك ببطء نحو القمة. لقطع المسافة القليلة الأخيرة، زحف على بطــنه، وتقــدم إلى الأمام حتى استطاع رؤية كل الوادي الأخضر. كانت المسافة بعــيدة جــداً لتمييز القائد، لكن جيبــي أومأ إلى التشكيلات التي كانت تتدرب وتقوم بمناورات. أياً كان الشخص الذي درّبهم فقد أبلى بلاءً حسناً.

على بعد نصف ميل، شاهد جيبــي وميضاً أحمر، اختفى بالسرعة نفسها التي كان قد ظهر بها على صخرة عالية. كان محاربو الميسرة قد وجدوا لأنفسهم مكاناً علــى سفح تل يمكنهم الاستفادة منه وكانوا على أهبة الاستعداد. انتظر أن تفعل الميمنة الشيء نفسه، وخفق قلبه بسرعة عندما رفرفت راية زرقاء.

أزعجه شيء ما، وشتّت تركيزه. أين هم المستطلعون الآخرون، الرجال الذين ينبغــي لهم مراقبة هذا النوع من الهجوم؟ كانت أرضية الوادي مكشوفة لأي قوة معادية ولم يفكر جيبــي في أن أحداً من قادة جنكيز سيترك نفسه عرضة لهجوم. كــان لدى رجاله أوامر بتجريد المستطلعين من أسلحتهم قبل أن يطلقوا أبواقهم، لكن ذلك كان مرتبطاً بالحظ.

تمتم: "أين المستطلعون؟".

كان أقرب الرجال إليه بارشوك، زوج شقيقة جنكيز، تيمولن. كان جيبي قد اكتشف أنه خيار صائب، بالرغم من أنه ظنّ أن جنكيز كان قد خرق كل القواعد لترقيته.

قال بارشوك، وهو يهز كتفيه استخفافاً: "ليس هناك جيش كبير قريب من هذا المكان. ربما يكون المستطلعون قد ابتعدوا عنهم كثيراً".

على الطرف الآخر من الوادي، لمح جيبي وميضاً. كانت المسافة بعيدة جداً لرؤية رايات، لكن رجاله كانوا يحملون قطعاً من زجاج تشن، ويستعملونها لعكس أشعة الشمس. وضع جيبي شكوكه جانباً ووقف. كان على بعد مئة خطوة خلف القائد ألفا رجل وجيادهم إلى جانبهم. كانت الحيوانات مدربة جيداً وبالكاد أصدرت صوتاً عندما رفع الرجال أسلحتهم عن أعناقها وسمح لهم بالوقوف.

نادى جيبي: "اتركوا الأقواس في كنانتها. نريد تدريب الرجال، لا قتلهم".

ضحك بارشوك بصوت خافت فيما كان مع جيبي والآخرين يمتطون جيادهم. كانوا سيهاجمون بأربعة صفوف، تتلاقى في المنتصف، حيث سيلتقي جيبي قائد الفرقة. ذكّر نفسه بألا يحدق بإعجاب عندما يتعرف إليه الرجل.

عندما رفع جيبي ذراعه لإصدار الأمر، رأى وميضاً أحمر إلى يساره، كما لو أن الميسرة تشير إليه مجدداً.

قال بصوت عال: "ماذا يفعلون؟".

قبل أن يجيب بارشوك، خرج رجال من كل مكان في الأرض. صرخ محاربو جيبي ارتباكاً عندما نهض محاربون من حفر ضيقة، يمسكون بأقواس مشدودة. كانوا قد انتظروا طيلة الليل بصمت كامل، وغطوا أنفسهم بطبقة سميكة من المهاد وإبر الصنوبر اليابسة. في لحظات فقط، كان عدد كبير منهم يصوبون سهاماً حادة على جيبي فيما كان يدير مطيته مذهولاً.

رأى جوشي يخرج من بين الأشجار، وأرجع رأسه إلى الخلف ليضحك. لم يردّ ابن الخان حتى وصل إلى ركاب جيبي واضعاً يده على سيف قبضة الذئب.

قال: "قضينا على رجالك أيها القائد. لا أحد قادم وأنت لي". عندها فقط ابتسم جوشي، وكشّر أولئك المحيطون بجيبي.

قـــال جيبـــي: "كنت *أعرف* أنه ينبغي لي إرسال المزيد من المستطلعين". في إشارة قبول منه، سلّمه سيفه. انحنى جوشي، وأعاد إليه السيف، ووجهه مشرق من النجاح الذي حققه. فيما كان جيبـــي يراقب ما يحدث، أطلق جوشي نغمة طويلة مـــن بـــوق مستطيل تردد صداها عبر الوادي. بعيداً في الأسفل، أوقف المحاربون تدريباتهم، ووصلت هتافاتهم حتى إلى المرتفعات.

قـــال جوشـــي: "أهلاً بك في معسكري أيها القائد. هل سترافقني إلى أسفل الوادي؟".

أحنى جيبـــي رأسه لما هو محتوم. انتظر حتى أعاد رجال جوشي أسلحتهم إلى قرابها، وأحضروا جيادهم إلى القمة.

سأل جيبـــي جوشي: "كيف عرفت أنني سأمر مع رجالي من هنا؟".

هزّ ابن الخان كتفيه. "إنه المكان الذي كنت سأختاره".

رد جيبـــي مستغرباً: "وقد دربك تسوبودي".

ابتـــسم جوشـــي، مفضلاً عدم ذكر الرجال الذين كان قد وضعهم في أربعة أماكن أخرى على التل. كانت ساعات الانتظار الصامت ثقيلة وباردة، لكن رؤية تعبير وجه جيبـــي عندما نهضوا من مخابئهم كانت تستحق ذلك التعب.

قاد القائدان فرسيهما معاً على السفح إلى الوادي، واستمد كل منهما الراحة من وجود الآخر.

قال جوشي: "كنت أفكر في اسم لفرقتي".

نظر جيبـــي إليه، ورفع حاجبيه مستغرباً.

"لدى تسوبودي *الذئاب الفتية* ولها وقع أفضل من *محاربـــي جوشي* أو *فرقة جيبـــي*، ألا تعتقد ذلك؟".

كـــان جيبـــي قد رأى هذا الشاب الغريب يثبت في مكانه عندما وثب نمر عليه. كان الجلد المخطط تحت سرج جوشي، وشعر جيبـــي بعدم ارتياح من فرو الدب المتعفن الذي يجلس عليه. بدا أن جوشي لم يكن قد لاحظه.

قال جيبـــي بحذر: "هل تفكر في النمور، أو شيء من هذا القبيل؟".

قـــال جوشي: "آه لا، ليس بالضرورة أن يكون اسم حيوان". ثم ألقى نظرة على فرو الدب.

شعر جيبي بوجنتيه تتوردان، وضحك بصوت خافت مجدداً. كان يحب ابن الخان هذا، بغض النظر عما كان يقال عنه في المخيم. سواء أكان ابن جنكيز حقاً أم لا، لم يكن ذلك مهماً لجيبي. لم يشعر بشيء من الغطرسة والتبجح اللذين كان قد رآهما في تشاغاتي، وقد أسعده ذلك.

كانا قد قادا فرسيهما إلى حيث ينتظر رجال جوشي الذين شكّلوا تنظيماً مربع الشكل. أمال جيبي رأسه للضباط، مكرّماً إياهم أمام رجالهم.

قال جيبي: "يبدون خطيرين بما يكفي. ماذا عن *رمح الحديد*؟".

ردّ جوشي وهو يختبر الصوت: "*رمح الحديد*. أحب الحديد، لكن ليس لدي الكثير من الرماح لأحمل ذلك اللقب. لن يكون منطقياً أن أعيد تدريبهم من جديد ليحملوا ذلك الاسم".

رد جيبي، وقد انغمس في اللعبة: "إذاً، الجواد الحديدي. لديهم جميعاً مطيات، على الأقل".

شدّ جوشي لجام مطيته. "أحب ذلك! لدى تسوبوتاي *الذئاب الفتية*. لديّ أنا *الجواد الحديدي*. نعم، هذا مثير تماماً". ابتسم فيما كان يتكلم وفجأة انفجر كلا الرجلين بالضحك، مما أصاب الضباط حولهما بالحيرة.

سأل جيبي: "كيف عرفت أننا قادمون؟".

رد جوشي بطريقة جعلتهما ينفجران ضحكاً مجدداً: "شممت رائحة فرو الدب".

كان رجال جوشي قد اصطادوا الكثير من الحيوانات ولديهم ما يكفي من اللحم لكل محاربي جيبي. بمبادرة من القائدين اللذين جلسا معاً مثل صديقين قديمين، اختلطت الفرقتان بسهولة وكان المزاج طيباً. بقي المستطلعون فقط على التلال، وأرسل جوشي هذه المرة رجالاً بعيداً مسافة أميال كما كان يفعل كل يوم تدريب. لم يكن أحد يستطيع مفاجأته في واديه.

سمح جيبي لرجاله بالتدرّب مع جوشي، وأمضى معظم النهار يناقش التكتيكات والتضاريس التي قطعوها. قَبِل عرض جوشي للنوم في المعسكر المؤقت، ولم يقرر أن يغادر سوى في فجر اليوم التالي. كانت تلك استراحة ممتعة من

الترحال القاسي وحصص الطعام المقننة. كان جيبي قد أكل جيداً، وقدّم جوشي آخر كمية شراب أسود إلى الضباط. لم يكن جوشي قد أشار ولا مرة واحدة إلى الطريقة التي فاجأ بها القائد الآخر على المرتفعات، وكان جيبي يعرف أنه يدين له.

كان الرجال سيتكلمون عن ذلك طيلة شهور.

قال جيبي مع شروق الشمس: "سأتركك مع *جوادك الحديدي* أيها القائد. ربما سأجد اسماً لفرقتي في الوقت المناسب".

وعد جوشي: "سأفكّر في الأمر". للحظة، فقد مزاجه الطيب. "لدي بضعة أصدقاء يا جيبي. هل يمكنني أن أعتبرك أحدهم؟".

لم يرد جيبي في البداية. كان ابن الخان يسير على درب صعب، وشعر بالقشعريرة تسري في جسده من فكرة الوقوف بين جنكيز وهذا الشاب الطويل. ربما كان ذلك بسبب ما يدين له به، أو ببساطة لأنه يحب جوشي حقاً، لكنه كان مندفعاً بطبعه. بإشارة سريعة، سحب سكيناً وجرح راحة يده، ومدّها.

حدّق جوشي، ثم أومأ برأسه. فعل مثله، ثم تصافحا باليد اليمنى. لم يكن ذلك بالأمر الهين، وأطبق الصمت على الرجال حولهما فيما كانوا ينظرون إلى ما يجري.

من بعيد، ظهر مستطلعان يقتربان، وانكسر حاجز الصمت عندما استدار كلا الرجلين. وبسبب سرعة تقدّم المستطلعَين الكبيرة، عرفا فوراً أنهما يحملان أنباء لهما، ووضع جيبي خططه بالمغادرة جانباً حتى يسمع ما سيقال.

كانا رجلي جوشي، ولم يسع جيبي سوى أن يقف، ويرهف السمع فيما كانا يتكلمان.

"العدو في مرمى البصر أيها القائد. ثلاثون ميلاً جنوباً ويقترب من الغرب".

قال جيبي، من دون أن يستطيع تمالك نفسه: "كم عددهم؟". رأى المستطلع جوشي يومئ برأسه وأجاب.

"لا يمكنني عدّ مثل تلك القوة من الرجال والجياد أيها القائد. أكثر من كل محاربي الخان، وربما ضعف عددهم يقتربون مع حيوانات ضخمة لم أرَها من قبل، بدروع ذهبيّة".

قـــال جوشـــي راضياً: "نـــزل الشاه إلى الميدان. سينطلق *جوادي الحديدي* لرؤيتهم. هل سيأتي *فرو الدب* معنا؟".

رد جيبـــي: "لا أحب *فرو الدب* على الإطلاق".

رد جوشي، وهو يصفّر للرجال ليأتوه بجواده ه وقوسه: "إنه اسم رائع، لكننا سنناقش ذلك في أثناء سيرنا".

الفصل العاشر



بالــرغم من أنهم لم يمضوا وقتاً طويلاً باجتياز ممرات التلال التي كان جوشي يعــرفها حــق المعرفة، إلا أن الأمر استغرق يوماً بأكمله تقريباً لتصل الفرقتان إلى المكــان الذي رأى فيه المستطلعان جيش الشاه. في أراضٍ جبلية، كان ممكناً أحياناً أن يعــبر جيشان وادياً من دون أن يعرف أحدهما بوجود الآخر. بالرغم من ذلك، إذا كانــت تقديرات المستطلعين دقيقة، لم يكن من الممكن إخفاء مثل ذلك الحشد الكــبير. في وقــت متأخر من بعد ظهيرة ذلك اليوم، كان القائدان قريبين بما فيه الكفاية لرؤية أثر من غبار ضارب إلى الحمرة عالق في الهواء مثل أفق زائف. اجتمع جيبــــي وجوشي معاً لمناقشة خطة أول لقاء مع جيش الشاه. بوجود رجال أكبر سناً، كان اتخاذ قرار حول من ينبغي له أن يأتي إلى الآخر أمراً دقيقاً. كان جوشي ابــن الخان، فيما جيبــي أكثر خبرة بسبعة أعوام. مع جرحين حمراوين لا يزالان ظاهــرين علــى راحتي يديهما، لم يكترث أي منهما لذلك الأمر. التقيا في منطقة وسط لمناقشة خططهما ومراقبة العدو.

كان جيبــي قد فقد مزاجه الطيب الذي كان يتحلى به في الصباح. أومأ إلى جوشــي فيما كانا يقودان فرسيهما للسير خبباً جنباً إلى جنب، أمام عشرين ألف محــارب. كــرجل كان يحب ابن الخان، لكنه لم يكن يعرفه كقائد، شعر جيبــي بالانــزعاج قليلاً لأن عليه السماح بوجود قوة أخرى في الميدان.

انطلقــت فــرقتا المغول عبر ممر عال نحو المكان الذي يتصاعد منه الغبار. أمامهما، كان الضوء أكثر سطوعاً عندما انكشفت الأرض، ووجّه كلا الرجلين مطيتيهما نحو قمة تطل على سهول خلفها. كان جوشي على الأقل قد استطلعها مــن قــبل. كان الغبار يتصاعد مثل سحب عاصفة من بعيد و لم يسعه سوى أن

يستلع ريقه بصعوبة فيما كان يتخيل قوة معادية كبيرة بما يكفي لإحداث مثل ذلك الأثر.

أخيراً، توقف القائدان، ورفع كلا الرجلين ذراعاً لإيقاف المحاربين خلفهما. تصاعد الغبار الذي أثارته جيادهم مثل أعمدة في النسيم الدافئ. كان العدو سيعرف أنه مُراقب، لكن، كان من المستحيل تحريك مثل تلك القوى الضخمة في وضح النهار من دون أن يراها أحد.

جعل جوشي وجيبي مطيتيهما تطبقان الصمت فيما كانا يراقبان الحشد الذي يحمل رايات يتّجه غرباً، على بعد ميل فقط. كان جيشاً يتفوّق عدداً على فرق الخان، سواء بجنود المشاة أو الفرسان الذين يقودون جيادهم على الجناحين. كان قاع الوادي منبسطاً على مسافة أميال، لكنه بالرغم من ذلك بدا صغيراً للغاية على استيعاب مثل ذلك الحشد الهائل.

استطاع جوشي رؤية رماح مثل أشجار غابة صنوبر حتى على مثل تلك المسافة. في ضوء الشمس الساطع، لمعت الدروع الحديدية في الصفوف. نظر إلى جيبي ليرى رد فعله ووجد أن القائد يميل إلى الأمام في سرجه، ويحدق بذهول.

سأل جيبي، وعيناه نصف مغمضتين: "هل ترى الأقواس؟".

لم يكن جوشي يراها، لكنه أومأ برأسه متمنياً أن يكون تسوبودي موجوداً لتقييم هذه القوة التي سيواجهونها في معركة.

تكلم جيبي كما لو أنه يقدم تقريره. "لديهم أقواس كبيرة، مثل أقواسنا. ودروع جيدة أيضاً، أكبر من دروعنا. الكثير من الجمال! لم أرَ أبداً مثل ذلك العدد في مكان واحد، ولم أرَ أحداً يمتطيها لخوض حرب. ستكون أسرع من جيادنا على أرض قاسية. ينبغي لنا أن نتأكد من عدم استخدامهم لتلك الأفضلية".

كان هناك شيء بشأن جيبي يجعل جوشي يشعر بالراحة دائماً.

قال: "لا تنسَ تلك الحيوانات الضخمة، التي لها قرون أو أنياب أو مهما تكن. ستكون أيضاً جديدة على رجالنا".

رد جيبي: "فيلة. تكلم جيلم عن رؤيته لأحدها في بلاط كوريو. إنها حيوانات مخيفة". أشار إلى الجناحين السوداوين لجيش الشاه، وحرّك يديه في الهواء.

"إنهم يضعون فرسانهم على الجانبين، لحماية القلب. هناك سنجد قادتهم". من القمــة، استطاع رؤية تنظيم جيش الشاه كله ممتداً أمامه. كانت مجموعة أصغر من الفرســان تقود جيادها في الوسط، بصفوف في غاية التنظيم. مصّ جيبـــي أسنانه فــيما كان يفكّر. "هل ترى الصناديق على ظهور تلك الفيلة؟ محاطة بخيّالة؟ أعتقد أن هؤلاء ضباط". توقف قليلاً وصفّر لنفسه. "إنهم فرسان رائعون. هل ترى كيف يحافظون على التشكيل".

نظر جوشي إلى جانبيه فيما كان يرد. "إنهم مخيفون، أليس كذلك؟".

ضحك جيبـــي بصوت خافت. "لا تخَف يا جوشي. أنا هنا الآن".

تأفــف جوشي، بالرغم من أنه في الواقع كان خائفاً. يمكن لمثل ذلك العدد الكبير ابتلاع جيش والده و لم يستطع رؤية أي نقطة ضعف في الخطوط الداكنة.

كان كلا الرجلين قلقين من انكشاف أمرهم حالما يظهرون على القمة. كان الخــيّالة يتــسابقون ذهاباً وإياباً على طول خطوط الشاه، وراقب قائدا المغول ما يجري باهتمام، وعرفا كل ما يمكنهما عن ذلك الجيش. كانت هناك أشياء كثيرة لم يـــستطيعا فهمها. بالرغم من أن جيبـــي كان قد سمع وصفاً للفيلة، إلا أن حقيقة رؤية تلك الحيوانات الضخمة مقارنة بالخيّالة كانت مخيفة. بدت الرؤوس الضخمة محمـــية بالأنـــياب إضافة إلى المعدن الذي يلمع تحت أشعة الشمس. إذا كان من الممكن الاستفادة منها في هجوم، فإنه لم يكن يعرف طريقة إيقافها.

عـــندما استدار جيبـــي لمناقشة أحد التفاصيل مع جوشي، انفصلت مجموعة كـــبيرة من الفرسان عن الرتل الرئيس، وشكّلوا صفاً أثار غباراً تحرك مثل دوامة. توقـــف الآخـــرون بعد سماع صوت أبواق، وبالرغم من ذلك رأوا انضباط رجال الشاه. نظر جيبـــي وجوشي إلى بعضهما بحدس غريب.

قال جيبـــي: "سيهاجموننا. ينبغي لك أن تنسحب يا جوشي، وانقل النبأ إلى والدك. كل ما رأيناه هنا سيكون مفيداً في الأيام القادمة".

هـــز جوشـــي رأسه. لن ينظر إليه والده بعين الرضا إذا غادر ببساطة. يمكن لمستطلع واحد نقل المعلومات و لم يأتوا إلى أراضي الشاه للتراجع أمام جيوشه.

شـــعر جوشـــي ببعض الاستياء لأن جيبـــي كان معه. كان قد قطع شوطاً طويلاً ليقود محاربيه و لم يكن يناسبه أن يخضع لضابط أعلى رتبة.

قـــال جوشي: "نسيطر على إحدى القمم على الأقل". تذكر الفرسان الروس الـــذين كانوا قد كافحوا للصعود إليها وكان يعرف قيمة مثل تلك الأفضلية. من بعـــيد، انطلقت التشكيلات الكبيرة بسرعة كبيرة، وشعر جوشي بخوف مفاجئ. كـــان يعـــرف أنه لا يستطيع قيادة الفرقة مباشرة نحو فرسان العدو. كانت هناك وســـائل أسهل لإزهاق أرواح. فكّر في ضربة سريعة ستجعلهم يتشتتون على طول السهل. كان رجاله جاهزين وفقاً لما يعرفه المغول فقط عن الجهوزية، لكنه لم يكن يعرف إن كان جنود تشن في صفوفه سيتخلّفون عنه ويتم القضاء عليهم.

بدا جيبـــي غير مكترث للأفكار التي تدور في ذهن جوشي عندما تكلم.

"ســـيكون علـــيهم أن يصعدوا مباشرة إلينا، وشاههم يراقب ما يجري. لن يعـــرفوا عدد الرجال لدينا خلف هذه القمة. ينبغي لي أن أظن أنهم مندهشون مثلنا للالـــتقاء في هـــذا المكان البعيد جداً عن أطرار أو الخان. هل يمكنك الالتفاف من الجانب؟".

نظـــر جوشي بعيداً قبل أن يومئ برأسه. ابتسم جيبـــي كما لو أنهما تكلما عن نـــزال مصارعة أو رهان.

"عندها ستكون تلك هي الخطة. سأنتظر حتى يرهقوا أنفسهم بالصعود إلينا، ثم أقـــع مثل جبل على رؤوسهم. ستأتي من الجانب وتندفع نحو الوسط. ستكون رماحك مفيدة هناك، على ما أعتقد".

نظر جوشي إلى الأسفل على السفح شديد الانحدار.

قال: "من المؤسف أنه ليست لدينا حجارة لرميها عليهم".

أومأ جيبـــي مندهشاً. "تلك فكرة رائعة! سأمنح زوجتي الثانية مقابل قدور من الزيت التي يمكن رميهم بها، لكنني سأرى ما يمكن العثور عليه".

للحظـــة، شـــعر كـــلا الرجلين بتوتر الآخر، وتبادلا نظرة لم يكن فيها رقة كلامهما.

قـــال جوشـــي: "لن نستطيع القضاء على الكثير منهم إذا كانوا جيدين مثل أســـلحتهم ودروعهم. سأضرب الخاصرة، لكنني سأنسحب بعد ذلك، وأجعلهم يلحقون بـــي بعيداً عن القوة الرئيسة".

سأل جيبـــي: "هل أسمع صوت تسوبودي؟".

لم يبتسم جوشي. "إنه صوتي أيها القائد. سأجعلهم يصابون بإرهاق شديد، بعيداً عن تعزيزاتهم".

أحنى جيبي رأسه لابن الخان. لم يذكر أن حوالى نصف فرقة جوشي من قوم تشن. وبالرغم من أنهم يمتطون جياداً مغولية، إلا أنهم لا يتحلون بقوة احتمال الرجال المولودين للسرج.

نادى فيما كان يدير مطيته: "حظاً طيباً أيها القائد".

لم يرد جوشي، وكان يصدر آنذاك الأوامر لرجاله. اجتمع عشرة آلاف من أولئك الموجودين خلف القمة بسرعة، وانطلقوا شرقاً للالتفاف خلف السفح شديد الانحدار. لن يكون شنُّ هجوم على صخور من الصلصال سهلاً، ولم يكن جيبي يعرف حقاً أي منهما تكفّل بالمهمة الأصعب.

انتاب خليفة النيهان القلق عندما اندفع لصعود التل، وكان جواده متعباً من الحرارة والغبار. كان قد ترعرع في تلك الجبال، ويعرف القمة التي كان سيهاجمها. كان الشاه قد أصدر الأمر، وانتظم رجاله في صفوفهم من دون تردد، لكنه شعر بألم في معدته. بعد الصدمة الأولى الناجمة عن رؤية مستطلعي المغول على بعد مئات الأميال من المكان الذي ينبغي لهم أن يتواجدوا فيه، كان الشاه محمد قد انتابه غضب يعرف خليفة أنه ربما يستمر أياماً أو أسابيع. لم يكن ذلك وقتاً مناسباً كي يقترح أن عليهم الانتظار حتى يصلوا إلى تضاريس أفضل.

حثّ خليفة مطيته على الاندفاع في الأرض الوعرة، ونظر إلى الأعلى نحو القمة التي كانت تبدو بعيدة جداً فوق رأسه. ربما لم يكن هناك أكثر من معسكر استطلاع على القمة. بحلول الوقت الذي سيصل به، ربما يكونون قد ابتعدوا كثيراً، وعندها على الأقل سيكون الشاه راضياً. لم يكن أحد يعرف كيف استطاع هؤلاء المغول الهمجيون إخضاع إمبراطور تشن، وكان الشاه بحاجة إلى انتصارات سريعة لتأكيد زعامته.

طرد خليفة تلك الأفكار الغريبة من رأسه فيما كان يقود جواده لتسلق التل، وشعر بالعرق يوخز عينيه. كان الصيف معتدلاً حتى ذلك الوقت، لكن تسلق التل كان مهمة صعبة. كان يثق بالرجال حوله، والعديد منهم من قبيلته.

لم يكـن الـشاه قـد ادّخر جهداً لتحضيرهم للحرب، وبالرغم من أن الدروع والتروس الجديدة كانت ثقيلة، إلا أن خليفة شعر بالثقة التي تمنحهم إياها. كانوا رجـالاً منتقين بعناية: أول من يندفع إلى أي معركة، محطمو الأسوار والأعداء. شعر بقوسه يطقطق على فخذه، لكن لم يكن باستطاعتهم استعمال السهام وهم يتـسلقون مـثل ذلك المنحدر. مرة أخرى، تخيّل الشاه يراقبه، وهزّ رأسه لإبعاد تلـك الأفكار الضعيفة عنه. إما النصر أو الشهادة. كان كل شيء منوطاً بإرادة الله (عزّ وجل).

في الجـزء الأشـد انحداراً من السفح، عرف خليفة أنهم ملتزمون بقضيتهم. انـدفعت الجـياد إلى الأمام، لكن الأرض لم تكن قاسية كما يتذكر والتقدم كان بطيـئاً بشكل مؤلم. شعر خليفة بأنه مكشوف واستمد العزيمة من الله (عزّ وجل) فـيما كـان يشهر سيفه المعقوف *شامشر* الذي كان قد رافقه طيلة أعوام. بيده اليسرى، رفع ترسه، وقاد جواده بقدميه فقط في الركاب. مثل العديد من رجاله، كـان يـستخف سراً بالقطعة المعدنية التي تجعل ترجله بسرعة صعباً. بالرغم من ذلـك، كانت قد أثبتت فائدتها على مثل ذلك السفح، عندما احتاج إلى كلتا يديه كـي يحمل أسلحته. أظهرت نقرة سريعة على حذائه أن خنجره لا يزال هناك في القراب الجلدي، وانحنى إلى الأمام في النسيم الدافئ الذي نسّم من فوق القمة.

في وقـت السلم، لم يكن في الحضارة مكان لسفّاحين مثله، لكن بالرغم من ذلك كانت هناك حاجة إليهم، وستبقى دائماً، عندما تتعرض مدن عظيمة وحقول خضراء للخطر. كان خليفة قد نجا من تهمتين بالقتل بانضمامه إلى الجيش وانتحاله اسمـاً جديداً. كان ذلك أفضل شيء فعله. أحياناً كان يحصل على أجر، وأحرى يـصبح طـريداً، بناءً على كيف ومتى يقوم بالقتل. كانت قيادة رجاله إلى عرين العـدو هي ما يحب فعله. كان الشاه يراقب ما يجري وإذا لطّخوا سيوفهم بالدماء، ستكون هناك جوائز للقادة.

جـأر خليفة عبر رجاله: "حافظ على الصف مستقيماً يا علي، وإلا سأجلدك بالـسوط!". رأى أن الغبار لا يزال يتصاعد من القمة وعرف أن العدو لم يكن قد هرب. لم يكن يرى بوضوح في سحب الغبار التي أثارها رجاله، لكن لم يكن هناك سوى هدف واحد فقط وكان جواده لا يزال قوياً.

فــوقه، رأى خليفة صخوراً تكبر حجماً كما لو أن أحداً يدفعها نحو القمة. أطلــق صــرخة تحذيــر، لكن لم يكن في وسعه فعل شيء. راقب بخوف تدحرج الصخور نحوهم، واندفاعها عبر الرجال والجياد لتشتت جمعهم. صاح خليفة عندما اقتربت إحداها منه بما يكفي وجعلته يشعر بهواء مرورها. بعد أن تجاوزته، بدا أنها تقفــز مثل شيء حي، وضربت الرجل خلفه بقوة كبيرة. لم يرَ سوى ست صخور ضــخمة تــشق صــفوف رجاله، لكن كل واحدة منها قضت على العديد منهم وتــركت علــى الأرض قطعــاً من الدروع وأشلاءً من الرجال. كانوا يندفعون بصفوف متقاربة و لم تكن هناك مساحة لتفادي الصخور.

عندما توقف سقوط الصخور، ارتفع هتاف خافت من أولئك الذين كانوا لا يــزالون يكافحون على السفح. لم تكن القمة تبعد أكثر من أربعمئة خطوة، فدفع خلــيفة بعقبيه بردفي مطيته، متعطشاً آنذاك للانتقام من أولئك الذين قتلوا رجاله. رأى صــفاً داكــناً مــن الرماة فوقه، ورفع ترسه بشكل فطري خافياً رأسه تحت القرص. كان قريباً بما يكفي ليسمع أوامر بلغة غريبة وشدّ على أسنانه. كان الشاه قــد أرسل أربعين ألف رجل إلى ذلك السفح. لم تكن هناك قوة في العالم تستطيع سوى أن تخفف من حجم الصفوف قبل أن يصلوا إليها ويبدأ القتال.

بــإطلاق ســهامهم إلى أسفل التل، كان الرماة المغول يستطيعون إيصالها إلى أبعــد من المعتاد. لم يكن في وسع خليفة سوى إبقاء رأسه منخفضاً بينما السهام تــضرب ترســه. في المرة الوحيدة التي رفع بها رأسه، أعاده بسرعة بعد أن أصاب ســهم عمامته، وتركها تتدلى عن رأسه. بدلاً من انتزاع ذلك الجزء، أزال عمامته مع خصلة من شعره الطويل، وألقى بها على التل خلفه.

في البداية، حمت التروس رجاله، لكن عندما وصلوا إلى آخر مئة خطوة، كان الجــو يمتلــئ سهاماً تطن ومات رجال بالعشرات. كان ترس خليفة من الخشب، مغطى بجلد فرس النهر المجفف؛ أقوى وأفضل كل معدات الشاه. صمد، بالرغم من أن عضلات ذراعه أصيبت برضوض وإجهاد حتى بالكاد أصبح يستطيع حمله. من دون سابق إنذار، شعر بجواده ينهار ويحتضر.

كــان بمقــدور خليفة أن يقفز عنه، لكن قدميه كانتا عالقتين بالركاب، وفي لحظة رعب، علقت ساقه اليمنى تحت الجواد المحتضر. ارتطمت مطية أخرى بجواده

أثـناء ســقوطها وتحرر، وحمد الله (عزّ وجل) على نجاته. وقف على أرض رملية، يبصق دماً، وقد استشاط غضباً.

كان الرماة قد قضوا على فرسان الصف الأول بأكمله، الذين أعاقوا تقدم مَن خلفهم. كــان العديـد من رجاله يصرخون، يشدّون سهاماً اخترقت أقدامهم وأيـديهم فـيما تمــدد آخرون على الأرض من دون حراك. صرخ خليفة بأوامر جديـدة، وتـرجل الرجال في الخلف ليقودوا مطاياهم عبر أجساد الموتى. ضاقت الفجــوة أكثر، ورفع خليفة سيفه عالياً، وأشار به إلى العدو في الأعلى. مئة خطوة وسيحقق رغبته في قتلهم. كان سريع الخطى، بالرغم من أن كل خطوة على أرض صعبة التضاريس كانت توهن قوته. تسلق إلى الأعلى، وسيفه جاهز لتوجيه الضربة الأولى. كان الشاه يراقب ما يجري وشعر خليفة بعيني الرجل العجوز على ظهره.

اندفـع المغـول مـــن القمة، ونــزلوا مباشرة على السفح شديد الانحدار. انـــزلقت جــيادهم، وكانت قوائمها الأمامية منتصبة وصلبة فيما الخلفية منثنية لإبقائهم فوقها. كافح محاربو الشاه لاستيعاب الصدمة الأولى، لكن لذهول خليفة، انهمـرت علـيهم موجة أخرى من السهام قبل أن تلتقي القوتان. لم يفهم كيف استطاع المغول شد أقواسهم وإطلاق سهامهم في أثناء توجيههم لمطاياهم على مثل ذلك السفح، لكن الوابل قضى على رجاله. مات مئات منهم كانوا إما واقفين أو يقودون مطاياهم، وتبع السهام هذه المرة صف المغول الأول الذي اندفع إلى الأسفل عـبرهم. سمـع خليفة صرخاتهم تزداد حتى بدا أن أصداءها تتردد من كل التلال حولهم.

جــاء الفرســان المغول مثل موجة جارفة، يسحقون كل ما يأتي في طريقهم بقوة كبيرة. كان خليفة يقف خلف جسدي جوادين و لم يسعه سوى أن يراقب ما يجري بذهول فيما كان الخيّالة المهاجمون يجأرون وهم يتجاوزونه، وكانت رماحهم تضرب عميقاً في الصفوف التي تتسلق التل وراءه.

كانــوا قــد تركوه حياً، لكنهم بالرغم من ذلك استمروا بالمجيء. لم يستطع خليفة الصعود إلى مكان أعلى. كان الطريق مسدوداً بآلاف الفرسان المغول الذين يقــودون مطاياهم برُكبهم فقط ويطلقون سهامهم على كل ما يتحرك. نفذ سهم طــويل مـــن جانبه، ومزّق القطع الفولاذية لدرعه كما لو أنها مصنوعة من ورق.

سقط، يطلق صرخات متقطعة، ورأى عندها قوة أخرى تشن هجوماً على الجنود الموجودين في السهل.

هـاجم رجـال جوشـي خاصرة خيّالة الشاه البعيدين عن هجوم جيبـي. أحـدثت سهامهم فجوة في الصفوف، وأتبعوا ذلك باستعمال الرماح والسيوف، وقضوا على رجال فيما كانوا يحافظون على تماسكهم. وقف خليفة لبراهم، وشعر بخـوف وغضب كبيرين. كانت السهام لا تزال تطن فوق رأسه، لكنه لم يفزع. رأى القوتان تلتقيان في الوسط، ودفع الحشد المشترك رجاله بعيداً إلى الأسفل حتى وصـلوا تقريباً إلى أرض الوادي. غطت الجثث الأرض خلفهم، وجرت جياد من دون فرسانها بشكل جنوني، وألقت بمحاربين آخرين عن سروجهم.

كان هجوم المغول من القمة قد تجاوزه، ورأى خليفة جواداً علق لجامه تحت رجل ميت. ركض نحوه، متجاهلاً الألم في خاصرته فيما كان يمتطيه، ورمى بترسه جانباً مطلقاً لعنة عندما آلمه نصل السهم. كان الجو مليئاً بالغبار وصرخات الإخوة المحتضرين، لكن كان لديه جواد وسيف ولم يكن ليطلب أكثر من ذلك. ربما كان ثلاثـون ألـف رجل لا يزالون على قيد الحياة، يكافحون في الأسفل لصد الهجوم المـزدوج. رأى خليفة أن المغول دفعوا بكامل قوتهم في الهجوم وصرخ فيما كان يقطـع المسافة نـزولاً نحو الصفوف. كان من الممكن جعلهم يتماسكون، وكان واثقاً أنه قد يتم القضاء عليهم.

عـندما وصل إلى رجاله، أصدر أوامره إلى أقرب الضباط. بدأ تشكيل مربع الشكل ينتظم، مطوقاً بالتروس. رمى المغول أنفسهم على الأطراف وبدأوا يموتون عـندما تلقوا سيوف قبيلته. شعر خليفة بأن المعركة كائن حي وعرف أنه يستطيع قلب الهزيمة إلى انتصار. جعل رجاله يتراجعون بشكل منتظم إلى الأرض المنبسطة، بالـرغم مـن تعرضهم كل المسافة إلى هجمات المحاربين المغول. قادهم بعيداً عن السفح الذي كانوا قد استفادوا منه إلى ذلك الحد، وعندما أصبحت الأرض صلبة تحـت حوافر مطيته، أمر خليفة بشن هجوم عليهم، وشجّع رجاله بتلاوة آية من القرآن الكريم.

أصـبح رجالـه شرسين مرة أخرى، وانطلقوا لقتال العدو. في الوقت نفسه، تحـرك الـشاه أخيراً، أرسل جنوداً آخرين تسابقوا بتشكيلات منتظمة نحو المغول

الـــذين أصـــبحوا ضمن المدى. التقت الخطوط وارتفع الصراخ فيما كان المغول يتراجعون مدافعين عن أنفسهم بقوة ضد هجمات جاءتهم من عدّة اتجاهات. رأى خليفة صفوف الشاه تتحرك لتطويقهم، وتتقدم بثبات لتحقيق ذلك.

تـــداعت صفوف المحاربين المغول التي لقيت قوة لم تعهدها من قبل فيما كان خلـــيفة يقـــود جواده عبر الخطوط ليصل إلى الصف الأول. اعترض محارب شاب طـــريقه واســـتجمع خليفة قواه وبتر رأس الرجل فيما كان يتجاوزه. تقدم فرسان الـــشاه، وســـيوفهم ملطخة بالدماء. ساعد الانضباط في بقائهم متماسكين وكان خلـــيفة فخـــوراً بهم. مرة أخرى، شعر بانعدام الثقة في الفرسان المهاجمين وفجأة انفرط عقدهم وهربوا، ليتركوا المشاة خلفهم.

أمر خليفة حاملي الرماح بالتقدم إلى الأمام وكان سعيداً بتنظيمهم فيما كانوا يقـــضون على العديد من الرجال الهاربين بضربهم من الخلف، ومهاجمتهم من فوق سروجهم.

جأر: "اقضوا على هؤلاء الكلاب!".

كـــان المحاربون المغول يقطعون السهل على جيادهم هاربين من ذلك المكان. رفع خليفة يده، وأنـــزلها، ودفعت صفوف محاربيه جيادها لمطاردة فلول الهاربين. كانـــوا ســـيمرون علـــى طول خاصرة جيش الشاه، وتمنّى خليفة أن يرى الرجل العجوز شديد البأس ذلك وأن ينال رضاه. فيما كان يحث جواده للجري بسرعة، ألقى نظرة إلى الخلف نحو السفح الذي يقود إلى القمة. كان يبدو داكن اللون من جـــثث الموتى، وشعر بقوة جديدة تسري في جسده. كان هؤلاء الرجال قد تجرأوا على دخول أرضه، ولن يجدوا سوى النار والحديد.

الفصل الثاني عشر



كانت بوابات مدينة أطرار مغلقة بوجه جنكيز. كان يمتطي فرسه فوق تل يطل على المدينة، يراقب الدخان الأسود الذي يتصاعد ببطء من الضواحي المدمرة. كان قد أمضى ثلاثة أيام يستطلع الأرض، لكن حتى بالنسبة إلى أولئك الذين كانوا قد استولوا على عشرات مدن تشن، لم تكن هناك نقطة ضعف ظاهرة للعيان. كانت الأسوار مبنية من طبقات من الحجر الكلسي الرمادي على قاعدة غرانيتية، وكل لوح منها يزن عدّة أطنان. ضمن الأسوار الداخلية للمدينة، كانت بوابتان حديديتان تقودان إلى متاهة ممتدة من الأسواق والشوارع المهجورة. كان غريباً عبور هاتين البوابتين على مرمى بصر أولئك الموجودين فوق الأسوار الكبيرة. كان الحاكم يعرف أنهم قادمون منذ شهور، وما عدا بعض الكلاب الشاردة والقدور المحطمة، لم يكن هناك أي شيء له قيمة. كان مستطلعو جنكيز قد اكتشفوا عدداً من الشراك التي تنتظرهم عند وصولهم. كان فتى في الثالثة عشرة من عمره قد فتح باباً بركله بقدمه وسقط إلى الخلف مع سهم نشاب في صدره. بعد قتل اثنين آخرين، كان جنكيز قد كلف تيموج بمهمة إطلاق النار على المدينة وكانت أطرار لا تزال تختنق بالدخان الأسود. وسط الرماد والأنقاض أسفل التل، استعمل *الذئاب الفتية* بقيادة تسوبودي حراباً لهدم الأسوار، ومهّدوا للدخان درباً سالكاً إلى داخل المدينة.

لم يكن هناك نقص بالمعلومات. مقابل الذهب، زوّدهم التجار حتى بمواقع الآبار داخل الأسوار. كان جنكيز قد طاف حول المدينة كلها مع مهندسيه، ولاحظ سماكة الصخور.

كانت نقطة الضعف الأكثر وضوحاً هي التل على الطرف الشمالي من المدينة، والذي يطل على الأسوار. كان مستطلعوه قد اكتشفوا حدائق مهجورة

هناك، مليئة بالزهور وبحيرة صناعية وصيوان خشبي. قبل يومين، كان جنكيز قد أرسل محاربين مهدوا القمة، وتركوا الباقي مغطى بأشجار الصنوبر اليابسة. إذا وضع أسلحة تدمير الأسوار في المكان الذي يقع فيه الصيوان، سيستطيعون قذف حجارة إلى حجر الحاكم.

نظر جنكيز إلى الأسفل نحو المدينة، مستمتعاً بشعور أنها أصبحت تقريباً في قبضته. لو أنه كان حاكمَ مثل ذلك المكان الجميل، لكان عمل على تمهيد التل بدلاً من منح العدو أي أفضلية. بالرغم من ذلك، لم يكن يستطيع الظفر بها. على بعد ثلاثين ميلاً إلى الشرق، كان شقيقه خاسار يحمي مخيمه مع فرقتين فقط. كان الباقون قد تقاطروا إلى الميدان المواجه لأطرار. قبل أن يصل آخر المستطلعين إليه، كان واثقاً أنه من الممكن تدمير الأسوار.

في صبيحة ذلك اليوم، كان مستطلعوه قد أخبروه أن جيشاً جرّاراً قادم من الجنوب. كان أكثر من رجلين مقابل كل رجل من محاربيه الثمانين ألفاً يتقدمون نحو ذلك المكان، وأدرك جنكيز أن عليه ألا يُحجَز بين أطرار وجيش الشاه. حوله على قمة التل، نشر اثنا عشر رجلاً خرائط، وسجلوا ملاحظات عن المدينة كانوا بقيادة ليان، البنّاء من مدينة تشن، كان أكثر من هؤلاء يعملون على تجميع منجنيقات، وتثبيت قدور فخارية لزيت النار. كان ليان واثقاً أيضاً قبل أن يصبح جيش الشاه في مرمى البصر. إن القرارات أضحت عسكرية آنذاك وكان البنّاء يمدّ ببساطة يديه عندما يسأله أي من عمّاله عما يحمله المستقبل.

قال جنكيز: "سأجعل حاكم أطرار يتعفن في مدينته إذا لم يكن لديه عشرون ألف رجل يضربون الصفوف الخلفية لقواتنا في اللحظة التي نتحرك بها".

أومأ شقيقه كشيون مستغرقاً في التفكير عندما أدار جواده في مكانه.

رد كشيون: "لا يمكننا سد البوابتين من الخارج يا شقيقي. سيجعلون الرجال ينزلون على حبال ويسحبون العوارض. يمكنني البقاء هنا فيما تأخذ الجيش للقاء العدو. إن احتجت إلى تعزيزات، فأرسل مستطلعاً وسآتي".

كشّر جنكيز. كان محاربو جيبي وجوشي قد اختفوا في الوديان والتلال، من دون إشارة أو اتصال. لم يكن يستطيع ترك العائلات في مخيمه من دون حماية ولا أن يدع أطرار وشأنها مع ذلك العدد من الرجال داخلها. بالرغم من ذلك، إذا

كـــان المـــستطلعون محقـــين، فسيواجه مئة وستين ألف رجل بستة فقط من فرقه العـــشرة. لم يكـــن أحد يثق بالقدرة القتالية لمحاربيه أكثر من جنكيز نفسه، لكن جواسيسه وتقاريره كانت تُفيد بأن هذا جيش فقط من جيوش الشاه. لم يكن على جنكيـــز أن يسحقه فقط، وإنما أن يخرج من المعركة بلا خسائر كبيرة أيضاً، وإلا ســـينهي الجيش التالي الأمر كله. للمرة الأولى منذ خروجهم غرباً، تساءل إن كان قـــد اقترف خطأً. مع مثل تلك القوة الكبيرة المتاحة له، لم يكن مستغرباً أن يكون حاكم أطرار على تلك الدرجة الكبيرة من الغطرسة.

سأل جنكيز فجأة: "هل أرسلت رجالاً للبحث عن جوشي وجبي؟".

أحـــنى كـــشيون رأسه، بالرغم من أن الخان كان قد طرح السؤال مرتين في ذلك الصباح.

"ليـــست هناك بالرغم من ذلك أي إشارة منهما. أرسلت مستطلعين ليقطعوا مئة ميل في كل الاتجاهات. سيأتي أحدهم بخبر عنهما".

قال جنكيز بحدّة: "كنت أتوقع غياب جوشي عندما أحتاج إليه، لكن جبي! إن كـــان هناك وقت أحتاج فيه إلى محاربـــي أرسلان المتمرسين بالقتال فهو الآن! ضـــد مـــثل ذلك العدد الكبير، سيكون الأمر مثل رمي حصى في نهر. وفيلة! من يعرف كيف يمكننا الصمود ضد تلك الحيوانات؟".

قال كشيون: "اترك المخيم من دون حراسة".

حدّق جنكيز إليه، لكنه هزّ كتفيه استخفافاً.

"إذا فـــشلنا، لن تكون فرقتان كافيتين لإعادتهم إلى الديار. سيهاجمهم الشاه بكل ما تبقى لديه من قوة. المخاطر كبيرة، فقط لأننا هنا".

لم يـــردّ جنكيز فيما كان يراقب عوارض المنجنيقات تنتصب في مواقعها. لو أن لديه مهلة شهر، أو اثنين على الأكثر، لكان شق طريقه إلى داخل المدينة، لكن الشاه لن يمنحه أبداً ذلك الوقت. تقطب جبينه عبوساً من الخيارات المتاحة. لم يكن الخـــان ليخاطـــر بكامل قومه، كما قال في نفسه. كان خطر وقوعهم بين المطرقة والسندان كبيراً جداً.

هـــزّ جنكيـــز رأسه من دون أن ينبس ببنت شفة. يمكن للخان فعل ما يريده بحياة أولئك الذين يتبعونه. إذا راهن وخسر، فستكون طريقة حياتهم وموتهم أفضل

مـــن تربية الماعز في سهول الوطن. كان لا يزال يتذكر كيف يكون العيش بخوف من رؤية رجال في الأفق.

"عندما كنا عند أسوار ينكينغ يا شقيقي، أرسلتك لاستنـــزاف جيش تشن. نعـــرف إلى أين يتجه الشاه ولن أنتظر بصبر في تشكيلات وأرتال حتى يصل إلينا. أريد أن يتعرض رجاله للهجوم على طول الطريق إلى أطرار".

رفـــع كـــشيون رأسه عندما رأى اللمعان يعود إلى عيني شقيقه. أخذ خريطة استطلاع من بين ذراعي أحد الخدم وبسطها على الأرض. انكب جنكيز وشقيقه عليها يحدّدان التضاريس التي يمكنهما الاستفادة منها.

قال كشيون: "بوجود ذلك العدد الكبير من الرجال والحيوانات، ينبغي له أن يقـــسم قـــوته *هنا وهنا*، أو قيادتهم عبر هذا الممر الواسع معاً". كانت الأرض إلى الجـــنوب مـــن أطرار تشكل سهلاً من المزارع والمحاصيل، لكن بغية الوصول إليه، كان على الشاه أن يعبر سلسلة من التلال التي ستجعل قواته تسير في رتل طويل.

سأل جنكيز: "كم من وقت لديهم قبل أن يصلوا إلى الممرات؟".

رد كـــشيون: "يـــومان، وربما أكثر، إذا كانوا بطيئين. بعد ذلك، سيكونون على أرض زراعية مكشوفة. لا شيء لدينا سيوقفهم".

"لا يمكنك حراسة ثلاثة ممرات يا كشيون. من تريد معك؟".

لم يتردد كشيون. "تسوبودي وجيلم".

نظر الخان إلى شقيقه الأصغر، ولاحظ حيويته الحماسية.

"أوامـــري هي إثخانهم بالجراح يا كشيون، وليس القتال حتى الموت. اضرب وانسحب، ثم اضربهم مجدداً، لكن لا تدعهم يوقعون بك في فخ".

أحـــنى كـــشيون رأسه، وكان لا يزال يحدّق إلى الخريطة، لكن جنكيز ربت على ذراعه.

قال بلطف: "كرّر الأمر يا شقيقي".

ابتسم كشيون وفعل ذلك.

قال: "هل أنت قلق لأنني لن أترك ما يكفي لك؟".

لم يـــرد جنكيز، وأشاح كشيون بنظره بعيداً يتورد خجلاً. نهض الخان، ووقف كـــشيون معه. فجأة، انحنى شقيقه، ورد جنكيز التحية بإيماءة من رأسه. بمرور الأعوام،

كـــان قـــد تعلم أن الاحترام يأتي على حساب الدفء الشخصي، حتى بين الأشقاء. كانـــوا يتطلّعون إليه للحصول على أجوبة عن كل مشكلات الحرب، وبالرغم من أن ذلك كان يجعله شخصية بعيدة عنهم، إلا أن ذلك كان جزءاً منه وليس قناعاً.

قـــال جنكيز: "أرسل بطلب تسوبودي وجيلم. إذا أخّرت الشاه وقتاً كافياً، ربمـــا سيؤازرك جوشي وجيـــي. سيكونان أيضاً تحت قيادتك. لك نصف الجيش يا شقيقي. سأكون بانتظارك هنا".

كـــان وكشيون قد قطعا شوطاً طويلاً منذ كانا فارسين شابين في ما مضى، كمـــا فكّـــر جنكيز. كان القادة سيقفون لمواجهة جيش الشاه، ولم يكن جنكيز يعرف إن كانوا سيعيشون أم سيموتون.

خرجت تشاكاهي من خيمتها لتستكشف طبيعة الصرخات المفاجئة. وقفت تحـــت أشـــعة الشمس الحارة فيما كان خدمها من تشن يوفرون لها ظلاًّ، وعضّت شفتها عندما رأت محاربين يخرجون من خيمهم يحملون المعدّات والأسلحة.

كانـــت تشاكاهي قد عاشت بين المغول مدة كافية لتعرف أن تلك لم تكن مجرد مجموعة استطلاع. كان كل الرجال عدا خاسار ونائبه، ساموكا، موجودين عـــند المدينة إلى الغرب، وعضت شفتها إحباطاً. سيكون هوسا مع خاسار بالطبع، لكـــن يـــاو شـــو كان يعرف بالتأكيد ما يجري. بأمر مقتضب، جعلت خدمها يتحركون معها، وأخذت بالبحث عن ياو شو فيما تعالت الضوضاء في كل أرجاء المخـــيم. اســـتطاعت سماع نساء يصرخن غضباً، وتجاوزت واحدة كانت تنتحب على كتف شاب. تقطّب جبين تشاكاهي عبوساً، وقد ازدادت شكوكها.

تجـــاوزت خـــيمة بورت وهولن قبل أن تلمح ياو شو. ترددت تشاكاهي في الخـــارج، لكـــنها اتخذت قرارها عندما خرجت بورت، تتقد غضباً. رأت زوجتا جنكيـــز بعـــضهما في الـــوقت نفسه وتسمّرت كل منهما في مكانها، لا تستطيع التخلص من التوتر الذي تشعر به.

تكلمـــت تـــشاكاهي أولاً، مانحة بذلك الزوجة الأولى الشرف: "هل لديك أنـــباء؟". كـــان الأمـــر بـــسيطاً، لكن كتفي بورت استرختا وأومأت. لاحظت تشاكاهي كم كانت قلقة عندما تكلمت.

قالت بورت: "جنكيز يطلب الفرقتين. لدى خاسار وساموكا أوامر بالمغادرة عند الظهيرة".

أفلتت إحدى خادمات تشاكاهي صرخة رعب، ومدّت تشاكاهي يدها مباشرة، وصفعت وجه الفتاة. استدارت لتواجه بورت مجدداً، والتي كانت تحدّق آنذاك عبر المخيم إلى الرجال الذين ينتظمون في صفوف.

سألت تشاكاهي: "ماذا إن تعرضنا لهجوم؟".

فزعت بورت، وهزّت رأسها. قالت: "كم مرة سُئلت عن ذلك منذ صدور الأوامر؟". رأت خوفاً كبيراً في عيني أميرة كزي كزيا، وخففت حدة لهجتها. كانت المرأة هبة لجنكيز من والدها المهزوم. كانت قد شهدت الفوضى قبل ذلك، وتعرف الرعب الذي يأتي معها.

قالت بورت: "هل تعتقدين أننا سنكون من دون حماية يا أختاه؟".

كانت تشاكاهي قد نظرت بعيداً أيضاً، لكن عبارة الصداقة جعلت بصرها يعود بسرعة.

سألت: "ألسنا كذلك؟ ما الذي يمكن للنساء والأطفال فعله ضد جنود، إذا جاؤوا؟".

تنهدت بورت.

"لم تترعرعي بين القبائل يا تشاكاهي. إذا تعرضنا لهجوم، ستمسك النساء بخناجر ويقاتلن. سيمتطي محاربون مقعدون جيادهم بأفضل ما يستطيعون ويهاجمون. سيستعمل الفتية أقواسهم. لدينا جياد وأسلحة تكفي لإيذاء كل من يريد الإساءة إلينا".

حدّقت تشاكاهي بصمت، وقلبها يخفق بقوة. كيف يمكن لزوجها أن يتركها من دون حماية؟ كانت تعرف لماذا تتكلم بورت بتلك الطريقة. كان الرعب سيدمر المخيم قبل حتى أن يروا العدو. كانت العائلات ستتشتت بين حماية أفرادها وحقيقة أن المخيم نفسه يجذب الخطر إليه. وحدهن لحماية أبنائهن، كانت العديد من الزوجات والأمهات سيفكّرن في المغادرة ليلاً للعثور على ملاذ آمن في التلال. بالنسبة إلى أم أطفال يافعين، كانت الفكرة مغرية، لكن تشاكاهي قاومتها. مثل بورت، كانت زوجة الخان. كانت الأخريات سينظرن

إليها كقدوة لهن. من بين كل النساء الموجودات، فهما لم تكونا تستطيعان الهرب.

بدا أن بورت تنتظر إجابة، وفكّرت تشاكاهي ملياً قبل أن ترد. كان الأطفال سيشعرون بالخوف عندما يرون آخر المحاربين يغادرون. كانوا بحاجة إلى الشعور بثقة بالنفس، بالرغم من أنها ستكون مزيفة.

قالت تشاكاهي: "لقد تأخر الوقت كي أتعلم استعمال القوس يا أختاه؟".

ابتسمت بورت. "مع هاتين الكتفين الهزيلتين النحيلتين؟ لقد فات الوقت. لكن اعثري على سكين جيدة".

أومأت تشاكاهي، بالرغم من أن الشك بدا واضحاً عليها.

"لم أقتل رجلاً من قبل يا بورت".

"ربما لن تسنح لك الفرصة. استعملي السكين لصنع محاربين من قش، ووضعهم على سروج جياد إضافية. في ضوء خافت، لن يرى العدو أن رجالنا قد ذهبوا".

رفعت بورت عينيها، وتبادلت المرأتان نظرة قبل أن تستدير كل منهما مبتعدة عن الأخرى وهي تشعر بالرضا. لم تكن هناك صداقة حقيقية بينهما، لكن لم تجد إحداهما ضعفاً في الأخرى، واستمدت كلتاهما الراحة من ذلك.

عندما وصلت الشمس إلى أعلى نقطة لها، نظر خاسار إلى الخلف نحو المخيم الذي أُمر بمغادرته. كان يدب نشاطاً مثل عش نمل فيما النساء والأطفال يهرولون بين الخيام. حتى بغياب فرق عسكرية، كان المخيم حشداً ضخماً، ويوجد فيه أكثر من مئة ألف شخص وخيمة إلى جانب نهر صغير. حولهم، كانت القطعان ترعى، غافلة عما يجري حولها. كان كل ما غنموه من تشن موجوداً هناك، من اليشم إلى الذهب إلى الأسلحة العتيقة. كان لكل من تيموج وكوكشو مجموعة من المخطوطات والكتب. عض خاسار شفته عندما فكّر في جنود الشاه يعثرون على مثل هذه الغنيمة من دون حماية. ربما سيبقى ألف عجوز أو محارب مقعد، لكن لم يكن لديه أمل بأن يتمكن أولئك الذين كانوا قد فقدوا أيديهم أو أرجلهم من التصدي لعدو مثابر. إذا جاؤوا، ستحترق الخيام، لكن شقيقه كان قد استدعاه و لم

يكـــن يستطيع عصيان أمره. كانت لديه ثلاث زوجات وأحد عشر ولداً يافعاً في مكـــان ما من متاهة الخيام تلك وشعر بالأسى لأنه لم يخصص وقتاً للحديث معهم قبل أن يجمع رجاله.

انقضى الأمر. كانت الشمس في كبد السماء وقد تم استدعاؤه. نظر خاسار إلى نائـبه ساموكا. كان الرجل عالقاً بين الافتخار بترقيته لقيادة فرقة والعار لهجره المخيم. طقطـــق خاسار بلسانه ليحظى باهتمام الرجل الآخر، ثم رفع ذراعه وتركها تنـــزل. دفع رجاله أعقابهم بأرداف مطياهم وانطلقوا معه، تاركين كل ما يحبونه خلفهم.

قـــاد جوشي وجيبـــي فرسيهما معاً في مقدمة الفرقتين. كان مزاج جوشي طيـبــاً فيما كانوا يشقون طريقهم عبر الوديان عائدين غرباً. لم يكن قد فقد سوى أقـــل من ألف رجل. كان بعضهم قد سقطوا في الهجوم المباشر من قمة التل، فيما خـــسر معظمهم من الإرهاق الشديد في الرحلة الطويلة التي لن ينساها أحد منهم أبـــداً. كان معظم هؤلاء من جنود تشن تحت قيادته، لكن أولئك الذين نجوا قادوا جيادهم ورؤوسهم عالية، وكانوا يعرفون أنهم اكتسبوا حق اللحاق بقائدهم. كان جيبــــي قد خسر العدد نفسه، لكن هؤلاء كانوا رجالاً عرفهم طيلة أعوام عندما كانـــوا بقيادة أرسلان. لم يكن موتهم قد ضاع سدى، لكنهم بالرغم من ذلك لم يحظـــوا بمراسم الدفن المعتادة، حيث يتم أخذ الجثث إلى أعلى الذرى لتقتات منها الـــصقور والطـــيور الجارحة. كان كلا القائدين يعرفان أنه لا يوجد وقت لتكريم القتلـــى. كان صهر جنكيز بارشوك ضمن القتلى، وقد تم العثور عليه مصاباً بجرح بلـــيغ في وجهه من سيف. لم يكن جيبــــي يعرف كيف سيكون رد فعل جنكيز على ذلك الخبر، وأمضى يومين يرتاح إلى جانب بحيرة متجهماً وصامتاً.

كـــان جيبــــي وجوشي يدركان تماماً الخطر الذي يتهدد الخان، لكن الجياد كانـــت مـــرهقة. كانوا مرغمين على ترك الحيوانات تستعيد قوتها قبل أن يمتطيها الرجال مجدداً. بالرغم من ذلك، كان الوقت لا يزال مبكراً. كانت العديد منها لا تـــزال تعـــرج وأزعج الضباط أن يأمروا بقتل المريضة منها وتوزيع لحومها. وضع عـــشرات المحـــاربين أضلاعاً أو أفخاذاً على سروجهم، فيما امتطى آخرون جياداً غنموها كانت بحال أفضل قليلاً. بالنسبة إلى رجال كانوا يعتبرون الجياد هي الغنائم

الحقيقــية الوحيدة في الحرب، كانت نتيجة المعركة في الممر انتصاراً يستحق سرد تفاصــيله حول النيران طيلة أجيال. مع كل محارب، كانت هناك مطيتان أو ثلاث مطــيات تسير إلى جانبه. كانت العديد منها تعرج وتتنفس بصعوبة، لكن كانت هناك إمكانية للاستفادة منها و لم يكن المغول يتحملون تركها خلفهم.

قــاد ثمانــية عــشر ألف رجل جيادهم مع القائدين فيما كانوا يبتعدون عن الوادي الرئيس ويسلكون مساراً أكثر تعرجاً. كان سلوك طريق جديد مغرياً، لأن الــشاه ربما يكون قد ترك قوة تنصب لهم كميناً في مكان ما أمامهم. كان الرجال بحاجة إلى الوقت ليتعافوا قبل مواجهة العدو مرة أخرى.

كــان المــاء على الأقل متوفراً بكثرة. كان الكثير من الرجال قد شربوا حتى انــتفخت بطونهم. عندما كانوا مُطاردين، كانوا قد تبوّلوا وهم يمتطون جيادهم، وتــركوا المــاء الدافئ ينسكب على الغبار الذي يغلّف مطياتهم. في طريق العودة، كانــوا قد أتخموا أنفسهم بالطعام. كانت سرعتهم تصبح أبطأ مع ترجل عشرات مــنهم في الــوقت نفسه بسرعة وجلوسهم القرفصاء على الأرض قبل أن يمسحوا أنفــسهم بقطــع بالية من القماش، ويقفزوا على جيادهم مجدداً. كانت رائحتهم كــريهة، متسخين وهزيلين، لكنهم أصبحوا أصلب عوداً في الأرض التي كانوا قد مكثوا فيها وقتاً طويلاً.

كــان جوشي أول من رأى المستطلعين يعودون من القمة أمامهم. فيما يخص جيبــــي، كان قد وجد رجلاً يفهم الحاجة إلى معرفة التضاريس مثل تسوبودي، وكانــا دائماً محاطين بحلقة من الخيّالة على بعد أميال منهم. صفر جوشي ليحظى بانتــباه جيبـــــي، لكن القائد الآخر كان قد رأى المستطلعين أيضاً وبالكاد رفع حاجبيه مستغرباً.

نــادى جوشــي: "ألم أرســل *رجلين* إلى هناك؟". كان ثلاثة رجال قادمين نحوهم، وحتى من بعيد، استطاعوا رؤية أن الخيّال الثالث مستطلع مثل مستطلعيهم، مــن دون درع أو أي شيء آخر سوى سيف قد يخفف من سرعته. كان البعض منهم يسير حتى من دون ذلك السلاح، ويعتمدون على السرعة وحدها.

مــن دون سابق إنذار، دفع القائدان مطيتيهما للتقدم عن الصف، متعطشين للمعلومات.

لم يكــن المستطلع من فرقتيهما، بالرغم من أنه كان يبدو مرهقاً يعلوه الغبار مــثل رجالهمــا. أمعن جوشي وجيبــي النظر عندما ترجل الشاب وانحنى لهما، يمسك بلجام فرسه بيديه. رفع جيبــي يده وتوقف الرجال في مكانهم. أولاً، تردد المستطلع بوجود القائدين، غير واثق أي منهما ينبغي له أن يخاطبه أولاً. كسر نفاد صبر جوشي حاجز الصمت.

قال: "لقد وجدتنا. تقريرك".

انحنى المستطلع مجدداً، مرتبكاً لأنه يتكلم إلى ابن الخان.

"كــنت على وشك العودة عندما رأيت غبار جيادك أيها القائد. لقد أرسلني تسوبودي. الشاه في الميدان مع جيش عرمرم".

لو أن المستطلع كان يتوقع أي إثارة من تلك الأنباء لكان أُصيب بخيبة أمل.

سأل جيبــي: "و؟".

بدأ المستطلع يحني رأسه وتردد مجدداً، وقد بدأ يفقد هدوءه.

"ثم إرســالي لاســتدعائكما على وجه السرعة أيها القائد. سيهاجم مولاي جنكيز، لكنني لا أعرف شيئاً أكثر من ذلك. لقد خرجت منذ يومين بحثاً عنكما".

قال جوشي لجيبــي، متجاهلاً المستطلع: "يمكننا ضرب الصفوف الخلفية إذا عدنا إلى ذلك الوادي".

نظـر جيبــــي إلى الخلف نحو رجاله، وكان يعرف أنهم لا يزالون مرهقين تمامــاً. كان محارب من القبائل يستطيع قيادة فرسه طيلة اليوم والقتال، لكن قدرة الجــياد كانت محدودة. كانت قيمة شن هجوم على صفوف الشاه الخلفية ستضيع إذا اســتدار عدو نشيط نحوهم وبعثر صفوفهم. أومأ جيبــي بتجهم إلى جوشي. كان جنكيز يتوقع منهما الإسراع إليه.

قال جيبــي: "سيكون جيش الشاه قد تحرك من المكان الذي تركناه فيه. قد يكون علينا قطع مئات الأميال ثم خوض معركة ينبغي لنا أن ننتصر فيها".

أدار جوشي فرسه، مستعداً للانطلاق.

قال: "عندها ينبغي لنا أن نسرع أيها القائد".

أصــغى المــستطلع إلى الحديث بحرص، غير واثق مما إذا كان عليه قول شيء آخر. نظر إلى قطعان الجياد بحسد، وكانت الجياد والمطيات المغنومة تقف معاً.

قـــال: "إذا كان لديكم جواد مفعم بالنشاط، فسأنطلق أمامكم، وأخبر الخان أنكم قادمون".

لسبب ما، ابتسم كلا القائدين لسماع كلماته.

ســـأل جيبـــي: "هل ترى أي جياد مفعمة بالنشاط؟ إذا كنت تراها، ينبغي لك أن تأخذ واحداً".

نظـــر المـــستطلع مجدداً إلى الحيوانات المرهقة، ولاحظ الطريقة التي تقف بها لإراحة القوائم المتقرّحة. ألقى نظرة على صفوف المحاربين المتجهمين الذين يعلوهم الغبار. كانت أذرع وأرجل البعض منهم مضمدة بقطع قماش تظهر عليها بقع دم تحـــت الوسخ. من جانبهم، كان المحاربون يحدّقون إليه بنظرات غير مبالين، مستعدين لتلقي الأوامـــر. كـــان القائدان قد أثبتا لهم قوتيهما في تلك الرحلة الطويلة عبر الوادي. كـــان أولئك الذين نجوا قد اكتسبوا ثقة لم يعرفوها من قبل. إذا كانوا يستطيعون دفع ثلاثين ألفاً من جيش الشاه إلى حتفهم، فلماذا لا يفعلون ذلك؟

محبطاً، انحنى المستطلع للقائدين مرة أخرى، قبل أن يمتطي فرسه. لم يكن أكثر من مجرد فتى، وضحك جوشي بصوت خافت لرؤية عصبيته. بعينين متقدتين، نظر القائد إلى حشد الخيّالة. كان قد تم اختبارهم ولن يخيّبوا ظنه. للحظة، رأى السعادة التي كان والده يشعر بها بقيادة رجال في حرب. لم يكن هناك شيء يشبه ذلك.

طقطق جوشي بلسانه، ونظر المستطلع إليه.

"قـــل لـــوالدي إننا قادمون. إذا كانت لديه أوامر جديدة، ليرسل مستطلعين على طول الوادي الطويل إلى الشمال. ستجدنا هناك".

أومأ المستطلع بجدية، وأسرع بالمغادرة، مدركاً أهمية مهمته.

الفصل الثالث عشر



كـــان الـــشاه علاء الدين محمد يغلي غضباً فيما كان الفيل تحته يتأرجح مثل ســـفينة في البحر. كان آخر ما رآه من فرسانه هو مراقبتهم يختفون شرقاً قبل أيام. بعـــد كل صلاة فجر، لم يكن يستطيع مقاومة التوجه نحو الشمس لرؤية إن كانوا عائـــدين، لكن آماله كانت تتبخر كل مرة. لم يكن الوثوق بالقبائل ممكناً، وكان واثقـــاً أن خلـــيفة يرتاح في بلدة بعيدة، ولا يهتم إطلاقاً بخيانته. أقسم علاء الدين على الثأر من ذلك، عندما يردّ المغول على أعقابهم نحو جبالهم، أو يدمّرهم.

في كـــل مكـــان حول الشاه، كان جيشه يتقدم ببطء، يتجه نحو التلال التي ســـتقود إلى أطراف وخان المغول. لم تفشل رؤية الصفوف التي تلمع في رفع روحه المعـــنوية أبـــداً. في الحقيقة، كان الغزو قد حدث في الوقت المناسب له. كان قد أمـــضى حوالى اثني عشر عاماً في إخضاع ملوك وشيوخ عشائر لسلطته، وعندما كانوا في قمة ثورتهم عليه، جاء عدو من الشمال وأرغمهم على اختيار الولاء على الخصام والتنافس ضيق الأفق.

كـــان مـــن الصعب عدم التفكير في صلاح الدين فيما كان الجيش يتحرك على أرض صـــخرية. كان القائد العظيم قد فتح القدس وطرد الصليبيين منها. كان صلاح الـــدين قد واجه أعداء مخيفين مثل خان المغول وربما أكثر. كل ليلة، عندما كان الجيش ينـــصب معـــسكره، كان علاء الدين يقرأ في ضوء المصباح سطوراً من سجل صلاح الـــدين عن معاركه، ويتعلم ما يستطيع تعلّمه قبل أن يدسّه تحت وسادة صغيرة ويخلد إلى النوم. إلى جانب نسخته من القرآن الكريم، كان ذلك السجل أغلى مقتنياته.

كـــان الهودج المزوّد بستائر لا يزال بارداً بعد انقضاء الليل، بالرغم من أن الحرارة ســـتكون مرتفعة مع ارتفاع الشمس في السماء. تناول علاء الدين إفطاره المكون من

طبق من التمر والمشمش المجفف، ودفعها في جوفه مع اللبن البارد. كان رجاله يحملون لحـم الـضأن المقدد وأرغفة خبز مشروح أضحت غير طازجة منذ وقت بعيد، لكن ذلـك لم يكن مهماً. لم تكن أطرار بعيدة أكثر من مسيرة بضعة أيام وسيقدّم إليه ابن عمه الأحمق، إنالشوك، أفضل الوجبات والفاكهة عندما ينقذون مدينته.

ارتعش علاء الدين عندما تنحنح خادمه بلطف خارج الستائر.

ســأل: "مــا الأمر؟". تم إزاحة الستارة لتكشف عن رجل يقف على عتبة مربوطة إلى حزام بطن الفيل.

"القهوة يا سيدي".

أومأ علاء الدين ومدّ يده ليأخذ الكوب. كانوا قد بدأوا التحرك منذ حوالى ساعة وتفاجأ عندما اكتشف أن البخار لا يزال يخرج من السائل الأسود. ارتشفه بحرص حتى لا يسيل الشراب الثمين على لحيته.

سأل: "كيف أبقيته ساخناً؟".

ابتسم خادمه لرؤية سيده سعيداً.

"وضعت الإناء في حقيبة جلدية يا سيدي مليئة بالرماد من نيران الصباح".

همهم علاء الدين، وارتشف الشراب. كان مراً ولذيذاً.

"لقد أبليت بلاءً حسناً يا عباس. هذا رائع جداً".

تم إنـــزال الــستارة فيما كان خادمه ينـــزل إلى الأرض. سمعه علاء الدين يهـــرول إلى جانب الحيوان الضخم لبعض الوقت. لا شك في أنه كان يفكر آنذاك في ما يمكنه تحضيره لوجبة سيده التالية بعد صلاة الظهر.

لـــو أن رجاله كانوا يسمحون بذلك، ربما كان علاء الدين فكّر في إعفائهم مـــن الصلاة في أثناء مسيرهم. كانوا يخسرون أكثر من ثلاث ساعات في اليوم في أداء الــصلوات، وكـــان التأخير يجعله يشعر بالغضب. كان ذلك سيُعدّ ضعفاً في الإيمان من قبل أولئك الذين يتطلعون لنيل عرشه، فأبعد تلك الفكرة عن ذهنه مرة أخــرى. كـــان إيمانهم هو ما يجعلهم أقوياء. شكّلت الكلمات التي أقرّها النبـــي (صلعم) الأذان وحتى الشاه لم يكن يستطيع معارضتها.

كان قد أخرج جيشه من الوادي الكبير أخيراً متّجهاً شمالاً نحو أطرار. كانت أمامهم سلسلة من التلال البنية، وخلفها سيهاجم رجاله حشد المغول بكل ما أوتي

محاربــون تــربوا في الصحارى الجنوبية القاسية من قوة. أغمض علاء الدين عينيه داخل الهودج الذي يتأرجح، وفكّر في أولئك الذين كان قد جلبهم إلى الحرب. مع خسارة فرسان خليفة، لم يكن لديه سوى خمسمئة فارس، وكانوا يشكلون حرسه الخــاص مــن أبــناء النبلاء. كان مرغماً آنذاك على الاستفادة منهم كمراسلين ومستطلعين. بالنسبة إلى أبناء العائلات العريقة، كانت تلك إهانة لأصولهم النبيلة، لكن لم يكن أمامه خيار آخر.

في مكان ما في الجزء الخلفي من الرتل، كانت ستة آلاف جمل تمشي بتثاقل، تحمــل إمــدادات الجيش كلها على ظهورها. بنصف سرعة أفضل الجياد، كانت تــستطيع حمــل أوزان هائلة. كان باقي الجيش يمشي سيراً على الأقدام، فيما كان الشاه وضباطه يرتحلون مرتاحين. كان شغوفاً بفيَلته لقوتها وقدرتها الكبيرتين اللتين تساويان قوة وقدرة ثمانين ثوراً كامل النمو.

عــندما نظــر إلى الخارج من الهودج، شعر علاء الدين بالفخر من القوة التي كــان قد حشدها. كان صلاح الدين نفسه سيفتخر بها. كان الشاه يستطيع رؤية ابــنه البكر، جلال الدين، يمتطي جواداً أسود. خفق قلب الشاه بقوة لرؤية الشاب الوسيم الذي سيخلفه يوماً ما. كان الرجال معجبين بالأمير و لم يكن صعباً أن يحلم بأن تحكم سلالته الشعوب طيلة قرون.

فكّــر عــلاء الــدين مجدداً بفرسان خليفة، وكافح ليمنع الغضب من إفساد الصباح عليه. سيرسل من يبحث عنهم عندما تضع الحرب أوزارها ولا يدع أحداً منهم على قيد الحياة. أقسم بذلك سراً فيما كان جيشه يتقدم إلى الأمام نحو التلال ببطء.

جــاء مــستطلعو تسوبودي يتسابقون إليه فيما كان يجثو على ركبة واحدة، يطــل على السهول أسفل التلال وجيش الشاه. كان الحشد يمتد أميالاً عديدة و لم يكــن بحاجــة إلى الشباب ليقولوا له إن العدو قادم عبر الممر الواسع، وهو المكان الذي كان قد اختاره للتصدي له.

عندما ترجل المستطلعون، لوّح تسوبودي بيده نحوهم.

قال: "أعرف، اذهبوا وأخبروا القادة الآخرين. سنضربهم هنا".

من بعيد، رأى مرافقي الشاه يثيرون الغبار عبر حقول زراعية في أثناء تقدمهم شمالاً. حاول تسوبودي أن يضع نفسه مكان الشاه، لكن ذلك كان صعباً. لم يكن ليقود أبداً مثل ذلك الجيش عبر ممر واحد. بدلاً من ذلك، كان سيدور حول الجبال بأكملها، ويترك أطرار تسقط. كانت المسافات ستؤخر الشاه شهراً آخرَ في الميدان، لكن الفِرَق المغولية ستكون مرغمة على الاشتباك معه في أرض مكشوفة، مما يحرمها من كل أفضلية تتمتع بها.

بدلاً من ذلك، سلك الشاه الطريق الأسهل، مؤكداً أنه يثمّن أطرار. كان تسوبودي يدقّق في التفاصيل، ويلاحظ كل قرار قد يساعد على تدمير عدوه. كان يعرف مثل أي شخص آخر أن قوات جنكيز منتشرة على مساحة واسعة في هذه المملكة. لم يكن الأمر يتعلق بالثأر من مدينة واحدة فقط، وإنما ببساطة بقاء شعبهم. كانوا قد أدخلوا أيديهم في عش دبابير غاضبة مثل إمبراطورية تشن، ومرة أخرى كان كل شيء على المحك.

ابتسم تسوبودي عندما خطرت في باله تلك الفكرة. كان بعض الرجال يقاتلون من أجل الحصول على أرض جديدة، ونساء مثيرات، وحتى على ذهب. من أحاديثه الخاصة مع الخان، كان تسوبودي يعرف أنه وجنكيز لا يهتمان إطلاقاً لتلك الأشياء. فالإنسان يمنح حياته ولا شيء آخر. كان شعب الخان وحيداً في السهول، وكانت تلك وحدة موحشة. بالرغم من ذلك، كانوا يستطيعون الانطلاق على صهوات جيادهم وقهر أعدائهم، والاستيلاء على مدن وإمبراطوريات واحدة تلو أخرى. ربما عندما يحين الوقت سيصبح أولئك الذين يتبعونهم ضعيفين ورقيقين مثل سكان المدن التي يواجهونها، لكن ذلك لم يكن مهماً لتسوبودي. لم يكن مسؤولاً عن خيارات أبنائه وأحفاده، وإنما فقط عن الطريقة التي يحيا بها حياته. فيما كان يجثو على صخر رمادي قاس، ويراقب سحب الغبار تقترب في الأسفل، فكّر مجدداً في أن لديه قاعدة واحدة فقط تحكم كل ما يقوم به.

تمتم عالياً بكلمات كانت مثل تعويذة بالنسبة إليه: "قاتل حتى آخر نفس وخطوة". كان هناك احتمال ألاّ يتم إيقاف جيش الشاه، وأن يكتسح فرق جنكيز وصولاً إلى سهول الديار. الله وحده يعرف ما سيحدث. مثل الخان، كان

تـسوبودي سيجدّ في ملاحقة أي شخص ربما يشكل تهديداً لهم ويضربه أولاً بقوة لا يمكنه تخيلها. إذا فعل ذلك، عندما يدنو أجله، سيتذكر الماضي بفخر لا بخجل.

قطـع تـسوبودي سلسلة أفكاره فيما كان خيّالة من خيالة كشيون وجيلم يـندفعون علـى مطاياهم إلى موقعه. بعد أيام في ذلك المكان، كان يعرفهم جميعاً بالاسـم وحيّاهم. ترجلوا وانحنوا كثيراً له، فخورين بالقائد الذي يتذكر مثل تلك التفاصيل.

قال أحدهم له: "الفرَق قادمة أيها القائد".

رد تسوبودي: "هل لديك أوامر لي؟".

هز المستطلع رأسه، وتقطب جبين تسوبودي عبوساً. لم يكن يحب أن يكون تحت قيادة كشيون، بالرغم من أنه اكتشف أنه قائد صلب.

"قولـوا لـضباطكم إننا لا نستطيع الانتظار هنا. ربما لا يزال الشاه يرسل رجـالاً لمـراقبتنا. ينبغي لنا أن نباغته، ونرغمه على سلوك الطريق الذي كنا قد اخترناه".

نظـر تسوبودي إلى الأعلى مع الآخرين عندما اقترب منهم كشيون وجيلم، ترجّلا عن جواديهما، ومشيا بخطوات واسعة نحو الصخرة العالية، نهض تسوبودي، وأحنى رأسه لكشيون.

قـال كشيون، وهو يحدّق إلى الأراضي الزراعية في الأسفل: "أردت أن أرى بنفـسي". لم يكن جيش الشاه بعيداً سوى عدة أميال، واستطاعوا رؤية الصفوف الأماميـة عـبر الغبار. كان يتقدم بتشكيل منتظم وحجمه الكبير يكفي لجعل أي رجل يشعر بالخطر.

قال تسوبودي: "لقد انتظرت أوامرك قبل التحرك يا كشيون".

ألقى كشيون نظرة حادة عليه. كان يعرف القائد منذ كان محارباً عادياً، لكن جنكيـز رأى شيئاً مميزاً فيه. ذكّر نفسه أن تسوبودي كان قد أثبت أنه عند حسن ظن شقيقه عدة مرات.

قال كشيون: "قل لي ما يدور في ذهنك".

أومـأ تـسوبودي برأسه. "هذا جيش ضخم، يقوده رجل واحد. حقيقة أنه اخـتار المرور عبر هذا الطريق تدل على أنه يفتقر إلى تنظيمنا من الضباط. لماذا لم

يثق برجلين جيدين لقيادة فرقتين عبر ممرين آخرين؟ اعرف العدو وستعرف كيف تقتله. هذا كله مفيد لنا".

نظر كشيون وجيلم إلى بعضهما. بمثل خبرتهما، كان تسوبودي يتمتع بسمعة لا يمكن مضاهاتها في القبائل بالحفاظ على حياة محاربيه. كان يتكلم على مهل وجيش الشاه يقترب منهم.

رأى تسوبودي جيلم ينظر من فوق كتفه وابتسم.

تابع قائلاً: "سنضربهم في نقطة ضعفهم تلك. لدينا ثلاثون مجموعة من ألف محارب بيننا، يقود كل منها رجل يفكر ويتصرف لوحده. قوتنا في ذلك وفي سرعتنا". فكّر مجدداً في الدبابير وقال: "سنرسل الفرق جميعها إلاّ أربعاً منها ضدهم، مثل مجموعة من الدبابير. سندع الشاه يحاول سحقهم بيديه الثقيلتين. نحن سريعون جداً بالنسبة إليهم".

سأل كشيون: "والأربعة آلاف رجل الذين سيبقون في الخلف؟".

رد تسوبودي: "أفضل الرماة. نخبة ما لدينا. سيتخذون مواقع على طول الممر، عالياً على الصخور. لقد أُثبتت قوة أقواسنا في ممر بادغر، أليس كذلك؟ ليس هناك مثال أفضل من ذلك".

زمّ كشيون شفتيه لدى سماعه المديح. ضد فرسان تشن، كان قد وقف مرة مع تسعة آلاف رجل، وأمطروهم بالسهام حتى قضوا عليهم.

رد: "إذا بقي الرجال منخفضين بما يكفي على الصخور لتكون إصاباتهم دقيقة، فسيقضي عليهم رماة الشاه بسهامهم. لا نعرف حتى كيف ستتصرف تلك الفيلة في الحرب".

أومأ تسوبودي، من دون اهتمام.

"ليست هناك خطة كاملة أيها القائد. ينبغي لك أن تستفيد من حصافتك لتحديد أماكن رجالك، بالطبع، بالرغم من أن مدى الرمي إلى الأسفل سيكون أبعد، أليس كذلك؟ لقد شرحت كيف سأتعامل مع هذا الشاه وجيشه. بالرغم من ذلك، سأطيع أوامرك".

فكّر كشيون للحظة واحدة فقط.

"تضرّع لأن تكون على حق يا تسوبودي. سأرسل الرجال معك".

ضحك تسوبودي بصوت خافت، وبشكل فاجأ كلاً من جيلم وكشيون.

"لا أتــضرع إلى أحد أيها القائد. فتسوبودي، لديه أفضل المحاربين في العالم، قــادة يــستمعون إلى خططه وترهاته، بالإضافة إلى عدو بطيء الحركة". ضحك مجدداً من تلك الفكرة. "سأستعمل ما لدينا. سنمزّقهم شر تمزيق".

نظر كشيون وجيلم مرة أخرى إلى العدو الضخم الذي يسير نحو الممر. كان مئة وستون ألف رجل قادمين بروح معنوية عالية، لكنهم بدوا بطريقة ما أقل شأناً بعد كلمات تسوبودي.

ارتعش الشاه علاء الدين عندما انطلقت صرخات أفراد جيشه في كل مكان حــوله. كان يلعب الشطرنج مع نفسه لتمضية الوقت، وقد انــزلقت الرقعة عن الطاولــة الصغيرة في الهودج، وتبعثرت القطع. أطلق لعنة بصوت خافت فيما كان يشد الستائر الأمامية، ويحدّق إلى مسافة بعيدة. لم تكن عيناه ثاقبتين واستطاع فقط تمييز أشكال فرسان قادمين نحو جيشه. انطلقت أبواق التحذير عبر الحشد، وشعر علاء الدين بنوبة خوف عندما استدار نحو خادمه. كان عباس يجري آنذاك بجواره، وقفــز برشــاقة إلى درجة صعود خشبية. حدّق كلا الرجلين عبر مسافة ميلين إلى المكان الذي يأتي منه المغول.

"ألن تقول شيئاً يا عباس؟".

ابتلع الخادم ريقه بعصبية.

"هــذا... غــريب يا سيدي. حالما يخرجون من الممر، ينقسمون ويسلكون اتجاهات مختلفة. ليس هناك تنظيم في ذلك".

سأل الشاه بنفاد صبر: "كم عددهم؟".

عدّ عباس بسرعة، وبالكاد يتحرك فمه.

"ربما عشرون ألفاً يا سيدي، لكنهم يتحركون باستمرار. لا يمكنني التأكد".

استرخى علاء الدين. لا بد من أن خان المغول يائس ليرسل بعضاً من رجاله ضــده. كــان يستطيع رؤيتهم آنذاك فيما يمتطون جيادهم التي تهرول نحو جيشه الجــرار. كانــوا يــنطلقون بتشكيلات غريبة، يتخذون سبلاً متعرجة، وتتداخل مجمــوعاتهم بشكل لا يمكنه معه تحديد المكان الذي سيضربونه أولاً. لم تكن هناك

أوامـــر قد صدرت بعد، وتقدّم رجاله بصبر نحو الممر رافعين تروسهم وسيوفهم. تمنّى أن يكون فرسان خليفة معه، لكن ذلك جعل غضبه يزداد أكثر.

أومأ علاء الدين إلى ثلاثة من أبناء شيوخ العشائر الذين يهرولون خلف فيله. رأى ابنه جلال الدين يقترب على جواده، ووجهه اليافع متجهم غضباً. رفع علاء الدين يده لتحيته مع اقتراب المستطلعين.

قـــال لهـــم: "انقلـــوا أوامري إلى المقدمة. اجعلوا الجناحين يوسعان دائرتي انتشارهما. أينما هاجم العدو، فسنطوّقه".

قـــال عـــباس: "سيدي". كان الخادم قد أصيب بالشحوب. "إنهم يهاجمون الآن".

قـــال علاء الدين بحدة: "ماذا؟". ركّز بصره، وطرفت عيناه دهشة من المدى الـــذي كـــان المغول قد اقتربوا إليه. كان يستطيع سماع صرخات بعيدة مع تلقي صفوفه الأمامية للموجات الأولى من السهام على التروس المرفوعة عالياً.

كانـــت جياد الخيّالة المغول التي تنطلق مسرعة تخترق صفوفه، وقد تجاوزت المقدمـــة ووصلت إلى جناحي جيشه المكشوفين. فغر علاء الدين فمه دهشة. كان بمقدور خليفة صدّهم، لكن الرجل خان سيده. كان يشعر بعيني ابنه تتقدان عليه، لكنه لن يسمح بخروج الحرس إليهم بعد. كانوا درعه ويقودون الجياد الوحيدة التي بقيت لديه.

"قولـــوا للقـــادة إنـــنا لن نتوقف لنرد على هؤلاء. تابعوا التقدم واستعملوا التروس. إذا اقتربوا كثيراً، فاحجبوا الشمس بالسهام".

تـــسابق أبناء شيوخ العشائر إلى المقدمة، وشعر الشاه بالقلق فيما كان الفيل يتابع سيره، غافلاً عن مخاوف سيده.

قـــاد تسوبودي مطيته للجري بأقصى سرعتها على طول جناح جيش الشاه. وقـــف في الـــركاب وقوســـه مشدود، يتوازن مع إيقاع خطى فرسه. كان يشعر بـــضربة كـــل حافر ثم كانت هناك لحظة صمت كامل عندما تصبح كل القوائم الأربع في الهواء. كان ذلك يدوم أقل من نبضة قلب لكنه كان يطلق سهماً في تلك اللحظة ويشاهده يضرب جندياً عدواً يطلق صرخة، ويسقط على الأرض.

كـــان يستطيع سماع ضباط الشاه يصدرون أوامرهم بلغة غريبة تنقلها الريح.
كان الرجل نفسه محمياً جيداً في قلب الجيش. هزّ تسوبودي رأسه مذهولاً من عدد الفرســـان الموجـــودين في الوسط. ما نفع بقائهم هناك، حيث لا يمكنهم المناورة؟ كانـــت الفـــيلة أيـــضاً بعيدة ضمن الصفوف، ولا تستطيع سهامه الوصول إليها.
تـــساءل تـــسوبودي إذا كان الشاه يفضّلها على رجاله. كان ذلك شيئاً آخر يودّ معـــرفته. فـــيما كـــان يفكر ويقود فرسه، رفع آلاف الرجال الذين يسيرون على أقـــدامهم أقواسهم وأطلقوا سهامهم. طنّت السهام نحوه، وخفّض تسوبودي رأسه بشكل فطري. كانت أقواس الشاه قد وصلت إلى مدى لم يكن قد رأى مثله أبداً في أراضي تشن. كان تسوبودي قد فقد رجالاً في هجومه الأول على الجناح، لكنه لم يكـــن بمـــنأى عن تلقي إصابات من تلك السهام. بدلاً من ذلك، جعل رجاله يقومون بمناورة، أمطر جماعة الشاه بالسهام، ثم انطلق مبتعداً عندما جاء الرد مخيفاً خلفـــه. كانـــت تلك مناورة خطيرة، لكنه كان قد بدأ يشعر بالمدة التي يمكن أن يـــستغلها للتـــسديد. كان على رجال الشاه أن يضربوا رتلاً يتحرك بسرعة، فيما يمكن لرجاله أن يستهدفوا أي مكان في الحشد.
حـــوله، تبنّـــى قادة تشكيلاته ذلك التكتيك، وكان كل رتل من ألف رجل يـــندفع إلى داخـــل صفوف الشاه قبل أن ينطلق مبتعداً. تابع جيش الشاه تقدمه، وبالـــرغم من أن التروس حمت الكثيرين، إلا أن الجثث ملأت طريقهم نحو الممر في التلال.
قـــاد تسوبودي رجاله بعيداً أكثر من الهجمات الثلاثة الأخيرة، وركّز بصره لـــيرى الممـــر. حالما تصل أولى صفوف الشاه إليه، لن تسنح له فرصة الانسحاب والانـــضمام إلى كشيون. تقدم جيش الشاه مثل سدادة يتم دفعها بقوة في قارورة ولم يكن هناك وقت طويل قبل أن يتم سدّ الممر. تردّد تسوبودي، ودارت أفكاره في رأسه. إذا تابع الشاه بتلك السرعة، سيترك الفرق المطاردة خلفه، ويشق طريقه نحـــو أطرار. لم يكن الأربعة آلاف رجل بقيادة كشيون بالتأكيد يستطيعون إيقاف مثل ذلك الجيش. كان صحيحاً أن تسوبودي يستطيع متابعة الهجمات على الجزء الخلفـــي في أثناء تقدم الجيش وكان يعرف أن ذلك يبدو قراراً صائباً. كان ورجاله يـــستطيعون القضاء على الآلاف في الصفوف الخلفية ولن يستطيع الشاه إيقافهم.

وبالـــرغم من ذلك، كان هناك ممران آخران يمكن الاستفادة منهما للالتفاف حول الجيش. كان بمقدور تسوبودي أن يقود رجاله عبرهما ويدعم جنكيز عند أطرار.

لم يكـــن ذلك كافياً. بالرغم من أن خيّالة المغول كانوا قد قتلوا الآلاف، إلا أن جيش الشاه لم يهتز لذلك وقد دفعوا صفوفهم للسير فوق القتلى وتابعوا السير قـــدماً إلى الأمـــام. عندما يصلون إلى السهل أمام أطرار، يمكن لجنكيز أن يواجه المشكلة نفسها التي أرسل تسوبودي لحلها. كان الشاه سيهاجم الخان من المقدمة، فيما تنتظر حامية أطرار خلفه.

شن تسوبودي مع رجاله هجوماً آخر، وأطلقوا السهام بالآلاف في كل مرة. من دون سابق إنذار، اعترضت مجموعة من ألف رجل طريقه وكان مرغماً على تغيير مـــساره حتى لا يصطدم بالأحمق الذي يقودهم. انطلقت سهام من صفوف الشاه حالما رأوا رجاله يخففون سرعتهم وفي تلك المرة سقط عشرات المحاربين، جيادهم تصهل ملطخة بالدماء. شتم تسوبودي الضابط الذي كان قد اعترض طريقه، ولمح وجـــه الرجل الخائف فيما كانت القوتان تنفصلان وتبتعدان عن بعضهما بعضاً. لم تكن غلطته حقاً، كما أقر تسوبودي. كان قد درّب جيشه على مثل ذلك الهجوم، لكـــن كان من الصعب القيام بمناورات حول جيش الشاه من دون بعض الارتباك. لم يكن ذلك لينقذ الرجل من تعنيف علني عندما يلتقيه تسوبودي لاحقاً.

وصـــل جيش الشاه إلى الممر، وكانت فرصة تسوبودي للاندفاع عبره قبلهم قـــد تلاشـــت. نظر بحثاً عن جيلم، وكان يعرف أن القائد الأكبر سناً يسلك درباً متعرجاً خاصاً به، لكنه لم يستطع رؤيته. راقب تسوبودي الجزء الخلفي من الجيش الكـــبير يتضاءل مع مرور الشاه إلى ما كان يعتقد أنه برّ الأمان. تكثّفت الهجمات علـــى الجـــناحين مـــع انخفاض مساحة الأرض التي كان على الفرَق تغطيتها. مع تـــضاؤل الجزء الخلفي من الجيش، ضربوا مراراً وتكراراً وشاهد تسوبودي بعض الـــرجال الأشد بأساً يدخلون في مبارزات بالسيوف، ويقتلون أفراداً من الصفوف التي تابعت التقدم. كان رجال الشاه يصرخون ويقاتلون، ويتصدون لهم بأفضل ما يستطيعون، لكن مع كل خطوة كانت الأعداد تتناقص لما فيه مصلحة تسوبودي. كانـــت هناك لحظة ستزيد فيها أعداد الفرق المطاردة على عدد أفراد الجزء الخلفي من الجيش، وقرر القضاء عليهم تماماً.

أرســل رجالــه الأكثر نشاطاً لنقل الأمر، لكن ذلك لم يكن ضرورياً. كان المغــول قد تجمّعوا حول آخر من تبقوا من جيش الشاه، وأحكموا الطوق عليهم حــتى جعلــوهم يتوقفون. كانت الأرض حمراء حول أول الممر، ورأى تسوبودي أشلاء وجثثاً تتناثر في كل مكان فيما تتابعت المذبحة.

كــان أربعــون ألفاً من جنود الشاه لا يزالون في رتل أمام الممر عندما دبّ الــرعب بينهم. أمال تسوبودي رأسه وظن أنه يستطيع سماع صرخات من بعيد، يتردد صداها من التلال. كان هجوم كشيون قد بدأ. كانت جعبة تسوبودي خالية علــى ظهره، ولذلك شهر سيفه مصمماً على رؤية الجزء الخلفي من جيش الشاه يختفي في ضوء الشمس.

عكّــرت صــرخاتُ تحذير تركيزَ تسوبودي الذي قاد رجاله للهجوم مجدداً، مستهدفاً هذه المرة مقدمة الرتل مباشرة. كان قد اختار بقعة قريبة من الممر نفسه، وخفــق قلبه بقوة عندما دفع بعقبيه بردفي مطيته. في البداية، لم يسمع الصرخات، لكــنه كان متنبهاً وأمعن النظر بحثاً عن المصدر، ورفع سيفه لإيقاف رجاله قبل أن يهاجموا.

للحظة، أطلق تسوبودي لعنة بصوت خافت. استطاع رؤية خيّالة وانتابه بعد ذلــك شك شنيع في أن الشاه قد نصب كميناً لمحاربيهم في تلك اللحظة. تلاشى الخــوف بالــسرعة الــتي ظهــر بها. شاهد أبناء جلده يمتطون جيادهم، وشعر بالاطمئنان. كان جوشي لا يزال على قيد الحياة وجيبــي يقود فرسه إلى جانبه.

نظــر تسوبودي حوله بحدّة بعينين ثاقبتين. ربما كان لا يزال ثلاثون ألفاً من جــيش الشاه يكافحون للوصول إلى الممر، محاصرين ويتعرضون للهجوم من كل الجهــات. كانــت مجموعات الألف رجل تحوم حولهم حقاً مثل دبابير، كما فكّر تسوبودي، لكنْ، حتى دبٌ يمكن أن يسقط في نهاية المطاف. لم يكونوا بحاجة إليه هناك، بالرغم من أنه لم يكن يستطيع المغادرة من دون أن يخبر جيلم.

بــدا أن الأمر قد استغرق وقتاً طويلاً قبل أن يعثر على زميله القائد، ملطخاً بالدماء ومنهكاً، لكن مبتهجاً مثله كان قد جهّز رجاله أيضاً للهجوم مرة أخرى.

صــرخ جــيلم فيما كان تسوبودي يقترب منه: "مثل غنمة للذبح!". مركّزاً على المعركة، لم يكن قد شاهد الخيّالة، وأومأ تسوبودي فقط باتجاههم.

تقطـب جبين جيلم عبوساً، وأمسك بأصابعه سهماً طويلاً كان قد أصابه في كـتفه. كان قد اخترق الدرع ليجرح لحمه تحت الجلد. عمل جيلم غاضباً عليه، محـاولاً سحبه. اقترب تسوبودي، وأمسك بالسهم، سحبه بسرعة، وألقى به على الأرض.

قال جيلم: "شكراً لك. هل هما قائدانا المفقودان؟".

رد تـسوبودي: "من غيرنا لديه فرقتان في هذا المكان؟ كنا نستطيع الاستفادة منهما من قبل، لكنني سأرسلهما حول الممر لمهاجمة الشاه عند خروجه منه".

رد جـيلم: "لا. أنت وأنا يمكننا القيام بذلك على أحسن ما يرام. دع هؤلاء الـوافدين الجـدد يأخـذون المتخلفين منا ويتبعون الشاه عبر الممر. لا أزال أشعر بالنشاط، أيها القائد. سأقاتل مجدداً اليوم".

كشّر تسوبودي، وربت على كتف جيلم. أرسل مستطلعين لنقل الأوامر إلى جيبـي وجوشي قبل أن ينطلقا، ودعا رجاله إليه. لم يكن أقرب ممر يبعد أكثر من ميل واحد.

خـلال لحظات فقط، كان الهجوم على الجزء الخلفي من الجيش قد توقف، ومرّ آخر جنود الشاه الملطخين بالدماء بين التلال. عندما خيّم ظل على وجوههم أخـيراً، نظروا بخوف إلى الوراء نحو الخيّالة المتوحشين الذين انطلقوا بسرعة كبيرة نحو مكان آخر. لم يهتف أحد لنجاته من تلك الموقعة. كان يملأهم هاجس مخيف، ونظروا إلى الخلف نحو جثث القتلى الذين خلّفوهم وراءهم، فيما كان جيش آخر يقترب شيئاً فشيئاً، مستعداً لاستئناف القتال مجدداً.

حـثّ تسوبودي مطيته على السير فوق تضاريس صعبة، متجهاً نحو التلال. كـان الممر الثاني ضيقاً وربما يكون الشاه قد أخطأ في إمكانية استيعابه لعدد كبير مـن الرجال. بالرغم من ذلك، كان يفي بالغرض، وفيما كان يدفع فرسه لصعود الـتل، نظر تسوبودي إلى المزارع في الأسفل، ورأى خطاً أحمر متعرجاً يدل على ساحة المعركة، والذي سرعان ما كان يجف ليتحول إلى اللون البني. فوقه تقدمت فرقتا جوشي وجيبـي، وحتى من بعيد، رأى تسوبودي أنهم يتحركون ببطء. رأى الأشكال الصغيرة لمستطلعيه تصل إليهما وتوقف الرتلان.

غابـــوا عن بصر تسوبودي بعد ذلك و لم يَرهم يتبعون الشاه إلى الممر. كانت ســـهام كـــشيون على وشك أن تنفد، وبالرغم من ذلك كان الجيش كبيراً جداً مقارنة بقوات جنكيز عند أطراف. مع ذلك، كان تسوبودي سعيداً بأعمال القتل. كان قد أظهر قوة الفرَق التي تعمل وحدها وأفضل طريقة لمهاجمة عدو بطيء. نظر إلى الأمـــام إلى حـــيث يقـــود جيلم فرسه، ويحثّ رجاله على المضي قدماً. ابتسم تسوبودي لحماسة وطاقة الرجل العجوز اللتين لم تفقدا زخمهما. كان كل محارب هـــناك يعرف أنهم ربما يحظون بفرصة أخرى لشن هجوم إذا عبروا التلال قبل أن يـــصل الشاه إلى الأرض المكشوفة. لن يكون هناك مكان للدبابير اللاسعة عندها، كمـــا أدرك تسوبودي. في الوقت المناسب، سيضربون ميمنة الشاه بأفضل ما يملك عـــشرون ألـــف رجـــل. كانت معظم سهامهم قد نفدت، وكان على الدروع والسيوف أن تكمل ما شرعوا به.

الفصل الرابع عشر

في شمس الصباح، استدار جنكيز بسرعة جعلت خاسار يقفز. عندما أيقن أنه شـقيقه الأصغر، أصبح وجه الخان أقل انـزعاجاً، لكن التوتر بقي ظاهراً للعيان. كـان جنكيـز يشعر بالغضب والإحباط منذ يومين، فيما رجاله يقاتلون ويموتون خلـف الـتلال الجنوبية. لو أن أسوار أطرار كانت أقل متانة بقليل، لكان جعل المنجنـيقات تعمل طيلة ذلك الوقت. بدلاً من ذلك، ستكون تلك إشارة لا طائل مـنها، وقد انتظر. لم تكن المدينة مهمة مثل النجاة من جيش الشاه، لكن مكوثهم هناك من دون حراك كان قد عكّر مزاجه إلى حدٍّ بعيد.

قال جنكيز بحدّة: "قل لي أخباراً جيدة".

تردد خاسار، وعبس جنكيز عندما رأى ذلك.

قال: "إذاً، قل لي ما لديك".

"نقل المستطلعون نبأ حدوث معركة أمام الممر. لقد هاجم القادة رجال الشاه كما أمرت، لكن الجيش لا يزال على حاله تقريباً. كشيون مستعد مع الرماة على الـسفوح العالية. سيقتلون الكثيرين منهم، لكن إن لم ينفرط عقد الجيش، ويهرب أفراده، سيعبر الشاه الممر. أنت تعرف أن ذلك سيحدث يا شقيقي".

راقبه فيما كان جنكيز يشد قبضته اليسرى بقوة جعلت ذراعه تمتز.

قال جنكيز: "قل لي كيف نوقف عشرين ألف محارب يهاجموننا من الخلف، وسأقف في طريق الشاه عندما يأتي".

نظر خاسار بعيداً إلى المدينة التي كانت تهزأ من استعداداتهم. مع تجريد المخيم مـن المحاربين، كانت خمس فرق كاملة تنتظر الأوامر وجنكيز يزداد غضباً مع كل لحظـة تضيع. لم يكن قد قلّل من شأن الخطر الذي تصدّى له. إضافة إلى زوجتيه،

كـــان قـــد ترك ابنيه أوجيدي وتولي من دون حماية في محاولته الاستفادة من كل القوات المتاحة له. مع ارتفاع الشمس إلى كبد السماء في اليوم الثاني، لم يعد سوى خاسار يجرؤ على التكلم إلى شقيقه، ولم يكن بيده حيلة.

كان خاسار يعرف مثل شقيقه أنه إذا استطاع الشاه اجتياز التلال مع جيشه، فـــستهاجمهم حامـــية أطرار حالما ترى راياته. ستتعرض الفرق لهزيمة نكراء. كان خاســـار يعرف أنه لا يتمتع بذكاء تسوبودي أو حتى بفطنة كشيون، لكن لم يكن لديه سوى أمر واحد ليصدره. لم يكن بمقدورهم الاستمرار في حصار أطرار. كان كل ما يمكنهم القيام به هو الانسحاب، وأخذ كل القادة معهم. وبالرغم من ذلك، انتظر أن يقول جنكيز شيئاً.

كان الدخان الأسود الذي يتصاعد من البيوت التي تحترق خارج الأسوار قد تـــضاءل حـــتى خمد تماماً خلال الأيام الماضية. كان الهواء نظيفاً وحاراً عندما نظر جنكيـــز إلى جيشه. كان الصمت قد أطبق على المدينة فيما كان سكانها ينتظرون نحاهم.

قـــال خاسار وقد نفد صبره: "ستكون هناك أعوام أخرى يا شقيقي. معارك أخرى".

استدار جنكيز إلى شقيقه مرة أخرى: "هل تريد مني الانسحاب يا خاسار؟".

هزّ خاسار كتفيه غير مبالٍ.

"هذا أفضل من أن نلقى حتفنا. إذا مضيت بالفرق عشرة أميال إلى الشمال، فسينـــضم هذا الشاه إلى حامية أطرار، وسنواجه عندها على الأقل جيشاً واحداً، ولن يكون هناك أحد يهاجمنا من الخلف".

تأفف جنكيز ترفّعاً من تلك الفكرة.

"أمـــيال مـــن السهول والجبال التي يعرفونها أكثر منا. سيهاجموننا على طول الطـــريق إلى الديار وحتى قادتي لا يمكنهم التصدي لمثل ذلك العدد الكبير. بالرغم مـــن ذلك، إذا استطعت الوصول إلى ذلك الممر، فلن يتمكّن الشاه من القيام بأي مـــناورة. سيكون من الصعب الوصول إليه قبل مغيب الشمس يا شقيقي. الوقت ليس في صالحنا".

صمت جنكيز فجأة، كما لو أن فكرة راودته.

"الرجل الذي كان نائبك، ساموكا. هل هو وفي؟".

ضاقت عينا خاسار، متسائلاً عما يفكر فيه جنكيز.

رد: "بالطبع".

أومأ جنكيز بحدّة، وقد اتخذ قراراً.

"اجعله على رأس خمسة آلاف رجل، وليثبت في مكانه حتى أعود. لن يكون عليه تحقيق انتصار في المعركة، وإنما منعهم فقط من دخول الميدان. قل له إنني أحتاج إلى وقت وأن عليه توفيره لي".

لم يرد خاسار في البداية. كانت فرقة تشاغاتاي أقرب إلى المدينة من رجال ساموكا، لكن خاسار كان يعرف أن جنكيز لن يرسل ابنه إلى موت محتّم، كما يبدو أنه يفعل مع ساموكا".

قال: "كما تشاء يا شقيقي. سأخبره".

كان جنكيز يمتطي آنذاك جواده، ويوجهه ليأخذ مكانه على رأس الجيش. قاد خاسار فرسه عائداً إلى الصفوف الخلفية، وقطع المسافة بأقصى سرعة ليصل إلى ساموكا.

وجد نائبه القديم واقفاً مع هوسا يناقشان أمر الهجوم. تهللت أسارير الرجلين عندما رأيا خاسار الذي شعر بقلبه ينقبض مما كان مضطراً إلى قوله لهما. بإشارة منه، أبعدهما خاسار عن الضباط الآخرين وتكلم بصوت منخفض.

"يأمرك مولاي جنكيز أن تبقى هنا يا ساموكا. خذ خمسة آلاف من أفضل الرماة وحاصر المدينة حتى نعود".

تسمّر هوسا في مكانه كما لو أنه أُصيب بصدمة. تفحّصت عينا ساموكا الداكنتان خاسار للحظة. كان الرجال الثلاثة يعرفون أنه حكم بالإعدام. كانت الحامية ستمزّقهم إرباً في محاولتها اليائسة للخروج من المدينة.

تابع خاسار: "سيبذلون أفضل ما في وسعهم للخروج. سيكون عملاً دموياً".

أومأ ساموكا مذعناً للأمر. لن يكون خمسة آلاف رجل عدداً كافياً للقتال عند بوابتين. عندما خطرت في باله فكرة، نظر إلى هوسا.

"لا أحتاج إلى هذا الرجل أيها القائد. دعه يذهب معك". ابتسم ساموكا بتكلّف. "إنه عديم الفائدة بأي حال ولن أحتاج إليه هنا".

عانى هوسا من لحظة ضعف مريرة. لم يكن يرغب في الموت في أرض بالكاد يعرفها. كان ساموكا قد منحه فرصة ليعيش. أشاح خاسار بنظره بعيداً بدلاً من رؤية اضطراب وجه هوسا.

قال هوسا: "سأبقى".

نظر ساموكا إلى السماء ونفخ هواءً بدا أنه يخرج من بين وجنتيه الممتلئتين.

قال ساموكا: "أنت أحمق". استدار إلى خاسار، وسحب نفساً عميقاً، ودبّ النشاط فيه فجأة. "إلى متى ينبغي لي أن أصمد؟".

لم تبدُ على خاسار أي علامة على أنه لاحظ اضطراب هوسا.

"ربما يوماً واحداً. سأبلغك بنفسي".

أحنى كل من هوسا وساموكا رأسيهما دلالة على قبولهما للمهمة المعروضة عليهما. فجأة، مدّ خاسار يده، وأمسك كتف هوسا. كان قد عرف ضابط كزي كزيا طيلة سنوات، منذ الغارات الأولى على أراضي تشن.

قال خاسار: "حافظ على حياتك يا أخي. سآتي إن استطعت".

قال هوسا بصوت أجش: "سأنتظرك". لم يظهر على وجهه أي علامة عن الخوف الذي كان يعتمل في داخله.

كان جنكيز آنذاك على رأس جيشه، يحدّق ببرود من بعيد إلى الرجال الثلاثة. انتظر حتى أصدر ساموكا أوامره إلى خمسة من قادة مجموعات الألف رجل، وانفصل هؤلاء عن الجيش الرئيس. تأخر خاسار قليلاً ليجمع أربعة سهام من كل محارب في فرقة تشاغاتي، ووضعها في حزم صغيرة. كان ساموكا وهوسا بحاجة إلى كل سهم. إذا استطاعا إيقاف حامية أطرار حتى حلول الليل، ربما يجد جنكيز في ذلك مبرراً لخسارة هؤلاء الرجال.

مع انتقال أمر البقاء منفصلين إلى الخمسة آلاف رجل، استدارت الكثير من الرؤوس نحو خاسار. كانوا يعرفون ما يعنيه ذلك الأمر. جلس مثل حجر وكان سعيداً لعدم ظهور صرخات احتجاج. كان قومه قد تعلموا الانضباط، حتى الموت.

دفع جنكيز بعقبيه في ردفي فرسه التي وثبت إلى الأمام. قاد تشاغاتي وخاسار فرسيهما معه نحو التلال البنية حيث كان الشاه يقاتل القادة. خلفهم، هتف شعب

أطـــرار على الأسوار، ووحدها القوة الصغيرة مع ساموكا وهوسا عادت أدراجها وكانت تبدو قزمة مقارنة بالمدينة.

خرجت الصفوف الأولى من جيش الشاه من الممر إلى ضوء الشمس الساطع، وصرخ أفرادها ابتهاجاً بنجاحهم. كانت السهام قد انهمرت عليهم بعشرات الآلاف فيما كانوا يشقون طريقهم للخروج. كانت سهام مكسورة تملأ تروسهم واستعمل الكـــثير من الرجال السكاكين لتحطيمها فيما كانوا يسيرون بخطوات واسعة نحو أطرار.

خلفهم، كان لا يزال هناك صراخ في الوادي مع قيام المغول بشن هجوم على الجزء الخلفي من الجيش، ربما على أمل أن يخاف الجنود ويولوا الأدبار. ابتسم الشاه عـــلاء الـــدين محمد بتكلّف من تلك الفكرة. لم يكن هناك عار في الموت بشرف وكـــان رجالـــه أقوياء بإيمانهم. لم يكن أي أحد منهم قد هرب من سيوف العدو الملطخـــة بالدماء. كانت أقواس المغول قد همدت في الخلف وكانت تلك رحمة من الله (عـــزّ وجـــل)، على الأقل. تساءل الشاه إن كانوا قد استنفدوا سهامهم على فرسان خليفة، وفي حالته الذهنية استعداداً للمعركة، كان يأمل ذلك. كانت تلك نهاية أفضل للص الصحراء من الخيانة.

كان الأمر قد استغرق وقتاً طويلاً للتقدم تحت وابل السهام التي أطلقها مغول جاثمـــون مثل صقور على الصخور. كان الوقت قد تجاوز منتصف النهار و لم يكن الـــشاه يعرف إن كانوا سيواصلون هجومهم في الظلام. لم تكن أطرار بعيدة أكثر مـــن عـــشرين ميلاً إلى الشمال وسيدفع رجاله للمضي قدماً حتى تصبح المدينة في مرمى بصرهم. سيقيم معسكره حيث يعرف سكان المدينة أنه جاء لإنقاذهم.

سمـــع صـــرخات موت جديدة في الخلف وزمجر لنفسه. كان المغول في كل مكـــان، وبالرغم من أن رجاله كانوا يحملون تروساً، إلا أنه كان من الصعب قتل عـــدو لا يمكـــنك رؤيـــته. تابعـــت صفوفه سيرها إلى الأمام. وحده الموت كان سيمنعهم من الوصول إلى المدينة.

مـــن مكانه المرتفع على ظهر فيل، كان علاء الدين من أوائل الذين شاهدوا تسوبودي وجيلم يخرجان من الجبال إلى يمينه. أطلق لعنة بصوت خافت، واستدعى

مراسليه من أبناء شيوخ العشائر مرة أخرى. ألقى نظرة سريعة على جيشه، ولاحظ قوته وانتظام تشكيل أفواجه، ثم أومأ إلى أول رجل ليقترب منه.

"قل لولدي جلال الدين أن يدمّر القوة التي تهاجم الميمنة. يمكنه اصطحاب اثني عشر فيلاً وعشرة آلاف رجل من القائد فيصل. قل له إنني سأراقب ما يجري".

وضع الفارس أصابعه على شفتيه وقلبه قبل أن يسرع مبتعداً لنقل الأمر. أشاح علاء الدين ببصره بعيداً عن الميمنة، متأكداً أن ابنه سيقضي عليهم.

ابتسم الشاه بتكلّف عندما غادر جيشه الممر الجبلي. لم يكن هناك شيء يستطيع منعه من الوصول إلى أطرار. في مكان ما أمامهم، كان جنكيز قادماً إليه، لكنه كان قد غادر بعد فوات الأوان. حتى إذا كان في طريقه إليهم، كانت حامية إنالشوك ستسلبه قوته. كان المغول سريعين ونشيطين أكثر مما كان الشاه محمد يتخيل، لكنه كان يفوقهم عدداً ولن يولي رجاله الأدبار طالما بقي على قيد الحياة.

ستكون معركة طاحنة وأُصيب علاء الدين بالدهشة عندما اكتشف أنه يتطلع قدماً لتدمير الخان. كان يشعر بالأسى لأن عليه القضاء على مثل ذلك العدو الجريء. لقد كان العام المنصرم مثيراً وحافلاً. تنهد لنفسه، وتذكر حكاية أطفال عن شاه يخاف الضعف مثلما يخاف الإفراط في الثقة. عندما طلب من مستشاريه أن يعثروا له على حلّ، قاموا بصنع خاتم بسيط من الذهب يحمل عبارة "سينقضي ذلك أيضاً". كانت هناك حقيقة في مثل تلك الجملة البسيطة وكان الشاه قانعاً بها فيما كان جيشه الجرّار يسير نحو أطرار.

شكّلت أرتال تسوبودي جبهة واسعة عندما خرجت من التلال. كانت مقدمة الشاه بادية للعيان وقتها، لكن تسوبودي أوقف رجاله وجعلهم يسددون سهاماً على الصفوف الأمامية. لم يكن هناك الكثير منها. كان لديهم ما يكفي لشن ثلاثة هجمات سريعة يقوم بكل منها خمسمئة رجل قبل أن يتم الاحتكام إلى السيوف.

كان جيلم يقود مطيته إلى جانبه، واندفعت الجياد إلى الأمام.

قال جيلم: "جوشي وجيبي يلاحقان هذه الأفعى. هل يمكننا قطع الرأس؟".

صـــرخ تسوبودي من فوق كتفه: "كل شيء ممكن. لا أصدق أن هذا العدو قد تلقى مثل تلك الضربات ولا يزال يحافظ على تشكيله. إنه شيء آخر ينبغي لنا أن ننتبـه إليـه أيها القائد: يتمتعون بانضباط استثنائي، جيد مثل انضباط محاربينا. حتى بوجود أحمق على رأس القيادة، فسيكون من الصعب القضاء عليهم".

كـــان أمـــامهم حـــوالى ميل ليقطعوه قبل أن يضربوا ميمنة الجيش. حسب تـــسوبودي الـــوقت في ذهنه. بتلك السرعة، يمكنهم الوصول إلى الصفوف خلال مئتي ضربة قلب.

فـــيما كانـــوا ينظـــرون إلى الأسفل نحو الجيش الذي يخرج من الممر، رأى تسوبودي قسماً كبيراً منه ينفصل عنه ويواجههم. تقطب جبينه عبوساً عندما رأى صـــفاً مـــن الفيلة يتقدم إلى الأمام، وساسة يركلوها ويضربوها بالسياط. شعر أن رجاله يترددون من دون أن يرى ذلك وصرخ تشجيعاً لهم.

نـــادى: "الـــرؤوس محمية بدروع. استهدفوا القوائم. يمكننا قتل كل ما هو حي".

كشّر أولئك الذين سمعوه فيما كان يتم نقل الأوامر عبر الصفوف. شد الرماة أقواسهم استعداداً، مختبرين قوتهم.

بدأت الفيلة تتحرك إلى الأمام، وتزيد سرعتها تدريجياً. رأى تسوبودي جنود مـــشاة يَجرُون إلى جانبها. كانت الفيلة مخيفة وتكبر شيئاً فشيئاً أمام عينيه. جهّز تـــسوبودي سيفه، لوّح به قليلاً فوق ردف جواده، وسمع صوت حركته في الهواء. استطاع رؤية الفرق بقيادة جنكيز تأتي من الشمال، وتساءل كيف استطاع الخان ترك أطرار خلفه.

حأر على رماته: "اقتلوا الفيلة أولاً!". كانوا جاهزين، وشعر بخفقات قلبه تهز صدره وحنجرته. كانت الشمس تميل نحو الأفق، وكان يوماً جميلاً ليعيشه المرء.

كان ساموكا قد نظّم خمسة آلاف رجل في مجموعتين على كلا طرفي المدينة، وواجهـــت كـــل مجموعة بوابات عالية ضمن الأسوار. قاد هوسا المجموعة الثانية، واستحسن ساموكا رباطة جأش ضابط كزي كزيا التي كان قد تعلمها من وجوده مـــع القبائل. كان كلا الرجلين في موقعيهما، وهدأ ساموكا. كان رجاله قد أقاموا

حواجـــز متينة على صخور قوية ستحميهم من السهام في أثناء إغلاقهم للبوابات. تـــنهد ســـاموكا لنفســـه. لم يكـــن جنكيز قد ترك له سوى أفضلية واحدة فقط وسيـــستفيد مـــنها بأفـــضل ما يستطيع. مرّر راية حريرية بين أصابعه، مستمتعاً بالملمس. كان يرى وجوهاً متجهمة تراقبه من أبراج أطرار العالية و لم يكن يظن أنه سينتظر طويلاً.

لم يكـــن جنكيز بعيداً أكثر من بضعة أميال إلى الجنوب عندما سمع ساموكا صدى أوامر الحامية تتردد داخل الأسوار. أومأ لنفسه، وتفقّد جهوزية ضباطه مرة أخرى. كانوا متجهمين مثل قائدهم و لم يكن أي منهم أحمق بما يكفي ليعتقد أنهم سينجون من المعركة التالية.

فُـتح الباب الحديدي في السور الشرقي ببطء. في الوقت نفسه، ظهرت صفوف داكـــنة مـــن رماة سهام على الأسوار، وكان هناك الآلاف منهم. حدّق ساموكا إلى الأعلـــى مـــن دون مبالاة، وشرع في عدّهم. في الأيام السابقة، كان المغول قد مهّدوا طـــريقاً إلى البوابة، واستعملوا رماحاً للحصول على حجارة من منازل محترقة. كانت تلك خطة جيدة في ذلك الوقت، لكنهم كانوا قد سهّلوا على السكان الخروج بشكل عاصـــف. أصـــدر ساموكا أمراً بصوت حاد وجهّز رجاله أقواسهم، ووضعوا سهاماً بحـــرص عند أقدامهم بحيث يمكنهم الوصول إليها بسرعة. انهار أحد الحواجز الخشبية المؤقـــتة، وسمـــع ســـاموكا ضابطاً يطلق لعنة فيما كان يرسل رجالاً لتدعيمه. ابتسم ساموكا قليلاً. كان جنكيز قد وضعه هناك و لم يكن ليتحرك بسهولة.

لم يكـــن يعـــرف إن كان أفراد الحامية سيخرجون من ذلك المكان فقط أم سيحاولون اقتحام البوابة التي يحرسها هوسا أيضاً، المتوارية عن ناظريه. بغض النظر عـــن ذلـــك، كـــان طريقه ممهداً ووضع فرسه خارج المدى فيما كان يراقب فتح الـــبوابات الحديديـــة. في المدينة التي غمرتها أشعة الشمس خلف الأسوار، كانت صفوف من رجال مسلحين تنتظر على جياد مطهمة. جال ساموكا ببصره عليهم. كانـــوا الـــرجالَ الذين ينبغي له تدميرهم. لم يكن المشاة يستطيعون الوصول إلى جنكيز في الوقت المناسب.

بالنـــسبة إلى رجـــل يحب لحم الجياد، كان أمراً مريراً، لكن ساموكا رفع يده. صرخ بصوت وصل بعيداً: "اقتلوا الجياد". مثل صدى، تم تكرار الأمر، بالرغم من أنه

مــع تلــك القوة الصغيرة، لم يكن هناك كثيرون لا يستطيعون سماعه. لم تكن جياد المغــول ذات فائدة كبيرة في تشكيل هلال لا يمكن أن يتحرك، لكن كان وجوده في سرجه مريحاً و لم يكن ساموكا يرغب في الوقوف على الأرض وهناك عدو قادم نحوه.

جــأرت أصــوات في المدينـــة، واندفع العدو خارجاً منها. ضغطت البوابة صـــفوفهم، و لم يكن يخرج منها سوى خمسة في كل مرة يدفعون جيادهم للجري بأقصى سرعتها. رفع ساموكا يده اليسرى، متحيناً اللحظة المناسبة. شد مئة رجل أقواســـهم في فـــتحات ضـــمن الحواجـــز. كان يعرف أن عليه التريث في توجيه الضربات للحفاظ على مخزون السهام، لكنه أراد أن تكون الضربة الأولى مرعبة.

كانـــت الحامـــية قـــد خططت لشن هجوم جيد، كما رأى ساموكا. وسّع أفرادها صفوفهم مع خروجهم من البوابة، وحشدوا أكبر عدد ممكن من الرجال في أقصر وقت. راقب ساموكا من دون أي انفعال فيما كانوا يعبرون الخط الذي كان قد حدّده عند مئة خطوة.

صرخ مجدداً وأنـــزل يده: "الجياد أولاً!".

الطقطقة التي تلت ذلك جعلت قلبه يخفق بسرعة. اندفع مئة سهم طويل في الجو، و لم تخـــفّ سرعة أي منها قبل أن تضرب فارساً خرج من البوابة. انهار الصف الأول مثل قربة انفجرت، وسقط رجال وجياد على الأرض الرملية. رفع ساموكا يده مجدداً، وأنـــزلها مباشرة تقريباً، وكان يعرف أن المئة التالية ستكون مستعدة. لم يكن هناك شـــيء يستطيع مقاومة مثل تلك الضربات التي تنهمر بقوة. بالرغم من أن أهل المدينة كانوا يرتدون دروعاً ويحملون تروساً، إلا أنهم سقطوا بقوة مع جيادهم، ثم كان هناك مزيد من السهام التي استهدفت أولئك الذين ترنحوا على أقدامهم.

امتلأ الجو فوق البوابتين بسهام تطنّ بعد أن شدّ رماة على الأسوار أقواسهم وأطلقـــوها. أحـــنى ساموكا رأسه بشكل فطري، بالرغم من أن الحواجز كانت تحميه. وقعت السهام التي وصلت إليهم على تروس رجاله. كانوا يتمتعون بالخبرة، وتفادوا الضربات جيداً، واستوعبوا الصدمة.

بقـــي الفرســـان يخرجون بالرغم من ذلك. أطلق ساموكا وابلاً إثر آخر من الـــسهام علـــى الصفوف حتى تكدّست الجثث والجياد النافقة أمام أطرار. أُصيب بعض رجاله بسهام من الأسوار، لكن عددهم لم يكن كبيراً.

حـــل هدوء مؤقت عندما استخدم أفراد الحامية متاريسهم الخشبية لإخلاء الجـــثث. استـــغرق ذلك بعض الوقت، وكان المغول سعيدين بالانتظار قبل أن يـــبدأوا القتال مرة أخرى. حتى عندها، شعر ساموكا باليأس عندما قدّر السهام الباقـــية. إذا قـــضى كل سهم على رجل، سيتم الاحتكام إلى السيوف في نهاية المطاف.

استُؤنف القتال الوحشي. إذا كان أفراد الحامية مستعدين للخروج إليه، كان ساموكا شبه واثق أنه يستطيع إيقافهم حتى حلول الظلام. كانت ثقته بنفسه كبيرة عندما رأى حركة جديدة على الأسوار. نظر إلى الأعلى بسرعة، مفترضاً أن هناك تغـــييراً للرجال، أو أن سهاماً تُنقل إليهم. كشّر عندما رأى حبالاً تتدلى من فوق الأسوار وجنوداً ينـــزلون عليها بشكل جعل أيديهم تتقرح في اندفاعهم للوصول إلى الأرض بسرعة.

أطلـــق ساموكا لعنة، بالرغم من أنه كان يتوقع ذلك. آنذاك، كان مئات من المحاربين ينتظمون في تشكيل خارج مدى أسلحته، وكان رجاله يرسلون سهاماً إلى البـــوابة، يقـــتلون جـــنوداً يصرخون في أثناء سعيهم للخروج. استدعى ساموكا مستطلعاً وأرسله إلى هوسا إلى الطرف الآخر من المدينة. إذا كان المحاربون هناك لا يـــزالون على حالهم، يمكنه جعل بضع مئات منهم يلتفون حول الأسوار ويقضون علـــى التهديد الجديد. فيما كان ساموكا يراقب ما يجري، أصبح المزيد والمزيد من الحـــبال داكناً من الرجال الذين ينـــزلون عليها وأصبحت الصفوف على الأرض أكثـــر عدداً وثقة بالنفس. خفق قلبه بقوة عندما رآهم يبدأون الجري نحو موقعه، وســـيوفهم وتروســـهم تلمع في أشعة شمس بعد الظهيرة. مرة أخرى، أنـــزل يده لإطلاق سهام على خيّالة يحثّون مطيّاتهم على الجري فوق قتلاهم. لم يكن يستطيع القيام بمناورة حتى تنفد السهام.

إذا كـــان ضباط أطرار قد قرروا الالتفاف بعيداً حوله، سيجد ساموكا نفسه مـــرغماً على قطع صفوفهم. كان من السابق لأوانه السماح لهم بالاندفاع لدعم الـــشاه. كـــان ساموكا يراقبهم بحرص، لكن مع شعوره العارم بالغضب والإثارة، كـــان واضحاً أن الحاكم أمرهم باكتساح صفوف المغول. جاؤوا مسرعين، وأمر ســـاموكا خمـــسمئة من رجاله بالتصدي لهم بالسهام عند اقترابهم، والتي اخترقت

صفوفهم. خرج المزيد من الرجال من المدينة، وشدّ ساموكا قبضته غضباً وإحباطاً عندما التقى أول جنود الحامية بمحاربيه.

فيما كان رجاله يقاتلون بضراوة، جاء أربعمئة فارس مغولي يتسابقون حول المدينة، وشنوا هجوماً مباشراً على مشاة أطرار. في البداية، اخترقوا صفوفهم، وأطلقوا موجة قاتلة من السهام قبل أن يشهروا سيوفهم، ويبدأوا بالقتال. توقف أفراد الحامية نتيجة ذلك الهجوم، لكن كل محارب مغولي واجه ثلاثة أو أربعة جنود. رأى ساموكا أعدادهم تتضاءل مع تلاشي قوة الهجوم. مع هجمات من كل الاتجاهات، قاتلوا جيداً و لم يتراجع أحد منهم، لكن جنود أطرار شقوا صفوفهم حتى لم يبقَ سوى عشرات منهم في الحشد، يقاتلون يائسين باستعمال كل ما يمكن أن تقع عليه أيديهم. سقطوا أيضاً في النهاية وتأوه ساموكا عالياً فيما كان حوالى عشرة آلاف من أفراد الحامية يعيدون تنظيم تشكيلهم.

خلف البوابة الحديدية، استطاع رؤية صفوف من فرسان نشيطين، يصرخون ويرفعون تروسهم. كانوا يعرفون أن النصر في متناول أيديهم.

متعباً، سحب ساموكا الراية الحريرية من حيث كان قد دسّها تحت قماش السرج. جعلها النسيم ترفرف عندما رفعها فوق رأسه. نظر إلى الأعلى نحو التل خلف المدينة، وشعر بظل يمر فوق وجهه قبل أن يسمع فرقعة المنجنيقات.

ارتطمت قذائف فخارية ببوابة أطرار، وكانت كل واحدة منها كبيرة بقدر ما يستطيع رجل أن يحمل. حمل ساموكا سهماً التفت حول نصله قطعة قماش مغمّسة بالزيت وجعل محارباً يشعلها من مصباح. رأى قدرين أخريين من الصلصال تتحطمان على البوابة، وقد جعلتا فارساً يقع على الأرض. ركّز ساموكا بحرص وأطلق السهم.

شاهد انتشار اللهب الذي غلّف البوابة وأحرق كل أولئك الذين حاولوا عبورها. كانت رؤية زيت نار تشن مرعبة، وحرارته شديدة للغاية حتى إن العديد من جياد المغول تراجعت إلى الخلف إلى أن تمكّن المحاربون من السيطرة عليها. أرسلت المنجنيقات على التل المزيد من قدور الصلصال فوق رؤوس رجاله، موجّهة اللهيب حتى بدأت البوابة نفسها تتوهج باللون الأحمر. كان ساموكا يعرف أنه يستطيع تجاهل البوابة لبعض الوقت. لم يكن بمقدور أحد عبور ألسنة

اللـــهب تلك والبقاء على قيد الحياة. كان ينوي الانضمام إلى هوسا على الطرف الآخـــر في أثـــناء احتراق البوابة الأولى بالنار، لكن الخطة فشلت مع وجود ذلك العدد الكبير من الجنود الذين نـــزلوا عن الأسوار.

فـــيما كان رجاله يحولون أقواسهم نحو المشاة ويعيقون تقدمهم، هزّ ساموكا رأســـه لتنقية ذهنه. لم يكن الجنود المشاة يشكّلون أي مشكلة لجنكيز، كما ذكّر نفســـه. كـــان نفير حادّ واحد من بوق مستطيل قد جعل رجاله يديرون جيادهم نحوه.

اســـتعمل ساموكا سيفه ليشير إليهم، ودفع مطيته للجري إلى الأمام، واقترب بمـــا يكفـــي من البوابة التي تشتعل ناراً ليشعر بحرارتها على وجنتيه. حتى مع قيامه بذلك، كان جنود جدد يخرجون من المدينة على حبال ليحلّوا محل القتلى، لكن لم يبقَ هناك عدو لمواجهتهم.

كـــان غريباً أن يترك معركة تدور رحاها خلفه. لم تكن أطرار مدينة صغيرة، ورأى ســـاموكا أشكالاً مبهمة على الأسوار فيما كان ورجاله يتسابقون في ظلها وحيدين على وقع الحوافر ورائحة الدخان. لم يكن يعرف إلى متى سيدوم زيت نار تشن واضطرب من فكرة أن يكتشف شخص آخر طريقة لتدعيم كلتا البوابتين.

سمع رجال هوسا قبل أن يراهم وسحب ساموكا قوسه من حقيبته التي كانت بمتـــناول ذراعـــه اليمنى القوية. كان يقود فرسه إلى جانب الأسوار بسرعة كبيرة، وازداد الصوت حتى تملّكه إحساس بحدوث فوضى دموية.

كـــان هوسا يكافح لإغلاق البوابة الثانية، ورأى ساموكا ذلك في لحظة. من دون المنجنيقات، كان ورجاله يتراجعون إلى الخلف مدفوعين بموجات من الجنود. جـــأر هـــؤلاء علـــى المغول، واندفعوا ثائرين لدرجة أنهم سحبوا سهاماً أصابت أجسادهم فيما كانوا يتقدمون، وتركوا آثار خطوات من الدم على الأرض.

هـــاجمهم آخـــر ألـــف رجل لدى ساموكا من الخلف، وشقوا طريقهم عبر الأفواج من أطرار بسرعة ووصلوا تقريباً إلى وسط محاربـــي هوسا. شعر ساموكا أنهـــم يخففون سرعتهم حوله فيما كانت الجياد تنفق أو تتعثر بأعداء يحتضرون. مدّ يـــده بحـــثاً عن سهم لكنه لم يجد شيئاً، وألقى بقوسه على الأرض ثم شهر سيفه مرة أخرى.

كــان يـــرى هوسا يقاتل من أجل كل خطوة فيما المحاربون يتراجعون إلى الخلــف. همهــم ساموكا واندفع بكل قوته للوصول إليه، لكن المزيد من الرجال جاؤوا يركضون حول المدينة خلفه وشعر كما لو أن بحراً مظلماً هائجاً يبتلعهم.

كانــت الشمس تحبو نحو المغيب. أدرك ساموكا أنه كان يقاتل منذ ساعات، لكــن ذلك لم يكن وقتاً كافياً. كانت البوابة الثانية على بعد مئة خطوة منهم و لم تكــن تــشتعل بألسنة اللهب. استطاع رؤية فرسان يخرجون منها و لم ينضموا إلى الآخرين. صرخ ساموكا غضباً ويأساً فيما كانوا ينتظمون في رتل. كان قيام حتى عــدد صــغير من الفرسان بمهاجمة الجزء الخلفي من جيش الخان قد يعني فرقاً بين الحياة والموت.

طــرفت عيــنا ساموكا لإبعاد الدم عنهما فيما كان يركل رجلاً ليبعده عن الركاب على يمينه. من بين الرجال الذين كان خاسار قد تركهم خلفهم، لم يكن قــد بقي على قيد الحياة سوى بضع مئات. كانوا قد قتلوا رجالاً أكثر من عددهم بكثير، لكن تلك كانت النهاية. بطريقة ما، كان ساموكا يعتقد أنه سينجو، بالرغم من كل شيء. كانت فكرة وجود جسده بارداً على الأرض بعيدة عن مخيلته.

صرخ ساموكا باسم هوسا فوق الرؤوس التي احتشدت حوله والرجال الذين أمــسكوا به. كان يشعر بأصابعهم تشد ساقيه وركلهم بقوة وضرب بسيفه فيما كــان هوسا ينظر إليه. ربما للحظة، ظنّ ضابط كزي كزيا أنه يطلب العون، لكن ساموكا أشار بسيفه إلى الفرسان الذين يهربون. عندما استدار هوسا لرؤية ما يشير إليه، رأى ساموكا جرحاً بليغاً على عنقه، والدم يندفع غزيراً منه فيما كان ينهار.

صــرخ ســـاموكا غضباً فيما كان يضرب بنصله أصابع أمسكت بفخذيه. تجمّعــت وجــوه ملتحــية كثيرة حوله حتى توقف جواده، وشعر ساموكا بهدوء مفاجئ، ممزوج بالدهشة. لم يكن خاسار قد عاد. كان ضائعاً ووحيداً وكل رجاله يحتضرون.

أمــسكت أيــد ببعض أجزاء درعه، ولخوفه الشديد، شعر ساموكا بأنه بدأ ينـــزلق عن جواده. قتل رجلاً آخر بضربة قوية، لكن ذراعه توقفت عن الحركة بعــد ذلــك، وسقط السيف من يده. ترنح جواده من جروح غير مرئية، وكان الــرجال حوله قريبين جداً لدرجة أنه استطاع رؤية اللون الأحمر داخل حناجرهم

فـيما كانوا يصرخون. انـزلق ساموكا نحو الحشد، وكان لا يزال يترنح. اختفت شمـس المغيب عندما سقط عند أقدام رجال أخذوا يضربونه ويطعنونه. كان الألم أسـوأ ممـا كان يخشى. قال لنفسه إنه فعل كل ما يستطيع، لكن بالرغم من ذلك كان الموت صعباً، ونجح أفراد حامية أطرار في الخروج منها.

الفصل الخامس عشر

بالـــرغم مـــن ارتفـــاع أصـــوات حوافر الجياد التي تجري بسرعة، استطاع تسوبودي سماع هسهسة الريش في أذنه عندما شد قوسه. نهض عن السرج، وركّز بصره على القائمتين الأماميتين لفيل كان قادماً نحوه مثل جلمود مندفع. على كلا جانبيه، حذا رجاله حذوه وعندما أطلق سهمه، اندفعت موجة سوداء من السهام. لم يكن ينبغي لأحد من المحاربين التفكير في أفعاله. كانوا قد تدربوا على ذلك منذ كانوا يلعبون مع الأغنام، وتعلموا ركوب الجياد وهم بعمر عامين أو ثلاثة. قبل أن تـــصيب السهام الأولى هدفها، كانت لديهم سهام أخرى مشدودة على الأقواس. تضخمت عضلات أكتافهم اليمنى عندما شدّوها مجدداً.

صـــرخت الفيلة، وتراجعت ألماً، ولوّحت برؤوسها من جانب إلى آخر. رأى تـــسوبودي ســـهاماً تصيب قوائمها الرمادية الضخمة، فيما كانت تندفع بأقصى ســـرعتها ممـــا أفسد إيقاع الهجوم. تعثرت نصف الحيوانات الضخمة بعد إصابة قـــوائمها. رفعت أخرى خراطيمها، وأظهرت أنياباً صفراء بتحدٍّ غاضب. بالرغم مـــن كل ذلك، ازدادت سرعتها، لكن الموجة الثانية من السهام انطلقت، واهتزت الفيلة من تأثيرها. كانت السهام تضرب قوائمها، وتجعلها تتلوى ألماً من جراحها.

مـــدّ تـــسوبودي يده تلقائياً ليمسك بسهم آخر، لكن أصابعه لم تطبق على شـــيء في الكنانة الخالية. كان قد وصل إلى فرسان الشاه آنذاك، وألقى بقوسه في حقيبـــته الجلديـــة القاســـية علـــى سرجه، ورفع سيفه فوق كتفه اليمنى، مستعداً للـــنزال.

أطلـــق الرجال حوله آخر سهامهم على الصفوف التي تقترب منهم، ووقف تـــسوبودي في ركابه عندما شاهد أقرب الفيلة تقف على قوائمها الخلفية، تصرخ

ألماً. صاح سائسها، وضربوها بقسوة بينما كانت تدور في مكانها. بدا أن معدل خفقان قلبه يتناقص عندما رأى أحدهم يسقط عن ظهرها إلى الأرض بقوة كبيرة. استدارت الفيلة ألماً مبتعدة عن صف المحاربين الذين يندفعون بجيادهم بسرعة نحوها، وداست جياداً ورجالاً.

صرخ تسوبودي فرحاً فيما كانت الحيوانات الضخمة تتراجع على غير هدى نحو صفوف الشاه. شقت طريقها عبر الجنود المندفعين كما لو أنها تتقدم عبر أعشاب كثيفة، واستعملت أنيابها لتقذف بعيداً رجالاً بالغين. لم يكن هناك شيء يستطيع إيقاف جنونها. في لحظات فقط، واجه تسوبودي صفوفاً أمامية مبعثرة، أُصيب أفرادها بالذهول، وتعرضوا لإصابات نتيجة مرور تلك الحيوانات بينهم. عاد بعض الأعداء إلى رشدهم بسرعة كافية جعلتهم يطلقون سهاماً من أقواسهم. سقط محاربون وجياد مغولية، لكن آخرين أظهروا أسنانهم وتقدموا إلى الأمام. في اللحظات الأخيرة قبل اشتباك القوتين، اختار تسوبودي الرجل الذي سيقاتله، وقاد فرسه بركبتيه فقط.

اكتسح المحاربون المغول الصف الأول بفوضى عارمة. بتر تسوبودي رأس أحد الجنود، ثم كاد يقع عن سرجه عندما وجّه إليه جندي آخر ضربة وانحنى ليتفاداها. عندما استقام تسوبودي على سرجه، مد يده التي تحمل سيفه إلى الأمام، والتوت كتفه من تأثير ذلك على درعه. أبقاه موقعه ووزنه في السرج عندما سقط من يواجهه، ووجد تسوبودي نفسه على إحدى الطرقات المغطاة بالدماء التي كانت الفيلة قد خلّفتها خلفها. رآها تنطلق مبتعدة، متألمة وغافلة عن الدمار الذي خلّفته في أعقابها. شكر تسوبودي بصمت الحيوانات المتوحشة فيما كان ينظر حوله بحثاً عن عدو آخر.

أُصيبت صفوف الشاه بالصدمة من ثورة الفيلة لدرجة أنها توقفت عن الحركة. تبعثر الرماة، وماتوا وهم يصرخون خوفاً بعد أن هاجمهم المغول بقوة، والذين أثخنوا الصفوف بالجراح من دون أن يصدر عنهم صوت فيما كانوا يضربون بالرماح والسيوف. تحطمت السيوف الجيدة على الدروع، لكن أذرع المغول كانت ترتفع وتنخفض من دون توقف، وعندما كانت الدرع توقف ضربة ما، كانوا يوجهون أخرى إلى مكان أعلى أو أسفل، ويقطعون أقداماً وأعناقاً. كانوا أسرع من أولئك

الـــذين واجهـــوهم. اشتبك تسوبودي مع محارب ضخم ملتح، يقاتل بنشاط منقطع النظير. استطاع تسوبودي شم رائحة عرق الرجل، فدفعه للإخلال بتوازنه. في اللحظة الـــتي ســـبقت ذلك، رأى تسوبودي أن حامل السيف المقوّس قد فقد انتباهه، فضرب بـــسيفه وقطـــع ثلاثة أصابع جعلت السلاح يسقط بعيداً. كان رجال الشاه ضخاماً وتـــساءل تسوبودي إن كان قد تم اختيارهم لقوتهم وليس لمهارتهم. انهمرت ضرباتهم علـــى محاربيه، لكن مراراً وتكراراً، كان المغول يتفادونها أو يصدّونها، ويردون الضربة حيث يستطيعون ويتابعون التقدم إلى الأمام. أُصيب الكثير من جنود الشاه بجرحين أو ثلاثة، ونـــزفوا كميات كبيرة من الدماء قبل أن يقعوا أرضاً.

رأى تـــسوبودي المئات من جنود المشاة يحتشدون حول فارس يمتطي جواداً أسود. حتى من بعيد، لاحظ أنه الحيوان مطهم. كان فارسه يصدر أوامره، فانتظم رجـــال في تشكيل حوله، مشكلين طوقاً. استعد تسوبودي لهجوم مضاد، لكنهم بدلاً من ذلك رفعوا تروسهم، وبدأوا يقاتلون منسحبين إلى الصفوف الرئيسة.

لم يكن قائد المغول مضطراً إلى إصدار أوامر جديدة. كان قادة مجموعات الألف رجـــل يتصرفون من تلقاء أنفسهم، وشعر أربعة منهم بالانسحاب وتسابقوا للهجوم. كانـــت الـــسهام ستقـــضي على الجنود المتراجعين، لكن لم يكن قد بقي منها شيء وتراصت صفوف الشاه معاً بتنظيم جيد، مخلّفة وراءها أعداداً كبيرة من القتلى.

سمـــع تسوبودي أبواق استطلاع تصدح بعيداً. نظر إلى الأعلى، وشاهد فرق جنكيـــز قادمـــة. كان الخان قد دخل الميدان أخيراً، فمسح تسوبودي العرق عن عينيه، وقد غمرته سعادة كبيرة.

كـــان رجاله قد بعثروا أولئك الذين تم إرسالهم للتصدي لهم، لكن تسوبودي كـــان لا يـــزال يـــشعر بالغيظ. كان الانسحاب المنظم قد أتى أُكله، ومنعه من اكتساح الصفوف، وفصل المقدمة عن جيش الشاه الرئيس. كان ورجاله يدورون حول ساحة المعركة، وبعضهم لا يزالون يقاتلون الوحدات القليلة الباقية من المشاة المـــرهقين. تـــساءل تسوبودي عن هوية الضابط الشاب الذي كان قد حال دون الفوضـــى كاملـــة. كـــان الرجل قد جمع جنوده معاً في وطيس المعركة، وأضاف تـــسوبودي ذلك إلى المعلومات التي كان يعرفها عن العدو. كان لدى الشاه ضابط متمكن واحد على الأقل تحت قيادته، كما يبدو.

أعـادت مجمـوعات الألف رجل تنظيم تشكيلاتها في أرض مليئة بالجثث، والـدروع والأسلحة المبعثرة. ترجل بعضهم للحصول على سهام ثمينة من أجساد القتلـى، لكـن لم يكن الكثير منها بحال جيدة لاستعمالها مجدداً. شعر تسوبودي بخفقـان قلبه يستقر وجال ببصره على ساحة المعركة لتحديد المكان الذي سيتجه إلـيه. كـان جـيش الشاه قد خرج من الممرات واستطاع رؤية فرقتي جيبـي وجوشـي تمـزّقان الجزء الخلفي من الجيش إرباً. كانت الشمس قد شارفت على المغيب وظن أن جنكيز لن يكون أمامه وقت لشن هجوم قبل تلاشي الضوء.

أومـأ تسوبودي لنفسه. رأى أن آخر مشاة الشاه كانوا في الجزء الخلفي من الجناحين، يحدّقون بشراسة إلى المحاربين المغول الذين يتحركون بين الجثث. كانت معظـم الفـيلة قـد اختفت، بالرغم من أن بعضها استلقت على الأرض تركل بقـوائمها ألماً من السهام التي كانت معظمها قد جاءت من صفوف الشاه نفسها، لمـنعها مـن اجتياحهم. كان تسوبودي متعباً، ويشعر بالألم في أماكن متعددة من جسده، لكن نهاية المعركة كانت بعيدة.

صـرخ: "اجـتمعوا حولي!"، واستجاب له أولئك الذين سمعوه. فيما كانت صفوف الشاه تتراجع إلى الخلف، رأى تسوبودي مشاة جنود جدد يخرجون إليه. لم يستطع تصديق ذلك، لكن جنود الشاه كانوا مصممين على الوصول إلى أطرار، واندفعوا إلى الأمام من دون اعتبار للقوات التي تهاجمهم.

هـزّ تسوبودي رأسه. كان القادة قد أظهروا قوة تشكيلاتهم المتحركة، والتي عزّزها تصرف الضباط من تلقاء أنفسهم. بالرغم من ذلك، تابع جيش الشاه تقدمه تنفـيذاً لأمر واحد بغض النظر عمن يواجههم. ظن تسوبودي أن الشاه قاسٍ مثل جنكيز نفسه بالطريقة التي كان يضحي بها برجاله.

فيما كان رجال جيلم ينتظمون في أرتال حوله، رأى تسوبودي وجوهاً مخيفة في جـيش الـشاه تستدير نحوه. كانوا يعرفون ما سيقدم عليه، حتى قبل أن يتخذ القرار. شاهدهم يشدّون أقواسهم ويستعدون.

مد تسوبودي يده إلى بوق المستطلع المعلّق بعنقه، فقط ليجده قطعتين، محطماً من ضربة لم يستطع أن يتذكرها. أطلق لعنة بصوت خافت، غافلاً عن الابتسامات التي انتزعتها كلماته من أولئك القريبين منه.

صـــرخ: "معـــي". إلى يـــساره، دفع رجال جيلم أعقابهم بأرداف مطياهم وانطلقوا.

كان جنكيز قد اندفع بسرعة كبيرة عشرين ميلاً ليكون في ذلك المكان، وامتطى محاربـــوه مطيات نشيطة عندما أصبحت ساحة المعركة في مرمى البصر. رأى أن الشاه قد خرج من بين التلال، لكن لم يكن هناك مفر له. نظر على طول الخطوط إلى حيث كان ابنه تشاغاتاي يقود جواده بسرعة ثم إلى خاسار. كان خمسون ألف رجل يندفعون خلفه، مـــع صـــف طويل من الجياد الإضافية التي تجري خلفهم. بالرغم من ذلك، واجهـــوا عدواً ينتشر إلى حيث لا يمكن رؤيته. كانت رايات تسوبوداي بالكاد تظهر إلى يساره، وهو يهاجم الجناحين. خلف جيش الشاه، كانت سحب غبار ترتفع عالياً. ظـــن جنكيـــز أن ساموكا وهوسا سيكونان قد لقيا حتفهما بحلول ذلك الوقت، لكن أطـــرار كانت بعيدة ولن تستطيع حاميتها الوصول إلى ساحة المعركة هذا اليوم. كان قـــد فعل كل ما في وسعه، لكن تلك كانت المحاولة الأخيرة. كان قد وصل إلى هناك و لم تكن لديه خطة أخرى سوى ضرب جيش الشاه وتطويقه من طرفيه.

أصدر جنكيز أمراً بصوت حادّ إلى حامل أعلام، وسمع رفرفة عندما ارتفعت رايـــة ذهبـــية. بالتـــزامن مع ذلك، طقطقت آلاف الأقواس. حاول جيش الشاه استجماع قواه، وحثّهم ضباطهم على المضي قدماً. لم يكن أحد يرغب في مواجهة هـــؤلاء المحاربين المتجهّمين مجدداً، لكن لم يكن هناك مكان يلجأون إليه. صرخوا بتحدٍّ عندما نـــزلت الراية الذهبية وأصبح الجو مظلماً.

شـــنت صـــفوف المغول هجومها وهي تقود جيادها بأقصى سرعتها، تجأر، وحـــركتها خطيرة مثل الأسلحة التي تحملها. كانت صفوف المغول الواسعة تدور حـــول مقدمـــة جـــيش الشاه، تتسابق على طول الجناحين، وتشن هجمات على الجـــنود. كـــان الضوء رمادياً عندما اشتبك الجيشان، وقد غاصت الشمس خلف الأفق في الغرب. كان الجو صافياً ورمى المغول بأنفسهم على حشد عدوهم.

صـــرخ الـــشاه علاء الدين محمد مذهولاً عندما اخترق أحد صفوف المغول الجـــيش وصولاً إليه. قضى عليهم حرسه من الفرسان حتى آخر رجل، لكنه كان

محاطاً من كل الجهات ونصف جيشه لا يستطيع استعمال أسلحته. كان الشاه على وشــك أن يفــزع عندما نظر في كل اتجاه. كان الظلام سيحل قريباً وبالرغم من ذلــك تابع المغول القتال مثل المجانين. لم يكن يصدر عنهم أي صوت، حتى عندما يفارقون الحياة. لم يكن بمقدور الشاه سوى أن يهز رأسه من مثل ذلك العرض. ألا يــشعرون بــالألم؟ كــان ابنه جلال الدين يظن أنهم أشبه بحيوانات خرساء منهم برجال وربما كان على حق.

تابــع جيش الشاه تحركه، يترنح فيما كان أفراده يكافحون رغبة الهرب من هذا العدو. رأى علاء الدين أرتالاً ترتدي دروعاً لامعة من رجاله يتم القضاء عليها على الجانبين وقعقعة المغول في الجزء الخلفي تدفعهم دائماً للتقدم إلى الأمام.

لقــي المزيد والمزيد من محاربــي الخان حتفهم في أثناء محاولتهم شق طريقهم بالقوة إلى الوسط. حافظ رجال الشاه على تشكيلاتهم وقضوا عليهم عندما جاؤوا يمتطون جــياداً تجــري بسرعة. لم يستطيعوا مجاراة سرعة المغول، لكن تروسهم أوقفــت الكــثير من السهام، ولقي العديد من أولئك الذين وصلوا إليهم حتفهم بضربات السيوف والرماح، وتم ردّ آخرين على أعقابهم أكثر من مرة. مع تلاشي الضوء، تهلل علاء الدين لسقوط قتلى من العدو بعد أن داس فيله عليهم.

حل الظلام ولبعض الوقت كانت الأرض قطعة من جهنم. كان هناك رجال يصرخون في أثناء قتالهم في حشد متدافع من الظلال والسيوف. بدا أن جيش الشاه مطــوّق بالمدمعين، وبقي صوت الحوافر في آذانهم. قاتل الجنود ببسالة فيما كانوا يتقدمون إلى الأمام، خائفين من أن يكون صوت الخيّالة قادماً نحوهم مباشرة. فوق رؤوسهم، كانت النجوم ساطعة وبرّاقة عندما ارتفع الهلال ببطء.

ظن الشاه أن خان المغول قد يتابع القتال حتى الفجر، وتضرّع باستمرار فيما كان يصدر أوامره، على أمل أن ينجو خلال الليل. مرة أخرى، كان على حراسه أن يصدّوا رتلاً شارداً من المحاربين الذين اندفعوا نحوهم، وقتلوا ثمانين أو نحو ذلك من الرجال وأبعدوا الباقين ليتكفل بهم آخرون. كان أبناء شيوخ العشائر يتسلّون، كمــا رأى علاء الدين. كانت أسنانهم تظهر عندما يقلدون ضربات جيدة قام بها أصــدقاؤهم. كــان الجيش حولهم يتعرض لضربات شديدة، لكن مثل هؤلاء لن يأخذوا في الحسبان مثل تلك الخسائر. إنّ الله (عزّ وجل) يعطي ويمنع كما يشاء.

كـــان علاء الدين يعرف أن الفجر سيكشف عن أشلاء دموية للجيش الذي يقوده. كانت فكرة أن عدوه يعاني بالقدر نفسه وحدها قد أبقته متماسكاً.

لم يلاحــظ أن الضوضاء تخف في البداية. شعر كما لو أنه عاش مع وقع الحوافر مـــن كل الاتجاهات طيلة حياته. عندما بدأ الصوت يتلاشى، كان لا يزال ينادي أبناءه إليه، لتقديم تقاريرهم. تابع الجيش تقدمه وسيصلون بالتأكيد إلى أطرار قبل الفجر.

أخيراً، صرخ أحد ضباط الشاه أن الخان قد انسحب. حمد الشاه الله (عزّ وجل) لـــنجاته. كان يعرف أن الخيّالة لا يستطيعون شن هجوم في الليل. مع اختفاء كل ضـــوء تقريباً من القمر، لم يكونوا يستطيعون تنسيق هجماتهم من دون الاصطدام ببعـــضهم بعضاً. أصغى إلى الأنباء مع مجيء مستطلعيه إليه، وتقديرهم للمسافة التي تفصلهم عن أطرار، وشرحهم لكل تفصيل كانوا قد رأوه عن موقع الخان.

اســـتعد علاء الدين لإقامة معسكر. كان الفجر سيضع حداً لذلك، وقد ترك المغـــول اللعيــــنون سهامهم في جثث رجاله. عندما تصبح أطرار في مرمى البصر، سيوســـع صفوفه ويجعل المزيد من السيوف تتصدى لهجماتهم المزعجة. في الساعة الأخيرة، كان واثقاً أنهم قد خسروا رجالاً مثلما خسر. قبل ذلك، كانوا قد أنهكوا جيشه. نظر حوله إلى الصفوف التي تتقدم إلى الأمام، متسائلاً عن عدد الذين نجوا مـــن القتال وعبروا الجبال. كان قد رأى مرة فرقة صيد تلاحق أسداً جريحاً يتحرك بـــبطء بعيداً عن رماحها. كان الحيوان قد ترك أثراً من الدماء بعرض جسده فيما كان يزحف على بطنه. لم يكن يستطيع التخلص من تلك الرؤية عن جيشه في مثل تلك الحالة، وبقع الدم الحمراء تلمع خلفهم. أصدر الأمر بالتوقف أخيراً، واستطاع سمـــاع تنهدات جماعية لآلاف من رجاله الذين سمح لهم بالاستراحة. أراد الشاه أن يتـــرجل عن فيله، لكن فيما كان يوشك على فعل ذلك، شاهد مشاعل توقد إلى الـــشرق. كان يعرف أنوار نيران الجيش جيداً، وبقي على ظهر فيله فيما كان يتم إشـــعال المـــزيد منها حتى بدت مثل نجوم بعيدة. كان عدوه هناك، يرتاح وينتظر بزوغ الفجر.

حـــول عـــلاء الدين، بدأ رجاله يشعلون نيراناً من الحطب، وروث الجمال المجفـــف. كـــان الصباح سيشهد نهاية ذلك. سمع الشاه أصواتاً ترفع الأذان، وأومأ بجدّية لنفسه. إنّ الله (عزّ وجل) معهم وخان المغول ينـــزف.

مــع ارتفاع القمر في السماء الحالكة، جمع جنكيز قادته حول النار. لم يكن مزاجهم جيّداً فيما كانوا ينتظرون منه أن يتكلم. كانت فرقهم قد قضت على كثير مـــن رجـــال الشاه، لكن خسائرهم كانت كبيرة. في الساعة الأخيرة قبل حلول الظـــلام، لقي أربعة آلاف محارب متمرس بالقتال حتفهم. كانوا قد شقوا طريقهم تقـــريباً إلى الـــشاه نفسه، لكن السيوف بأيدي مقاتلي الشاه كانت قد اجتمعت للتصدي لهم وردّهم على أعقابهم.

كـــان جيبـــي وجوشي قد جاءا إلى المعسكر معاً، وحيّاهما كشيون وخاسار فـــيما اكتفـــى جنكيـــز بإلقاء نظرة عليهما فقط. نهض تسوبودي وجيلم لتهنئة الشابين، بعد سماعهما قصة الرحلة الطويلة التي انتشرت عبر المعسكر.

كان تشاغاتاي أيضاً قد سمع الخبر وبقي تعبير وجهه صارماً عندما شاهد جيلم يربت على ظهر شقيقه الأكبر. لم يكن يفهم سبب سعادتهم الكبيرة. كان قد قاتل هو الآخر، وامتثل لأوامر والده بدلاً من الاختفاء طيلة أيام. كان على الأقل حيث يحـــتاج جنكيز إليه. كان تشاغاتاي يأمل برؤية جيبـــي وجوشي يتعرضان للإذلال لغيابهما، لكن حتى هجومهما المتأخر على الجزء الخلفي من جيش الشاه كان بمثابة عمل عبقري. مصّ أسنانه الأمامية، ونظر إلى والده.

جلـــس جنكيـــز يضع ساقاً فوق أخرى، مع قربة من الشراب على وركه، ووعـــاء من قطع الجبن في حجره. كان ظاهر يده اليسرى ملطخاً بالدماء وقصبة ســـاقه اليمنى مصابة بجرح بسيط، لكنه يـــنـــزف. فيما كان تشاغاتاي يشيح بوجهه بعيداً عن المديح السخيف الذي يتلقاه شقيقه، مسح جنكيز الوعاء بإصبعه، ومضغ آخر ما فيه. أطبق الصمت عندما وضع الوعاء جانباً، وجلس ساكناً بلا حراك.

أخـــيراً، قال جنكيز: "لا بد من أن ساموكا وهوسا قد لقيا حتفهما الآن. لا يمكن أن تكون حامية أطرار بعيدة ولا أعرف عدد الذين نجوا من النيران والسهام".

قـــال كـــشيون: "لن يتوقفوا في الظلام. ربما سيجعلون جيادهم تسير ببطء، لكـــنهم بالرغم من ذلك سيصلون إلى الشاه قبل بزوغ الفجر". فيما كان يتكلم، حدّق كشيون في الظلام إلى حيث كانوا يتوقعون ظهور الحامية. على مسافة أبعد، كـــان يرى نيران معسكر الشاه، وبالرغم من سقوط الكثير من القتلى، إلا أن عدد المـــشاعل كـــان بالمئات، على بعد أميال فقط. لا شك في أن المستطلعين كانوا في

طريقهم آنذاك إلى حامية أطرار، وسيطلبون منها الانضمام إلى المعركة. كان الظلام سيخفيهم تماماً عن العيون.

قــال جنكيز: "لديّ مستطلعون يدورون حولنا. إذا هاجمونا الليلة، لن تكون هناك مفاجأة".

قــال خاســار: "من يقاتل في الليل؟". كانت أفكاره مع ساموكا وهوسا، وبالكاد رفع بصره عن لحم الماعز المقدّد الذي كان يدفعه بين شفتيه.

في ضوء المشاعل، ألقى جنكيز نظرة باردة على شقيقه.

قال: "نحن".

ابـتلع خاسار اللحم بأسرع مما كان ينوي، لكن جنكيز تابع قبل أن يتمكّن من الردّ.

"أيّ خيار لدينا؟ نعرف أين هم وقد نفدت كل السهام بأي حال. إذا هاجمنا من كل الجهات، فلن نصطدم ببعضنا بعضاً".

تنحنح خاسار، وتكلم بصوت أجش. "ضوء القمر ضعيف الليلة يا شقيقي. كيف يمكننا رؤية الرايات أو معرفة ما يجري في المعركة؟".

رفع جنكيز رأسه. "ستعرف عندما نقضي عليهم، أو عندما تلقى حتفك. إنه الخيار الوحيد المتبقي لنا. هل تريد مني الانتظار حتى تنضم حامية مؤلفة من عشرين ألف رجل إليهم عند الفجر؛ رجال نشيطون لم يكونوا قد قاتلوا كما فعلنا نحن؟".

في ضــوء الــنار، نظر حوله إلى قادته. كان العديد منهم يتحركون بتثاقل وذراع جيلم اليمنى ملفوفة بقطعة قماش مشبعة بالدم، ولا تزال رطبة.

تمتم خاسار: "إذا كنت أعرف ساموكا، فلن يكون هناك نصف هذا العدد"، لكن جنكيز لم يردّ.

تنحنح تسوبودي، واستدارت عينا جنكيز نحو القائد الشاب.

"يا مولاي الخان، قامت أرتال الهجوم بمهمتها على أكمل وجه عندما كانت لديــنا ســهام. في الليل، سيتصدى لكل هجوم رجال يحملون تروساً ويشكلون صفوفاً متراصة. يمكن أن نخسرهم جميعاً".

تأفــف جنكيــز، لكــن تسوبودي تابع، وكان صوته الهادئ يجعل الآخرين يسترخون.

"يمكـــن لـــرتل واحـــد أن يشقّ طريقه بينهم، كما رأينا ذلك اليوم. إنهم لا يهـــربون منا، هؤلاء الجنود، ليس من السهل النيل منهم. كل خطوة تجلب المزيد والمزيد من الرجال نحو الهجوم حتى يتم التغلب عليه".

قـــال جنكيز بحدّة: "هل لديك بديل؟". بالرغم من أن صوته كان قاسياً، إلا أنه كان يصغي. كان يعرف ذكاء تسوبودي الحادّ ويحترمه.

"ينبغـــي لنا أن نربكهم يا مولاي. يمكننا تحقيق ذلك بشن هجوم ثانٍ زائف، يدور حولهم. سيرسلون رجالاً للتصدي له، وستتفادى مواجهتهم".

هزّ جنكيز رأسه، وأمعن التفكير في الأمر. ضغط تسوبودي عليه.

"ماذا إن جعلنا عدداً صغيراً من الرجال يدفعون بجياد على طول ميسرة الشاه يـــا مولاي؟ يمكنهم اصطحاب كل المطيات الإضافية وإثارة ضوضاء عالية. عندما يرسل الشاه جنوده إلى هناك، نهاجم الميمنة بكل ما نملك. ربما يشكل ذلك فرقاً".

انتظـــر فـــيما كان جنكيز يفكر في الأمر، من دون أن يدرك أنه كان يلتقط أنفاسه.

شـــرع بالقـــول: "إنها خطة جيدة". تسمّر كل الرجل حول النار في مكانهم عندما سمعوا بوق مستطلع يصدح في الليل. رداً على ذلك، انطلقت صرخات من بعيد، واتجهت نحوهم. فيما كانوا يتكلمون ويأكلون، كان الشاه قد هاجم نيرانهم.

كرجل واحد، قفز القادة على أقدامهم، متلهفين للعودة إلى رجالهم.

قال خاسار وهو يغادر: "هذه خطة أبسط يا تسوبودي".

عـــبس تسوبودي من نبرة خاسار المتغطرسة. كان قد خطط آنذاك لمثل ذلك الهجوم، وكان المحاربون مستعدين.

الفصل السادس عشر

فـيما كـان يدفع جواده للجري خبباً في الظلام، حدّق جلال الدين إلى النيران أمامـه. كان الرجال الذين يقفون على جيادهم مرهقين، لكنه كان قد أقنع والده بشن هجـوم واسع النطاق، وكان يعرف أن أفضل فرصة لهم تكمن في مهاجمة المغول وهم نـيام. اشتعل غضباً من فكرة أن حراس والده الأشداء لم يشاركوا بفاعلية في المعركة بعـد. كان الشاه قد رفض مطالبه بجعلهم يرافقونه، في الوقت الذي كان بأمس الحاجة إلـيهم. شـتم جلال الدين والده وخليفة أيضاً على خسارة الفرسان، ثم سيطر على غضبه ليركز على ما سيفعله. هجوم كاسح واحد فقط على معسكر العدو ربما يكون كافـياً لـسحقهم أخيراً. كان القمر متوارياً خلف السحب، وقاد جلال الدين جواده ببطء فوق أرض صعبة التضاريس، ينتظر الفوضى التي ستندلع بعد قليل.

نفـخ مستطلعو العدو بأبواقهم تحذيراً قبل أن يتم القضاء عليهم. شهر جلال الدين سيفه وخاطر بعنقه عندما دفع جواده للجري بسرعة أكبر. تأخر عنه الرجال الذين كانوا إلى جانبه فيما كان يوجه مطيته نحو نيران المغول.

لم يكـن الخان قد أقام سوى معسكر بسيط بعد أيام من القتال. رأى جلال الـدين أن علـى يساره عدداً كبيراً من الأضواء، والتي تشير إلى وجود الكثير من الـرجال. كان الليل بارداً وربما يكونون متجمعين حول ألسنة اللهب. إلى اليمين، كانت نيران الليل تمتد على مسافة أكثر اتساعاً، وتتضاءل إلى بضع نقاط فقط من الـضوء على الطرف البعيد. كان ذلك هو المكان الذي قاد رجاله إليه، يتسابقون للثأر من الهزيمة النكراء التي عانوا منها.

سمع المغول ينهضون للتصدي للهجوم، ويصرخون غضباً. صاح جلال الدين متحدياً إياهم في الظلام، وقلّده رجاله. اقتربوا من النيران وفجأة كان هناك رجال

في كـــل مكان والتقت القوتان. كان لدى جلال الدين وقت ليصرخ مندهشاً قبل أن يتم القضاء على جواده ويسقط عنه.

انتظـــر تـــسوبودي، مع جوشي، وجيبـــي، وتشاغاتي. كانت فكرته إشعال نـــيران لجذب عدو طائش. حيث كانت الأضواء كثيفة، لم يكن لديه سوى بضعة رجـــال يتولون العناية بها. في الظلام هناك، احتشد محاربون متمرسون بالقتال مع جـــيادهم بعـــيداً عن النار. لم يكونوا يهتمون لبرد الليل. بالنسبة إلى أولئك الذين كانـــوا قد ولدوا في سهول الديار المتجمدة، لم يكن ذلك شيئاً يزعجهم. بصرخة عالية، هاجموا الصفوف القادمة نحوهم.

عـــندما التقت القوتان، وجد المهاجمون أنفسهم محاصرين، يتلقون ضربات على أرجلـــهم مـــن قبل رجال كانوا قد قاتلوا وتدربوا على ذلك أعواماً. لم تتعب أذرعهم اليمنى عندما اندفعوا عبر صفوف العدو وصدّوا هجومه. أصدر تسوبودي أوامره بالتقدم، وهرولت جيادهم إلى الأمام، جنباً إلى جنب، وداست بحرص على رجال يحتضرون.

ارتفـــع القمر فوقهم، لكنهم كانوا قد صدّوا الهجوم بسرعة، وردّوا المهاجمين على أعقابهم إلى معسكرهم الرئيس. فيما كانوا يهربون، نظروا من فوق أكتافهم، خـــائفين من قيام المغول بسحقهم بجيادهم. لم ينجُ سوى نصفهم، وبالرغم من أن جـــلال الـــدين كان بينهم، إلا أنه شعر بالإذلال وهو يمشي سيراً على قدميه. جرّ نفـــسه عائـــداً إلى والده، وكان لا يزال مذهولاً من الفوضى والخوف. من بعيد، أجهز المغول على الجرحى، وانتظروا بصبر بزوغ الفجر.

مـــشى الـــشاه علاء الدين في خيمته، يحدّق إلى ابنه البكر كلما استدار إليه. وقف جلال الدين بعصبية، قلقاً من غضب والده.

صـــرخ الشاه فجأة: "كيف عرفوا أنك ستهاجمهم؟ ليس هناك جواسيس في صفوفنا، ليس هنا. هذا مستحيل".

مع شعوره بالندم لفشله، لم يجرؤ جلال الدين على الردّ. سراً، كان يظن أن المغـــول اســـتعدوا لاحتمال شن مثل ذلك الهجوم، من دون معرفة سابقة، لكن لم يكن في وسعه كيل المديح لهم فيما والده يستشيط غضباً.

سأل الشاه: "هل فهمت الآن لماذا لم أرسل بحرسي الشخصي معك؟".

ابتلع جلال الدين ريقه بصعوبة. لو أنه هاجم مع خمسة آلاف فارس، لما كان ذلك الكمين نجح بتلك السهولة أو الإتقان. بجهد منه، كتم رداً متسرعاً.

قـــال: "أنـــت حكيم يا والدي. غداً، سيقودون الهجوم ضد العدو". تراجع خطـــوة إلى الـــوراء عندما استدار والده إليه ووقف قريباً للغاية منه حتى مسّ شعر لحيته وجه ابنه.

قـــال الـــشاه غاضباً: "غداً، أنت وأنا سنلقى حتفنا. عندما يرى الخان عدد الرجال الذين بقوا معي، سيهاجمنا ويضع حداً لكل هذا".

شـــعر جلال الدين بالراحة عندما سمع نحنحة عند مدخل الخيمة. كان خادم والده الشخصي، عباس، يقف في ضوء المشعل، وعيناه تنتقلان من الأب إلى الابن وتحكـــم علـــى ما يدور بينهما. أشار جلال الدين بنفاد صبر إلى الرجل أن يغادر، لكن عباس تجاهله، دخل، وانحنى للشاه. رأى جلال الدين أنه يحمل حزمة من الرّقّ ومحبرة وتردّد قبل أن يأمر الرجل بالمغادرة.

مـــسّ عباس جبينه، شفتيه وقلبه احتراماً للشاه قبل أن يضع موادّ الكتابة على طاولـــة جانبية صغيرة. أومأ والد جلال الدين برأسه، وكان غضبه لا يزال واضحاً على فكه المشدود وجلده المتورد.

قال جلال الدين أخيراً: "ما هذا؟".

"هـــذا ثـــأر للموتـــى يا جلال الدين. عندما أضع اسمي عليه، سيكون أمراً للحشّاشين بتخليص أرضي من هذا الخان".

شـــعر ابنه بأن حملاً قد أُزيح عن كاهله، بالرغم من أنه سيطر على ارتعاش جـــسده. كان لتلك الفئة المتعصبة سمعة مرعبة، لكن والده كان حكيماً لإشراكهم في الأمر.

قال بلطف: "كم سترسل إليهم؟".

انحنى والده فوق الرّقّ السميك و لم يردّ في البداية فيما كان يقرأ الكلمات التي كان عباس قد أعدّها.

"لـــيس لدي وقت للتفاوض. لقد عرضت عليهم مئة ألف قطعة ذهبية، يتم دفعها من خزائني. لن يرفضوا مثل ذلك المبلغ، حتى مقابل رأس الخان".

شعر جلال الدين بأن يديه تصبحان خدرتين من التفكير في مثل تلك الكمية من الذهب. كان ذلك كافياً لبناء قصر فخم أو الشروع بتشييد مدينة. بالرغم من ذلك، لم يتكلم. كانت فرصته لدحر المغول قد ضاعت في الليل.

حالما وقّع الشاه الوثيقة بعرض الذهب، لف عباس الصحائف السميكة، ولفّها بشريط من الجلد، وربط العقدة بخبرة. انحنى كثيراً للشاه قبل أن يترك الرجلين وحدهما.

قال جلال الدين حالما غادر: "هل يمكن الوثوق به؟".

رد الشاه بنزق: "أكثر من أبنائي، كما يبدو. يعرف عباس عائلة أحد الحشّاشين. سيوصلها بسلام إليهم وبعدها لن ينقذ شيء هذا الخان الكلب الذي أراق دماء الكثير من أبناء شعبي".

سأل جلال الدين، وكان لا يزال يفكر في الثروة الكبيرة التي عرض والده التخلي عنها خلال لحظة: "إذا مات الخان غداً، فهل سنستعيد الذهب؟". شعر بالشاه يمشي نحوه وأدار رأسه مبعداً ناظريه عن مدخل الخيمة.

"إن لم يقبضه الله (عزّ وجل) لصفاقته، لن يموت غداً يا جلال الدين. ألم تفهم حتى الآن؟ ألم ترَ ذلك عندما كنت عائداً إلى خيمتي؟". كان يتحدث مشدّداً على كلماته بشكل لم يكن جلال الدين يفهمه، وتأتأ الشاب فيما كان يحاول أن يرد.

"أرى... ماذا؟ أنا...".

قال الشاه بحدة: "لقد انتهى جيشي. مع الرجال الذين خسرتهم الليلة، لم يعد لدينا ما يكفي لإيقاف أحد قادته اللعينين في الصباح. لقد قتلوا منا الكثيرين وأصبح عددنا أقل من ثلاثين ألف رجل وحتى إذا ظهرت حامية أطراز في هذه اللحظة، فقد خسرنا. هل تفهم الآن؟".

شعر جلال الدين بمعدته تعتصره ألماً عندما سمع كلمات والده. كانوا قد قاتلوا طيلة أيام وكان الصراع رهيباً، لكن ساحة المعركة كانت مترامية الأطراف ولم يكن يعرف حجم الخسائر.

قال أخيراً: "الكثير من القتلى؟ كيف حدث ذلك؟".

رفع والده يده، وللحظة ظنّ جلال الدين أنه سيصفعه. بدلاً من ذلك، استدار الشاه لينتقي مجموعة أخرى من التقارير.

ســأل: "هل تريد عدّهم مجدداً؟ لقد تركنا قافلة من الجثث تمتد مئة ميل ولا يزال المغول أقوياء".

زمّ جلال الدين شفتيه، وقد اتخذ قراراً.

"إذاً، امــنحني القــيادة غداً. خذ حرسك الملكي، وعد أدراجك إلى بخارى وسمرقند. عد في الربيع مع جيش جديد وثأر لي".

للحظـة، تلاشــى غـضب الشاه العارم. رقّت عيناه عندما حدّق إلى ابنه البكر.

"لم أشك أبداً في شجاعتك يا جلال الدين".

مــدّ يــده، وأمسك بعنق ابنه، وشدّه ليعانقه لفترة وجيزة. عندما ابتعدا عن بعضهما، تنهد علاء الدين.

"لكــنني لن أخاطر بحياتك. ستأتي معي، وسنجلب العام القادم جيشاً أكبر بأربــع مرات، ونقتلع هؤلاء الغزاة الكفرة من الأرض. سأسلّح كل رجل يمكنه حمــل ســيف، وسنصب ناراً على رؤوسهم انتقاماً منهم. سيكون الحشّاشون قــد قــتلوا خــانهم بحلول ذلك الوقت. مقابل كل ذلك الذهب، سيتحركون بسرعة".

أحــنى جــلال الدين رأسه. في الظلام خارج الخيمة، استطاع سماع ضوضاء المعسكر، وتأوه الجرحى.

"إذاً، سنغادر الليلة؟".

ربما كان الشاه قد شعر بإهانة من ذلك، لكن لم يبدُ عليه شيء.

"اجمــع أشــقاءك. سلّم القيادة إلى أرفع ضابط لا يزال على قيد الحياة. قل لــه...". توقــف برهة، وعيناه شاردتان: "قل له إن حياة رجالنا ينبغي ألا تكون رخيــصة إذا أرادوا دخــول الجــنة. سيصابون بالذعر عندما يكتشفون أنني قد غادرت، لكن ينبغي لهم أن يصمدوا".

رد جــلال الــدين، وهو يفكر آنذاك في الإمدادات التي ينبغي له أن يأخذها معه: "سيلاحقنا المغول يا أبتِ". كان عليه الذهاب لجمع حرس والده من الفرسان بأسرع ما يمكن، من دون أن ينتبه أولئك الذين سيتركهم خلفه.

لوّح الشاه بيده غاضباً.

"سنذهب غرباً، بعيداً عنهم، ثم نتجه شمالاً وشرقاً عندما نبتعد عن أطرار. الأرض واسعة يا بني. لن يعرفوا حتى أننا غادرنا حتى الغد. اجمع ما نحتاج إليه وعد إلى هنا عندما تصبح مستعداً".

قال جلال الدين: "وأطرار؟".

قال الشاه بحدّة: "أطرار سقطت! لقد جعل قريبنا إنالشوك كارثته تحلّ بنا، وإذا استطعت قتل ذلك الأحمق بنفسي، فسأفعل".

مس جلال الدين جبينه، شفتيه، وقلبه ورأسه منحن. كان حلمه بقيادة جيش منتصر قد تحطم، لكنه كان ابن والده وستكون هناك جيوش أخرى وأيام أخرى. بالرغم من الإذلال والرعب اللذين شعر بهما في المعارك ضد المغول، إلا أنه لم يفكر أبداً في حياة الرجال الذين قضوا نحبهم من أجل والده. كانوا رجال الشاه، وسيموت أي منهم ليحميه. ينبغي لهم ذلك، كما فكّر جلال الدين.

عمل بسرعة فيما كان القمر يمر فوق الرؤوس. لم يكن هناك وقت طويل لبزوغ الفجر، وينبغي له أن يكون بعيداً تماماً عن ساحة المعركة ومستطلعي المغول عندما ينبثق.

وقف جنكيز ينتظر في ضوء القمر، وصفوف داكنة من الرجال خلفه. كان خاسار معه، لكن لم يتكلم أي من الرجلين فيما كانا يقفان مستعدين. كان المستطلعون قد حذّروهما أن حامية أطرار قادمة. بالرغم من ذلك، لم يكن لديهم وقت كاف لصدّ الهجوم الليلي على معسكرهم. خلفه، كان جنكيز قد أصدر أمراً لتسوبوديّ، أكثر قادته كفاءة. لم يكن يتوقع أن يحظى بأي قسط من النوم قبل الصباح، لكن ذلك كان أمراً معتاداً للمحاربين حوله، ومع اللحم، والجبن، والشراب الأسود، سيبقون أقوياء.

أمال جنكيز رأسه نحو صوت جاء من العتمة. طقطق بلسانه لتنبيه أقرب الرجال إليه، لكنهم كانوا قد سمعوا ذلك أيضاً. شعر بوخزة أسى لموت ساموكا وهوسا، لكنها انتهت بسرعة. لولا تضحيتهما، لكان خسر كل شيء قبل يوم. أدار رأسه يساراً ويميناً، مرهفاً السمع لمزيد من الأصوات.

هـناك. شهر جنكيز سيفه، وجهّز كل أفراد الصف الأول رماحهم. لم تكن لديهم سهام. كان تسوبودي قد أمضى معظم الليل يضع آخر السهام في كنانات، لكـنهم سيحتاجون إليها عندما يبزغ الفجر. سمع جنكيز وقع جياد تتقدم نحوهم، وفرك عينيه بيده التي لا تمسك شيئاً لإبعاد التعب عنهما. أحياناً، بدا الأمر كما لو أنه كان يقاتل طيلة حياته ضد هؤلاء المجانين داكني البشرة.

مـع جيلم، كان قد اختار موقعاً يتربصهم به عند رابية صغيرة. حتى في ضوء القمـر، لم يكـن من الممكن رؤيتهم، لكن مستطلعيه كانوا يتحركون باستمرار، تركوا جيادهم وجروا في الظلام لينقلوا إليه آخر الأنباء. ظهر أحدهم على ركابه، وأحنى جنكيز رأسه لسماع الهمسات، وهمهم بدهشة وسعادة.

عندما ذهب المستطلع، دفع جنكيز جواده للاقتراب من خاسار.

"أصـبحنا نفـوقهم عدداً يا شقيقي! لا بد من أن ساموكا وهوسا قاتلا مثل نمرين".

أومأ خاسار بتجهم.

"لقـد حـان الوقت تقريباً. تعبت من الهجوم على جيشهم الجرار. هل أنت مستعد؟".

تأفف جنكيز.

"لقد كنت أنتظر بفارغ الصبر هذه الحامية يا شقيقي. بالطبع أنا مستعد".

افتـرق الـرجلان في الظلام، ثم اندفع الصف المغولي إلى الأمام فوق الرابية. أمـامهم، كانت بقايا حامية أطرار تشق طريقها جنوباً للانضمام إلى الشاه. توقف أفرادها مصدومين عندما ظهرت صفوف المغول، لكن لم يكن هناك أحد لإنقاذهم عندما انهالت الرماح عليهم.

شدّ الشاه علاء الدين لجام جواده عندما سمع صدى أصوات المعركة تتردد من التلال. في ضوء القمر، استطاع رؤية أشكال بعيدة لرجال يتقاتلون، لكن لم يكن في وسعه التأكد مما يحدث. ربما يكون المغول اللعينون قد هاجموا مجدداً.

مـع أربعمئة فارس فقط بقوا على قيد الحياة، كان وأبناؤه قد تركوا الجيش، واندفعـوا مولين الأدبار. وجه الشاه نظره إلى الشرق، ورأى أن الفجر بدأ يبزغ.

حــاول مـــلء رأسه بخطط للمستقبل، وتخديره حتى لا يشعر بالأسف. كان ذلك صــعباً. كان قد جاء لسحق الغازي وبدلاً من ذلك كان أفضل رجاله يستنفدون قــواهم. كــان المغول قتلة لا يكلون أو يملون وقد قلّ من شأنهم. وحدها فكرة انــدفاع عباس إلى معقل الحشّاشين في الجبال جعلته يشعر بالرضا. لم يفشل رجال الظــلال أبــداً مـــن قـــبل، وتمنّى فقط أن يستطيع رؤية وجه الخان عندما يشعر بسكاكينهم المتسخة تنغرز في صدره.

شعر كوكشو بالخوف في المخيم، ثقيلاً في هواء الليل الدافئ، وكان يظهر في المــصابيح المعلّقة عند كل تقاطع في متاهة الخيام. كان الأولاد والنساء خائفين من الظــلام، ويتخيلون أعداء في كل مكان حولهم. بالنسبة إلى كوكشو، كان الرعب مُــسكراً. إضــافة إلى المحاربين المشوهين، وشقيق جنكيز تيموج وياو شو، كان كوكــشو أحـــد الرجال القلائل الذين بقوا بين آلاف النساء الخائفات. كان من الــصعب علــيه إخفاء الإثارة التي يشعر بها من النظر إلى وجوههن المتقدة. رآهن يــستعددنَ بأفضل ما يستطعن للتصدي لهجوم، بملأن الملابس والدروع بأعشاب جافة قبل أن يضعنها على مطيات إضافية. كانت العديد منهن يأتين إليه كل يوم، يعرضـــن كل ما لديهن ليتضرع من أجل عودة أزواجهن سالمين. ضبط نفسه بقوة في تلك الأوقات، مرغماً إياها على تذكر أن المحاربين سيعودون ويسألون زوجاتهم عـــن الوقت الذي أمضينه لوحدهن. كانت شابات يجثين وينشدن تراتيل أمامه في خيمته، وقرابينهن المثيرة للشجن موجودة على التراب، وكان أحياناً يضع يده على شعرهن ويتورد إثارة عندما يوجههن في توسلاتهن.

كانـــت أســـوأهن شـــقيقة جنكيز، تيمولن. كانت رشيقة وطويلة الساقين، وتضاهي بنية شقيقها قوة. كانت قد جاءت ثلاث مرات لتطلب منه توفير الحماية لبارشوك، زوجها. في المرة الثالثة، كانت رائحة العرق تفوح قوية منها. بالرغم من أن أصـــواتاً خافـــتة كانت تصرخ بتحذيرات في رأسه، إلا أنه كان قد أصرّ على وضع تعويذة على جلدها، والتي ستحمي كل الذين تحبهم. شعر بأنه يصبح أقوى عـــندما يتذكر ذلك، بالرغم من هواجسه. كيف كانت قد نظرت إليه والأمل في عينـــيها. كيف صدّقته! كان خضوعها لسيطرته قد جعله يتهور. كان قد أخبرها

عـــن تعويذة قوية للغاية، والتي ستكون مثل حديد ضد سيوف العدو. كان محقاً في شكوكه وفي النهاية كانت قد توسلت إليه للحصول على تلك الحماية. كان صعباً عليه إخفاء إثارته حينها واستجاب لطلبها.

... إذا أخبرت تيمولن جنكيز بشكوكها، عن اليد التي داعبتها بشغف، فلن يـــنقذه شـــيء في العالم. حاول أن يقول لنفسه إنها لن تفعل ذلك. في ضوء النهار الخافت، ستعترف أنها لا تعرف شيئاً عن الأرواح، أو طريقة استدعائها. ربما ينبغي لـــه أن يفكر في دهن أحد الرجال المشوهين بالطريقة نفسها، وبذلك تنتقل أخبار تلـــك الطقوس لها. فكر في الأمر بإمعان للحظة، ثم لعن الشهوة مجدداً، وعرف أنها وضعت كل شيء في مهب الريح.

وقـــف كوكـــشو عـــند مفترق طرقات، وراقب امرأتين تقودان فرسين من لجامـــيهما. أحنتا رأسيهما عندما مرّتا به وردّ عليهما بلباقة. كانت سلطته مطلقة، كمـــا قـــال لنفـــسه، وأسراره بأمان. الكثير من النساء في المخيم لن تشهد عودة رجالهن إليهن. كان سيختار من بينهن، عندما يواسيهن في محنتهن.

الفصل السابع عشر



قبل أن يغمر ضوء الفجر السهل، ترك من تبقى من الفرق العشر رماد نيرانهم وتجمّعوا. لم يكن أحد منهم سليماً تماماً وبضعة آلاف منهم يعانون إصابات شديدة. بقي أولئك المحاربون الذين جُرحوا في القتال في المخيم الرئيس، ملطخين بالدماء ومضمدين، أو تُركوا ببساطة ليموتوا مع رفاقهم. طلب الكثير منهم أن يموتوا بسرعة، وتحقق لهم ذلك بضربة واحدة من سيف، بكل شرف.

في العتمة، أصغى جنكيز إلى تلاوة سجل القتلى فيما كان نسيم بارد يجعله يرتعش. أحنى رأسه عندما سمع أسماء ضباط بارزين مثل ساموكا وهوسا.

كان العدد كبيراً ولم يكن ممكناً سرد أسمائهم جميعاً. كان ثلاثة وعشرون ألفاً قد لقوا حتفهم، شُوهوا أو فُقدوا في المعارك ضد الشاه. كان ذلك أسوأ سجل عرفه على الإطلاق وضربة موجعة للأمة. شعر جنكيز بغضبه يزداد كلما كان يبحث عن وجوه ويكتشف أنها غير موجودة في الصفوف. كان زوج شقيقته بارشوك بين القتلى، وكان يعرف أن أنهاراً من الدموع ستفيض عندما يعود أخيراً إلى المخيم.

جال جنكيز ببصره على طول الصفوف فيما كانت تنتظم في تشكيلاتها. إضافة إلى فرقته المؤلفة من عشرة آلاف رجل، لاحظ رايات خاسار، وكشيون، وجيبي، وتسوبودي، وتشاغاتاي، وجيلمي، وجوشي. كان قد أصدر أوامر للفرق بملء أماكن القتلى، وكانت ثماني فرق قد تشكلت من جديد. من الفتية اليافعين في الرابعة عشرة من العمر، كانوا محاربين متمرسين. كان يعرف أنهم لن يخذلوه.

مدّ جنكيز يده ليمس أسفل ساقه، وكشّر من الشعور بالألم والرطوبة التي اكتشفها. كان قد جُرح قبل يوم، لكنه لم يتذكر كيف حدث ذلك. لم يكن

يستطيع الوقوف عليها، لكنه كان قد ربط القدم إلى الركاب حتى يتمكن من قيادة جواده. كان بعض من محاربيه قد فقدوا جزءاً من دروعهم عندما أصابتهم سهام أو ضربات سيوف، وعانوا من جروح بليغة ضمدوها بقطع من قماش متسخ. كان آخرون قد أُصيبوا بحمّى من الجروح، وتصببوا عرقاً في نسيم الفجر الذي لم يخفف من حرارتهم. وقفوا مع جيادهم بغضب وتجهّم، ينتظرون بزوغ الفجر ليستطيعوا رؤية العدو. لم يكن أي منهم قد نام في تلك الليلة وكانوا مرهقين تماماً، لكن لم يكن هناك تراجع، أو ضعف. كانوا جميعاً قد فقدوا أصدقاء أو أقرباء. كانت أيام من المعارك قد أطاحت بكل شيء ما عدا رغبة فاترة بالثأر للقتلى.

عندما انبثق ضوء كافٍ للرؤية، حدّق جنكيز إلى جيش الشاه. سمع أبواقاً بعيدة تصدح محذرة عندما رأى مستطلعو الشاه الحشد الذي ينتظرهم، لكن جنود الشاه كانوا بطيئين في حركاتهم. لم تجعلهم رؤية جيش المغول يفقدون أعصابهم، ولاحظ جنكيز أنهم يتحركون على غير هدى، وقد فقدوا كل تنظيم.

أصدر الأمر بدفع الجياد للهرولة وتحركت فرقه معه. كان أفراد صفه الأول المؤلف من ألفي رجل يحملون رماحاً في أيديهم، يشعرون بالجهد الذي يسببه ذلك في عضلاتهم المتعبة. كان الباقون يحملون سيوفاً وضاقت المسافة.

رأى جنكيز رجلين يتقدمان على الصفوف، يحملان رايات من قماش أبيض. تساءل إن كان ذلك يعني الاستسلام، لكن ذلك لم يكن مهماً. كان وقت الرحمة قد انتهى منذ زمن طويل. كان يعرف الكثير من أولئك الذين لقوا حتفهم و لم يكن لديه سوى جواب واحد. لقي الرجلان اللذان يحملان الرايات البيضاء حتفهما عندما اكتسحهما خط المغول، وانطلق أنين خافت من الآخرين عندما رأوا ذلك وحاولوا التماسك لصدّ الهجوم.

كان هناك أربعون فيلاً في المقدمة، لكن تسوبودي أمر رماته بإطلاق سهام على القوائم وجعلها ذلك تتراجع ثائرة نحو جيش الشاه، وأحدثت دماراً لم يكونوا يستطيعون إلحاقه بصفوف الفرسان.

سدّد صف الرماح الكبير ضربته كرجل واحد، وصرخ جنكيز بأمر للأبواق. هاجم ابنه تشاغاتاي الميمنة، فيما هاجم جيلم الميسرة. بدأ محاربو المغول المذبحة فيما

كانت الشمس ترتفع فوق الأفق في الشرق. لم يكن من الممكن صدّهم، أو القضاء عليهم.

اندفعت فرقة تشاغاتي ضد الميمنة، وحملتهم سرعتهم وضراوتهم إلى قلب جيش الشاه. في الفوضى والضوضاء، لم يكن من الممكن إصدار أمر بإعادتهم. هاجم جناح جوشي الميسرة، وشق طريقه على جثث القتلى ضمن صفوف الجنود. عبر ساحة المعركة، رأى أن تشاغاتي قد اندفع أيضاً بعيداً في حشد من الرجال الخائفين. استطاع رؤيته على بعد مئات الخطوات قبل أن تبتلعه صفوف الأعداء. صرخ جوشي عالياً. دفع عقبيه بردفي مطيته، وقاد رجاله مثل رمح يخترق جسد جيش الشاه الذي يرتعد خوفاً.

تلقت الصفوف الأولى ضربات موجعة من قِبَل جيبي وتسوبودي اللذين أثخناها بالجراح. لم يكن أحد يتولى القيادة، وفي الفوضى، شقت فرقتا تشاغاتي وجوشي طريقيهما عبر الجنود حتى لم يعد يفصل بين الشقيقين سوى بضعة رجال يقاتلون وهم يلهثون.

انهار رجال الشاه، وأُصيبوا بالذعر من محاربي الخان. ألقى الآلاف أسلحتهم وحاولوا الهروب، لكن لم يتردّد أي من القادة. لقي أولئك الذين أداروا ظهورهم حتفهم من دون رحمة، وبحلول الظهيرة كان جيش الشاه جزراً من مجموعات معزولة يائسة. استمرت المذبحة من دون توقف. جثا بعض رجال الشاه على ركبهم، وتوسلوا بأصوات عالية حتى قطع الفرسان رؤوسهم. كان ذلك عملاً وحشياً، لكن المغول كانوا مستعدين له. كسر العديد منهم سيوفه في الهجمات المتكررة وكان عليهم حمل أحد السيوف المقوّسة المبعثرة على الأرض. اخترقت رماحٌ بعض رجال الشاه الفار ممن أُصيبوا بالذهول و لم يستطيعوا الابتعاد عن طريقها.

في النهاية، لم يبقَ سوى بضع مئات. لم يكونوا يحملون أسلحة، ورفعوا أذرعهم عالياً لإظهار أيديهم الفارغة. أصدر جنكيز أمراً أخيراً وزاد صف من حملة الرماح سرعته. صرخ رجال الشاه رعباً، ثم صمتوا عندما اندفع فرسان فوقهم وعادوا، وترجلوا لتقطيع الموتى إلى أجزاء صغيرة، حتى هدأت ثورة غضبهم وغيظهم.

لم تهلـــل الفرق المغولية ابتهاجاً بالنصر. منذ انبثق أول ضوء، لم يتحرك جيش الــشاه للقتال، وبالرغم من أنهم شعروا بسعادة بالغة في قتلهم، إلا أن ذلك لم يكن شيئاً يفتخرون به أكثر من رحلة صيد.

كانــت الأرض مغطـــاة بالدماء فيما كان المحاربون يسلبون القتلى، يقطعون أصـــابع للحـــصول على خواتم، ويجردون الجثث من الأحذية الجيدة والملابس التي تقيهم البرد. تجمع الذباب بأعداد كبيرة، وكان على المغول أن يضربوه لإبعاده عن الـــشفاه والعـــيون. زحفت حشرات طنانة بكثافة على الجثث التي بدأت تتفسخ آنذاك في الحرارة.

استدعى جنكيز قادته، وجاؤوا إليه مرهقين ومصابين بالكدمات، لكن الرضا باد في عيونهم.

ســأل كل واحد منهم: "أين الشاه؟". كانوا قد وجدوا جمالاً محملة بخيام من الحرير وقـــد اكتشف رجال جيبـــي صندوق جواهر كانوا قد راهنوا أو تبادلوا نصفه آنذاك.

عندما سأل جنكيز تسوبودي، هزّ القائد رأسه وهو يمعن التفكير.

رد: "لقد اختفى فرسانه يا مولاي الخان. لم أرَ واحداً منهم".

أطلق جنكيز لعنة وقد تلاشى تعبه.

"أرسل المستطلعين لتقفّي آثارهم. أريد القضاء عليه".

قفز المستطلعون الذين سمعوا ذلك على سروجهم وانطلقوا مبتعدين، فيما كان جنكيز يستشيط غضباً.

"إذا غـــادر الليـــلة الماضية، فسيكون لديه يوم كامل للابتعاد عن هنا. عليه ألا يهـــرب! تكلـــم التجار عن جيوش حجمها خمسة أضعاف هذا الجيش، أو أكـــبر. اجعلـــوا رجالكم ينضمون إلى المستطلعين. لا شيء أكثر أهمية من هذا، لا شيء".

انطلق الفرسان في كل الاتجاهات، ولم يمضِ وقت طويل قبل أن يعود رجلان من فرقة جوشي. أصغى جنكيز إلى التقرير وشحب لونه.

قال: "تسوبودي! هناك جياد تنطلق غرباً".

تسمّر تسوبودي في مكانه.

قــال: "مدنــه في الشرق. سيستدير شمالاً أو جنوباً. هل تسمح لي بالذهاب لحماية المخيم يا مولاي؟".

أطلق جنكيز لعنة بصوت خافت.

"لا. خذ فرقتك وطارد الشاه. إذا وصل إلى مدينة ووجد تعزيزات، فسنكون جميعاً بحكم الأموات".

كان جيبـــي إلى جانب الخان عندما أصدر الأمر. كان قد شاهد جيش الشاه عــندما كـــان نشيطاً وقوياً. كانت فكرة مواجهة العدد نفسه مجدداً تثير الغثيان. استدار إلى تسوبودي ورفع رأسه.

قال: "بإذن مولاي الخان، سآتي معك".

لوّح جنكيز بيده، وأومأ تسوبودي فيما كان يدفع بعقبيه بردفي مطيته. أصدر تــسوبودي أمــراً إلى أقرب ضابط إليه، لكنه لم يتوقف عندما انطلق الرجل لجمع *ذئاب تسوبودي الفتية*.

مــع انتشار النبأ، جاء جوشي مسرعاً إلى والده. انحنى كثيراً في السرج فيما كان يشد اللجام.

سأل: "هل المخيم في خطر؟".

أدار جنكيز بصره الشاحب نحو القائد الشاب، ولاحظ جلد النمر المعلّق على فرســه. كان لديهم جميعاً عائلات هناك، لكنه أشاح بنظره بعيداً. كان قد أصدر الأمر بترك المخيم من دون حماية. لم يكن هناك خيار آخر.

رد جنكيز أخيراً: "لقد أرسلت جيبـــي وتسوبودي لملاحقة الشاه".

رد جوشـــي: "إنهما رجلان جيدان، والأفضل لديك". كان وجه والده خالياً مـــن أي تعـــبير، لكنه تابع كلامه بطيش، يفكر في والدته. "هل يمكنني أخذ فرقتي وجلب العائلات إلى هنا؟".

فكّـــر جنكيـــز في الأمـــر ملياً. كان المخيم على بعد أقل من مسيرة يوم إلى الـــشرق من أطرار. لم يكن يحب فكرة أن يعلن جوشي النصر للنساء والأولاد. لا شـــك في أن الـــشاب كان يفكر آنذاك في استقبال الأبطال. شعر جنكيز بمعدته تنقبض من تلك الفكرة.

قال: "أحتاج إليك عند أطرار. اجعل تشاغاتي يقوم بذلك".

للحظة، رأى جنكيز الغضب يبرز من عيني جوشي. انحنى الخان إلى الأمام في سـرجه، وأنـزل يده إلى مقبض سيفه. بالرغم من ذلك، شعر بمرارة كبيرة لأن جوشي كان يضع سيف قبضة الذئب على ردفه. سرعان ما اختفى الغضب، وأحنى جوشي رأسه، ودفع جواده للهرولة ليتكلم إلى شقيقه الأصغر.

كان تشاغاتاي وسط مجموعة صاخبة من المحاربين الشبان. لم يرَ جوشي يقترب في البداية وكان في السرج يضحك على تعليق ما عندما تسمّر في مكانه. كان الرجال مع تشاغاتاي يحذون حذوه، وقاد جوشي جواده عبر نظراتهم العدائية.

لم يُلقِ أي من الشقيقين التحية على الآخر. ترك جوشي يده تنزل إلى جلد النمر على قربوس سرجه، وعبثت أصابعه به. انتظر تشاغاتاي منه أن يتكلم، ورفع حاجبه مما جعل مرافقيه يضحكون بصوت خافت.

قال جوشي عندما تعب من اللعبة: "عليك أن تعيد فرقتك إلى المخيم، وتجلب من فيه إلى الأرض حول أطرار". تقطب جبين تشاغاتاي عبوساً. لم يكن يريد الاعتناء بالنساء والأطفال فيما تهتز أطرار رعباً عندما تراهم.

رد: "من أصدر هذا الأمر؟ سلطة مَن؟".

سيطر جوشي على غضبه عندما سمع تلك النبرة المتغطرسة.

قال وهو يدير مطيته لينطلق مبتعداً: "جنكيز يأمرك بالذهاب".

"هذا ما تقوله أنت، لكن مَن يصغي عندما يتكلم وغد ابن حرام مثلك؟".

كان تشاغاتاي يتكلم وهو يعرف أنه محاط برجاله، والذين ينتظرون جميعاً مثل تلك الملاحظة الجارحة التي كانوا يكررونها حول نيران المعسكر. تسمّر جوشي في السرج. كان ينبغي له أن يترك هؤلاء الأوغاد المبتسمين، لكن لم يكن هناك شيء في العالم يجعله يغلي غضباً بسهولة مثل غطرسة شقيقه الأصغر.

رد: "ربما يشعر أنك رفيق ملائم للنساء بعد الطريقة التي جثوت بها لي يا شقيقي. لا أعرف ما يدور في ذهنه".

مع ابتسامة متكلفة، دفع جوشي مطيته للسير. حتى مع رجال مسلحين خلفه، لم يكن ليمنحهم فرصة رؤيته يدفع جواده للجري خبباً.

سمع الاندفاع المفاجئ لحوافر ونـزلت يده تلقائياً إلى قبضة رأس الذئب قبل أن يبعدها. لم يكن يستطيع شهر سيف على تشاغاتي أمام كل هؤلاء الشهود. ستكون تلك نهايته.

ألقى جوشي نظرة إلى الخلف من دون اهتمام قدر ما يستطيع. كان تشاغاتي يقترب منه، ومناصروه يحدّون خلفه على جيادهم. كان وجه شقيقه يتّقد غضباً، وما إن فتح جوشي فمه ليتكلم مجدداً حتى رمى الشاب بنفسه على السرج، وألقى به على الأرض.

فيما كانا يتعاركان ويتدحرجان، فقد جوشي أعصابه ووجه إلى شقيقه ضربات قوية. افترقا ووثب كل منهما واقفاً والرغبة في القتل ظاهرة في عينيه. بالرغم من ذلك، كانت العادة أقوى ولم يمد أي منهما يده إلى سيفه. اندفع تشاغاتي نحو جوشي بقبضتيه وركله جوشي بأقصى ما يستطيع من قوة بين ساقيه.

انهار تشاغاتي ألماً، لكن غضبه كان قوياً، ولدهشة جوشي، كافح لينهض وترنح فيما كان يندفع نحوه مجدداً. في ذلك الوقت، كان مرافقوه قد ترجلوا، وأبعدوا القائدين عن بعضهما. مسح جوشي بقعة دم عن أنفه، وبصق باستخفاف على الأرض عند قدمي تشاغاتي. راقب شقيقه يستعيد توازنه وهدوءه وعندها فقط رفع بصره ليرى جنكيز.

كان وجه الخان يمتقع غضباً، وعندما التقت عيناه بعيني جوشي، دفع عقبيه بردفي جواده واقترب منه. لم يجرؤ أي من المحاربين على النظر إلى الأعلى، ووقفوا ساكنين بلا حراك بين يديه. كانت عصبيته أسطورية لدى العائلات، وأصبح الشابان قلقين فجأة من أن حياتيهما معلقة على كلمة أو إشارة.

وحده تشاغاتي بدا غير مكترث. مع اقتراب والده منه، تراجع إلى الخلف، وحاول صفع وجه شقيقه بظاهر يده. انحنى جوشي بشكل فطري، وفقد توازنه عندما ركله جنكيز بقوة بين كتفيه، وأوقعه أرضاً.

حتى تشاغاتي تسمّر في مكانه عندما رأى ذلك، بالرغم من أن سخريته بقيت ظاهرة للعيان. ترجل جنكيز ببطء، وبقيت قبضتاه مشدودتين على اللجام بقوة حتى فتحهما بصعوبة.

عـــندما نظر إلى ابنيه، كان غضبه واضحاً بما يكفي لجعل تشاغاتي يتراجع إلى الخلـــف. لم يكـــن ذلك كافياً. وضع جنكيز يده على صدر تشاغاتي، ودفعه إلى الخلف لينضم إلى جوشي على الأرض.

قـــال جنكيــــز: "ألا *تزالان* طفلين؟". هزّ رأسه بشكل ظاهر للعيان من الشابين الأحمقين اللذين تجرأا على الدخول في شجار أمام رجالهما. كان يرغب في جلب عصا وضربهما حتى يفقدا الوعي، لكنه سيطر على نفسه، وتراجع عن ذلك. إذا جلدهما، لن يحظيا أبداً باحترام محاربيه بعد ذلك. كانت همسات خافتة ستلاحقهما باقي حياتهما.

لم يـــردّ سواء جوشي أو تشاغاتي. أخيراً، مدركين للخطر الذي يُحدق بهما، اختارا التزام الصمت.

"كيف يمكنكما قيادة...؟"، توقف جنكيز قبل أن يدمّرهما، وظل فمه يتحرك مـــن دون أن ينطق بشيء مسموع. كان كشيون قد قاد جواده بسرعة إلى المخيم الرئيس حالما سمع بما جرى، وسمح اقترابه للخان بالتوقف عن التحديق.

سأل جنكيز كشيون: "ماذا كنت ستفعل مع أحمقين مثل هذين؟ مع كل الأعداء الذين لا نـــزال نواجههم، والخطر الذي يُحدق بمخيمنا، يتقاتلان مثل طفلين".

التمـــست عيـــناه بصمت من كشيون أن يُنـــزل بهما عقاباً لا يكون بمثابة الـــنهاية لكل منهما. لو أنه جوشي فقط، لكان أمر بقتله، لكن تشاغاتي كان من وثب عن جواده للإيقاع بشقيقه على التراب.

كان وجه كشيون متجهماً، لكنه فهم معضلة الخان.

"تـــبلغ المـــسافة إلى أطـــراز حوالى عشرين ميلاً يا مولاي الخان. سأجعلهما يقـــومان بالرحلة سيراً على الأقدام، قبل حلول الظلام". نظر إلى الشمس، مقدّراً الوقت. "إذا لم يستطيعا ذلك، ربما لن يكونا مناسبين لقيادة رجالهما".

تـــنفس جنكيـــز الصعداء بشكل لم يكن يستطيع إظهاره. كان ذلك سيفي بالغرض. كانت الحرارة شديدة ومثل تلك الرحلة قد تقتلهما، لكنهما كانا يافعين وقويين وسيكون ذلك عقاباً لهما.

قـــال للأخوين المشدوهين: "سأكون هناك بانتظاركما". حدّق تشاغاتي إلى كـــشيون لاقتـــراحه ذلك العقاب، لكن عندما فتح فمه ليعارض، مد جنكيز يده ورفعه بحركة واحدة. كانت قبضة والده تحت ذقنه عندما تكلم مجدداً.

قال: "انزع درعك واذهب. إذا رأيتك تتشاجر مجدداً، سأجعل أوجيدي وريثي. هل تفهم؟".

أومأ كلا الشقيقين وحدّق جنكيز إلى جوشي، وشعر بأنه ظنّ أن الكلمات موجهة إليه أيضاً. اشتعل غضباً مجدداً، لكن كشيون اختار متعمداً تلك اللحظة ليدعو الرجل للانتظام في صفوف استعداداً للرحلة إلى أطرار، وأفلت جنكيز تشاغاتي من قبضة يده.

لفائدة كل أولئك الذين استطاعوا سماع وتكرار الكلمات آلاف المرات، ابتسم كشيون بتكلّف وبدأ جوشي وتشاغاتي يركضان في حرّ لاهب.

"لقد فزت أنت بمثل ذلك السباق عندما كنا أولاداً، كما أذكر".

هزّ جنكيز رأسه غاضباً.

"ما نفع ذلك؟ لقد كان ذلك منذ وقت طويل. اجعل خاسار يعيد العائلات إلى أطرار. لدي ديون أسوّيها هناك".

شد الشاه علاء الدين محمد لجام جواده عندما رأى أعمدة رفيعة من دخان الطهي تتصاعد من مخيم المغول. كان قد انطلق ببطء غرباً قبل أن يسلك طريقاً إلى الشمال حول أطرار، وقطع أميالاً عديدة منذ ظهور أول ضوء رمادي قبل الفجر. مع ارتفاع الشمس التي أزالت ضباب الصباح، حدّق إلى الخيام الرثة للعائلات المغولية. للحظة، كان الدافع لاجتياح النساء والأطفال شاهراً سيفه كبيراً. لو أنه كان يعرف أن الخان قد تركهم من دون حماية، لكان أرسل عشرين ألف رجل لقتلهم جميعاً. شد الشاه قبضته إحباطاً مع اشتداد الضوء. كان هناك محاربون يتجمعون على الأطراف، ورؤوس جيادهم تبحث بهدوء في الأرض الرملية عن أعشاب. لمرة واحدة، لم تكن هناك أبواق تحذير تصدح من المستطلعين المغول اللعينين.

بزمجرة، بدأ الشاه يوجه جواده بعيداً عن المخيم. كانوا يتكاثرون مثل القمل، هؤلاء المغول، و لم يكن لديه سوى فرسانه الأربعمئة لضمان سلامته في أثناء رحلته شرقاً. كانت الشمس ترتفع وسيصبح فرسانه ظاهرين للعيان قريباً.

صرخ أحد رجاله بشيء ما، وأدار علاء الدين رأسه. كشفت أشعة الشمس ما كانت الظلال تخفيه وكشّر فجأة، وقد انفرجت أساريره. لم يكن المحاربون أكثر

من دمى من القش مربوطة إلى جياد. ركّز الشاه بصره مع سطوع الضوء، لكنه لم يستطع رؤية رجل مسلح واحد. انتشر الخبر حوله، وضحك أبناء شيوخ العشائر، وأشاروا إليها، وسحبوا آنذاك سيوفهم قليلاً من قُرُبها. كانوا قد اشتركوا جميعاً في غارات عقابية على قرى، عندما تأخر وصول الضرائب منها. كان الصيد جيداً في مثل تلك الأماكن والرغبة في الثأر قوية.

لم يشارك جلال الدين الرجال في ضحكهم فيما كان يقود جواده إلى جانب والده.

"هل ستجعل الرجال يخسرون نصف يوم هنا والأعداء قريبون جداً منا؟".

رداً على ذلك، شهر والده سيفاً مقوّساً. نظر الشاه إلى الشمس.

"ينبغي لهذا الخان أن يعرف ثمن غطرسته يا جلال الدين. اقتل الأولاد وأحرق ما يمكنك إحراقه".

الفصل الثامن عشر



ببطء، بماثل ما يحدث في الطقوس الدينية تقريباً، لفت تشاكاهي يدها بقطعة من الحرير، وربطتها إلى قبضة خنجر طويل. كانت بورت قد أبلغتها أن تتوخى الحذر من تأثير الصدمة، وأن يد امرأة قد تهتز فتفقد السلاح أو تتعرق فينزلق منها. كانت عملية لف الحرير حول أصابعها وربط أحد طرفي قطعة الحرير لتشكّل عقدة مريحة نوعاً ما فيما كانت تنظر إلى خارج الخيام نحو فرسان الشاه. لم تستطع السيطرة على الخوف الذي شعرت به.

هي، وبورت، وهولن كن قد فعلن كل ما في وسعهن لتجهيز المخيم. لم يكن هناك تحذير سابق والشراك الأكثر فاعلية لم تكن قد نُصبت بعد. على الأقل كان لديهن أسلحة، وتمتمت تشاكاهي بصلاة بوذية معدّة لاستقبال الموت فيما كانت تجهّز نفسها. كان الصباح بارداً، بالرغم من أن الهواء بدا ثقيلاً ويعد بيوم آخر حارّ. كانت قد خبّأت أطفالها بأفضل ما تستطيع في الخيمة. كانوا يجلسون بصمت مطبق تحت أكوام من البطانيات. بجهد كبير، وضعت تشاكاهي خوفها عليهم جانباً، وتركته في مكان منفصل حتى يبقى ذهنها صافياً. كانت بعض الأمور تخضع للقدر، أو ما يدعوه البوذيون الهنود *كرما*. ربما سيلقى كل الأطفال والنساء حتفهم ذلك اليوم، وهو شيء لم تكن تعرفه. كان كل ما تتمناه هو أن تحظى بفرصة لقتل رجل للمرة الأولى، وأن تؤدي واجبها تجاه زوجها وأطفالها.

كانت يدها اليمنى المربوطة ترتعش عندما رفعت الخنجر، لكنها استمتعت بشعور حمل سلاح واستمدت القوة منه. كانت تعرف أن جنكيز سيثأر لها، إن لم يكن قد لقي حتفه أيضاً. كانت تلك هي الفكرة التي حاولت جاهدة التخلص منها عندما خطرت في بالها. كيف بخلاف ذلك يمكن لهؤلاء المجيء إلى المخيم إن لم

يكـــن فـــوق أمة ميتة وجثة زوجها؟ إذا كان جنكيز لا يزال حياً، كان بالتأكيد سـيهبّ لحماية المخيم. بالنسبة إلى مغولي، كانت العائلات تمثل كل شيء. بالرغم مـــن ذلـــك، لم تكـــن هناك إشارة عن الخان في الأفق، وكافحت تشاكاهي ضد اليأس، والتمست هدوءاً جاء واختفى مثل نبضات.

في الــنهاية، ســحبت نفساً عميقاً، وشعرت بنبض قلبها يستقر على معدل بطيء وثقيل، وأطرافها باردة بشكل غريب كما لو أن دمها قد تجمد في عروقها. كان الفرسان يقودون جيادهم للجري نحو مدينة الخيام. كانت الحياة مثل كابوس ينجم عن حمّى لاهبة، وتنفس قصير في نوم لمدة طويلة. كانت ستستيقظ وتولد من جديد من دون ألم الذكرى. كانت تلك على الأقل نعمة.

صهلت قطعان الجياد المغولية بعصبية عندما اندفع الشاه بينها مع رجاله. رأى أشياء تجري بين الحيوانات، وبصمت غريب، شعر بهاجس مخيف. نظر إلى الآخرين ليرى إن كانوا أيضاً قد شعروا بذلك الخطر، لكنهم كانوا متلهفين للصيد وينحنون إلى الأمام في سروجهم.

أمامهم، كانت خيوط من دخان الطهي ترتفع ببطء في الجو. كان الجو يصبح أكثـــر حرارة، وشعر الشاه بالعرق يسيل على ظهره عندما وصل إلى الخيام الأولى. شـــكّل حراســـه صفاً واسعاً فيما كانوا يندفعون نحو المتاهة، وشعر الشاه بأعصابه تتوتر. كانت منازل المغول عالية بما يكفي لتخفي أي شيء خلفها. لم يكن بمقدور حتى رجل يمتطي جواداً أن يرى ما يقع خلفها، وأصابه ذلك بالقلق.

بـــدا المخـــيم مهجوراً. لولا أدخنة الطهي، ربما كان علاء الدين قد ظن أن المكـــان خال من مظاهر الحياة. كان ينوي اكتساحه بهجوم واحد كبير، وقتل كل مـــن يظهـــر في طـــريقه. بدلاً من ذلك، كان الصمت يغلف الممرات والدروب، وانـــدفعت جـــياده عميقاً وعميقاً من دون رؤية كائن حي. بعيداً فوق رؤوسهم، كان هناك صقر يحوم في الجو، ورأسه يتحرك إلى الأمام والخلف بحثاً عن فريسة.

لم يكن قد أعجبه الحجم الكبير لمخيم المغول. ربما كانت عشرون ألف خيمة في ذلـــك المكـــان، أو حـــتى أكثر، وتشكل مدينة حقيقية انبثقت من لا شيء في البراري. كانوا قد استولوا على الأرض على ضفتي نهر قريب واستطاع علاء الدين

رؤيـــة سمك مقدّد مربوط إلى أعمدة خشبية في أثناء مروره بها. حتى الذباب كان هادئـاً. هزّ كتفيه غير مبالٍ، وحاول التخلص من المزاج الكدر. آنذاك كان بعض رجالـه يتـرجلون ليدخلوا الخيام. كان قد سمع الرجال الأكبر سناً يتكلمون عن تهديد الأطفال لجعل النساء أكثر مرونة. تنهد الشاه بنــزق. ربما كان جلال الدين علــى حق. حالما يدخلون الخيام، سيمضون كل الصباح هناك. لا يمكن أن يكون المغــول بعــيدين جداً خلفهم ولم يكن يطيق أن يحاصروه في ذلك المكان البائس. للمرة الأولى، تمنّى لو أنه تجاوز ببساطة المخيم.

راقــب علاء الدين فيما كان أحد أصدقاء ابنه يدفع باباً ليدخل خيمة. كان المــدخل صغيراً جداً على كتفيه العريضتين. ألصق الجندي وجهه الملتحي بالفتحة، ينظــر إلى العتمة في الداخل. طرفت عينا علاء الدين عندما ارتعش الرجل فجأة، اهتزت ساقاه كما لو أن نوبة عصبية قد انتابته. لدهشته، جثا الجندي على ركبتيه، ثم خرّ صريعاً داخل الخيمة، وجسده لا يزال يختلج.

فــيما كان يسحب نفسه لإصدار أوامره، لاحظ علاء الدين حركة بطرف عينه وسدّد سيفه بضربة قوية. كانت هناك امرأة تزحف مقتربة منه وضربها النصل في وجهها، شقّ فكها وكسر أسنانها. سقطت إلى الخلف والدم ينــزف غزيراً من فمهـــا، ثم لرعبه وثبت عليه، وطعنت ساقه بخنجر. بترت ضربته الثانية رأسها، ثم تحول الصمت إلى فوضى في كل مكان حوله.

ثارت الخيام وكان محاربوه يقاتلون بشراسة للحفاظ على حياتهم. متجاهلاً الألم مـــن جـــرحه، أدار الشاه جواده، واستفاد من جسده للإيقاع أرضاً بامرأة وفتى صغير كانـــا يندفعان نحوه، صارخين وملوّحين بخنجرين ثقيلين. كان رجاله فرساناً محنكين، مُــدربين على الدفاع عن مطاياهم ضد مشاة. بالرغم من ذلك، بدا أن النساء المغوليات لا يخفن الموت. اندفعن نحوهم وجرحن إما قائمة الجواد أو ساق الرجل قبل أن يختفين خلف أقرب خيمة. رأى علاء الدين أكثر من رجل يتلقى ضربة قاتلة، ثم يترنح قبل أن يقضي الموت عليه، ويستفيد من آخر أنفاسه ليطعن بسيفه جسداً أمامه.

في لحظــات، كان كل رجل من فرسانه الأربعمئة يدافع عن نفسه ضد أكثر مـــن امرأة، وأحياناً أربع أو خمس نساء مختلفات. انطلقت الجياد تولي الأدبار بعد إصابتها بجروح، وصرخ الرجال خوفاً فيما كان يتم سحبهم عن مطاياهم وطعنهم.

حافظ حراس الشاه على رباطة جأشهم. اندفع أكثر من نصفهم كيفما اتفق لـتطويق الشاه وانتظم الباقون في تشكيل قريب، وكل رجل يراقب تحسباً لهجوم على الآخرين. اندفعت النساء نحوهم من جانب كل خيمة، وظهرن واختفين مثل أشـباح. شـعر الشاه بأنه محاصر، لكنه لم يكن يستطيع الفرار، وترك الخان يقول للعـالم إنـه قـد هرب من نساء وأطفال. كانت إحدى الخيام قد انهارت عندما اصـطدم جواد بها ورأى موقداً حديدياً يتحطم. أصدر أمراً لخادمه عباس وراقب بلهفة فيما كان الرجل يمزق قطعة كبيرة من اللباد ويشعلها من النيران التي اندلعت.

أصـبحت الهجمـات أكثر يأساً، لكن رجاله كانوا قد امتلكوا زمام الأمور آنذاك. رأى الشاه أن بعض الحمقى كانوا قد ترجلوا عن جيادهم لاغتصاب شابة على الأرض، وقاد جواده بغضب نحوهم، وجعله يصطدم بهم لإيقاعهم جانباً.

جأر: "هل فقدتم عقولكم؟ انهضوا! هيا! أضرموا النار بالخيام!".

بمواجهة غضبه، مرّروا سكيناً على عنق المرأة التي تقاومهم ووقفوا، مرتبكين. كان عباس قد أضرم النار آنذاك بإحدى الخيام. أخذ أقرب الحراس أجزاءً من المواد المحترقة بأيديهم، وأسرعوا بها لنشر الرعب إلى أبعد ما يستطيعون. سعل علاء الدين عـندما تـنفس دخاناً رمادياً كثيفاً، لكنه تهلل لفكرة عودة الخان إلى ساحة مليئة بالرماد والجثث الباردة.

كـان جلال الدين أول من شاهد الفتية الذين يركضون. كانوا يندفعون بين الخـيام قرب النهر، يتخذون مسالك متعرجة بين الدروب، لكنهم يقتربون منهم دائمـاً. اسـتطاع جـلال الدين رؤية المئات، يجرون عراة الصدر وشعرهم يطير خلفهم. ابتلع ريقه بصعوبة عندما رأى أنهم يحملون أقواساً، مثل آبائهم. كان لدى جلال الدين وقت ليصرخ منبهاً رجاله الذين رفعوا تروسهم واندفعوا عبر الدروب نحو هذا التهديد الجديد.

وقف الفتية المغول في مكانهم فيما كان الفرسان يندفعون نحوهم. سمع جلال الدين صوتاً عالياً يهتف بأمر، ثم شُدّت الأقواس، وتطايرت السهام في النسيم.

أطلق جلال الدين لعنة عندما شاهد رجالاً يتعثرون، لكن عددهم كان قليلاً. كان الفتية يسددون بدقة مثل البالغين، لكنهم لم يكونوا يتمتعون بقوة تجعل السهام تـنفذ مـن الدروع. حصلت حالات الوفاة الوحيدة نتيجة سهام أصابت الحناجر

وكـــان الحظ حليفها. عندما اقترب جلال الدين، تبعثر الفتية أمام رجاله، واختفوا في مـــتاهة الطـــرقات. لعن تنظيم المخيم الذي كان يعني أن عليهم التراجع قليلاً للتواري عن الأنظار. ربما كانت تلك هي الغاية التي ينشدها المغول عندما يقيمون مخيماتهم.

دفـــع جلال الدين جواده للجري خبباً حول خيمة، واكتشف ثلاثة فتية معاً. اســـتعمل اثنان منهما سلاحيهما حالما شاهداه، لكن سهامهما لم تصبه. استغرق الأمر من الثالث وقتاً أطول بمقدار دقة قلب وأطلق سهمه عندما اندفع جواد جلال الدين نحوه، حطم أضلاع الصبـــي، وقذف به بعيداً. صرخ جلال الدين ألماً، ونظر إلى الأســـفل غير مصدق أن السهم قد أصاب فخذه واخترق لحمه. لم يكن جرحاً سيئاً، لكنه شعر بالغضب، وشهر سيفه، وقتل الصبيين المشدوهين قبل أن يتحركا. طنّ سهم آخر فوق رأسه من الخلف، وعندما أدار مطيته، لم يرَ أحداً.

مـــن بعيد، ارتفع دخان كثيف عندما أشعل رجال والده النار ببعض الخيام. كان الشرر سيتطاير آنذاك إلى خيام أخرى، وأولئك الذين يدفنون أنفسهم عميقاً في اللـــباد الجـــاف. كان جلال الدين وحيداً تماماً، وبالرغم من ذلك شعر بحركة حـــوله. عـــندما كان فتى يافعاً للغاية، كان قد ضاع مرة في حقل قمح ذهبـــي، المحـــصول فيه أعلى منه. في كل مكان حوله، كان قد سمع حركات الفئران الخافتة وهـــي تتحـــرك بسرعة. ظهر الرعب القديم مجدداً. لم يكن يستطيع احتمال بقائه وحيداً في مثل ذلك المكان، والخطر يزحف نحوه من كل جانب. بالرغم من ذلك، لم يكـــن مجـــرد فتى آنذاك. جأر بتحدٍّ في الهواء الخالي، واندفع نحو أقرب درب، متجهاً نحو والده وحيث ينبعث الدخان الكثيف.

كـــان رجال الشاه قد قتلوا المئات من نساء المغول، وبالرغم من ذلك كانت أخريات يهاجمنهم ويلقين حتفهن. قلة منهن استطعن جعل الحراس ينـــزفون، بعد أن أخـــذوا حذرهم آنذاك. كان علاء الدين مندهشاً من شراستهن، والتي كانت تماثل شراسة الرجال الذين قضوا على جيوشه. كان سيفه ملطخاً بالدماء ومدفوعاً بالحاجـــة إلى معاقبـــتهم. تنشّق دخاناً ثقيلاً وسعل للحظة، بدا سعيداً بالدمار فيما كانـــت الـــنيران تنتقل من خيمة إلى أخرى. كان وسط المخيم يشتعل لهباً، وقد اعـــتمد رجالـــه تكتيكاً جديداً. عندما كانوا يشاهدون خيمة مغول تحترق، كانوا

ينتظـرون خـارج الباب ليخرج سكانها منها. أحياناً، كان نساء وأطفال المغول يـشقون طـريقهم إلى الخارج عبر اللباد، لكن الكثيرين لقوا حتفهم عندما التقوا رجـالاً مـسلحين يمتطون جياداً. كان البعض منهم محاصراً بالنار واختاروا الموت بالسيوف بدلاً من الاحتراق.

ركـضت تـشاكاهي حافية القدمين نحو محارب يدير ظهره لها. بدا الجواد ضـخماً عندما اقتربت منه، والرجل على ظهره بعيداً جداً فوقها و لم تكن تعرف طـريقة للقـضاء عليه. أخفت حسحسة النار صوت خطواتها عندما اندفعت عبر الأعـشاب. بالرغم من ذلك لم يستدر إليها، وفيما كان يصرخ لرجل آخر، رأت أنـه يرتدي قميصاً جلدياً مزيناً بصفائح من معدن داكن اللون. تباطأ العالم عندما مدّت يدها إلى الجزء الخلفي من مطيته وشعر بها. بدأ يستدير، ويتحرك كما لو أنه حلم. رأت تشاكاهي جزءاً من خصره ظاهراً للعيان، بين حزامه والدرع الجلدي. اندفعت من دون تردد، ضربت النصل نحو الأعلى كما كانت بورت قد علّمتها أن تفعل. شعرت بقشعريرة تسري على طول ذراعها، وشهق الرجل، تراجع رأسه إلى الخلف، وحدّق إلى السماء. شدّت تشاكاهي النصل لتكتشف أنه كان قد اخترق لحـم الرجل، وعلق في جسده. سحبته بعصبية و لم تجرؤ على النظر إلى الرجل فيما كان يرفع ذراعه التي تحمل السيف ليقتلها.

تحـرّر النـصل، ووقعت إلى الخلف، ودمه يغطي ذراعها. خرّ الرجل وسقط بقربها تقريباً، وللحظة التقت عيونهما. ضربته مجدداً خائفة، لكنه كان ميتاً آنذاك.

وقفت عندها، صدرها يتحرك بقوة، وقد امتلأت سعادة. ليموتوا جميعاً بمثل تلـك الطريقة، بطونهم مشقوقة ومثاناتهم تجعل الأرض داكنة! سمعت وقع حوافر تجـري مـسرعة، ونظرت إلى الأعلى بذهول عندما ظهر جواد آخر ليسحقها. لم تـستطع أن تتحـرك في الوقت المناسب وغادرها انتعاش القتل، ليحل محله إرهاق كبير.

بمواجهة الجندي، رأت ياو شو قبل أن يراها. وقف ياو شو بمواجهة الجواد، وسـدّد عصا ثقيلة على قائمته الأمامية. سمعت طقطقة وارتطم الحيوان بالأرض بقـوة. فـيما كانت تراقب ما يجري بذهول، انقلب الجواد إلى اليمين أمامها،

وسحق الرجل الذي كان على ظهره. لم يكن في وسع تشاكاهي سوى التحديق إلى القائمتين اللتين تركلان في الهواء، ورأت أن إحداهما ملتوية كثيراً. شعرت بسيدي ياو شو تسحبانها بين الخيام، ثم عاد العالم الحقيقي فجأة، وبدأت تتقيأ بضعف.

كان ياو شو الضئيل ينتفض مثل طائر، مستعداً لمواجهة التهديد التالي. رآها تحدّق إليه وأومأ إليها فقط، ورفع العصا التي كان قد استعملها تحية لها.

قالت وهي تحني رأسها: "شكراً لك". كانت ستكافئه، إذا نجوا، وقطعت وعداً على نفسها بذلك. سيكرّمه جنكيز أمام الجميع.

قال: "تعالي معي"، وترك يده تستقر برهة على كتفها قبل أن يصطحبها بين الخيام بعيداً عن النيران.

نظرت تشاكاهي إلى الدماء التي تصبغ قطعة القماش على يدها اليمنى، وشعرت بالرضا فقط عندما تذكرت ما حدث. سيكون جنكيز فخوراً بها، إذا كان لا يزال على قيد الحياة.

أدار علاء الدين رأسه عندما سمع سلسلة من الأصوات القصيرة، القاسية. لم يفهم الكلمات، واستوعب فقط أن هناك رجالاً قادمين. شعر بمعدته تنقبض خوفاً من أن يكون الخان قد تعقّبه. أصدر أوامر جديدة لرجاله بمغادرة الخيام ومواجهة العدو. كان كثيرون منهم بعيدين عنه ومنغمسين بالتدمير، ووجوههم قاسية يبدو عليها تعصّب جنوني. بالرغم من ذلك، سمعه جلال الدين، وكرّر اثنان آخران من أبنائه الأوامر، وصرخوا حتى بُحت أصواتهم.

كان الدخان كثيفاً ولم يستطع علاء الدين رؤية شيء في البداية، ولم يسمع سوى وقع حوافر تقترب. تردّد صدى الصوت عبر المخيم وجفّ فمه. بالتأكيد كان هناك آلاف قادمون طلباً لرأسه.

من الدخان، خرجت جياد تجري بأقصى سرعتها، وكان بياض عيونها يظهر بوضوح في أثناء اندفاعها. لم يكن هناك رجال على صهواتها، لكن في ذلك المكان المحصور، لم يكن بمقدورها التوقف أمام رجال الشاه. مع جلال الدين، كان علاء الدين سريعاً بما يكفي ليتوارى خلف خيمة، لكن آخرين تحركوا ببطء شديد.

كانـــت الجـــياد تجري مثل نهر يفيض على ضفتيه عبر المخيم، وأوقعت العديد من حراسه وسحقتهم بحوافرها.

خلـــف المطيات المغولية جاء الرجال المشوهون. سمع علاء الدين الصرخات الـــتي يطلقونها في المعركة فيما كانوا يندفعون نحوهم خلف مجموعة الجياد. كانوا شـــباناً وكـــباراً في السن، والعديد منهم من دون أطراف. استدار أحدهم ليقتل الشاه، ورأى علاء الدين أن الرجل لا يحمل سوى عصا ثقيلة بيده اليسرى. كانت يـــده اليمنى مفقودة. مات المحارب المغولي بسرعة من ضربة بسيف جلال الدين، لكن بعضهم كان يحمل أقواساً، وارتعش الشاه من صوت السهام. كان قد سمعها مراراً خلال الشهر الذي انقضى.

كانت رائحة الدم والنار تعبق بالجو، ثقيلة لدرجة أضحى معها التنفس صعباً فيما كانت المزيد من الخيام تشتعل بألسنة اللهب. نظر علاء الدين بحثاً عن ضباطه، لكـــنهم كانـــوا جميعاً يدافعون عن أنفسهم. شعر بأنه محاصر، وضعيف في متاهة الخيام المحيرة.

جأر وهو يدفع عقبيه بردفي جواده: "معي! إلى شاهكم! معي!". بالكاد كان يستطيع السيطرة على جواده. في أثناء جريه، كان الجواد يتحرك كما لو أنه تلقى سهماً من قوس، واندفع مسرعاً عبر المخيم تاركاً الدخان والرعب خلفه.

كـــرّر جلال الدين أمره وتبعه الناجون، مرتاحين مثل سيدهم لابتعادهم عن القـــتال. قاد الشاه جواده بسرعة كبيرة، وقف عالياً في ركابه بحثاً عن إشارة على أنـــه يـــسلك الطريق الصحيح. أين كان النهر؟ كان سيتخلى عن ابن ثانٍ مقابل الجلـــوس على ظهر فيل ليكشف الطريق أمامه. حتى بعد أن تحرر رجاله من الجياد الـــتي تجري مذعورة نحوهم والرجال المشوهين، رأى صفوفاً من الأطفال، الصبية والبـــنات علـــى حدٍّ سواء، يندفعون على كلا جانبـــي الخيام. طارت سهام نحو رجالـــه، وتمّ رمـــيهم بسكاكين، لكن لم يسقط أحد منهم ولم يتوقف الشاه حتى أصبح النهر في مرمى بصره.

لم يكن هناك وقت للبحث عن مخاضة. اندفع الشاه في الماء المتجمد، وخدّرته الـــصدمة فـــيما كان الماء يتناثر من كل جانب. فكّر فيما كان جواده يندفع نحو الضفة البعيدة: "الحمد لله أنه ليس عميقاً جداً!". كاد يقع عن السرج عندما كافح

الحيوان للسير في الطين الذي جعله النهر لزجاً. أخيراً، كانت هناك أرض صلبة تحته وشعر بالراحة، وأخذ يلهث وينظر إلى الخلف نحو المخيم المشتعل.

جثم كوكشو خائفاً في ظل خيمة فيما كان مقاتلو الشاه يتجاوزونه مسرعين، من دون أن ينتبهوا إليه. كان المحاربون المشوهون يلاحقونهم بصرخات متحشرجة ويبدون مخيفين. كان كوكشو قد داوى الكثير من جروحهم، وبتر أطرافاً من رجال يصرخون بيأس مثل أطفال صغار، لكن لم يكن لدى أولئك الذين بقوا على قيد الحياة ما يخسرونه. امتطى الرجال الذين لم يكن بمقدورهم المشي جياداً، وضحّى كثيرون بحياتهم وهم يعرفون أنهم لن يحظوا أبداً بفرصة أخرى للقتال من أجل الخان. رأى كوكشو أحد هؤلاء كان قد فقد قدمه حتى الركبة. كان توازنه سيئاً، لكن عندما خفّف مقاتلو الشاه سرعتهم على درب ضيق، لحق المحارب بأحد المتخلفين، ورمى بنفسه عليه، ووقع كلاهما على الأرض. أمسك المحارب به بقوة، وحاول قتله قبل أن يقف العدو على قدميه مجدداً. كانا قد وقعا إلى جانب كوكشو، ورأى كوكشو بصر المحارب يقع عليه، وهو بأمس الحاجة إلى العون.

تراجع كوكشو إلى الخلف، بالرغم من أن أصابعه مست سكينه بعصبية. طعن العدو الذي وقع على الأرض خاصرة المحارب بسكين، ودفع بها إلى الأمام والخلف بقوة عنيفة. بالرغم من ذلك، تابع الرجل القتال، وذراعاه الحديديتان من التدرّب طيلة أعوام تدعمان وزنه. كانت إحداهما حول عنق جندي الشاه، وضغطت بتشنج، وحطمت الأصابع شيئاً تحتها. اختنق الجندي، وتابع الطعن بجنون فيما كان لونه يشحب.

اندفع كوكشو إلى الأمام، واستعمل سكينه لشق حنجرة جندي الشاه، وجرح أصابع المحارب في أثناء قيامه بذلك. اندفع الدم غزيراً عندما مات كلا الرجلين، لكن كوكشو تابع ما يقوم به وقد اختفى خوفه نتيجة غضبه من ذلك العدو البائس. عندما سقط الجندي إلى الخلف، طعنه كوكشو بسكينه مراراً وتكراراً، وتابع ذلك بجنون حتى أصبح يشق جسداً ميتاً.

نهض يلهث، ويداه على ركبتيه فيما كان يتنشق ملء رئتيه الهواء الدافئ. في ظل خيمة قريبة، رأى شقيقة جنكيز تيمولن تحدّق إليه وتساءل عن رأيها فيما

كانـــت قـــد رأته. ابتسمت عندها وشعر بالراحة. لم يكن بمقدوره إنقاذ المحارب المُقعد، وكان شبه واثق من ذلك.

بدا أن ألسنة اللهب حول كوكشو تجعل دمه يغلي، وربما أيضاً الشراسة التي تـــأتي مـــن الـــشعور بنبض الموت تحت يديه. شعر بالقوة فيما كان يقطع ثلاث خطـــوات واسعة نحو الخيمة ويدفع بنفسه إلى الداخل معها، ويغلق الباب خلفهما. كان التفكير في جلدها الذهبـــي المرسومة عليه خطوط من الدم الجاف تملأ ذهنه، وتدفعه للجنون...

كـــان تـــسوبودي وجيبـــي قد رأيا الدخان من بعيد، ووصلا المخيم بحلول اللـــيل، وجواداهما مرهقان. كانت حوالى عشرة آلاف خيمة قد احترقت ورائحة ذلـــك تعبق في النسيم. بالرغم من ذلك، كان هناك مئات النساء والأطفال الذين يتجولون في المخيم يحملون دلاء جلدية، ويسكبون ماء النهر على أي شيء لا يزال يحترق.

كـــان عـــشرات مـــن حراس الشاه ممددين صرعى على الأرض والأطفال يـــركلونهم ويـــشتمونهم كلما مرّوا إلى جانبهم. مر تسوبودي بجثث خمس فتيات ممـــددة بين خيام. ترجل وجثا إلى جانب هذه الجثث لبعض الوقت، وقال كلمات اعتذار بصوت خافت لا يمكن سماعه.

عندما نهض، كان جيبـــي هناك ونظر كلا الرجلين إلى الآخر بتفاهم تام. لن يفرّ الشاه منهما، بغض النظر عن المكان الذي سيذهب إليه.

الفصل التاسع عشر



كانـــت الأمة قد اجتمعت حول أطرار، وطوّقتها بقبضتها. في أوقات عادية، كانـــت فكـــرة تسابق أبناء الخان ستُعدّ حدثاً مهماً للمحاربين. كانوا سيراهنون بثـــروات علـــى الشقيق الذي سيمس أسوار المدينة أولاً. في النهاية، عندما ظهر جوشـــي يمشي مترنحاً، وتشاغاتي خلفه بمسافة قصيرة، مرّ وصولهما مرور الكرام. كانـــت الأمة تنتظر أنباءً عن أن المخيم بأمان وكان لكل رجل هناك أبٌ، زوجات أو أطفال. لم ينظر أحد أفراد فرقة جوشي في عينيه عندما ألقى نظرة إلى جلد النمر الملقـــى فـــوق جواده. كان قد تم قطع رأس الحيوان المحنّط، وكانت تلك الإشارة الوحيدة على أن جنكيز لم يكن قد نسي أن ابنيه تقاتلا أمام محاربين. كان جوشي قد مرّر أصابعه على الجلد الممزق لبعض الوقت، ثم استدار مبتعداً.

عندما وصل أول الخيّالة بعد يوم، ثار أفراد الفرق غضباً لدى سماعهم الأنباء، والـــتي حملـــت كـــل ما كان يخافونه. لبعض الوقت، كان لديهم أمل بأن تكون عائلاتهم قد نجت، لكن خاسار وصل مع الناجين والموتى. جرى المحاربون إلى كل عـــربة لدى وصولها، بحثاً عن زوجاتهم وأولادهم. انتظر آخرون بغضب وصمت فـــيما كانـــت نـــساء مرهقات يجتزهم، وبحثوا عن وجه يعرفونه. كوفئ بعضهم بصرخة حادة وعناق، فيما بقي معظمهم واقفاً، وحيداً.

استـــغرق الأمـــر أكثر من شهر لاستعادة كل محارب سقط على الدرب إلى الـــتلال في الجـــنوب. تُركت جثث جنود الشاه لتتعفن، لكن جيء بأولئك الذين قاتلوا من أجل جنكيز لتكريمهم. تم تجريد جثثهم من الدروع ولفها بلباد أبيض قبل نقلـــها على عربات إلى أعلى قمم يمكن رؤيتها وتركها هناك لصقور ونسور ذلك

المكان. تولت العناية بجثث النساء شقيقاتهن وأمهاتهن، وكانت تشاكاهي، وبورت، وهولن يشرفن على ذلك العمل الكئيب.

كان جنكيز قد جاء ليرى الوجه الميت لشقيقته عندما تم إحضارها. كان قد تم العثور عليها عارية، وعنقها مقطوع بضربة واحدة. شعر بحزن كبير عندما رآها. كانت تلك جريمة أخرى يحمّل الشاه مسؤوليتها. كانت والدته قد طعنت في السن بين ليلة وضحاها لدى سماعها ذلك النبأ، ولهذا بدت هولن مذهولة دائماً وكان ينبغي لأحد قيادتها إلى حيث تريد الذهاب. كانت قد فقدت ابناً قبل أعوام طويلة، ونزفت جروحها القديمة مجدداً، وتركتها محطمة تبكي. عندما أدار جنكيز بصره نحو أطرار، عرف أولئك الذين رأوه أن المدينة ستتحول إلى تراب في مهب ريح حارة.

كانت المنجنيقات قد دُمرت على تلّها، وتمّ إشعال النار فيها عمداً عندما خرجت حامية أطرار من المدينة وانطلقت بعيداً إلى حيث لقي أفرادها حتفهم. كان قد تم العثور على اثني عشر رجلاً وفيّاً حول أخشابها المتفحّمة صرعى، وقد تشبثوا بمواقعهم حتى النهاية. بالكاد كان جنكيز قد تأفف عندما وصله ذلك النبأ وكلف حرفييه من تشن بصنع المزيد منها من أخشاب كوريو.

كانت نهاية الصيف هادئة وارتاحوا واستعادوا عافيتهم، وكان الغضب يطفو دائماً قريباً من السطح. انتظرتهم المدينة ولم يخرج أحد إلى الأسوار العالية بعد ذلك، التي كان السخام لا يزال يكسوها من الزيت المحترق الذي قذفها ساموكا به.

تم العثور على هوسا وساموكا بين كومة من القتلى وتكريمهما لما اصطحباه من أعداء معهما. سرد الرواة حكايتهما في قصائد كانوا يلقونها في المساء، وتم أخذ الجسدين الخاويين من الروح مع الآخرين، ولقيا الطقوس نفسها التي حظي بها أقل محارب شأناً في القبائل. من بعيد، كانت القمم مغطاة بالجثث والطيور الجارحة تحوم مثل سحابة داكنة فوقها، تنتظر الوليمة.

كان الشتاء في ذلك المكان معتدلاً مقارنة بالبرد القارس الذي يعرفونه في الشمال. لم يستطع جنكيز معرفة نوايا حاكم أطرار، لكن بدا أن بداية شهور البرد تجعل المدينة تدب نشاطاً فيما انتظر المغول إعادة بناء المنجنيقات. لم يكن أحد على عجلة من أمره في القبائل. لم يكونوا بحاجة إلى الانتقال للعيش وكانت بقعة واحدة

جـيدة مثل أي أخرى. كانت المدينة ستسقط وإذا عانى سكانها في أثناء انتظارهم، كان ذلك يستحق العناء أيضاً.

عـندما أصبـح الـنهار أقصر، كان جنكيز يرى أحياناً أشكالاً بعيدة على الأسـوار، تشير وتتكلم. ربما كانوا يرون الهياكل تكبر على التل خارج المدينة. لم يكـن يعـرف، أو يهتم. كان كسولاً تماماً أحياناً، وحتى بعد بناء المنجنيقات، لم يُـصدر الأمـر، مفـضلاً الـبقاء في خيمته، وتناول الشراب الأسود وهو يشعر بالإحباط. لم يكن يرغب في رؤية الاتهامات في عيون أولئك الذين كانوا قد فقدوا عـائلاتهم. كان قراره، وعذّب نفسه بالحزن والغضب، ولم يكن ينام سوى عندما يجعله الشراب يفقد وعيه.

فُـتحت أبواب أطرار من دون سابق إنذار في يوم تجمّعت فيه سحب رمادية وأنـذرت بهطول المطر. أطلق جيش المغول عاصفة من الأصوات، ضربوا برماحهم وأقواسهم على دروعهم، وأظهروا غضبهم بإطلاق قعقعة صاخبة. قبل أن يتمكن جنكيز أو من تبقى من قادته من التحرك، خرجت مجموعة صغيرة من الرجال مشياً على الأقدام، وأُغلقت البوابات بسرعة خلفها.

كـان جنكيز يتكلم إلى خاسار عندما سمع صراخ المحاربين. مشى ببطء إلى جواده، وصعد برشاقة فوق السرج، يحدّق إلى أطرار.

كـان اثنا عشر رجلاً فقط قد تركوا حماية الأسوار. فيما كان جنكيز يراقب مـا يجري، رأى محاربيه يندفعون بقوة نحوهم، وقد شهروا سيوفهم. كان بمقدوره إيقافهم، لكنه أبقى فمه مغلقاً بإحكام.

كـان الاثـنا عشر يحملون رجلاً موثق اليدين، والذي يمشي وهو يجر قدميه علـى الأرض الـترابية. انكمشوا خائفين من المحاربين الذين داروا حولهم، ورفعوا أيديهم الفارغة للتأكيد على أنهم غير مسلحين. بالنسبة إلى المغول، كان ذلك أيضاً يعـد اسـتفزازاً. كان أي رجل أحمق بما يكفي ليخاطر بنفسه نحوهم من دون أن يحمل سيفاً أو قوساً يثير رغبتهم في القتال.

راقـب جنكيـز بهدوء فيما كان المحاربون يدفعون جيادهم للجري بسرعة بمـواجهة تقدم الرجال. اقتربوا أكثر فأكثر حتى صدم أحدهم رجلاً بأعلى قائمة جواده، وجعله يقع على الأرض.

تــوقفت المجموعة الصغيرة برعب مفاجئ ورآهم جنكيز ينادون زميلهم الذي كــافح للوقــوف علــى قدميه. دفعهم المزيد من المحاربين للمضي قدماً، وكانوا يــصرخون عليهم ويحثونهم كما لو أنهم نعاج أو ماعز ضائعة. تركوا ذلك الرجل خلفهم وترجل محاربون للإجهاز عليه.

تردد صدى صرخاته عن أسوار أطرار. تابعت المجموعة تقدمها، وألقت نظرة إلى الخلف برعب. وقع آخر أرضاً بضربة من مقبض سيف، وسُلخت فروة رأسه، وغطّــى الــدم وجهه. تُرك أيضاً في الخلف بين مجموعة من الرجال الذين أخذوا يركلونه ويطعنونه. كان جنكيز يمتطي جواده صامتاً فيما كان يراقب تقدمهم.

اقتــربت امرأتان مغوليتان من المجموعة وسحبت أحدهم بعيداً عن الآخرين. صــرخ بــشيء ما بلغته الغريبة، ومدّ كلتا يديه وهو يفتحهما إلى الأمام، لكنهما سخرتا منه، وسحبتاه بعيداً عن مرافقيه. عندما ابتعدتا به، بدأ الرجل يصرخ وهذه المرة لم يمت بسرعة. زادت قوة الصوت شيئاً فشيئاً، واستمر الصراخ.

عــندما لم يــبقَ سوى ستة رجال في المجموعة، رفع جنكيز يده، واستقام في جلسته في شمــس الصباح. ابتعد أولئك الذين كانوا قد رأوا إشارته عن الرجال الملطخــين بالــدماء، وأفسحوا مجالاً للخان. تابعت المجموعة تقدمها وهي تترنح، شــاحبة مما كانت قد رأته. عندما وصلوا إلى جنكيز، وقعوا على الأرض، وتذللوا أمامه. كان سحينهم معفراً بالتراب، وعيناه شاحبتين بشكل ظاهر للعيان.

راقب جنكيز ببرود عندما رفع رجل رأسه وتكلم بلغة تشن، ببطء.

قال: "يا مولاي، لقد جئنا لنناقش السلام!".

لم يردّ جنكيز وإنما نظر فقط إلى أطرار، حيث كانت الأسوار مرة أخرى سوداء بأجساد صغيرة، تراقب ما يجري. ابتلع الرجل الغبار في حلقه، وحاول مجدداً.

"لقــد صــوّت مجلس المدينة على تسليم الحاكم إليك يا مولاي. لقد خضنا حــرباً ضــد إرادتنا ونحن أبرياء. نتوسل إليك الإبقاء على حياتنا وأن تأخذ فقط الحاكم إنالشوك، الذي كان سبب متاعبنا".

جثا الرجل على التراب آنذاك بعد أن نطق بتلك الكلمات. لم يكن يفهم لماذا تعرض ومرافقوه لهجوم. لم يكن حتى واثقاً إن كان الخان قد فهم كلماته. لم تبدر عن جنكيز أي إشارة على ذلك، وطال الصمت.

كــان الحاكم مكمّماً ومقيّداً. سمع جنكيز أنين كلمات مكتومة، وأشار إلى خاسار بتمزيق قطعة القماش. لم يكن شقيقه دقيقاً وانـزلقت السكين على شفتي إنالشوك عندما شق قطعة القماش، وجعله ذلك يصرخ ويبصق دماً.

قــال إنالشوك بالرغم من ألمه: "ليس لهؤلاء الرجال سلطة عليّ! دعني أفاوض على حياتي يا مولاي الخان".

لم يكــن جنكيز قد تعلم سوى بضع كلمات من اللغة التي يتكلمها إنالشوك فقــط، لذلك لم يفهم ما قاله. انتظر بصبر حتى تم إحضار تاجر يتكلم لغته، وكان أحــد أولئك الذين يتكلمون عدة لغات. وصل التاجر وكان عصبياً مثل الآخرين الجالسين على التراب. أشار جنكيز إلى الحاكم بأن يتكلم مجدداً، وأصغى بصبر إلى التــرجمة إلى لغة تشن. خطر له أن يكلف تيموج بتدريب المزيد من الرجال على تلك اللغة إذا كان يرغب في تمضية وقت طويل في أراضي مَن ينطقونها. كان صعباً أن يهتم بذلك بنفسه.

عــندما فهم إنالشوك، ضحك جنكيز بقسوة، ولوح بيده لإبعاد ذبابة كانت تطير أمام وجهه.

قــال: "لقد قيدوك مثل نعجة للذبح وقدّموك إلى عدوك، وبالرغم من ذلك تقول إن لا سلطة لهم عليك؟ أي سلطة أخرى هناك؟".

فيما كان المترجم يتلعثم بالرد، كافح إنالشوك ليجلس، ومسّ بيديه المقيدتين شفتيه اللتين تنــزفان، وفزع من ذلك.

"ليس *هناك* مجلس في أطراف يا مولاي. إنهم مجرد تجار في مدينتي. لا يتكلمون نيابة عن الرجل الذي عينه الشاه بنفسه".

شــرع أحد الرجال من المجموعة التي قادت إنشالوك بالرد عليه، لكن خاسار اندفع نحوه، وركله على مؤخرته.

قــال خاسار بحدة: "اخرس!". شهر سيفه، وتابع أفراد المجموعة المنهكون الحركة بعيون مضطربة. لم تكن هناك حاجة إلى أي ترجمة ولم يحاول الرجل التكلم مجدداً.

قال إنالشوك: "أبق على حياتي، وسأقدم إليك ستة آلاف قطعة فضية".

تــردد المترجم عندما سمع المبلغ، ونظر جنكيز إليه. بعد تلك النظرة الصفراء، ألقى التاجر الذي يرتعش خوفاً بنفسه على الأرض إلى جانب الآخرين.

"يـــا مولاي، لا أعرف الكلمة بلغة تشن. إنه تعبير عن الوزن يستعمله صاغة الذهب والفضة".

رد جنكيز: "لا شك في أنه يعرض الكثير. لقد وضع قيمة لحياته بالمحصلة".

أومأ المترجم حيث كان جالساً.

"إنه وزن عدة رجال فضة يا مولاي. ربما مئة، أو حتى أكثر".

أمعـــن جنكيـــز التفكير في الأمر، ورفع بصره إلى أسوار أطرار التي كانت لا تزال تلوح فوق جيشه. بعد مضي بعض الوقت، حرّك يديه في الهواء.

قـــال: "سيتم منح تلك الهبة للنساء، ليستعملنها كما يرغبن. سيعيش الحاكم حالياً". لاحظ دهشة خاسار بطرف عينه، لكنه لم يقل شيئاً.

تابـــع جنكيـــز قائلاً: "أحضروا تيموج إليّ. إنهم يراقبوننا عن أسوار أطرار. سأمنحهم شيئاً يرونه".

جـــاء شـــقيقه تيموج بسرعة بعد استدعائه، بالكاد نظر إلى التراب الملطخ بالدماء، أو الحاكم الذي كان لا يزال يجلس وعيناه تنتقلان من رجل إلى آخر.

سأل جنكيز: "كم لدينا من الفضة في المخيم يا تيموج؟".

رد تيموج: "ربما مئة عربة يا مولاي الخان. كنت قد سجلت كل قطعة، لكن ينبغي لي أن أعود إلى سجلاتي إذا...".

قـــال جنكيز: "أحضر لي وزن رجل من ذلك المعدن". شعر بإنالشوك يحدق إلـــيه وابتسم ببطء. "وإحدى أدوات الكير المتحركة التي أحضرها تسوبودي. أريد أن تسيل الفضة مثل ماء قبل مغيب الشمس. هل تفهم؟".

رد تـــيموج، بالرغم من أنه لم يكن يفهم إطلاقاً: "بالطبع يا مولاي الخان". أسرع مبتعداً ليقوم بما أمر به شقيقه.

احتشد سكان أطرار على أسوار المدينة لرؤية ما سيحل بالحاكم الذي كانوا قـــد أرســـلوه إلى جـــيش المغول. كانوا قد عانوا من المعركة بين الحامية ورجال ســـاموكا. عـــندما خرجت الحامية من المدينة أخيراً، كان مزاجهم مبتهجاً. كان الشاه قادماً لنجدة المدينة وسيتم إنقاذهم. بدلاً من ذلك، كان جيش المغول قد عاد مجـــدداً مـــن الجنوب لمحاصرتهم. لم يعرفوا إن كان الشاه لا يزال حياً، لكن كيف

يمكن للخان أن يجلس خارج أسوارهم إذا كان على قيد الحياة؟ كان الأمر قد استغرق شهوراً من التجار لتشكيل مجلس وأياماً من المحادثات السرية قبل أن يفاجئوا إنالشوك في سريره ويقيدوه ليتم تسليمه. لم يكن المغول يكنون ضغينة لسكان أطرار، وإنما فقط للرجل الذي كان قد استفزّهم. وقفت عائلات معاً على الأسوار، وتضرّعت بأن يتم إنقاذها.

قبل مغيب الشمس، أمر جنكيز بإحضار إنالشوك ووضعه على بعد مرمى سهم من الأسوار. كان ذلك شيئاً خطيراً، لكنه محّن محقاً أن القوم في الداخل لن يجرؤوا على المخاطرة بإطلاق سهم على الرجل الوحيد الذي يمكن أن يُبقي على حياتهم. على بعد مئة ياردة فقط من البوابات الحديدية، كان إنالشوك يجثو على ركبتيه ويداه مقيدتان أمامه.

لم يكن منظر الكير الذي ينفث دخاناً غامقاً غائباً عن حاكم أطرار. كان قد تم جرّه على عجلات قريباً من أسوار المدينة واستطاع أن يشم رائحة المعدن الساخن في النسيم. ضاعف عرضه ثم ضاعفه مجدداً، حتى قال جنكيز للمترجم أن يصمت وإلا سيخسر لسانه.

كانوا يشكلون مجموعة غريبة، تقف وحيدة أمام المدينة. كان ثلاثة رجال أقوياء البنية يعملون على الكير بتوجيه من تيموج. وقف جنكيز إلى جانب الأسير مع خاسار، لكن باقي جيش المغول وقفوا خلفهم بصمت يراقبون ما يجري.

أخيراً، أومأ عمال الكير بأن النقود الفضية قد ذابت في مرجل من الحديد الأسود. مرّر اثنان من الرجال عمودين خشبيين طويلين عبر مسكتيّ المرجل ورفعاه.

تأوه إنالشوك رعباً عندما رآهم يرفعونه من مكانه، وتحول الهواء ضبابياً فوق المعدن الذي يغلي.

قال وهو يتصبب عرقاً: "مئة ألف قطعة فضية يا مولاي". نظر المترجم إلى الأعلى، لكنه لم يتكلم، وبدأ إنالشوك يتوسل بصوت مرتفع.

عندما تقدم حاملو المرجل إلى الأمام، حدّق جنكيز إلى قدر الفضة السائلة وأومأ برأسه.

قال للمترجم: "قل هذه الكلمات له بلغته الأصلية: لا أحتاج إلى الفضة أو الذهب".

نظر إنالشوك إلى الأعلى بأمل يائس فيما كان المترجم يتكلم.

"ما الذي يفعله يا صديقي؟ كرمى لله (عزّ وجل)، قل لي إن كنت سأموت".

حبس المترجم أنفاسه للحظة، وحدّق بإحباط شديد إلى الفضة التي تندلق من أطراف القدر الحديدية وتغلّفها.

أقر: "أظن أنك ستموت. سيكون ذلك على الأقل سريعاً، لهذا جهّز روحك لرب العالمين".

غــافلاً عن الحديث الدائر، تابع جنكيز الكلام. قال: "اقبل هذه الهدية مني يا حاكم أطرار. يمكنك الاحتفاظ بما تشاء منها".

استدار جنكيز نحو خاسار، ووجهه خال من أي تعبير.

"اجعله يمد يديه، لكن توخَّ الحذر حتى لا تحترق".

ألقــى خاسار إنالشوك أرضاً بضربة على رأسه جعلته يشعر بالدوار. قلّد مدّ اليدين إلى الأمام وبدأ الحاكم يصرخ، رافضاً ذلك. حتى سيف وُضع على عنقه لم يجعلــه يـــرفع يديه. بغضب متصاعد، أمسك خاسار بمرفقه وكتفه وركله بركبته وكسر ذراعه كما لو أنه يكسر عصا. صرخ إنالشوك، وبقي يكافح، وعندما أومأ جنكيز، مشى خاسار حوله ليكسر الذراع الأخرى.

قال المترجم بحدّة: "افعل ما يريدون يا أخي! ربما تعيش". سمع إنالشوك ذلك عــبر اضطرابه ونشيجه، ومدّ يديه المقيدتين، إحداهما تدعم الأخرى. أومأ جنكيز إلى رجلي الكير، وأمالا المرجل، وجعلا الفضة تتجمع عند حافته.

غطى السائل الذي يغلي يدي الحاكم، وبدا للحظة كما لو أنه يحمل ماء مطر لامع. فتح فمه ليصرخ، لكن لم يخرج منه صوت. التصقت أصابعه معاً في الحرارة، وقد ذاب اللحم.

تــراجع إلى الخلف، يتلوى ألماً وهو يحاول الابتعاد ثم سقط على وجهه، واللعاب يـــسيل مـــن فمه وتحول التراب على شفتيه إلى طين. كانت عيناه فارغتين عندما جاء جنكيز ليقف فوقه، وينظر باهتمام إلى يديه اللتين بدتا بضعف حجمهما العادي.

قال جنكيز للجسد المرتعش: "لقد أحضرتني إلى هذه الأرض الجافة. عرضت علــيك السلام والتبادل التجاري، وأرسلت إليّ رؤوس رجالي. لقد منحتك الآن فضتك الثمينة لتحتفظ بها".

لم يقل إنالشوك شيئاً، بالرغم من أن شفتيه تحركتا من دون أن يصدر عنهما صوت.

تابع جنكيز كلامه: "أليست لديك كلمات لتشكرني؟ هل حنجرتك جافة جداً؟ اقبل مني هذا الشراب ليروي ظمأك. ثم ستعرف معنى الألم الذي تسببت به".

كان المترجم صامتاً وخائفاً، لكن إنالشوك لم يكن يسمع. لم يزعج الخان نفسه بمشاهدة رجلي الكير يرفعان المرجل ويسكبان آخر كمية من المعدن فوق وجه الحاكم. انكمش شعر لحيته المدهونة بالزيت، وامتلأ الفم المفتوح، لكن جنكيز حدّق فقط إلى الناس الموجودين على الأسوار. استدار الكثيرون مبتعدين، وقد فهموا أخيراً أن الموت قادم إليهم.

قال جنكيز، وكان لا يزال يحدّق إلى المدينة: "لقد انتهى بناء المنجنيقات يا خاسار. ستبدأ بتدمير الأسوار غداً فجراً. أريدها أثراً بعد عين. لن يُعاد بناء أطراف من جديد عندما نغادرها. سيتم مسح المدينة عن وجه الأرض، مع كل كائن حي فيها".

كان خاسار يشعر بضغينة شديدة مثل شقيقه، وأحنى رأسه.

"كما تشاء يا مولاي الخان".

أرهف الرجل العجوز السمع عبر شبكة صغيرة من القضبان في جدار زنزانة. لم يكن يستطيع رؤية سوى أشكال مبهمة في العتمة، لكنه سمع أصوات شاب يتململ فيما كان ينهض من نوم عميق. كان صبوراً في انتظاره. كم مرة كان قد عمل على إيقاظ فتى من نومه؟ كان قد عرض حديقته في مخدعه الجديد، بكل بهائها الذي يجلبه الشراب حلو المذاق. كان قد جعله يرى الفردوس، وفي الظلام سيرى الجحيم.

ابتسم الرجل العجوز لنفسه عندما سمع صوتاً يصرخ في الأسفل رعباً. تخيل الصدمة والارتباك، وتذكر كيف كان نفسه قد شعر بهما قبل أعوام طويلة. كانت رائحة اللحم المتعفن قوية في تلك الزنزانة الصغيرة، والجثث متفسخة فوق المحارب الشاب. سمعه الرجل العجوز يهمس وينشج فيما كان يكافح لإبعاد الأطراف الرخوة التي تغطيه. كان سيبدو كما لو أن لحظات فقط قد مرّت منذ

كــان يجلــس في مكان جميل جداً قبل أن يصبح الوضع مؤلماً للغاية. كان الرجل العجــوز قد أتقن تنظيم الحديقة واختار النساء جيداً، واعتنى بأدق التفاصيل. كن كائنــات مختارات بعناية وقد أشعل الشراب رغبة الشاب حتى أصبحت كل لمسة رقيقة على جلده تدفعه تقريباً للجنون. ثم أغمض عينيه للحظة واستيقظ مع الموتى المتعفنين.

ركّــز الرجل العجوز بصره ليرى في العتمة. استطاع رؤية حركة مترنحة فيما كان الفتى يدور حول نفسه. سيشعر بشيء طري تحت يديه في الظلام، وربما يحس بحــركة الــدود في اللحم. تأوه الفتى، وسمعه الرجل العجوز يتقيأ. كانت الرائحة كريهة بشكل لا يطاق، ودفع الرجل العجوز بكومة من تويجات الورود بأنفه فيما كان ينتظر. كانت اللحظة دقيقة دائماً، لكنه كان سيد فنه.

كــان الفتى عارياً في ذلك المكان المليء بالجثث الرخوة. رآه الرجل العجوز يــزيل قطعاً من جلد لامع كانت قد التصقت بجلده. سيكون ذهنه مرتبكاً، وقلبه ينــبض بقــوة تكاد تودي بحياته. كان الرجل العجوز يعرف أن الشاب اليافع قد ينجو من مثل تلك التجربة، لكنها ستبقى تطارده باقي حياته.

صــرخ الفــتى فجأة، بعد أن انتبه إلى كومة من اللحم المتعفن. ابتسم الرجل العجــوز مــن تخيلاته المرعبة وجهّز المصباح اليدوي عند قدميه، حيث يمكن لأي ضــوء خافــت أن يفــسد الدرس. في الأسفل، تضرع الفتى إلى الله (عزّ وجل) لتخليصه من حفرة الجحيم كريهة الرائحة تلك.

فــتح الــرجل العجوز باب الزنــزانة، بعثر مصباحه العتمة، انبهر الفتى بالضوء، تــراجع إلى الخلف ويداه فوق عينيه. لسعادة الرجل العجوز، سمع طرطشة بول اندفع من مثانة الفتى. كان قد اختار اللحظة بعناية. فاضت الدموع تحت اليدين المشبوكتين.

قال الرجل العجوز: "لقد أريتك الفردوس. وقد أريتك الجحيم. هل أتركك هنا ألف عمر، أم أعيدك إلى العالم؟ إن تبنّي أحد الخيارين يعتمد على الطريقة التي تتــبعني بهــا. بالله عليك، تكلم بصدق. هل ستكرّس حياتك لي لأوجّهها بما أراه مناسباً؟".

كــان الفــتى في الخامسة عشرة من عمره. عندما جثا وبكى، اختفت الآثار الأخيرة من الحشيش من جسده، وتركه ذلك يرتعش خائفاً.

قال وهو ينشج: "من فضلك! كل ما تطلبه! أنا رهن إشارتك". بالرغم من ذلك، لم يجرؤ على فتح عينيه، تحسباً من أن يكتشف اختفاء ذلك المشهد وأن يجد نفسه وحيداً مرة أخرى.

دفع الرجل العجوز كوباً على شفتيه وجعله يشم الرائحة التي يُقال إنها تمنح الشجاعة. تجرّع الفتى السائل بشراهة، وسال الشراب الأرجواني على صدره وذراعيه العاريتين. همهم الرجل العجوز راضياً بذلك فيما كان الفتى يترنح إلى الخلف، وقد بدأ يشعر بالدوار.

عندما استيقظ الفتى، كان يستلقي على ملاءات نظيفة في غرفة مبنية من حجارة قاسية، في مكان ما من ملاذ الرجل العجوز الواسع المنعزل عن العالم. وحيداً، بكى على ما كان قد رآه، غير مدرك أنه كان لا يزال مراقباً. عندما هز قدميه فوق السرير، وحاول أن ينهض، امتلأ تصميماً بعدم رؤية غرفة الموتى مجدداً. ارتعش عندما تذكر الطريقة التي كانت الجثث قد تحركت ونظرت إليه بها، وكانت كل صورة في ذاكرته أكثر وضوحاً ورعباً من سابقتها. ظن أنه سيفقد الوعي إن لم تبقَ الحديقة في ذهنه أيضاً. كان هدوؤها قد قدم إليه الحماية، حتى في الجحيم.

فُتح الباب الخشبي إلى الغرفة، وسحب الفتى نفساً عميقاً فيما كان يقف أمام الرجل القوي الذي كان قد أخرجه من ذلك المكان. كان الرجل العجوز قصيراً وقوي البنية، وذا عينين قاسيتين في وجه داكن مثل خشب صلد. كانت لحيته مدهونة بالزيت ومشذبة، لكن ملابسه بسيطة كما هي حالها دائماً، وتناسب شخصاً يرفض كل زخارف الثروة المبهرجة. رمى الفتى بنفسه على الحجر البارد، وانبطح على وجهه لخلاصه.

قال الرجل العجوز بلطف: "فهمت أخيراً. لقد قدتك بنفسي وأريتك كلاً من المجد والفشل. أيهما ستختار عندما يحين الوقت؟".

قال، وهو يرتعش: "سأختار المجد يا سيدي".

"حياتك مجرد رحلة طائر في غرفة مضاءة. تنتقل من ظلام حالك إلى ضوء ساطع، خلال وقت قصير للغاية. الغرفة ليست مهمة. حياتك ليست مهمة، وإنما كيف تستعد للتالية".

قال الفتى: "أفهم ذلك". كان يشعر باللمسة اللزجة للأطراف الميتة على جلده وارتعش.

"الأسـف علـى أولئك الذين لا يعرفون ما يأتي بعد الموت. يمكنك الوقوف قـوياً بينـهم، لأنـك رأيـت كلاً من الفردوس والجحيم ولن تتردّد". رفع قائد الحشّاشين الفتى بيد لطيفة ليقف على قدميه.

"يمكـنك الآن الانـضمام إلى إخوانك. رجال مثلك، حظوا بفرصة ليضعوا عـيونهم على شقوق في أسوار الحقيقة. لن تخذلهم، أو تخذلني، عندما تقوم بعملية قتل مثالية من أجل الله (عزّ وجل)".

رد الفتى واثقاً مما يقوله أكثر من أي وقت مضى: "لن أفعل يا سيدي. قل لي مَن ينبغي لي أن أقتل. لن أفشل".

ابتـسم الرجل العجوز، وكان دائماً يتأثر بالإيمان العميق للمحاربين الشبان الـذين يرسـلهم إلى العالم. كان بنفسه واحداً منهم في ما مضى، وعندما تصبح الليـالي مظلمة وباردة، يتوق أحياناً إلى الحديقة التي كان قد رآها. عندما يختطفه المـوت في نهاية المطاف، لا يمكنه سوى التمنّي بأن تكون الحقيقة رائعة مثل الشيء الـذي كان قد ابتكره. سيكون هناك ما يتمنّاه في الفردوس، كما فكر. سيكون شاباً ورشيقاً مثل الفتى الماثل أمامه.

"ستسافر مع إخوانك إلى مخيم خان المغول، الذي يدعو نفسه جنكيز".

تمتم الفتى، وقد شعر بهاجس مخيف: "بين الكفار يا سيدي؟".

"بالـرغم مـن ذلك، سيبقى إيمانك قوياً. من أجل هذا وفقط هذا كنت قد تـدربت معنا طيلة خمسة أعوام. لقد تم اختيارك لمهارتك باللغات. يمكنك أن تعبد الله (عزّ وجل) جيداً بهذه الموهبة". وضع الرجل العجوز يداً على كتف الفتى وقد أحـسّ بحرارة كفّه. "اقترب من الخان، وعندما تحين اللحظة المناسبة، ازهق روحه بضربة واحدة إلى القلب. هل تعرف ثمن الفشل؟".

ابتلع الفتى ريقه بعصبية، وذكرى الحفرة تتوارد في ذهنه.

"لن أفشل يا سيدي، أقسم على ذلك".

الفصل العشرون



لم يكن هناك نسيم في حرّ الصيف. كان الهواء ساكناً والشمس تجعل الشوارع خاوية طيلة ساعات منتصف النهار. لم تكن مدينة ألماشان أكثر من حصن محاط بأسوار قديمة ومغبرة، بالرغم من أن نهراً لامعاً كان يجري على طول خاصرتها. لم يخرج النساء والأطفال إلى ضفتي النهر ذلك اليوم. كانت ألماشان مغلقة بإحكام، مليئة بالناس والحيوانات من المزارع التي تنتشر في كل مكان حولها. كان الخوف يهيمن على الأسواق و لم يكن من الممكن تنظيف البلاليع التي تنقل قاذوراتها بعيداً.

من بعيد، استطاع تجار المدينة سماع دوي خافت، ازداد قوة بمرور الوقت. لم يكن في وسع أولئك الموجودين على الأرض سوى النظر إلى الأعلى نحو نقاط الحراسة على الأسوار والتضرع للنجاة. حتى المتسولون كانوا قد أوقفوا توسلاتهم للحصول على صدقات.

نادى إبراهيم رجاله عند البوابة في الأسفل: "استعدوا!". حدّق من فوق السور، وقلبه يخفق بقوة في صدره. كانت ألماشان محاطة بتربة غير خصبة، لا تصلح للزراعة. بالرغم من ذلك، لم يكونوا قد اعتمدوا أبداً على المحاصيل لتحميع الثروة.

في السراب الناجم عن الحرارة، اقترب صف أسود من الخيّالة بسرعة مخيفة. كانوا السبب الذي جعل مدينة إبراهيم العزيزة تزدحم بالغرباء. كان التجار وأصحاب القوافل قد أسرعوا للدخول ضمن أسوارها طلباً للحماية. كان إبراهيم قد فرض ضريبة عليهم جميعاً، وبلغت نصف البضائع التي كانوا يسعون لحمايتها. لم يجرؤ أحد منهم على التذمر من ذلك. إذا نجوا من هجوم المغول، كان إبراهيم يعرف أنه سيكون رجلاً ثرياً للغاية، لكنه لم يكن واثقاً من ذلك.

كانـــت مدينته الصغيرة قد وقفت طيلة سبعمئة عام على ضفتي ذلك النهر. كـــان تجارها قد وصلوا حتى أراضي تشن وإسبانيا، وجلبوا معهم لدى عودتهم كنوزاً ومعرفة لا تقدّر بثمن، بالرغم من أن ذلك لم يكن ظاهراً عليها حتى لا تثير اهتمام الملوك والسلاطين. كان وجهاء ألماشان يدفعون ضرائبهم بانتظام ويكدّسون ثروات على حساب العبيد الكفار. كانت المدينة الصغيرة قد بنت أسوارها ومخازن حـــبوبها من تلك الأرباح، وأصبحت مركزاً لتجارة العبيد. لم تكن المزارع لتمنح إبراهيم الثروة التي يتمتع بها، أو حتى جزءاً يسيراً منها.

ركّـــز بـــصره في الوهج الساطع، ويداه الممتدتان إلى الأمام تمسكان بحجارة داكنة كانت جزءاً من حصن موغل في القدم. حتى قبل ذلك، كانت المدينة مركزاً لاســـتراحة النخّاســـين إلى جانـــب النهر قبل التوجه جنوباً أو شرقاً إلى الأسواق الكبيرة. كانت ألماشان قد ظهرت من العدم وسيطرت على الأراضي التي حولها.

تنهد إبراهيم لنفسه. مما كان قد سمعه، لم يكن المغول يفهمون التجارة. كانوا ســـيرون مدينة معادية فقط. كان العرق يتصبب من تحت عمامته، لكنه بقي يمسح وجهه بيده، وترك بقعة داكنة على القماش الأبيض البارد لثوبه.

مـــتقدماً على الخيّالة المغول، كان هناك بدوي وحيد يندفع أمامهم، ينظر إلى الخلـــف مـــن فوق كتفه فيما كان يدفع جواده للجري بسرعة. لاحظ إبراهيم أنه يمتطي جواداً أسود مطهماً، وكان حجم وسرعة الحيوان بالكاد يُبقيانه متقدماً على مطارديـــه. نقـــر إبراهيم بأصابعه على الحجر القاسي فيما كان يفكّر في إن كان سيفتح الباب الصغير ضمن البوابة. كان واضحاً أن محارب الصحراء يظن أنه يجري نحو الأمان، لكن إذا بقيت البوابات مغلقة، ربما لن يهاجمها المغول. إذا سمح للرجل بالدخول، إلى متى ستصمد ألماشان في وجه الهجوم الذي سيلي ذلك بالتأكيد؟

أرهـــق التردد إبراهيم فيما كان يستدير وينظر إلى الأسفل. كان مالكو الأسواق والمحالّ لا يزالون يتحدثون عن هزيمة الشاه، وكان بأمس الحاجة إلى أنباء جديدة، لكن لـــيس علـــى حساب المدينة. لا. قرّر إبراهيم إبقاء البوابة مغلقة، وترك الرجل يموت. اشـــتعل ذهنه غضباً من فكرة قيام الكفار بالقضاء على مسلم أمام مدينته، لكن كانت لـــدى إبـــراهيم عائلات كثيرة تتطلع إليه للحفاظ على سلامتها. ربما سيمر المغول بهم مرور الكرام بعد أن أراقوا تلك الدماء. كان إبراهيم سيصلي لأجل روح ذلك الرجل.

كـان صـف المغول قد اقترب بما يكفي ليرى إبراهيم مطياته. ارتعش لرؤية المحـاربين الـشرسين الذين كانوا قد هزموا الشاه علاء الدين محمد، وقضوا على جيـشه أمام أطرار. بالرغم من ذلك، لم يرَ منجنيقات أو عربات، أو إشارة على الأمـة الغازية العظيمة التي كانت قد خرجت من الجبال الشرقية. ربما كان ثلاثة آلاف رجـل يـندفعون نحو مدينته، لكن الفرسان وحدهم لم يكونوا ليثيروا قلق ألماشان. كانت الحجارة تحت يديه تعكس ثروة قرون من النخاسة. كانت الأسوار تحافظ على تلك الثروة بأمان، إضافة إلى أولئك الذين يعيشون داخلها.

شـعر إبـراهيم بغصة مريرة عندما راقب الفارس يشد لجام جواده أمام بوابة المديـنة. أشـار الرجل يائساً، ودار جواده في مكانه فيما كان يصرخ على أولئك الذين يراقبون ما يجري.

صرخ: "دعوني أدخل! ألا ترون أولئك الذين يطاردونني؟!".

شـعر إبراهيم بنظرات الرجال الآخرين تستقر عليه. وقف منتصباً فيما كان يهـز رأسـه. كـان المغول على بعد نصف ميل فقط واستطاع سماع وقع حوافر جـيادهم. كانـت ألماشـان مستقلة ولطالما بقيت كذلك. لم يكن ليخاطر بإثارة غضب الخان الأجنبـي.

فغر البدوي فمه دهشة، وألقى نظرة إلى الخلف نحو المحاربين الذين يجدّون في إثره.

جـأر: "حباً بالله (عزّ وجل)! هل تريدون أن ألقى حتفي؟ لدي أنباء ينبغي لكم أن تسمعوها!".

شـد إبراهيم قبضتيه، وسرت قشعريرة في جسده. رأى أن جواد الرجل كان محمـلاً بخُرج. هل كان مرسالاً؟ ما هي الأنباء التي يمكن أن تكون بتلك الأهمية؟ كان المغول، الكفار، على بعد خطوات قليلة فقط. استطاع إبراهيم سماع المطيات الـتي تـصهل والصرخات المتحشرجة للرجال الذين يمتطونها فيما كانوا يشدّون أقواسـهم. لعن نفسه بصوت خافت فيما كان يشيح بنظره بعيداً. ما كانت أهمية حياة واحدة مقارنة بمدينة؟ كانت ألماشان ستنجو.

أسـفل قدميه، سمع إبراهيم أصواتاً ترتفع وتراجع خطوة إلى الخلف بعيداً عن المتـراس ليلقـي نظرة على المصدر. لرعبه، شاهد شقيقه يهشّم وجه حارس بيده.

وقـع الـرجل، وبالرغم من أن إبراهيم صرخ غاضباً، إلا أن شقيقه رفع العارضة الخـشبية التي تحكم إغلاق البوابة، وأضاء شعاع من أشعة الشمس القوية العتمة في الأسـفل. قـبل أن يتمكن إبراهيم من الصراخ مجدداً، تم إغلاق الباب، وأضحى الـبدوي الذي يلهث بأمان في الداخل. يتّقد غضباً، سارع إبراهيم نـزولاً على الدرجات الحجرية إلى الشارع في الأسفل.

جأر: "أيها الحمقى! ماذا *فعلتم*؟".

لم يجرؤ الحراس على النظر في عينيه، لكن شقيقه هزّ كتفيه فقط. اهتز الباب الصغير ضمن البوابة فجأة، مما جعلهم يقفزون جميعاً. طقطقت العارضة الخشبية من تـأثير الصدمة، وفوقهم، وقع أحدهم إلى الخلف عن الأسوار عندما أصابه سهم في كتفه. فزع إبراهيم عندما صرخ الخيّالة المغول في الخارج محبطين.

قـال إبراهيم غاضباً: "لقد قتلتمونا جميعاً". شعر بالرجل الذي كان قد دخل ألماشان ينظر إليه ببرود وتجاهله. "أعده من حيث جاء وربما يُبقون على حياتنا".

هـزّ شقيقه كتفيه غير مبالٍ. تمتم: "إن شاء الله". كان مصيرهم يتعلّق بالخالق عـزّ وجـل. كـان قد تصرفَ من تلقاء نفسه والرجل داخل مدينتهم. ازدادت الضوضاء من الخارج قوة، وجعلتهم يتصببون عرقاً.

كـان المرسـال يلهث لنجاته بشق الأنفس. وقف للحظة ويداه على ركبتيه ورأى إبراهيم أنه كان قد أدخل الخُرج معه.

قال فيما كان يستعيد روعه: "اسمي يوسف الغاني". لم يكن قد فاته الحديث بين الشقيقين وكانت عيناه باردتين عندما خاطب إبراهيم. "لا تخف على مدينتك. لـيس لدى الحيوانات المغول أسلحة حصار. أسوارك بأمان منهم. كن شاكراً لأن سخط الله (عزّ وجل) لم يحلّ بك لجبنك".

سيطر إبراهيم على غضبه وإحباطه ليرد.

"لأجلـك وحدك، عرّضنا شقيقي جميعاً للخطر. نحن مدينة تجارية ووحدها أسوارنا تحافظ على سلامتنا. ما هي الأنباء المهمة جداً التي خاطرت بحياتك لنقلها إلى ألماشان؟".

ابتسم يوسف، وظهرت أسنان ناصعة البياض في وجهه الذي صبغته الشمس بلون داكن.

"لـديّ نـبأ نـصر عظيم، لكنني لن ألقيه على مسامعك. خذني إلى الشاه وسأجعل معنوياته ترتفع".

طـرفت عينا إبراهيم ارتباكاً، ونظر إلى شقيقه ثم أعاد بصره إلى ذلك الشاب الواثق من نفسه.

"الشاه محمد ليس في ألماشان يا أخي. هل ذلك ما كنت تعتقده؟".

كـشّر يوسف بوقاحة: "لا تمزح معي يا أخي. سيودّ سماع ما أعرفه. خذني إليه ولن أذكر كيف كدت تتركني أموت أمام أسوارك".

غمغـم إبـراهيم ارتباكاً: "بصدق، ليس في ألماشان. هل هو قادم إلى هنا؟ سـأجعل أحدهم يأتيك بطعام وشراب. قل لي ما تعرفه، وسأنقله إلى الشاه عندما يصل".

تلاشت ابتسامة المرسال ببطء عندما استوعب ذلك، وحل محلها قلق عميق.

تمتم لنفسه: "كنت آمل أن يكون هنا".

راقـب إبـراهيم عندما نقر الشاب بأصابع إحدى يديه على الخُرج الجلدي، كما لو أن المحتويات أضحت ساخنة جداً ولا يمكن حملها.

قـال يوسف فجأة: "يجب أن أغادر". انحنى لإبراهيم، بالرغم من أن الإشارة كانـت رسمية ومقتضبة. "كلماتي للشاه وحده، وإذا لم يكن في هذا المكان، ينبغي لي أن أرحل إلى المدينة التالية. ربما لن يجعلوني أنتظر حتى اللحظة الأخيرة ليسمحوا لي بدخول مدينتهم".

كـان إبراهيم على وشك أن يرد، لكن الضوضاء عند البوابة صمتت فجأة مـثلما كانـت قـد بدأت. بعد أن ألقى نظرة عصبية على شقيقه الأحمق، أسرع بالـصعود على الدرجات الحجرية إلى الأسوار. تبعه الرجلان الآخران ومعاً نظروا إلى الخارج.

كـان المغول ينطلقون مبتعدين. تنفس إبراهيم الصعداء وحمد الله (عزّ وجل) لنجاة مدينته. كم مرة كان المجلس قد تذمر من التكلفة عندما عزّز وأصلح الأسوار المتداعية؟ كان على حق في ذلك. لم يكن المغول يستطيعون مهاجمة دياره من دون منجنيقاتهم، وربما حتى معها. كانت ألماشان تسخر من سيوفهم وأقواسهم. راقب إبراهيم بسعادة محاربـي العدو ينطلقون مبتعدين من دون أن ينظروا إلى الخلف.

قـــال يوسف عند كتفه: "إنهم أذكياء. ربما يسعون لخداعنا. لقد رأيت ذلك من قبل. لا تثق بهم يا سيدي".

كانت ثقة إبراهيم بنفسه قد تعاظمت وردّ من دون تحفظ. "لا يمكنهم تحطيم أســـوارنا يا يوسف. الآن، هل تتناول شراباً بارداً في منـــزلي؟ أتطلع بشوق لمعرفة الرسائل التي تحملها".

لإحباطه، هز الشاب رأسه، وكان اهتمامه لا يزال منصباً على الخيّالة المغول.

"لـــن أبقـــى هنا. ليس والشاه قريب مني. ينبغي له أن يعرف بما جرى. مدن أعظم من هذه تعتمد عليّ للوصول إليه".

قبل أن يتمكن إبراهيم من الرد عليه، انحنى الرجل من فوق المتراس، ونظر إلى الأسفل.

سأل: "هل قتلوا جوادي؟".

تنحـــنح شـــقيق إبراهيم. قال: "لقد أخذوه". أطلق يوسف لعنة عندما تابع كلامه: "لدي مطية جيدة، فرس. يمكنك الحصول عليها".

رد يوسف: "سأشتريها منك".

أحنى شقيق إبراهيم رأسه، بالرغم من أنه كان مرتاحاً لذلك العرض.

قال: "إنها قوية جداً. من أجل رجل الشاه، سأمنحك سعراً رائعاً".

لم يكن في وسع إبراهيم سوى أن يقف وقبضتاه مشدودتان فيما كان شقيقه يرسل رجلاً لإحضار ثاني أفضل فرس إلى البوابة. نـــزل المرسال الشاب الدرجات الحجـــرية بخطـــوات واسعة وكان إبراهيم مرغماً على اللحاق به مع الآخرين. لم يـــسعه ســـوى النظـــر إلى الخُرج المنتفخ مرة أخرى، وفكّر في صمت إن كانت المحـــتويات تستحق قطع عنق الرجل. فيما كانت الفكرة تتشكل في ذهنه، بدا أن يوسف يشعر بها وابتسم مجدداً.

قـــال: "ليس هناك شيء ثمين في حقائبـــي يا سيدي". رفع يده وربت على رأسه. "كل رسائلي هنا".

تلـــوّن وجه إبراهيم، وارتبك لأن الشاب كان قد خمّن أفكاره. عندما جاءت الفـــرس، تفحـــص المرسال الحيوان بعين خبيرة بالجياد. بدت عليه علامات الرضا أخـــيراً ودفـــع لشقيق إبراهيم أكثر مما كان قد طلبه، مكرّماً إياه. بتجهم، راقب

إبـــراهيم الـــشاب يتفقد حزام البطن واللجام. فوق رؤوسهم، نادى الحراس بأن الطريق أصبح خالياً.

قـــال إبـــراهيم فجأة: "سأدفع جيداً لسماع تلك الرسائل". لدهشته، تردد المرسال. تابع إبراهيم كلامه، وقد شعر بأولى علامات الضعف: "ذهباً".

رد يوســـف: "حسناً يا سيدي. أحتاج إلى أموال لمتابعة بحثي عن الشاه. لكن ينبغي أن يكون ذلك سريعاً".

فيما كان إبراهيم يكافح لإخفاء سعادته، مرّر المرسال اللجام إلى أحد الحراس وتـــبعه إلى أقرب منـــزل. لم تحتجّ العائلة التي تسكنه عندما طلب منها إبراهيم أن تغـــادره. خـــلال لحظات فقط، كان وحيداً مع المرسال، يتلهف شوقاً لسماع الأنباء.

قال يوسف بلطف: "الذهب الذي وعدت به؟".

لسعادته، لم يتردد إبراهيم. تناول صرّة كاملة من داخل ثوبه، وكانت لا تزال دافئة ورطبة من جلده. رفعها الشاب، ألقى نظرة على المحتويات بابتسامة غريبة قبل أن يخفيها.

قـــال يوسف بصوت يكاد يكون همساً: "هذا لك وحدك يا سيدي. فقري يدفعني للكلام، لكن هذا النبأ ليس للجميع".

حثّه إبراهيم: "قل لي. لن أخبر أحداً".

"لقـــد سقطت بخارى، لكن حامية سمرقند حققت نصراً عظيماً. لقد بعثرت جـــيش الخان في الميدان. خلال هذا العام، سيكونون ضعفاء. إذا عاد الشاه لقيادة المدن الموالية له، سيحظى برؤوسهم جميعاً. *إذا* عاد يا سيدي. لهذا السبب ينبغي لي أن أجده بسرعة".

همس إبراهيم: "الله أكبر. فهمت الآن لماذا لا تستطيع أن تتأخر".

ضغط المرسال بيديه على جبينه، شفتيه وقلبه بإشارة متعارف عليها.

"أنا خادم الشاه يا سيدي. بارك الله (عزّ وجل) بك وببيتك الشريف. ينبغي لي أن أنطلق الآن".

تحـــرك إبراهيم بسرعة بعد ذلك، ومشى بثقة أكبر عائداً إلى البوابة. شعر بعيون رجاله عليه وحتى شقيقه الأحمق حدّق إليه كما لو أنه كان يعرف تلك الرسائل.

مرة أخرى انفتح الباب الصغير في البوابة، ودخلت أشعة الشمس والهواء إلى ذلك المكان الخانق تحت الأسوار. انحنى المرسال لإبراهيم ثم قاد مطيته عبر الفتحة. تم إغـلاق البـاب بإحكـام خلفه ودفع عقبيه بردفي فرسه، وانطلق مسرعاً فوق الأرض الرملية.

كانت الشمس قد غابت قبل أن يرى يوسف فرقتي تسوبودي وجيبـي. قاد فرسـه نحو المعسكر الرئيس الذي كانا قد أقاماه، مدركاً صرخات المحاربين. كان في التاسـعة عشرة من عمره وسعيداً للغاية بما أنجزه. حتى تسوبودي ابتسم من ثقة الشاب بنفسه عندما ترجل مزهواً وانحنى أمام القائدين.

سأل تسوبودي: "هل الشاه هناك؟".

هز يوسف رأسه. "كانوا سيقولون لي أيها القائد".

زمّ تـسوبودي شفتيه انـزعاجاً. كان الشاه وأبناؤه مثل أشباح. كان المغول قـد طاردوا الرجل وحرسه حتى نهاية الصيف وبالرغم من ذلك استطاع الإفلات مـنهم. كـان تسوبودي يأمل بأن يكون قد لجأ إلى المدينة إلى جانب النهر، ذات الأسوار العالية التي لا يمكن مهاجمتها.

قـال جيبـي: "إنه سمكة مراوغة، ذلك الرجل العجوز. لكننا سنحظى به في النهاية. لا يمكنه تخطي خطوطنا من دون أن يراه أحد، حتى من دون الرجال الذين كان قد تركهم خلفه".

تأفـف تسوبودي. "أتمنى لو كنت أتمتع بهذه الثقة. كان ذكياً بإرسال رجاله باتجاه آخر. كدنا نفقد أثره حينها ويصبح تعقّب قلة منهم أمراً أكثر صعوبة". فرك ذراعـه حيـث كان أحد حراس الشاه قد فاجأه. كان كميناً معداً بعناية، لكنهم فاقـوا الحراس عدداً. بالرغم من أن الأمر استغرق بعض الوقت، إلا أن تسوبودي وجيلم كانا قد قضيا عليهم حتى آخر رجل. كانا قد تفقدا وجه كل ميت، لكنهم كانـوا جميـعاً شـباناً وأقوياء. عض تسوبودي شفته عندما تذكر ذلك. "يمكنه الاختباء داخل كهف وإخفاء آثاره. يمكن أن نكون قد تجاوزناه الآن".

قـال يوسـف: "إنهم لا يعرفون شيئاً في المدينة أيها القائد. لم يتوقف الشاه للحـصول علـى إمدادات في أي مكان قريب. كان النخّاسون سيسمعون بذلك ويخـبرونني". كان قد توقع أن تتم تهنئته لنجاح حيلته، بالرغم من أنها كانت فكرة

تسوبودي. بدلاً من ذلك، عاد القائدان إلى نقاشهما كما لو أن شيئاً لم يحدث. لم يذكر صرّة الذهب التي كان قد حصل عليها بسرد بعض الأكاذيب. كانا قد لاحظا الفرس الجديدة التي أحضرها معه واعتبراها مكافأة كافية لقاء عمله. لم يكن القائدان المغوليان بحاجة إلى معرفة كل شيء.

رد جيبي بعد أن نظر إلى يوسف: "قال المستطلعون إن هناك عشرات القرى والبلدات إلى الغرب من هنا. إذا مرّ من هذه المنطقة، فسيتذكر شخص ما مجموعة مسلحة ورجلاً عجوزاً. لا يمكنه الهروب إلى الأبد".

قال تسوبودي بحدّة: "لقد استطاع تدبر *ذلك* حتى الآن". استدار إلى يوسف، الذي كان لا يزال يقف هناك، ينقل ثقله من قدم إلى أخرى. "أحسنت صنيعاً يا يوسف. اتركنا الآن".

انحنى الشاب كثيراً. كان أمراً جيداً أنهم يدفعون الكثير، هؤلاء المغول. إذا استطاع الشاه الهروب منهم حتى يحل الشتاء، فسيصبح يوسف رجلاً ثرياً. فيما كان يمشي عبر المعسكر، أومأ وابتسم لبعض المحاربين الذين يعرفهم. أطبق عليهم الصمت عندما حلّ المساء، مثلما تصمت الذئاب عندما لا تكون هناك فريسة تهاجمها. رآهم يشحذون سيوفهم ويصلحون أقواسهم، وكانوا بطيئين ومنتظمين في عملهم. ارتعش يوسف قليلاً. كان قد سمع عن الهجوم على نسائهم وأطفالهم. لم يكن يحب رؤية ما سيحدث عندما يمسكون أخيراً بالشاه وأبنائه.

فرك جلال الدين عينيه، غاضباً من ضعفه. لم يكن ليدع أشقاءه الثلاثة يرون أن ثقته بنفسه تضمحلّ، ليس وهم يتطلعون إليه كل يوم بخوف وأمل.

فزع في الظلام من أنفاس والده المجهدة، وشهيقه وزفيره البطيئين اللذين بدا أنهما سيستمران على تلك الحال إلى الأبد. كلما كان صوت تنفسه يختفي، كان جلال الدين يصغي يائساً، ولا يعرف ما سيفعله إذا امتد الصمت ليطبق على كل ما حوله.

كان المغول قد أجهدوا الرجل العجوز، كما لو أنهم ضربوه بأحد سهامهم. لم تكن المطاردة عبر السهول والجبال قد سمحت للشاه بأخذ قسط من الراحة واستعادة عافيته. كانت الأرض الرطبة والأمطار التي تنهمر بغزارة تعني أن يعانوا

جميعاً من البرد وآلام المفاصل. بسنيه التي تجاوزت الستين، كان الرجل العجوز مثل ثور، لكن الرطوبة كانت قد تسللت إلى ركبتيه وقضت على قوته. شعر جلال الدين بالدمـــوع تفيض من عينيه وفركهما بقوة كبيرة، ودفع بظاهر يديه في محجريه حتى يخفف الألم من غضبه.

لم يكـــن طريداً من قبل. في الشهر الأول، كان الأمر مثل لعبة بالنسبة إليه. كان وأشقاؤه قد ضحكوا على المغول الذين يقتفون آثارهم، وخطرت لهم خطط سخيفة لإضاعتهم. عندما هطل المطر، تركوا خلفهم آثاراً مزيفة، قسموا قوتهم، ثم قـــسموها مجـــدداً. كانوا قد أرسلوا رجالاً إلى حتفهم في كمائن لم تنفع في إبطاء العدو العنيد الذي يندفع خلفهم.

أرهـــف جلال الدين السمع لأنفاس والده تضطرب في الظلام. كانت رئتاه ضعيفتين، وسيستفيق قريباً، وهو يسعل. كان جلال الدين سيربّت على ظهره كما كـــان قـــد فعل عدّة مرات من قبل، حتى يفقد جلد الرجل العجوز لونه الأصفر ويستطيع النهوض لمتابعة يوم آخر من رحلة الفرار تلك.

همس جلال الدين: "اللعنة عليهم جميعاً في الجحيم". لا بد من أن المغول كان لـــديهم رجال يمكنهم تقفّي آثار طائر في أثناء تحليقه. كان جلال الدين قد خاطر أربـــع مـــرات بإعادة والده إلى الشرق. في كل مرة، كانوا قد رأوا صفاً بعيداً من المستطلعين، منتشرين على مساحة واسعة ويراقبون تحسباً لمثل تلك المحاولة. في المرة الأخـــيرة، تم إرغـــامهم على الجري حتى استنفدوا قواهم، وضاعوا أخيراً في سوق إحـــدى المدن. بالكاد كان جلال الدين قد نجا بحياته، وبدأ سعال والده بعد ليلتين من النوم على أرض رطبة.

كان قد أزعج الأشقاء إرسال الحراس بعيداً. كان من السهل جداً تقفّي آثار مجموعة كبيرة من الرجال، أو حتى العدد القليل منهم كانوا قد بقوا بعناد مع الشاه الـــذي نذروا أنفسهم لخدمته. آنذاك لم يكن قد بقي سوى جلال الدين مع ثلاثة مـــن أشقائه الأصغر سناً للعناية بوالدهم. كانوا قد غيروا ملابسهم وجيادهم أيضاً عـــدّة مرات. لم يكن قد بقي لديهم سوى القليل من القطع الذهبية لشراء الطعام وأشـــياء أخرى، وعندما تنتهي لم يكن جلال الدين يعرف حقاً ما سيحدث. مسّ صـــرة صـــغيرة من الجواهر، مخفية تحت ثوبه، وارتاح لطقطقتها الزجاجية عندما

خلطها ببعضها بعضاً. بعيداً عن تجار الجواهر في المدن الكبيرة، لم يكن واثقاً كيف يستطيع بيع واحدة منها بأمان. كان ذلك يثير الحنق. لم يكن يستطيع وأشقاؤه العيش بالطريقة التي كان المغول يعيشون بها. كان قد ولد على حرير، مع خدم يسارعون لتلبية أدنى متطلباته.

سعل والده في العتمة، ومدّ جلال الدين يده نحوه، وساعده على الجلوس. لم يتذكر اسم البلدة الصغيرة التي كانوا قد توقفوا فيها. ربما كان المغول يندفعون إلى الضواحي فيما كان الشاه يكافح لالتقاط أنفاسه.

هز جلال الدين رأسه، يائساً. كانت ليلة واحدة أخرى على الأرض كفيلة بقتل والده، وكان واثقاً من ذلك. إن كانت مشيئة الله (عزّ وجل) أن يقضوا نحبهم تلك الليلة، ليكن ذلك على الأقل بملابس جافة، ووجبة داخل بطونهم الخاوية. كان ذلك أفضل من أن تقع الذئاب عليهم في أثناء نومهم في الحقول مثل حملان.

ناداه والده بصوت متذمر: "يا بنيّ؟".

ضغط جلال الدين بيد باردة على جبين والده، وكاد يسحبها من الحرارة هناك. كانت الحمّى تجعله يهتز ولم يكن واثقاً إن كان الرجل العجوز يعرفه.

"نعم يا أبتِ. سنوقظ فتية الإسطبل هنا. أنت بأمان الليلة".

حاول والده قول شيء آخر، لكن سعالاً حطم الكلمات بنوبات صوت لا معنى لها. انحنى الشاه فوق حافة السرير ليتنحنح ويبصق بضعف في دلو. كشّر جلال الدين من الصوت. كان الفجر قريباً ولم يكن قد نام بعد، أو يستطيع النوم ووالده بحاجة إليه.

كان بحر قزوين بعيداً أكثر من مئة ميل إلى الغرب من تلك البلدة الصغيرة البائسة في وسط حقول يغمرها ضوء القمر. لم يكن جلال الدين قد سافر إليها من قبل. لم يكن بمقدوره تخيل الأراضي أو الناس هناك، لكنه كان سيختبئ بينهم إذا استمر حشد المغول في دفعهم بعيداً عن الوطن. كان وأشقاؤه بأمس الحاجة إلى الهروب من أولئك الذين يطاردونهم، لكن كيف يمكن تحقيق ذلك؟ كان قد ترك ثلاثة رجال أخفوا أنفسهم تحت أوراق رطبة، حتى يتجاوزهم المغول. إذا كانوا قد نجوا، فسيأتون بالعون مع حلول الشتاء، بالتأكيد، كانت كل ضوضاء في الليل

مرعبة للشاه وأبنائه ولم تكن هناك ابتسامات بعد ذلك من العدو الذي لن يتوقف أبداً، ولن يتمهل حتى يقضي عليهم.

استلقى الشاه علاء الدين محمد مرهقاً على فراش من القش كان جلال الدين قد عثر عليه. كان أبناؤه سيناموون في إسطبل قذر وهو أفضل من أي شيء كانوا قد عرفوه منذ شهور. أرهف جلال الدين السمع عندما، هدأ تنفس والده ولعن سراً مرض الرجل العجوز. كان يبدو أنهم يقطعون مسافة أقصر كل يوم، وانتاب علاء الدين شك في أن يكون المغول يتحركون بمثل ذلك البطء.

عندما نام والده، فكّر جلال الدين في الاستلقاء على الأرض، كما كان قد فعل طيلة شهور الصيف الحارة. كان بحاجة إلى جياد طالما كانت هناك فرصة للهرب، لكن إذا باعوا أو قتلوا الحيوانات، ودخلوا مدينة كمجموعة من المسافرين، كيف يمكن للمغول العثور عليهم؟ سيكونون مجرد رحال، بالرغم من المهارة العالية في تعقب الأثر التي يتمتع بها مطاردوهم. كان قد حثّ الشاه على التوقف في مدينة العبيد القديمة ألماشان، لكن الرجل العجوز لم يكن يرغب في الاختباء مثل متسولين. كان يبدو أن الفكرة نفسها تجرحه. كان أمراً قاسياً جداً أن يتوقف والده عن إعلان وجودهم لوجهاء المدينة وتحدي المغول من فوق الأسوار.

كان جلال الدين واثقاً أن التوقف يعني الموت. كان الجيش الذي يطارد والده يحمل الرعب معه أينما حل وكانت مدن قليلة ستضحّي بعائلاتها من أجل الشاه وأبنائه. في اللحظة التي يحاصر المغول بها مدينة، كان جلال الدين يعرف أنه سيتم تسليمه، أو قتله وهو نائم. لم يكن لديه خيارات كثيرة. حدّق جلال الدين في الظلام إلى الرجل الذي كان قد أصدر أوامر طيلة حياته. كان صعباً أن يقبل أن الشاه ضعيف جداً ليعرف أفضل السبل لتفادي الحيوانات التي خرجت في إثره. بالرغم من أن جلال الدين كان الابن البكر، إلا أنه لم يشعر أنه مستعد للاعتراض على رغبة والده.

همس فجأة: "سنتوقف يا أبي. سنتوارى والجياد عن الأنظار في بلدة ما. لدينا ما يكفي من المال لنعيش ببساطة فيما تستعيد قوتك. سيتجاوزوننا. احجب أبصارهم يا الله. إذا كانت تلك مشيئتك، اجعلهم يتجاوزوننا".

لم يسمع والده في هذيانه، وكانت الحمّى تفتك برئتيه ولا تترك له سوى القليل كل يوم ليسحب أنفاسه.

الفصل الحادي والعشرون



في ضـــواحي بلدة نور، مشى جنكيز مع زوجتيه وأشقائه خلف عربة تجرها جمـــال. بالـــرغم من أن النهار كان قصيراً في الشتاء، إلا أن النسيم لم يكن بارداً. بالنسبة إلى أولئك الذين كانوا قد عرفوا الجليد والثلج كل يوم من طفولتهم، كان الـــيوم ربيعياً تقريباً. كان ذهنه صافياً وهادئاً للمرة الأولى منذ شهور، ونظر بفخر فـــيما كـــان الصغير تولي يقود الحيوانات من لجامها. بالكاد كان ابنه الأصغر في الرابعة عشرة من العمر، لكن مراسم الزفاف كانت قد تمت بطلب من والد الفتاة. أكـــبر مـــن تولي بعامين، كانت آنذاك تعتني بطفل رضيع في خيمتها وحاملاً بولد آخر. كان الأمر قد تطلب أن تتحدث بورت إلى جنكيز لإتمام الزواج قبل أن يجد أحد أقرباء الفتاة نفسه مضطراً إلى الإعلان عن وجود عداوة دم مع ابن الخان.

كـــان الحمل الثاني يظهر على الفتاة آنذاك، بالرغم من أن عائلتها كانت قد بـــذلت قصارى جهدها لإخفائه تحت أثواب سميكة. لا شك في أن والدها كانت تعـــتني بالطفـــل البكر، وكان ذلك ما يفكر فيه جنكيز في أثناء سيره. بدا أن تولي والفـــتاة، سورهتاني مغرمان ببعضهما بعضاً، ولم يكونا يباليان لقوانين القبائل. لم يكـــن غـــير شـــائع أن تظهر علامات الحمل على فتيات يافعات، بالرغم من أن ســـورهتاني أظهرت عزيمة غير اعتيادية بالارتباط مع تولي من دون موافقة والدها. كانـــت قـــد جاءت إلى بورت لتطلب منها أن يقوم جنكيز بتسمية الابن الأول. لطالما كان الخان معجباً بذلك النوع من الشجاعة الفظّة، وكان سعيداً بخيار تولي. كـــان قد دعا الفتى مونغكي، وتعني *سرمدي*، ويناسب شخصاً ستسري دماؤه في عروقه. فيما كان جنكيز يمشي، كان يفكر في إعلان كل الأطفال شرعيين، سواء أولدوا بعد الزواج أو قبله. كان واثقاً أن ذلك سيمنع ظهور مشكلة في المستقبل.

قـال جنكيز بتجهم: "عندما كنت فتى، كان الشاب يضطر إلى السفر أياماً ليصل إلى قبيلة عروسه".

تأفف خاسار من تلك الفكرة.

"لـدي أربع زوجات يا شقيقي. لو أنني كنت مضطراً إلى القيام بذلك كلما أردت زوجة جديدة، لما كنت قد فعلت شيئاً أبداً".

قالـت بـورت وهي تبتسم بعذوبة: "لا أعرف أي منهن تتحملك أكثر". أشارت بإصبعها الصغير إلى تشاكاهي، وقهقهت.

كـشّر جنكيز لزوجته الأولى. كان يرفع من معنوياته أن يراها تبتسم، تقف ثابتة وقـوية، وقـد لوّحت الشمس ذراعيها المكشوفين. حتى جلد تشاكاهي الـشاحب كان قد أضحى ذهبياً في الشهور الحارة، وكانت كلتا المرأتين تتوردان صحة. كان سعيداً لأن بورت غمزته عندما لاحظت أنه ينظر إليها. كان يبدو أنها وتشاكاهي قد توصلتا إلى تفاهم بينهما بعد هجوم الشاه على العائلات. على الأقل لم يكن عليه مراقبتهما عن كثب عندما تكونان معاً، تحسباً لتورطهما مثل هرتين في قفص. كان ذلك سلاماً من نوع خاص.

رد: "الأمة بحاجة إلى أولاد يا بورت".

ضحك خاسار بصوت داعر عندما سمع الإجابة، مما جعل بورت وتشاكاهي تنظـران إلى بعضهما. كان خاسار أباً لسبعة عشر ولداً يعرفهم وفخوراً بأن أربعة عـشر منهم بقوا على قيد الحياة. باستثناء تيموج، كان أشقاء جنكيز قد أنجزوا ما علـيهم لـزيادة عدد الأمة بإنجاب أولاد يحبون بين الخيام. كان تيموج قد تزوج أيـضاً، لكـن لم يـنجم عن ذلك الرباط أولاد بعد. بدلاً من ذلك، كان شقيقه الأصغر يمضي أيامه بفض النـزاعات القبلية. ألقى جنكيز نظرة عليه، لكن تيموج كـان يتجاهل خاسار، ويراقب تولي يترجل عن العربة. لمرة واحدة، شعر جنكيز بالعطف على شقيقه الصغير. كان تيموج قد بنى إمبراطوريته الصغيرة الخاصة ضمن الأمـة، مـع كادر من ثمانين رجلاً وامرأة يعملون لديه. كان جنكيز قد سمع أنه علّمهم القراءة والكتابة. بدا ذلك ناجحاً، وكان جنكيز سعيداً لأن شقيقه لم يكن يـأتي إلـيه بالمـشكلات التي يواجهها كل يوم. مقارنة بخطوات أشقائه المحاربين الطويلة، كان تيموج يمشي بخطوات قصيرة سريعة وشعره الطويل مجدول بأسلوب

تــشن. كان يستحم كثيراً، واستطاع جنكيز شم رائحة زيت معطّر تفوح منه مع كل نسمة. كان هناك وقت يشعر فيه جنكيز بالعار منه، لكن تيموج بدا قانعاً وقد قبلت القبائل ببطء سلطته.

كانــت عائلــة العــروس قد أقامت معسكرها الصغير إلى الغرب من نور، ونــصبت خــيامها بطــريقة تقليدية. رأى جنكيز تولي يتردد عندما خرج رجال مــسلحون لاعتراضه. كان الثوب الأزرق والقميص الجلدي اللذان يرتديهما ابنه واضحين تماماً حتى من بعيد.

ابتــسم جنكيــز عندما جهّز رجال العائلة أقواسهم. بدا أنهم غير قلقين من الآلاف الــذين كانــوا قد جاؤوا لحضور الزفاف ولوّحوا بسيوفهم كما لو أنهم تعرضوا لإهانة. انحنى تولي كثيراً لوالد سورهتاني. لم يسع جنكيز سوى أن يفرغ. كــان تــولي ابن الخان العظيم، بالمحصلة. بعد أن أصبحت سورهتاني أماً، لم يكن والدها ليقبل تولي بسهولة لعدم إظهاره ما يكفي من الاحترام.

تــنهد جنكيز لبورت، وكان يعرف أنها تفهم. كان تولي ابناً صالحاً، بالرغم من أنه كان على ما يبدو يفتقر إلى حيوية والده وأعمامه. ربما كان يبدو على تلك الحــال في ظــل جوشي وتشاغاتي. ألقى جنكيز نظرة إلى يمينه، حيث كان هذان الــشابان يمــشيان مع أوجيدي. لم يكن ولداه الكبيران قد وضعا خلافاتهما جانباً بعد، لكن تلك كانت مشكلة سيتعامل معها في يوم آخر.

أخيراً، انفرجت أسارير والد العروس، ودعا تولي إلى الخيمة لتحية الشابة التي ستــصبح زوجــته. مــشى جنكيز وزوجتاه حتى اقتربوا من تجمّع العائلة، وبارك كوكشو الأرض، ورشّ قطرات من الشراب الأسود في الهواء للأرواح التي تراقب ما يجري.

قال كشيون وهو يربت على ظهري كل من شقيقه وبورت: "إنه ابن رائع. ينبغي لكما أن تكونا فخورين به".

رد جنكيــز: "أنا فخور به، بالرغم من أنني أشك في قدرته على القيادة. إنه رقيق للغاية لوضع أرواح بين يديه".

قالــت بورت مباشرة، وهي تهز رأسها غير موافقة: "لا يزال يافعاً، ولم يكن قد عاش مثل حياتك".

"ربمـــا ينبغي له أن يحيا مثلها. لو أنني تركت الفتية يعيشون مواسم الشتاء في الـــديار بدلاً من إحضارهم إلى هنا، فلربما كانوا قد أصبحوا خانات جميعاً". شعر بأن جوشي وتشاغاتي يصغيان إليه، بالرغم من أنهما كانا يتظاهران بخلاف ذلك.

قـــال خاســـار: "سيكونون كذلك يا شقيقي. سترى. الأراضي التي استولينا علـــيها تحتاج إلى رجال ليحكموها. امنحه بضعة أعوام، ونصّبه شاهاً على إحدى ممالك الصحراء تلك. اترك له فرقة وسيجعلك فخوراً به، لا أشك في ذلك".

أومـــأ جنكيـــز، سعيداً بمديح ابنه. رأى تيموج يستدير باهتمام مفاجئ لدى سماعه كلمات خاسار.

قـــال تـــيموج: "تلـــك فكرة جيدة. في أراضي تشن، كنا نضطر غالباً إلى الاســـتيلاء علـــى المدينة نفسها أكثر من مرة. قاوم بعضها حتى بعد الهجوم الثاني وكان علينا تدميرها. لا يمكننا تركهم ونحن نتوقع بقاءهم تحت سيطرتنا".

كـــشّر جنكيز قليلاً من "نحن" تلك. لم يكن يتذكر قيام تيموج بالهجوم على المـــدن، لكـــنه في مثل ذلك اليوم تغاضى عن الأمر. تابع شقيقه الصغير كلامه من دون اكتراث.

"امنحني السلطة، وسأترك بعض الرجال الجيدين في كل مدينة نستولي عليها مـــن هذا الشاه المفقود، ليحكموا باسمك. خلال عشرة أو عشرين عاماً، ستكون لديك إمبراطورية تضاهي تشن وسنغ مجتمعتين".

تذكـــر جنكيـــز محادثة قديمة مع زعيم تنظيم سرّيّ في مدينة تشن باتو. كان الـــرجل قـــد اقترح شيئاً مشابهاً حينها، قبل أعوام طويلة. كان ذلك مفهوماً صعباً عليه. لماذا سيرغب رجل في حكم مدينة فيما السهول مكشوفة وفارغة؟ بالرغم من ذلك، أثارت الفكرة فضوله و لم يسخر من كلمات شقيقه.

ربمـــا لم يكن بمقدور عائلة العروس إطعام عدد كبير من الناس، لكن تيموج كان قد أصدر أمراً بإشعال كل موقد في المخيم لإعداد وليمة الزفاف. تم مدّ بُسط كبيرة من اللباد على الأرض الترابية، وجلس جنكيز مع أشقائه، وأمسك بقربة من الـــشراب، وقدر يتصاعد منها البخار بإيماءة من رأسه. حولهم، كان المزاج طيباً، وبـــدأت الأغـــاني تصدح من الحناجر احتفالاً بزواج ابنه الصغير. في ذلك المكان، وبعـــد حصارهم لبلدة نور قبل يومين فقط، شعر جنكيز براحة لم يشعر بها طيلة

شهور الحرب. لم يكن تدمير أطراف قد خفف من ثورة غضبه. بدلاً من ذلك، كان قد ازداد. كان قد أثخنهم بالجراح، لكن مع بقاء الشاه على قيد الحياة، شعر جنكيز بأن عليه نشر الدمار في كل أراضي الرجل. كان قد تم تجاوز خط أحمر في الهجوم على النساء والأطفال، وبغياب الشاه نفسه، كان جنكيز قد عاقب قومه بالطريقة الوحيدة التي يعرفها.

قال أخيراً: "لا أحب الفكرة يا تيموج". شحب وجه شقيقه قبل أن يتابع جنكيز كلامه. "لكنني لن أمنع ذلك. لا أريد أن يزحف هؤلاء عائدين إليها بعد تجاوزنا إياها. إذا عاشوا، فسيكونون عبيداً". كافح كي لا يظهر الغضب على وجهه فيما كان يتابع كلامه: "ربما سيكون حكم مدينة مكافأة جيدة لمحاربين قدامى. رجل مثل أرسلان قد يشعر بالنشاط من ذلك التحدي".

رد تيموج مباشرة: "سأرسل مستطلعين للعثور عليه".

تقطّب جبين جنكيز عبوساً. لم يكن قد عنى أرسلان نفسه. بالرغم من ذلك، كان لا يزال يفتقد الرجل العجوز ولم يستطع العثور على سبب للاعتراض.

"حسناً يا شقيقي. لكن أرسل أحداً إلى شن ياي في باتو أيضاً، إذا كان لا يزال على قيد الحياة".

قال تيموج وهو يتأتئ: "ذلك المجرم الصغير! لم أكن أعني منح السلطة لأي شخص. إنه يحكم مدينة باتو حالياً يا شقيقي. يمكنني تسمية عشرة رجال أكثر كفاءة للعمل الذي أفكر فيه".

لوّح جنكيز بيده بعصبية. لم يكن يرغب في فتح الحوار ويكاد الآن ينغمس به ويفسد عليه اليوم.

"إنه يفهم الشيء الذي تعنيه يا تيموج، مما يجعله مفيداً. اعرض عليه الذهب والسلطة. قد يرفض بالرغم من ذلك، لا أعرف. هل أنا مضطر إلى تكرار كلماتي؟".

قال تيموج: "بالطبع لا. لقد أمضينا وقتاً طويلاً في الحرب، ومن الصعب التفكير في ما ينبغي أن يأتي بعدها، لكن...".

قال خاسار وهو يلكزه بمرفقه: "أنت لم تُمضِ الكثير من الوقت في الحرب. لقد أمضيت الكثير من الوقت مع الأوراق، أو لعب دور الخان مع خادماتك".

تلون تيموج مباشرة وكان سيرد، لكن جنكيز رفع يده لإسكاتهما.

قال: "ليس اليوم". امتثل الرجلان، وحملق كل منهما بالآخر.

قرب المدينة، شاهد جنكيز مجموعة من محاربيه يقفزون على أقدامهم. نهض مباشرة، وقد انتابه القلق فجأة فيما كان ثلاثة منهم يهرولون عبر الحشد المفعم بالحياة نحوه. لم يكن ما أفسد عليهم تناول وجبتهم قد انتشر بعد إلى الباقين وأطلقت أكثر من عائلة لعنات بأصوات مرتفعة فيما كان المحاربون يقفزون فوقهم أو يندفعون حولهم. كان كثيرون قد أحضروا كلاباً إلى الوليمة ونبحت تلك الحيوانات بصوت عال.

سأل جنكيز: "ما الأمر؟". إذا كان أحد الحمقى قد افتعل شجاراً في يوم زفاف ابنه، فسيقطع إبهاميه.

رد المحارب وقد أحنى رأسه: "هناك أشخاص يخرجون من البلدة يا مولاي".

من دون كلمة أخرى، مشى جنكيز، وكشيون، وخاسار بخطوات واسعة عبر الحشد إلى الحافة التي تواجه المدينة. بالرغم من أنهم كانوا يمشون سيراً على الأقدام، إلا أنهم كانوا جميعاً مسلحين جرياً على عادة الرجال الذين يحملون دائماً سيوفاً أو أقواساً. لم يكن الرجال والنساء الذين يخرجون من نور يبدون خطيرين. راقب جنكيز باهتمام فيما كان حوالى ستين رجلاً وامرأة يقطعون المسافة بين حفل الزفاف ونور. كانوا يرتدون ملابس زاهية الألوان تشبه ثوب زفاف تولي و لم يبدُ أنهم يحملون أسلحة.

كان الصمت قد أطبق على الحشد الذي اجتمع لحضور الزفاف وكان المزيد من الرجال قد بدأوا يندفعون نحو خالهم، مستعدين للقتل إذا دعت الحاجة. في الوقت الذي اقتربت فيه المجموعة منهم، واجهت صفاً من محاربين متمرسين، رجالاً كان جنكيز قد شرّفهم بدعوتهم للحضور. جعلتهم رؤية مثل هؤلاء المحاربين يتعثرون في خطواتهم، لكن واحداً منهم نادى على الآخرين بلغتهم الغريبة، وكان واضحاً أنه يحثّهم على تمالك أعصابهم.

عندما اقتربوا بما يكفي لسماعهم، عرف جنكيز بعض وجهاء البلدة الذين كانوا قد استسلموا له. أحضر تيموج إلى المقدمة ليترجم.

أصغى شقيقه إلى الوجيه من نور، ثم أومأ برأسه قبل أن يتكلم.

قال تيموج: "لقد أحضروا هدايا لابن الخان، بمناسبة زفافه".

تأفف جنكيز، وكاد يطلب منهم العودة إلى منازلهم ليتركوه وحده. ربما بسبب المحادثة التي كان قد أجراها للتو، تراجع عن ذلك. كان ينبغي له تدمير الأعداء، بالطبع، لكن هؤلاء كانوا قد استسلموا له و لم يفعلوا شيئاً يجعله يشك فيهم. كان مدركاً أن وجود جيش يطوّق بلدة يجعل محادثات السلام تجري بسلاسة مدهشة، لكنه في النهاية أومأ موافقاً.

أخبر تيموج: "قل لهم إنهم موضع ترحيب، اليوم فقط. يمكنهم منح الهدايا لتولي عندما تنتهي الوليمة".

تكلم شقيقه بصوت متحشرج، وانفرجت أسارير المجموعة بشكل ظاهر للعيان فيما كانوا ينضمون إلى المغول على البُسط المصنوعة من اللباد ويقبلون الشاي والشراب الأسود.

نسي جنكيز أمرهم عندما شاهد تولي الصغير يخرج من خيمة حميه ويبتسم للحشد. كان قد تناول الشاي مع العائلة وتم قبوله رسمياً بينهم. كان يمسك بيد سورهتاني، وبالرغم من أن ثوبها كان منتفخاً من الأمام، إلا أن أحداً لم يعلّق على ذلك فيما جنكيز يراقب ما يجري. كان كوكشو مستعداً لتقديم الزوجين، وإسباغ البركات على عائلتهما الجديدة والتضرع ليرزقا بأطفال أصحاء وأقوياء يملأون خيمتهما.

عندما بدأ كوكشو ينشد، ارتعشت تشاكاهي، وأشاحت بنظرها بعيداً عن الرجل. بدا أن بورت تفهمها ووضعت يداً على ذراعها.

تمتمت تشاكاهي: "لا يمكنني النظر إليه من دون التفكير بتيمولن المسكينة".

في الوقت نفسه، تعكر مزاج جنكيز من الذكرى. كان قد عاش مع الموت كل حياته، لكن فقدان شقيقته كان قاسياً عليه. لم تكن والدته قد تركت العزلة التي فرضتها على نفسها من أجل حضور زفاف حفيدها. من أجل ذلك وحده، كانت المدن ستتأسف على اليوم الذي كانت قد سخرت به من رجاله وأرغمته على المجيء إلى أراضيها.

قال جنكيز بملل: "هذا يوم بدايات جديدة. لن نتكلم عن الموت هنا".

رقص كوكشو، ودار حول نفسه فيما كان ينشد، وصوته يذهب بعيداً مع النسيم الذي جفّف عرقهم. وقفت العروس وأفراد عائلتها ساكنين من دون

حــراك، وقــد أحنوا رؤوسهم. وحده الصغير تولي تحرك فيما كان يتولى أولى مهامــه كزوج. راقب جنكيز ببرود فيما كان تولي يبدأ بنصب خيمة من أعمدة خــشبية متقاطعة ولباد سميك. كان ذلك عملاً شاقاً بالنسبة إلى فتى بالكاد بلغ مــشارف الــرجولة، لكــن ابنه كان سريعاً بالعمل، وبدأ المسكن يتخذ شكله النهائي.

قال جنكيز فجأة بصوت خافت: "سأنتقم لتيمولن وكل الآخرين".

نظرت تشاكاهي إليه وأومأت.

قالت: "لن يعيدها ذلك إلى الحياة".

هزّ جنكيز كتفيه غير مبال.

"هــذا ليس من أجلها. ستكون معاناة أعدائي وليمة للأرواح. عندما أصبح عجوزاً، سأتذكر الدموع التي ذرفوها، وسيجعل ذلك عظامي ترتاح".

كــان المزاج الطيب الذي ساد حفل الزفاف قد اختفى، وراقب جنكيز بنفاد صــبر فــيما كان والد العروس يتقدم إلى الأمام، ويساعد تولي الصغير على رفع عارضــة الخيمة الخشبية المركزية، البيضاء والجديدة. عندما انتهى العمل، فتح ابنه الباب الملون وقاد سورهتاني إلى خيمتها الجديدة. نظرياً، كانا سيتمان الزفاف تلك الأمسية، بالرغم من أنه كان واضحاً أنهما أنجزا تلك المهمة الخاصة. تساءل جنكيز متكاسلاً كيف سيتدبر ابنه خرقة ملطخة بالدماء ليؤكد على فضّه لعذريتها. كان يأمل بأن يتحلى ابنه بالمنطق ولا يهتم لمثل ذلك الأمر.

وضــع جنكيــز قربة من الشراب الأسود جانباً ووقف، ونفض الفتات عن ردائــه. كــان يمكــن أن يلعن تشاكاهي لإفسادها اليوم عليه، لكن تلك كانت اســتراحة قــصيرة مــن العمل الدموي الذي ينتظره. شعر بأن ذهنه قد بدأ يمتلئ بالخطط والخدع الحربية التي يحتاج إليها، واستقر على أفكار تدور حول الاستيلاء على المدن وتطهير الأرض من كل أولئك الذين قاوموه.

بــدا أن أولــئك الذين معه شعروا بتغير مزاجه. لم يعد الأب الحنون آنذاك. وقف الخان العظيم أمامهم مرة أخرى و لم ينظر أي منهم إلى عينيه الهادئتين.

نظــر جنكيــز حوله، نحو أولئك الجالسين الذين كانوا لا يزالون يأكلون أو يشربون، يستمتعون بالدفء والمناسبة. لسبب ما، كان كسلهم يزعجه.

حاَر: "أعد المحاربين إلى المخيم يا كشيون. اجعلهم يتخلصون من دهن الشتاء بــركوب الجـياد والتدرب على الرماية". انحنى شقيقه لبرهة، مشى مبتعداً، يبعثر الرجال والنساء، ويصدر الأوامر بصوت عال.

تنفس جنكيز بعمق وتمطّى. بعد أطرار، كانت مدينة الشاه بخارى قد سقطت من دون قتال تقريباً. كانت حاميتها المؤلفة من عشرة آلاف رجل قد هجرتها ولا تزال تتوارى عن الأبصار في مكان ما في التلال، خائفة منه.

طقطق جنكيز بلسانه لجعل جوشي ينظر إليه.

"خذ فرقتك إلى التلال يا جوشي. اعثر على تلك الحامية ودمرها".

عــندما ذهــب جوشي، شعر جنكيز بقليل من الراحة. كان الشاه مختبئاً في الغــرب البعــيد ويطارده كل من تسوبودي وجيلم. حتى إذا قضى عليهم وعاد، فستكون إمبراطوريته قد أصبحت رماداً وأنقاضاً.

"تــيموج؟ أرســل مــستطلعيك إلى سمرقند، واجعلهم يعودون بكل تفصيل يعــرفونه عـــن الــدفاعات. سأقود الهجوم، مع تشاغاتي وجوشي عندما يعودان. سنحول مدنهم الثمينة إلى تراب".

وقف جلال الدين وظهره إلى باب الغرف التي كانوا قد استأجروها في بلدة خــودي، والتي تبعدهم عن الضوضاء ورائحة السوق الكريهة. كان يكره المكان الــصغير المتسخ على حافة رمال الصحراء التي تمتد مسافة شاسعة حيث لا تعيش سوى السحالي والعقارب. سرت قشعريرة في جسده. كان قد عرف متسولين من قــبل، بالطــبع. في مدينتي سمرقند وبخارى الكبيرتين كانوا يتكاثرون مثل جرذان، لكــنه لم يكن مضطراً إلى السير بينهم من قبل، أو المعاناة مع أيديهم الموبوءة التي تشده من ثوبه. لم يكن قد توقف ليدس نقوداً في أيديهم وكان لا يزال يتقد غضباً من اللعنات التي صبوها عليه. في أيام أخرى، كان سيأمر بإحراق البلدة لتلقّيه مثل تلــك الإهانــة، لكن للمرة الأولى في حياته، كان جلال الدين وحيداً، مجرداً من السلطة والنفوذ اللذين بالكاد كان لاحظهما قبل أن يختفيا.

قفز جلال الدين عندما سمع طرقاً إلى جانب رأسه تماماً. ألقى نظرة يائسة في أرجــاء الغــرفة الــصغيرة، لكن والده كان يستلقي ممدّداً في الأخرى وأشقاءه في

الخارج يشترون الطعام للعشاء. مسح جلال الدين العرق عن وجهه بحركة حادة، ثم فتح الباب على مصراعيه.

كان مالك المنـــزل يقف هناك، ينظر بتشكك إلى الداخل كما لو أن جلال الدين قد جعل اثني عشر شخصاً آخرين يتسللون إلى الكوخ الصغير الذي كان قد استأجره. شرع جلال الدين في حديث مع المالك، وهو يسدّ مجال رؤيته.

قال بحدة: "ما الأمر؟".

عبس الرجل بوجه النـــزيل الشاب المتغطرس، وكلماته الحادة.

"إنه الظهر يا سيدي. لقد جئت من أجل الإيجار".

أومـــأ جلال الدين بنـــزق. كان الدفع يومياً بدلاً من كل شهر علامة على عـــدم الثقة. افترض أن البلدة لم تكن قد رأت الكثير من الغرباء، خاصة منذ جاء المغـــول إلى المـــنطقة. بالرغم من ذلك، كان يعتمل في صدر الأمير أن يُعامل مثل رجل قد يهرب من ديونه في الليل.

لم يعثـــر جـــلال الدين على نقود في جيبه وكان عليه أن يسير في الغرفة إلى طاولـــة خـــشبية متهالكة. وجد صرّة صغيرة هناك، كان قد عدّ ما فيها في الليلة الـــسابقة. لم تكن تكفيهم أكثر من أسبوع وكان والده لا يزال مريضاً ولا يمكن نقلـــه. تـــناول جلال الدين خمس قطع فضية، لكنه لم يكن سريعاً بما يكفي ليمنع المالك من الدخول.

قال جلال الدين وهو يضع النقود في يديه: "إليك". كان سيأمره بأن يغادر، لكـــن الـــرجل لم يبدُ على عجلة من أمره، وأدرك جلال الدين أن أسلوبه لم يكن ينـــاســـب البقاء في مثل ذلك المسكن الفقير. حاول أن يبدو متواضعاً، لكن المالك بقي حيث كان، ينقل النقود الملوثة بالزيت من يد إلى أخرى.

قال الرجل فجأة: "هل لا يزال والدك مريضاً يا سيدي؟". تقدم جلال الدين خطـــوة لمنعه من رؤية ما بداخل الغرفة الأخرى عندما تابع كلامه. "أعرف طبيباً بارعـــاً. إن كلفـــة إحضاره مرتفعة، لكنه تدرّب في بخارى قبل أن يعود إلى عائلته هنا. إذا كان بمقدورك أن تدفع له؟".

نظـــر جلال الدين مجدداً إلى كومة النقود الصغيرة. في جيبه الداخلي، كانت لديـــه يواقـــيت كلّ ياقوتة بحجم مفصل إبهامه. كانت تشتري الكوخ الذي يقف

تحت سقفه، لكن فوق كل اعتبار آخر، لم يكن يريد أن يلفت الانتباه إلى عائلته. كانت سلامتهم تكمن بعدم معرفة أحد بهم.

في الغرفة الخلفية، سمع والده يتنفس مجهداً وأومأ، وقد استسلم.

"يمكنني أن أدفع. عليّ أن أعثر على تاجر جواهر أولاً، شخص يمكنه شراء ما لدي".

"هناك العديد منهم يا سيدي. هل يمكنني أن أسأل إن كان هناك أحد آخر يدّعي أحقيته بالجوهرة التي ترغب في بيعها؟".

للحظة، لم يفهم جلال الدين السؤال. عندما استوعب الأمر أخيراً، تورّد غضباً.

"إنها ليست مسروقة! أنا... ورثتها عن والدي. أريد رجلاً شريفاً يمنحني سعراً جيداً لها".

أحنى المالك رأسه، محرجاً من الإهانة التي كان قد وجهها إليه.

"أعتذر يا سيدي. لقد واجهت أوقاتاً صعبة بنفسي. أنصح بعبّود، صاحب الدكان الأحمر في السوق. يتعامل بالذهب والأشياء الثمينة من كل الأنواع. إذا قلت إن صهره قد أرسلك، فسيمنحك سعراً عادلاً".

تابع جلال الدين: "وبعده الطبيب؟ اجعله يأتي هذا المساء".

"سأحاول يا سيدي، لكن لا يوجد الكثير من الرجال الذين يمتلكون علمه في خودي. إنه مشغول جداً".

لم يكن جلال الدين معتاداً على المساومة، أو دفع رشى. انقضت لحظة وكان على مالك المنزل أن يلقي متعمداً نظرة على كيس النقود قبل أن يفهم جلال الدين ما يعنيه. رفع الأمير الشاب الكيس عن الطاولة ومنحه للرجل، محاولاً ألا يتراجع عندما تماست يداهما.

رد الرجل مبتسماً: "سأقول له إنها خدمة لي يا سيدي. سيأتي عند المغيب".

رد جلال الدين، وقد بدأ صبره ينفد: "جيد. اخرج الآن". لم يكن ذلك عالمه. لم يكن قد رأى النقود قبل بلوغه سن الرشد وكان يستعملها فقط للمراهنة مع ضباط والده. شعر بوصمة عار من تلك المقايضة، كما لو أنه قد انغمس في علاقة محرّمة. عندما أُغلق الباب مجدداً، تنهد لنفسه، يائساً.

الفصل الثاني والعشرون

تفحّص الجوهري عبّود الرجل الذي يقف أمامه بالحرص نفسه الذي تفقّد به الياقوتة التي كان قد أحضرها. جعله كلاهما يتوجس خيفة في نفسه، بالرغم من أن انجذاب صهره إلى الربح كان يوازي قوة انجذاب عبّود نفسه.

لم يكن الرجل الذي ادّعى أنه ابن تاجر يتمتع بأي خبرة في التجارة، وكان ذلك واضحاً تماماً. كانت الطريقة التي حدّق بها إلى الدكاكين فيما كان يشق طريقه إلى محل عبّود غريبة جداً بالفعل. أي نوع من الرجال لم يزر سوقاً من قبل؟ ثم جعلت غطرسته شعر عنق عبّود ينتصب، وكل غرائزه تتحفّز تحسباً للخطر. كان قد أمضى أربعين عاماً في التجارة في ثلاث مدن، ويثق بأحاسيسه. كانت للرجل يدان متمرستان على حمل السيف كبداية. كان يبدو جندياً أكثر منه تاجراً، ومشى بخطوات واسعة عبر السوق كما لو أنه يتوقع أن يبتعد الآخرون عن طريقه. كان عبّود قد راقب بمتعة عندما فشل هؤلاء في الابتعاد عنه، وقد تعثر الشاب باثنين من صبية السوق كانا يبيعان الدجاج. لولا السيف على ردفه، ربما كانا أتبعا سخريتهما بوابل من الضربات.

كان السيف رائعاً للغاية. تلهف عبّود لحمل السلاح و لم يسعه سوى أن يتساءل عن غباء رجل يحمل مثل ذلك الشيء في سوق. من الفضة المشغولة على قراب السيف، كان يساوي حتى أكثر مما كان الجوهري قد وضعه في واجهة المحل ليراه الجميع. كان عبّود قد غطّى الجوهرة بيده وأومأ إليه بالدخول قبل أن يتسبب الأحمق بقتلهما، لكن السيف كان يستطيع تحقيق ذلك بأي حال. كانت حياة الإنسان رخيصة في خودي ومثل ذلك السيف يستحق أن يخاطر بعض الأشرار الشبان الذين يحملون سكاكين بحياتهم من أجل الحصول عليه. كان سيطعم

عائلاتهم لعام إذا باعوه للشخص المناسب. تنهد عبّود متسائلاً إن كان عليه تحذير عميله. كان سيتم عرض السيف عليه قبل انقضاء اليوم، وربما يكون لا يزال ملطخاً بالدماء.

لم تظهر أي من تلك الأفكار على محياه فيما كان يدفع بجلال الدين إلى الجزء الخلفي من المحل الصغير. كانت لديه طاولة هناك، بعيداً عن النظرات الفضولية لمرتادي السوق. قدّم كرسياً إلى جلال الدين فيما كان يجلس بنفسه ويرفع الجوهرة ليراها في ضوء شمعة، باحثاً عن شقوق قبل أن يزنها بدقة كبيرة باستعمال ميزان نحاسي صغير.

هل كانت مسروقة؟ لم يكن يظن ذلك. لم يكن أي لص ليضعها بين ملابسه بتلك الطريقة. كان الرجل يمتلكها، بالتأكيد، لكن بالرغم من ذلك لم يترك القلق عبّود وشأنه. كان يعرف أن سبب نجاحه يكمن في مقدرته على قراءة علامات اليأس على وجوه أولئك الذين يأتون إليه. كان يعرف سلفاً حاجة الرجل إلى طبيب. كان يظن أنه يستطيع الحصول على الجوهرة مقابل جزء من قيمتها، لكنه وضعها أمامه كما لو أنها تحرقه. كانت هناك أشياء كثيرة على غير ما يرام بشأن الرجل وجوهرته. قال عبّود لنفسه إن عليه إبعادهما عنه. كان سيفعل ذلك لو أن الجوهرة لم تكن مثالية.

قال بتردد: "لا يمكنني بيع مثل هذه الجوهرة في خودي. أنا آسف".

فزع جلال الدين. هل كان الرجل العجوز يرفض مساعدته؟

قال: "لا أفهم".

مدّ عبّود يديه.

"عملي هو الحصول على عمولة من بيع مصوغات ذهبية رائعة. خودي مكان فقير ولا أحد هنا سيعطيني أكثر مما سأدفعه لك. سأكون مضطراً إلى إرسال الجوهرة مع قافلة إلى بخارى أو سمرقند، أو ربما عشق أباد أو مشهد في الشمال". مرّر إصبعاً على الجوهرة كما لو أنها مجرد لعبة أطفال. "ربما يكون هناك مشترٍ في كابول، لكن كلفة نقلها تلك المسافة البعيدة ستوازي الربح الذي سأجنيه منها. كما أقول، أنا آسف، لكنني لا أستطيع شراءها".

شعر جلال الدين بالارتباك. في حياته كلها، لم يكن قد ساوم على أي شيء أبداً. لم يكن أحمق وأدرك أن الرجل ربما كان يعبث معه، لكن لم تكن لديه فكرة

عمـــا ينبغـــي له أن يقدّمه. بنوبة غضب مفاجئة، فكّر في انتزاعها منه والمغادرة. وحدها فكرة أن طبيب والده سيصل مع مغيب الشمس أبقته في مكانه. راقبه عبّود عـــن كثب، مخفياً سعادته من مشاعر الشاب الظاهرة للعيان. لم يستطع مقاومة أن يمس سكينه، ويدفع الجوهرة عبر الطاولة كما لو أنه ينهي الاجتماع.

اقتـــرح عبّود: "هل يمكنني إحضار شاي؟ لا أحب أن يغادر رجل محلي من دون حتى أن يشرب شيئاً".

قـــال جـــلال الدين: "ينبغي لي أن أبيع هذه. هل يمكنك أن توصي بشخص آخر يمكن أن يأخذها الليلة ويمنحني سعراً جيداً؟".

رد عـــبّود كمـــا لو أنه لم يسمع السؤال: "سأرسل بطلب الشاي". تجاهل أصوات التحذير التي كانت قد أزعجته في البداية. *ينبغي لي أن أبيع هذه؟* تمنّى أن يرســـل الله (عـــزّ وجل) إليه صفاً من الحمقى مثل هذا الرجل وسيتقاعد في قصر تنسِّم عليه نسائم باردة.

فـــيما كان خادمه يحضر الشاي بإبريق فضي، لاحظ عبّود الطريقة التي يتفقّد بها العميل الشمس في الخارج. كانت سذاجته مغرية للغاية.

قـــال عـــبّود: "أنت محتاج يا صديقي. لم أكن أحب قول ذلك كما لو أنني سأستغل حاجتك. هل تفهم؟ سمعتي هي كل شيء بالنسبة إليّ".

رد جـــلال الـــدين: "أفهم، بالطبع". كان الشاي لذيذاً، وارتشف الشراب الساخن مرتبكاً، متسائلاً عما ينبغي له أن يفعله. انحنى الجوهري العجوز إلى الأمام، وتجرأ على أن يربت على ذراعه كما لو أنهما صديقان.

"قـــال لي صـــهري إن والـــدك مريض. هل يمكنني أن أخذل ابناً صالحاً؟ لا وعمـــري. ســـأقدم إلـــيك عرضاً للجوهرة، يكفي لتدفع للطبيب على الأقل. إذا احتفظت بالياقوتة، ربما سأجد مشترياً في أعوام قادمة، من يعرف؟ لا يرتكز عملي علـــى الـــربح السريع فقط. هناك أوقات ينبغي لي أن أفكر فيها في روحي". تنهد عبّود بصوت مسموع. ظنّ أنه ربما يكون قد بالغ بتلك الجملة الأخيرة، لكن وجه الشاب أشرق وأومأ برأسه.

قال جلال الدين، وقد انفرجت أساريره بكل وضوح: "هذا لطف كبير منك يا سيدي".

قـــال عبّود بتقوى: "ألن تتم محاسبتنا جميعاً؟ لم يحقق محلي أرباحاً منذ وقت طـــويل، مع كل هذا الحديث عن الحرب". توقف عندها، وقد لاحظ التوتر على وجه الشاب.

"هـــل فقدت شخصاً يا صديقي؟ الله (عزّ وجل) يمنح ويأخذ. كل ما يمكننا فعله هو تحمّل هذه الحياة".

قال جلال الدين: "لا، ليس الأمر كذلك. كنت قد سمعت عن معارك عظيمة في الشرق".

"بالفعل. هذه أوقات صعبة". كان الشعور بالحذر قد عاد بقوة، ومرة أخرى فكّـــر عبّود في عدم التعامل مع الرجل. كانت الياقوتة تلمع على الطاولة ووقعت عيناه عليها مجدداً.

"مـــن أجلك يا صديقي، سأعرض عليك أربع قطع ذهبية. ليست هذه قيمة الجوهـــرة، ولا حـــتى نصفها، لكن ذلك سيغطي تكلفة الطبيب. لا يمكنني تقديم المزيد".

أســـند ظهره إلى الكرسي استعداداً للمفاوضات، لكن لدهشته، وقف جلال الدين.

قال: "حسناً. أنت رجل صالح".

أخفى عبّود ارتباكه الواضح بالوقوف أيضاً ومصافحة اليد الممدودة نحوه. هل ذلك ممكن؟ كان الحجر يساوي أربعين ضعف ما كان قد عرضه!

أخفـــى عبّود سعادته بأفضل ما يستطيع عندما منحه القطع الذهبية الصغيرة. كـــان قراب السيف يلمع ساطعاً في العتمة وكان عليه أن يشيح بصره بعيداً عنه. كان يدين لذلك الأحمق بشيء ما.

"يـــا صديقي، سأمنحك قطعة قماش لتلف ذلك السيف الذي تحمله. هناك لصوص في السوق، بالرغم من أنه يخزنني الإقرار بذلك. ربما لاحظوا وجودك هنا. إذا كـــان لديك أصدقاء، دعني أرسل بطلبهم ليسيروا معك في طريق عودتك إلى المكان الذي تنــــزل فيه".

أومأ جلال الدين متردداً.

"هذا لطف منك يا سيدي، وأكثر مما كنت آمل في مثل هذا المكان".

ضحك عبّود بصوت خافت.

"لدي أبناء أيضاً. سأصلّي من أجل أن يتعافى والدك بسرعة".

استغرق الأمر حتى الغروب تقريباً ليحضر خادم عبّود ثلاثة رجال من منزل صهره. كانوا متغطرسين وغرباء مثل الشخص الذي كان يحمل الياقوتة وتساءل عبّود إن كان ينبغي له أن يراقب الكوخ. إذا كانت لديهم حجارة كريمة أخرى للبيع، لم يكن يرغب في أن تذهب إلى أحد منافسيه. كانوا سيجرّدون هؤلاء الأبرياء حتى العظم. نعم، سيكون من الجيد اتخاذ إجراءات مناسبة تحسباً لوقوع مشكلة. جعله شيء يتعلق بهؤلاء الشبان الأربعة يشعر أن مشكلة على وشك أن تقع بالفعل.

كان جلال الدين مبتهجاً عندما مشى بخطوات واسعة عبر الحشود مع أشقائه. كانت الشمس على وشك أن تغيب وسيكون الطبيب في طريقه إليهم. كان قد عقد صفقة تجارية وعاد والذهب في جيبه. كان شعوراً غريباً ولم يرَ تعبيرات وجوه أشقائه العصبية في البداية. مشوا بسرعة إلى جانبه وكانت رؤية وجوههم القاسية كافية لإبعاد شابين هزيلين كانا يتسكعان إلى جانب محل عبّود، وقد حدّقا إليهم بفظاظة. عندما اقتربوا من الكوخ الصغير الذي كانوا قد استأجروا غرفاً فيه، لاحظ جلال الدين التوتر على أشقائه أخيراً.

تمتم: "ما الأمر؟".

تبادلوا نظرات.

"المغول يا شقيقي. لقد رأيناهم في الأسواق. إنهم هنا".

مرّر الطبيب أصابعه الطويلة على بطن الشاه، يتفحص أعضاءه الداخلية. راقب جلال الدين باشمئزاز فيما كان جلد والده يتغضن ويضعف كما لو أنه لم يعد متصلاً باللحم. لم يتذكر أنه رأى والده مكشوفاً بتلك الطريقة وخائر القوى في أي وقت من حياته. كان الطبيب يبدو مهنياً ممتازاً، لكن جلال الدين كان معتاداً على التعامل مع أطباء البلاط. كان كل من هؤلاء قد بنى سمعة طيبة قبل أن يقبل الشاه به. تنهد جلال الدين بصمت. وفقاً لما يعرفه، كان هذا الرجل دجالاً.

دلّك الطبيب جسد مريضه، ونظر عن قرب، وأرهف السمع لأنفاسه المجهدة. كان والد جلال الدين مستيقظاً، إلا أن عينيه كانتا صفراوين حول القزحيتين

وكـــان وجهه شاحباً. لم يكن في وسع جلال الدين فعل شيء سوى مراقبة الرجل يشد جفن والده إلى الأسفل ويستهجن ما يراه.

تمــتم الطبيب بأوامر سريعة، وبدأ خادمه الفتي بغلي ماء ووضع أعشاب فيه. كــان مــريحاً لجلال الدين أن يتولى العناية بوالده رجل آخر، وللمرة الأولى منذ شهور، لم يشعر بأنه عاجز تماماً.

أخيراً، انتهى الفحص، ونهض الطبيب.

قال لجلال الدين: "كبده ضعيف. يمكنني معالجة ذلك، لكن رئتيه هما المشكلة الأكثر إلحاحاً".

لم يشر جلال الدين إلى أن أي شخص يمكنه أن يعرف ذلك التشخيص. كان يدفع ذهباً للعناية بوالده وتمسّك بكل كلمة. أمسك به الطبيب من ذراعه وقاده إلى مجمر، حيث كانت أوراق داكنة تتحرك وتغلي في سائلها.

"اطلــب من مرافقيك أن يجعلوه يجلس ويلفوا قطعة قماش حول رأسه. تفوح من هذه الأعشاب رائحة قوية ستساعده على التنفس".

أومــأ جلال الدين إلى أشقائه، وساعدوا والدهم على الجلوس. أصبح تنفسه الصعب أسوأ مباشرة.

سأل جلال الدين: "هل ستجدي نفعاً بسرعة؟".

طرفت عينا الطبيب.

"ليس بسرعة كبيرة أيها الشاب. والدك مريض جداً بالفعل. عليه أن يستنشق البـخار حتى يصبح السائل بارداً، فجراً، وظهراً، ومساءً. اجعله يحتسي حساء لحم العجل ليمنحه القوة وتأكد أن يشرب أكبر كمية يستطيعها من الماء. بعد أسبوع، سأعود وأرى إلى أي حدٍّ تحسنت حالته".

فــزع جـــلال الدين من فكرة تمضية أسبوع في الغرف الضيقة. هل سيكون المغول قد تجاوزوا المكان حينها؟ بالتأكيد سيفعلون ذلك. بارك قراره بالاختباء في البـلدة. إن لم يدمرها المغول عن بكرة أبيها، فسيكونون بأمان في خودي مثل أي مكان آخر.

مع بطانيات ملفوفة لتدعم جلوسه، انحنى والده فوق ساقيه الممدودتين. راقب جـــلال الـــدين فيما كان يتم وضع بطانية أخرى على حجر الشاه لتقيه الحرارة.

بملقطين حديديين، رفع فتى الطبيب القدر التي يتصاعد منها البخار عن المجمر، ووضعها أمام الرجل العجوز. هدأت أصوات التنفس المجهد قليلاً عندما وضع أشقاء جلال الدين قطعة قماش فوق رأسه. سعل الشاه مرتين من البخار الحار، لكنه بدأ يتنشقه بعد ذلك، وبدا أن أنفاسه قد هدأت فعلاً.

أرهف الطبيب السمع عن قرب قبل أن يومئ برأسه.

"يمكنني أن أترك لك ما يكفي من الأعشاب لبضعة أيام. بعد ذلك، عليك أن تشتري ما يلزمك من السوق". ابتسم بتكلف. "اسأل عن *بوردي* أو *بالا*. لن يعرفوا اسمه اللاتيني. فيما يخص كبده، *سلمارين*، الخرفيش، سيفي بالغرض. اجعله يشربه مع قليل من العسل".

رد جلال الدين: "شكراً لك". حاول عدم إظهار ارتياحه، لكن بدا أن الطبيب شعر بذلك بأي حال.

"لا تقلق كثيراً على والدك. إنه عجوز، لكنه قوي. شهر من الراحة وسيعود إلى ما كان عليه. أرى أنه ليس لديك مجمر خاص بك؟".

هز جلال الدين رأسه. كان أشقاؤه يشترون الطعام ساخناً من باعة في السوق.

"سأعيرك هذا المجمر، وسيكون عليك تأمين الفحم بنفسك".

أحنى جلال الدين رأسه وراقب فيما كان الطبيب يجمع أدواته ويفصل حصصاً من الأعشاب المرّة، ويضعها في أكياس ورقية مشمّعة. ترك الأمر للفتى الخادم ليمد يده طلباً لأتعابه وتورّد جلال الدين خجلاً لأنهما كانا مضطرين إلى تذكيره. دفع بأربع قطع ذهبية في يدي الفتى، ولاحظ كم كانتا نظيفتين مقارنة بأولاد الشوارع الأشقياء.

مع انتقال المال بين الأيدي، شدّ الطبيب قامته برشاقة، ثم استرخى.

"رائع. افعل ما طلبته منك وسيكون كل شيء على ما يرام، إن شاء الله (عزّ وجل)". خرج من الغرفة الصغيرة إلى أشعة الشمس الساطعة، وترك الأبناء مع والدهم.

قال أصغر أشقاء جلال الدين: "لم يعد لدينا ذهب. كيف يمكننا شراء الأعشاب والفحم؟".

فـزع جـلال الدين من فكرة العودة إلى السوق، لكن على الأقل كان لديه صديق هناك. كانت لا تزال لديه اثنتا عشرة ياقوتة صغيرة، بالرغم من أنه بالسرعة الـتي ينفقها بها، كان يشك في أن تبقى معه لوقت طويل. بالرغم من ذلك، كان وأشقاؤه بأمان. في غضون شهر، سيكون المغول قد غادروا بالتأكيد، ومع استعادة والدهم لعافيته، يمكنهم أن يتجهوا أخيراً نحو الشرق. إذا استطاع فقط الوصول إلى حامـية موالية، فسيصب النار والدمار على رأس خان المغول. بعيداً إلى الجنوب، كـان هـناك الكثير من المسلمين الذين سيهبّون لنجدته ضد الكفّار. لم يكن عليه سـوى أن يرسل بطلب مساعدتهم. تضرع جلال الدين بصمت فيما كان والده يـسعل ويتـنفس بإجهاد عبر الدخان، وقد أصبح لون جلد عنقه أحمر من الحرارة والـبخار. كان قد تلقى إهانات عديدة، لكنه سيجعل أولئك الذين وجهوها إليه يدفعون الثمن.

بحلـول الغروب، كان رجلان مختلفان قد جاءا لشرب الشاي في محل عبّود الأحمـر. لم يكـن من عادته تأخير رفع المظلات والسير إلى مسجد البلدة الصغير لـيكون ذلـك آخر ما يفعله في اليوم. فيما كانت آخر أشعة الشمس تضيء أزقة الـسوق، استطاع سماع الأذان يتردد عبر البلدة. صرف عبّود آخر الرجلين، ودفع بـنقود في يـده كهدية مقابل المعلومات التي كان قد جاء بها. ضائعاً في أفكاره، غسل عبّود يديه في قدر صغيرة فيما كان يستعد لصلاة المغرب. حرّر الوضوء ذهنه ليفكـر في مـا كان قد سمعه. كان المغول يطرحون أسئلة. كان عبّود سعيداً لأنه أرسـل فـتى لمـراقبة المكان الذي يمكث فيه آخر عملائه. تساءل عن قيمة تلك المعلومات.

في كـل مكـان حوله، كانت السوق تغلق أبوابها. كان يتم تحميل محتويات بعـض الأكشاك على حمير وجمال فيما كانت لمحال أخرى أبواب خشبية تصل إلى الأرض، والـتي يمكن إغلاقها حتى الفجر. عندما أنهى رفع آخر قطعة من القماش، أومـأ عبّود إلى الحارس المسلح الذي كان قد وظّفه لينام قرب الباب. كان يتلقى أجـراً جـيداً ليصلي وحده وترك عبّود الرجل يستلقي على بساطه ويفرك يديه بشكل رمزي بالتراب.

بـــدا أن نوبة النشاط المفاجئة التي حلّت مع الغروب قد فاجأت المغول الذين كانـــوا يـــتجولون في البلدة. مع نقل محتويات الأكشاك الصغيرة بعيداً، انكشف الغرباء واحداً تلو الآخر، وكانوا يقفون في مجموعات صغيرة وينظرون في الأرجاء مـــثل أطفـــال مذهولين. تفادى عبّود النظر إلى عيونهم فيما كان يمشي بخطوات واســـعة نحو المسجد. كانت زوجته ستدخل المبنى المزخرف عبر بوابة أخرى ولن يـــتمكن مـــن رؤيتها حتى تنتهي الصلاة. لن توافق على ما كان يفكر فيه. كان يعرف أن النساء لا يفهمن عمل الرجال. لا يرين سوى المخاطر من دون المكافآت التي لا تأتي سوى عبر الخطر. كما لو أنه يذكّر نفسه، تحسس انتفاخ الياقوتة على فخذه فيما كان يسير، وكانت بمثابة إثبات على البركة التي أسبغها الله (عزّ وجل) على منـــزله.

مـــن طـــرف عينه، رأى عبّود شاباً طويلاً يقف مع المحاربين المغول. تجاهلهم الحشد المتجه نحو المسجد كما لو أنهم غير موجودين، بمزيج من الكراهية والخوف. لم يـــسع عبّود سوى إلقاء نظرة خاطفة على الشاب عندما مرّ به، ولاحظ الطريقة المميزة التي حيك بها ثوبه والتي تدل على أنه أحد سكان الصحراء إضافة إلى علامة على صدره.

لم يكـــن الغريب يغفل عن شيء ولاحظ نظرة عبّود السريعة، وتقدم بسرعة ليـــسد طريقه. وجد الجوهري نفسه مرغماً على التمهل أو فقدان وقاره في محاولته الالتفاف حوله.

قـــال عبّود بنـــزق: "ما الأمر يا بني؟". لم يكن لديه وقت للتفكير في أفضل السبل للاستفادة من المعلومات التي كان قد عرفها. لم تكن أفضل الأرباح تأتي من عمـــل ســـريع وكان ينوي الاستفادة من الوقت الذي سيمضيه في المسجد ليمعن الـــتفكير في الأمر. راقب ما يجري بتشكك فيما كان البدوي ينحني كثيراً. لم يكن ممكناً الوثوق بأحد سكان الصحراء.

"آســـف يـــا سيدي. لم أكن لأزعجك في طريقك للصلاة لو لم تكن المسألة مهمة".

كان عبّود يشعر بنظرات التجار الآخرين الذين يمرّون به. أمال رأسه ليصغي إلى الأذان، وقدّر أنه لم تعد لديه سوى لحظات.

"بسرعة يا بني، بسرعة".

انحنى الشاب مجدداً.

"نسعى خلف خمسة رجال، أربعة أشقاء ووالدهم. هل تعرف عن أي غرباء يكونون قد جاؤوا إلى هنا في الأيام القليلة الماضية؟".

حافظ عبّود على رباطة جأشه فيما كان يفكر في الأمر.

"يمكن شراء كل المعلومات يا بني، إذا كنت مستعداً لدفع الثمن".

راقب فيما كان وجه الشاب يتلون، وقد بدت السعادة عليه. استدار، ونطق بكلمات غريبة للمغول الذين كانوا يقفون يراقبون ما يجري. كان الجوهري يعرف القائد قبل أن يتكلم من الطريقة التي كان الآخرون ينظرون إليه بها. كان غريباً التفكير في هؤلاء الرجال يلاحقون أشخاصاً آخرين عبر العالم. لم يكن يبدو أنهم يستطيعون ذلك، بالرغم من أن كل رجل كان يحمل قوساً، وسيفاً، وخنجراً كما لو أنهم يتوقعون اندلاع حرب في السوق نفسها.

رد القائد على كلام الشاب بهز كتفيه استخفافاً. راقب عبّود ما يجري عن كثب فيما كان الرجل يحل عقدة كيس من حزامه. قذف بالكيس من دون اكتراث للجوهري، فأمسك به عبّود. كانت نظرة واحدة على الذهب داخله كافية لأن يسيل العرق على وجهه. ما الذي كان قد تدخل به، ذلك اليوم؟ سيكون عليه استئجار حراس مسلحين في المسجد للوصول حتى إلى منزله مع مثل تلك الثروة. لا شك في أن عيوناً خطيرة كانت قد رأت الكيس ولن يكون صعباً تخمين المحتويات.

قال وهو يستدير مبتعداً: "سألتقي بكم بعد الصلاة، في هذا المكان". مثل أفعى صحراء تضرب فريستها، أمسك به قائد المغول من ذراعه، ثبّته في مكانه فيما كان يهمهم للبدوي.

قال يوسف لتسوبودي: "أنت لا تفهم. ينبغي له أن يغادر ليصلي. بمثل عمره، سيقاتلنا إذا حاولنا إبقاءه هنا. دعه يذهب أيها القائد. لا يمكنه الهروب". أشار يوسف متعمداً إلى حيث كان حارس عبّود يجلس على عتبة أمام محله. لم يغفل الجوهري عن تلك الإشارة، بالرغم من أنه شعر بنوبة غضب لأن حارسه الأحمق لم يهب لمواجهتهم. أقسم سراً أن الرجل سيبحث عن عمل آخر. كان قيام أحدهم بوضع يديه عليه في شارع مكشوف أمراً سيئاً بما يكفي، لكن رؤية ذلك

الأحمق يمضي أمسيته غافلاً عما يجري جعل الإهانة لا تُطاق. جعله الذهب في يده يفكر في تلك الكلمة آلاف المرات.

بحـركة حـادة، حرّر عبّود ذراعه، وقلبه يخفق بقوة. فكّر في إعادة الذهب والابـتعاد بكرامة، لكن في الحقيقة كانت خودي بلدة صغيرة وكان يحمل أرباح خمـسة أعوام أو أكثر في كيس واحد. كان يمكنه التفكير حتى في التقاعد وتوريث العمل إلى ابنه. بحق، إنّ الله (عزّ وجل) كريم.

قال يوسف ووجهه يتورد خجلاً: "لن يتركك صديقي تغادر مع الذهب. لا يفهم الإهانة لشرفك يا سيدي. سأكون هنا، إذا كانت لديك المعلومات التي نحتاج إليها".

بتـردد كبير، أعاد عبّود الكيس، متمنياً لو كان في استطاعته عدّ النقود أولاً. سيعرف إن كانوا قد أخذوا منها شيئاً عندما يعود، كما قال لنفسه.

قال عبّود بحزم: "لا تتكلم إلى أي شخص آخر. أنا الرجل الذي تحتاج إليه".

لاحـظ ملامح ابتسامة على وجه الشاب فيما كان ينحني للمرة الثالثة، ومرّ عبّود بين المحاربين المتحفّزين الذين يضعون أيديهم على قبضات سيوفهم.

عندما غادر الجوهري، ضحك يوسف بصوت خافت.

قال لتسوبودي: "إنهم هنا. كنت محقاً، أليس كذلك؟ إنها البلدة الوحيدة على بعد أربعين ميلاً وقد أوقعنا بهم".

أومـأ تسوبودي. لم يكن يحب الاعتماد على يوسف، لكن اللغة كانت لا تزال أصواتاً غير مفهومة بالنسبة إليه، وتشبه زقزقة عصافير أكثر منها حديثاً حقيقياً.

قال: "لن يكون علينا أن ندفع لهذا الرجل إذا عثرنا عليهم بأنفسنا".

كانت الشوارع خالية حولهم والسوق التي كانت تعج نشاطاً طوال النهار قد اختفت بطريقة ما. كان الأذان من المسجد قد انتهى.

قـال تـسوبودي: "هـؤلاء الفارون لن يقتلوا جياداً جيدة، على ما أظن. سـيكونون في مكـان قريب من الإسطبلات. في أثناء تأديتهم للصلاة، سنبحث بأنفـسنا. كـم عدد المطيات الجيدة التي يمكن العثور عليها في هذه البلدة الصغيرة القذرة؟ اعثروا على الجياد وسنجد الشاه".

الفصل الثالث والعشرون



لم يــداعب الكــرى عيني جلال الدين فيما كان يستلقي في الظلام، وذهنه يتقد بــصور بــرّاقة. كان صعباً ألا يصاب بالاكتئاب فيما كان يحكّ الأماكن التي عضتها البراغيث ويلف بطانية رقيقة بإحكام حول كتفيه ليشعر بالدفء. على الأقل في الظلام لم يكـــن أحد من أشقائه ينظر إليه ليقول له ما سيفعله و لم يكن بصر والده الحاد في ما مــضى يستطيع العثور عليه. كان يأوي إلى فراشه في وقت مبكر كل ليلة، يحاول النوم ليأخذ قسطاً من الراحة ويبتعد عن هموم كل يوم. بالرغم من ذلك، جافاه النوم وعمل ذهــنه كمـــا لو أنه جزء منفصل، حي ونشيط في رأسه. عندما أغمض عينيه، عذّبته صـــور المرح في قصور والده، المضاءة بألف شمعة ومصباح. كان قد رقص حتى الفجر عــدّة مـــرات و لم يفكـــر مرة واحدة في تكلفة الشحم أو الزيت. آنذاك، كان عليه الاقتـــصاد باستهلاك شمعتهم الوحيدة مثل الطعام أو الفحم. كانت إدارة منـــزل ثورة بالنسبة إليه، حتى إن كان فقيراً وبائساً مثل الغرف في خودي.

عــندما فـــتح جلال الدين عينيه محبطاً، رأى ضوء القمر عبر شقوق في السقف. كـــان الهـــواء مثقلاً برائحة كريهة من دلو فضلات الطعام. كان قد وضع واحداً في الخـــارج في ليلـــته الأولى في خودي، لكنه لم يعثر عليه في الصباح وكان عليهم شراء آخـــر. كـــان قد تعلم أن يدفع لفتى ليحمله إلى حفرة عامة خارج البلدة، لكن بالطبع كان أشقاؤه قد نسوا ذلك. كان كل شيء يكلف مالاً في خودي. كانت الحياة أكثر تعقيداً مما كان يظن وتساءل أحياناً كيف يمكن لتجار فقراء أن يتحملوا تكاليف الحياة.

ارتعـــش جـــلال الدين، ونهض من مكانه عندما سمع ضوضاء واهتز الباب الصغير في إطاره. كان أحدهم يطرق على الباب وخفق قلبه بشكل مؤلم في صدره فيما كان يمد يده نحو سيفه.

نادى أحد أشقائه خائفاً: "جلال الدين؟".

همـس نحـوه وهو يرتدي ملابسه في الظلام: "كن مستعداً". كانت رائحة الطماقـات كريهة من عرق قديم، لكن دلو الماء فارغ بينما الآخر مليء، و لم يكن فيه ما يكفي حتى ليغسل وجهه. عاد الطرق مجدداً، وتنفّس تنفّساً عميقاً فيما كان يـشهر سـيفه. لم يكن يرغب في الموت في الظلام، لكن إذا كان المغول قد عثروا عليهم، لم يكن يتوقع منهم الرحمة.

فتح جلال الدين الباب على مصراعيه وسيفه جاهز، وصدره العاري ينتفض. كـان ضوء القمر قوياً بما يكفي ليرى فتى صغيراً يقف هناك وشعر الأمير الشاب براحة تغمره.

سأل: "لماذا تزعجنا في نومنا؟".

"أرسلني سيدي عبّود في أثناء ذهابه إلى المسجد لأداء صلاة المغرب يا سيدي. طلـب مـني إبلاغك أن المغول يعرفون المكان الذي تمكث فيه. عليك أن تغادر خودي".

استدار الفتى ليغادر، بعد أن أوصل رسالته. مدّ جلال الدين يده وأمسك به، وجعلـه يـصرخ خوفاً. كانت حياة فتى في خودي أكثر اضطراباً حتى من حياتهم وتململ الفتى الصغير في قبضته.

قال جلال الدين بحدة: "هل هم قادمون إلى هنا؟ الآن؟".

رد الفـتى، وأصابعه تهتز على يد جلال الدين: "نعم يا سيدي. من فضلك، عليّ أن أسرع بالعودة".

أطلق جلال الدين الفتى الذي انطلق مبتعداً. واجه الشارع الذي يغمره ضوء القمـر للحظـة، ورأى أعداء في كل ظل. تضرع شاكراً على لطف الجوهري، ثم استدار إلى الداخل، وأغلق الباب خلفه كما لو أنه يحبس مخاوفه.

كـان أشقاؤه الثلاثة قد ارتدوا ملابسهم واستعدوا، ثم نظروا إليه مرة أخرى ليقودهم. كشّر جلال الدين لهم.

"أنـتما أشعلا الشمعة، وساعدا والدنا على ارتداء ملابسه. أما أنت يا تامر اركض إلى الإسطبلات، واجلب جيادنا".

رد تامر: "هل لديك نقود يا شقيقي؟ سيطلب مالك الإسطبل مالاً".

شــعر جــلال الدين كما لو أن حبلاً يلتف بإحكام حول عنقه. فتح كيساً، وأعطـــى ياقـــوتة صغيرة لشقيقه، ولم يعد هناك سوى خمس ياقوتات من ثروتهم الدنيوية كلها.

"امنحه هذه وقل له إن أي رجل يساعد أعداءنا سيكون بلا شرف".

اندفـــع شقيقه الأصغر في الشارع، وبدأ جلال الدين يساعد الآخرَين بتجهيز والدهم. تأوه الشاه علاء الدين فيما كان يتم نقله، وأصبحت أصوات أنفاسه أعلى في العـــتمة. فـــزع جـــلال الدين من حرارة المرض التي شعر بها على جلد الرجل العجـــوز، لكن لم يكن هناك بدٌّ مما ليس منه بدّ. تمتم والده بكلمات غير مفهومة، لكن لم يتوقف أي منهم لسماعها.

حالمــا انتهوا من جعل والدهم يرتدي ملابسه وإشعال الشمعة، ساعده اثنان من أبنائه على السير وألقى جلال الدين نظرة في أرجاء المكان الصغير الكئيب الذي كـــان مـــأواهم لبعض الوقت. بالرغم من أنه كان بائساً، إلا أنه كان ملاذاً آمناً. كانـــت فكـــرة العودة إلى حياة المطاردة تؤرقهم جميعاً، لكن جلال الدين لم يكن يستطيع تجاهل التحذير. كان الجوهري قد أسدى له معروفاً ولن يضيّعه.

ألقى نظرة على المجمر الصغير، لكن الطبيب كان قد تركه وديعة ولن يسرق جـــلال الـــدين شيئاً للمرة الأولى في حياته. بالرغم من أنه أخذ أكياس الأعشاب المـــرّة، إلا أنه ترك المجمر خلفه. كان بأمس الحاجة إلى الخروج من المكان ولم يجرؤ علـــى التفكير في مرض والده. كان سيئاً أن يضطر رجل عجوز إلى الفرار مجدداً. تلاشت آمال جلال الدين عندما وقف هناك، وحل مكانها غضب يائس. إن حظي بفرصة واحدة فقط ليثأر من خان المغول، فسيستغلها حتى لو دفع حياته ثمناً لذلك. تضرّع ليحصل على مثل تلك الفرصة.

أغلق جلال الدين الباب عندما غادر المكان مع والده وشقيقيه. لم يكن يريد أن يـــسرق اللـــصوص مجمـــر الطبـــيب، بالرغم من أنه إذا أراد أي شخص دلو الفضلات، فسيحصل عليه، وما فيه وكل شيء آخر.

لم تكـــن الشوارع خالية في ذلك الوقت المبكر من الليل. رأى جلال الدين عـــدداً من الرجال يعودون مسرعين من صلاة المغرب إلى عائلاتهم، يتطلعون قدماً إلى الـــدفء والطعـــام. وحده وأشقاؤه كانوا قد حاولوا تمضية ليلة أخرى بالنوم.

كانـــت الإسطبلات بعيدة بعض الشيء، وهو قرار كان قد اتخذه لحمايتهم. تعثر والـــده فيما كان يمشي بينهم و لم يعرف جلال الدين إن كان الرجل العجوز يفهم ما يجري. عندما سمع سؤالاً خافتاً من شفتيّ والده، أطلق جلال الدين صرخة خافتة نحوه.

قال عبّود: "الرجال الذين تسعون خلفهم هنا".

أصدر تسوبودي أوامره، وتحرك المحاربون مباشرة، فتحوا الباب، واختفوا في الداخل.

انتظـــر عبّود يتصبب عرقاً، ويصغي إلى أصوات غريبة. عاد المحاربون بسرعة و لم تفته نظرات الغضب التي صبّوها عليه. أمسك الشاب عبّود من ذراعه، وكانت قبضته مؤلمة.

"أيهـــا الرجل العجوز، هذه ليست ليلة لهو، هل تفهم؟ لقد فتشت إسطبلات نـــصف الليـــل وأنـــا أنتظرك. لقد أتيت بـــي الآن إلى كوخ فارغ. سيكون من الصعب عليّ منعهم من قتلك".

فزع عبّود، لكنه لم يحاول تحرير ذراعه.

"كانوا هنا! إنه كوخ صهري، وتحدث عنهم في الأسواق. أربعة شبان ورجل عجوز مريض جداً. هذا كل ما أعرفه، أقسم على ذلك".

في ضـــوء القمر، كانت عينا الشاب في الظل، ووجهه أكثر برودة من الليل. حـــرّر ذراع عـــبّود من قبضته، ثم تبادل بضع كلمات مع تسوبودي لم يفهم منها عبّود شيئاً.

حدّق الرجل الذي كان عبّود قد حدّد أنه القائد إلى الجوهري العجوز للحظة طـــويلة بـــصمت، ثم أصدر أوامر جديدة. لم يكن في وسع عبّود سوى أن يقف ويراقب فيما كان المحاربون يركلون أبواباً أخرى وتحطم صمت الليل بالصراخ. بدأ شـــجار في منـــــزل قريب وصرخ عبّود مصدوماً عندما شهر أحد المحاربين سيفه وقتل شاباً بطعنة في قلبه، وداس على جثته ليفتش المنـــزل.

صرخ عبّود: "لا حاجة إلى هذا! إنهم ليسوا هنا!".

استدار الشاب نحوه ولدهشة عبّود بدا أنه يبتسم.

"لا يمكنني إيقافهم الآن أيها الرجل العجوز. سيفتشون كل منزل في الشارع، وربما في المدينة كلها. ثم سيحرقون خودي حتى آخر حجر فيها حولك".

كان ذلك صعباً للغاية على الجوهري.

"هناك إسطبلات قريبة. إذا لم يكونوا قد ذهبوا إلى مكان آخر، فسيكونون هناك".

قال الشاب: "خذني إلى هناك أيها الرجل العجوز. إذا كنت محقاً، ربما لن يتم تدمير خودي".

قاد جلال الدين جواده إلى أكمة على قمة تلّ. كان الهواء يعبق برائحة أوراق الليمون وخفق قلبه بقوة عندما نظر إلى الخلف إلى البلدة التي كانت ملاذاً لهم. إلى يمينه، كان نجم القطب يلمع في السماء، والجو صافياً والنجوم تسطع.

إلى الشرق، بعيداً عنهم، استطاع رؤية نيران معسكر المغول مثل ضوء خافت. إلى الغرب، كان هناك بحر قزوين، آخر عائق طبيعي أمام عائلته التي لاذت بالفرار. كان يعرف أنه لا يستطيع السير على طول شواطئه مئة ميل والمغول يبحثون عنهم. كانوا سيعثرون عليهم بسهولة مثل أرانب برية. كان يتوق إلى الذهاب شرقاً، ويأمس الحاجة إلى العودة إلى المدن التي كان قد عرفها في طفولته.

كان الليل ساكناً وآلمه سماع أنفاس والده المعذّبة. كان جلال الدين وأشقاؤه قد ربطوا الرجل العجوز إلى السرج، وقادوا جواده في طريق خروجهم من البلدة، عبروا أرضاً قاحلة وتفادوا الطريق الشرقي.

إذا كان المغول متأكدين أنهم في خودي، فسيحاصرون المدينة. بالاستفادة مما كانوا يعرفونه، كان أبناء الخان قد قادوا جيادهم بعيداً عن البلدة ولم يروا كائناً حياً واحداً. بالرغم من ذلك، كان الهروب من مثل ذلك المكان شيئاً يسيراً. إذا لم يستطيعوا الانعطاف شرقاً، فسيوقفهم البحر مثل أي شبكة. عندما اشتدت أصوات أنفاس والده المجهدة، شعر جلال الدين بالارتباك للحظة. كان متعباً للغاية للهروب مجدداً، ومرهقاً حتى لامتطاء جواده.

سمع شقيقه تامر صوت نحيبه ووضع يداً على كتفه.

قـــال: "علينا أن نمضي قدماً يا جلال الدين. هناك دائماً أمل ما دمنا على قيد الحياة".

أومـــأ جـــلال الـــدين رغماً عن نفسه، وفرك عينيه. رفع قدماً نحو سرجه، وأمسك بلجام جواد والده. فيما كانوا يبتعدون في الظلام، سمع تامر يشهق ونظر إلى الخلف إلى خودي.

كانت البلدة تتوهج في الظلام. في البداية، لم يفهم الضوء الغريب الذي كان يومض ويخبو فوق الشوارع. هز رأسه عندما انتشر الضوء وعرف أن المغول كانوا يحرقون البلدة.

قال أحد شقيقيه الآخرين: "سيعلقون في ذلك المكان حتى الفجر".

سمـــع جـــلال الدين نبرة انتصار في صوت الشاب، وأراد أن يضربه لحماقته. تساءل إن كان عبّود وخادمه الفتى سينجوان من ألسنة اللهب التي كانوا قد تسبّبوا بها في خودي، كما لو أن الأشقاء يجرّون وباء ودماراً في أعقابهم.

لم يكن هناك شيء يفعلونه سوى المضي قدماً حتى البحر. بالرغم من أنه شعر أن مـــوته مـــثل أجنحة داكنة تضربه، إلا أن جلال الدين دفع بعقبيه بردفي جواده الذي جرى خبباً على سفح التل.

قاد الأشقاء جواد والدهم أربعة أيام أخرى قبل أن يروا خيّالة يتبعونهم. لم يكونوا يستطيعون إخفاء آثارهم على الأرض الرملية وكان جلال الدين يعرف أنهم سيكونون مُطـــاردين، بالرغم من أنه كان يتشبث بآمال واهية بأن المغول سيفقدون أثرهم. كان قد قاد جواده حتى الإرهاق كل الليل والنهار حتى بدأ يشم رائحة البحر أمامه ويسمع أصـــوات طيور النورس. لبعض الوقت، كان الهواء النظيف قد أنعشهم جميعاً ثم رأى أشكالاً مبهمة من بعيد، مجموعة من المحاربين في إثرهم، يقودون جيادهم خلفهم.

نظر جلال الدين إلى وجه والده الأصفر. لم يكن هناك وقت للتوقف وإشعال نار لتحضير الأعشاب المرّة، وكانت حالة الرجل العجوز قد أصبحت أسوأ. أكثر مـــن مرة، كان جلال الدين قد وضع أذنه على شفتيّ والده، يرهف السمع ليتأكد أنـــه لا يزال يتنفس. لم يكن يستطيع تركه لتمزقه كلاب الخان التي تطاردهم إرباً، لكن والده جعل حركتهم بطيئة.

للحظـــة، أراد جـــلال الـــدين أن يجأر بكراهيته ورعبه من الصفوف البعيدة لأولـــئك الذين يلاحقونهم. لم تكن لديه القوة الكافية حتى للقيام بذلك وهزّ رأسه مـــرهقاً، ونظـــر إلى الأعلى فيما كان وأشقاؤه يعبرون كثيباً رملياً، ورأى مساحة شاسعة من البحر الأزرق أمامهم. كان الظلام سيحل قريباً وسيمضون ليلة أخرى قبل أن يعثر المغول عليهم ويقتلوهم. نظر جلال الدين على طول الشاطئ، و لم يرَ سوى بضعة أكواخ وقوارب صيد. لم يكن هناك مكان يختبئون فيه أو يهربون إليه بعد ذلك.

شـــعر بالألم فيما كان يترجل، وارتعش جواده ارتياحاً عندما زال الثقل عن كاهله. كانت أضلاع الحيوان ظاهرة للعيان وربت جلال الدين على عنقه لولائه. لم يكن يتذكر متى تناول طعاماً آخر مرة وجعله الدوار يترنح في مشيته.

سأل أحد أشقائه بحزن: "إذاً، هل سنموت هنا؟".

همهم جلال الدين بردٍّ ما. كان قد خرج قوياً وشاباً، وخسر رجالاً وقوة في كل شـــهر طـــيلة عام تقريباً. شعر بأنه عجوز ووقف على الشاطئ، تناول حجراً رمادياً، وألقـــى بـــه في الماء المالح. أحنت الجياد رؤوسها لتشرب و لم يزعج جلال الدين نفسه لسحبها بعيداً. ما المهم إن شربت الماء المالح فيما المغول قادمون لقتل أبناء الشاه؟

"لـــن أقـــف هنا وأنتظرهم!". كان تامر أكبر الأشقاء سناً بعد جلال الدين. مشى بخطوات واسعة ذهاباً وإياباً على الأرض الرملية، يفكر في طريقة للخروج مما هم فيه. مع تنهيدة، ألقى جلال الدين بنفسه على الأرض ودفع بأصابعه في الرمال الرطبة.

قال: "أنا متعب يا تامر. مرهق جداً بحيث لا أقوى على النهوض مجدداً. دع الأمر ينتهي هنا".

قـــال شقيقه بحدة: "لن أفعل ذلك". كان صوت تامر أجش من افتقارهم إلى المـــياه العذبة، وشفتاه مشقوقتين وتغطيهما الدماء. بالرغم من ذلك، كانت عيناه تلمعـــان في شمس الغروب. "توجد جزيرة هناك. هل يتقن هؤلاء المغول السباحة؟ لنأخذ أحد قوارب الصيد وندمر الأخرى. سنكون بأمان عندها".

قـــال جـــلال الدين: "بأمان مثل حيوانات وقعت في فخ. الأفضل أن ننتظر ونرتاح يا شقيقي".

لدهشته، اقترب تامر منه وصفعه بقوة على وجهه.

"هل ترغب في رؤية والدنا يُذبح على هذا الشاطئ؟ انهض وساعدني لنضعه في قارب، أو سأقتلك بنفسي".

ضحك جلال الدين بمرارة من دون أن يرد. بالرغم من ذلك، وقف مذهولاً وساعد أشقاءه على حمل الشاه إلى الشاطئ. فيما كانوا يتعثرون على الرمال الرطبة، شعر بالحياة تعود إلى أطرافه وبعض اليأس يخرج منها.

قال: "أنا آسف يا شقيقي. أنت محق".

أومأ تامر برأسه، وكان لا يزال غاضباً.

خرج الصيادون من أكواخهم التي تطفو على سطح الماء، يصرخون ويشيرون إليهم عندما رأوا الشبان يدمرون قواربهم. عقدت رؤية السيوف المرفوعة عالياً ألسنتهم، وجعلتهم يقفون غاضبين فيما كانوا يراقبون الغرباء يحطمون الصواري الوحيدة، ويثقبون أقواع القوارب ثم يدفعونها إلى المياه العميقة حتى اختفت في فقاقيع من الهواء.

مع مغيب الشمس، دفع الأشقاء آخر القوارب إلى البحر الهادئ، خاضوا في الماء خلفه وتسلقوا بصعوبة جانبيه. رفع جلال الدين الشراع الصغير ووجّهه نحو النسيم، وقد أنعشت تلك اللحظة معنوياته بشكل غريب. تركوا جيادهم خلفهم، وأمسك الصيادون لجامها بذهول، وكانوا لا يزالون يصرخون بلعنات عليهم، بالرغم من أن الحيوانات كانت تساوي أكثر بكثير من تلك القوارب البدائية. عندما تجدد النسيم، جلس جلال الدين في مكانه ودفع الدفة إلى الأسفل في الماء، وحلّ حبلاً كان يثبتها في مكانها. عند الغسق، استطاعوا رؤية الخط الأبيض للموجات التي تتحطم على جزيرة صغيرة بعيداً عن الشاطئ. نظر إلى الأسفل إلى والده فيما كان يوجه القارب، وشعر بهدوء شديد لأنه غادر اليابسة. لم يكن يستطيع الصمود وقتاً أطول وكان صحيحاً أن الرجل العجوز يستحق أن يموت بسلام.

الفصل الرابع والعشرون



كـان اسم سمرقند يعني *بلدة الحجارة* واستطاع جنكيز رؤية سبب ذلك فيما كـان يحدّق إلى أسوارها المتينة. من بين كل المدن التي كان يعرفها، كانت ينكينغ وحـدها تـضاهي تحصيناتها واستطاع رؤية مآذن مساجد عديدة تطل من خلف الأسـوار. مبنيـة على سهل كبير يخترقه نهر يمر بين بحيرات كبيرة، كانت المدينة محاطة بالتربة الأكثر خصوبة التي كان جنكيز قد رآها منذ جاء إلى هذه الأرض. لم يكن متفاجئاً عندما اكتشف أن علاء الدين كان قد جعل المكان جوهرته. لم يكن هناك غبار أو رمال. كانت المدينة على مفترق طرقات القوافل التجارية التي تقطع آلاف الأميـال، بأمان تمنحها إياه المدينة. في أوقات السلم، كانت تتقدم ببطء عبر الـسهول، تجلب الحرير من تشن وتجمع الحبوب في سمرقند لتحمله معها بعيداً إلى الغرب. كانت تلك التجارة ستتوقف لبعض الوقت. كان جنكيز قد حطم سلسلة المـدن الـتي تدعم بعضها وتجعلها ثرية. كانت أطرار قد سقطت، ثم بخارى. إلى الـشمال الشرقي، كان قد أرسل جيلم، خاسار وكشيون لإخضاع مدن أخرى. كـان قـريباً مـن كسر العمود الفقري لطرقات الشاه التجارية. من دون تجارة ورسائل، كانت كل مدينة معزولة عن الأخرى ولا يسعها سوى أن تعاني في أثناء انـتظارها وصول المحاربين إليها. ما دام الشاه على قيد الحياة، لم يكن ذلك كافياً، ولا حتى قريباً من الكفاية.

مـن بعـيد، اسـتطاع جنكيز رؤية دخان أبيض يتصاعد في الهواء من آخر القـوافل التجارية التي حاولت الوصول إلى سمرقند قبل أن يدخل المنطقة. لم يكن المزيد منها سيأتي آنذاك، ليس قبل أن يغادرها المغول. مرة أخرى، فكّر في كلمات تـيموج عن الحاجة إلى إنشاء حكم أكثر استقراراً وديمومة. كان المفهوم نفسه يثير

فـضوله، لكنه بقي مجرد حلم. بالرغم من ذلك، لم يكن شاباً يافعاً آنذاك، وعندما كـان ظهره يؤلمه في الصباح، كان يفكر في العالم يدور من دونه. لم يكن قومه قد اهتموا أبداً باستقرارهم. عندما يموتون، كانت متاعب العالم تنسل بعيداً عنهم. ربما لأنـه كـان قد شاهد إمبراطوريات، يمكنه أن يتخيل واحدة تستمر ما بعد موته. اسـتمتع بفكرة وجود رجال يحكمون باسمه، بعد وقت طويل من رحيله. كانت الفكرة تريح شيئاً في داخله لم يكن يعتقد أنه موجود.

بيـنما كان جنكيز يراقب ما يجري، عادت فرقتا جوشي وتشاغاتي من أمام أسـوار المديـنة، بعد أن أمضى أفرادهما الصباح يقتربون على جيادهم بما يكفي لتـرويع السكان المحليين. كانوا قد نصبوا خيمة بيضاء أمام سمرقند عندما أحكموا الحصار عليها، لكن البوابات بقيت مغلقة. في الوقت المناسب، سيستبدلونها بخيمة حمراء ثم بقماش أسود يعني الموت لكل من يعيش فيها.

مـع غياب الشاه، لم يكن لديهم شخص ينظم دفاعات خوارزم، وخاضت كـل من مدنه الحرب وحدها. كانت حالة العلاقات تلك تناسب جنكيز جيداً. فـيما كانـت المـدن ترتعد خوفاً، كان يستطيع قيادة فرقتين أو ثلاث إلى مكان واحـد، وتحطيم المقاومة والانتقال إلى التالي مخلّفاً وراءه الموت والنار فقط. كانت تلـك هي الحرب كما يفضلها، وتتضمن تحطيم المدن والحاميات الصغيرة. ادّعى متـرجموه أن نصف مليون شخص يعيشون داخل أسوار سمرقند، وربما أكثر آنذاك بعد أن أضحت المزارع حولها خالية. كانوا قد توقعوا أن يؤثر ذلك فيه، لكن الخان كان قد رأى بنكينغ ولم يدع الأرقام تزعجه.

كـان رجالـه يـندفعون قدماً مطمئنين ولم يكن في وسع أولئك الذين يعيشون خلف الحجارة سوى الانتظار والشعور بالخوف. كان صعباً أن يتخيل اختـياره لأسلوب العيش ذاك على القدرة على الحركة وتوجيه الضربات أينما يريد، لكن العالم كان يتغير، وكان جنكيز يكافح مع مفاهيم جديدة كل يوم. كـان رجالـه قـد وصلوا إلى أماكن بعيدة مثل البراري المتجمدة في الشمال وكوريو في الشرق. كان يعتبر تلك البلاد خاضعة له. بالرغم من ذلك، كانوا بعيدين جداً عنها. كان السكان سينبون كل شيء مجدداً وسينسون أنهم يدينون بالجزية والطاعة له.

زمّ شـفتيه عـندما فكر في سكان الصحراء يبنون أسواراً جديدة ويدفنون موتاهم. لم تكن تلك الفكرة تناسب خان المغول. عندما يطرح رجلاً أرضاً، يبقى في الأسفل، لكن مدينة يمكن أن تنهض من جديد.

عـندها فكر في أطرار، وفي الأراضي القاحلة التي كان قد خلّفها وراءه. لم يكـن قد ترك حجراً على حجر ولم يكن يظن أن مدينة ستظهر في ذلك المكان مجـدداً، حـتى بعد مئة عام. ربما لقتل مدينة، ينبغي له أن يدفع بالسكين عميقاً، ويـضرب بهـا إلى الأمـام والخلف حتى تُزهق روحها. كانت تلك أيضاً فكرة تسعده.

بينما كان يقود جواده ببطء حول سمرقند، قاطعت أبواق تحذير خافتة أفكار جنكيز. شد لجام جواده، وأدار رأسه إلى الأمام والخلف لسماع الصوت بوضوح أكـبر. رأى أن جوشي وتشاغاتي كانا قد سمعا أيضاً. بين جنكيز والمدينة، كانا قد توقفا أيضاً وأرهفا السمع.

مـن بعيد، استطاع جنكيز رؤية مستطلعين يعودون مسرعين على جيادهم. كانـت تلك أصوات أبواقهم، وكان شبه واثق من ذلك. هل هناك عدو في مرمى البصر؟ كان ذلك محتملاً.

فيما كانت مطيته تخفض رأسها لتقضم ملء فمها من الأعشاب الجافة، رأى جنكيـز بـوابات سمرقند تُفتح ويخرج رتل منها. أظهر أسنانه، مرحباً بثقة العدو المفـرطة بنفسـه. كانـت لديه فرقة جيبـي إضافة إلى عشرة آلاف من محاربيه المتمرسـين بالقـتال. بين هؤلاء وفرقتي جوشي وتشاغاتي، كانوا سيسحقون أي جيش يخرج من سمرقند للقائهم.

وصل المستطلعون إلى جنكيز، وجيادهم تكاد تموت تحتهم من الإجهاد.

صـرخ الأول قبل اثنين من مرافقيه: "رجال مسلحون إلى الشرق يا مولاي. بعدد ثلاث فرق من المحاربين".

أطلق جنكيز لعنة بصوت خافت. كانت إحدى المدن الأخرى قد استجابت لسمرقند في نهاية المطاف. كان على جوشي وتشاغاتي أن يتصديا لهم. اتخذ قراراته بسرعة، لهذا لم يرّ محاربوه سوى الثقة في ردوده.

قال جنكيز للمستطلع، بالرغم من أن المحارب الشاب كان لا يزال يلهث مثل

كلــب تحت الشمس: "اذهب إلى ابنيّ. قل لهما أن يهاجما هذا العدو إلى الشرق. سأصمد أمام كل ما يمكن لسمرقند أن تضعه في الميدان".

تحركت فرقتا ابنه بسرعة بعيداً، وتركتا جنكيز مع عشرين ألف رجل فقط. انــتظمت الـــصفوف مع الخان في تشكيل يشبه هلالاً، مستعدّة للتحرك بسهولة وتطويق القوات المهاجمة.

خـــرج المـــزيد من الرجال من المدينة، كما لو أن سمرقند كانت ثكنة لأحد جـــيوش الـــشاه. فيما كان جنكيز يدفع مطيته للجري خبباً ويتفقد أسلحته، كان يأمل بألا يكون قد أرسل الكثير من المحاربين بعيداً لتحقيق النصر. كان ذلك ممكناً، لكـــن إذا هاجم مدينة واحدة في كل مرة، فسيتطلب الأمر أن يعيش ثلاث مرات لإخـــضاع الأراضي التابعة للشاه. كانت مدن تشن أكثر عدداً، لكنه وقادته كانوا قـــد استولوا على تسعين منها في عام واحد قبل أن يصلوا إلى ينكينغ. كان جنكيز قد هاجم ثمانيَ وعشرين منها.

لو أن تسوبودي أو جيبـــي، أو حتى جيلم أو أحد أشقائه كانوا هنا، لما كان قـــد شعر بالقلق. فيما كان السهل يمتلئ بجنود الشاه الذين يجأرون تحدياً، ضحك جنكيز عالياً من حرصه الشديد، وجعل المحاربين حوله يضحكون بصوت خافت. لم يكـــن بحاجـــة إلى تسوبودي. لم يكن يخاف مثل هؤلاء الأعداء، ولا اثني عشر جيـــشاً مثلهم. كان خان بحر الأعشاب وكانوا مجرد رجال مدن رقيقين، وبالرغم من كل جعجعتهم وسيوفهم الحادة، كان سيقضي عليهم.

جلـــس جـــلال الدين يضع ساقاً على أخرى على شاطئ ضيق، يحدّق عبر أمواج بحر قزوين إلى الساحل الأسود الذي كان قد تركه في وقت مبكر من ذلك اليوم. كان يرى نيران الأكواخ التي تحترق هناك وظلالاً تتحرك حولها. كان المغول قـــد وصـــلوا إلى البحر ولم يكن هناك مجال للهرب. تساءل جلال الدين إن كان ينبغـــي له ولأشقائه قتل الصيادين وعائلاتهم عندها. لم يكن المغول ليعرفوا المكان الذي لجأ إليه الشاه وربما يتخلون عن مطاردتهم. كشّر جلال الدين محبطاً. لم يكن يـــشك في أن الـــصيادين كانوا سيقاتلون. مسلحين بسكاكين وعصي، ربما كان بمقدور الاثني عشر بحاراً التغلب على عائلته الصغيرة.

لم تكـــن الجزيرة تبعد أكثر من ميل عن الشاطئ. كان جلال الدين وأشقاؤه قد جرّوا القارب تحت غطاء من الأشجار المتناثرة، لكن كان بمقدورهم أيضاً تركه في أي مكان. لا شك في أن عائلات الصيادين كانت قد أخبرت المغول عن المكان الـــذي ذهبوا إليه. تنهد جلال الدين متعباً أكثر مما يمكنه أن يتذكر من قبل. بدت حـــتى الأيـــام في خـــودي مثل حلم ضبابـــي. كان قد اصطحب والده إلى هناك ليموت، وبعد ذلك شكّ في أن نهايته ستحين بسرعة. لم يكن قد عرف أبداً عدواً بمثل عناد المغول، الذين لاحقوه عبر الثلج والمطر، واقتربوا دائماً حتى استطاع سماع أصوات جيادهم في نومه. كان الصوت ينتقل عبر الماء بينهم واستطاع جلال الدين بين الفينة والأخرى سماع صرخات خافتة أو أصوات تصدح بأغنية. كانوا يعرفون أنهـــم قـــريبون من نهاية الصيد، بعد أكثر من ألف ميل. كانوا يعرفون أن الفريسة منهكة تماماً على الأقل، يائسة بعد أن دخل ذئب إلى عرينها، وتنتظر برعب أن يتم إخراجها.

مـــرة أخرى، تساءل جلال الدين إن كان المغول يتقنون السباحة. إذا كانوا كـــذلك، فلن يأتوا مع سيوف على الأقل. سمع أشقاءه يتكلمون بين أنفسهم ولم يـــستطع اســـتجماع قـــواه لينهض ويطلب منهم مجدداً التزام الهدوء. كان المغول يعـــرفون أنـــذاك مكانهم. كان الواجب الأخير لأبناء الشاه رؤيته يموت، ومنحه الكرامة التي يستحقها.

نهض جلال الدين، وآلمته ركبتيه فيما كان يشد قامته، ويطقطق فقرات عنقه. بالـــرغم من أن الجزيرة كانت صغيرة، إلا أنها كانت مغطاة بأشجار وغطاء نباتي كثيف، وكان وأشقاؤه مرغمين على شق درب عبرها. تبع السبيل الذي كانوا قد سلكوه، واستعمل يديه لرفع الأغصان الرفيعة التي علقت بثوبه.

في فـــسحة شـــكّلتها شجرة سقطت أرضاً، كان والده يستلقي على ظهره وأبـــناؤه حـــوله. كان جلال الدين سعيداً لرؤية أن الرجل العجوز مستيقظ ليرى الـــنجوم، بالرغم من أن كل شهيق وزفير كانا يجعلان صدره يهتز مجهداً. في ضوء القمـــر، رأى عـــيني والـــده تستديران نحوه، وأحنى جلال الدين رأسه محيياً إياه. أشـــارت يـــدا والده نحوه بوهن، واقترب جلال الدين لسماع الرجل الذي كان يعـــتقد دائماً أنه عصيٌّ على السقوط. كانت حقائق طفولته تلك قد تحطمت من

حـــوله. حـــتا ليرهف السمع وحتى هناك، بعيداً جداً عن الديار، تاق جزء منه إلى سماع قوة والده القديمة، كما لو أن ضعفه قد يزول نتيجة الإرادة والحاجة. اقترب أشقاؤه، وللحظة نسوا المغول الذين يقفون على الطرف الآخر من المياه العميقة.

قـــال الشاه وهو يلهث: "أنا آسف. ليس من أجلي. من أجلكم يا أبنائي". توقف قليلاً ليستنشق الهواء، وكان وجهه أحمر والعرق يتصبب منه بغزارة.

تمتم جلال الدين: "ينبغي لك ألاّ تتكلم". اهتز فم والده قليلاً.

قـــال مجهـــداً: "إن لم يكن الآن، فمتى؟". كانت عيناه لامعتين، وتألم جلال الدين لرؤية وميض مزاج قدیم طيب.

قال الشاه: "أنا... فخور بك يا جلال الدين. لقد أبليت بلاءً حسناً".

غصّ الرجل العجوز فجأة، ودفعه جلال الدين ليستدير على جانبه، واستعمل أصـــابعه ليمسح كتلة من البلغم عن شفتيه. عندما أعاد والده ليستلقي على ظهره، كانت عيناه تدمعان. أطلق الشاه زفيراً طويلاً، ثم ملأ رئتيه المريضتين ببطء.

همس الرجل العجوز: "عندما أموت". بدأ جلال الدين يعترض، لكن كلماته تلاشت. قال: "عندما أموت، ستثأرون لي".

أومـــأ جلال الدين، بالرغم من أنه كان قد تخلى عن الأمل منذ وقت طويل. شعر بيد والده تقبض على ثوبه، وأمسك بها بيده.

قال الشاه: "وحدك يا جلال الدين. سيلاحقونك".

كان جهد إخراج الكلمات يعجّل النهاية، وكل نفس يصبح أصعب من ذي قـــبل. كـــان جلال الدين يرغب في أن يجد الرجل العجوز السلام، لكنه لم يشح ببصره بعيداً.

"اذهب إلى الجنوب، وأعلن الجهاد ضد... هذا الخان. أطلق الدعوة للجهاد. جميعهم يا جلال الدين، جميعاً".

حـــاول الشاه أن ينهض، لكن ذلك كان صعباً جداً عليه. أشار جلال الدين إلى تامر، وساعدا معاً والدهما على الجلوس. عندما فعلا ذلك، انقطعت أنفاسه تماماً وأضـــحى فمه رخواً. اهتز جسده النحيل في أيديهما فيما كان يكافح لاستنشاق الهواء وبكى جلال الدين عندما أحس بشعر لحية والده تمس يده. ألقى الشاه برأسه إلى الخلـــف بنوبة مفاجئة، لكن أنفاسه لم تستمر وأصبح الارتعاش أقل إلى أن هدأ

تماماً. سمع جلال الدين هسيساً عندما استرخت أمعاء الرجل العجوز وأطلقت مثانته ما بداخلها، ليسيل البول الحار على الأرض الرملية.

بلطف، وضع الشقيقان الرجل العجوز على ظهره. فتح جلال الدين الأصابع التي تقبض على ثوبه، وداعب اليد فيما كان يفعل ذلك. راقب فيما كان تامر يغمض عيني والده وبالرغم من ذلك انتظروا، غير مصدقين أنه قد رحل حقاً. لم يتحرك الصدر وواحداً تلو الآخر وقف الأبناء ونظروا إلى الأسفل إليه. كان العالم هادئاً والنجوم تلمع فوق رؤوسهم. شعر جلال الدين أنّ عليها ألاّ تكون على تلك الحال، وأنه يجب أن يكون هناك شيء أكثر من صوت الأمواج الرقيقة لتعلن موت رجل عظيم.

قال تامر بصوت حزين: "انتهى الأمر".

أومأ جلال الدين، ولدهشته وخجله، شعر بأن حملاً ثقيلاً قد أزيح عن كاهله.

قال بلطف، وهو يلقي نظرة إلى الخلف نحو المكان الذي يعرف أنهم يخيمون فيه، بالرغم من أن الأشجار الداكنة كانت تخفيهم عن ناظريه: "سيأتي المغول، هؤلاء الحيوانات، إلى هنا في النهاية. سيعثرون... سيعثرون على والدنا. ربما سيكون ذلك كافياً بالنسبة إليهم".

رد تامر: "لا يمكننا تركه هنا لهم. لدي ولاعة يا شقيقي. هناك ما يكفي من الحطب الجاف وماذا يهم الآن إن رأونا؟ ينبغي لنا أن نحرق الجثة. إذا عشنا لنعود، فسنبني مسجداً هنا لتكريمه".

قال جلال الدين: "تلك فكرة جيدة يا شقيقي. حسناً، لكن عندما تشتعل النيران، سنغادر هذه الجزيرة ونعبر البحر الذي خلفها. المغول ليسوا بحارة". تذكر الخرائط التي كان قد رآها في مكتبة والده في بخارى. لم يكن البحر يبدو واسعاً جداً لا يمكن عبوره. "ليحاولوا اللحاق بنا عبر المياه العميقة حيث لا يمكنهم العثور على أثر لنا".

رد تامر: "لا أعرف الأراضي التي تقع خلف هذا البحر يا شقيقي. إلى أين سنذهب؟".

"إلى الجنوب يا تامر، كما طلب منا والدنا. سنثير عاصفة مع الأفغان، وفي الهند. سنعود مع جيش لسحق جنكيز هذا. قسماً، سأفعل ذلك".

لحق جوشي وتشاغاتي بالجيش المعادي عندما بدأ ينحدر نحو درب في التلال إلى الشرق من سمرقند. كانت تقديرات المستطلع عن العدد منخفضة. فيما كان جوشي يتشاور على عجل مع شقيقه الأصغر، فكّر في أن الأربعين ألف رجل قد جاؤوا لمساعدة جوهرة مدن الشاه. لم يدع تلك الفكرة تزعجه. في أراضي تشن، كان جنكيز قد أثبت أن كفاءة الرجال أكثر أهمية من أعدادهم الكبيرة. كان تسوبودي قد حقق نصراً ضد أعداد كبيرة عندما واجه حامية مدينة من اثني عشر ألف رجل بثمانمئة محارب فقط في غارة استطلاعية، لكن كل القادة كانوا قد أثبتوا جدارتهم ضد قوات كبيرة. كانوا *دائماً* أقل عدداً.

كان الدرب بين التلال هبة ولم يتأخر أي من الشقيقين عندما شاهدا العدو. كانا متمرّسَين بمعارك الفرسان، ويعرفان الأفضلية الاستثنائية للسيطرة على أرض عالية. كانت السهام تصل إلى مدى أبعد ويصبح من المستحيل إيقاف الجياد في هجوم عندما يضربون العدو. تكلم تشاغاتي وجوشي بإيجاز، وقد وضعا عداوتهما جانباً للحظة. وافق تشاغاتي مباشرة تقريباً عندما اقترح جوشي أن يدور حول الدرب ويضرب ميسرة تشكيلات العدو. ستكون مهمة جوشي التصدي لهم في قاع الوادي.

شكّل رجال جوشي بناء على أوامر منه أوسع صف يمكن أن تسمح الأرض به، وتجمع الباقون في كتلة خلف المحاربين الذين يضعون دروعاً ثقيلة. استطاع جوشي رؤية رماح وسهام جاهزة في صفوف العدو، بالرغم من أن أمله قد خاب لأنهم لم يكونوا قد أحضروا فيلة معهم. بدا أن أمراء العدو متمسكون تماماً بفكرة إشراك فيلة في العمليات الحربية. بالمقابل، كان المغول يستمتعون بردها على أعقابها بالسهام، ثم مراقبتها بابتهاج تسحق قوات صديقة.

نظر جوشي إلى الأسفل إلى الوادي، يقدر مسافة السفح شديد الانحدار الذي سينزله. كان مليئاً بدروب الماعز البرية، لكن أعشاباً صغيرة تنمو عليها وكانت الجياد ستكافح كثيراً في أثناء اندفاعها على مثل تلك التربة. نظر يميناً ويساراً على طول الصفوف فيما كان يأخذ موقعه وسط الصف الأول. كان قوسه سيطقطق مع أول وابل من السهام، وشعر بالثقة المتزايدة للرجال من حوله فيما كانوا يحدقون إلى الأسفل إلى الجيش الذي يتقدم بثبات نحوهم. أطلق الأعداء أبواقاً ودقوا

طبولاً فيما كانوا يتقدمون، وكان يبدو أن فرسانهم متوترون على الجناحين. كانت الأرض المائلة تجعلهم عصبيين، وفكّر جوشي في أنهم بقيادة شاب أحمق تمت ترقيته لنسبه وليس لمهارته. كان موقعه يجعل الأمر مسلياً وأصدر الإشارة بجعل الجياد تندفع إلى الأسفل نحو الممر الرئيس. قد يكون هناك بعض أبناء الملوك أو الخانات الذين يقودون جيوشاً *رغماً* عن آبائهم بدلاً من أن يكون ذلك بسببهم.

فيما كان أفراد فرقته يدفعون جيادهم للهرولة ببطء، كان جوشي ينظر باستمرار إلى الصفوف، يبحث عن خلل. كان مستطلعوه بعيدين عدة أميال، كما كان تسوبودي قد علّمهم. لن يكون هناك كمين، أو ظهور مفاجئ لتعزيزات عسكرية. أياً يكن الشخص الذي يقود القوة لفك الحصار عن سمرقند فقد عامل المغول باستخفاف وسيدفع ثمن ذلك. نفخ جوشي مرة واحدة في البوق حول عنقه، ورأى الرماح الثقيلة تخرج من حقائب السرج، تحملها فقط أكتاف وأذرع تدربت حتى أصبحت قوية كالفولاذ. عندما زاد السرعة إلى الهرولة، أومأ جوشي إلى حامل الراية، وراقب الأمر بتوسيع الصف الممتد على طولهم. من أجل تلك اللحظة، كان قد تدرب كثيراً حتى أخذت أيدي الرجال تنـزف دماً من إطلاق السهام على جياد تعدو بأقصى سرعتها أو رمي رماح على أهداف من القش مئة مرة في اليوم.

أطلق الجيش الذي واجهوه وابلاً من السهام بناءً على أمر بذلك. كان ذلك مبكراً للغاية، كما فكّر جوشي، وراقب نصف السهام تقع قبل أن تصل إليهم فيما ارتدت البقية عن دروع وخوذات. دفع جواده للجري عندها، ولم يكن بمقدوره آنذاك إيقاف رجاله حتى إذا كان يرغب في ذلك. وضع توتره جانباً، وسمح لإيقاع جري مطيته بالسيطرة على حركته فيما كان يقف في الركاب ويضع سهماً على الوتر.

على طول صفوف المغول، حذا الرجال حذوه. بدأت الرماح تنحدر إلى الأسفل، بانتظار اللحظة التي سيضربون ويقتلون بها.

أطلق جوشي سهمه وتبعه ستمئة سهم آخر في غضون لحظات. فيما كانوا يمدّون أيديهم للإمساك بسهم آخر، دفع الرمّاحون بأعقابهم بأرداف جيادهم واقتربوا من بعضهم في تشكيل يشبه الشوكة، واندفعوا بقوة أمام الآخرين. ضربوا

بكامـــل سرعتهم، واخترقوا أو داسوا على كل ما جاء في طريقهم، وفتحوا ثغرة مـــثل فـــم أحمـــر. لم يستطع أولئك الذين جاؤوا خلفهم التوقف ولم يعد بمقدور جوشي رؤية الرجال الذين يسقطون فيما كان يندفع عميقاً داخل صفوف العدو، يشدّ قوسه مرة أخرى.

أمامه، ألقى رمّاحوه بالعصي المكسورة، وشهروا سيوفهم كأنهم رجل واحد. أطلـــق رماة السهام خلفهم وابلاً آخر على الجانبين، واتسع الثقب، وتراجع رجال إلى الخلـــف كما لو أن ناراً أصابتهم. كان ذلك أفضل استعمال للرماح والسهام يعرفه جوشي، وتهلل للدمار الذي كانوا قد تسببوا به في بضع ضربات قلب فقط. دارت صفوفه الخلفية لتطويق الجناحين، وكان ذلك التكتيك عكس المناورة المفضلة لـــدى والـــده. في غضون لحظات فقط، تبعثرت مقدمة رتل العدو، وضاعت كل الأوامر عندما ارتد الجيش على نفسه.

شهر جوشي سيفه عندما توقفت مطيته تقريباً، ولم يعد بمقدوره التقدم أكثر عبر الصفوف التي يواجهها. كان يشعر بأن اللحظة مثالية لهجوم الجناح، ونظر إلى الأعلـــى بحثاً عن شقيقه. لم يكن لديه وقت سوى لإلقاء نظرة واحدة على يساره قـــبل أن يتابع الدفاع عن نفسه بضراوة، ويضرب نصل رمح كان يهدد بأن يُلقيه عـــن الـــسرج. نظر مجدداً، غير مصدق، وبالرغم من ذلك بقيت فرقة تشاغاتي في مكانها على السفح.

كـــان جوشـــي يـــرى هيئة شقيقه الأصغر بوضوح تام، يجلس على جواده مـــسترخياً ويضع يديه على السرج. لم يتفقا على إشارة تجعله يهاجم الجناح، لكن جوشي نفخ في بوقه بأي حال، وصدح الصوت فوق رؤوس رجاله. رأوا هم أيضاً زملاءهـــم يقفون ساكنين من دون حراك وأولئك الذين لم يفهموا أشاروا بغضب نحوهم لينضموا إلى القتال قبل فوات الأوان.

مـــع لعـــنة، ترك جوشي البوق يفلت من يده، شعر بغضب عارم بدت معه الضربتان التاليتان سهلتين، وتعاظمت قوة ذراعه اليمنى. أراد أن يكون تشاغاتي هو الرجل الذي أصابه بين درعه وعنقه بجرح بليغ جعله يسقط تحت الحوافر.

وقـــف جوشـــي في ركابه مرة أخرى، يبحث هذه المرة عن طريق للخروج لتحريـــر رجاله من براثن تلك القوة الساحقة. كان حظه طيباً لأنه استطاع التحرر

مـــن الاشتباك، وكانت الصفوف الأمامية لا تزال عالقة بين أفضل محاربيه. لو أنهم لم يتعرضوا لخيانة، ربما كانوا قد أنهوا القتال، لكنه شعر بالصدمة تسري بين رجاله وقـــد كلفـــتهم حياة العديد منهم. لم تكن لدى العدو أي فكرة عن السبب الذي يجعل أحد قادة المغول يجلس ساكناً، لكنهم كانوا سريعين في الاستفادة من ذلك.

صرخ جوشي بأوامر محبطاً، لكن فرسان العدو اجتاحوا صفوفه، اندفعوا على جـــيادهم الثقـــيلة نحو أرض مرتفعة ثم عادوا مسرعين ليهاجموا رجاله المحاصرين. بالـــرغم من ذلك، لم يجرؤوا على الاقتراب كثيراً من الميسرة، حيث كان تشاغاتي ينتظر ليرى جوشي يُذبح. في لحظات سريعة بين الضربات، استطاع جوشي رؤية ضباط يحتجون لدى شقيقه، لكنه عاد بسرعة للتركيز على القتال.

كـــان ضباطه ينظرون إليه ليأمر بالانسحاب، لكن جوشي كان يغلي غضباً. كانـــت ذراعـــه تؤلمه وقد فقد سيف والده جزءاً من نصله على درع رجل، لكنه شـــعر بغـــضب عارم يتملّكه وكان يتخيل أن كل شخص يقتله شقيقه أو جنكيز نفسه.

رأى رجاله أنه لم يعد ينظر إلى التلال. كان ابن جنكيز يقاتل وهو يكشّر عن أســـنانه وذراعـــه التي تحمل السيف تهتز قليلاً فيما كان يدفع بعقبيه بردَفي جواده ويدفعـــه لـــتجاوز رجل ميت. كشّروا عندما رأوا أنه لا يخاف وتبعوه يصرخون. تجاهل أولئك الذين أُصيبوا جراحهم، أو لم يشعروا بها. كانوا ضائعين أيضاً لبعض الوقت فيما كانت دماؤهم تغلي. كانوا قد نذروا أنفسهم لجوشي وقد تغلبوا سابقاً على جيش آخر. لم يكن هناك شيء لا يمكنهم فعله.

قاتـــل جـــنوده من تشن بضراوة كبيرة، شقوا طريقهم عميقاً في رتل العدو. عندما طوّقهم خيّالة العدو بالرماح، أمسكوا بالأسلحة، أوقعوا الخيّالة عن مطاياهم وطعـــنوهم بشراسة فيما كانوا يلقون حتفهم معهم. لم يكونوا ليهربوا من سيوف وسهام العدو وأصدقاؤهم في الصفوف حولهم. لا يمكنهم فعل ذلك.

نتيجة ضغط لا يلين من رجال مجانين أمسكوا بأيدٍ تلطخها الدماء بالسيوف الـــتي تقتلهم، استدار الأعداء وولوا الأدبار، وخوفهم ظاهر حتى لأولئك الذين لم يكونـــوا قـــد اشتركوا في القتال بعد. رأى جوشي أحد ضباط تشن يستعمل رمحاً مكسوراً كهراوة، يدوس على رجل ميت ليضرب بها وجه جندي من الأعداء على

جواد رائع. سقط الجندي وجأر جندي تشن ابتهاجاً، وصرخ بلغته متحدياً رجالاً لا يمكـــنهم فهمـــه. ضحك المغول لسماع نبرة صوته المتبجحة وتابعوا القتال فيما كانت أذرعهم تصبح ثقيلة وجروحهم تستنفد قواهم.

تراجع المزيد من جنود العدو نتيجة الهجوم الضاري، وأضحى جوشي أعمى للحظة من قطرات دم أصابت عينيه. تملّكه الرعب عندما فكر في أنه أُصيب عندما لم يعد يرى شيئاً، لكنه سمع عندها أبواق تشاغاتي تصدح عبر الوادي، تبعها أخيراً صوت حوافر.

ضـــربت فـــرقة تشاغاتي عدواً يحاول الهروب من أولئك الذين أغاروا عليهم بعـــنف. لاحظ جوشي وهو يلهث أن الفراغ يتسع حوله واندفعت سهام جديدة نحـــو الهاربين. رأى شقيقه مجدداً للحظة، يمتطي جواده مثل ملك قبل أن يصل إلى قـــاع الوادي ويختفي عن ناظريه. بصق جوشي بلغماً حاراً، وكان جسده المنهك يتوق شوقاً إلى الضربة التي يريد إنـــزالها على عنق تشاغاتي. كان رجاله يعرفون ما حـــدث. سيكون موقفه صعباً إن أراد منعهم من خوض قتال مع أولئك الذين لم يناصـــروهم. أطلـــق جوشـــي لعنة بصوت خافت عندما تخيل تشاغاتي يدافع عن التأخير، وكانت الكلمات علقماً في فمه.

لم يكـــن هناك أعداء قرب جوشي عندما مرّر إبهاماً على طول نصل سيفه، وشـــعر بشقوق صغيرة في الفولاذ. كان محاطاً بالجثث، والكثير منها لرجال كانوا قد اندفعوا عبر التلال وقتلوا أفضل فرسان الشاه. كان آخرون ينظرون إليه بغضب لا يـــزال بادیـــاً في عيونهم. كان تشاغاتي مشغولاً بالقضاء على ما تبقى من رتل الأعداء، وجياده تسحق أعلاماً ورايات على الأرض الملطخة بالدماء.

إذا تعامـــل مـــع تشاغاتي كما يستحق شقيقه، فستتقاتل كلتا الفرقتين حتى الموت، كما حذّر جوشي نفسه. لن يسمح ضباط شقيقه له بالاقتراب من تشاغاتي وهـــو يحمل سيفاً، ليس وهم يعرفون سبب غضبه. لن يمنعهم خجلهم من إشهار ســـيوفهم وعندها سيرد رجاله بالمثل. كافح جوشي رغبة عارمة ليندفع عبر ساحة المعـــركة ويرى شقيقه يتحول إلى أشلاء. لم يكن يستطيع الذهاب إلى جنكيز طلباً للعدالـــة. كـــان ســـهلاً جداً أن يتخيل والده يسخر من شكواه، ويعتبرها انتقاداً لتكتيك بدلاً من تهمة قتل. ارتعشت أنفاسه إحباطاً عندما تحركت أصوات المعركة

بعيداً عنه، وتركته خاوياً. مع ذلك كان قد انتصر، بالرغم من الخيانة. شعر بالفخر من رجاله الممزوج بالكراهية والضعف اللذين فُرضا عليه.

ببطء، مسح جوشي الدم عن السيف الذي كان قد حصل عليه من تشاغاتي. كـــان قد واجه الموت تلك الليلة ضد النمر وقد واجهه مجدداً ذلك اليوم. لم يكن يستطيع ترك ما حصل له يمر ببساطة.

نقـــر بأصابعه على السيف لجعل قطيرات من الدم تنـــزل إلى الأرض، وبدأ يقـــود جـــواده بـــبطء إلى حيث كان شقيقه. بنظرات متجهمة إلى بعضهم، تبعه رجاله، مستعدين للقتال مجدداً.

الفصل الخامس والعشرون



كانت سمرقند مدينة رائعة. دفع جنكيز جواده للسير على طول شارع عريض تصطف على جانبيه منازل، وكانت الحوافر التي تفتقر إلى الحدوات تطقطق فوق حجارة غير مستوية. في مكان ما أمامه، كان الدخان يتصاعد نحو الأعلى واستطاع سماع أصوات قتال، لكن ذلك الجزء من المدينة كان مهجوراً وهادئاً بشكل مدهش.

كان رجاله قلقين عليه في أثناء سيرهم على جانبيه وأقواسهم مشدودة، مستعدين لإسكات أقل إشارة على أي حركة. كانوا قد ردّوا الحامية على أعقابها إلى داخل المدينة بانسحاب منظم أسبغ شرفاً على فرقه. تفاجأ جنكيز عندما اكتشف أنهم كانوا قد أعدّوا موقعاً ثانياً ضمن المدينة نفسها، لكن سمرقند كانت مدينة أدهشتهم. كما حدث مع ينكينغ، كان قد بدأ يفكر في أن عليه أن يجعلهم يتضورون جوعاً، لكنهم كانوا قد خاطروا بكل شيء حالما ظهر جيش لنجدتهم في الأفق. كان سبب إصراره على السرعة قد آتى أكله مرة أخرى بمواجهة جيش قلّل بشكل كبير من قوة الفرق.

إذا بقي في أراضي الشاه، ربما لن يستطيعوا التواصل في نهاية المطاف، مع بحث أكثر الضباط كفاءة عن طرائق لصد هجماته. ابتسم لنفسه من تلك الفكرة. بحلول الوقت الذي يكتشفون فيه ذلك، ستكون خوارزم كلها تحت سيطرته.

كانت الأشجار تنمو على طول أطراف الشوارع، باسقة، لكنها أنيقة بطريقة ما. استطاع جنكيز رؤية آثار بيضاء تدل على التقليم في أثناء مروره بها، إضافة إلى بقع داكنة على الأحواض المليئة بالغبار حيث تمّ ريّها في ذلك الصباح. هز رأسه مستغرباً الجهد الذي يتطلبه ذلك. افترض أن رجال المدن يستمتعون بالظلال التي

توفـرها الأشجار في الصيف وكان عليه الإقرار أنها تطلق رائحة جميلة في النسيم الدافئ. ربما حتى رجال المدينة كانوا بحاجة إلى رؤية لمسة من الأوراق الخضراء من الشرفات الحجرية. واقفاً في الركاب، رأى جنكيز مساحة مكشوفة من الأرض تحيط بها مقاعد خشبية. كانت سمرقند تضم الكثير من الأشياء الغريبة ضمن أسوارها. ربما كان ذلك مكاناً يجتمعون فيه لسماع خطباء، أو حتى مشاهدة سباق جياد. كان رجاله يجمعون الأسرى هناك وكان المكان داكناً آنذاك من جمهرة الناس الذين تجمعوا فيه، موثقين ويرتعدون خوفاً.

مرّ على بئر مبنية من الحجر على تقاطع طرقات وترجل ليفحصها. عندما حدّق من فوق الحافة، رأى سطحاً داكناً من الماء بعيداً في الأسفل. فجأة، أمسك بالدلو الجلدي من حبله وألقى به إلى الأسفل، فقط لسماع طرطشة الماء. عندما رفعه إليه، شرب حتى ارتوى، مزيلاً الغبار من حلقه قبل أن يمرره إلى أحد رماته ويعود إلى سرجه. كانت سمرقند مكاناً رائعاً، بموقعها بين نهر وبحيرات. كان يمكن للمرء أن يزرع أي شيء في مثل تلك التربة وقد رأى جنكيز أسواقاً خالية من الناس ومليئة بالفاكهة والخضار الطازجة قرب البوابة الرئيسة. تساءل عما يفعله السكان إن كان الطعام والماء متوفرين بكثرة. كان واضحاً أنهم لا يمضون أيامهم في التدرب على السلاح بعد أن رأى الطريقة التي تنسحب بها الحامية. كانت فرقه قد تبعتها ببساطة إلى المدينة، وبقيت قريبة جداً منها حتى لم يعد من الممكن إغلاق البوابات دونها.

كان من الصعب توقّع مساحة سمرقند الشاسعة. كان جنكيز محاطاً بطرقات ومنازل، ومبان كبيرة وصغيرة. كان قصر الشاه يهيمن على المتاهة التي حوله، لكن جنكيز وجّه مطيته نحو مئذنة طويلة غربي المدينة، وقد ازداد فضوله لمشاهدة ذلك البناء الغريب الذي يطل على باقي المدينة. إن كان من شيء آخر فقد بدا أنه يزداد طولاً مع اقترابه منه.

كانت المئذنة تشمخ عالياً فوق ساحة مكشوفة كبيرة، تحيطها مبان صغيرة نوافذها مغلقة. بالكاد لاحظ جنكيز ضباطه يركلون الأبواب ليفتحوها ويتفقدوا إن كان هناك أعداء. سمع أصواتاً مضطربة تدل على حدوث شجار، لكن المحاربين كانوا يعرفون عملهم وسرعان ما هدأت الضوضاء. تم تقييد المزيد من الأسرى

وجرّهم إلى حلبة سباق الجياد، وكان البعض منهم يحدّقون بغضب إلى الرجل الذي يقف وحيداً أسفل المئذنة.

مـــرّر جنكيز يده على طول قاعدة البناء، مستمتعاً بملمس الآجر من الخارج. كانت كل قطعة منها تتداخل مع الأخرى وأغراه ذلك على إخراج سكينه واقتلاع واحـــدة فقط لينظر إليها. كان البرج الضيق يلمع في ضوء الشمس وكان عليه أن يمـــد عنقه ليرى القمة من حيث يقف. عندما تراجع إلى الخلف، انـــزلقت القبعة التي يعتمرها فجأة وسقطت عند قدميه. ابتسم مذهولاً لأن رجالاً يمكنهم بناء مثل ذلك الشيء، ثم مدّ يده ليلتقطها.

ضـــحك جنكيز بصوت خافت فيما كان يضع القبعة مجدداً على رأسه. سمع أحد الرجال الصوت.

سأل مستعداً لأي أمر: "مولاي الخان؟".

رد جنكيـــز بلطف: "كنت أفكر فقط في أنني لم أنحنِ أبداً لأي شخص منذ جئت إلى هذه الأراضي، حتى وصلت إلى هذا البرج".

ابتـــسم الـــرجل عندما رأى أن مزاج الخان جيد. ربما كان ذلك بسبب الطبيعة المكـــشوفة للمدينة التي كانوا يتجولون في شوارعها. كانت مدن تشن ضيقة مقارنة بها و لم يكـــن جنكيز يتخيل أن يحكم مثل تلك الأماكن. هناك، تحت أشعة الشمس، كان ذلـــك ممكناً. كان السكان المحليون يحصلون على الماء العذب والطعام من الأسواق من أجـــل عائلاتهم. كان المزارعون يجلبون ما تجود به أراضيهم إليها كل يوم قبل الفجر، ويحصلون على ثمنها نقوداً برونـــزية وفضية. للحظة، رأى جنكيز كل نشاطات المدينة بوضـــوح في ذهنه، من التجار إلى الحرفيين، إلى المعلمين والكتّاب. كان الجميع يعمل بطريقة ما، بالرغم من أنه لم يفهم من أين كانت تأتي كل تلك النقود في المقام الأول. هـــل كانـــت هـــناك مناجم قريبة؟ وإذا كانت موجودة، من يحول المعدن إلى نقود ويوزّعها لدفع عجلة النشاط التجاري في سمرقند؟ الشاه؟ كان ذلك محيراً ومعقداً، لكنه أدار وجهـــه نحـــو الـــشمس وشعر بطمأنينة. كان قد انتصر في معركة ذلك الصباح وأرسل ابنيه لسحق جيش آخر جاء لنجدة سمرقند. كان يوماً طيباً.

أضـــحت رائحة الدخان أقوى في الساحة، ووضع جنكيز أفكاره وتساؤلاته جانباً. كان رجاله يتجوّلون في كل مكان للقبض على أسرى، لكن الحامية تابعت

القتال، وامتطى جواده من جديد ليراقب المعركة. مع صف رماته، دفع جواده للسير إلى حيث يتصاعد دخان رمادي فوق المدينة الرائعة. في طريقه، زمّ شفتيه. ما هي فائدة الأسوار والساحات إذا لم تستطع الدفاع عنها؟ كان هناك دائماً رجال متعطشون مستعدون للاستيلاء على ما كنت قد بنيته. لا بدّ من أن يكون الحاكم أحمق ليسمح لهم بدخول مدنه والاستيلاء على ما يريدون. بالرغم من ذلك، كان جنكيز يعرف أنه يمكن الدفاع عن مدينة. كان قد حطم ما يكفي من الأسوار خلال وقت قصير ولديه فكرة جيدة عما ينفع ضد المنجنيقات وأدوات تسلق الأسوار. كان يتحرق شوقاً لاختبار الفكرة مع أحد قادته في الشتاء التالي، وكان تسوبودي خياره الأول. كان القائد المفضل لديه سيحب التحدي. إذا استطاع تسوبودي الدفاع عن مدينة ضد الفرق، ربما سيفكر جنكيز في أن يتركها على حالها ليحكمها أحد أفراد عائلته. بخلاف ذلك، يمكن أن يتركها أيضاً مثل الماعز التي يستخدمونها لاصطياد ذئاب في الديار.

عندما استدار نحو الشارع الرئيس، رأى جنكيز جثثاً على الأرض، معظمها ترتدي الدروع التي يفضلها سكان سمرقند. كان هناك مدخل ملطخ بدماء جافة، لا تزال تلمع في ضوء الشمس، لكن من دون إشارة إلى طريقة وصولها إلى هناك. كانت طقطقة الأقواس أعلى عندها وعبر شارعين آخرين قبل أن يصل إلى ساحات قصر الشاه والسور العالي حولها. كان الدخان أكثر كثافة هناك، بالرغم من أنه بدا محصوراً ببضعة منازل قريبة. لا شك في أن شخصاً كان قد أوقع مصباحاً في أثناء القتال، أو تعثر بنار طهي في أثناء اندفاعه عبرها. كانت ألسنة اللهب تأتي على كل شيء، مما جعل النهار يبدو أكثر حرارة. دار رجاله حول سور الشاه مثل نمل غاضب، بعد أن عرفوا فجأة أن الخان يراقبهم.

شد جنكيز لجام جواده ليشاهد رجاله يهاجمون بيت الشاه علاء الدين. خلف السور، استطاع رؤية التل المرتفع المليء بحدائق الزهور، والذي ينتصب على قمته قصر عظيم. سواء صدفة أو كان ذلك ضمن تصميمها، كانت الأسوار تصل إلى الشارع نفسه، ولا تبدو فيها سوى بوابات واسعة من قضبان الحديد الثقيلة. نظر جنكيز على طول الشارع الذي يمر إلى جانب القصر. كان ظل كثيف يخيم على المنازل، لكنها كانت تبدو أكثر نظافة مما كان يتوقع. ربما كان في سمرقند أنظمة

صــرف صحي تمتد تحت منازل سكانها، أو نظام ما لحمل المخلفات بعيداً. كانت هــناك مــشكلات في وجود عدد كبير من الناس في مكان واحد وقد بدأ جنكيز يقدّر تنظيم سمرقند البارع.

لم تكــن هــناك فسحة لمنجنيقات، حتى إذا أزعج رجاله أنفسهم بجرها عبر الــشوارع إلى ذلــك المكان. بالرغم من أن ارتفاع الأسوار لم يكن يتجاوز عشر أقدام، إلا أن الحامية كانت قد اختارت مكاناً جيداً للدفاع عنه حتى الموت.

راقب جنكيز أفضل رماته يقفون هناك، يرسلون سهامهم إلى أي وجه يظهر مــن فوق الحافة العالية. هل كانت هناك منصة على الطرف الآخر؟ لا بد من أنها كانــت هــناك. استطاع جنكيز رؤية رجال يرتدون دروعاً يتراجعون إلى الخلف عــندما طــنّت سهام فوق رؤوسهم. لم يكن كثيرون ينجون ضمن ذلك المدى، بالــرغم مــن أنهم كانوا يرتدون دروعاً ثقيلة ويستعملون سيوفهم وأقواسهم من خلــف ذلك المتراس. رأى جنكيز كوكشو، يحض المحاربين على بذل جهود أكبر. لم يكن الرجل يضع سوى إزار حول خصره، وكان جسده ملطخاً بخطوط زرقاء داكنة حتى بدا أن جلده يتلوى عندما يتحرك.

بوجــود كوكشو والخان، اندفع المحاربون مثل مجانين، استعملوا أعمدة مدببة لخــرق الــسور، محاولين تدميره. كانوا قد حطّموا آنذاك جزءاً منه، ورأى جنكيز تــصدّعاً كــبيراً يظهــر في البناء المصنوع من الآجر. كان على وشك إصدار أمر بالتــراجع حــتى يــتم إحضار المنجنيقات. كان بمكن تسوية المنازل القريبة أرضاً لتجهيز منصة، وسيتداعى السور بعد ذلك بسهولة. عندما رأى التصدع، استرخى في مكانه، وكان يعرف أن الأمر لن يطول.

كــان كوكشو قد رآه، بالطبع. لاحظ جنكيز أن كوكشو يراقب ما يجري بطرف عينه. تذكر المرة الأولى التي التقيا بها، عندما قاد كوكشو خان نيمنــز إلى قمــة تــل بعيداً عن المعركة. لم يكن جنكيز قد منحه أكثر من عام يعيشه، لكن أعواماً عديدة انقضت منذ ذلك الوقت وقد ازداد نفوذ الرجل، وأصبح واحداً من زمــرة رجال مخلصين يحكمون باسم الخان. كان جنكيز يعرف طموح كوكشو. كــان يناسبه تماماً أن يخاف محاربوه من الأرواح ومن كان بمقدوره حقاً القول إن أب السماء قد بارك خانهم؟ كانت انتصارات قد تحققت ولعب كوكشو دوره فيها.

تقطـب جبين جنكيز فجأة، وانتقلت أفكاره إلى ذكرى أخرى. كان هناك شـيء يزعجه فيما كانت الكلمات تدور في ذهنه، لكنه لم يكن واضحاً. بإشارة حادة، استدعى أحد مستطلعيه المتحفزين دائماً للأوامر.

قـال جنكيز للمحارب الشاب المفعم بالنشاط: "اذهب إلى المعسكر خارج المدينة. اعثر على زوجتي تشاكاهي، واسألها لماذا لا تستطيع النظر إلى كوكشو من دون التفكير في شقيقي. هل تفهم؟".

انحـنى الرجل كثيراً، وأومأ فيما كان يحفظ السؤال. لم يكن يعرف لماذا يبدو الخـان مـتجهماً في يوم استولوا فيه على مدينة جديدة، لكن واجبه كان الطاعة، وفعـل ذلك من دون طرح أي سؤال، وانطلق مبتعداً من دون أن ينظر إلى الخلف عندما تداعى السور، وسحق اثنين من المحاربين لم يتحرّكا في الوقت المناسب. بعد نظـرة الخان الباردة، تحرك كوكشو مثل عقرب ملون، واندفع المحاربون إلى الأمام يجأرون.

راقـب تـشاغاتي شقيقه يتقدم على جواده نحوه. كانت أغلبية أفراد فرقته يسيرون في ساحة المعركة، يسلبون الغنائم من القتلى أو يُجهزون على أولئك الذين لا يـزالون يتحركون. بقي معه بعض المحاربين والضباط ولم يكن بحاجة إلى إصدار أوامر لهم. كانوا يعرفون لماذا يقترب جوشي منهم وتحركوا برشاقة ليشكّلوا طوقاً حول قائدهم. وضع العديد من الرجال الأكبر سناً سيوفهم في أغمادها عمداً بدلاً مـن مواجهة قائد يشهر سيفه، بالرغم من أن تشاغاتي سخر منهم، وصرخ غاضباً عـندما رأى ذلـك. كان أولئك القريبون منه جميعاً يافعين وواثقين من أنفسهم. حملـوا سيوفهم عالياً وبشكل ظاهر للعيان، وقد تجهمت وجوههم. لم يكن مهماً بالنـسبة إلـيهم أن تـشاغاتي قد ترك شقيقه يواجه الموت. لم يكن ولاؤهم لابن الخطيئة، وإنما للابن الحقيقي، الذي سيرث كل شيء يوماً ما ويصبح الخان.

أصـيب حتى المحاربون الشبان بالتوتر عندما شاهدوا رجال جوشي. لم يكن حراس تشاغاتي قد قاتلوا ذلك اليوم وكان أولئك الذين جاؤوا مع جوشي ملطخين بالدماء، من شعرهم ووجوههم إلى ملابسهم المتسخة وطماقاتهم. كانت رائحتهم كريهة من العرق والموت وتلاشت السخرية من وجوه محاربـي تشاغاتي اليافعين

عــندما اقتربوا. لم تكن تلك لعبة. هزّ جوشي رأسه وشعور قوي يتملّكه، لم يشدّ لجام جواده عندما اقترب من المحاربين مع تشاغاتي. لم تفارق نظرته شقيقه أبداً فيما كانت مطيته تدفع برجلين واقفين جانباً حتى عندما اعترضاه بمطيتيهما لإيقافه. لو أنــه توقف لحظة، كانا سيمالكان نفسيهما ويوقفانه، لكنه لم يفعل ذلك. تجاوز رجلــين آخــرين قبل أن يدفع أحد الضباط جواده بقوة ويسد طريق جوشي إلى تشاغاتي.

كــان الــضابط أحد أولئك الذين وضعوا سيوفهم في أغمادها. تصبب عرقاً عــندما أصــبح ضــمن مدى سيف جوشي، وتمّنى ألا يقضي عليه القائد بضربة واحدة. رأى نظرة جوشي تبتعد عن شقيقه الذي يبتسم، وتستقر عليه.

قال جوشي له: "ابتعد عن طريقي".

شــحب لــون الــضابط، لكــنه هزّ رأسه. سمع جوشي تشاغاتي يضحك، واشتدت قبضته على قبضة رأس الذئب.

صــرخ تشاغاتي وعيناه تلمعان حقداً: "هل من مشكلة يا شقيقي؟ بعد مثل ذلــك النــصر أيضاً؟ هناك الكثير من الأيدي المتوترة هنا. ربما عليك أن تعود إلى رجالك قبل أن يقع حادث ما".

تنهد جوشي، وأخفى شرارة غضبه جيداً. لم يكن يريد أن يموت في مثل ذلك المكــان، لكنه كان قد تعرض للسخرية مرات كثيرة في حياته. كان قد سيطر على غضبه حتى تعبت عضلاته، لكنه في ذلك اليوم كان سيقطع شوطاً أبعد مع شقيقه الصغير الذي يبتسم.

دفــع بعقبــيه بردفي جواده، ووثبت مطيته إلى الأمام. ضرب جوشي وجه الضابط بظاهر يده، وأوقعه عن سرجه فيما كانت مطيته تتجاوزه. خلفهما، جأر رجاله وهاجموا.

كــان جوشي سعيداً عندما رأى وجه تشاغاتي يشحب من الصدمة قبل أن يقــف المزيد من الرجال في طريقه. فغر المحاربون حولهما أفواههم دهشة من قعقعة الــسلاح المفاجئة، واندفعوا نحو بعضهم. كان جوشي يعرف أنهم سيفعلون ذلك، لكــن رجاله كانوا قريبين بما يكفي ليشقوا طريقهم والدم يغلي في عروقهم. قتلوا من دون تأنيب ضمير، وشعروا بأن غضبه العارم غضبهم.

لم يكـــن محاربو تشاغاتي الشبان بطيئين في الرد. خلال بضع لحظات، كانوا يقاتلـــون ويطعنـــون كل رجل يندفع ضمنهم. شعر جوشي بأن جواده يقع تحته وانـــــزلق عـــن ظهره، وترنح عندما التوت ساقه. كانت ساقه اليمنى داكنة من الـــدماء الـــتي ســـالت من جرح آخر. تراجع خطوة أخرى إلى الوراء، وانخفض ليتفادى نصلاً حاداً، وضرب بسيفه إبطاً، ودفع به عميقاً.

رأى تـــشاغاتي شقيقه المجروح يقف على قدميه وصرخ، وركل جواده ليتقدم إلى الأمـــام عـــبر رجاله. أبعدهم الجواد جانباً وفجأة كان هناك بمواجهة جوشي. أنـــــزل سيفه بضربة قاتلة وكاد جوشي يقع تحت الحوافر عندما تفاداها، وخذلته ســـاقه مجدداً. تخلى تشاغاتي عن أي مظاهر ولوّح بسيفه بقوة. كان قد هوجم بين رجاله ولم تكن هناك أبداً فرصة أفضل للقضاء على الشوكة التي كانت شقيقه.

اهتز تشاغاتي فجأة، وكان أحد محاربـــي جوشي الذين فقدوا السيطرة على أنفـــسهم قـــد ضرب قائمة جواده. سقط الحيوان على جانبه ولم يستطع تشاغاتي تحرير ساقيه من الركاب. صرخ عندما تحطمت عظمة ساقه، وكاد يُغمى عليه من شدة الألم. شعر بسيفه يُركل بعيداً عن يده، وعندما نظر إلى الأعلى، كان جوشي يقف هناك وابتهاج مريع بالانتصار على وجهه.

صـــرخ أفـــراد فرقة تشاغاي عندما رأوه يسقط أرضاً. فقدوا كل حرصهم عندها، وضربوا آخر رجال جوشي بغضب جنوني.

كان جوشي يشعر بأن الدم الذي يسيل منه يضعف قوته. كافح ليرفع سيفه فـــيما كان يحدّق إلى عيني تشاغاتي. لم يتكلم عندما أنـــزله بضربة قوية. لم يشعر بالـــسهم الذي أصابه في صدره، وجعله يدور حول نفسه قبل أن تصل الضربة إلى مبـــتغاها. أغمـــي عليه ولم يعرف إن كان قد قتل الشقيق الذي أراد التخلص منه بكل ما أوتي من قوة.

أصـــدر تـــشاغاتي أوامـــر جديدة، وبالرغم من ذلك، اشتدت وتيرة القتال، وشـــارك فيها المزيد من أفراد فرقة جوشي. استمر القتال ولقي المئات حتفهم وهم يحاولون الثأر للقائد الذي سقط، أو إنقاذه: لم يكونوا يعرفون. أفلتت مجموعة من رجـــال جوشـــي تحمل جسده الرخو بين أفرادها، والسهم لا يزال يبرز منه. فيما كانوا ينسحبون، أطلق الضباط أبواقاً لفض الاشتباك بين الجانبين.

مزمجـــرين ويـــشعرون بالألم، ابتعد أفراد الفرقتين عن بعضهم، وأخيراً كانت هناك فسحة من الأرض بينهم. سحب قادة مجموعات الألف رجالهم بعيداً وركلوا بعـــضهم، واستعملوا مقابض سيوفهم لضرب أكثر من رجل حاول الاندفاع من خلفهـــم. استـــعادت سلـــسلة القيادة السيطرة عليهم وكان لكل جاغون من مئة وأربان من عشرة قائد يصرخ عليهم.

وقف أفراد الفرقتين يلهثون، مشدوهين من القتلى ومما كانوا قد فعلوه. كان يمكـــن سمـــاع اسم جنكيز في الهمسات وكان كل رجل هناك يخشى ما سيحدث عـــندما يسمع الخان بما جرى. لم يتحرك أحد فيما كان رجال جوشي يتفقدونه، ثم تـــرددت أصداء هتافات عبر الممر بين التلال. لم يكن السهم قد اخترق درعه. كـــان لا يزال على قيد الحياة، وعندما سمع تشاغاتاي ذلك بصق على الأرض غاضباً مـــن الحـــظ الـــذي يحالف الحقير ابن الحرام. تحمّل تثبيت ساقه بقطعة من رمح مكسور، عض على شفته فيما كان اللحم المتورم يُربط إلى الخشب في ثلاثة أماكن بـــين الركبة والكاحل. ساعده رجاله على امتطاء جواده، ورددوا هتافات لرؤيته حـــياً، بالـــرغم من أنها كانت مكتومة وتكررت خائفة. كانوا قد فازوا بالمعركة، وســـيغادرون الممـــر بـــين التلال معاً، وعداوة الدم التي بدأت لا يمكن سوى أن تنـــزف أو تحترق حتى تنتهي.

في اللـــيل، دفعت تشاكاهي فرسها الرمادية للسير في الشوارع المظلمة، مع رجال داكـــني البشرة يقودون جيادهم إلى جانبها. كان الجو في المدينة أكثر حراً من المخيم، كمـــا لو أن حرارة الشارع تحتفظ بالحرارة لتفقدها ببطء في الظلام. كان من السهل أن تتـــراءى لهـــا صور كثيرة وهي تشق طريقها إلى القصر على التل، حيث كان جنكيـــز ينتظرها. كانت المدينة مليئة بالعصافير التي ترقرق على كل حجر وسطح منـــــزل. تساءلت إن كانت الطيور قد انـــزعجت من حركة الجنود، أم أنها تأتي دائمـــاً لتجلس على الآجر الدافئ في سمرقند. بالنسبة إليها، كان ذلك شيئاً جميلاً وطبيعياً، لكنها لم تشعر بالارتياح لرؤيتها، وسمعتها تخفق بأجنحتها فوق رأسها.

بعـــيداً إلى يمـــينها، صرخت امرأة من دون أن تتمكن من رؤيتها. استطاعت رؤيـــة الـــضوء الخافت لمشاعل يحملها محاربون من دون زوجات ذهبوا إلى حلبة

ســباق الجـياد، وأخـذوا شابات من أذرع آبائهن وأزواجهن، وتركوا أحريات ليـصدر جنكيــز حكمه عليهنّ بحلول الفجر. فزعت تشاكاهي من تلك الفكرة، وشـعرت بالأســى على أولئك اللواتي سيشعرن بأيد قاسية في الظلام. كانت قد عاشـت بـين المغـول سـنوات عديدة، واكتشفت الكثير لتحبه في شعب بحر الأعــشاب. بالــرغم مــن ذلك، كانوا لا يزالون يسبون النساء من أولئك الذين يتغلـبون عليهم ولا يعيرون الأمر أدنى اهتمام. تنهدت لنفسها عندما وصلت إلى السور المحطم الذي يؤدي إلى حدائق يفوح منها شذا الزهور. كانت مأساة النساء أن الــرجال يعتبرونهن شهوة يُشبعونها في الليل. حدث ذلك في مملكة والدها، في أراضي تشن وهنا. لم يكن زوجها يرى خطأً في ذلك، ويقول إن الغارات من أجل النــساء تُبقــي الرجال متحفّزين. ارتعشت تشاكاهي كما لو أن قشعريرة مفاجئة سرت في ذراعيها المكشوفتين.

كانــت تشم رائحة الموت مع شذا الزهور في حدائق الشاه. كانت الجثث لا تــزال مكومة بأكداس كبيرة إلى جانب السور، وقد بدأت تنفسخ في الحرارة. بدا أن الهــواء هناك ثقيل جداً ولم ينعشها عندما تنفّست تنفّساً عميقاً، وحاولت عدم الــتفكير في العيون الجاحظة للجثث. كانت تعرف أن تلك الرائحة تحمل وباءً. في الــصباح، كانت ستتأكد من قيام تيموج بترحيلها وحرقها قبل أن ينخر مرض ما جيش زوجها.

مــع الحــراس المسلحين، سارت فرسها بحرص على درجات واسعة مصممة لــصعود الرجال إلى القصر الذي كان يطل داكناً على قمة التل. في أثناء رحلتها، أمعنت التفكير في السؤال الذي كان جنكيز قد طرحه وما قد يعنيه. لم تفهمه ولم تستطع التخلص من انقباض معدتها نتيجة ذلك. بالتأكيد لن يكون كوكشو هناك عندما تتكلم إلى زوجها. إذا كان هناك، ستطلب رؤية جنكيز بمفرده. كانت فكرة وقــوع بصر كوكشو الثاقب عليها يجعل انقباض معدتها أسوأ. تنهدت، وتساءلت إن كانــت حــاملاً مجــدداً، أم أن ذلــك كان نتيجة الكثير من الحزن والغضب الموجودين حولها منذ وقت طويل.

لم يكــن صــديقها ياو شو بارعاً بالطب، لكنه كان يعرف مبادئ استعادة التوازن. عقدت تشاكاهي العزم على رؤيته عندما تعود إلى المخيم. لم يكن المغول

يسعون لتحقيق سلام ذاتي وكانت تظن أن التركيز على العنف والدماء الحارة لأوقات طويلة أمر خطير. كان ينبغي أن يكون هناك وقت للراحة والهدوء، بالرغم من أنهم لا يعرفون شيئاً عن تعاليم بوذا.

ترجلت تشاكاهي عندما انتهت الدرجات إلى ساحة مسوّرة. سلّمها حراسها إلى آخرين ينتظرون هناك وتبعتهم تشاكاهي عبر ممرات مظلمة، وتساءلت لماذا لم يزعج أحد نفسه بإشعال المصابيح التي رأتها. حقاً، كان عرق زوجها شعباً غريباً. كان القمر مرتفعاً في الخارج، يلقي بضوء رمادي عبر نوافذ في قناطر عالية، ولهذا شعرت أحياناً أنها مثل شبح يمشي مع رجال ميتين. كانت لا تزال تشم رائحة الجثث في الهواء الثقيل، وكافحت لتبقى هادئة.

وجدت تشاكاهي جنكيز جالساً على عرش في قاعة كبيرة. بالرغم من أنها كانت تستعل خفين طريين، إلا أن أصداء خطواتها ترددت مثل همسات من كل الجوانب. بقي الحراس عند الأبواب واقتربت من زوجها، تنظر بعصبية حولها بحثاً عن أي إشارة على كوكشو.

كان جنكيز وحده في قاعة عرش الشاه، يحدق إلى المدينة المكشوفة أمامه عبر قنطرة كبيرة. كان القمر يجعل سمرقند تبدو مثل نموذج معقد، تمتد بعيداً في كل الاتجاهات.

تبعت تشاكاهي نظرته، ووقفت لبعض الوقت بصمت، تفكر في الأمر. كان والدها قد حكم في مثل ذلك القصر وجعلها ذلك المنظر تشعر بحنين مفاجئ للديار. لا شك في أن زوجها سيمضي قدماً قريباً، وستعود إلى حياة الخيام، لكن هناك، للحظة، كان بمقدورها أن تتذكر هدوء وجمال قصر عظيم، وتنسى القتلى الذين تتناثر جثثهم على الأرض حوله.

قالت تشاكاهي أخيراً: "أنا هنا يا زوجي".

استدار جنكيز نحوها، منتبهاً من أحلام يقظته.

قال وهو يشير إلى المدينة التي غمرها ضوء القمر: "هل رأيتها؟ إنها جميلة جداً".

ابتسمت تشاكاهي، وأومأت.

"إنها تذكرني قليلاً بكزي كزيا وعاصمة والدي".

أومأ جنكيز، لكنها لاحظت أنه كدر، وبالكاد ذهنه معها.

قالت تشاكاهي: "أرسلت رجلاً لتطرح عليّ سؤالاً".

تنهد جنكيز، ووضع أفكاره حول المستقبل جانباً. كان اليوم قد بدأ بشكل رائـع، لكنه انتهى بقتال جوشي وتشاغاتي أمام الرجال وهو الأمر الذي أحدث شـرخاً في جيشه سيتعب حتى هو لإصلاحه. نظر بعينين متعبتين إلى زوجته الثانية.

قـال: "فعلـت ذلك. نحن وحدنا هنا". نظرت تشاكاهي إلى الحراس الذين كانوا لا يزالون يقفون آخر القاعة، لكن جنكيز لم يلقِ بالاً لهم عندما تابع كلامه. "قـولي لي لماذا لا تستطيعين النظر إلى كوكشو من دون التفكير في شقيقتي. ماذا كنت تعنين بذلك؟".

اقتـربت تشاكاهي من جنكيز ووضعت يديها الباردتين على جبينه فيما كان يفـتح ذراعيه ليحتضنها. تأوه برقة من اللمسة، والتي جعلته يشعر ببعض الراحة. "عثـر عليها يا زوجي، بعد الهجوم على المخيم. عندما أراه، أرى اللحظة التي جاء بها من خيمتها. كان وجهه ينضح أسى ولا يزال ذلك يؤرقني".

كـان جنكيـز مثل تمثال فيما كانت تتكلم، وشعرت به يبتعد عنها. أمسك بيديها، وأبعدهما عنه بلطف، بالرغم من أن قبضته كانت مؤلمة.

"لم يعثـر عليها يا تشاكاهي. نقل لي أحد رجالي النبأ عندما تفقد الخيام بعد أن هرب الشاه".

كانـت عيـناه باردتين في ضوء القمر عندما أمعن التفكير في ما كانت قد قالته.

همس جنكيز: "هل رأيته؟".

أومـأت تـشاكاهي، وعقد الخوف لسانها. ابتلعت ريقها لتجيب، ونطقت الكلمات بصعوبة بالغة.

"كـان ذلـك عندما انتهى القتال. كنت أجري، ورأيته يخرج من خيمتها. عندما سمعت أنها لقيت حتفها، ظننت أنه قد نقل النبأ إليك".

رد جنكيز: "لا. لم يقل لي شيئاً، عندها أو لاحقاً".

ترنحت تشاكاهي قليلاً مذهولة مما كانت قد فهمته.

قـــال زوجهـــا: "لا تقولي شيئاً يا تشاكاهي. سأتعامل مع كوكشو بطريقتي الخاصـــة". أطلـــق لعنة بصوت خافت، أمال رأسه فجأة، واستطاعت رؤية الحزن يزداد في وجهه. "لقد كان هذا اليوم حافلاً بالمصاعب".

مـــرة أخـــرى تقدمت خطوة ليحتضنها بذراعيه، مسّت وجهه وجعلت ألمه يهدأ.

"أعرف يا زوجي، لكن الأمر انتهى الآن ويمكن أن تخلد إلى النوم".

قال جنكيز همساً: "ليس الليلة، ليس بعد هذا".

الفصل السادس والعشرون



مرّت ثلاثة أيام أخرى قبل أن يستدعي جنكيز أبناءه إلى قاعة استقبال القصر في سمرقند. بناءً على أوامره، كان كشيون، خاسار وجيلم قد عادوا مع فرقهم، وتركوا مدناً مدمرة خلفهم.

كان النهار حاراً ورائحة الحريق، والعرق، والدهن قوية في ذلك المكان المحصور. كان تيموج قد جاء أيضاً، وملأ حوالى سبعمئة ضابط بارز القاعة الكبيرة بانتظار جنكيز. كان ياو شو بينهم، وربما الرجل الوحيد الذي لا يقود آخرين. كان كوكشو يجثو عند كرسي العرش يواجه الحشد، ونظرته الفارغة ثابتة على الأرض.

مع مغيب الشمس وإشعال المصابيح على الجدران، دخل جنكيز من دون نفخ بالأبواق أو حاشية، ومرّت عيناه على الحشد ولاحظتا أشقاءه وأبناءه، من جوشي، تشاغاتي، أوجيدي وتولي إلى أصغر فتاة كانت تشاكاهي قد أنجبتها. وقف أصغرهم مع والدهم وبورت، مندهشين من السقف العالي. لم يكونوا قد رأوا مدينة من قبل وعندما نظروا إلى الأعلى بعصبية، تساءلوا ما الذي يمنعه من السقوط على رؤوسهم. بدأ أحد أبناء تشاكاهي يبكي، لكن بورت رفعته عن الأرض، وهدهدت له. كانت زوجات ضباط آخرين بين الحضور أيضاً، بالرغم من أن والدة جنكيز لم تكن هناك، وبقيت في عزلتها حزناً على فقدان ابنتها. منذ ماتت تيمولن، كانت هولن قد انسحبت من علاقات القبائل، وشعرت كل من تشاكاهي وبورت بخسارة حكمتها.

لم يكن الخان يضع درعاً ذلك اليوم. بدلاً من ذلك، كان قد ارتدى ملابس بسيطة كما لو أنه أحد الرعاة. كان قميص طويل يغطي سروالاً وطماقات فوق

حـــذاء من الجلد الطري. كان جلده نظيفاً ويلمع بدهن ضأن جديد. كان شعره معقـــوداً إلى الخلـــف تحت قبعة مربعة، وبالكاد مزينة بزخارف بسيطة. فيما كان ضـــوء أصـــفر يغمر القاعة، استطاع أولئك الأقرب إليه رؤية شيب على صدغيه، لكنه بدا نشيطاً ومتحفزاً، وكان وجوده كافياً لإسكات أدنى حركة في الحشد. لم يكـــن غائبـــاً سوى تسوبودي وجيبـــي، مع كل ضباطهما. كان بمقدور جنكيز انتظارهما، لكن لم تكن هناك أنباء عن المطاردة والأمور تضغط عليه، وكلها عاجلة أكثر من الأخرى.

عـــندما وقف وظهره إلى العرش، نظر في عيني جوشي وتشاغاتي، الواقفين أمـــام الحشد الصامت. كان كلاهما يحملان آثار المعركة التي اشتبكا فيها. كان تـــشاغاتي يتوكأ على عصا ليريح ساقه المكسورة، ويتعرق بشكل ظاهر للعيان. كـــان وجـــه جوشي مليئاً بكدمات، وكان يعرج أيضاً في أثناء سيره، وجروحه بالكاد شُفيت، وقد بدأت تشكل ندوباً. لم يستطيعا معرفة شيء من محيا والدهما. كـــان وجهـــه خالياً من أي تعبير وحتى أولئك الذين يعرفونه جيداً لم يستطيعوا الحكـــم على مزاجه أو تخمين السبب الذي دعاه لاستدعائهم. فيما كان جنكيز ينظر إليهما، رفع جوشي رأسه، وتعبيرات وجهه تماثل وجه والده. لم يكن يتوقع أن تكون نتيجة ذلك الاجتماع خيراً، لكنه رفض إظهار الخوف. كان قد أمضى ثلاثة أيام ينتظر اجتماعاً من نوع ما. بعد أن انعقد آنذاك، كان ذلك مبعث راحة له.

تـــرك جنكيـــز الـــصمت يطول فيما كان يواجههم. كان يعرف الكثير من الـــرجال والنساء في القاعة. كان حتى أولئك الغرباء أفراداً من قومه. كان يعرف عيوبهم ونقاط ضعفهم مثلما يعرف عن نفسه، وربما أفضل. كان قد أحضرهم من تـــلال الديار، أمسك بدروب حياتهم بيديه وصهرهم معاً. لم يكونوا آنذاك قبائل تنتظـــر الخان أن يتكلم. كانوا ملكاً له، حتى آخر طفل فيهم. عندما تكلم أخيراً، ملأ صوته القاعة، ونبرته أكثر هدوءاً مما كان يتوقع أي شخص هناك.

قال: "الليلة سأعين وريثي".

أطـــبق صـــمت تام ولم يتحرك أحد، بالرغم من أن تشاغاتي وجوشي تبادلا نظرة خاطفة صامتة، وكلٌّ واحد قلق جداً من الآخر.

تابــع جنكيـــز قائلاً: "لن أعيش إلى الأبد. أنا كبير بما يكفي لأتذكر عندما كانت كل قبيلة تعادي الأخرى. لا أود أن تعود تلك الأيام عندما أرحل. في هذه الغرفة، كنت قد دعوت كل امرأة ورجل له نفوذ في الأمة، ما عدا أولئك الغائبين مع تسوبودي وجيلم. سأتكلم إلى هؤلاء بشكل منفصل عندما يعودون. كنتم قد نذرتم جميعاً حياتكم وشرفكم لي. ستفعلون الشيء نفسه لابني".

توقف، لكن أحداً لم يجرؤ على التحرك من مكانه، وحبس البعض أنفاسهم. أومأ جنكيز لنفسه.

"أتقــدم بالشكر أمامكم لشقيقي كشيون، الذي حمل عبء أن يكون وريثي قبل أن يكبر أولادي ليصبحوا رجالاً". نظر إلى شقيقه ولاحظ إيماءة كشيون.

قـــال جنكيز، وهو يعرف أن شقيقه يدرك الحاجة إلى قول الكلمات بصوت عـــال: "أولادك لن يحكموا الأمة يا كشيون. ربما يحكمون شعوباً وأراضي أخرى، لكـــنّ الخـــان العظيم سيكون من اختياري ومن ذريتي وحدها. ستكون أول من يقسم بالولاء لابني، ثم شقيقاي خاسار وتيموج وكل رجل وامرأة هنا".

نظر إليهم مجدداً، وبدا أن عينيه الصفراوين تعرّيانهم.

"لا نـــساوي سوى العهد الذي نأخذه على أنفسنا. إذا كنت لا تستطيع أن تجـــثو لابني، يمكنك أن تغادر وتأخذ كل ما يخصك قبل شروق الشمس. هذا هو الخيار الوحيد الذي سأسمح به".

توقـــف مجـــدداً، أغمض عينيه للحظة عندما كاد الحزن والغضب يظهران عليه.

قال: "تقدم إلى الأمام يا أوجيدي، أنت وريثي".

استدارت كل العيون إلى المحارب الذي يبلغ السادسة عشرة من عمره. كان قـــد وصل إلى طول والده تقريباً في الوقت الذي أمضوه في هذه الأراضي. لم يكن الفتى النحيل الذي عاد من مدينة تشن مع كشيون محط اهتمام من قبل بالرغم من قـــسمات وجهــه القاسية، لكنه بدا يافعاً، ومدعوماً بكلمات والده. كانت عيناه شـــاحبتين مثل عيني الخان، واسعتين ولا تطرفان. لم يتحرك وكان على بورت أن تدفعه بمرفقها إلى الأمام ليتقدم عبر الغرفة المزدحمة، وأفسح رجال أكبر سناً الطريق لـــه. وحـــدها وتشاكاهي كانتا تعلمان أن ذلك سيحصل. كانت كلتا المرأتين قد

نـــصحتا جنكيز بذلك خلال الأيام السابقة، ولمرة واحدة، كان قد أصغى إليهما. ذرفت كلتاهما دموع الفخر.

تجاهــل جنكيـــز عيون تشاغاتي وجوشي التي تتقد غضباً فيما كان يدير ابنه الثالث المذهول ليواجههم.

قال جنكيز: "ينبغي ألا يكون الرجل الذي يقود الأمة ضعيفاً. عليه ألا يفسح المجـــال للتسرع أو الضغائن. عليه أن يستعمل عقله أولاً، لكن عندما يتحرك حقًا، علـــيه أن يكون مثل ذئب، من دون رحمة. تعتمد حياة الكثيرين عليه، وقرار واحد غير صائب يمكن أن يدمر كل ما بنيناه أنا وأشقائي".

أظهر جنكيز لمسة من غضبه الداخلي عندما شدّ قبضته وسحب نفساً عميقاً.

"أنـــا خان بحر الأعشاب، وشعب الفضة. لقد اخترت وريثي، وهذا حق لي. ليدمر أب السماء والأم الأرض أي امرأة أو رجل يقف في طريقه".

انحـــنت الرؤوس بعصبية في الحشد وتقدم كشيون عبرهم ليقف أمام جنكيز وأوجيدي. انتظر جنكيز ويده على قبضة سيفه، لكن كشيون ابتسم فقط. عندما رأى أن أوجيدي كان متوتراً، غمزه كشيون قبل أن يجثو على ركبة واحدة.

"أقسم بالولاء بملء إرادتي يا أوجيدي، لك، يا ابن شقيقي ووريثه. أرجو أن يكـــون اليوم الذي ترث فيه بعيداً سنوات طويلة من الآن، لكن حتى ذلك الوقت، أقطع عهداً على نفسي بالوفاء لقيادة والدك. في ذلك اليوم سأقسم على أن أتبعك مع خيام، وجياد، وملح، ودم".

جـــاء خاسار خلف كشيون تماماً، وجثا أيضاً وتكلم، وعيناه فخورتان. لم يكونا يـــستطيعان القـــسم بالـــوفاء التام للخان فيما كان جنكيز على قيد الحياة، لكن كلا الـــرجلين أقسما على اعتبار الفتى وريثاً. عندما زال التوتر، رفع جنكيز يده اليمنى عن ســـيفه، وتـــركها تـــرتاح على كتف أوجيدي. أنهى تيموج قسمه، وتقدم جوشي وتـــشاغاتي إلى الأمـــام. من بين كل الحاضرين في تلك القاعة، كان جنكيز بحاجة إلى سمـــاع القائدين الشابين يمنحان ولاءهما علانية، حتى لا يكون هناك أي شك في ذلك. كان كل النساء والرجال المرموقين في الأمة هناك كشهود على تلك اللحظة.

فـــزع جوشـــي فيما كان يجثو، بالرغم من أنه ابتسم بتكلف لأوجيدي. في أعمـــاق قلـــبه، كان جوشي يعرف أنه لن يكون الوريث. لم يكن واثقاً آنذاك أن

والـــده سيكتفي بذلك، أم أنه سيفكر في عقاب آخر لحماقة قتاله مع تشاغاتي. في ذلك على الأقل كان قد خرج منتصراً. لم يكن تشاغاتي الوريث أيضاً وكان واثقاً أنــه ســيقود الأمة يوماً ما. كانت آمال تشاغاتي المحطمة مثل شراب حار في دم جوشي.

بساقه المكسورة، لم يستطع تشاغاتي الجثو مع الآخرين. تردد عندما استقرت نظرة والده عليه ونظر الضباط إليه مذهولين عندما أصبحت المشكلة واضحة.

قــال جنكيــز ببرود: "ركوع تشن، انبطح يا تشاغاتي. نظراً إلى إصابتك، يمكنك القيام بذلك".

تــورد وجه تشاغاتي خجلاً فيما كان يلقي بنفسه على الأرض ويضع جبينه علــى الحجر البارد. لم يكن صعباً التخمين بأن والده سيفرض عليه عقاباً قاسياً إذا حاول التأخر.

مــن جانبــه، بــدا أوجيدي سعيداً لرؤية تشاغاتي ينكب على وجهه على الأرض. ابتســم عــندما نطــق شقيقه بالكلمات المعهودة قبل أن يستعمل العصا ليــنهض متألماً ويقف على قدميه. في الحشد، لم يستطع ياو شو أيضاً منع ابتسامة مــن الارتسام على وجهه. بحق، كان هناك مكان للقدر في العالم، وكان قد عاش ليرى الأحمق الشاب يتعرض للإذلال أمام الأمة. زالت عنه الرغبة في الثأر، وجعله ذلــك يشعر بفراغ. هز ياو شو رأسه حزناً على ما كان قد سمح لنفسه بأن تصبح علــيه في مخيمات المغول. كانت تلك فرصة ثانية، وأقسم على تجديد دراساته وأن يعــود لتعلــيم أبناء الخان. أشرق وجهه من فكرة العمل مع أوجيدي. كان الفتى ســريع الــبديهة وإذا كان ممكناً السيطرة على عنف العائلة الذي يجري في دمه، سيصبح يوماً ما خاناً عظيماً.

اســتغرق الأمر وقتاً طويلاً من كل النساء والرجال في القاعة ليقسموا بالولاء لأوجــيدي. عندما انتهت المراسم، كان الليل قد انتهى تقريباً والسماء رمادية في الشرق. لم يكن جنكيز قد أزعج نفسه بطلب الماء لهم. مع وقوف آخر قائد أربان على قدميه، تهلل الباقون، وفهموا أنهم قد رأوا بداية سلالة حاكمة في تلك الليلة، في مدينــة على تل. على مرأى الخان العظيم، هتف حتى ضباط جوشي وتشاغاتي بحماسة، مرتاحين لعدم إراقة أي دماء.

رفع جنكيز يديه لإسكاتهم.

"اذهبوا الآن، وانقلوا لعائلاتكم ما رأيتموه هنا. ستقيم وليمة في سمرقند اليوم احتفاءً بالمناسبة".

اشـــتدت قسمات وجهه عندما بدأ الحشد يتكلم ويبتسم، وسار أفراده نحو الأبواب الكبيرة على الطرف الآخر.

"كـــشيون، أنت وخاسار ستبقيان. أنت أيضاً يا تيموج. أريد أشقائي حولي عندما أقوم بما يتوجب عليَّ فعله".

توقـــف الأشقاء الثلاثة، ونظروا مندهشين، وعندها استدار جنكيز إلى حيث كان كوكشو يجثو إلى جانبه.

"لدي جياد جاهزة في الخارج يا كوكشو. سترافقنا".

أحنى كوكشو رأسه، وأخفى ارتباكه.

"كما تشاء يا مولاي الخان".

مع شروق الشمس، قاد جنكيز جواده ببطء إلى خارج سمرقند، ومعه أشقاؤه الـثلاثة وكوكـــشو، ترافقهم مطية إضافية واحدة. كان تيموج قد طرح أسئلة في البداية، لكن عندما لم يجب جنكيز، التزم الصمت مثل أشقائه. لم يكن أحد منهم يعرف إلى أين يقودهم جنكيز، أو لماذا يبدو مزاجه سيئاً للغاية في ذلك اليوم.

كانت عائلات الأمة تخيم على بعد بضعة أميال من سمرقند، بعيداً عن خطوط القـــتال. لم يتـــردد جنكيز عندما وصل إلى الصفوف الأولى من الخيام، والتي كان يتصاعد من كل واحدة منها دخان أبيض ببطء في الهواء. كان المخيم يضجّ نشاطاً آنـــذاك. كـــان المغول يستمتعون بذلك الجزء من الصيف، قبل أن تشتد الحرارة. بوجـــود النهـــر والبحيرات إلى الشمال، كان هناك ما يكفي من الرطوبة في الهواء لتغطي الأعشاب بالندى وكانت الشمس تجعلها تلمع لوقت قصير قبل أن تتبخر.

نظـــر أولئك الذين كانوا مستيقظين وقريبين إلى الخان وأشقائه بذهول عندما مرّوا بهم، ووقفوا ورؤوسهم منحنية بدلاً من النظر إلى كبار شخصيات الأمة. لكن جنكيـــز تجاهلـــهم كلهم فيما كان يدفع جواده عبر المتاهة. أخيراً، تجاوز خيمته الكبيرة على عربتها، وترجل عند خيمة والدته الصغيرة.

نــادى بلطــف: "نوخوي خور"، وكانت تلك تحية وطلباً في الوقت نفسه لإبقــاء كلب والدته العجوز مربوطاً قبل أن يندفع إلى الخارج ويهاجمهم. لم يكن جنكيــز قد أحب الكلاب أبداً ولم يحتفظ بأحدها. انتظر بضع لحظات، ثم استدار إلى المجمــوعة الصغيرة معه. كان هؤلاء يمثلون القوة الحاكمة في أمة المغول. وحده أوجيدي ارتقى إلى صفوفهم وفقط بعد تلك الليلة.

قال جنكيز: "انتظروني"، وانحنى ليفتح الباب الخشبـــي الملون لخيمة والدته.

كـــان الداخل لا يزال مظلماً. لم تكن والدته قد رفعت بعد غطاء اللباد الذي يـــسمح للضوء بالدخول خلال النهار. جعله الضوء الذي دخل من الباب المفتوح يـــرى جسداً مستلقياً على السرير. كان كلبها العجوز ينام وهو يلف نفسه حول قدمـــيها، وأظهـــر أسنانه عندما اقترب منها، وقد تحشرج الصوت في حلقه. ابتلع جنكيز ريقه بصعوبة.

"أرسلي كلبك إلى الخارج يا أماه. عليّ أن أتحدث إليك".

فـــتحت هـــولن عينيها بصعوبة، وكانتا لا تزالان محتقنتين من الشراب الذي اعـــتادت على تناوله لتنام من دون أن تحلم بشيء. أغلقت إحداهما مجدداً مباشرة تقـــريباً، وجلـــت من الألم الذي شعرت به في رأسها. شم جنكيز رائحة البول الكـــريهة في الخـــيمة والجسد الذي لم يغتسل منذ زمن طويل. كان يحزنه أن يرى شعر أمه الأشيب منثوراً وغير مرتب وكان يعرف أنه كان عليه إخراجها من حزنها قبل وقت طويل. بدت عجوزاً شمطاء عندما نظرت إليه. كان هو قد دفن حزنه في الهجـــوم على المدينة، وملأ أيامه بالخطط والأعمال، بينما بقيت هي وحيدة للحزن وقد استنفد ذلك قواها.

تـــنهد جنكيز لنفسه. أخرج رأسه من الباب مرة أخرى، وطرفت عيناه من الضوء.

"أريـــد منك أن تأخذ كلبها يا كشيون. وأريد طعاماً وشراباً وشاياً وحطباً للموقد. هل يمكنك إحضارها يا خاسار؟".

تراجع إلى الخلف ليسمح لكشيون برفع الكلب العجوز عن سرير والدته. عندما مـــدّ كـــشيون يده نحوه، ثار الكلب، ونبح بصوت عالٍ. لطمه كشيون ببساطة على خطمه وجره بعيداً عن السرير، ركله نحو الباب وجرى الحيوان إلى الخارج، ينبح.

قالت هولن بنـــزق: "اترك الكلب وشأنه".

عـــندما جلست، وأدركت أن اثنين من أبنائها في خيمتها، مرّرت يداً بشكل تلقائـــي فوق شعرها وحدّقت إليهما. لاحظ جنكيز أنها قد خسرت وزناً بشكل يـــنذر بالخطر خلال الشهور السابقة. شعر بذنب يعتصره لأنه لم يجعل أحداً يعتني بها. بالتأكيد كانت تشاكاهي وبورت قد أحضرتا لها طعاماً وبدّلتا ملابسها.

قالـــت هولن: "ما الأمر؟"، وفزعت عندما ضج رأسها ألماً. استسلمت فيما يخـــص شـــعرها، وتـــركت يديها تنـــزلان إلى البطانيات على حجرها، وكانت أظافرها الصفراء داكنة من الوسخ.

كانت تخاطب كشيون، لكنه هزّ كتفيه فقط، ونظر إلى جنكيز.

قال جنكيز بفظاظة: "ضعي بعض الشاي الحار اللاذع في معدتك وسنتكلم".

في الخـــيمة الـــصغيرة، سمـــع معدتها تقرقر من الغازات و لم يتفاجأ عندما وضعت البطانـــيات جانـــباً ودفعـــت نفسها للوقوف على قدميها. لم تتكلم عندما دفعت قدميها داخل حذاء طري، وغادرت الخيمة للذهاب إلى حفرة مرحاض قريبة.

نظر كشيون إلى شقيقه معاتباً.

قـــال: "هـــل هـــذا ما دعوتنا لأجله؟ لم أكن أعرف أنها على تلك الحال، آسف".

قـــال جنكيز: "لم أكن أعرف ذلك أنا أيضاً. ألم أكن مشغولاً بآلاف الأشياء منذ ماتت تيمولن؟".

أشاح بنظره بعيداً عندها، مدركاً أن كلماته تعني ضعفاً.

قال جنكيز: "سيكون الأمر على ما يرام، بعد اليوم".

عـــاد خاسار قبل والدته بقليل، ولهذا تبعته إلى داخل الخيمة. كان هو أيضاً متفاجـــئاً من الشكل الهزيل. عانقها قليلاً، لكنه فزع فيما كان يوقد ناراً في الموقد ويـــشعل صـــوفاً بـــشرارة من احتكاك حجر صوان مع فولاذ، ونفخ عليها حتى خرجت شعلة صغيرة بين يديه.

بـــدا أن الـــشاي يستغرق وقتاً طويلاً ليغلي، وكان جنكيز نفسه من سكب الكوب الأول لوالدته. ارتشفت منه، وفقدت عيناها بعضاً من حزنهما عندما سرى الدفء عبر جسدها العجوز.

قالـــت أخـــيراً، وهي تستعمل اسم طفولته الذي لم يكن أحد آخر في المخيم يجرؤ على ذكره: "ماذا تريد يا تيموجن؟".

رد جنكيز بصوت يكاد يكون همساً: "الثأر لشقيقيّ".

كانت عينا هولن واسعتين وداكنتين في العتمة وأغلقتهما كما لو أنه صفعها.

قالت هولن: "لا أريد سماع ذلك. عد غداً، وسأكون أقوى".

لم يستسلم جنكيز، وأخذ كوب الشاي الفارغ من بين يديها، وهز رأسه. "لا يا أمي. ارتدي ملابسك، وإلا سأرسل خادمة إليك. ستذهبين مع أبنائك اليوم، بعيداً عن هذا المخيم".

قالـــت بصوت أقوى مما كان سابقاً: "اخرج يا تيموجن. خذ أشقاءك معك. أنـــا أنتظر الموت، هل تفهم؟ لقد أدّيت دوري في حياتكم وأمتكم. كنت هناك في البداية و لم يجلب لي ذلك سوى الأسى. اخرج فحسب واتركني خلفك كما كنت تفعل دائماً".

عندما رد جنكيز، كان صوته رقيقاً.

"لـــن أفعـــل يا أمي. كشيون، قل لتيموج إن عليه أن ينتظرنا لبعض الوقت. سأجعلها تستحم وترتدي ملابسها حتى تصبح جاهزة".

مغلـــوبة على أمرها، استلقت هولن على السرير. بقيت مسترخية فيما كان جنكيز يستعمل دلو ماء وقطعة قماش لغسل شعرها. وجد مشط عظم على أرض خيمـــتها وجلـــست بصمت عندما بدأ يمرره عبر الشعر الأشيب المنفوش، ويداه تحرصان تماماً على ألاّ يؤذيها.

كانـــت الشمس قد ارتفعت إلى كبد السماء عندما انتهوا من جعل هولن ترتدي ثـــيابها. لم تكن قد تكلمت مجدداً، بالرغم من أنها رحبت بالكلب عندما عاد إلى مكانه إلى جانبها، والذي اندفع إلى الداخل عندما رأى فرصة سانحة. بدا أن إرادة المقاومة قد هجـــرت والـــدتهم وكان كل من جنكيز وكشيون صامتين فيما كانا يساعدانها على امـــتطاء الجـــواد ويـــضعان قدميها في الركاب. جلست هولن من دون اكتراث، لهذا سحب خاسار اللجام فوق رأس الجواد وربطه إلى قربوس سرجه ليقودها.

عـــندما امتطـــى جـــواده أيضاً، نظر جنكيز حوله إلى العائلة التي كانت قد اختبأت من أعدائها في صدع صخري بعيد في الأرض عندما كان مجرد فتى. كانوا

قـــد مشوا مع الموت منذ ذلك الوقت وكانت الذكريات باردة على جلده. تخيل روح بكتـــر معهـــم وكان يعرف أن روح الشقيق الذي كان قد قتله ستفخر بهذا اليوم. كان يأمل بأن يتمكن بكتر من رؤية ذلك. لم تكن تيمولن أيضاً موجودة مع تلـــك المجمـــوعة الصغيرة من الناجين، بالرغم من أنها كانت لا تزال طفلة رضيعة عـــندما تم إرغامهم على الهرب. مكانها، كان كوكشو يقود مطيته بصمت كامل، ويـــراقب الخان من طرف عينيه. عندما دفع جنكيز جواده للجري خبباً بعيداً عن المخـــيم، سمـــع صقوراً تصرخ فوق رأسه. كانت أصواتها العالية تذكره بصرخات تيمولن، عندما كانت كل وجبة انتصاراً وكل معركة تنتظر أن يخوضوها.

انطلقوا جنوباً وشرقاً في حرّ النهار، شربوا الماء من قُرب كان جنكيز قد أمر بوضـــعها على كل مطية. كان قد استعد للرحلة والخُرج مليئة بلحم الضأن المقدد والجبن الجاف. بعد الظهر، عندما بدأت الأرض ترتفع، توقف جنكيز لتقسيم الجبن على حجر مسطح، استعمل مقبض سكينه لتفتيت الكتل قبل أن يمزجها بماء دافئ ويـــضع القُـــرب تحت كل سرج. كان الشراب اللاذع سيغذيهم عندما يتوقفون مجـــدداً ذلك المساء، بالرغم من أنه فعل ذلك أساساً من أجل والدته، التي لم تكن معتادة على مثل تلك الرحلات.

كانـــت هـــولن قد استفاقت من خدر الصباح، بالرغم من أنها تضايقت من حـــرارة الـــشمس وكانت قد توقفت مرة لتتقيأ قليلاً قبل أن تمضي قدماً. استقر بـــصرها علـــى جنكيز فيما كان يقود جواده أمامها، وتذكرت أيضاً الأيام الأولى الـــصعبة، عندما كانت يد كل رجل تمتد بالشر نحوهم. كان خمسة صبيان وبنت واحـــدة معهـــا آنـــذاك، لم يبقَ منهم سوى أربعة صبيان. ألم تقدم ما فيه الكفاية لطمـــوح وأحـــلام جنكيـــز؟ رأت الجبال ترتفع أمامها في أثناء تقدمهم، واختار جـــوادها طريقه بعناية عندما انتهت حتى دروب الماعز. عندما بدأت الشمس تهبط في الأفـــق، ارتفعت الأرض مرة أخرى وكان الانحدار شديداً وبالرغم من ذلك لم تتكلم هولن إلى أي من الرجال معها.

كـــان كوكشو يتصبب عرقاً، وشرب أكثر من جنكيز وخاسار معاً. لم يكن هو الآخر معتاداً على امتطاء جواده على أرض صعبة التضاريس، لكنه لم يتذمر مع

التــزام هولن الصمت، وكان يعرف أن ذلك سيُخزيه في عيني الخان. لم تكن لديه فكــرة عن سبب استدعائه لمرافقة جنكيز، بالرغم من أنه عندما نظر إلى الأعلى، ورأى الثلوج على القمم، عرف أن الأرواح قوية في الأماكن العالية. لم يكن المغول يــشعرون بالــراحة أبــداً في أراضٍ تــشتد فيها الحرارة، حيث يهاجمهم الذباب ويتــصببون عرقاً ويظهر على جلدهم طفح غريب. في هواء الجبال النظيف، كان كوكــشو يعرف أنهم سيشعرون بأنهم في الديار. ربما كان قد تم استدعاؤه ليدعو لجنكيز هناك.

تــسلقوا نحــو قمة تل حتى أضحت الشمس تلامس الأفق في الغرب، وتلقي بظلال طويلة أمامهم كما لو أنهم يتحركون في ظلام. كان المضي قدماً صعباً، لكن الجياد تقدمت بخطوات ثابتة، وتبعوا جميعهم جنكيز. نادراً ما كانت الأرض تنحدر بشدة لترغمهم على الترجل. كانوا قد ساروا مع الجياد مرتين فقط ذلك اليوم وبدا أن الــصمت المتجهم يطبق عليهم جميعاً، ولهذا كانت حناجرهم وشفاههم الجافة ستواجه صعوبة في التكلم مجدداً.

لم يعكر المزاج الكدر صفو وصولهم إلى المنطقة التي يغطيها الثلج، على الأقل بالنــسبة إلى تيموج، خاسار وكشيون. لم يكونوا قد رأوا الثلج منذ غادروا جبال ديارهم وتنشّقوا الهواء البارد، مستمتعين بالطريقة التي يدخل بها رئاتهم.

لم يبدُ أن جنكيز يخالجه الشعور نفسه، أو يسمع الطريقة التي يتغير بها صوت الحوافــر على الثلج. كانت قمة التل لا تزال أمامهم. ثبّت ناظريه عليها ولم ينظر حتى إلى الأسفل نحو الأراضي الشاسعة التي ظهرت من ذلك الارتفاع.

انتهــى اليوم الطويل المجهد عندما شد لجام جواده أخيراً. كان نصف قرص الشمس يتوارى خلف الأفق الغربــي والضوء الذهبــي يتداخل مع الظلال، لهذا كان عليهم أن يغمضوا عيونهم عندما ترجلوا. ساعد خاسار والدته على النــزول، ومــرّر قربة من الشراب لها، فقبلتها شاكرة. أعاد الشراب القوي بعض الحيوية إلى وجههــا المــرهق، لكنها ارتعشت عندما وقفت هناك، تنظر حولها بذهول. كانوا يــستطيعون رؤيــة صورة مبهمة لسمرقند عبر الأراضي الزراعية، وأبعد من ذلك خــيط لامــع من البحيرات إلى الشمال. بدا كما لو أنها تستطيع رؤية كل طريق العودة إلى الديار وجعلت تلك الفكرة الدموع تفيض من عينيها.

شــهر جنكيز سيفه، وجعل صوت المعدن كل العيون تتجه إليه. كان أيضاً يــشعر بالـــراحة في الثلج. في الأماكن العالية، كان شعورهم بأب السماء وهمس الأرواح ســـهلاً. حتى في مثل ذلك المكان البعيد، شعر بهم قريبين جداً منه. بالرغم مـــن أن الـــشعور جعله يسترخي، إلا أنه لم يخفف الغضب العارم في صدره الذي كان يعتمل منذ أيام عديدة.

قال: "قف أمامي يا كوكشو"، وراقب كوكشو عن كثب فيما كان يقترب منه. كان القلق بادياً على وجه كوكشو، ولمع خط من العرق في أعلى فروة رأسه، لكن جنكيز كان يرى لمعان شيء مختلف في عينيه. ازدادت الرياح قوة فجأة عندما تجمع الأشقاء مع الدهم حول جنكيز، يعثرون كتلة من الثلج بأقدامهم.

لم يشح جنكيز نظره عن كوكشو فيما كان يتكلم إلى أشقائه وهولن.

"هذا هو الرجل الذي قتل تيمولن، وليس أحد حراس الشاه. إنه هذا الشخص".

ربما كان كوكشو قد وثب إلى الوراء لولا أن خاسار كان يقف خلفه.

صرخ كوكشو: "تلك كذبة! أنت تعرف ذلك".

قـــال جنكيـــز: "لا، لا أظن ذلك". كان جاهزاً لهجوم كوكشو أو هروبه، وكانـــت كـــل أعصابه متحفزة فيما كان يتكلم. "لم يتم العثور على جثة شقيقتي حتى حلول الظلام، وجاء ذلك الرجل مباشرة إليّ. بالرغم من ذلك، هناك من رآك تخرج من خيمتها قبل وقت طويل".

"المـــزيد مـــن الأكاذيب! يا مولاي الخان، شخص ما يحاول تدميري. هناك أولئك الذين يظنون أنك منحتني ثقة مطلقة، وأنك تفضلني علانية. لدي العديد من الأعداء يا مولاي، *أرجوك*...".

تكلم تيموج فجأة واستدار كوكشو إليه بأمل.

قـــال تيموج: "قد يكون محقاً يا شقيقي. من يستطيع تحديد الخيمة التي كان فيها عندما كانت النيران تحرق المخيم؟".

جثا كوكشو على ركبتيه، ويداه اللتان تشبهان المخالب ترتعشان فيما كانتا تقبضان على القليل من الثلج.

"إن ما قاله صحيح يا مولاي. لقد منحتك كل شيء، الخيام، والجياد، والملح، والدم، *كل شيء*. هذه غلطة".

تمتم جنكيز: "لا. هذه ليست غلطة".

رفع كوكشو وجهه برعب عندما رأى سيف الخان يرتفع في الهواء.

"لا يمكنك إراقة دم كوكشو يا مولاي. هذا محرَّم!".

لم يستدر في الوقت المناسب ليرى هولن تصفع وجهه بيدها. كانت الضربة ضعيفة، لكن كوكشو صرخ فيما كان يقع إلى الخلف على الثلج. عندما وقف إلى جانب قدمي خاسار، اندفع القائد من دون تفكير، وركله بقوة على أضلاعه.

كان جنكيز يقف ساكناً واستدارت عائلته نحوه مستفسرة عندما وضع السيف إلى جانبه.

قالت هولن، وعيناها تلمعان أكثر من أي وقت مضى في ذلك اليوم: "لا يمكنك أن تدعه يعيش يا تيموجن". كانت قد استعادت بعضاً من حيويتها القديمة عندما رأت كوكشو يعاني على تلك القمة الباردة ولم يبدُ أنها كانت تشعر بالريح آنذاك. سلّمها جنكيز السيف، وأمسك بمعصمها عندما ظن أنها ربما تضرب به.

تدلّى يديه الفارغتين للحظة، وارتعد كوكشو خوفاً أمامه، عالقاً بين أقدام العائلة التي كان قد خدمها. دارت الأفكار في ذهنه بجنون فيما كان يبحث عن كلمات جديدة. كان وجه تيموج الأحمق مليئاً بالشك والضعف وحتى الخان كان قد وضع سيفه جانباً. كان لا يزال هناك أمل.

"لم أفعل شيئاً يا مولاي. أياً يكن الذي أخبرك فقد ارتكب غلطة وينبغي ألا يكون ثمنها حياتي، أو خدمتي لك. إذا مت هنا، فسيحيق بك حظ سيئ إلى آخر أيامك. أنت *تعرف* أنني أقول الحقيقة".

مدّ جنكيز يده إلى الأسفل، وأمسك بكتفه بقبضة مريعة. للحظة، ظن كوكشو أنه يرفعه ليقف على قدميه، وتنفس الصعداء. ثم شعر بجنكيز ينقل قبضته إلى ساقه النحيلة، وأمسكت الأصابع القاسية بركبته وانغرست الأظافر في اللحم. كافح كوكشو بعنف فيما كان جنكيز يرفعه في الهواء.

صرخ كوكشو: "*أرجوك* يا مولاي، أنا بريء!".

رفع جنكيز كوكشو أكثر، ثم أنزله بسرعة، وجثا على ركبة واحدة عندما فعل ذلك. وقع كوكشو على فخذ الخان. سمعوا جميعاً عموده الفقري ينكسر وكوكشو يفتح فمه من دون أن يصدر عنه صوت. أصبحت ساقاه رخوتين،

وتــشبثت يــداه بالثلج وضوء الشمس الذي كان يتلاشى آنذاك. عندها، أشاح تــيموج وجهـــه بعيداً وهو يكاد يتقيأ، لكن كشيون وخاسار حدّقا كما لو أنهما مصممان على تذكر كل تفصيل.

جثا جنكيز إلى جانب كوكشو، وتكلم بهدوء.

قــال: "هــناك ذئاب في هذه الجبال. كان بعض رجالي يصطادونها من أجل فــرائها. ســتعثر علــيك هنا الليلة وفي البداية ستراقبك فقط. عندما يجعلك البرد ضعيفاً، ستقترب منك، وتبدأ بشم ساقيك ويديك. ستبتعد عندما تصرخ وتتحرك، لكنها لن تذهب بعيداً، وستعود بشجاعة أكبر. عندما تبدأ بتمزيق لحمك، وعندما تثيرها رائحة دمك، فكّر فيّ عندها".

وقف وتبعت عينا كوكشو حركته، والدموع تجعل رؤيته غير واضحة. بقي فمه مفتوحاً كاشفاً عن أسنان بنية. رأى هولن تضع ذراعاً حول جنكيز، وتضغط علـــى كتفه فيما كانوا يستديرون عائدين إلى جيادهم. لم يستطع كوكشو سماع الكلمات التي تبادلتها العائلة. لم يكن قد عرف أبداً مثل ذلك الألم، وتحطمت كل الخدع والطقوس التي يعرفها أمام الضعف الذي سرى في جسده.

بعــد ذلك، حلّ الظلام سريعاً، وتأوه عندما وجد أن ساقيه عديمتا الجدوى. مرة، دفع نفسه ليجلس، لكن موجة الألم المبرّح الجديدة جعلته فاقد الوعي. عندما استعاد وعيه مجدداً، كان القمر عالياً واستطاع سماع أصوات مخالب على الثلج.

الفصل السابع والعشرون



مــع انقضاء فصل الصيف، بقي جنكيز في سمرقند، بالرغم من أن قادته غزوا الإقليم باسمه. سقطت مدن مرو (تسمّى اليوم ميرف)، ونيسابور، وبلخ، ويورغانج بتعاقب سريع، ولقي سكانها حتفهم أو أصبحوا عبيداً. حتى نبأ موت الشاه وعودة تسوبودي وجيبــي لم يرفعا روحه المعنوية كثيراً. كان يرغب في العودة إلى الديار والسهول التي عرفها صبياً، لكنه اعتبر ذلك ضعفاً. كانت مهمته آنذاك أن يدرب أوجــيدي على القيادة، وأن ينقل إليه كل شيء كان قد تعلّمه كخان طيلة عقود مــن الحرب. كان قد ردّ الإهانة إلى الشاه ألف مرة، لكنه في أثناء ذلك اكتشف أراضي شاسعة بشكل لم يكن أحد يعرفه من قبل.

وجــد نفسه مثل ذئب يتحرك طليقاً بين قطيع من الأغنام ولم يكن يستطيع ببــساطة إعــادة الأمة إلى الديار. كان أوجيدي سيحكم شعبه، لكن كانت هناك عروش أخرى. بطاقة جديدة، كان جنكيز يمشي في قصر الشاه ومدينته، يتعلم كل ما يمكنه بشأن الطريقة التي يعيش عليها الناس في ذلك المكان.

أحــضر تيموج خرائط جديدة كانت قد صُودرت أو رسمها أسرى. كشفت كــل واحدة منها عن المزيد من الأراضي حول سمرقند وشكل العالم نفسه. وجد جنكيــز صعوبة في تصديق وجود جبال إلى الجنوب كبيرة لدرجة أن أي رجل لم يــتمكن مــن تــسلقها، وحيث الهواء قليل بما يكفي ليلقى المرء حتفه. سمع عن حيوانات غريبة، وأمراء هنود سيجعلون شاه خوارزم يبدو مثل حاكم محلي.

كــان أبــناء سمــرقند أحراراً في العودة إلى منازلهم على الأغلب. في أماكن أخــرى، سمــح جنكيــز لمحاربين شبان بالتمرّن على ضربات السيف على أسرى مقــيدين. لم تكــن هناك طريقة أفضل لعرض الضرر الذي يمكن لسيف إحداثه،

وســاعد ذلــك في إعدادهم لمعارك حقيقية. في سمرقند، كانت الشوارع تزدحم بالــناس، بالــرغم من أنهم كانوا يبتعدون عن طريقه عندما كان يمشي مع حراسه وخــرائطه. كــان فضوله كبيراً، لكن عندما كان يعود إلى القصر كل ليلة، كان يــشعر بأنــه يجثم على صدره مثل قبر حتى لا يعود يقوى على التنفس. كان قد أرســل مستطلعاً إلى الجبال حيث ترك كوكشو. كان المحارب قد أعاد مجموعة من عظام مكسورة وأحرقها جنكيز في مجمر. حتى ذلك لم يجعله يشعر بطمأنينة. كان يــبدو أن حجــارة أسوار القصر تسخر من الطموحات المبنية على الناس والجياد. عــندما يصبح أوجيدي خاناً، ماذا سيهم إن كان والده قد استولى على مدينة أو تركها سليمة؟ كان جنكيز يتدرب كل يوم بالسيف، ويقاتل حتى يتصبب عرقاً في الــصباح ضــد أفضل حراسه. كان يُحزنه كم أصبح بطيئاً بمرور الأعوام. كانت قدرته على التحمل لا تزال تضاهي شباباً أصغر سناً، لكن ركبته اليمنى كانت تؤلمه بعد جولة واحدة ولم تكن عيناه حادتين كما كانتا من قبل.

في صباح حمل أولى علامات الشتاء، في عامه الرابع في خوارزم، وضع جنكيز يديــه علــى ركبتــيه، بعد أن قاتل محارباً يبلغ من العمر عشرين عاماً حتى شعر بالإرهاق.

"إذا هاجمــك الآن، فــستموت يــا صديقي القديم. اترك دائماً شيئاً ما، إذا استطعت".

رفــع جنكيز بصره إلى الأعلى مندهشاً، ثم ابتسم ببطء لرؤية الرجل العجوز النحــيل عند طرف ساحة التدريب. كان أرسلان داكن البشرة ونحيلاً مثل عصا، لكن رؤيته كانت تجلب سعادة لم يكن جنكيز يتوقعها مجدداً.

ألقــى الخــان نظرة على خصمه الذي كان يقف ويتنفس بسهولة، وسيفه جاهز.

قــال: "كنت آمل أن أفاجئ هذا النمر الشاب عندما يدير ظهره. من الجيد رؤيتك. ظننت أنك ربما تكون قانعاً بالبقاء مع زوجتك وماعزك".

أومأ أرسلان برأسه.

"فتكت الذئاب بالماعز. لست راعياً، كما يبدو". تقدم إلى الساحة الحجرية، وأمسك بذراع جنكيز بقبضة مألوفة، ولاحظت عيناه التغييرات في الخان.

رأى جنكيز أن طبقة سميكة من الغبار تعلو القائد القديم من رحلة امتدت شهوراً. شدّ قبضته أكثر، مظهراً سعادته.

"تناول الطعام معي الليلة. أريد أن أسمع عن سهول الديار".

هزّ أرسلان كتفيه استخفافاً.

"إنها على حالها. من الغرب إلى الشرق، لا يجرؤ تجار تشن على عبور أرضك من دون طلب الإذن من إحدى محطات الطريق. السلام يعم تلك الأرض، بالرغم من أن هناك حمقى يقولون إنك لن تعود، وأن جيوش الشاه كثيرة جداً حتى عليك". ابتسم أرسلان عندما تذكر تاجر كزي كزيا وكيف كان قد ضحك في وجهه. كان جنكيز رجلاً صلباً ومن الصعب أن يلقى حتفه، ولطالما كان كذلك.

قال جنكيز: "أريد سماع كل شيء. سأدعو جيلم ليتناول الطعام معنا".

أشرق وجه أرسلان عندما سمع اسم ابنه.

رد: "سأود رؤيته. وهناك أحفاد لم أرَهم بعد".

فزع جنكيز قليلاً. كانت زوجة تولي قد وضعت مولودها الثاني بعد بضعة شهور من ولادة أول أبناء تشاغاتي. كان جداً لثلاثة أحفاد، بالرغم من أن جزءاً منه لم تكن تعجبه تلك الفكرة إطلاقاً.

قال: "أبنائي آباء الآن. حتى تولي الصغير لديه صبيان صغيران في خيمته".

ابتسم أرسلان، وكان يفهم جنكيز أفضل مما كان يتوقع.

"ينبغي أن تستمر السلالة يا صديقي. سيكونون أيضاً خانات يوماً ما. ماذا دعاهما تولي؟".

هز جنكيز رأسه، مسروراً من اهتمام أرسلان بالأبوة.

"أسميت الأول مونغكي. دعا تولي الثاني كوبلي. عيونهما تشبه عينيّ".

بشعور غريب بالفخر جال جنكيز في سمرقند مع الرجل الذي سيحكم المدينة. كان أرسلان مفتوناً بنظام المياه والأسواق، بشبكتها المعقدة من الموردين على بعد ألف ميل في كل اتجاه. بحلول ذلك الوقت، كان جنكيز قد اكتشف مناجم الذهب التي تغذي خزانة الشاه. كان قد تم قتل جميع الحراس الأصليين وسلب المناجم في الوقت الذي أدرك فيه أهميتها على الخرائط، لكن كان لديه

رجـال جـدد يعملـون وبعض من ألمع محاربيه الشبان يتعلمون عملية استخراج الـذهب والفـضة مـن الأرض. كانت تلك إحدى فوائد المدينة، كما كان قد اكتـشف. كان يسكن فيها رجال أكثر مما يمكن للحياة في السهول أن تستوعبه. كان يمكن الاستفادة من هؤلاء الرجال لبناء أشياء أخرى، ربما أكبر.

قـال جنكيـز لأرسلان: "سيكون عليك أن ترى المناجم. لقد حفروا في الأرض مـثل حـيوانات الغرير، وبنوا كيرة عظيمة لفصل الفضة والذهب عن الـصخور. أكثـر من ألف رجل يحفرون وخمسمئة آخرون يحولون الصخور إلى مـسحوق. المكـان مثل عش نمل، لكن منه يأتي المعدن الذي يجعل المدينة تنبض بالحـياة. كـل شيء آخر يعتمد على ذلك. أحياناً، أشعر أنني أكاد أفهم كيف يبنون قيمة الأشياء. يبدو الأمر مثل شيء يُبنى على أكاذيب ووعود، لكنه يجدي نفعاً، بطريقة ما".

أومـأ أرسلان، وكان يراقب جنكيز بدلاً من الإصغاء عن كثب إلى أشياء لم يكن يهتم بها أبداً. كان قد استجاب للدعوة لأنه يعرف أن جنكيز لن يستدعيه من دون سـبب. كـان عليه أن يفهم لماذا أصبحت المدن فجأة مهمة للشاب. طيلة يومين، مشى مع جنكيز عبر سمرقند، يتكلمان ولاحظ توتر الخان الداخلي. كانت زوجـة أرسلان قد مُنحت جناحاً من الغرف في القصر، وبدت منتشية بالحمامات الكبيرة والعبيد من تشن الذين خصّصهم جنكيز لها. أثار اهتمام أرسلان أن أياً من زوجتي جنكيز لم تكن قد غادرت معسكر الخيام خارج المدينة.

عـند ظهيرة اليوم الثالث، توقف جنكيز في سوق، جلس على مقعد قديم مع أرسـلان. كانـت المحالّ مزدحمة، ومالكوها متوترين من وجود المغول وسطهم. جلـس كلا الرجلين مرتاحين، لوّحا بأيديهما لإبعاد أولئك الذين جاؤوا يعرضون عليهما عصير فاكهة أو خبزاً مالحاً ولحماً.

قـال أرسلان: "سمرقند مدينة رائعة يا جنكيز. لكنك لم تكن تهتم للمدن من قـبل. لقد رأيتك تحدّق إلى معسكر الخيام في كل مرة كنا نمشي فيها على الأسوار ولا أظن أنك ستبقى هنا طويلاً. إذاً، قل لي لماذا عليّ البقاء؟".

أخفـى جنكيز ابتسامة. لم يكن الرجل العجوز قد فقد ذكاءه في الأعوام التي أمضاها بعيداً عنه.

"ظننت مرة أنني سأستولي على مدن من أجل شعبي يا أرسلان، وأن ذلك سيكون مستقبلنا". هزّ رأسه. "الأمر ليس كذلك، على الأقل بالنسبة إليّ. المكان جميل، نعم. ربما يكون أفضل وكر للجرذان رأيته حتى الآن. ظننت أنه إذا استطعت حقاً فهم طريقة العيش هنا، ربما يمكنني أن أحكم من مدينة، وأمضي أيامي الأخيرة بسلام، فيما يستمر أبنائي وأحفادي بتحقيق الانتصارات". ارتعش جنكيز كما لو أن نسيماً بارداً قد لامس جلده. "لا يمكنني ذلك. إذا كان ينتابك الشعور نفسه، يمكنك أن تغادر وتعود إلى السهول مع مباركتي. سأدمر سمرقند وأمضي قدماً".

نظر أرسلان حوله. لم يكن يحب أن يكون محاطاً بعدد كبير من الناس. كانوا في كل مكان وبالنسبة إلى رجل أمضى معظم حياته في سهول مكشوفة مع ابنه وزوجته فقط، لم يكن الازدحام يجعله يشعر بالارتياح. كان يظن أن سمرقند ليست مكاناً مناسباً لمحارب، بالرغم من أنها ربما تكون مكاناً مناسباً لرجل عجوز. كانت زوجته تظن ذلك، بالتأكيد. لم يكن أرسلان متأكداً إن كان سيشعر بالراحة في ذلك المكان، لكنه شعر أن جنكيز يريد الوصول إلى شيء، وكافح كي يفهمهم.

قال أخيراً: "لم تكن تهتم سوى لتدمير المدن في ما مضى".

رد جنكيز: "كنت أصغر سناً عندها. كنت أظن أن الرجل يمكن أن يستغل أفضل أعوام حياته ضد الأعداء ثم يموت، مُهاب الجانب ومحبوباً". ضحك بصوت خافت. "لا أزال أعتقد ذلك، لكن عندما أرحل، سيبني الناس المدن من جديد ولن يتذكروني".

فزع أرسلان لسماع مثل تلك الكلمات من الخان العظيم الذي كان يعرفه منذ كان صبياً.

سأل بتشكك: "ما المهم في ذلك؟ لقد كنت تصغي إلى تيموج، على ما أظن. كان يثرثر دائماً عن الحاجة إلى تاريخ، إلى سجلات".

لوّح جنكيز بيده في الهواء، نافد الصبر من الطريقة التي يجري بها النقاش.

"لا، هذا نابع مني. لقد قاتلت طيلة حياتي، وسأقاتل مراراً وتكراراً حتى أصبح عجوزاً وواهناً. ثم سيحكم أبنائي أراضي أكبر مساحة وأبناؤهم من بعدهم.

ذلــك هــو الدرب الذي سلكناه معاً يا أرسلان، عندما لم يكن لدي شيء سوى الكراهية لتجعلني أمضي قدماً، وكان إيلوك يحكم الذئاب".

لاحــظ دهشة أرسلان وتابع كلامه، يبحث عن كلمات تمنح معنى لأفكاره الضبابية.

"شــعب هــذه المدينة لا يصطاد ليأكل يا أرسلان. يعيشون أطول مما نعيش وحياتهم أسهل، نعم، لكن لا ضير في ذلك وحده".

تأفــف أرسلان، وقاطعه من دون أن يهتم لشرارة الغضب التي أطلقها. كان قــد مرّ وقت طويل منذ قاطع أي شخص جنكيز فيما كان يتكلم، حتى وإن كان أحد أفراد عائلته.

قال أرسلان: "حتى جئنا وقتلنا ملوكهم وشاهاتهم ودمرنا أسوارهم. من بين كــل الــرجال، كنت قد أظهرت ضعف المدن وستقبل بها الآن؟ ربما ستبني تماثيل لنفســك مثل تلك الموجودة إلى جانب الأسوار. ثم يستطيع كل رجل أن ينظر إلى الوجه الحجري ويقول: *كان ذلك جنكيز*، أليس كذلك؟".

كــان الخــان قد صمت تماماً عندما تكلم أرسلان وأصابع يده اليمنى تنقر بصمت على المقعد الخشبــي. شعر بخطر يتهدده من جنكيز، لكن أرسلان لم يكن يخشى أي رجل ورفض أن يجبن.

"كــل الرجال يموتون يا جنكيز. جميعهم. فكّر في ما يعنيه ذلك للحظة. لن يتذكــرنا أحــد أكثر من جيل أو اثنين". رفع يداً عندما فتح جنكيز فمه ليتكلم مجــدداً. "آه، أعرف أنك تُنشد أسماء الخانات العظيمين إلى جانب النار ولدى تشن مكتــبات تعود إلى آلاف السنين. ماذا عنها؟ هل تظن أن الموتى يهتمون بأن تُقرأ أسمــاؤهم *بصوت عالٍ*؟ إنهم *لا يهتمون* يا جنكيز. لقد ذهبوا. الشيء *الوحيد* المهم هو ما فعلوه عندما كانوا لا يزالون على قيد الحياة".

أومــأ جنكيز ببطء فيما كان أرسلان يتكلم. كان يريحه كثيراً أن يصغي إلى نــصيحة الــرجل العجوز مجدداً. كان قد ضاع لبعض الوقت في حلم المدن. كان الإصــغاء إلى أرســلان مثل إفراغ دلو من الماء البارد على أحلامه، لكنه استساغ الأمــر. كــان سمــاع ذلــك الصوت مثل العودة شاباً مجدداً، عندما كان العالم أكثر بساطة.

تابع أرسلان كلامه: "عندما تخاف ولا تفعل شيئاً، يكون ذلك مهماً. يتآكل الـرجال عندما يفكرون في أنهم جبناء. كيف تربـي أبناءك وأحفادك هو المهم. الزوجة التي تدفئك في الليل مهمة. المتعة التي تشعر بها من كونك على قيد الحياة، الـسعادة الـتي تأتي من تناول مشروب قوي، الصحبة والقصص؛ *كل* ذلك مهم. لكـن عـندما تصبح تراباً، يمضي الرجال الآخرون من دونك. دع هذا الأمر يا جنكيز، وسيكون عيشك هانئاً".

ابتسم جنكيز من النبرة الصارمة.

"سأعتبر أنك لن تحكم سمرقند باسمي أيها الصديق العجوز".

هزّ أرسلان رأسه.

"آه، سـأقبل بمـا عرضته عليّ، لكنني لا أنصح به. سأقبله لأن هذه العظام القديمة متعبة من النوم على أرض قاسية. تحب زوجتي هذا المكان وأريدها أن تكون سـعيدة أيضاً. تلك أسباب جيدة يا جنكيز. ينبغي للرجل أن يهتم دائماً بالأشياء التي تسعد زوجته".

ضحك جنكيز بصوت خافت.

قال: "لا يمكنني أبداً أن أعرف متى تلهو أو تتكلم جاداً".

"أبداً يا جنكيز، أنا عجوز جداً على اللهو. أنا عجوز جداً حتى على زوجتي أيضاً، لكن ذلك ليس مهماً اليوم".

ربـت جنكيـز علـى كتفه ونهض. كاد يضع ذراعه ليساعد أرسلان على الوقوف على قدميه، ثم سحبها قبل أن يشعر القائد العجوز بالإهانة.

"سـأترك لـك خمسة آلاف رجل. يمكنك أن تخصص جزءاً من المدينة لبناء ثكـنات لهم. لا تجعلهم رقيقين أيها الرجل العجوز". ابتسم عندما أظهر أرسلان ازدراءه لمثل تلك الفكرة.

دفـع جنكيـز مطيته للجري خبباً عبر الأسواق إلى البوابة الرئيسة لسمرقند. وحـدها فكـرة الانطـلاق مع العائلات والفرق مرة أخرى كانت كافية لإبعاد الـشعور بالاختناق الذي كان يعاني منه ضمن المدينة. كان الشتاء، بحلته الكاملة، قـد حـل مجدداً على أراضي الشاه، بالرغم من أن بعض الأيام كانت دافئة. حتّ

جنكيـز نديـة على يده فيما كان يقود جواده على طول الطريق الممهد. سيكون جيداً وجـود أعشاب طرية تحت الحوافر مرة أخرى. كانت ثماني فرق بانتظار مغـادرة المدينة، وانتظمت بتشكيل المعركة على الأراضي الزراعية حول سمرقند. كـان فتيان بلغوا الرابعة عشرة من العمر قد سدّوا النقص في الصفوف وكان قد انتقى خمسة آلاف رجل جيد للبقاء مع أرسلان.

خلف الفرق، كانت الخيام مطوية ومربوطة إلى عربات والقوم مستعدين مرة أخـرى للتحـرك. لم يكن يعرف آنذاك إلى أين سيأخذهم. لم يكن ذلك مهماً، وتـرددت في ذهنه فكرة بدوية قديمة فيما كان يقترب من البوابة تحت أشعة شمس الـشتاء. لم يكونـوا مـضطرين إلى التوقّف كي يعيشوا، ليس مثل أولئك الذين حـولهم. في القبائل، كانت الأجزاء المهمة من الحياة تمضي قدماً سواء أقاموا مخيماً علـى ضـفة نهر تحت الشمس، أو هاجموا مدينة عدوة، أو انتظروا في شتاء قاس. كـان قد نسي ذلك لبعض الوقت في سمرقند، لكن أرسلان كان قد ساعده على تنظيم أفكاره.

بقـيت الحـشود في المديـنة بعيدة عن الرجل الذي يمكن أن يأمر بقتل أي شـخص يراه. بالكاد لاحظ جنكيز وجوههم التي تحدّق إليه فيما كان يقترب من البوابة وينظر عبر المساحة المكشوفة إلى صفوف محاربيه.

اهتز جواده من دون سابق إنذار، ووجد جنكيز نفسه يندفع إلى الأمام. رأى أن رجـلاً كان قد تقدم من الحشد ليمسك الحزام الجلدي المربوط بلجام الجواد. كانـت حركة شد قوية واحدة كفيلة بجعل رأس المطية يلتف والخان يتوقف. كان حراسـه يشهرون سيوفهم ويفتحون أفواههم ليصرخوا، لكن جنكيز استدار ببطء شـديد لـيرى مهاجماً ثانياً يندفع نحوه، ولم تكن للوجه الذي يصرخ لحية. ثم دفع سكين إلى الأعلى نحوه، وحاول الفتى طعنه تحت الدرع في جسده.

بـشكل فطـري، ضـرب جنكيز الشاب بقوة على وجهه. بدرعه الكاملة وساعديه اللتين تغطيهما صفائح من الحديد المطروق، شق المعدن وجنة الفتى الذي وقع أرضاً. شهر جنكيز سيفه عندما بدا أن الحشد سيثور من حوله. رأى المزيد من السكاكين تحملها قبضات وطعن بسيفه الشخص الذي يمسك بجواده، ودفع النصل عمـيقاً في صـدره. كان الرجل الذي ضربه يحتضر، لكنه أمسك بقدم جنكيز،

وتشبث بها بقوة، وضرب سيف ردف الخان. استطاع سماع المهاجمين يصرخون في كل مكان حوله، لكن حراسه كانوا يتحركون لحماية الخان. لم يكونوا يعرفون أو يهتمون بالجزء من الحشد الذي خرج منه المهاجمون. اندفعوا عبرهم جميعاً، قضوا على رجال ونساء حتى تناثرت الجثث في كل مكان.

فيما كان جنكيز يجلس لاهثاً على مطيته، استعاد الفتى الذي جرح وجنته وعيه ووثب عليه. طعن أحد حراسه الفتى من الخلف، ثم ركله لإبعاده عن النصل حتى تمدد مع الآخرين. كانت السوق خالية آنذاك، بالرغم من أن أصداء الصرخات والأقدام الهاربة كانت لا تزال تتردد في الشوارع القريبة. مد جنكيز يده ليمس الجرح الذي كان قد أصابه. كان قد عرف جروحاً أسوأ في حياته. أومأ إلى الحراس، وكان يعرف أنهم سيخافون غضبه لأنهم سمحوا بإصابته. في الواقع، كان جنكيز قد قرر آنذاك شنقهم جميعاً لغفلتهم، لكنه لم يكن ليأمر بذلك فيما لا يزال ضمن مدى سيوفهم ولا يزالون مستعدين للقتال.

انتظر جنكيز حتى وصل جنود جدد من الفرق، وتسوبودي وكشيون معهم. مرّر يداً على حنجرته فيما كان ينظر إلى الحراس وخارت قواهم فيما كانوا يمسكون بمطيهم، وانتهت كل مقاومتهم عندما تم أخذ أسلحتهم.

قال جنكيز غاضباً من نفسه: "كان عليّ أن أتوقع ذلك". ربما المدينة نفسها كانت قد جعلته مهملاً. بالنسبة إلى رجل قهر إمبراطوريات، كان هناك دائماً أشخاص يكرهونه. لم يكن ينبغي له أبداً الاسترخاء داخل مدينة، حتى سمرقند. أطلق لعنة بصوت خافت من فكرة أن أعداءه كانوا يعرفون تماماً أين يجدونه منذ شهور. كانت تلك إحدى فوائد حياة الترحال؛ كان على الأعداء العمل بجد لمعرفة مكانك.

كان كشيون قد ترجّل لتفقّد القتلى. كان أربعون شخصاً تقريباً قد لقوا حتفهم على أيدي الحراس وبعضهم لا يزالون أحياء وينزفون. لم يكن القائد مهتماً بالعثور على المذنب أو البريء، أو يشعر بأيّ شفقة عليهم. كان شقيقه قد تعرض لهجوم، وكان على وشك أن يأمر رجاله بالإجهاز على أولئك الذين لا يزالون يزحفون عندما تردّد، ورفع يده.

كان شابان قد سقطا بالقرب منه معاً، نتيجة الهجوم الأول. كان كل منهما يرتدي ثوباً مثل تلك التي تحمي رجال الصحراء من العواصف الرملية. كانا عاريي

الــصدرين تحــته، وبعــد مــوتهما، اســتطاع كشيون رؤية العلامة نفسها على حنجــرتيهما. مزق الملابس قليلاً، ثم أشار إلى محارب ليفعل الشيء نفسه مع باقي القتلى. ذكوراً وإناثاً، تم تمزيق ملابسهم. وجد كشيون ستة رجال آخرين يحملون العلامة نفسها، و لم يكن أي منهم على قيد الحياة.

رآه جنكيز يستدير نحو الشاب الذي يقف مع تسوبودي.

"أنت. ماذا تعني هذه؟".

هز يوسف الغاني رأسه، وشفتاه مشدودتان.

رد: "لم أرَها أبداً من قبل".

حدّق جنكيز إلى الأسفل إلى الرجل، وكان يعرف أنه يخفي شيئاً.

قال: "إنها كلمة بلغتكم. اقرأها لي".

تظاهر يوسف بأنه يفحص الرجل الأول الذي كان كشيون قد وجده. قرأها من اليمين إلى اليسار ولاحظ كشيون أن يديه كانتا تهتزان.

"يا سيدي، إنها كلمة تعني *السكون*. هذا كل ما أعرفه".

أومأ جنكيز كما لو أنه قبل ذلك. عندما لم ينظر يوسف إلى الآخرين، أصدر صــوتاً قاســياً من حنجرته وترجل، وأظهر أسنانه عندما نــزل وزنه على ساق واحدة.

قال: "أمسكوه".

قــبل أن يتمكن يوسف من فعل أي شيء، كان سيف تسوبودي على عنقه، والمعدن حاراً على جلده.

قــال جنكيز: "كنت تعرف أنها ستكون الكلمة نفسها أيها الفتى. قل لي من يمكن أن يضع هذه الكلمة على صدره. قل لي وستعيش".

بالرغم من التهديد، بقيت عينا يوسف تنظران إلى السوق المهجورة، تبحثان عــن أي شــخص قــد يكون يراقب ما يجري. لم يرَ أحداً، لكنه كان يعرف أن شخصاً ما سيكون هناك. ستجد كلماته طريقها إلى الرجال الذين كانوا قد أمروا بعملية القتل.

ســأل بصوت يكاد يختنق من ضغط سيف تسوبودي: "هل ستغادر المدينة يا سيدي؟".

رفـــع جنكيـــز حاجبـــيه، متفاجئاً من الشجاعة التي أظهرها. أو الجنون، أو الخوف، بالرغم من أن الخوف الذي أظهره كان أكبر من تأثير السيف على العنق.

"سأغادر اليوم أيها الفتى، نعم. تكلم الآن".

ابتلع يوسف ريقه بصعوبة.

"الحـــشاشون يحملون مثل تلك العلامة، مثل تلك الكلمة يا سيدي. هذا ما أعرفه بصدق".

أومأ جنكيز ببطء.

"إذاً، سيكون من السهل العثور عليهم. أبعد سيفك يا تسوبودي. نحتاج إلى هذا الرجل".

رد تسوبودي: "لقد اكتشفت أنه مفيد يا مولاي. بعد إذنك، سأرسل ساعياً لـــيحمل النبأ إلى القائد. سيرغب في تفقد كل كادره بحثاً عن تلك العلامة، وربما كـــل مـــن في المديـــنة". فـــيما كانت الفكرة تتشكل في ذهنه، استدار، وأمسك بيوســـف، وشد ثوبه جانباً قبل أن يتمكن من فعل أي شيء. كان الجلد مكشوفاً وحدّق يوسف إلى القائد فيما كان يعيد ترتيب نفسه.

قـــال جنكيـــز: "كان ذلك عملاً حكيماً". نظر حوله إلى جثث القتلى التي بدأت تجذب الذباب آنذاك. لم تكن سمرقند مركز اهتمامه.

"اشنق حراسي قبل أن تنضم إليَّ يا تسوبودي. لقد فشلوا اليوم".

متجاهلاً الألم في ردفه، امتطى جواده، وخرج إلى فرقه.

الفصل الثامن والعشرون



كانت حركة خيمة الخان التي تهتز على عربتها تثير شعوراً غريباً في يوسف الغاني. كان الشاب قد رأى العديد من الأشياء المدهشة منذ قدّم خدماته إلى المغول. مع انقضاء اليوم، وتحرك الفرق مع العائلات، كان قد توقع أن يتم استدعاؤه مرة أخرى لمواجهة الخان. كان يوسف قد راقب باهتمام تفقد كل رجل وامرأة بحثاً عن علامة السكين. كان هناك عدد مدهش من الوجوه داكنة البشرة في المخيم لم يكن يوسف قد لاحظها من قبل. في الأعوام التي بقي فيها المغول في خوارزم، كانوا قد اصطحبوا معهم حوالي ألف شخص، شباباً وشيباً. كانوا يعملون كمترجمين في أغلب الأحيان، بالرغم من أن بعضهم كانوا يمارسون الطب وانضم آخرون إلى تشن كمهندسين وحرفيين يعملون لصالح الخان. لم يكن يبدو أن جنكيز يهتم عندما كانوا يتوقفون عن أعمالهم ويمدّون سجاجيدهم لأداء الصلاة، بالرغم من أن يوسف لم يكن واثقاً إن كان ذلك ينبع من الاحترام أو عدم الاكتراث. كان يشك في الأخيرة، لأن المخيم كان يضم بوذيين ونصارى نسطوريين ومسلمين، بالرغم من أن الكفّار كانوا أكثر عدداً بكثير من المؤمنين الحقيقيين.

انتظر يوسف أن يتكلم الخان فيما كان الرجل ينتهي من تناول وجبة الطعام. كان قد سمح لقصّابين مسلمين بذبح الماعز والأغنام بالطريقة التي يرغبون فيها ولم يبدُ أن المغول يكترثون للطريقة التي يأكلون أو يعيشون بها طالما أنهم يطيعونهم. لم يفهم يوسف الرجل الذي كان يجلس قبالته، يزيل شيئاً من بين أسنانه بملقط. عندما جاء الأمر بمقابلة الخان، كان تسوبودي قد أمسك به من ذراعه وطلب منه أن يفعل كل ما يُؤمَر به.

لم يكن يوسف بحاجة إلى التحذير. كان ذلك هو الرجل الذي ذبح عشرات الآلاف من شعبه، وأكثر. بالرغم من ذلك، كان الشاه الميت قد فعل الشيء نفسه في حروبه واضطهاده. كان يوسف يتقبّل مثل تلك الأشياء. طالما أنه على قيد الحياة، لم يكن يهتم إن نجح الخان أو أصبح طعاماً للغربان.

وضع جنكيز طبقه جانباً، لكنه احتفظ بسكين طويلة جاهزة على حجره. لم يكن التحذير غائباً عن الشاب الذي يراقبه.

قال جنكيز: "بدوت متوتراً في السوق. هل يصلون إلى غايتهم عادة، هؤلاء الحشاشون؟".

سحب يوسف نفساً عميقاً. كان لا يزال غير مرتاح حتى للتكلم عنهم، لكن إذا لم يكن بأمان وهو محاط بفرق من المحاربين، عندها سيلقى حتفه حتماً.

"كنت قد سمعت أنهم يستطيعون الوصول إلى أي رجل في أي مكان يا سيدي. عندما يتعرضون لخيانة، يثأرون بشكل مريع من أولئك الذين يتحدّونهم، سواء أكانوا أقرباء، أصدقاء، أو حتى قرى بأكملها".

ابتسم جنكيز قليلاً.

قال: "لقد فعلت الشيء نفسه. يمكن للخوف أن يكبل رجالاً قد يقاتلون حتى الموت بخلاف ذلك. أخبرني المزيد عنهم".

قال يوسف بسرعة: "لا أعرف من أين يأتون. لا أحد يعرف".

قاطعه جنكيز، وعيناه تلمعان ببرود: "لا بد من أن شخصاً ما يعرف، وإلا لن يقبضوا ثمن عملية القتل".

أومأ يوسف بعصبية. "هذا صحيح يا سيدي، لكنهم يكتمون أسرارهم ولست أحد هؤلاء الذين يعرفون. كل ما سمعته هو شائعات".

لم يتكلم جنكيز، وأسرع يوسف بكلامه، يرغب في أن يقدم شيئاً يرضي ذلك الشرير العجوز الذي يلعب بسكين.

"يقال إن رجل الجبال العجوز يحكمهم يا سيدي. أعتقد أنه أكثر من مجرد اسم، لأنه بقي نفسه أجيالاً عديدة. إنهم يدربون شباناً على الاغتيال، ويرسلونهم لأداء مهمات مقابل مبالغ طائلة من المال. لا يتوقفون أبداً حتى يموتون".

قال جنكيز: "تم إيقافهم هذا الصباح".

تردد يوسف قبل أن يجيب.

"سيكون هناك آخرون يا سيدي، والمزيد دائماً حتى يتم تنفيذ الاتفاق".

سأل جنكيز: "هل يحملون جميعاً هذه العلامة على جلودهم؟". كان يظن أنه لـــن يكون من الصعب حماية عائلته من رجال يعرّفون عن أنفسهم بتلك الطريقة. لخيبة أمله، هز يوسف رأسه.

"كنت أظن أن ذلك جزء من الأسطورة يا سيدي، حتى رأيته في السوق. إنه إثم بالنسبة إليهم أن يضعوا على أجسادهم علامة تمثل تلك الطريقة. كنت مندهشاً لـــرؤية ذلـــك. لا أظن أنهم جميعاً يحملون العلامة، خاصة الآن بعد أن اكتشفتها. سيكون الذين يأتون الآن شباناً، لا تحمل أجسادهم أي علامة".

قال جنكيز بهدوء: "مثلك".

أرغم يوسف نفسه على إطلاق ضحكة، بالرغم من أنها بدت جوفاء.

"لقد كنت وفياً يا سيدي. اسأل القائدين تسوبودي وجيبيـــي". ضرب على صدره. "ولائي لك وحدك".

تأفـــف جنكيز من الكذبة. ما الذي سيقوله الشاب غير ذلك، حتى إذا كان حشّاشاً؟ كانت فكرة أن أي شخص منهم في مخيمه قد تبعث على القلق. فهو لديه زوجتان وأطفال يافعون، وكذلك أشقاء، ويستطيع حماية نفسه ضد جيوش، لكن ليس ضد أعداء يأتون في الليل ويضحّون بحياتهم لإنهاء حياته.

تذكـــر جنكيز قاتل تشن الذي كان قد خرج من ينكينغ لاغتياله في خيمته. كان الحظ قد أنقذه تلك الليلة وبشق الأنفس. كانت السكين المسمومة قد سببت لـــه ألماً وضعفاً لم يكن قد اختبرهما من قبل. كان مجرد التفكير فيها قد جعل جبينه يتصبب عرقاً فيما كان يحدّق إلى الشاب. فكّر في إخراج يوسف من المخيم، بعيداً عـــن النـــساء والأطفال. سيجعله رجاله يخبرهم أي شيء يرغبون في سماعه خلال وقت قصير للغاية.

ارتـــبك يوســـف من النظرة القاسية، وكان يشعر بشكل فطري أنه يتعرض لخطر مروّع. بذل جهداً هائلاً كي لا يندفع من الخيمة ويجري نحو جواده. وحدها حقيقة أن المغول يستطيعون القضاء على أي شخص حي جعلته يلزم مكانه. مالت العربة عندما مرّت العجلات فوق أخدود في الأرض، وكاد يوسف يصرخ فزعاً.

"سأسال يا سيدي. أعدك. إذا عثرت على أي شخص يعرف كيف يجدهم، فسأرسله إليك". أي شيء يجعله أكثر قيمة للخان وهو على قيد الحياة، كما فكّر في قرارة نفسه. لم يكن يهتم إن دمّر المغول الحشّاشين، وإنما فقط أن يكون يوسف الغاني واقفاً عندما ينتهي القتال.

همهم جنكيز وهو يلعب بالسكين بين يديه.

"حسناً يا يوسف. افعل ذلك، وانقل كل ما تسمعه إليّ. وأنا سأبحث بطرائق مختلفة".

سمع الشاب الإذن بالانصراف في كلماته، وغادر مسرعاً. وحيداً، أطلق جنكيز لعنة بصوت خافت. رمى السكين التي انغرست في العمود المركزي للخيمة وبقيت هناك، تهتز. كان بمقدوره تدمير مدن حيث يمكنه رؤيتها. كان يستطيع تحطيم جيوش وأمم. كانت فكرة قيام قتلة مجانين بطعنه في الليل تجعله يرغب في تحطيم ما حوله. كيف يمكنه حماية عائلته من مثل هؤلاء الناس؟ كيف يمكنه الحفاظ على سلامة أوجيدي ليرثه؟ لم تكن هناك سوى طريقة واحدة. مدّ جنكيز يده نحو السكين، وحرّرها من العمود. كان عليه العثور عليهم وقتلهم عن بكرة أبيهم، أينما كانوا يختبئون. إذا كانوا يتحركون كما يفعل قومه، سيعثر عليهم. إذا كان لديهم منزل، سيدمّره. كان على الاستيلاء على مدن أن ينتظر.

أرسل بطلب قادته، وجاؤوا إلى خيمته قبل أن تغيب الشمس.

قال لهم جنكيز: "إليكم أوامري. سأبقى مع فرقة واحدة لحماية العائلات. إذا جاؤوا لقتلي هنا، سأكون مستعداً لهم. ستخرجون في كل الاتجاهات. اعثروا على كل ما يتعلق بهؤلاء الحشّاشين وعودوا. يستطيع رجال أثرياء الاستفادة من خدماتهم، لهذا سيكون عليكم تحطيم بلدات ومدن ثرية للوصول إلى هؤلاء الرجال. لا تحتفظوا بأسرى عدا أولئك الذين يدّعون أنهم يعرفون شيئاً. أريد أن أعرف موقعهم".

قال تسوبودي: "ستنتشر أنباء الرُشى بسرعة كبيرة. لدينا حمولات عربات من الذهب واليشم ويمكننا استخدامها لهذا الغرض. بعد إذنك يا مولاي، سأعد أيضاً بمبالغ طائلة لأي شخص يمكنه أن يخبرنا عن المكان الذي يتدرب فيه الحشّاشون. لدينا ما يكفي لإغراء حتى الأمراء".

لوّح جنكيز بيده، موافقاً على الفكرة.

"اعـرض عدم المساس بالمدن التي تزوّدنا بمعلومات إذا أردت. لا أهتم كيف يـتم الأمر، وإنما فقط بالحصول على المعلومات التي أريدها. وخذ الذين يتكلمون لغتهم في المخيم معك. لا أريدهم في أي مكان قريب حتى نجد وندمر هذا التهديد. لا شـيء آخـر مهـم حتى ذلك الوقت. لقد مات الشاه يا تسوبودي، وهذا هو التهديد الوحيد الذي نواجهه".

شـعر جـلال الدين أن الحشد يضطرب كما لو أنه كان يحمل القلوب بين يديه. كـان قد جعلهم يتعلقون بكلامه، وانتابه شعور غامر وجديد. في جيش والـده، كـان قـد تعامل مع رجال أقسموا سلفاً على طاعته. لم يكن عليه أبداً تجنيدهم، أو حـثّهم على مناصرة قضيته. كان اكتشاف أنه يمتلك تلك المهارة، ويبرع فيها، قد أدهشه كما أدهش أشقاؤه.

كـان قد بدأ بزيارة المساجد في البلدات الأفغانية، وهي أماكن صغيرة يوجد فيها عدّة مئات من الأتقياء. كان قد تكلم إلى أئمة تلك المساجد، وأعجبه الرعب الـذي ظهر عليهم عندما أخبرهم عن فظائع المغول. كان قد تعلم ما ينفع عندها، وكانـت الحكايات تصبح أسوأ مع تكرار سردها. كان قد قطع مسافة بعيدة عن القـرية الأولى مع أربعين رجلاً قوياً من قبيلة باثان. قبل أن يصل إليهم، لم يكونوا قـد سمعوا أبداً بأن الكفّار قد غزوا بلاد المسلمين، أو أنهم قتلوا شاه خوارزم. كان غـضبهم الأخلاقي قد أدهش جلال الدين في البداية، حتى رأى أصداءه تتردد في كل قرية وبلدة زارها. كان عدد الرجال الموالين قد ازداد، وجلس أكثر من ألفين في الهواء الطلق على التراب، ينتظرون القائد الذي أقسموا على الولاء له.

قـال: "بعينيّ هاتين، رأيت المغول يدمرون مسجداً. رفع رجال الدين أيادي فارغة لإيقافهم، لكنهم قتلوهم ورموهم جانباً، وتركوا جثثهم تتعفن".

تمـتم الحشد غاضباً، وكانت تلك أكبر مجموعة يخاطبها منذ قدم جنوباً. كان معظمهـم رجالاً يافعين وكان هناك العديد من الفتيان معهم، رؤوسهم تفتقر إلى العمامات التي يعتمرها هؤلاء الأكبر سناً. كان جلال الدين قد اكتشف أن الشبان هـم الأكثر تأثراً به، بالرغم من أنهم كانوا يصطحبون معهم محاربين متمرسين من

الـــتلال لسماعه يتكلم. لو أن والده كان لا يزال حياً، كان جلال الدين يظن أن الـــشاه ســـيحاول القيام بالشيء نفسه، لكن موته كان مناسبة ممتازة لجعل رجال أقوياء يشهرون سيوفهم. تكلم بانفعال عن الغرباء الذين يستهزئون بالدين وينهبون الأماكن المقدّسة. كانوا يتشبثون بكلماته. رفع جلال الدين يديه لإسكاتهم، وأطبق الصمت عليهم، يحدّقون إليه باهتمام شديد. كان قد حظي بانتباههم.

"رأيـــت أطفالنا يُقتلون ونساءنا يُسبون من قِبل المحاربين، ويتم انتزاعهن من أيدي أزواجهن. تمّت تعرية أولئك اللواتي كن يضعن النقاب واغتصابهن علانية. في بخارى، قتلوا إماماً على درجات المسجد الأزرق، وتبول شبابهم على الجثة. كنت ســـأقتلع عـــينيّ قبل أن أرى ما رأوه لولا أنني أحتاجهما للثأر منهم حباً بالله (عزّ وجل)!".

وثّب كثيرون في الحشد على أقدامهم، يمتلئون غضباً وإثارة. رفعوا سيوفهم، ولوّحـــوا بها في الهواء، وصرخوا لشن حرب مقدّسة. استدار جلال الدين ليتبادل نظرة مع أشقائه ووجدهم واقفين على أقدامهم ويجأرون مع الآخرين. طرفت عيناه مـــن ذلـــك لأنه لم يكن يتوقع أن يتأثروا كثيراً بكلماته. بالرغم من ذلك، شهروا أيـــضاً سيوفهم، وكانت عيونهم تلمع غضباً. كانوا قد رأوا كل ما شاهده جلال الـــدين، لكـــن بالـــرغم من ذلك ألهبت الكلمات، الجو الحار والخانق، *والحاجة* دمـــاءهم. حـــتى تامـــر كان قد بدأ ينشد مع محاربـــي الإسلام، ويكرر أحاديث النبـــــي (صلعم). شعر جلال الدين أن ثقته بنفسه تزداد عندما طغت الضوضاء علـــى كـــل شيء. هل كان والده يعرف ذلك؟ شعر كما لو أنه يوازن سيفاً. إذا انـــزلق، فسيخسر كل شيء، لكن قوة إيمانهم جعلت أحلامه تبدو حقيقية. كان الـــرجال يأتون إليه آنذاك بعد أن انتشر نبأ ما حدث في الإقليم. كان قد دعا إلى الجهـــاد على المعتدي المغولي، وقد ألهبت كلماته ووعوده الأرض. خطب أئمة في مـــساجد لم يكن قد رآها أبداً أنه محارب في سبيل الله (عزّ وجل). كانت مهمته إذكاء تلك النار ثم إرسالها شمالاً.

ابتـــسم جلال الدين للحشد الذي كان قد اجتمع تلك الليلة، وكان يعرف أنهم سيغادرون معه إلى البلدة التالية وما بعدها. كان سيصل كابول بوصفه القائد الروحي للجيش، وظن أن المدينة ستضاعف أعداده أكثر مما كان قد رآه في حياته.

لا بــدّ مــن أنّ الله (عزّ وجل) قد قدّر له حقاً هذا الأمر. كان عبداً فقيراً لله (عزّ وجل)، لكن ألا يحقق الله (عزّ وجل) مشيئته على أيدي رجال مثله؟ ربما كان أداة الثأر. فالله (عزّ وجل) رحيم فقد منحه فرصة ثانية.

قطعت فرق المغول مئات الأميال في كل الاتجاهات، وكانت مثل طوفان من الــرجال والجياد التي تغمر كل مكان يوجد فيه ناس، وتجعلهم يشعرون بالخوف. انتــشر نــبأ مطلبهم بسرعة، وبدا أن لشائعات الحصول على كنوز كبيرة مقابل المعلــومات أجنحة تطير بها. بحلول اليوم العاشر، عثر جيبــي على رجل قال إنه يعــرف الجبال التي يتخذها الحشّاشون قاعدة لهم. وجد جيبــي شخصين آخرين ادّعــيا أنهمــا يعرفان عائلة تخدمهم في حصنهم. في كل حالة، توقف تدمير مدنهم مباشرة ودفع ذلك المزيد من الرجال للحديث إلى قادة المغول، وهم بأمس الحاجة إلى إنقــاذ أنفسهم. عاد مستطلعو المغول مرتين من رحلة عديمة الجدوى، من دون أن يعثــروا على أي علامة عن قاعدة الحشّاشين. كان الرجال الذين ضلّلوهم إما حمقى أو كاذبين، لكن المغول قتلوهم، وتابعت الفرق تقدمها.

كان تشاغاتي قد انطلق شمالاً مع تسوبودي، تقريباً على الدرب نفسه الذي كان القائــد قــد سلكه لمطاردة الشاه. في تلال تقع عند سفح جبال شديدة الانحدار، عثرا على قرية، وأحرقا كل ما فيها قبل أن يمضيا قدماً نحو أخرى. هناك التقيا بمجموعة من كــبار السن الذين التمسوا منهما لقاءهما في خلوة. رتّب تسوبودي الأمر، وعندما سمع مــا قالــوه، لم يعد أحد الرجال إلى منــزله. بدلاً من ذلك، رحل مع القائد المغولي، عائدين بأقصى سرعة ممكنة إلى جنكيز. بحلول الوقت الذي وصلا فيه إلى الخان، كان هناك ثلاثة آخرون يطالبون بالذهب، وقد حدّد كل منهم موقعاً مختلفاً للحشّاشين.

حيّا جنكيز تسوبودي عندما اقترب والإرهاق باد على وجهه.

"شخص آخر يا تسوبودي؟".

تلاشت إثارة القائد. قال: "هناك المزيد؟".

أومــأ جنكيــز. "إما أنهم لصوص يظنون أنني سأمنحهم عربات من الذهب مقابــل أكاذيــبهم، أو أن الحــشّاشين نشروا همساً مواقع مختلفة لهم في عشرات الأماكن. إذا كانوا موغلين في القدم كما يدّعي يوسف، أظن أنها النهاية".

"لــدي رجــل يدّعــي أنه يعرف يا مولاي. لا أظن أنه أحمق أو لص مثل الباقين".

رفع جنكيز حاجبيه، وكان يعرف أن تسوبودي يتمتع بالحصافة.

رد: "اجلبه إلى خيمتي بعد الانتهاء من تفتيشه بحثاً عن أسلحة".

أحــضر تــسوبودي يوسف ليقوم بالترجمة، وكان الغبار لا يزال يكسوه من الــرحلة الطويلة التي قطعها عائداً إلى المخيم. كان وجيه القرية متوتراً للغاية عندما واجــه الخــان. كان يتصبب عرقاً وتفوح منه رائحتي البراز والثوم في ذلك المكان الصغير. تنفس جنكيز بصعوبة عندما اقترب منه.

قــال بحــدّة، متعباً من الرجال الذين كانوا قد جاؤوا يضعون الذهب نصب أعينهم: "حسناً؟ قلت لضابطي إنك تعرف شيئاً ما". انتظر بفارغ الصبر فيما كان يوســف يترجم كلماته إلى ثرثرة غير مفهومة وأومأ الغريب المذعور. كانت ثلاث جــثث لرجال تستلقي في حفرة قليلة العمق في الخارج. كان جنكيز قد جعل هذا الشخص يرى وجوههم عندما مرّ بهم في طريقه إلى خيمة الخان. كان ذلك يفسر الرائحة الكريهة التي تعبق حولهم مثل ضباب.

"تعــيش شــقيقتي في قرية في الجبال يا سيدي، ربما على بعد يومين شمالاً من حيث وجدت رجالك". ابتلع ريقه بعصبية فيما كان يوسف يترجم، ورمى جنكيز له بقربة من الشراب ليرطب حلقه. شرب الرجل، وغصّ بعد أن ظن أنه ماء. أحمر الوجه، كان على أحد أن يضربه على ظهره قبل أن يتمكن من متابعة ما يقوله.

لهــث: "أنا آسف يا سيدي. المشروبات الروحية محرّمة عليّ". كشّر يوسف فيما كان يترجم الكلمات.

قــال جنكيز متذمراً: "قل له إنه ليس مشروباً روحياً. واطلب منه أن يتكلم قبل أن ألقي به في الحفرة، وأضع غطاء فوقها وهو لا يزال يتنفس".

في الوقت الذي أنهى به يوسف كلامه، كان الرجل النحيل شاحباً ويهذي.

"تقــول شــقيقتي إن رجالاً يعيشون في الجبال ويأخذون طعاماً وخدماً من القرية. إنهم لا يردون على أحد يا سيدي، لكنها قالت إنهم يحملون أحياناً حجارة مقالع على عرباتهم إلى قمم عالية".

فيما كان جنكيز يصغي إلى يوسف، أصبح أكثر نــزقاً.

"اسأله إن كان ذلك كل ما يعرفه. هذا ليس كافياً".

شحب الرجل أكثر، وهز رأسه.

"قالت لي إن شاين من القرية تبعا العربات مرة، قبل ثلاثة أو أربعة أعوام. لم يعودا يا سيدي. تم العثور عليهما مقتولين عندما خرجت عائلتاهما بحثاً عنهما، وقد دُقّ عنقاهما".

حدّق جنكيز إليه عندما سمع الجزء الأخير من الترجمة. لم تكن معلومة أكيدة، لكنها كانت الأكثر إقناعاً من بين كل الحكايات الغريبة التي سمعها.

"هذا ممكن يا تسوبودي. كنت محقاً في جلب هذا الرجل إليّ. امنحه عربة من الـــذهب وثـــورين ليجـــراها". فكّر للحظة. "ستذهب معي شمالاً يا تسوبودي. ســيرافقنا حــتى قرية شقيقته. إذا عثرنا على ما نريده، يمكنه أخذ الذهب. إذا لم نجده، سنقضي عليه".

أصغى الرجل النحيل إلى يوسف، وخرّ على ركبتيه مرتاحاً.

نـــادى فـــيما كان جنكيز يغادر الخيمة وذهنه مشغول آنذاك بخطط الهجوم: "شكراً لك يا سيدي".

الفصل التاسع والعشرون

أرغم جنكيز نفسه على أن يكون صبوراً، واستعدّ لقتال عدوّ لم يواجه مثله من قبل. أعاد العائلات إلى الملاذ حول سمرقند، وترك جيلم وكشيون معها لحمايتها. جاء جيلم ليشكره شخصياً على ذلك، وجعل ذلك جنكيز يُصاب بدهشة، سرعان ما أخفاها. لم يكن يخطر في باله أن القائد سيفضّل تمضية وقته مع والده في المدينة بدلاً من ملاحقة الحشّاشين الذين يهدّدونهم.

لإنجاز تلك المهمة، أخذ فرقته الخاصة، إضافة إلى فرقة تسوبودي. كان هؤلاء العشرون ألف رجل لا يزالون يشكلون قوة مهابة الجانب، وتذكر فرق غاراته الأولى التي لم يكن يزيد عددها عن بضع عشرات. معهم، كان يستطيع تدمير جبال إذا اضطر إلى ذلك. بالرغم من أن الكثيرين منهم كانوا يستطيعون قطع ستين إلى ثمانين ميلاً في اليوم إذا سافروا خفافاً، إلا أن جنكيز لم تكن لديه فكرة عما سيجدونه أمامهم. كان حرفيو سمرقند هناك للاستفادة منهم وكان قد جعلهم يصنعون أدوات حصار وعربات جديدة، ويكدّسون أي شيء يظن أنهم ربما يحتاجون إليه ويغطونه بقماش ثم يربطونه بحبال. كان الخان شعلة نشاط فيما كان يخطط للهجوم ولم يكن ينتاب أي من رجاله أدنى شك في شأن الجدّية التي ينظر بها إلى مثل ذلك التهديد. من بين كل الرجال في القبائل، كان جنكيز يفهم خطر الحشّاشين، ويتطلع قدماً إلى الهجوم التالي.

كانت العربات الجديدة مزودة بالعجلات المتينة التي كان تسوبودي قد أحضرها من روسيا، لكنها أصدرت أصوات طقطقة وصرير عندما انطلقت الفرقتان أخيراً. حتى بعد شهر من الاستعدادات، لم يكن جوشي قد عاد إلى المخيم. كان محتملاً أنه لا يزال يسعى للحصول على معلومات عن الحشّاشين،

لكـــن الأحـــداث تـــتابعت. أرسل جنكيز محاربين نحو الشرق في أعقابه، ثم اثنين آخـــرين وراء خاسار، مُنهياً تكليفهما بالمهمة. كانت المنطقة مليئة بمدن ثرية وفيما كان يسعى خلف الحشّاشين، كان جنكيز يعرف أن خاسار وجوشي سيستمتعان بتدميرها في أوقات فراغهما.

كـــان تـــشاغاتاي قد طلب مساعدة والده في البحث عن المعقل الجبلي، لكن جنكيـــز رفـــض ذلـــك. لم تكن المعلومات المتوفرة عن الحشّاشين تشير إلى أعداد كبيرة. كانت قوتهم تكمن بالسرية، وحالما يتم تحطيم ذلك، كان جنكيز يتوقع أن يُخرجهم من جحورهم مثلما تخرج السكين من عش نمل. لم تكن علاقة تشاغاتاي بوالده على ما يرام ولم يكن جنكيز يستطيع النظر إليه من دون أن يشعر بالغضب والآمال التي تحطمت. لم يكن قد اتخذ قراره بتنصيب أوجيدي وريثاً بسهولة. كان الـــتفكير في خلـــف قد أزعج الخان شهوراً عديدة، لكنه كان قد خطط أن يرث تـــشاغاتاي مقاليد الحكم قبل ذلك بكثير. لم يكن يشعر بالندم، على الإطلاق. كان قد اتخذ القرار. على أي حال، كان جنكيز يعرف مزاجه جيداً. كان يعرف أنه إذا أظهر تشاغاتاي أدنى استياء، ستكون هناك فرصة ليقتله.

بدلاً من ذلك، أرسله جنكيز جنوباً مع جيبـــي لغزو الأرض باسمه. كان قد تم تحذيـــر كـــل قادته بعدم السماح للمسلمين بالاقتراب كثيراً منهم، حتى أولئك الـــذين يعرفونهم ويثقون بهم مثل مترجميهم. ترك جنكيز كل الذين يعرفهم ما عدا قلة منهم خلف أسوار سمرقند، ومنعهم من الاقتراب من المخيم. لن يكون أرسلان رحيماً مع أي شخص يعصي الأمر، وشعر جنكيز أنه ترك شعبه بأمان مطلق فيما كان ينطلق شمالاً.

مـــع العـــربات المحمّلـــة، لم يكونوا يقطعون أكثر من ثلاثين ميلاً في اليوم، يـــنطلقون عند بزوغ الفجر ويسيرون طيلة ساعات النهار. تركوا خلفهم الحقول الخضراء حول سمرقند، اجتازوا بالعربات المياه الضحلة لنهر شمالي قبل أن يعبروا إلى أراضٍ رملية وأعشاب متناثرة، وتلال ووديان.

بحلول اليوم الرابع، كان جنكيز يشعر بالغضب من بطء حركتهم. كان يقود جـــواده على طول صف العربات، يحث السائقين على الانطلاق بأقصى سرعة. ما كـــان يـــبدو شـــعوراً طيباً وتخفّظاً في سمرقند أصبح يهز ثقته بنفسه آنذاك. كان

الحشّاشون يعرفون بالتأكيد أنه قادم. كان قلقاً من أن يقوموا ببساطة بإخلاء موقعهم في الجبال ليعثر عليه فارغاً.

كان تسوبودي يشاطره ذلك الرأي، بالرغم من أنه لم يقل شيئاً، وكان يعرف أن قائداً جيداً لا ينتقد خاناً، حتى أمام أولئك الذين يثق بهم. بالرغم من ذلك، كان تسوبودي مقتنعاً أن جنكيز كان قد تعامل مع الأمر بصورة سيئة. كان الشيء الوحيد الذي ربما يجدي نفعاً هو شن هجوم شامل عليهم، مفاجأة الحشاشين في أقوى مواقعهم قبل حتى أن يعرفوا أن هناك أعداءً في المنطقة. كانت تلك القافلة التي تتحرك ببطء على عكس ما يريده تسوبودي. يقودون جيادهم وليس معهم سوى الدم والحليب، كان ورجاله قد وصلوا من الجبال إلى جنكيز في اثني عشر يوماً. آنذاك، فيما كان القمر يصبح بدراً ثم يتحول هلالاً خلال شهر كامل، كان تسوبودي ينظر إلى الأمر بمزيد من الريبة.

عندما وصلوا إلى آخر قرية كان غزاها، كان تسوبودي يخطط لما سيفعله إذا كان الحشّاشون قد اختفوا. هذه المرة، لم يتوقف جنكيز، بالرغم من أن أشكالاً داكنة كانت تنقّب في الدمار، تبحث عن أي شيء يمكن أن تستفيد منه. تجاوزتهم فرقتا المغول من دون تفكير بأولئك الذين تواروا عن الأنظار منهم.

كان يمكن رؤية الجبال قبل أيام من الوصول إلى السفوح. رداً على عصبيته، حصل تسوبودي على إذن جنكيز ليخرج مع المستطلعين، بحثاً عن معلومات جديدة. وجد القرية الثانية عندما كانت العربات لا تزال على بعد أربعين ميلاً وأكثر من مسيرة يوم خلفهم. في ذلك المكان كان تسوبودي قد التقى مجلس القرية والرجل الذي كان قد اصطحبه إلى جنكيز.

لم يكن أحد يعيش هناك آنذاك. شعر تسوبودي بقلبه ينقبض فيما كان يدفع جواده للسير بقرب المنازل المدمرة. لم يكن رجاله قد فعلوا ذلك، وفي ذلك المكان المدمر لم يكن هناك حتى أولاد أشقياء يبحثون بين الأنقاض عن طعام أو نقود. لو أن تسوبودي كان بحاجة إلى إثبات نهائي عن وجود الحشّاشين، لكان وجده في الجثث التي تنتشر في كل مكان، مصابة بجروح ومعرضة لحروق. وحدها الطيور، والذباب، والكلاب البرية كانت تعيش في القرية، وطنين وخفق الأجنحة في كل مكان حوله، والتي ارتفعت مثل سحب داكنة عندما مرّ جواده بينها.

جـاء جنكيز عندما نقل فرسان تسوبودي إليه الأنباء. كان وجهه خالياً من أي تعبير وهو يقترب من قائده، واهتز بعنف مرة واحدة فقط عندما حطّت ذبابة على ردفه.

قال تسوبودي: "هذا تحذير".

هزّ جنكيز كتفيه غير مبال.

"تحذير أم عقاب. رآك أحدهم تتكلم إلى التاجر". ضحك من فكرة مجيء الرجل غافلاً عما جرى مع عربة مليئة بالذهب. لم تكن ثروته المفاجئة تساوي شيئاً في ذلك المكان.

"قد نعثر على الشيء نفسه في القرية الأبعد في التلال التي تكلم عنها، وفيها منزل شقيقته".

أومأ جنكيز. لم يكن يهتم بشكل خاص لتدمير القرى. إذا كانت المنازل المحروقة تعني تحذيراً، لم يكن هناك الكثير من الرجال في العالم الذين لا يأبهون للأمر مثله. كان قد رأى أشياء أسوأ خلال سنوات حكمه كخان. ذكّرت تلك الفكرة جنكيز بشيء كانت والدته تقوله عندما كان فتى وابتسم.

"لقد ولدت مع خثرة من الدماء في يدي اليمنى يا تسوبودي. لطالما كنت أسير مع الموت. إذا كانوا يعرفونني حق المعرفة، فإنهم يعرفون ذلك. هذا الدمار ليس تحذيراً لي، لكن لكل شخص آخر قد يفكر في التعامل معي". تقطب جبينه عبوساً عندها ونقر بأصابعه على سرجه. "إنه العمل الذي ربما أقوم به إذا كنت سأترك المنطقة".

أومأ تسوبودي، وكان يعرف أن الخان لا يحتاج إلى سماع موافقته.

قال جنكيز ومزاجه كدر: "بالرغم من ذلك، علينا أن نمضي قدماً لنرى المكان الذي كانوا يختبئون فيه، حتى إذا كانوا قد هجروه".

بالكاد أحنى تسوبودي رأسه، وصفّر لمستطلعين لينطلقوا معه نحو الجبال. كانت قرية الشقيقة على بعد مسيرة يوم بالنسبة إلى محارب يتحرك بسرعة، وربما ثلاثة أيام بالنسبة إلى العربات. كان ينبغي لهم تفقد الطريق عند كل منعطف تحسباً لوجود كمائن وكان على تسوبودي مقاومة الحافز للاندفاع قدماً ورؤية إذا كان الحشّاشون قد تركوا أحداً خلفهم. كانت الجبال شديدة الانحدار بعد ذلك المكان،

ولم يكن هناك سوى درب واحد فقط ينفذ عبره المستطلعون إلى الوديان العميقة والقمم العالية. كان شن هجوم على تلك الأرض صعباً فيما كان الدفاع عنها سهلاً نظراً إلى تضاريسها الوعرة. حتى الصوت كان يخرج مكتوماً في مثل ذلك المكان، تبتلعه السفوح شديدة الانحدار على الطرفين، ولهذا كان يمكن سماع أصوات حوافر الجياد مثل أصداء بعيدة، فيما باقي العالم يتقهقر إلى الوراء. قاد تسوبودي جواده بحذر، ويده دائماً قرب قوسه وسيفه.

أوقف جوشي فرقته عندما سمع نغمة تحذير من أبواق مستطلعيه. كان قد انطلق بعيداً طيلة أكثر من شهر، قطع مسافة شاسعة إلى الشرق، بعيدة جداً حتى أضحى مقتنعاً أن سهول ديار تقع على بعد ألف ميل شمالاً. خلفهم كان العالم مترامي الأطراف، من دون خرائط حتى لدى تسوبودي.

كان جوشي يعرف أن والده سيرسل رجالاً خلفه في نهاية المطاف. كان جزء منه يفكر في الانعطاف شمالاً قبل تلك النقطة، بالرغم من ذلك لم يكن مهماً. كان يمكن لكل المستطلعين تقفّي أثر فارس واحد، ناهيك عن سبعة آلاف يشكلون فرقته. كان رجل أعمى يستطيع ملاحقة الأثر الذي تركوه. إذا كانت الأمطار قد هطلت، ستكون آثار حوافر جيادهم قد اختفت، لكن لخيبة أمل جوشي، كانت السماء قد بقيت باردة وزرقاء طيلة الوقت، ولم تظهر سوى بعض الغيوم المنتشرة هنا وهناك.

سمع محاربوه لجيادهم برعي الأعشاب الجافة عند أقدامهم فيما كانوا ينتظرون أوامر جديدة. حتى تصدر، كانوا قانعين ومسترخين، ولا يفكرون في المستقبل مثل قطيع من الكلاب البرية. لم يكن جوشي يعرف إن كانوا يلاحظون صراعه الداخلي. أحياناً، كان يفكر في أنهم لا بُدّ من أن يعرفوا. كانت القلق بادياً على عينيهم، لكنه كان يعرف أن ذلك ربما يكون مجرد وهم. عندما اقترب مستطلعا الخان منهم، استدعى جوشي ضباطه، من أولئك الذين يقودون ألف رجل إلى الذين يقودون عشرة رجال فقط. كانوا جميعاً قد وقفوا في القصر في سمرقند وأقسموا بالولاء لأوجيدي خاناً لهم، وكانت الكلمات لا تزال ترنّ في أذهانهم. لم يكن يعرف ما سيقومون به.

جاء أكثر من سبعمئة رجل بناءً على أمره، وأبعدوا مطاياهم عن أولئك الذين يقودونهم. كان جوشي قد عيّن كل واحد منهم، ومنحهم شرف أن يعهد لهم بحياة رجال آخرين. شعر بأبصارهم المستفسرة تستقر عليه فيما كان ينتظر مستطلعَي والده. اهتزت يداه قليلاً، وثبّتهما بشد قبضته على لجام جواده.

كان المستطلعان شابين من فرقة جنكيز الخاصة. كانا يرتديان قميصين خفيفين، أصبحا داكنين ومتسخين من العرق وكثرة الاستعمال. وصلا معاً، وترجلا لينحنيا للقائد لدى جنكيز. جعل جوشي جواده يقف من دون حراك، وحلّ عليه هدوء كبير. كان يظن أنه مستعد لذلك، لكنه لم يكن كذلك. كانت اللحظة قد حانت آنذاك، وشعر بمعدته تنقبض.

قال جوشي، وهو ينظر إلى أقرب الرجلين: "انقلا رسالتكما".

انحنى المستطلع مجدداً، وكان لا يزال مسترخياً وهادئاً بعد رحلة طويلة.

"لقد تحرك الخان العظيم ضد الحشّاشين أيها القائد. لديه معلومات جيدة عن مكان معقلهم. أنت حرٌ في إخضاع المدن وتوسيع الأراضي التي تخضع لحكمه".

قال جوشي: "لقد قطعتما مسافة طويلة اليوم. أهلاً بكما في معسكري، وينبغي لكما أن تبقيا لتناول الطعام، وأخذ قسط من الراحة".

تبادل المستطلعان نظرة سريعة قبل أن يردّ الأول.

"يا مولاي، لسنا متعبين. يمكننا السفر مجدداً".

قال جوشي بحدّة: "لن أسمح بذلك. ابقيا. تناولا الطعام. سأتكلم إليكما مجدداً عند الغروب".

كان أمراً واضحاً ولم يكن في وسع المستطلعين سوى أن يطيعا. أحنى الرجلان رأسيهما قبل أن يمتطيا جواديهما مجدداً ويدفعاهما للجري خبباً نحو أفراد الفرقة البعيدة عن تجمّع الضباط. كانت نيران طهي كبيرة مشتعلة آنذاك، وقد لقيا استقبالاً حاراً من أولئك الذين يتطلعون إلى سماع آخر الأنباء.

رفع جوشي يده ليتبعه ضباطه، ودفع مطيته للنزول على سفح تلٍّ بعيداً عن محاربيه. كان هناك نهر يجري على طول قاع الوادي، تظلله أشجار متشابكة وقديمة تتدلى أغصانها فوق الماء. ترجل جوشي، وترك جواده يشرب قبل أن يمد يديه ويغرف بيديه ملء فمه من الماء.

قال بلطف: "اجلسوا معي".
لم يفهـــم رجالـــه، لكنهم ربطوا جيادهم إلى الأشجار، وتجمّعوا حوله على الأرض التـــرابية حتى غطّوا نصف السفح. كان من الممكن رؤية باقي أفراد الفرقة مـــن بعيد، لكنهم لم يكونوا يستطيعون سماع كلماته. ابتلع جوشي ريقه بعصبية، وحلقه جاف بالرغم من الماء الذي كان قد شربه. كان يعرف اسم كل ضابط في تلـــك الفـــسحة إلى جانب النهر. كانوا قد حاربوا معه ضد جيش الشاه، والمدن والحاميـــات. كانـــوا قد هبّوا لنجدته عندما كان ضائعاً ووحيداً وسط محاربـــي شـــقيقه. كانـــوا مرتبطين به بما هو أكثر من القسم، لكنه لم يكن يعرف إن كان ذلك كافياً. سحب نفساً عميقاً.
قال: "لن أعود".
ومـــن دون اســـتثناء، أطبق الصمت عليهم جميعاً، وتجمّد بعضهم فيما كانوا يمضغون لحماً أو يبحثون عن قربة شراب من خُرج على سرجه.
بالنـــسبة إلى جوشـــي، كان النطق بالكلمات مثل سدّ تحطّم. سحب شهيقاً مجدداً كما لو أنه يجري. كان يشعر بأن قلبه يخفق بقوة وأن حنجرته متشنجة.
"هـــذا لـــيس قراراً جديداً. كنت أظن أن هذا اليوم قد يحلّ منذ أعوام، منذ قاتلـــت النمر وبدأنا رحلتنا إلى هذه الأراضي. لقد كنت وفياً لوالدي، الخان، في كل عمل قمت به. لقد منحته دم حياتي ودماء الرجال الذين تبعوني. لقد منحته ما يكفي".
نظر حوله إلى وجوه ضباطه الصامتين، مقدراً ردود فعلهم على كلماته.
"ســـأنطلق شمـــالاً بعد هذا. ليست لديّ رغبة في الذهاب إلى أراضي تشن الجنوبية، أو إلى أي مكان قرب كزي كزيا في الشرق. سأرى الديار مجدداً، وأشعر بالانـــتعاش في الجـــداول الـــتي كانت قد منحتنا الحياة طيلة عشرة آلاف عام. ثم سأنطلق بعيداً وبسرعة لا يمكن معها حتى لكلاب صيد والدي أن تعثر عليّ. هناك الكـــثير مـــن الأراضـــي التي لا تزال مجهولة بالنسبة إلينا. رأيت بعضها مع القائد تـــسوبودي. أعرفه جيداً وحتى هو لن يستطيع العثور عليّ. سأنطلق حتى أبلغ نهاية العـــالم وأبني منـــزلاً هناك، مملكتي الخاصة. لن تكون هناك دروب حيث أذهب. بحلول الوقت الذي يعرف والدي به أنني لن أعود، سأكون ضائعاً بالنسبة إليه".

استطاع رؤية بياض عيون العديد من رجاله فيما كانوا يصغون إليه مذهولين.

قـال: "لن آمركم بالبقاء معي. لا يمكنني ذلك. ليست لدي عائلة في الخيام، فـيما العديد منكم لديهم زوجات وأطفال يمكنهم رؤيتهم مجدداً. لا أطلب منكم شـيئاً، وقد أقسمتم بالولاء لوالدي وأوجيدي. ستكونون قد خرقتم مواثيقكم إذا بقيتم إلى جانبي ولن تكون هناك عودة إلى الأمة، ولا هدنة مع والدي. سيرسل مـستطلعين وسيبحثون أعواماً عديدة عنا. لن يكون رحيماً. أنا ابنه وأعرف هذا أفضل من أي شخص آخر".

فـيما كـان يتكلم، كانت أصابعه تنقر على جلد النمر القاسي على قربوس سرجه، ويشعر بالحافة القاسية التي نجمت عن قيام جنكيز بفصل الرأس عنه. رأى أحد قادة الألف من تشن يقف ببطء على قدميه، وتوقف جوشي ليسمعه.

قـال الـرجل، بصوت يهتز نتيجة توتره الشديد: "يا مولاي... القائد. لماذا تفكر في هذا الأمر؟".

ابتسم جوشي، بالرغم من أنه شعر بمرارة تسري في جسده.

"لأنني ابن والدي يا سن تو. لقد شكّل قبيلته بجذب كل أولئك الذين كانوا حـوله. هـل أكون أقل شأناً؟ هل أتبع أوجيدي أيضاً حتى أصبح عجوزاً وحياتي مجـرد أسف وندم؟ أقول لك الآن، هذا ليس من شيمي. سيكون شقيقي الصغير خانـاً للأمـة. لن يبحث عني عندما يتولى زمام الأمور. حتى ذلك الوقت، سأجد زوجاتي وأبنائي وبناتي في مكان لم يسمعوا فيه باسم جنكيز".

جـال ببصره على حشد رجاله على ضفة النهر. نظروا إليه من دون وجل، بالرغم من أن بعضهم كانوا يجلسون كما لو أنهم أُصيبوا بصدمة.

"سأكون رجل نفسي، وربما لبضعة أعوام فقط حتى يعثروا عليّ ويقتلوني. من يعرف كيف سينتهي هذا الأمر؟ بالرغم من ذلك، سأتمكن لبعض الوقت من القول إنني حرّ. لهذا أقف في هذا المكان".

جلـس ضابط تشن ببطء وهو يمعن التفكير في الأمر. انتظر جوشي. لم تكن تظهـر علـى وجه ضباطه أي انفعالات، وأخفوا أفكارهم عن أولئك الموجودين حـولهم. لـن يكون هناك صراخ إلى جانب النهر. كان كل منهم سيتخذ القرار لوحده، كما كان قد فعل.

تكلم سن تو مجدداً، فجأة.

"سيكون عليك أن تقتل المستطلعين أيها القائد".

أومأ جوشي، كان هذان الشابان قد وضعا أيديهما في فم الذئب، بالرغم من أنهما لم يكونا يعرفان ذلك. لم يكن من الممكن السماح لهما بالعودة إلى جنكيز ليكشفا عن موقعه، حتى ولو استدار شمالاً عندما يغادران. كان جوشي قد فكر في إعادتهما مع قصة مزيفة إلى والده، لكن قتلهما كان أكثر أماناً آنذاك من المجازفة والأمل بأن يضلّلا رجالاً مثل تسوبودي. لم يقلل من شأن ذكاء الرجل الحاد، ولا ذكاء والده. إذا اختفى المستطلعان ببساطة، سينتظران شهوراً قبل أن يرسلا آخرين. بحلول ذلك الوقت سيكونون قد اختفوا.

كان سن تو مستغرقاً في أفكاره وراقبه جوشي عن كثب، وشعر مثل الرجال حوله أن جندي تشن سيتكلم نيابة عن العديد منهم. كان سن تو قد رأى الكثير في حياته، من ظهور الخان في وطن تشن، إلى شعب الشاه وهذه البقعة الهادئة إلى جانب النهر. كان قد وقف في الصف الأول ضد أفضل فرسان الشاه وبالرغم من ذلك لم يكن جوشي يعرف ما سيقوله.

قال سن تو وهو يرفع رأسه: "لدي زوجة في الخيام يا مولاي، وصبيان. هل سيكونون بأمان إذا لم أعد إليهم؟".

أراد جوشي أن يكذب، وأن يقول إن جنكيز لن يمس النساء والأطفال. كافح للحظة واحدة فقط، ثم استرخى. كان يدين للرجل بالحقيقة.

"لا أعرف. دعنا لا نخدع أنفسنا. والدي رجل يأخذ بالثأر. ربما يُبقي عليهم، وربما لا، كما يشاء".

أومأ سن تو. كان قد رأى قائده الشاب يتعذب على أيدي قومه طيلة سنوات. كان سن تو يحترم الخان العظيم، لكنه يحب جوشي مثل ابن له. كان قد منح حياته للشاب الذي يقف مكشوفاً أمامهم، ويتوقع بالرغم من ذلك رفضاً آخر. أغمض سن تو عينيه للحظة، تضرع بأن يعيش ابناه ويعرفا يوماً ما رجلاً يتبعانه، كما كان قد فعل بنفسه.

قال سن تو: "أنا معك أيها القائد، أينما تذهب".

بالرغم من أنه تكلم بهدوء، إلا أن الكلمات وصلت إلى أولئك الذين حوله. ابتلع جوشي ريقه بصعوبة.

"أهلاً بك يا صديقي. لم أكن أرغب في الرحيل وحيداً".

تكلم قائد ألف آخر عندها.

"لن تكون وحيداً أيها القائد. سأكون معك".

أومــأ جوشي، وعيناه تتقدان. كان والده قد عرف هذه الفرحة، وهذا العهد بالولاء لرجل واحد، حتى إذا كان ذلك يعني الموت والدمار لكل من يخونه. كان ذلــك أكثــر قــيمة من الذهب، ومن المدن. انتشر الأمر بين ضباطه فيما كانوا يصرخون مؤيدين له، ينادون بأسمائهم وينضمون إليه واحداً تلو الآخر. بالنسبة إلى كل واحد منهم كان ذلك اختياراً شخصياً، لكنه فاز بهم جميعاً ولطالما كان الأمر كذلك. عندما أصبح العدد كافياً، هتفوا بصوتٍ عالٍ، وكانت تلك صرخة معركة بدا أنها تهزّ الأرض التي يقف عليها.

قال: "عندما يُقتل المستطلعان، سأنقل الأمر للرجال".

قــال سن تو فجأة: "أيها القائد. إذا اختار بعضهم عدم المجيء معنا، وقرروا العودة إلى الخان، سيفضحون أمرنا".

نظــر جوشــي إلى عيني الرجل الداكنتين. كان قد فكر في خطته منذ وقت طويل. كان جزء منه يعرف أنه سيكون مضطراً إلى قتل هؤلاء الرجال. كان ترك المــستطلعين علــى قــيد الحياة أقل خطراً من ترك رجاله يعودون إلى جنكيز. إذا تركهم يعيشون، ستتبخر فرص نجاته تماماً. كان يعرف أن بمقدور والده اتخاذ قرار في الوقت الذي يفصل بين نبضتي قلب، لكن جوشي كان مختاراً. شعر بعيون كل ضباطه عليه، تنتظر سماع الأمر الذي سيصدره.

قــال: "لن أوقفهم يا سن تو. إذا أراد أي رجل العودة إلى عائلته، فسأتركه يغادر".

فزع سن تو.

"دعــنا نرى ما سيحدث يا مولاي. إذا كان العدد قليلاً، يمكنني جعل رجال ينتظرون مع أقواس لقتلهم".

ابتــسم جوشي من ولاء ضابط تشن المطلق. كان قلبه يخفق بقوة عندما نظر إلى الحشد الذي اجتمع على ضفة النهر.

قال: "سأقتل المستطلعين، ثم سنرى بعدها".

الفصل الثلاثون



كانت القرية في الجبال على حالها. طيلة ثلاثة أيام، كان تسوبودي قد انطلق مع جنكيز والفرق، سلكوا أحياناً درباً ضيقاً لم يكن يتسع لأكثر من ثلاثة جياد. لم يعرف المغول كيف يمكن للقرويين أن يعيشوا في مثل ذلك المكان، بالرغم من أنهم قبل ظهيرة اليوم الثالث، كانوا قد التقوا بعربة عليها حمولة ثقيلة يجرها بغل. بوجود منحدر على أحد الجانبين، لم تكن الفرق تستطيع المرور بأمان لهذا أرغم جيبي المالك على تحرير البغل قبل أن يدفع رجاله العربة من فوق السفح. راقبها تسوبودي تسقط باهتمام حتى تحطمت على الصخور في الأسفل، وتناثرت أجزاؤها على مساحة واسعة.

لم يجرؤ المالك المذعور على الاحتجاج، ورمى تسوبودي له كيساً من الذهب تعويضاً عن خسارته، وانفرجت أسارير الرجل عندما أدرك أنه أصبح أكثر ثراءً من أي شخص يعرفه.

كانت القرية نفسها مبنية من حجارة الجبال، والمنازل وطريق وحيد من كتل مصقولة بلون التلال نفسه، ولهذا كانت تمتزج بما حولها مثل أشياء نمت بشكل طبيعي. خلف المجموعة الصغيرة من الأبنية، كان شلال صغير من الماء يسقط من المرتفعات التي يُصاب من ينظر إليها بالدوار، ويجعل الجو ضبابياً. كان الدجاج يحفر في التراب، وحدّق الناس برعب إلى المغول الذين يقتربون منهم قبل أن يخفضوا رؤوسهم وينطلقوا مبتعدين.

راقب تسوبودي كل ذلك باهتمام، بالرغم من أنه لم يستطع التخلص من الشعور بالقلق. كان المحاربون مع عرباتهم ينتشرون إلى الخلف على طول المسلك الجبلي عدّة أميال، وإذا اندلعت معركة، فلن يستطيع سوى أولئك الموجودين في المقدمة القتال. كانت الأرض ترغم القائد على خرق كل قاعدة كان قد وضعها

للعمليات الحربية طيلة أعوام و لم يكن بمقدوره أن يشعر بالراحة فيما كان ينطلق على جواده على طول الطريق مع جنكيز.

أرسل تسوبودي مستطلعاً إلى الخلف ليأتي بالرجل الذي لديه شقيقة في القرية. ذهب معه اثنا عشر محارباً ليحملوا الذهب ويدفعوا بالعربة من فوق الجرف الصخري إلى الأسفل. لو أنه لم يفعل ذلك، لكانت قد سدّت الطريق على كل الرجال خلفها وشطرت الجيش نصفين. وفقاً لما كانت تبدو عليه الأمور، لم يكن تسوبودي يرى كيف يمكن جلب الإمدادات من الجزء الخلفي. من دون منطقة تحضير، كان على صف العربات أن يبقى خلف المحاربين. كافح تسوبودي في ما يتعلق بالمواقع والتضاريس، وكان يكره الطريقة التي تحتجز بها الجبال رجاله في مسلك واحد، غير حصين.

عندما وصل التاجر، اغرورقت عيناه بالدموع لرؤية القرية سليمة على حالها، وكان يخشى أن يجدها مدمرة بعد ابتعاده عنها طيلة أيام سفره. عثر على منزل شقيقته بسرعة وحاول تهدئة روعها من المغول الذين يتجولون في الخارج. راقبت وهي تفغر فاها دهشة محاربين يلقون بأكياس من النقود الذهبية على عتبة بابها، لكن المشهد لم يجعلها تهدأ. بدلاً من ذلك، كان لونها يزداد شحوباً كلما كبرت الكومة. عندما تراجع المحاربون، صفعت شقيقها بقوة على وجهه وحاولت إغلاق الباب وإبقاءه خارجاً.

صرخت ذعراً فيما كانا يتدافعان عند الباب: "لقد قتلتني أيها الأحمق!". تراجع خطوة إلى الوراء، مذهولاً من غضبها، وعندما فعل ذلك، أغلقت الباب بقوة وكان بمقدور كل الرجال سماع نحيبها في الداخل.

تمتم جنكيز لتسوبودي: "كان ذلك مؤثراً".

لم يبتسم تسوبودي. كانت القرية محاطة بمرتفعات صخرية وكان واثقاً أن أحداً يراقبهم. كانت المرأة التي تبكي تظن ذلك بالتأكيد. كان تسوبودي قد رأى عينيها تحدّقان إلى القمم المحيطة للحظة قبل أن تغلق الباب بوجه شقيقها. رفع تسوبودي رأسه ونظر إلى كل نقطة عالية، لكن لم يتحرك شيء.

قال تسوبودي: "لا أحب هذا المكان. هذه القرية موجودة لتخدم الحشّاشين، وأنا واثق من ذلك. لماذا ستكون بعيدة جداً عن أي مكان آخر في الجبال؟ كيف

يدفعـــون مقابل الإمدادات التي تأتيهم بالعربة؟". عندما فكر في ذلك، دفع جواده للاقتراب من جنكيز، وشعر بأن الشارع الضيق يُغلق عليه. سهم محظوظ واحد قد ينهي كل شيء، إذا كان القرويون حمقى أو يائسين بما يكفي.

قال: "لا أظن أنه ينبغي لنا التوقف هنا يا مولاي الخان. هناك دربان أمامنا في الجبـال وواحد فقط خلفنا. دعني أرسل مستطلعين على طول الدربين لاكتشاف الطريق".

أومــأ جنكيــز وفي تلــك اللحظة رنّ جرس، وبالرغم من أن الصوت كان مكتوماً لكن أصداءه ترددت في الأنحاء. قام المغول برفع أقواسهم، وإشهار سيوفهم قــبل أن يتلاشــى، وأُصيبوا بصدمة عندما فُتحت الأبواب التي تطل على الطريق واندفع منها رجال ونساء مسلحون.

في غضون بضع ضربات قلب فقط، تحولت القرية من مكان هادئ ومهجور إلى ســاحة قتال دام. ركل جواد تسوبودي امرأة خلفه، وجعلها تقفز من مكانها. كانــوا يــتجهون نحو جنكيز، الذي لوّح بسيفه، وقضى على شاب يصرخ عندما ضربه على عنقه.

لدهــشة تسوبودي، كان القرويون مصممين ويائسين. كان رجاله متمرسين بالــتعامل مع حشود ثائرة، لكن لم يكن من الممكن قمع العنف بصدمة إراقة دماء مفاجــئة. رأى أحــد محاربيه يقع عن جواده نتيجة إصابته بسهم أطلقه رجل على صــدره، ولقــي حتفه بعد أن حاول شدّه بقوة تضاءلت حتى توقف تماماً. كان بعضهم يصرخون فيما كانوا يقاتلون، وكانت الضوضاء مرتفعة لأنها صدرت من مــئة حنجرة مختلفة وتردد صداها من التلال التي تحيط بهم من كل جانب. بالرغم مــن ذلك، لم يكونوا محاربين. تلقى تسوبودي ضربة من سكين طويلة على واقية ذراعــه، لكــنه حوّل الضربة إلى لكمة شقّت فكّ المهاجم. لم يكن لدى القرويين حمايــة ضــد رجال يرتدون دروعاً لكن شراستهم فقط هي التي جعلت إيقافهم صــعباً. قاتل تسوبودي بتركيز كبير، وخاطر بحياته لحماية جنكيز. بقيا وحيدين لحظــات فقــط فــيما كان المزيد من رجال فرقة الخان يكافحون للوصول إليه ويواجهـــون القرويين بأقواسهم وسيوفهم. ضربت سهام أعناق كل من تحرك بعد ذلك وشقت الحلقة الحديدية طريقها بينهم، وتحركت مع جنكيز في الوسط.

لم تكـن الـشمس قد تحركت فوق التلال عندما امتلأت الشوارع بالجثث. كانـت شقيقة التاجر بينها، ومن أوائل مَن لقوا حتفهم. كان شقيقها نجا وجثا إلى جانـب جسدها الذي أصيب بجرح بليغ، يبكي بصوت مرتفع. عندما ترجل أحـد المحاربين لينـزع عنها ملابسها، قاوم الرجل لبعض الوقت بغضب عارم قبل أن يُـضرب على ظهره. لم يعثر رجال تسوبودي على أحد يحمل علامة السكون على حنجرته.

انحنى تسوبودي في السرج، يلهث مجهداً ومرتاحاً لأنه قد نجا. كان يكره حقاً ضيق المساحة في التلال، وأضحى الشعور بأن عيوناً تراقبه أقوى من ذي قبل.

ســأل تسوبودي أحد قادة الألف: "إذا لم يكونوا حشّاشين، لماذا يهاجموننا بهـذه الضراوة؟". لم يكن بمقدور الرجل الإجابة عن مثل ذلك السؤال، لهذا أحنى رأسه، وأشاح بنظره بعيداً.

دفـع جنكيز فرسه للجري خبباً نحو تسوبودي فيما كان القائد يحدّق حوله، وكان لا يزال مصدوماً مما حدث.

قـال جنكيز بهدوء: "أتخيل أن أوامر صدرت إليهم بسدّ طريقنا". كان هادئاً تماماً ويتنفس بسهولة. "ضد لصوص، أو فرقة غزو، كانوا سيبلون حسناً. سيتطلب الأمـر جيشاً عاقد العزم ليعبر هذه القرية إلى معقل أعدائنا". كشّر وقال: "لحسن الحظ، لدي مثل ذلك الجيش. أرسل مستطلعيك يا تسوبودي، واعثر على الطريق الصحيح".

عندما نظر إليه خانه بعينيه الصفراوين، تمالك تسوبودي نفسه بسرعة وأرسل مجموعتين من عشرة رجال انطلقتا بعيداً في الجبال. انعطف كلا المسلكين بحدّة بعد مسافة قصيرة فقط، لهذا اختفى المحاربون بسرعة عن البصر. أمر آخرين بتفتيش كل منـزل، والتأكد من عدم وجود مفاجآت أخرى مخبأة فيها.

قال: "آمل أن هذا يعني أن الحشّاشين لم يهجروا موقعهم".

زاد إشراق وجه جنكيز أكثر من تلك الفكرة.

مـع مغيب الشمس، كان رجاله قد كدّسوا الجثث على أحد أطراف القرية، بالقرب من الشلال. كانت توجد بركة هناك، قبل أن تشق المياه طريقها إلى أسفل المنحدر. نظّم تسوبودي سقاية الجياد، وهي مهمة كانت بطيئة ومجهدة بشكل يثير

الغضب، لكنها ضرورية للغاية. بالنسبة إلى أولئك الذين كانوا بعيدين جداً عن البركة ولا يستطيعون الوصول إليها، جعلهم تسوبودي يستعملون دلاء من القرية ويسيرون أميالاً للوصول إلى جيادهم. كان كثيرون سيجدون أنفسهم مضطرين إلى النوم على درب ضيق، على بعد بضع أقدام فقط من السقوط إلى حتفهم. لم يتذمر أحد منهم، وعلى الأقل لم يصل شيء إلى أذني القائد. قبلوا قدرهم كما كانوا قد فعلوا دائماً.

عادت مجموعة واحدة فقط من مستطلعي تسوبودي عندما كان ضوء ذهبي يغمر التلال والشمس تكاد تغيب. كانت الأخرى قد اختفت، وأومأ تسوبودي إلى جنكيز نحو الطريق الخالي. ربما كان مستطلع واحد قد سقط عن الجرف، أو كسر ساقه. لجعل عشرة محاربين يختفون في الجبال، كان لا بد من وجود قوة أخرى، قاسية وصبورة.

كان المغول قد عثروا على الدرب إلى الحشّاشين وناموا كلٌّ في مكان وقوفه، يكادون يتجمدون مع بعض لقيمات فقط من اللحم المقدد والماء ليبقوا على قيد الحياة فيما كانوا ينتظرون بزوغ الفجر.

استيقظ تسوبودي قبل أن ينبجس أول ضوء، ليتأكد أن بمقدوره وضع صف من الرجال على الدرب الضيق قبل أن يحاول جنكيز قيادتهم. كان القائد مقتنعاً أن أول من يدخل سيلقى حتفه واختار رماة يرتدون دروعاً جيدة من فرقته، مانحاً إياهم بذلك أفضل فرصة يستطيعها. لم يكن يرغب في أن يخاطر جنكيز بنفسه ضد عدو لا يمكن رؤيته في مثل ذلك المكان. كان سهلاً للغاية الدفاع عن المنحدرات الصخرية التي تحيط بالدرب. فيما كان تسوبودي يحدّق إلى العتمة التي بدأ الضوء يخفف منها، خمّن أنهم سيواجهون حجارة وسهاماً على الأقل. كان يأمل بألا يكون لدى الحشّاشين كميات من زيت النار، لكنه لم يكن واثقاً من ذلك. لم تكن هناك فائدة من الندم على قرارات سابقة، لكن الحشّاشين كانوا قد حظوا بوقت طويل لتجهيز الطريق. إذا كانوا قد اختاروا القتال، فسيكون الدرب شاقاً والكثير من رجاله لن يعودوا من الجبال.

لم يكن من الممكن رؤية الشمس معظم الصباح في ذلك المكان الجبلي الصخري، ولهذا تساءل تسوبودي عن حياة القرويين في ذلك الضوء الخافت. حتى

في عـزّ الـصيف، كانت منازلهم باردة معظم اليوم. فقط عندما تصل الشمس إلى كـبد الـسماء كان الضوء والدفء يصلان إلى الطريق في الأسفل. بحلول ذلك الـوقت، لم يكـن يشك في أن القرويين كانوا جميعاً خدماً لأولئك الذين جاؤوا لاقتلاعهم من معقلهم. لا شيء آخر كان يفسّر لماذا اختاروا مثل تلك الحياة.

قاد تسوبودي جواده في الصف الثاني و لم ينظر إلى الخلف سوى مرة واحدة عندما بدأ الجيش يتحرك، وكان رتلاً طويلاً بطيئاً يمتد إلى الخلف حتى يصل تقريباً إلى القـرية الأولى الـتي كان قد وجدها مدمرة. لم تكن لدى بعضهم فكرة عمّا حدث قبل يوم، لكنهم تبعوا خطواته وشقّوا طريقهم عميقاً في تضاريس معادية.

ضـاق الدرب أكثر عندما ترك القرية خلفه، و لم يكن سوى اثنين فقط من رجالـه يـستطيعان العبور معاً. كان الممر مجرد صدع في الجبل، والهواء بارداً من العـتمة الدائمة والظلال. أبقى تسوبودي أسلحته جاهزة، وركّز بصره أمامه بحثاً عـن إشارة ما على مجموعة العشرة التي كان قد أرسلها. لم تبقَ سوى آثار حوافر وتـبعها رجـال تسوبودي ببطء، قلقين من كمين، لكنهم مضوا قدماً بالرغم من ذلك.

أصـبح الشعور بالحصار خانقاً عندما بدأت الجدران الصخرية ترتفع أكثر. لانـزعاج تسوبودي، ضاق الرتل مجدداً، ولهذا لم يعد سوى رجل واحد يستطيع دفـع جواده للمرور عبر ذلك الممر. كانت آثار الحوافر لا تزال تقودهم. لم يكن تـسوبودي قد شعر أبداً في حياته بأنه عاجز إلى تلك الدرجة وكان عليه أن يقاوم خوفاً يزداد باستمرار. إذا تعرضوا لهجوم، سيسدّ أول من يلقى حتفه الدرب على الـذين خلفه، وسيصبحون أهدافاً سهلة. لم يكن يظن أن بمقدوره أن يستدير على مطيته في مثل ذلك الممر الضيق، ووحل في كل مرة مسّت فيها قدماه الصخور التي تعلوها طحالب على كلا الجانبين.

رفـع تسوبودي رأسه إلى الأعلى عندما صدر عن أحد رجاله صفير خافت، وتوقفت الجياد فجأة. أطلق لعنة بصوت خافت عندما أدرك أنه لا يستطيع التقدم إلى الأمـام ليرى ما كانوا قد اكتشفوه. كان أفضل جيش في العالم قد أصبح صفاً واحداً من رجال متوترين. لا عجب أن الحشّاشين لم يكونوا قد هجروا حصنهم. نظـر تسوبودي إلى الأعلى نحو شريط من السماء الصافية فوق رأسه. كان كل ما

سيتطلبه الأمر بضعة رجال مع حجارة في الأعلى وستصبح الجبال قبراً لكل آمالهم وطموحاتهم. تنفّس عميقاً عندما نـزلت حصاة من مكان ما في الأعلى، لكن لم يتبعها شيء.

عاد أحد رجاله على قدميه، وكان يمر من بين قوائم الجياد ويزيد من توترهم. كانوا يشعرون أيضاً بأنهم محاصرين بصخور من كل الجوانب وكان تسوبودي قلقاً من إصابة أحدهم بالذعر. في مثل ذلك المكان الضيق، ستكون الفوضى عارمة.

قال المحارب: "هناك سور مبنيّ ليسد الدرب أيها القائد. فيه بوابة، لكنها مصنوعة من الحديد. إذا أرسلت مطارق إلى هناك، يمكننا تحطيم المفصلات، لكن ذلك لن يكون سريعاً".

أومأ تسوبودي، بالرغم من أن فكرة إرسال أوامر إلى الخلف على طول صف من الجياد المتوقفة ستكون سخيفة إذا لم تحمل تحذيراً من تهديد مستمر بهجوم. رغماً عنه، نظر إلى الأعلى مجدداً وفزع.

"سيكون عليك أن تذهب بنفسك. اجعلهم ينقلون المطارق من رجل إلى آخر واجعل ضابطاً يُخرج المتاريس من أقرب عربة توجد فيها". أخيراً، ستكون المتاريس الخشبية المحمولة مفيدة. كان جنكيز قد أصر على جلب اثني عشر منها مصنوعة في سمرقند لحماية رماته، وهو قرار آتى أكله آنذاك.

انتظر تسوبودي بفارغ الصبر فيما كان الرجل ينتقل على طول الصف. كانت عربات أدوات الحصار بعيدة في الخلف، ومرّ الوقت بطيئاً فيما كان الرجال يتكلمون بين بعضهم وينتظرون. وحده جنكيز بدا مبتهجاً، عندما نظر تسوبودي إلى الخلف نحوه. كان الخان يشحذ سيفه بحجر خاص أخرجه من خُرج سرجه، ويرفع النصل بين الفينة والأخرى ليتفقد الحافة. رأى تسوبودي يحدّق إليه، وضحك بصوت منخفض، وترددت أصداء الصوت فيما كان يتابع ما يقوم به.

في السكون، دفعت فطرة ما تسوبودي للنظر إلى الأعلى مرة ثالثة. رأى شريط السماء الزرقاء مرقّطاً بأشكال داكنة. فغر فاه وصرخ على أولئك الذين حوله ليحترسوا، ورفع ذراعه التي تغطيها الدرع فوق رأسه قبل أن يضربه أول حجر.

ســقطت الحجارة بموجات متتالية، وجعلت المغول يزمجرون ويصرخون ألماً. أولـئك الذين يحملون تروساً وضعوها فوق رؤوسهم، لكن عددهم لم يكن كبيراً. عانــت جيادهم من الوابل من دون خوذات أو دروع، فقفزت وركلت بقوائمها خــوفاً وألمــاً. أصـيب الكثير منهم بالدوار، سقطوا واختلطت أجسادهم عندما خارت أقدامهم تحتهم. شد تسوبودي قبضتيه فوق رأسه عندما رأى أن بعضهم لن ينهــضوا مجــدداً، وقد تحطمت جماجمهم. رأى رجالاً خُلعت أذرعهم، وكُسرت عظــامهم بالرغم من الدروع، وبالرغم من ذلك بقيت الحجارة تنهمر نحو المساحة المحــصورة. الشيء الوحيد الذي كان تسوبودي شاكراً له هو أن الحجارة كانت صــغيرة. الــصخور التي يمكنها كسر العمود الفقري لرجل إما ضربت الممر فوق رؤوســـهم، أو وثبت وتحطمت إلى أجزاء أصغر. حتى عندما لاحظ ذلك، وصلت إلـــيهم إحدى الصخور الكبيرة وضربت جبين جواد على بعد أقدام أمامه، وقتلت الحيوان مباشرة. تذكر القائد الحصن الأول الذي كان قد استولى عليه مع جنكيز. كان رجال قد وقفوا في مكان مرتفع، وأطلقوا سهاماً بشكل يكاد يكون مستقيماً نحــو الأسفل. كانوا قد نجوا بفضل المتاريس الخشبية التي حملوها فوق رؤوسهم. شعر تسوبودي بقلبه يخفق بشكل مؤلم عندما أدرك أنه قد نسي العربات خلفه. لم يكــن ممكناً جرها إلى الممر الضيق، وتراءت له صورة الجيش بأكمله محاصراً، غير قــادر علــى التراجع في المسافة الضيقة بين الجانبين الصخريين. تلوى رجاله تحت وابل الحجارة، وصرخوا ألماً وإحباطاً.

حــار تــسوبودي: "أين هي تلك المتاريس؟ نحتاج إلى المتاريس هنا!". انتقل صــوته بعــيداً على طول الصف، وتردد صداه بقوة على الجدران. عندما استدار الــرتل، رأى رجالاً يشيرون بإلحاح إلى أولئك الذين خلفهم، ونقلوا إليهم الأمر. كم كانت العربات بعيدة إلى الخلف؟ انتظر، وفزع من طقطقة الحجارة فيما كان ينخفض فوق سرجه وذراعاه تحميان رأسه.

ظن أنه يصغي إلى صرخات وصوت أنفاسه منذ وقت طويل عندما سمع صيحة. خاطر تسوبودي بالنظر من فوق كتفه. كانت الحجارة لا تزال ترتد عن درعه، وتجعله يهتــز. حــتى الصغيرة منها كانت تؤلم. تنفس الصعداء عندما رأى المتاريس الخشبية الثقيلة تنتقل من فارس إلى آخر فوق الرؤوس. لم يكن من الممكن نقلها بسرعة كبيرة.

توقــف رتل المتاريس الخشبية عندما أمسك بها أولئك الذين يتعرضون للرجم بالحجــارة فــوق رؤوسهم بدلاً من تمريرها على طول الصف. صرخ تسوبودي بأوامــر غاضبة عليهم. كان المزيد منها قادماً، كما لاحظ. كان يمكن آنذاك سماع أصــوات الحجــارة التي ترتد عن الخشب، والعالية بما يكفي لتصمّ الآذان. أمسك تــسوبودي بأول متراس يصل إليه، بعد أن رأى أن جنكيز بأمان. لم يكن يظن أن الخان سيتخلى عما يحمله بيده، وتطلب الأمر جرعة إرادة لتمرير متراسه إلى أولئك الــذين أمامــه. كانوا يستطيعون تمريرها فقط برفعها بشكل مائل فوق رؤوسهم. عــندما كان يتم وضع المتاريس مثل دروع لحماية الرجال، كان يتم إسنادها غالباً على الأسوار ولا حاجة إلى حملها بعد ذلك.

مكشوف الرأس مرة أخرى، نظر تسوبودي إلى جنكيز، ورأى أن الخان قد فقد هدوءه. كشّر جنكيز عندما رأى أحد قادته من دون حماية، ثم هزّ كتفيه استخفافاً كما لــو أن ذلك لم يكن مهماً. أبعد المتراس عن رأسه، ومدّ يده نحو آخر. رأى تسوبودي حجــارة تــسقط حول الخان. دفعت إحداها رأسه إلى الخلف عندما أصابت خوذته، لكن تم جلب متراس آخر إلى الأمام وتنفس القائد الصعداء لرؤيته بأمان مرة أخرى.

تــضاءل تساقط الحجارة ثم توقف، وترك رجالاً مصابين وآخرين يحتضرون تحــت الألواح الخشبية الثقيلة. من دون دروع، كان سيتم القضاء عليهم. لم يكن تــسوبودي يعرف إن كان الحشّاشون قد رأوا المتاريس الخشبية، أو ببساطة لم تعد لــديهم مقذوفات. كان يعرف أنه سيحرك السماء والأرض ليجعلهم يدفعون ثمن الألم الذي شعر به لأنه وقف عاجزاً عن فعل شيء.

وصلت المطارق إلى الأمام تحت غطاء المتاريس، وتم نقلها باليد من رجل إلى آخر حتى بدأت ضربات ثقيلة ترن من مكان ما في المقدمة. غاضباً، لم يكن بمقدور تــسوبودي رؤية الصفوف الأمامية. كان السور الذي يحاولون تحطيمه بطول اثني عشر جواداً أمامه و لم يسعه سوى الانتظار وهو يتصبب عرقاً.

فكّــر تسوبودي في تقطيع الجياد الميتة وإرسالها أجزاء على طول الصف إلى الجــزء الخلفي. صرف ذهنه عن تلك الفكرة بالسرعة التي راودته بها. كانوا بحاجة إلى الخــروج من ذلك الممر الصخري وكان تقطيع الجياد سيستغرق وقتاً طويلاً، حتى إذا كانت لديهم مساحة للعمل بالفؤوس.

بـدلاً مـن ذلـك، رأى تسوبودي أنه يمكن استعمال المتاريس لتأمين غطاء للـرجال والجـياد الميتة، مما يسمح للآخرين بالمشي فوقهم. سيكون ذلك عملاً رهيـباً، لكن نظراً إلى عدم وجود طريق إلى الأمام، لم يكن هناك حلّ آخر سوى تدمير البوابة الحديدية.

كان يمكن سماع صدى تحطم البوابة بعيداً على طول الرتل، وأطلق ذلك هتافاً خافتاً مـن المحـاربين. رأى تسوبودي المحاربين في المقدمة يندفعون إلى الأمام ثم صـرخوا عندما أصابهم شيء غير مرئي. ركّز تسوبودي نظره، لكن لم يكن هناك سوى ضوء باهت في ذلك المكان الذي كانت المتاريس تخفيه تقريباً في ظلها. كان يـستلقي أمامـه الجواد الذي رآه يُصاب بصخرة. كان فارسه قد اصطدم بالجدار عـندما سقط الحيوان. كان الدم قد نـزف من أنفه وكان شاحباً ولا يتحرك. لم يعرف تسوبودي إن كان لا يزال حياً، لكنه أصدر أوامر من دون تردّد.

مـرّر متراسه إلى الأمام ليغطي الثنائي الميت. مع تحريض تسوبودي له، دفع أقـرب المحـاربين عقبـيه بردفي جواده، وأرغم مطيته على التقدم نحو منصة غير مستقرة.

اهتـزت تحت الثقل، وقاوم الجواد الخائف، لكن تسوبودي والفارس صرخا علـيه. ضـرب المحارب ردفيه بقراب سيفه حتى اندفع الحيوان إلى الأمام، يصهل مـتألماً. كشّر تسوبودي وتبعه، وحاول ألا يسمع صوت العظام تتكسر تحت ثقله. قال لنفسه إن الرجل في الأسفل ميت بالتأكيد.

انطلـق جـواد تسوبودي عندما رأى الدرب الخالي أمامه. شدّ اللجام بقوة، وكـان يعرف أن الذي أسكت رجاله لا يزال موجوداً. كان هناك محارب واحد فقـط يـنطلق أمامه، وقد اندفع ذلك الرجل بجنون، يطلق صرخة حرب، ويلوّح بسيفه.

مـرّ تسوبودي عبر أنقاض البوابة، وسقط ضوء الشمس على عينيه، وجعله غـير قـادر على الرؤية تقريباً. خلفها، لمح مساحة واسعة في الدرب. كان جواده يجـري نحـوها، يائـساً للابتعاد عن الخوف ورائحة الدم الكريهة في الممر. شد تـسوبودي اللجـام بعنف، وأدار مطيته يساراً فيما كانت سهام تطنّ فوقه. كان المحـارب الآخـر قـد اندفع مباشرة نحو الساحة، وظهرت سهام في صدره. رآه

تسوبودي يترنح، لكن درعه صمدت وكان لديه وقت ليقتل أحد رماة السهام قبل أن يضربه سهم آخر تحت ذقنه من مدى قريب.

لهث القائد ليتنفس، وطرفت عيناه فيما كان المزيد من المحاربين يخرجون من الممر لينضموا إليه. لم يستطع أولئك الذين كُسرت أذرعهم وعظام ترقوتهم استعمال أسلحتهم، لكنهم ركضوا نحو السهام لإخلاء الممر خلفهم.

كان الرماة الذين يواجهونهم يرتدون أثواباً بيضاء، تكشف ما تحتها عندما يشدون أقواسهم. رأى تسوبودي أنهم يحملون علامة السكون وتملّكه الغضب. دفع بعقبيه بردفي مطيته نحو صفوف الرجال المحتشدين. لم يكن هناك مكان يلجأ إليه أو مناورة يمكنه القيام بها. كان محاربوه إما سيدمرون الصف أو يموت كل اثنين وثلاثة معاً عندما يخرجون من البوابة المحطمة.

كان مفيداً أن الجياد جرت بجنون من خوفها. حاول المحاربون المغول عبثاً إيقاف اندفاعها. مضى جواد تسوبودي مباشرة نحو أحد الرماة الذي كان يضع سهماً آخر على القوس. مرّ السهم بطن عندما تجاوز القائد الذي لوّح بسيفه، وركل جواده الرجل التالي وأسقطه أرضاً. كشف تسوبودي عن أسنانه بسعادة بالغة عندما بدأ محاربوه يتقدمون نحو الصفوف. كان صدر كل رجل مليئاً بسهام، لكن الدروع كانت جيدة والرماة سيئين. لم يكن الحشّاشون محاربين، بالرغم من كل الخوف الذي يثيرونه في الآخرين. لم يكونوا قد تدربوا كل يوم من اللحظة التي بدأوا فيها بالمشي. لم يكونوا يستطيعون تحطيم الخوف والألم للاندفاع نحو عدو. كان محاربو الخان يستطيعون ذلك وهذا ما فعلوه.

كان الممر أمامهم عريضاً بما يكفي لتنطلق خمسة جياد بأقصى سرعتها جنباً إلى جنب. ربما كان مئة رام يقفون على طبقات من صخور، منحوتة مثل درجات تقريباً. لم يكونوا يستطيعون صدّ الهجوم القادم نحوهم. ربما كانت موجات السهام قد أوقفت الصفوف الأولى، لكن تسوبودي رأى أن كل رجل يطلق لوحده. لوّح بسيفه نحو رجل آخر، وأصابه بجرح بليغ في أضلاعه فيما كان يتجاوزه مسرعاً. كان جواده يتعثر، مع سهمين في صدره. وحده خوفه أبقاه يجري، لكن تسوبودي كان مستعداً عندما تلاشت القوة من الحيوان، وسقط بقوة على الأرض. وثب بسهولة عن الجواد، وكاد يقع بين ذراعي حشّاش. دار تسوبودي بسرعة حول

مفاجئ يطنّ نحو الأسفل عليهم. عندما بزغ الفجر، كان سبعة من رجال تسوبودي قد أُصيبوا، وانزلق آخر يمسك بعارضة حديدية، وكُسر معصمه بضربة مطرقة. لم يلقَ سوى ثلاثة حتفهم. تم سحب الآخرين إلى الخلف أسفل الدرجات، حيث تمت العناية بهم وتضميد جروحهم، بانتظار ضوء النهار.

عندما صمد الباب طيلة الصباح، أصدر جنكيز أوامر لتسوية القرية المبنية من الحجارة خلفه أرضاً. عاد قادة مجموعات الألف بتعليمات لتحطيم المنازل الحجرية وإلقاء ركامها من فوق الجرف الصخري كي يستطيع المزيد من الرجال الاستفادة من المساحة المكشوفة كمنصة للعمل. كان حوالى عشرين ألف رجل ينتظرون بفارغ الصبر، لا يستطيعون الوصول إلى عدو فيما بضعة رجال فقط يتصببون عرقاً عند السور. بدا تسوبودي واثقاً أن رجاله سيحطمون البوابة، لكن مع انقضاء اليوم الثاني، كان على جنكيز أن يتجهم لإخفاء نفاد صبره.

حدّق رجل الجبال العجوز إلى الأسفل نحو الجنود الذين يرتدون دروعاً ويعملون تحت أشعة الشمس. بالكاد كان يستطيع السيطرة على غضبه منهم. خلال حياته كلها، كان قد تم تكريمه من قبل أمراء وشاهات، من البنجاب في الهند إلى بحر قزوين. كان يحظى بالاحترام، وحتى التفضيل، من الرجال القلائل الذين كانوا يعرفون من هو، من دون اعتبار لثروتهم ونسبهم. لم يكن حصنه قد تعرض لهجوم أبداً منذ عثر سلفه على الصدع في الجبال وشكّل العشيرة التي ستصبح القوة الأشد بطشاً في المنطقة.

أمسك الرجل العجوز بعتبة حجرية لنافذة مفتوحة فيما كان يحدّق إلى النمل الذي يكدح للوصول إليه. لعن شاه خوارزم الذي كان قد حاول شراء موت هذا الخان، بالإضافة إلى حظه لأنه قبل بتولي تلك المهمة. لم يكن يعرف حينها أن مدن الشاه ستسقط أمام الغازي، ومعها أكوام الذهب. كان قد أرسل نخبة رجاله للقضاء على شخص واحد فقط، لكن ذلك جذب بطريقة ما الخان إلى حرمه. كان الرجل العجوز قد عرف خلال أيام عن الفشل في سمرقند. كانت ثقة أتباعه بأنفسهم قد أصبحت مفرطة، وأغراهم وجود العدو في متناول أيديهم. كانوا قد ماتوا بطريقة مشرّفة، لكن بالرغم من ذلك دفعوا بهؤلاء المهاجمين المجانين إلى عرينه.

لم يكن يبدو أن المغول يهتمون لعدد الأشخاص الذين يفقدونهم. لم يكن في وســـع الرجل العجوز سوى أن يُعجب بهم لذلك، لولا أنه كان يعتبرهم أقل شأناً مـــن الرجال. كان يبدو أن مصيره سيتحدد على أيدي ذئاب ملحدة، بعد كل ما كان قد حقّقه. كان الخان عدواً قاسياً، ومثابراً و لم تكن الطرائق القديمة تنفع معه. سيـــستغرق الأمر جيلاً ليعيد بناء العشيرة بعد هذا اليوم، على الأقل. أقسم سراً أن الحشّاشين سيردّون أخيراً دين الدم، لكنه في الوقت نفسه كان خائفاً، ويكاد يفزع مـــن الـــرجل الذي كان قد رمى بنفسه بتلك القوة ضد حجارة الحصن. لم يكن الحـــشاشون يجرؤن على فعل ذلك. كانوا يعرفون أن الفشل سيعني الدمار لكل ما يحـــبونه ثلاثة أجيال متتالية. كان حتى صلاح الدين العظيم قد توقف عن ملاحقة الحشّاشين بعد أن كانوا قد وصلوا إليه في خيمة قيادته.

سمع الرجل العجوز وقع خطوات خلفه وابتعد متردداً عن قنطرة النافذة. كان ابنه يقف في الحجرة الباردة، مرتدياً ملابس السفر. بعمر أربعين عاماً، كان الرجل الأكثر شباباً يعرف كل أسرار العشيرة. كان سيحتاج إليها كلها ليبدأ من جديد. معه ذهبت آخر آمال الرجل العجوز. اشتركا بنظرة أسى وغضب قبل أن يمسّ ابنه جبينه، شفتيه، وقلبه وينحني باحترام.

سأله ابنه مرة أخيرة: "ألن تأتي معي؟".

هز الرجل العجوز رأسه.

"سأرى هذا حتى النهاية. لقد ولدت في هذا الحصن. لن يدفعني أحد للخروج منه". فكّر في حديقة الفردوس خلف الحصن. كانت النساء قد لقين حتفهن آنذاك بـــناءً علـــى أمره، وجعلهن الشراب المسموم يغرقن في نوم أبدي. مع وجود آخر رجالـــه على السور، لم يكن هناك أحد ليرفع الجثث وكانت الحديقة تعبق برائحة الأجـــساد المتعفـــنة. بالرغم من ذلك، كان ذلك المصير أفضل لهن من الوقوع في أيدي الغزاة. فكّر الرجل العجوز في تمضية بعض الوقت هناك بانتظار الخان. لطالما كانت الحديقة تهدّئ اضطراب روحه.

"تذكّرني وأعد البناء يا بني. إذا عرفت أنك ستمد يدك وتنتزع هذا الخان من العالم، مع أبنائه، يمكن أن أموت بسلام".

اتقدت عينا ابنه في وجهه قبل أن ينحني مجدداً.

قال: "لن أنسى".

راقبه الرجل العجوز يمشي مبتعداً، وخطواته واثقة وقوية. كان هناك درب مخفي خلف الحصن سيسلكه ابنه، ولا يترك خلفه سوى الدمار. كان رجلان سيسافران معه، وهما حشّاشان خبيران بكل أنواع القتل. حتى هذان الرجلان كانا بحاجة إلى أمره للانطلاق بعيداً. لم يكونا يعتبران الموت دفاعاً عن مقرهما عاراً. كان ثلاثون رجلاً ينتظرون أن يحطم المغول السور. كانوا يعرفون أنهم سيلقون حتفهم ويدخلون الفردوس وجعلهم ذلك يمتلئون بهجة وسروراً.

وحيداً مرة أخرى، أدار رجل الجبال العجوز وجهه عن الشمس التي تغيب. شق طريقه إلى الأسفل على الدرجات الرخامية نحو الحديقة للمرة الأخيرة، تنفس الهواء بسعادة عندما أصبح يعبق بشذا الزهور ورائحة الموت.

تحطم العمود الأيمن للباب إلى قطعتين عند ظهيرة اليوم التالي، وانهار تحت ثقل الحجارة فوقه. تقدم الخان إلى الأمام، متعطشاً لرؤية ما يوجد في الداخل. فُتح الباب قليلاً من دون دعامة ووضع رجال تسوبودي أعمدتهم المدببة في الفجوة محاولين توسيعها، وحفرت حافة الباب أخدوداً في الأرض الترابية.

كان جنكيز يرتدي درعاً كاملاً، ويحمل سيفاً وترساً جاهزين في يديه فيما كان ينتظر توسيع الفجوة. لاحظ تسوبودي نيته بأن يكون أول من يدخل الحصن، وانضم القائد إلى رجاله عند البوابة، وأمسك بالحافة بيديه العاريتين حتى يكون قريباً منه. لم يكن يعرف إن كان جنكيز قد خمّن أفكاره، لكن تسوبودي كان الرجل الأول الذي يعبر البوابة إلى الساحة الواقعة خلفها. سمع طنين سهام تتحطم على حجارة، وخفض رأسه فيما كان ينظر إلى الحصن الذي كانوا قد عملوا بجدٍّ كبير للوصول إليه. كان لا يزال هناك رجال على الأسوار، لكن عندما دخل جنكيز، استقبل سهامهم على ترسه، وبدا كما لو أنه يلتقطها في الهواء حتى إنها اهتزت على ترسه.

دخل رماة تسوبودي بعد ذلك، يسيرون إلى الخلف نحو الساحة ويطلقون سهاماً على أي شيء يتحرك في الأعلى. لم يكن الحشّاشون حصينين داخل الأسوار. وكانت ظلالهم الداكنة واضحة على الحجارة الأفتح لوناً، فسقطوا

بسرعة. راقبهم جنكيز يندفعون نحو الساحة من دون أن يظهر أي تعبير على وجهه، ثم أومأ راضياً، عندما أطبق الصمت مجدداً. مشى رجال المطارق معه، وجوههم حمراء، ويتصببون عرقاً فيما كان القائد والخان يشقان طريقهما بعيداً إلى داخل الحصن. تسلق آخرون أدراجاً حجرية إلى الأسوار، مصممين على القضاء على كل ناجٍ محتمل وتفقّد القتلى. لم ينظر تسوبودي إلى الخلف عندما سمع صراعاً على السور قبل أن يسقط أحدهم وهو يصرخ. كان يعرف أن رجاله سيملأون الساحة والغرف التي تقع بعدها. لم يكن بحاجة إلى الإشراف عليهم؛ ولم يكن يستطيع ذلك فيما الخان يدخل غير مبالٍ إلى وكر الحشّاشين.

بعد الساحة، كان هناك رواق مسقوف يستند إلى أعمدة ويصل إلى المبنى الرئيس. وجد جنكيز باباً هناك، لكنه كان مصنوعاً من الخشب فقط، حطّمه رجال المطارق ببضع ضربات. لم يكن هناك أحد بانتظارهم، بالرغم من أن تسوبودي حبس أنفاسه عندما مشى جنكيز في الظل كما لو أنه يتجول بين خيامه. بدا الخان مصمماً على لقاء أكبر مخاوفه، وكان تسوبودي يعرف أن من الأفضل ألا يحاول منعه في أثناء تفتيشهم للحصن.

كان مقر الحشّاشين متاهة من الغرف والممرات. عبر تسوبودي قاعات مليئة بالأسلحة والأثقال الحديدية، وأرضاً مكشوفة فيها أقواس معلقة بأكياس جلدية، وحتى نافورة جافة، وماء تجمع في بركة لا يزال السمك الذهبي يسبح فيها. وجدوا غرفاً فيها أسرّة من كتان رائع، إضافة إلى مهاجع تملأها أسرّة خشبية عادية. كان مكاناً غريباً، وانتاب تسوبودي شعور أن من هجروه لم يفعلوا ذلك منذ وقت طويل، وأنهم قد يعودون ويملأون القاعات الفارغة بالضوضاء والنشاط في أي لحظة. خلفه، سمع رجاله ينادون بعضهم بعضاً، وهدأت أصواتهم مع اندفاع المزيد منهم إلى داخل الحصن، فبدأ البحث عن أي شيء يستحق حمله. في مكان واحد مثبّت على نوافذه قضبان حديدية، عثر تسوبودي وجنكيز على كوب مقلوب وبالكاد كان الشراب الذي كان فيه جافاً. تابع جنكيز سيره، مبدياً اهتمامه، لكنه لم يتوقف أبداً ليرتاح.

في نهاية القاعة المعلقة على جدرانها رايات حريرية، كان باب ثقيل آخر يسد دربهم. استدعى تسوبودي رجال المطارق، لكن عندما رفع القضيب الحديدي، تحرك

بـــسهولة وانفتح الباب ليكشف عن درج. وجد جنكيز صعوبة في التوقف، لهذا اندفع تـــسوبودي إلى الداخل أمامه، وصعد بأقصى سرعة ممكنة؛ وسيفه جاهز. كان الهواء يعبق بروائح غريبة، لكن بالرغم من ذلك لم يكن مستعداً لما وجده، وتوقف فجأة.

كانت الحديقة تقع خلف الحصن، تطل على جبال تمتد إلى مسافة بعيدة جداً. كانـــت الزهور في كل مكان، لكنها لم تخفِ رائحة الموت. وجد تسوبودي جثة امـــرأة تتمـــتع بجمال رائع تستلقي إلى جانب مجموعة من الأزهار الزرقاء. كانت شـــفتاها داكنـــتين من الشراب الأحمر الذي كان قد لطخ وجنتيها وحنجرتها بعد سقوطها. دفع الجثة بقدمه، ونسي للحظة أن جنكيز كان خلفه تماماً.

لم ينظـــر الخان إلى الأسفل عندما تجاوزه. مشى بخطوات واسعة فوق ممرات منظمة بأناقة كما لو أنها غير موجودة، وتقدم إلى الأمام. كانت هناك جثث لنساء أخـــريات في ذلـــك المكـــان، كلـــهن جميلات ولا يرتدين الكثير لإخفاء مفاتن أجـــسادهن. كـــان ذلك مقززاً حتى لشخص اعتاد على الموت، ووجد تسوبودي نفسه يرفع رأسه ليستنشق هواءً نظيفاً. لم يبدُ أن جنكيز يلاحظ ذلك، وكان يركز بصره على الجبال البعيدة، النظيفة التي تكللها الثلوج.

لم يرَ تسوبودي الرجل الذي يجلس على مقعد خشبـــي في البداية. كان ذلك الـــشخص ســـاكناً جداً حتى إنه بدا كحلية أخرى في ذلك المكان الغريب. كاد جنكيز يصل إلى جانبه عندما اهتز تسوبودي، وأطلق صرخة تحذير.

توقـــف الخـــان، ورفع سيفه ليضرب بعض سرعته القديمة. لم يرَ تهديداً من الرجل وأنـــزل السيف عندما لحق به تسوبودي.

قـــال جنكيز للرجل: "لماذا لم تهرب؟". كان يتكلم بلغة تشن، ورفع الرجل رأسه وابتسم بشكل غريب، قبل أن يجيب باللغة نفسها.

"هذا منـــزلي يا تيموجن".

تـــسمّر جنكيز في مكانه عندما سمع اسم طفولته من غريب. اهتز السيف في يـــده بشكل فطري، لكن الرجل الجالس على المقعد، رفع يدين فارغتين ببطء قبل أن يتركهما تنـــزلان إلى جانبيه.

قـــال جنكيـــز له: "سأدمره، كما تعرف. سأرمي بالحجارة من فوق الجرف الصخري وهكذا لن يتذكر أحد أبداً وجود حصن في هذه الجبال".

هزّ الرجل العجوز كتفيه. "بالطبع ستفعل. الدمار هو كل ما تعرفه".

كـــان تـــسوبودي يقف قريباً جداً منهما، يهيمن على الرجل الجالس على المقعد، ومستعداً لقتله عند أول إشارة حادة. لم يكن يبدو أنه يشكل تهديداً، لكن عينيـــه كانـــتا داكنتين تحت حاجبين كثيفين، وبدت كتفاه ضخمتين بالرغم من تجاعـــيد الـــزمن علـــى وجهه. من طرف عينه، رأى جنكيز يغمد سيفه ولم يجرؤ تـــسوبودي على أن يستدير مبتعداً عندما جلس الخان على المقعد، ونفخ الهواء من بين شفتيه ارتياحاً.

قال جنكيز: "بالرغم من ذلك، أنا مندهش لأنك لم تهرب".

ضحك الرجل العجوز بصوت خافت.

"عـــندما تكـــون قد وهبت حياتك لبناء شيء ما، ربما ستفهم؛ لا أعرف". أصبح صوته أكثر مرارة عندما تابع. "لا، لن تفهم، حتى عندها".

ابتـــسم جنكيـــز، ثم قهقـــه عالياً حتى اضطر إلى مسح عينيه. راقبه الرجل العجوز، ووجهه يتحول إلى قناع كراهية.

قـــال جنكيـــز: "آه، كنت بحاجة إلى الضحك. كنت بحاجة إلى الجلوس في حديقـــة محاطة بجثث النساء وحشّاش يقول لي إنني لم أبن شيئاً في حياتي". ضحك مجدداً وحتى تسوبودي ابتسم، بالرغم من أن سيفه بقي جاهزاً.

كـــان رجـــل الجـــبال العجوز ينوي أن يسخر من الخان قبل أن يلقى حتفه بكرامة. كانت قهقهة الرجل في وجهه قد جعلته يستشيط غضباً، وتلاشى شعوره بأنه يفوقه هدوئاً.

همس الرجل العجوز: "هل تظن أنك قد حققت شيئاً في حياتك؟ هل تظن أن أحداً سيتذكرك؟".

هـــز جنكيز رأسه عندما هدّد شعور بالإثارة بأن يغمره مجدداً. كان لا يزال يضحك ووقف مرة أخرى.

"اقتل هذا الأحمق العجوز نيابة عني، هل ستفعل يا تسوبودي؟ إنه لا يساوي أكثر من نفخة هواء".

استـــشاط الحـــشّاش غضباً فيما كان يحاول أن يردّ، لكن تسوبودي ضربه بسيفه، وتركه يتخبط في دمائه. كان جنكيز قد أبعد الرجل آنذاك عن ذهنه.

"لقـد تركوا لي تحذيراً، في القرية التي دمروها يا تسوبودي. لا يمكنني سوى القيام بالشيء نفسه معهم، إذا كان أحدهم لا يزال على قيد الحياة. أريدهم أن يتذكروا تكلفة مهاجمتي. اجعل الرجال يبدأون من السقف ويرمون الآجر والحجارة من فوق حافة الجرف الصخري. لا أريد أن يبقى شيء يشير إلى أنه كان لديهم مقر".

أومأ تسوبودي، وأحنى رأسه. قال: "كما تشاء يا مولاي الخان".

أشعل جلال الدين مخروطاً من البخور لوالده، وفكّر فيه في ذكرى رحيله. رأى أشقاؤه دموعاً في عينيه عندما شد قامته، ونطق بكلمات عذبة في نسيم الصباح.

"من يحيي العظام وهي رميم. قل يحييها الذي خلقها أول مرة". توقف وسجد، ومست جبهته الأرض في إشارة إلى تكريم الشاه الذي كان، في موته، قد أصبح منارة أتباع ابنه.

كان جلال الدين يعرف أنه قد تغير في العام الذي أمضاه منذ اختفائه على الجزيرة الصغيرة في بحر قزوين. كان قد أسّس دعوته وكان العديد من الرجال الذين جاؤوا للدفاع عنها يعتبرونه رجلاً مباركاً. كانت أعدادهم قد ازدادت، وقطعوا مئات الأميال للانضمام إلى الحرب ضد الخان الغازي. تنهد عندما فشل في إبقاء ذهنه صاحياً للصلاة في ذلك اليوم المميز. كان أشقاؤه قد أصبحوا ضباط رجاله، بالرغم من أنهم أيضاً كانوا يعتبرونه رجلاً مبجّلاً. بالرغم من كل الإيمان، كان على أحد أن يقدم الطعام والخيام والأسلحة إلى أولئك الذين لا يملكونها. لتلك الأسباب كان قد استجاب لدعوة لقاء أمير بيشاور. لم يكونا قد التقيا سوى مرة واحدة في بخارى عندما كانا صبيين، وكان كلاهما مدلّلين وتراودهما أحلام سعيدة. لم تكن لدى جلال الدين سوى ذكرى ضبابية عن الفتى ولا يعرف الرجل الذي أضحى عليه. بالرغم من ذلك، كان الأمير يحكم إقليماً فيه حقول غنية بالمحاصيل وكان جلال الدين قد قطع مسافة طويلة جنوباً. كان قد مشى حتى تمزق خفّه، وقطع مسافة أطول حتى أصبح أخمص قدميه قاسياً مثلما كان حذاؤه من قبل. كان المطر قد روى عطشه والشمس الحارقة قد جعلته نحيلاً، وأضحت عيناه أقوى فوق لحية كثيفة وسوداء.

تــصاعد الــدخان إلى الأعلى من المجمر فيما كان يتذكر والده. كان الشاه سـيفتخر بابـنه، كما ظن جلال الدين، بالرغم من أنه كان قد اختار أن يرتدي أثـواباً رثـة. لم يكن والده سيفهم أنه يترفع عن مظاهر الثروة ويشعر بأنه أفضل حالاً. عندما فكّر جلال الدين في الحياة السهلة التي كان يحياها، لم يسعه سوى أن يهزّ كتفيه غير مبال. كان يتلو آيات من القرآن الكريم آنذاك، ويصلي ويصوم ولا يــشغل باله سوى بالثأر والجيش الذي حوله. كان يتخيل بصعوبة الشاب الفاشل الذي كان عليه، بجواده الأسود المطهم وملابس الحرير والذهب. كانت كل تلك الأشـياء قد انتهت وقد استبدلها بالإيمان الذي كان يشع حرارة تكفي لحرق كل أعداء الله (عزّ وجل).

عــندما أبعــد ناظريه عن الدخان، رأى جلال الدين أشقاءه ينتظرون بصبر ورؤوســهم منحنــية. وضــع يــده على كتف تامر فيما كان يتجاوزه، وصعد الــدرجات نحو قصر الأمير. أبعد جنود يرتدون دروعاً عيونهم عنه، ثم حدّقوا من الخلف إلى الشخص الذي يرتدي ملابس رثة وجاء لرؤية أميرهم. لم يرفع أحد يداً لإيقاف الرجل المبارك الذي كان قد أحضر جيشاً إلى بيشاور. مشى جلال الدين بخطوات ثابتة حتى وصل إلى قاعة الاستقبال. فتح العبيد الأبواب ولم ينحنِ عندما رأى الرجل الذي كان قد دعاه لزيارته.

كــان أمير بيشاور محارباً قصيراً، يرتدي قميصاً حريرياً يتوسطه نطاق نكاد يتحرك بحــرية على ردفه، وبالكاد يغطي قبضة سيف ذهبية. كانت ملامحه رقيقة وبدينة، بالــرغم من خصره النحيل، ولم يكن هناك الكثير ليذكّر جلال الدين بالفتى الذي كــان قد التقاه قبل وقت طويل. عندما اقترب جلال الدين، صرف الأمير الهندي المستشارين ونــزل عن العرش لينحني.

رفعه جلال الدين بيد واحدة، بالرغم من أن الانحناءة أسعدته.

"ألــسنا نــدّين يا نواز؟ تمنحني شرفاً عظيماً بحسن ضيافتك. لم يأكل رجالي جيداً منذ شهرين".

تــورد الأمير الشاب سعادة. حدّق إلى قدمي جلال الدين البنّيتين الداكنتين، اللــتين أتعــبهما تصلب الجلد والأوساخ. كشّر جلال الدين، متسائلاً كيف كان سيستقبل زائراً رثّاً عندما كان ابن شاه خوارزم.

رد الشاب أخيراً: "لقد سمعت أشياء رائعة يا جلال الدين. لقد تطوّع رجال من حرسي الخاص للقتال ضد هذا الخان الأجنبـي".

"أهلاً بهم يا صديقي، لكنني أحتاج إلى إمدادات أكثر من الرجال. إذا كانت لـديك جـياد وعـربات تعرضها عليّ، سأعانقك بامتنان. إذا كان لديك طعام لجيشي، سأقبّل حتى هذا الخف الذهبـي الذي تنتعله".

تورّد الأمير نواز خجلاً من تلك النبرة المتوسلة، وقد غمرته مشاعر جيّاشة.

"ينبغـي لـك أن تحـصل على كل تلك الأشياء. اطلب فقط أن تسمح لي بالخروج معك عندما تذهب شمالاً".

نظـر جلال الدين إلى الشاب، ورأى فيه شعلة من النار نفسها التي كانت تغذي جيـشه خـارج القصر. كانوا يتقدون حماسة، هؤلاء الشبان، سواء أكانوا أغنياء أو فقـراء، سعداء أو أشقياء في حياتهم. كانوا يرغبون في أن يقودهم أحد ما. كان ذلك هو السر العظيم الذي اكتشفه، بأن الكلمات الصحيحة ستجعلهم يتقدون حماسة لا يمكن إخمادها بعد ذلك أبداً. متسلحين بها، كانوا سينقلبون ضد قبائلهم، وحتى عائلاتهم، ليتبعوه. كان قد شاهد آباء يمشون مبتعدين عن زوجات وأطفال يبكون مـن دون أن ينظـروا إلى الخلف عندما جاؤوا إليه. لو أن والده كان قد اكتشف الكلمات المناسبة، لكان جلال الدين استطاع قيادة جيوشه إلى نهاية العالم.

أغمـض جلال الدين عينيه برهة. كان مرهقاً من الرحلة الطويلة عبر الجبال، وحتى رؤية نهر الإندوس الذي يغذي قارة لم تكن قد بدّدت قلقه. في البداية، كان قـد مـشى لأنـه لم يكن لديه جواد. بعد ذلك، كان قد مشى للتأثير في رجاله. بالـرغم من ذلك، كانت الأميال والتلال قد أضعفته وكان مغرياً أن يطلب تمضية لـيلة واحدة فقط في سرير بارد قبل أن يرسل أشقاءه ليجولوا في الأرجاء بحثاً عن طعام للجيش، وكان عليه أن يقطع تلك التلال مشياً مجدداً. قاوم، وكان يعرف أن ذلك سيجعله أقل شأناً في عيني الأمير. لم يرَ الشاب فيه نداً له، بالرغم من أنه كان يـرتدي ثـوباً يمكن لمتسول أن يسخر منه. بدلاً من ذلك، رأى نواز إيمانه وكان متواضعاً بحضوره.

تمالـك جـلال الدين نفسه، مدركاً أنه لم يكن قد تكلم منذ وقت طويل، وتمايل بدلاً من ذلك فيما كان يقف صامتاً.

أخـــيراً قـــال: "ألن يعترض والدك يا نواز؟ لقد سمعت أنه لا يؤمن بالرسالة العظيمة". شاهد وجه الأمير يتلوى نفوراً.

"إنه لا يفهم، ولديه ألف مقام ومعابد سخيفة. لقد منعني من الذهاب معك، لكـــن لا سلطة له علي! هذه الأراضي لي، وأمنحك كل ثروتها. لقد أقسم رجالي علـــى الـــوفاء لي وحدي ولا يستطيع والدي أخذهم مني. دعني أدعوك بالسيد، وأمشي إلى جانبك على الطريق".

ابتسم جلال الدين متعباً، وشعر بأن حماسة الشاب تخفف من الألم في عظامه.

"حسناً يا نواز. ستقود رجالك إلى الجهاد وردّ الكفار على أعقابهم. ستكون إلى جانبـــي وسننتصر".

الفصل الثاني والثلاثون

ابتسم جنكيز عندما رأى حفيده مونغكي يحرّك قدميه في ماء البحيرة. كان مستطلعوه قد عثروا على تجمع الماء ذاك على بعد مئات الأميال إلى الشمال - الشرقي من سمرقند، وقد أحضر الخيام والعائلات إلى هناك، بينما كان جيشه يحكم أراضي ومدن خوارزم. تحركت القوافل التجارية مجدداً، من روسيا وأراضي تشن، لكن كان يلتقيها آنذاك مسؤولون مغول درّبهم تيموج ويدعمهم محاربون. كان يتم الحصول على جزء من حمولة كل تاجر، لكن بالمقابل لم يكونوا بحاجة إلى حرّاس. كانت كلمة الخان تحمي الطرقات ألف ميل وأكثر في أي اتجاه من سمرقند.

كانت الجبال تحيط البحيرة والسهل، بعيدة عن بعضها بشكل لم يشعر جنكيز معه أنه محاصر. كان يعرف أن محاربيه سيراقبون على كل قمة، لكنه لم يستطع رؤيتهم. كان مريحاً نوعاً ما أن يعرف أن الجبال ستبقى موجودة عندما يتحول كل الذين على قيد الحياة إلى تراب.

كان أوجيدي قد شغل منصبه جيداً كوريث. كان جنكيز قد أرسله مع الفرق، وتعلم كل تفصيل عن الرجال الذين سيقودهم. كان ذلك متوقعاً، لكن جنكيز كان قد وضع أوجيدي مع تيموج، الذي علّمه كيف يمكن تزويد جيش بالطعام والملابس. تعلّم أوجيدي كل مهارة موجودة في القبائل، بالإضافة إلى اللغات وحتى الكتابة. لم يكن أحد يرى الوريث من دون مجموعة من المعلّمين خلفه، وبدا أنه يستمتع بذلك.

تمطّى جنكيز، وكان يشعر بالطمأنينة. كانت أصوات الحرب بعيدة في ذلك المكان وكان يستمتع بصرخات وضحكات الفتية في الماء، الذين يعرّضون أنفسهم لأشعة الشمس ويتعلمون السباحة مثل أسماك. كان بعضهم يغطسون تحت سطح

المـاء، يقذفون بأنفسهم عن صخور ويجعلون الماء يتناثر من حولهم. كانت أمهاتهم تنادي وتنظر بقلق إلى الأعماق، لكنهم كانوا دائماً يظهرون مجدداً، ينفخون ويضحكون على أولئك القلقين عليهم.

شعر جنكيز بيد صغيرة تشد طماقيه، ومدّ يده ليرفع كوبلي في الهواء. كان الفتى الصغير النحيل في الثالثة من عمره فقط، لكن منذ بلغ بضعة شهور، كان يبتسم كلما رأى جدّه. كان جنكيز قد أحبه.

برعشة، وضع الخان حفيده فوق كتفيه، ومشى إلى حافة الماء، وفزع قليلاً عندما أمسك كوبلي بشعره بقوة.

قال جنكيز: "لن أدعك تسقط أيها الفتى". رأى أن مونغكي لاحظ المعاملة النادرة، ورفع ذراعيه إلى الأعلى ليتم رفعه بالمقابل. هز جنكيز رأسه. "بعد قليل. حتى ذلك الوقت، سيبقى كوبلي".

نادى كوبلي من فوق رأسه: "قصة أخرى!".

فكّر جنكيز لبعض الوقت. كانت والدة كوبلي قد قالت إن حكاياته عنيفة جداً بالنسبة إلى الفتى الصغير، لكن بدا أن كوبلي يستمتع بها بالرغم من ذلك. رأى جنكيز أن سورهتاني تراقبه من بعيد على الشاطئ. في التاسعة عشرة من العمر، كانت قد أصبحت امرأة ذات جمال أخاذ. كان جنكيز يتساءل أحياناً كيف استطاع تولي الصغير الظفر بها.

"هل تريد أن تسمع عن خان الحشّاشين؟".

صرخ كوبلي فرحاً: "نعم، أخبرني!".

ابتسم جنكيز، واستدار يميناً ويساراً حتى قهقه الفتى من الحركات المفاجئة.

قال جنكيز: "كان رجلاً ضخماً، وذراعاه قويتين بما يكفي ليلوي قضيباً حديدياً. كانت لحيته مثل أسلاك سوداء وتمتد تقريباً إلى وسطه! التقيته قبل عامين في حصنه. وثب على ظهري عندما كنت أمر تحت قنطرة ولم أستطع الإفلات من قبضته. شعرت بيديه حول عنقي، تضغطان *وتضغطان* حتى ظننت أن عينيّ ستخرجان من وجهي!".

تظاهر بأن قبضة رهيبة تمسك به، وخرج مونغكي من الماء وراقبه بعينين تتسعان دهشة.

سأل مونغكي: "كيف تخلصت منه؟".
نظر جنكيز إلى الأسفل وفكّر للحظة.
"لم أستطع يا مونغكي. حاولت التخلص منه، كما أفعل مع كوبلي هنا، لكنه كـان أقـوى مني. ضغط بشدة أكبر وفجأة رأيت عينيّ تتدحرجان على الأرض أمامي".
سأل كوبلي مباشرة: "كيف استطعت رؤيتهما إذا كانتا على الأرض؟".
ضحك جنكيز، وأنـزله أرضاً.
"أنـت فـتى ذكـي يا كوبلي، لكنك محق. لم أستطع رؤيتهما. في الواقع، اسـتطعت رؤيـة نفسي، مع ثقبين حيث كانت عيناي والحشّاش لا يزال يتعلق بظهري. بالرغم من ذلك، عندما تدحرجت عيناي، رأيت ياقوتة كبيرة تلمع على جبينه. لم أعرف أنها نقطة ضعفه، لكنني كنت يائساً. بيديّ، أمسكت بها وانتزعتها مـن مكانهـا. تلاشت قوته معها، لأن الجوهرة كانت مصدر كل قواه. استعدت عـينيّ، وبعـت الياقوتة لشراء جواد أبيض. نجوت، لكن حتى اليوم عليّ أن أكون حذراً حتى لا تخرج عينيّ من مكانهما عندما أعطس".
قال مونغكي ساخراً: "هذا ليس صحيحاً".
قال كوبلي، مصمماً على الدفاع عن جدّه: "إنه كذلك".
ضحك الخان بصوت خافت.
"من يقول إنني أتذكر كل التفاصيل بوضوح؟ ربما لم تكن لديه لحية".
تأفف مونغكي وركل قدمه، لكن بدا أن جنكيز لم يلاحظ ذلك. عندما رفع مونغكـي وكوبلي ناظريهما إلى الأعلى، شاهدا أن جدّهما يحدّق إلى مسافة بعيدة، حـيث كان رجلان يندفعان على جواديهما فوق الشاطئ المفروش بالحصى نحوه. تغيّـر وجه الخان عندما رآهما، وراقب كلا الصبيين ما يحدث بنظرة ساحرة، من دون أن يفهما السبب الذي أدّى إلى تعكر مزاجه الطيب.
"اذهبا إلى والدتكما الآن. سأقص عليكما حكاية أخرى الليلة، إذا كان لديّ وقت".
لم يراقبهما جنكيز عندما هرولا مبتعدين، يبعثران الرمال والحصى بأقدامهما الحافيـة. بـدلاً من ذلك، شدّ قامته لاستقبال المستطلعين. كان يعرف الرجلين

اللــذين يتجهان نحوه. كان قد أرسلهما بعيداً عن العائلات منذ أكثر من عام، وزوّدهما بتعليمات محددة. كانت عودتهما تعني أنهما إما فشلا، أو عثرا على ابنه المفقــود. لم يستطع معرفة ذلك من وجهيهما عندما وصلا إليه وترجلا، وانحنيا كثيراً.

قال الأول: "مولاي الخان".

لم يكن لدى جنكيز صبر لسماع التحية المؤدبة.

قال بحدّة: "هل عثرتما عليه؟".

أومأ الرجل، وابتلع ريقه بعصبية.

"في أقصى الشمال يا مولاي. لم نتوقف لنتفقد الأمر عندما رأينا خياماً وجياداً من النوع الذي نعرفه. لا يمكن أن يكون أحداً آخر".

رد جنكيز: "خيام؟ لم يأخذ أياً منها معه. إذاً، لقد أقام مقراً بعيداً جداً عني. هل رآكما رجاله؟".

هزّ كلا المستطلعين رأسيهما بثقة مفرطة، وبقيا صامتين. لم يكن الخان يرغب في معــرفة التفاصيل وكيف كانا قد اقتربا زحفاً من مقر جوشي، وأخفيا نفسيهما في الثلج وكادا يتجمدان حتى الموت.

رد جنكيــز: "جــيد. لقــد أبليتما بلاءً حسناً. خذا ست مطيات جيدة من قطيعــي مكافــأة لكما، فرسين، وجوادين، ومهرين يافعين. سأوصي بكما عند قائدكما لإنجازكما هذا العمل".

انحــنى المستطلعان مجــدداً، فخورين بالنجاح فيما كانا يمتطيان جواديهما ويــنطلقان إلى متاهة الخيام على طول ضفاف البحيرة. بقي جنكيز وحيداً للحظة، ينظــر إلى المياه. طيلة حياته، لم يكن أحد قادته قد رفض له أمراً، أو حتى فكّر في خيانــته. ليس حتى اختفى جوشي، وأخذ معه سبعة آلاف محارب متمرس. كان جنكيــز قد أرسل مستطلعين في كل الاتجاهات، فتّشوا أراضي جديدة وقديمة بحثاً عــن ابنه. كان الأمر قد استغرق حوالى عامين، لكنه عثر عليه أخيراً. هزّ جنكيز رأسه عندما أصبحت أفكاره سوداوية. سينتهي الأمر بإراقة دماء، بعد كل ما كان قد فعله لتربية ابن رجل آخر كما لو أنه ابنه. كانت الأمة كلها تتكلم عن الجيش الذي اختفى، لكن ليس بحضور الخان. لم يكن جوشي قد ترك له خياراً.

نظر على طول الضفة إلى حيث كانت الخيام تتجمع، تغطي أميالاً من الأرض حـول الـبحيرة. كـان مكاناً جيداً، لكن الرعي كان سيئاً وتوجّب إعادة الماعز والأغـنام الـتي تتغذى عليها لذبحها كل يوم. كان الوقت قد حان للتحرك، كما فكّـر، مستمتعاً بالفكرة. لم يكن بمقدور قومه البقاء في مكان واحد، أو مشاهدة المنظـر نفسه، ليس والعالم واسع حولهم وفيه مجموعة لا تنتهي من الأشياء الغريبة الـتي يمكنهم رؤيتها. قوّس جنكيز ظهره، وشعر به يطقطق بشكل غير سارّ. رأى فارسـاً آخـر يخرج من الخيام وتنهد لنفسه. بالرغم من أن عينيه لم تكونا حادتين كمـا كانـتا من قبل، إلا أنه كان يعرف شقيقه كشيون من الطريقة التي يقود بها جواده.

انتظـر جنكيـز شقيقه، مستمتعاً بالنسيم البارد فيما الشمس تلهب الأرض بأشعتها. لم يستدر عندما حيّا كشيون سورهتاني والولدين.

قال جنكيز: "إذاً، لقد سمعت؟".

تقدم كشيون ليقف إلى جانبه، ونظر إلى المياه نفسها.

"المـستطلعان؟ لقـد أرسلتهما للعثور عليك يا شقيقي. لقد وجدا جوشي، لكنني لم آت لهذا السبب".

استدار جنكيز عندها، ورفع حاجبيه عندما رأى تعبير وجه شقيقه المتجهم.

"لا؟ ظنـنت أنك ستقدم إليّ الكثير من النصائح حول طريقة التعامل مع ابني الخائن".

تأفف كشيون.

"لا شـيء أقوله سيغيّر ما ستفعله يا جنكيز. أنت الخان وربما عليك أن تجعله عبرة للآخرين، لا أعرف. هذا قرارك. لدي أنباء أخرى".

نظـر جنكيز إلى شقيقه بإمعان، ورأى كيف حفرت التجاعيد وجهه الذي كـان رقـيقاً في ما مضى حول فمه وعينيه. كانت علامات التقدم بالعمر تظهر واضـحة عندما يبتسم، وهو الأمر الذي أصبح أقل منذ جاؤوا هذه الأراضي. لم يكن لدى جنكيز مرآة مثل تلك التي يصنعها تشن، لكنه افترض أن وجهه سيكون قد تغير بالقدر نفسه، أو حتى أكثر.

قال: "أخبرني يا شقيقي".

"هل سمعت بهذا الجيش في الجنوب؟ لقد أرسلت رجالاً لمراقبته بعض الوقت".
هزّ جنكيز كتفيه استخفافاً.
"كان تسوبودي وتشاغاتي قد أرسلا رجالاً لمراقبتهم. نعرف عن ذلك التجمع من المزارعين أكثر مما يعرفونه عن أنفسهم".
"إنهم ليسوا مزارعين يا جنكيز، وإذا كانوا كذلك، فقد أصبحت لديهم دروع وأسلحة الجنود. تشير آخر التقارير إلى ستين ألف رجل، إذا كان المستطلعون قد تعلموا العدّ إلى ذلك الحد".
"هل ينبغي لي أن أخشى ستين ألفاً فقط؟ إذاً، لقد ازداد عددهم. كنا قد راقبناهم عاماً أو أكثر. كانوا يصرخون وينشدون ويلوّحون بسيوفهم. هل هم قادمون نحونا أخيراً؟".
شعر جنكيز بيد باردة تقبض على بطنه بالرغم من كل نبرته المتعالية. كان قد سمع عن الجيش المحتشد وقائده المبجل بعد حوالى عام من عودته من معقل الحشّاشين. كان قادته قد استعدوا للهجوم، لكن مواسم انقضت ولم يتحرك أي جيش نحوهم. أحياناً، كان يظن أن تهديدهم فقط هو الذي يبقيه في تلك الأرض حيث تزعجه الحرارة والذباب كل يوم.
أجاب كشيون، مقاطعاً أفكاره: "ألقى رجالي القبض على ثلاثة منهم. إنهم قساة يا شقيقي، ويكادون يرغون زبداً عندما يدركون من نحن".
قال جنكيز: "هل جعلتهم يتكلمون؟".
"لم نستطع ذلك، وكان ذلك ما أدهشني. إنهم يطلقون تهديدات ويموتون بشكل فظيع. وحده الأخير أطلعني على شيء وكان ذلك اسم الرجل الذي يقودهم".
سأل جنكيز متشككاً: "من يهتم لأسماء؟".
"تعرف هذا الاسم: جلال الدين، الذي كان والده شاه خوارزم".
وقف جنكيز ساكناً من دون حراك عندما استوعب المعلومة.
"لقد أبلى بلاءً حسناً. كان والده سيفتخر به يا كشيون. ستون ألف رجل؟ على الأقل نعرف بالتأكيد أنه سينطلق نحو الشمال، طلباً لرأسي. لن يكون هناك المزيد من الكلام عن تطهير الهند، ليس بعد أن عرفنا أنه جلال الدين".

"لا يمكن أن يتحركوا قيد أنملة من دون أن أعرف يا شقيقي".

قـال جنكيز وهو يمعن التفكير في الأمر: "إذا انتظرناهم. أرغب في وضع حدٍّ لصراخهم مع فرقي".

فـزع كـشيون، وكان يعرف أنه إذا أراد أن ينصح جنكيز، فلا بدّ من أن يكون ذلك بطريقة مناسبة.

"كـان جيش الشاه أكبر بكثير، لكن لم يكن لدينا خيار آخر عندها. فرقتك وفـرقتي أثبتـتا مقدرتيهما. ذئاب تسوبودي الفتية ودببة جيبـي يضعون عشرين ألـف آخرين في الميدان. مع تشاغاتي، خاسار، وجيلم ثلاثون ألفاً. سبع فرق من المحـاربين المتمرّسين بالقتال. أوجيدي لم يشترك في معركة من قبل. لن أرغب في جعل رجاله يقفون ضد مثل ذلك الجيش".

"منحته ضباطاً جيدين يا كشيون. لن يخذلوه".

فكّـر جنكيـز في الخـيام على طول الضفة. كانت العائلات تنجب أطفالاً بـالآلاف كـل عـام، وكان العديد منهم ينضمّون إلى الفرق ليحلوا محل القتلى والجرحى. كان من الصعب إنشاء فرقة جديدة من أجل أوجيدي، لكن كان على وريـثه أن يتعلم القيادة وبقي القادة الآخرون يلتمسون تزويدهم بالرجال عاماً بعد عـام. لم يذكر خططه لتشكيل فرقة تاسعة يقودها تولي. كانت زوجة ابنه الصغير قـد فاتحته بالموضوع قبل بضعة شهور. نظر جنكيز إلى حيث كانت تلعب آنذاك مـع كوبلي ومونغكي، ترمي بهما واحداً تلو الآخر في الماء، وكان ذلك يجعلهما يصرخان سعادة.

"اعثـر على نائب جيد لأوجيدي يا خاسار. شخص يستطيع منعه من فعل شيء أحمق حتى يتعلم".

رد كـشيون: "بالـرغم من ذلك، ثماني فرق ضد العدد نفسه تقريباً؟ سنفقد الكثير من الرجال الجيدين". تردد واستدار جنكيز نحوه.

"لم تقلق بشأن الأرقام من قبل يا شقيقي. انطق بما لديك، مهما يكن".

سحب كشيون نفساً عميقاً.

"لقـد أحـضرتنا إلى هـنا لنثأر للرجال الذين قتلهم الشاه. لقد فعلت ذلك ورددت ديـن مـوتهم ألف مرة. لماذا نبقى هنا ونخاطر بفتياننا؟ أنت لا تريد هذه

الأراضــي والمــدن. كم مرّ من الوقت منذ رأيت جبال الديار آخر مرة؟". توقف ليشير إلى القمم حول البحيرة. "هذه ليست الجبال نفسها".

لم يردّ جنكيز لمدة طويلة. عندما تكلم أخيراً، كان يزن كل كلمة بعناية.

"لقــد جمعت القبائل معاً لإبعاد قدم تشن عن أعناقنا. ثم *أبعدَها* عنا وجعلنا إمــبراطورهم ذليلاً في عاصمته. كان ذلك دربــي الذي سلكته واخترته وقاتلت من أجله. كنت أريد إبعاد تشن عنا أكثر يا كشيون، حتى يصلوا إلى البحر في كل الاتجاهــات. لم أكــن لآتي إلى هـــنا لو أنهم لم يستفزّوني. لقد جرّوا ذلك على أنفسهم".

قال كشيون بهدوء: "ليس علينا أن نحارب العالم كله".

"أنــت تطعــن في الســن يا كشيون، هل تعرف ذلك؟ تفكر في المستقبل، الــزوجات والأولاد. لا تغمغم يا شقيقي، لأنك تعرف أنني محق. لقد نسيت لماذا نفعل هذا. شعرت بالشيء نفسه لبعض الوقت في سمرقند. قلت لأرسلان إن هؤلاء الــناس يعيشون وقتاً أطول منا ويحيون حياة أكثر أمناً وسهولة. إنهم *كذلك*، مثلما تعــيش الجمــال والأغنام بسعادة في السهول. يمكننا اختيار ذلك لبعض الوقت، بالرغم من أن الذئاب ستبقى تأتي من أجلنا في نهاية المطاف. نحن رعاة يا كشيون. نعرف كيف يسير العالم حقاً وكل شيء آخر مجرد وهم".

نظــر إلى حفــيديه، ورأى ســورهتاني تمــشّط شعريهما فيما كانا يتلويان ويكافحـــان للإفلات منها. كان شعرها طويلاً وأسود وقد أعجبته فكرة أن يحصل لنفســه علـــى زوجــة شابة أخرى مثلها تجعل سريره دافئاً. كان واثقاً أن ذلك سينعشه.

قال: "يا شقيقي، يمكننا أن نحيا حياتنا بسلام، وهكذا يمكن لأبنائنا وأحفادنا أن يعيــشوا حــيا*تهم* بسلام، لكن ما الفائدة؟ إذا عشنا جميعاً إلى الثمانين في حقل أخــضر، من دون أن نحمل قوساً أو سيفاً، فنكون قد أضعنا سنوات جيدة. عليك أن تعــرف حقيقة الأمر. هل سيشكرنا أحفادنا على تلك الحياة المسالمة؟ فقط إذا كانوا خائفين جداً من حمل السلاح. لن أرغب في حياة هادئة لأعدائي يا كشيون، ناهيك عن عائلتي. حتى المدن لا تزدهر سوى عندما يكون هناك رجال قساة على الأســـوار، مستعدين للوقوف والموت كي يتمكن آخرون من النوم بسلام. في ما

يخــصنا، نحــن جميــعاً نقاتل، من الصرخة الأولى حتى النفس الأخير. إنها الطريقة الوحيدة التي نفتخر بأنفسنا من خلالها".

قال كشيون بحدة: "أنا فخور بنفسي فعلاً لكن ذلك لا يعني...".

رفع جنكيز يده. "ليس هناك *لكن* يا شقيقي. سيندفع جلال الدين هذا شمالاً مــع رجاله ويمكن أن نهرب أمامهم. يمكن أن نتركه يستعيد كل مدينة حظينا بها، وينــصّب نفــسه شاهاً مكان والده. قد يفكر مرّتين قبل أن يستفزّني مجدداً عندما أرســل مبعوثين إليه. لكنني جئت إلى هذه الأراضي لأنه عندما يهدّدني رجل ولا أهتم لذلك، يكون قد أخذ شيئاً مهماً مني. إذا قاتلت ولقيت حتفي، كل ما يمكن أن يأخذه هو حياتي. ستبقى شجاعتي وكرامتي. هل ينبغي لي أن أفعل أقل من ذلك للأمة التي جمعتها؟ هل ينبغي لي أن أجعلهم أقل شرفاً مما أدّعي لنفسي؟".

تمتم كشيون: "فهمت".

"تأكــد من أنك تفهم يا شقيقي، لأنك ستخرج معي لنواجه هذا الجيش. سننتــصر أو نموت، إما هذه أو تلك. لكنني لن أشيح بصري بعيداً عندما يأتون. لن أطأطئ رأسي، وأجعلهم يسحقونني بأقدامهم". توقف، وأطلق ضحكة قوية. "كــنت سأضــيف أن لا أحد سيقول أبداً إنني هربت من معركة، لكن أرسلان ذكّــرني بــشيء في سمرقند. ليس مهماً ما يفكر فيه الآخرون بشأن الطريقة التي عشت بها حياتي. ليس مهماً إن سجّلنا تاريخٌ تيموج كطغاة أو حتى جبناء. كل مـــا يهـــم هو ما نفعله الآن. نحن نحكم أنفسنا بأنفسنا يا كشيون، تذكر ذلك. سيكون لدى أولئك الذين يأتون بعدنا اختبارات أخرى، ومعارك أخرى ليقلقوا بشأنها".

رأى أن كشيون دقّق السمع، وحاول على الأقل أن يفهم. ربّت جنكيز على كتفه.

"لقــد قطعنا شوطاً طويلاً يا كشيون. لا أزال أتذكر الأيام الأولى، عندما لم يكــن هناك أحد غيرنا، وكنا نتضوّر جوعاً. أتذكّر أنني قتلت بكتر، وأتمنّى أحياناً أن يكــون هـــنا ليرى ما حققناه. ربما أنا وأنت بنينا شيئاً سيستمر ألف جيل، أو يختفـــي معنا. لا أعرف، ولا أهتم لذلك يا شقيقي. لقد أصبحت أقوى لأهزم أعداء أشدّاء. أرغب في أن تزداد قوة هذا الجيش من الجنوب".

قال كشيون: "أنت رجل غريب. ليس هناك أحد مثلك، هل تعرف هذا؟". توقّع أن يبتسم جنكيز، لكن شقيقه هزّ رأسه.

"احـرص علـى ألا تمتدحني كثيراً يا شقيقي. ليست لدي مقدرة خاصة، سوى اختيار رجال جيدين ليتبعوني. كذبة المدن الكبرى هي أننا ضعفاء جداً للوقوف ضد أولـئك الـذين يضطهدوننا. كل ما كنت قد فعلته هو كشف تلك الكذبة. أنا أقاتل *دائمـاً*، يا كشيون. يعتمد الملوك والشاهات على بقاء شعوبهم نائمة، وخائفة جداً من الثورة ضدهم. كل ما فعلته أنني أدركت أن بمقدوري أن أكون ذئباً بالنسبة إليهم".

أومـأ كـشيون، وتلاشى قلقه متأثراً بعيني شقيقه الشاحبتين. قاد جواده إلى جانـب جنكيز، وعاد كلا الرجلين إلى الخيام ليأكلا ويرتاحا. عندما اقتربا، تذكر كشيون وصول المستطلعين.

"وجوشي؟ هل اتخذت قراراً؟".

زمّ جنكيز شفتيه لدى ذكر الاسم.

"أخذ سبعة آلاف رجل مني يا كشيون. لا يمكنني الصفح عنه من أجل ذلك. لو أنه ذهب وحده، لربما كنت قد تركته ليعثر على دربه. لقد سرق عُشر جيشي، وأريد استعادته".

قال كشيون مندهشاً: "هل ترغب في استعادتهم؟ بصدق؟".

"ظنـنت في البداية أنني سأقتلهم، لكن كان لدي وقت للتفكير عندما كنت أنتظر الأنباء يا كشيون. تركوا زوجاتهم وأولادهم وتبعوه، تماماً كما تبعني آخرون وتخلوا عن كل من يعرفونهم أو يحبونهم. من بين كل الرجال، أعرف ما يمكن لقائد أن يفعلـه. سمحوا لأنفسهم بأن ينقادوا خلفه، لكنني أحتاج إليهم الآن، إذا كان جـلال الدين يعد جيشاً ليهاجمنا. أرسل مستطلعين لاستدعاء تسوبودي. جوشي يقدّره أكثر من أي شخص آخر. سيجعله يتكلم".

جاء تسوبودي، بالرغم من أنه كان يشعر بثقل في صدره. كان المخيم الكبير مشغولاً بنبأ العثور على جوشي، وكان قد تمنّى ألا يطلبه جنكيز. وجد جنكيز مع أوجيدي، يراقب ابنه يدرب شبانه. أشار إليه الخان بأن يتبعه، وانطلقا مبتعدين عن الفرق المحتشدة، ودفعا جواديهما معاً مثل صديقين قديمين.

خفــق قلب تسوبودي بقوة فيما كان يصغي إليه. كان يوقّر جنكيز منذ المرة الأولى الــتي التقى فيها بالرجل الذي كان قد صهر الأمة من قبائل متناحرة. كان موجــوداً عــندما استولوا على الحصن الأول في كزي كزيا، ثم المنطقة نفسها. لم يكن تسوبودي متواضعاً. كان يعرف أنه قد لعب دوراً حيوياً في نجاح الخان. كان جنكيز يعامله باحترام وردّ تسوبودي بطريقة لم يفعلها رجل آخر على قيد الحياة. بالــرغم مــن ذلــك، كان الذي يطلبه منه يجعله يشعر بالمرارة والألم. أخذ نفساً متهدجاً فيما كان جنكيز ينظر إليه، ينتظر ردّه.

"يا مولاي الخان، لا أريد القيام بهذا. اطلب مني أي شيء آخر وسأفعله، أي شيء".

شــدّ جنكيز لجام مطيته، وأدار جواده حتى واجه قائده. كان الرجل لامعاً، وأكثــر موهــبة من أي شخص آخر عرفه جنكيز، لكنه كان يطلب الطاعة أولاً ووحدها دهشة الخان منعت رداً حاداً.

"إذا أرسلت خاسار، أو كشيون، أظن أن جوشي سيقاوم. لقد خرق رجاله مواثــيق ليتــبعوه. لن يترددوا في القتال ليمنعوا الوصول إليه. أنت الرجل الوحيد الذي يمكنه التكلم معه يا تسوبودي. أنت الوحيد الذي يمكنه الاقتراب منه".

أغمض تسوبودي عينيه للحظة محتاراً. لا بد من أن جنكيز كان يفهم كيف ينظر جوشي إليه وإلا لما كان قد اختاره لتلك المهمة.

"يــا مولاي، لم أرفض لك طلباً من قبل، أبداً. تذكر ذلك عندما تطلب مني القيام بهذا".

"لقد درّبته عندما كان لا يزال فتيّ، لكنني حذّرتك عندها أن دمه فاسد، وأنه قــد ينقلب ضدك في أي لحظة. كنت محقاً، أليس كذلك؟ لقد عهدت له بمحاربين وسلطة وقد استولى عليهم وهرب. كأحد قادتي، قل لي كيف ينبغي لي أن أتعامل مع مثل ذلك الرجل!".

شــدّ تسوبودي قبضتيه على اللجام. لم يقل إن جنكيز كان قد جلب ذلك علــى نفسه، وإن الفخر الذي خصّ به تشاغاتاي قد أشعل نار جوشي التي لم تُبقِ على شيء سوى الكراهية. لم يكن أي من ذلك مهماً للخان الجالس أمامه. جرّب طريقة مختلفة يائساً.

"علــى الأقــل انتظر حتى نكون قد انتهينا من ابن الشاه يا مولاي. رجالي مهمــون هناك. إذا أرسلتني في مهمة بعيداً الآن، سأغيب لستة شهور أو أكثر. إذا هاجمونا قبل ذلك، فسأكون عديم الفائدة لك".

خفض جنكيز حاجبيه، وازداد غضبه لأن القائد كان لا يزال يعارض.

"ليس لدى هذا الأمير سوى ستين ألفاً يا تسوبودي. يمكنني إرسال فرقتين أو ثــلاث والقــضاء عليه في مكانه. هذا ما يهمني أكثر. أنت الرجل الوحيد الذي سيتكلم معه جوشي. إنه يحترمك".

قــال تسوبودي بهدوء: "أعرف ذلك". شعر بالغثيان ممزقاً بين الطاعة للخان وصــداقته مــع جوشــي. لم يكن مفيداً أن عقله التكتيكي كان يرى الحقيقة في كلمــات جنكيز. كان تسوبودي يعرف أنه يستطيع الاقتراب من جوشي بخلاف أي شــخص آخــر. جلس يائساً على صهوة جواده عند شاطئ البحيرة. بدا أن جنكيز يشعر بتعاسته الشديدة ورقّ وجهه وصوته قليلاً.

"هل كنت تعتقد أن كل أوامري ستكون سهلة يا تسوبودي؟ وأنني لن أطلب أبداً شيئاً صعباً؟ قل لي متى يُختبر الرجل. هل يكون ذلك عندما يُصدر خانه أوامر له بخوض معركة مع محاربين يتمتعون بمهارة وشجاعة كبيرتين؟ أم أنه الآن، عندما يُكلّــف بمهمــة لا يريدها؟ أنت الأفضل بين كل قادتي يا تسوبودي. سأخوّلك بالتالي: إذا كنت ترى طريقة أخرى، قلها لي الآن وسأجرّبها".

كــان تسوبودي قد فكّر، وقلّب اثنتي عشرة خطة في ذهنه، لكن أياً منها لم تكن تستحق أن ينطق بها. يائساً، حاول مرة أخرى.

"الفــرق تــتجمع يا مولاي. دعني أبقى معها وسنشن الحرب على الأمير في الجــنوب. أنا أفضل لك هناك. إذا أرسلتني شمالاً، فستفقد فرقتي أيضاً، في الوقت الذي تحتاج فيه إلى كل رجل".

"اســتغرق مني الأمر أكثر من عام لأعثر عليه يا تسوبودي. إن كان قد رأى المستطلعين، فسيكون قد غادر الآن. يمكنك أن تتبّع آثاره، لكن هل يمكنك أن تعثر عليها بعد عام من الآن؟ لقد حان وقت معالجة الأمر بهدوء. أنت أحد قادة فرقي، لكــني ســأبدأ هذه الحرب من دونك إذا جاؤوا. انضم إليّ عندما تعود أو ردّ لي *علامات القيادة التي منحتك إياها!*".

أخـــيراً، ظهر غضبه، وكاد تسوبودي يجفل منه. كانت حجج الخان ضعيفة وكلاهمـــا يعـــرفان ذلـــك. كان جنكيز مهووساً بمعاقبة جوشي. كانت تلك هي الحقـــيقة التي يمكن سماعها همساً بين كلماته. لم يكن ممكناً التكلم مع الخان بالمنطق فيما قلبه مليء بالمرارة. أحنى تسوبودي رأسه، مغلوباً على أمره.

قـــال: "حسناً. سأنطلق سريعاً وبعيداً يا مولاي. إذا جاء الأمير مع جيشه من الجنوب، ابحث عني في التلال".

الفصل الثالث والثلاثون



شعر مستطلع المغول بشيء. كان قد تبع رجلين إلى الجبال طيلة ثلاثة أيام كاملة، وبقي بعيداً عنهما يراقب بحذر تقدمهما. كانا قد قاداه عميقاً في متاهة الوديان والجبال العالية حول وادي بانجشير وبلدة بروان الأفغانية بحصونها العتيقة. كان بلداً صعب التضاريس، لكن المستطلع كان خبيراً ويعرف كل شبر من الأرض. في الظلام الحالك، لم يكن يستطيع متابعة الآثار وبحث عن ملاذ آمن لتمضية الليل. كان يزعجه أنه أضاع الرجلين. كان شيء بشأنهما قد أثار فضوله منذ رآهما. من بعيد، كانا يبدوان مثل رجلين من قبائل التلال الأفغانية، يلفان رأسيهما بقطعتي قماش ليحميا وجهيهما من الشمس والريح. بالرغم من ذلك، كان هناك شيء غريب بشأنهما وقد جذبه إليهما. في الوادي، شعر بحكّة، كما لو أن شخصاً كان يراقبه. هل يعقل أن يكونا قد أعدّا كميناً؟ كان ذلك محتملاً. كانت قبائل التلال تعرف الأرض أفضل منه. كانا يتحرّكان مثل أشباح عندما يريدان، وكان المستطلع على وشك أن يتراجع ويعثر على الآثار مجدداً عندما ظهرت الشمس. تردد، جلس ساكناً من دون حراك، وأرهف السمع لأي صوت في الريح التي كانت تهب على التلال.

سمع طقطقة قوس، لكنه لم يكن سريعاً بما يكفي ليلقي بنفسه جانباً. أصابه السهم بقوة في صدره، ولم يكن يرتدي درعاً تحميه. تأوه المستطلع، وتراجع في السرج. أمسكت يداه بقربوس السرج الخشبي بين ساقيه، وأبقتاه ثابتاً فيما كان جواده يصهل مضطرباً. استنشق الهواء، وبصق دماً فيما كان يشد اللجام. كانت عيناه قد ذرفتا دموع الألم وفقد الوعي فيما كان يدير مطيته، واثقاً من أنها ستجد طريق العودة.

طن سهم آخر في العتمة، اخترق ظهره، وأصاب قلبه. وقع من تأثير الصدمة، وانــــزلق من فوق رأس الجواد. كان سينطلق مسرعاً، لكن رجلين جاءا يجريان نحوه، وأمسكا بلجامه.

قال الرامي للرجل معه: "لقد مات".

ألقى جلال الدين بيده على كتفه.

"كان ذلك عملاً جيداً في هذا الضوء".

هـــزّ الرامي كتفيه، ورفع السلك من القوس، ووضعه بعناية في كيس مربوط إلى خــصره. كـــان يعرف أنها إصابة رائعة، وربما أفضل ما يمكن لأمير بيشاور أن يقدّمــه. كـــان سيده قد عرض خدماته على جلال الدين، لكن ولاء الرامي كان للأمير فقط، وليس لذلك الرجل المبارك رث الملابس. بالرغم من ذلك، كان جلال الدين يعرف العدو بوضوح. كان بمقدوره توقع حركة المستطلع، وجذبه بما يكفي ليجعله في مرمى السهم.

بـــدا أن جلال الدين يشعر بالطريقة التي يفكّر فيها الرامي، بالرغم من العتمة في الوادي.

قـــال بهدوء: "اقلع عيونهم ولن يكون هؤلاء المغول مخيفين كما يبدون. لقد وجّه الله (عزّ وجل) سهمك يا صديقي".

أحنى الرامي رأسه احتراماً، بالرغم من أنه كان حرفياً ويفتخر بمهاراته.

"هل سيكون بمقدورك تحرير حصن بروان يا سيدي؟ لدي صديق قديم يعيش في البلدة. سأود أن أعتقد أن بمقدورنا إخراجه حياً".

ابتسم جلال الدين في الظلام.

"لا شك في ذلك يا صديقي. بحلول الصباح، لن يستطيع المغول رؤية شيء، بعد موت مستطلعيهم. سنخرج من التلال ونسقط عليهم مثل انهيار أرضي".

مـــع بـــزوغ الفجر، كشفت الشمس الأراضي الترابية حول بروان والحصن الـــذي ينتصب خلفها. كان أربعة آلاف مغولي يحيطون ببرج القلعة العالي، الباقي من الأيام التي جاءت فيها فرق غازية إلى الإقليم من التلال. كان سكان البلدة قد هجروا ممتلكاتهم ليندفعوا داخل الأسوار آمنين لبعض الوقت.

كان المحاربون المغول قد حاصروا الحصن تماماً، يعرفون أنه لا يوجد الكثير من الماء في الداخل. كان نهر عميق يجري عبر الوادي وكان بمقدورهم سقاية جيادهم بحرية فيما لا يشعر أولئك الذين في الحصن سوى بالجفاف في حلوقهم. جال بعض المغول البلدة المهجورة في أثناء انتظارهم. كان آخرون قد بنوا جسراً فوق النهر كي يستطيعوا الصيد في التلال المليئة بالأشجار خلفه. لم يكونوا على عجلة من أمرهم. كان الحصن سيسقط، وسيقبل مكان آخر حاكماً جديداً، أو يتم تدميره عن بكرة أبيه. كان الضباط مبتهجين فيما كانوا يراقبون ضوء الشمس يمد ظلالاً عبر الأرض الترابية. لم يكونوا بحاجة إلى البلدة، أو أي شيء فيها، لكنها كانت تقع على درب إلى الغرب وكان جنكيز قد أمر بجعل الطريق خالياً.

بعد عامين من قيام جنكيز وتسوبودي بالهجوم على الحشّاشين، أصبح ذلك العمل شائعاً. كانوا يضعون دائماً رجالاً مشوهين أو كباراً في السن لإدارة حصون على الطريق. كانت الجزية تأتي على شكل ذهب، عبيد أو جياد وكان كل موسم يعني تشديد القبضة على الأراضي الأفغانية. كان هناك دائماً أشخاص يرفضون أن يحنوا رؤوسهم لحكّامهم الجدد، لكن إذا قاتلوا، كان يتم قتلهم عن بكرة أبيهم. كان البرج الحجري العتيق في بروان يلبـي احتياجات المغول، وكان سكان البلدة قد فقدوا كل أمل بمرور الأيام وجفاف البئر الصغيرة الوحيدة. لم يكونوا يعرفون شيئاً عن الحرب الضروس التي تدور من حولهم، وإنما يعرفون أن قوة متجهمة من محاربين قساة تنتظر خارج السور.

خرج جلال الدين من الجبال مع ارتفاع الشمس، وكانت كلمات صلاة الفجر لا تزال رطبة على شفتيه. كان أفضل متعقّبي الأثر لديه يعرفون هذه المنطقة أفضل من أي مستطلع مغولي على قيد الحياة، وكانوا قد قضوا عليهم في الوديان، حتى سقط آخر مستطلع تحت ناظري جلال الدين. لم يكن لدى القوة المغولية أي إنذار عن الهجوم. تهلل جلال الدين عندما اندفع رجاله نـزولاً نحو وادي بانجشير، ونهره يلمع في الشمس. لم يكن لدى المغول وقت ليركضوا نحو جيادهم قبل أن ينتظم جيشه في تشكيله القتالي. كان قد استنهض همم رجاله بالإيمان وقد لبوا النداء، ومشوا أو قادوا جيادهم إليه من بعد آلاف الأميال. كان

التـــركمان قد جاؤوا، وبعضهم يجيدون استعمال القوس مثل المغول أنفسهم. كان المحاربون البربر إلى يساره، ويشاطرونه الإيمان نفسه وليس فقط الدم الذي يجري في عروق جلال الدين.

اســتقبلهم المغول بسهام تطنّ في الهواء، لكن جلال الدين كان يعرف عدوه وكـــان كــل رجالـــه يحملـــون تروساً طويلة من ألواح الخشب والجلد المدبوغ. مدعومين بذهب الأمير، كان قد اكتشف تصميماً يجدي نفعاً ضد سهام المغول و لم يسقط سوى بعض من رجاله في الضربات الشرسة الأولى. مع اقتراب القوتين من بعـضهما، انطلـق جلال الدين على جواده بشجاعة منقطعة النظير، يصرخ عالياً وغيّر المغول هدفهم نحو جياده الثمينة. كانوا قد وضعوا عليها أيضاً أفضل الدروع الـتي يمكـــن لبيـــشاور إنتاجها، وتتألف من قطع معدنية تتداخل مع بعضها فوق وجوهها الطويلة وصدورها. كانت الدروع تجعلها أبطأ في الهجوم، لكن السهام لم تكن تستطيع القضاء عليها بسهولة.

ضــربوا صــفوف المغول التي تشكلت أمامهم، وأحدثوا فيها فوضى عارمة، واشــتبكوا بقوة كبيرة مع رجال لم يتزحزحوا من أماكنهم. كان الوابل الأخير من الـــسهام قد أصاب رجاله وحتى دروعهم وتروسهم لم تكن كافية لحمايتهم على مـــثل تلـــك المسافة القصيرة. رآهم جلال الدين يسقطون، لكنه كان عندها بين الأعـــداء، يلـــوّح بسيفه. أخطأ ضربته الأولى نتيجة تعطشه للثأر، ولهذا شق سيفه خـــوذة محـــارب مغولي. منحت سرعته الضربة قوة ولهذا طار الرجل إلى الخلف، ووقـــع مباشرة تحت الحوافر. كان جيش جلال الدين قد نجا من الاشتباك الأول، وتراجع قلب جيش المغول بارتباك.

شاهد جلال الدين تشكيلين ينتظمان على الجناحين، وكان أمير بيشاور هناك ليرسل رجاله حولهم ومن خلفهم، وأوقعوا التشكيلين في فخ قبل أن يبدأا المناورة. لم يكـــن المغول قد قاتلوا أبداً رجالاً يعرفون خُدَعَهم وتكتيكاتهم جيداً مثل جلال الـــدين. صرخ، يتملّكه الغضب والفرحة عندما تراجع المغول، وأبواق مستطلعيهم تصدح بالانسحاب.

بالرغم من ذلك قاتلوا وكانت المذبحة رهيبة عندما ضغط جيش جلال الدين علـــيهم كثيراً. حافظ المحاربون على تشكيل منضبط، وانسحبوا بمجموعات فيما

كانت الصفوف الأقرب تحميهم بالسهام والسيوف. رفع جلال الدين يده، وشُدّت أقواس على طول صفه الأول. عندما اتسعت الثغرة، أرسلوا وابلاً على المغول، وكان كل رجل يسدد على رماة العدو الذين لا يرتدون دروعاً. لقي العشرات منهم حتفهم، وتقدم جيش جلال الدين، خطوة بعد أخرى، وأرغموهم على الانسحاب من الحصن فيما كان مواطنو بروان يهتفون على الأسوار.

لم يكن النهر إلى جانب البلدة يبعد أكثر من ميل عندما تخلى المغول عن القتال وتسابقوا نحو الجسر. دفع جلال الدين جواده للجري بسرعة خلفهم مع رجاله، عاقداً العزم على قتلهم. كان قد رآهم منتشين بالنصر عدّة مرات و لم يكن سعيداً بذلك المنظر. انطلق برشاقة، والنسيم البارد يلامس وجهه.

لم يتوقف المغول عند الجسر. دفع المحاربون الناجون جيادهم للجري فوقه من دون إبطاء، وخاطروا بحياتهم في ذلك الحشد من الرحال. كان متيناً و لم يتردد رجال جلال الدين في اللحاق بهم.

رأى جلال الدين محاربي المغول يقفزون عن جيادهم ويضربون بفؤوسهم حبال وألواح الجسر الخشبية، متجاهلين أولئك الذين ينطلقون خلفهم. ربما كان مئة من فرسانه قد عبروا آنذاك، وبوضوح تام، رأى جلال الدين المغول يحاولون قطع القوة إلى نصفين، ويتركون أولئك الموجودين إلى جانب الحصن يائسين فيما يتحولون نحو الباقين مثل كلاب مجنونة. كانت رؤية مثل ذلك التفكير الهادئ قد كبحت جماح انطلاقته، وشدّ لجام جواده. كان يستطيع توجيه رجاله لقتل أولئك الذين يضربون بفؤوسهم دعائم الجسر. إذا صمد، فسيدمر قوات المغول عن بكرة أبيها، لكن إذا سقط، فسيموت الكثير من رجاله. كان قد فعل ما يكفي، كما فكر. كان قد أثخن بالجراح عدواً لم يكن قد عرف الهزيمة من قبل. تناول بوقاً من خصره، حيث كان معلقاً بحزام. كان يعود في ما مضى إلى أحد مستطلعي المغول، لكن رجاله كانوا مستعدين للنغمة.

استدار أولئك الذين لم يكونوا قد وصلوا بعد إلى الجسر عائدين، وشكّلوا صفوفاً تلمع، تهتف ابتهاجاً بالنصر. ابتعد أولئك الذين كانوا قد تجاوزوا الجسر عن العدو، وبدأوا يتراجعون عبر النهر. شاهد جلال الدين بفخر أنهم يتبعون أوامره من دون سؤال، ويرفعون تروسهم لتحميهم من السهام التي انهمرت عليهم.

ســقط الجسر، ووقع في النهر ليتناثر الماء من حوله. ربما كان خمسون من رجالـه لا يزالون إلى الجانب الآخر ودفع جلال الدين جواده إلى الحافة، ونظر إلى الأسفل نحو المياه. كانت عميقة جداً، كما ظن. ربما يستطيع الرجال جعل جيادهم تسبح فيها في يوم آخر، لكن ليس ورماة العدو مستعدين لسحقهم عندما يدفعون بمطـيالهم لتجاوز الضفة. رفع جلال الدين سيفه لتحية أولئك الذين يشاهدونه عن الطرف الآخر للنهر، أعداء وأصدقاء على حدٍّ سواء.

رد رجاله التحية، وأداروا جيادهم إلى الخلف، واندفعوا نحو المغول في هجوم أخير. تم القضاء عليهم، بالرغم من أن كل رجل اندفع من دون خوف، وقتل أكبر عدد ممكن من الأعداء.

واجهــت القوتان بعضهما من فوق ضفتيْ النهر، تلهثان وتنــزفان. لم يكن جــلال الدين يستطيع وصف بمجة تلك اللحظة. رأى الضابط المغولي يدفع مطيته للهــرولة على الضفة المقابلة، وللحظة، حدّقا إلى بعضهما. هزّ المغولي كتفيه على قافلة القتلى التي تمتد إلى الحصن البعيد. رفع سيفه عندها، مقلداً إشارة الاحترام قبل أن يُديــر مطيته، وينطلق مبتعداً. كان جنكيز سيسمع و لم يكن ضابطه بحاجة إلى إطلاق تهديدات نيابة عنه.

قــال كشيون بمرارة: "الخبر على لسان كل مدينة. قبل الآن، كانوا يرون أننا لا نُقهــر. هذا صدع في ذلك المعتقد يا شقيقي. إذا تركنا الأمر يمر من دون ردّ، مجــرد موســم واحد، فستزيد ثقتهم بنفسهم وسينضوي المزيد منهم تحت رايات جلال الدين".

"غــارة واحدة ناجحة لا تصنع قائداً يا كشيون. سأنتظر عودة تسوبودي". أشــار جنكيــز بنــزق إلى السهل المكشوف الذي كان قد اكتشفه، ويبعد ثمانين مــيلاً إلى الجــنوب من البحيرة التي تعلم فيها كوبلي ومونغكي السباحة. لم تكن الأمة تستطيع البقاء طويلاً في أي مكان. كان صعباً العثور على أعشاب خضراء في هــذه الأراضي، لكن العالم كان كبيراً ولدى جنكيز موقعين ينتقل إليهما في شهر آخــر. كانت تلك ببساطة طريقة حياتهم و لم يكن يفكر فيها وإنما يتخذ قرارات ســريعة عندما يحين الوقت. أزعجه صوت كشيون، وقاطع أفكاره بشأن جوشي

وتسوبودي. كان صحيحاً أن جيش جلال الدين قد قتل أكثر من ألف من رجاله، وقد أثارت الحادثة موجة اضطراب سرت في المدن العربية. لم تصل الجزية الأولى المفروضة على مدينة هرات الأفغانية، وتساءل جنكيز إن كانت قد تأخرت أم أنهم قرروا الانتظار ورؤية ما سيفعله.

انتظر كشيون، لكن عندما لم يقل جنكيز شيئاً، تكلم مجدداً، وكان صوته حاداً.

"كان الرجال الذين لقوا حتفهم من فرقتي يا جنكيز. اسمح لي على الأقل بالتجول في المنطقة وإثارة غضب هذا الأمير الوغد. إذا كنت لن تمنحني الجيش، دعني أغير على صفوفه، أضربها وأختفي في الليل كما كنا قد فعلنا من قبل".

"عليك ألاّ تخشى هؤلاء المزارعين يا شقيقي. سأتعامل معهم عندما أعرف أن تسوبودي قد عثر على جوشي".

تمالك كشيون نفسه، واحتفظ بالأسئلة التي كان يرغب في طرحها. لم يكن جنكيز قد أطلعه على أوامر تسوبودي ولم يكن ليستحدي ذلك، بالرغم من أنه أراد كثيراً معرفتها. كان لا يزال يجد صعوبة في تصديق أن جوشي قد أخذ رجاله بعيداً وحاول الانشقاق عنه. كان الجميع يعرفون أن جوشي قد تعرض للاستفزاز، ولم يكن في وسع كشيون أحياناً سوى أن يلعن جهل الأب الذي كان قد قاد إلى ذلك، لكن حقيقة الخيانة كانت قد أذهلتهم جميعاً. لم يكن أحد قد انقلب على الرجل الذي كان قد صهر الأمة. بالرغم من كل أخطائه، كان جنكيز مبجلاً ولم يستطع كشيون تخيل قوة الإرادة التي سمحت لجوشي بالانفصال عن كل من كان يعرفهم. رأى جنكيز يمسك بفكيه بعناد، وخمّن أفكاره فيما كان كشيون يحاول مجدداً أن يجعله يفهم.

"أنت الشخص الذي بنى إمبراطورية في هذا المكان يا جنكيز، بدلاً من الأنقاض. نصّبت أرسلان حاكماً على سمرقند وشن ياي على مرو. إنهما يحكمان باسمك، مثلما حكم ملوك وشاهات قبلهما في هذين المكانين. بالرغم من ذلك، لا يزالان غازيين وسيكون هناك دائماً أولئك الذين يرغبون في رؤيتهما أشلاء ممزقة. قدم إلى الشعوب المغزية إشارة واحدة عن الضعف وستكون لدينا ثورات في كل مكان استولينا عليه". تنهد. "لقد كبرت على القيام بذلك مجدداً يا شقيقي".

طرفت عينا جنكيز ببطء ولم يعرف كشيون إن كان يصغي حقاً أم لا. بدا أن الخان مهووس تماماً بالابن الذي انقلب ضده، ربما لأن لا أحد آخر فعل ذلك

من قبل. كل يوم كان ينظر إلى الأفق بحثاً عن إشارة عن تسوبودي. كان كشيون يعـرف أن الوقت لا يزال مبكراً للغاية. حتى إذا كان تسوبودي قد انطلق بسرعة مثل الضوء، لن يكون قد وصل إلى الأرض الشمالية حيث كان جوشي قد أخفى نفسـه. مرة أخرى، تلهف كشيون لمعرفة تفاصيل مهمة تسوبودي. كان يشك في أنه يعرف، وشعر بالأسى على تسوبودي للمهمة التي كان سيكرهها أكثر من أي مهمة أخرى. كان كشيون يعرف أن تسوبودي يعتبر جوشي مثل ابن تقريباً. كان من شيم جنكيز أن يختبر ولاء الرجل بتكليفه بمهمة ما. لطالما كان شقيقه قاسياً مع أولئك المحيطين به، بالإضافة إلى نفسه.

استـعد كـشيون ليجرب مرة أخرى، وكان بأمس الحاجة إلى جعل جنكيز يفهم. ابتلع ريقه بصعوبة، مدركاً أنه كان يستطيع الاستفادة من تسوبودي عندها. كان شقيقه يصغي إلى تسوبودي أكثر من كل الآخرين ولم يكن ليتأخر هناك مع ظهور شقوق في كل شيء كانوا قد بنوه.

"لقـد صدّوا الجناحين يا جنكيز، وشنوا هجوماً من خلفهما. لديهم تروس جيدة لم نرَها من قبل وجياد تضع دروعاً تحميها من سهامنا. لا أخشى الأعداد يا شـقيقي، وإنمـا الطريقة التي يقودهم بها جلال الدين. إذا كنت لن تأتي، اسمح لي بـردهم علـى أعقابهم. لن يفاجئوا فرقتي بالتكتيكات نفسها. سنصدّهم ونبعث برسالة إلى أي شخص يتخيل أننا قد نُهزم".

فتح جنكيز فمه ليضع لسانه على أحد أضراسه الخلفية.

قـال وقد قرّر منح شقيقه سلطة كاملة: "افعل ما يحلو لك يا كشيون. خذ ثـلاث فـرق، فرقتك واثنتين أخريين غير فرقتي أوجيدي وتولي. لا يزال رجالهما يافعين ولا أريدهم معك".

تكلم كشيون بسرعة. "إذاً، جيلم وخاسار".

أومأ جنكيز، وكان لا يزال يحدّق شمالاً، وأفكاره مع تسوبودي.

"مناوشـة يا كشيون، هل تفهم؟ إذا كانوا مخيفين كما كنت قد سمعت، لا أريـدك أن تخسر رجالك في الجبال. احعلهم ينـزفون قليلاً، كما كنت قد فعلت من قبل، ضد ينكينغ والشاه. سآتي مع تسوبودي".

أحنى كشيون رأسه، مرتاحاً بما يفوق الوصف.

قـــال: "سأفعل يا شقيقي"، ثم توقف فيما كان يغادر. "لن يفشل تسوبودي. كنت أعتقد أنك مجنون لترقيته، لكنه أفضل من رأيت في حياتي".

تأفف جنكيز.

"المشكلة يا كشيون هي أنني لا أعرف إن كنت أريده أن يفشل أو ينجح".

رأى كشيون يفتح فمه ليسأل عمّا كان يعنيه لكن جنكيز لوّح بيده غاضباً.

"اذهب يا شقيقي. لقّن هؤلاء درساً كي لا يتدخلوا في شؤوني مجدداً".

الفصل الرابع والثلاثون

واقفاً بين دعامتين صخريتين، نظر كشيون إلى الأسفل نحو وادي بانجشير، ورأى خيام وجياد جيش جلال الدين. كان الصباح حاراً، وكشيون يتصبب عرقاً، ويحك متكاسلاً تحت إبط فيه بثرة تحتاج إلى علاج. مع جيلم وخاسار، كان قد انطلق بسرعة مثل أي مستطلع، وكاد يتسبّب بقتل الجياد ليثأر لهزيمة بروان.

كان جيش جلال الدين يعرف أن المغول قد جاؤوا. استطاع كشيون رؤية أشخاص يرتدون أثواباً طويلة يراقبونهم من فوق كل قمة، رجال كانوا قد تسلقوا يداً فوق أخرى صخوراً كبيرة إلى مواقعهم. كان أحدهم بعيداً فوق رأسه، ولا يمكن لأي سهم أن يصل إليه. لم يكن كشيون يستطيع القضاء عليهم، وشعر بالانزعاج من تلك المراقبة الصامتة. كان كل المراقبين قد تحولوا نحوه، وأشار بعضهم إلى الجيش في الوادي باستعمال رايات، مزوّدين جلال الدين بالمعلومات.

هناك أيضاً، استطاع كشيون رؤية دليل على ذهنية مسيطرة، وشخص كان قد تعلم من العدو أخيراً. كان معسكر جلال الدين على بعد ثلاثة أميال عبر النهر من بلدة بروان، في سهل مكشوف أمام جبال ترتفع مثل نصال من الأرض المنبسطة. لم يكن الموقع يسمح بالمناوشة، ولم يكن ممكناً النزول إليه. لم يكن المكان محمياً بأسوار، بالرغم من أن كشيون رأى أنه تمّ جرّ كتل صخرية وأعمدة خشبية إلى الموقع أمام معسكر العدو، ووضعها في أماكن منتقاة بإتقان لإحباط أي هجوم. كان قماش الخيام يرفرف في نسيم الصباح، وفيما كان كشيون يراقب، دفعت إشارات رايات من القمم رجالاً للانتظام في تشكيلات. كانوا يُظهرون ثقتهم بأنفسهم في مثل ذلك المكان، ويتحدّون المغول أن يهاجموهم.

قـال جيلم من فوق كتف كشيون: "علينا أن نجتاز ذلك النهر. نعرف الآن أين هم، ويمكننا البحث عن مخاضة".

كـان كـشيون القائد الأعلى للفرق الثلاث وأوماً، وكان لا يزال يحدّق إلى الـوادي عندما أرسل جيلم مستطلعين للعثور على أفضل مكان لعبور النهر. عض شـفته مـن تلك الفكرة، وكان يعرف أن جلال الدين سيكون قد حدّد أماكن المخاضـة على بعد مئة ميل. لم تكن هناك أي فرصة لشن هجوم مفاجئ؛ لأن ابن الـشاه كان يعرف تماماً من أين سيأتون. بالرغم من ذلك، كان عليهم أن يعبروا النهـر. كـان جلال الدين قد اختار ساحة المعركة. كان يعرف الأرض؛ ويتمتع بالتفوق العددي وكل أفضلية أخرى مهمة. مرة أخرى، تمنّى كشيون لو أن جنكيز كان قد أرسل المزيد من الرجال معه، هذه المرة على الأقل.

نظـر كشيون إلى المراقب فوقه، عالياً مئات الأقدام فوق رأسه. كان الرجل يجـثم بثوبه الأبيض وقد تسلق صخرة تصل تقريباً إلى حافة. قاوم كشيون الحافز لإرسال محاربين إلى الأعلى وإلقائه إلى الأسفل. ربما استغرق الأمر من الرجل أياماً للوصـول إلى ذلـك الموقع الخطر الذي يطل على مدخل الوادي. إذا كانت لديه قُرب ماء وإمدادات، يمكنه الدفاع عن موقعه ضد رجال يتسلقون طالما أراد ذلك.

جـاء شقيقه خاسار إلى المقدمة. رأى كشيون أنه كان يحدّق أيضاً إلى الرجل في الأعلى.

قـال خاسار فيما كان يشد لجام مطيته: "لا يمكننا المكوث هنا طوال اليوم. يمكـنني شن هجوم عليهم في الأسفل وتدمير تلك البلدة الصغيرة، على الأقل. ربما يفقد هؤلاء شجاعتهم عندما يرون الدخان يتصاعد".

نظر كشيون إلى الوادي. كان قادة الألف الذين تعرضوا لهزيمة قد وصفوا الأرض بتفاصـيل دقـيقة، وكانوا متلهفين جداً للثأر بعد عار الهزيمة. لم يستطع كشيون رؤية أشـخاص يتحـركون في أي مكان في البلدة وقد أسعده أن الناس كانوا قد انسحبوا مجدداً إلى الحصن الذي يطل على السهل. لو أنه كان يعتقد أن ذلك سيأتي بأي فائدة، لكان أرسل خاسار إلى الأسفل مثل سهم. بدلاً من ذلك، هزّ رأسه.

"مـا فائـدة بلدة واحدة أخرى، لنا أو لهم؟ عندما نهزم هذا الجيش، يمكننا الاستيلاء على الحصن كما نشاء".

هـزّ خاسـار كتفيه غير مبال من الرد وتابع كشيون كلامه، ينطق بأفكاره بصوت عال ليجعلها أكثر وضوحاً.

"إنه واثق من نفسه يا خاسار، مستنداً إلى الجبال خلفه".

قال خاسار بهدوء: "إذاً، إنه أحمق".

"إنـه لـيس أحمق يا شقيقي. لقد رآنا هذا الرجل نمزق جيش والده. يعرف تكتيكاتنا ونقاط قوتنا، وربما ضعفنا. انظر كيف كان قد وضع كتلاً من الصخور لقطع الطريق على صفوف رمّاحينا ورماتنا. إنه واثق من نفسه وذلك يقلقني".

"تفكّـر كثيراً يا كشيون. عندما يجد جيلم مسلكاً لعبور النهر، سندكّ قواته على تلك التلال. سنجعله عبرة لمن يعتبر".

أومـأ كشيون بحذر. لم يكن جنكيز قد طلب منهم إحراز نصر سريع، وإنما جعـل العـدو ينـزف. بالرغم من ذلك، كانت القاعدة الأولى في الحرب تفادي السـماح للعـدو باختيار الموقع وتحديد شروط الاشتباك. طقطق كشيون براجم أصابعه، ثم رقبته، وتمنّى لو أن تسوبودي كان معهم.

لم يمـض وقت طويل قبل أن يعود مستطلعو جيلم، ونقلوا نبأ وجود مخاضة ضـحلة على بعد خمسة أميال تقريباً على طول النهر. أصدر كشيون الأمر للفرق بـأن تتحرك و لم يسعه سوى أن ينظر إلى الأعلى نحو خفق رايات برّاقة من إحدى القمم إلى التالية تنقل نبأ تحركهم.

تمتم جلال الدين، وهو ينظر إلى الرايات: "إنهم قادمون".

رد نواز: "ليس لديهم خيار آخر".

ألقـى جـلال الـدين نظرة خاطفة على الأمير، وأخفى سعادته عن ذلك الطـاووس الـذي كان قد جعله نائبه. تحت درعه، كان الأمير يرتدي ملابس من حرير بنفسجي وذهبـي، وتعلو رأسه عمامة زرقاء. بالنسبة إلى عيني جلال الدين، كـان يبدو كما لو أن غانية أو ممثلة قد ألبسته ثيابه، لكنه لم يكن يشك في عزيمة الرجل.

مـرة أخـرى، نظر جلال الدين إلى صفوف رجاله، بالرغم من أنه كان قد تفقّـدها ألف مرة. كان واثقاً من عدم وجود خلل. كانت الجبال تحمي خلفيتهم،

فيما توجد كتل صخرية ثقيلة من أسوار بروان أمامهم، تماماً حيث سيقضون على خيّالة المغول. إذا كان العدو قد أرسل أحداً إلى البلدة، فسيجد أن أجزاء كبيرة من الأسوار مفقودة، والتي تم نقلها عبر النهر على ألواح خشبية مأخوذة من المنازل. كان سكان ذلك المكان قد خسروا الكثير لتجهيز خط الدفاع ذاك، لكنهم لم يضنّوا بالتضحية، ليس بعد أن انتصر الجيش ضد الكفّار آنذاك. كان الحصن الذي يحميهم بعيداً جداً عبر النهر ولم يكن جلال الدين يستطيع رؤية وجوههم، لكنه كان يعرف أنهم يراقبون من الأعلى. سيحظون على الأقل بمنظر رائع للقتال التالي.

قال جلال الدين: "لدينا حتى ظهيرة هذا اليوم، إذا عبروا من أول مخاضة عبر النهر. دعنا نمشي بين الرجال مرة أخرى. سيكون بعضهم متوتراً وسيفيد أن يرونا هادئين ومبتهجين".

كانت عيناه على النقيض من نبرته المعتادة، لكن نواز لم يعلّق، أحنى رأسه قليلاً وترجل ليمشي معه".

قال نواز فيما كان يمر بين الخيام: "كنت قد توقعت أكثر من ثلاثين ألفاً منهم. هل هم متغطرسون؟".

أومأ جلال الدين برأسه.

"هناك ما يبرر غطرستهم يا صديقي. لقد مزّقوا جيش والدي عندما كان لديه ثلاثة أضعاف عددهم. سيكون قتالاً ضارياً، حتى بعد كل ما فعلته".

نفخ نواز هواءً من بين شفتيه، مظهراً ازدراءه للفكرة.

"لقد أفرغت خزائني لأمنحك التروس والدروع التي أردتها. بالمقابل، ألهبت حماسة الرجال". رأى جلال الدين يختلس النظر إليه وتابع. "لست أحمق. تعرفهم أفضل من أي رجل آخر، لكن بحلول هذه الليلة سنحرق أعداداً كبيرة من قتلاهم".

ابتسم جلال الدين من ثقة الأمير بنفسه. كان صحيحاً أنه يعرف المغول وقوتهم في الحرب. كان بمقدوره أن يأمل بتحقيق النصر، لكن لا شيء في الحياة مضمون.

"سأكون إماماً للرجال في صلاة الظهر اليوم. نتضرّع إلى الله (عزّ وجل) لنحطّم أسطورة هذا الخان، ونجعل قواته تنزف دماً. إذا فزنا هنا، فستنضم إلينا

كل تلك المدن التي تراقب وتنتظر لاقتلاع هذا الرجل من أرضنا. إذا خسرنا، فلن يتحدّاه أحد مجدداً. هذان هما الاحتمالان يا نواز".

أحنى الأمير رأسه، مرتبكاً. كان ينظر إلى جلال الدين بإعجاب، حتى قبل أن يلاحق المغول الذين هربوا عبر الجسر. أكثر من أي شيء آخر، كان يريد أن يثير إعجاب هذا الرجل الذي يعرفه منذ كان فتى، ولا يكبره سوى بعام واحد فقط. جال ببصره على صفوف الرجال الذين كان جلال الدين قد أحضرهم تحت راية واحدة. تركمان، بربر، بدو من صحارى بعيدة ومحاربون داكنو البشرة من بيشاور، يتميزون عن الآخرين بأنهم يرتدون دروع حرسه الخاص. كان هناك أفغان أيضاً بين الصفوف، وهم رجال أشدّاء كانوا قد نزلوا من التلال يحملون سيوفاً ثقيلة ومقوّسة. لم يكن أي منهم يمتطي جواداً للمعركة القادمة. كان جلال الدين قد اختار موقعاً سيلغي أفضلية الجياد المغولية. كان جيشه سيقاتل على الأرض، وإما أن يصمدوا أو يتم تدميرهم.

كان قد عمل جاهداً في الأيام السابقة لتجهيز الموقع، وكان يعرف أن المغول لن يتأخروا في ردهم. كان نواز قد كدح مع رجاله لنقل الحجارة من بروان عبر النهر. كان الأمير يأمل بأن يروا أنه يستطيع وضع كرامته جانباً ليعمل معهم، بالرغم من أن جهوده الذاتية كانت قد جعلت جلال الدين يضحك. تورّد نواز خجلاً عندما تذكر كلمات جلال الدين عن موضوع الكبرياء. كان أمير بيشاور! كان قد تولى المنصب بشكل طبيعي، بالرغم من أنه بذل قصارى جهده ليكون متواضعاً.

تغضّن أنف نواز عندما تجاوز وجلال الدين حفرة مرحاض، وكان الذباب يحتشد بأعداد كبيرة فيما كان رجال يطمّونها بالتراب. حتى في ذلك، كان جلال الدين قد أدلى برأيه، واختار موقع الحفرة التي عندما امتلأت، أصبحت جرفاً ترابياً قاسياً على يمينهم. أشاح نواز ببصره بعيداً عن الرجال الذين يدفعون التراب إلى الحفرة، لكن جلال الدين ناداهم بأسمائهم وقلل من خجلهم من مثل ذلك العمل النجس. راقبه نواز باهتمام بالغ، محاولاً أن يتعلم كل ما يستطيع. كان قد أنفق ذهب والده مثل ماء لتجهيز الجيش. بطريقة ما لم يكن ذلك كافياً، وتمنّى أن يثبت لجلال الدين أنه يستطيع تولي زمام القيادة والقتال بشجاعة أي شخص هناك.

تحـــركت الشمس في السماء، وألقت بظلال على الجيش الذي كان ينتظر. كانـــت ستتـــضاءل حتى تختفي تماماً مع انتصاف النهار، لكن حتى ذلك الوقت، سيبقى الرجال مرتاحين. ستشعر الفرق المغولية بالحر والعطش بحلول الوقت الذي تجتاز به النهر وتنطلق عائدة نحوهم. كان جلال الدين قد خطط لكل شيء وأومأ مـــشجعاً الفتيان الذين ينتظرون للجري بين الرجال حاملين قُرب الماء عندما يبدأ القـــتال. كانت الجياد بأمان، مربوطة في الخلف حتى لا تفزع وتهرب. رأى أكواماً من السهام ملفوفة بحبال محدولة إضافة إلى تروس وسيوف جديدة بالآلاف.

قـــال جـــلال الـــدين فجأة: "لم آكل هذا الصباح. هل تتناول بعض الطعام معي؟".

في الواقـــع، لم تكـــن لديه شهية على الإطلاق، لكنه كان يعرف أن رجاله سيتـــسمون لـــرؤية قائدهم يأكل من دون اكتراث بالعدو المخيف الذي يقترب منهم. سار نواز أمامه إلى خيمته الخاصة، الأكبر من الأخرى. كانت مبهرجة مثل الملابـــس التي يرتديها وابتسم جلال الدين مجدداً لنفسه من الأمير المولع بالتباهي. عـــندما وصل إلى المدخل، نظر جلال الدين إلى السهل الذي كان قد اختاره ليثأر لشاه خوارزم، يبحث عن أي شيء في غير مكانه أو يمكن أن يُضفي عليه لمسته. لم يكن هناك شيء، وكان كل ما تبقى هو الانتظار.

تمـــتم: "اجعـــل خـــدمك يأتـــون بالطعام إلى الخارج يا نواز. أرغب في أن يـــراني الـــرجال جالـــساً مـــثل واحد منهم، لكن اجعل الوجبة بسيطة، مثل التي يتناولونها".

أحـــنى أمـــير بيـــشاور رأسه، وأسرع إلى داخل الخيمة ليفعل ما طلبه جلال الدين.

كانـــت المخاضة قد بلّلت الفرق في أثناء عبور أفرادها برذاذ من الماء الطيني، لكـــن الشمس أزالت الرطوبة عندما قطعوا خمسة أميال عائدين إلى وادي بانجشير. كان الوقت قد تجاوز منتصف النهار ورأوا العدو مرة أخرى من بعيد. دفع كشيون جـــواده للسير على رأس الفرق الثلاث، محافظاً على قوته فيما كان جيلم وخاسار يقودان مطيتيهما إلى جانبه.

قـــال كـــشيون لخاســـار: "سيكون قتالاً ضارياً يا شقيقي. التزموا بأوامري وضعوا جانباً كل أفكار النصر السهل".

هزّ خاسار كتفيه استخفافاً عندما انكشف الوادي أمامهم. كانوا قد وجدوا مدخلاً آخر إلى السهل الرئيس، لكن كان هناك أيضاً رجل على قمة ووقف ليرفع راية كان يمكن رؤيتها عن بعد أميال. كان النهر إلى يسارهم عندما دفعوا جيادهم للجـــري خبـــباً نحو معسكر جلال الدين. استطاع القادة الثلاثة رؤية أفراد جيشه يقفـــون علـــى أقـــدامهم في تشكيل هلال أمامهم. كان ستون ألف رجل واقفين يعـــشون الـــرعب في القلـــوب وتقدم المغول متجهّمين، ينظرون إلى قادتهم لتلقي الأوامر.

شعر كشيون بمثانته تمتلئ في أثناء عبوره السهل. في رحلة طويلة، كان سيدع ببـــساطة السائل يسيل على خاصرة جواده. بوجود العدو قريباً، كشّر وقاوم بدلاً من أن يترك الرجال يعتقدون أنه فعل ذلك من الخوف.

عـــندما أصـــبحت خطـــوط العدو على بعد ميل عنهم، قاد خاسار وجيلم جـــواديهما علـــى طول مقدمة الفرق إلى موقعيهما. كانا قد رافقا كشيون خلال الرحلة من النهر، وكان كلا الرجلين يعرفان ما عليهما فعله. في ذلك، على الأقل، كـــان كشيون يعرف أهما سيبليان بلاءً حسناً. رفع يده ودفع ثلاثون ألف محارب جـــيادهم للجـــري خبـــباً. أمامهم، رفع أفراد الصف الأول في جيش جلال الدين سيوفاً وتروساً، وكانت النصال الثقيلة على أكتافهم تلمع في الشمس التي تحركت غرباً.

حدّق كشيون أمامه إلى الكتل الصخرية التي تنتشر على الأرض المكشوفة. لم يكـــن يعرف إن كان جلال الدين قد جهّز حفراً أمام رجاله وعذّب نفسه بمحاولة تخمـــين مكانها. هل ينبغي له ترك القلب وشأنه والتركيز على الجناحين فقط؟ كان مـــربكاً الـــتفكير في أن جلال الدين يعرف تكتيكاهم. بالتأكيد كان سيتوقع نفير أبـــواق لتـــنظم التشكيلات، وعلى أي حال، كان ينبغي على كشيون أن يرسل الفرق إلى الوسط. سيترك ذلك الجناحين مكشوفين وشعر ببرودة تحت إبطه عندما ســـال العـــرق في أثناء اندفاعه إلى الأمام. كان قادته يعرفون خطته، لكنهم كانوا مستعدين لأي شيء وكان بمقدوره تغيير الأوامر، إلى أن يصطدموا بالعدو.

كان جلال الدين قد رأى جنكيز يقاتل، كما قال كشيون لنفسه. كان أحد الجناحين أو كلاهما سيصطدمان بمكائد في الطريق. على بعد نصف ميل، شعر فجأة بأنه واثق من ذلك. كان هذا الأمير قد ظن أنه بأمان في موقع لا يستطيع فيه القيام بأي مناورة. قرر كشيون أن يثبت له الخطأ في تفكيره.

جأر، وهو يرفع ذراعه، ويحرّكها لترسم دائرة: "انعطفوا إلى اليمين!". رفع المستطلعون إلى جانبه رايات حمراء إلى جانبهم الأيمن وتبعته الفرق. كانوا سيهاجمون الميمنة فقط، وحشد كل ما لديهم ضد ذلك الجزء من جيش جلال الدين. كان الآخرون سيشعرون بغضب شديد في أثناء وقوفهم خلف صخورهم وأوتادهم.

استغرق الأمر أعواماً من التدريب لتحريك ذلك العدد الكبير من الرجال من دون إفساد صفوف بعضهم بعضاً. كان المغول يتقنون ذلك كما لو أنه شيء بسيط، وتحولت الفرق إلى تشكيل جديد استهدف جناح العدو. زادوا سرعتهم إلى الهرولة لمحاكاة حركة كشيون، وشدّوا أقواسهم. خلفهم، ارتفعت سحابة من التراب كانت كافية لتلقي بظلها على الوادي. مع الشمس خلفهم، انطلقوا والظل أمامهم.

رأى كشيون الأعداء يهزون سيوفهم غضباً عندما تجاوز بسرعة الأكوام الأولى من الصخور المصقولة إلى يساره. لو كان لديه رجال جلال الدين، لكان جعلهم يتقدمون آنذاك إلى الأمام مثل باب يُغلق على الفرق. بالرغم من ذلك وقفوا، كما كان قد قيل لهم.

على بعد أربعمئة خطوة، عدّ كشيون بصوت عالٍ مع تقلّص المسافة بسرعة مخيفة. كان ينطلق في الصف الخامس، يحافظ على حياته لقيادة المعركة. خفق قلبه في صدره، وكان فمه جافاً بعد أن أرغم نفسه على التنفس عبر أنفه، وزمجر مع كل زفير. انطلقت الفرق الثلاث كلها نحو العدو. كانوا يندفعون على مساحة واسعة ويمددورهم الهجوم على طول صف التلال.

وقعت الصفوف الأولى في خنادق يخفيها بُردي النهر وتربة هشّة. بسرعة قصوى، سقطت الجياد أرضاً بقوة، وطار فرسانها في الهواء. بقيت أقدام بعضهم عالقة في الركاب، وخُلعت من مكانها بعد التوقف بشكل مفاجئ. جأر جيش

جلال الدين، لكن المغول استعادوا توازنهم بسرعة. كان أكثر من مئة رجل قد لقوا حتفهم، لكن أولئك الذين بقوا على قيد الحياة تكوّروا على أنفسهم واستفادوا من مطـيـاتهم لتحميهم فيما كانت أخرى تقفز من فوقهم. سقط رجال آخرون عندما أخطـأوا باجتياز حاجز الجياد النافقة، لكن سرعة الصف لم تصبح أبطأ كثيراً. لم يكن هناك جيش آخر يستطيع إطلاق وابل من السهام في ذلك الشريط من الأرض الواقـع بين الخنادق والعدو. أرسل المغول سهاماً بكثافة نحو العدو، وأرغموه على التراجع. عندما وصلوا إلى الصفوف التي يحمل أفرادها سيوفاً، رمى بعض المحاربين أقواســهم أرضاً، فيما تأخر معظمهم لحظة لوضع السلاح على قرابيس السروج، وشــهروا ســيوفاً بأيديهم الأخرى. لم يفكروا في الرجال القتلى الذين تركوهم خلفهم عند الخنادق، وإنما بالثأر لهم فقط.

اصطدم الصف الذي يجأر أفراده بجنود جلال الدين بسرعة كبيرة، وكان ثقل وقــدرة الجــياد خطيريـــن على القوة المقابلة مثل السيوف نفسها. ضحّى المغول بمطياتهم بقسوة، واستعملوها ككبش فداء لتحطيم صفوف العدو.

اســتطاع كــشيون رؤية سيوف العدو المقوّسة تلمع في ضوء الشمس فيما كانوا يقاومون. لم تكن فرقه قد ضربت سوى جزء صغير من الصف، ولم يستطع أكثر من نصف رجاله استعمال أسلحتهم كما ينبغي. بدلاً من ذلك، أطلقوا سهاماً فــوق صفوفهم، والتي ارتفعت عالياً لتقع في أي مكان على جيش العدو. اندفعوا نحـو جــيش العدو، لكن كما كان قد قيل لكشيون، كانت تروس العدو جيدة وانــضباطهم مذهلاً. رأى تروساً ترتفع عالياً فوق الرؤوس، وهكذا شكّلوا جداراً ضد السهام التي تنهمر عليهم فيما كان الرجال بأمان تحتها.

قاتل رجال جلال الدين بهياج وانضباط فيما كان يتم إرغامهم على التراجع إلى الــوراء خطوة إثر أخرى فوق قتلاهم. فقد هجوم المغول سرعته ضد صفوفهم المحتــشدة وبقيت السيوف المقوّسة ترتفع وتنخفض بتناغم. كان يتم إلقاء المحاربين عـــن سروجهم، ولرعب كشيون، رأى رجاله يندفعون إلى الخلف فيما كان جنود جلال الدين يحيطون بأي محارب في وسطهم، مثل جزر في بحر.

بدأ باقي أفراد جيش جلال الدين يندفع ضد رجاله. كانوا قد تخلوا عن أمان مــوقعهم، لكـــن التقدم كان منتظماً، بدلاً من الانطلاق بجنون إلى الأمام. تحرّك

الجناح البعيد إلى الأمام وأطلق كشيون لعنة بصوت خافت. لم يكن رتله قد ضرب ســوى جــزء من جيش العدو ومدّ يده إلى البوق على عنقه لمعالجة هذا التهديد الأخــير. عندما نفخ النغمة، استجاب خاسار، وسحب رجاله، وبأمر واحد فقط انتشروا على طول سلسلة القيادة. رأى كشيون نظرته المستفسرة، وأشار إلى الباب الذي يتشكّل من رجال ويُغلق عليهم عبر السهل. كان رجال جلال الدين يعرفون أين تقع الخنادق، واجتازوها من دون أن يتوقفوا تقريباً. خلال لحظات فقط، كانوا سيطوّقون الفرق المغولية ثم سيبدأ القتال من دون توقف.

كان لدى خاسار عشرة آلاف رام، يحمل كل منهم كنانة فيها ثلاثين سهماً علــى ظهــره. شــكّلوا أوسع صف ممكن، بالرغم من أن الموجودين على الحافة الأماميــة ســرعان ما اشتبكوا في قتال على الجناح. شد الآخرون أقواسهم على أولــئك الــذين كانوا يندفعون نحوهم. أنــزل خاسار يده، وانطلق ألف سهم في الهواء، ضربت دروعاً ورجالاً. تبع ذلك وابل خلال لحظة وآخر غيره.

صرخ كشيون إحباطاً عندما رأى صفوف جلال الدين لا تهتز. سقط المئات مــنهم، لكــنهم مشوا وهم يرفعون تروسهم عالياً وبالكاد تذمروا عندما أصابتها السهام. كان كشيون مكشوفاً وللمرة الأولى خاف فعلاً من الهزيمة.

نفــخ في البوق مجدداً، نغمة مضاعفة جعلت رجاله يتراجعون مسرعين. كان أولــئك الأقرب إليه أول من استجاب، لكن الأمر انتشر مثل النار في الهشيم بين الفرق. صرخ خاسار غاضباً، لكنه أدار جواده أيضاً بعد ذلك مبتعداً عن العدو.

صــرخت قوات جلال الدين ابتهاجاً برؤية العدو يفر. حاول الآلاف منهم القضاء على المغول الذين يهربون منهم، واندفعوا خلفهم يحملون سيوفاً ومستعدين لتوجــيه ضــربات قاتلــة. انتظر كشيون الباقين، و لم ينطلق بسرعة كبيرة كي لا يتركهم جميعاً خلفه. كان الانسحاب المزيف أسهل مع رجال يمتطون جياداً، حيث ينطلق كل واحد منهم لوحده متعطشاً لإراقة الدماء.

أخــذ كشيون نفساً عميقاً عندما صدح بوق عبر السهل. لم يكن بوق أحد محاربــيه. لدهــشته، رأى صــفوف قوات جلال الدين التي تجري خلفهم تخفف سرعتها حتى توقفت تماماً، واستدارت عائدة. كان أمير أنيق بين صفوفهم قد نفخ بالبوق وتخلوا عن المطاردة مباشرة. كان كشيون يخطط آنذاك للوصول إلى منطقة

ثم الاستدارة نحوهم وتمزيقهم أشلاء، بعيداً عن الموقع المحمي الذي كانوا قد أعدّوه. بــدلاً من ذلك، أعادوا تنظيم تشكيلهم مجدداً في المكان الذي كانوا يقفون فيه في بــادئ الأمــر وبقــي أفراد الفرق وحدهم في السهل، يلهثون، ملطخين بالدماء ويشعرون بالإحباط.

لم يكــن هناك سوى قلة من قوات جلال الدين الذين لم يستجيبوا بسرعة، وقــضى علــيهم المحاربــون المغول. وقف الباقون في صفوف متقاربة يصرخون بإهانــات، ويــرفعون ســيوفهم وتروسهم كما لو أنهم يتحدّون المغول أن يأتوا ويــشتبكوا معهــم. استطاع كشيون رؤية تعبير وجه خاسار الخائف عندما التقى الشقيقان على بعد نصف ميل من ساحة المعركة.

قال خاسار لاهثاً لاستنشاق الهواء: "الوغد جلال الدين يعرفنا جيداً".

أومــأ كشيون متجهماً. كان ابن الشاه قد شاهد انسحابات مزيفة من أمام جيش والده وقد كان مستعداً. بدا المغول حمقى لهروبهم من العدو وكافح لاستعادة الهدوء الذي كان بأمس الحاجة إليه.

كانت الشمس قد تحركت كثيراً في أثناء القتال، ولهذا وثبت ظلال المساء منه عــندما ترجل ووضع قربة ماء على فمه. كان هناك وقت لشن هجوم آخر، لكن جــلال الدين كان قد تفوّق عليه في كل خطوة أقدم عليها وتحطمت ثقته بنفسه. شعر خاسار بارتباكه وتكلم مجدداً، يحث شقيقه على التفكير مجدداً.

"ماذا إن استولينا على موقع عال خارج مدى صفوفهم الليلة، وأطلقنا سهاماً عليهم؟ قد يدفعهم ذلك بعيداً عن التلال التي خلفهم؟".

هــز كشيون رأسه. "من دون تهديد آخر، سيتجمّعون تحت التروس. ستضيع السهام عبثاً".

ســأل خاســار: "إذاً، *ماذا* يا شقيقي؟ أنتركهم لانتصارهم؟". اتسعت عيناه دهــشة عــندما لم يــرد كشيون. "هل ستترك هؤلاء المزارعين الكلاب يحتفلون اليوم؟".

ردّ كشيون بحدّة: "إلا إذا كان لديك فكرة أفضل".

فغــر خاسار فاه دهشة منه ونظر كلا الرجلين إلى الأعلى عندما اقترب جيلم منهما، يغطيه التراب.

قال جيلم: "لقد قطعنا ماء النهر عنهم، على الأقل. مهما تكن إمدادات المياه التي معهم، لا بد من أنها ستنفد في نهاية المطاف. يمكننا أن ننتظر خروجهم".

نظر خاسار ساخراً من تلك الفكرة.

قـــال: "أتمنى لو أن تسوبودي كان هنا. لم يكن ليدعنا ننتظر موت عدو من العطش أو التقدم في العمر".

كشّر كشيون، بالرغم من أنه كان يشاطره الرأي نفسه.

قال: "لقد انتهى الأمر عند هذا الحد. لا خدع أو مناورات. أقواس وسيوف فقط ضد ضعف العدد".

ســـأل خاسار متشككاً: "هل هذا كل ما لديك؟ سيقطع جنكيز إبهاميك من أجل خطة كهذه. سنخسر أكثر من نصف رجالنا".

"لم نواجه شيئاً مثل هذا من قبل يا خاسار، علينا أن ننتصر". فكّر للحظة في مـــا كان الرجلان الآخران يراقبانه بقلق. "إذا لم يغادروا الموقع، يمكننا أن نقترب ببطء، ونمهّد الأرض في أثناء ذلك". نظر إلى الأعلى وشاهداه يستعيد ثقته بنفسه.

"الرماة إلى المقدمة لإبقائهم منخفضين وتحت تروسهم فيما نتقدم إلى الأمام. الرمّاحون خلفهم، مستعدين للهجوم. من دون حفر وحجارة، ليسوا سوى جيش مـــن جنود المشاة. سنمزقهم إرباً". ألقى نظرة على الشمس التي تقترب من التلال الغـــربية وكـــشّر. "لكن ذلك لن يكون اليوم. علينا أن ننتظر بزوغ الفجر. اجعلا الـــرجال يـــستريحون ويتناولون الطعام ويضمدون جراحهم. ستكون معركة الغد اختباراً لنا جميعاً، لكن لا يمكن أن نفشل في هذا المكان".

عندما تكلم خاسار، لم يكن صوته يحمل أياً من سخريته المعتادة.

"يا شقيقي، علينا أن نرسل رجالاً إلى جنكيز. اجعله يرسل تعزيزات".

"لن يستطيع الوصول إلينا في أقل من نصف شهر يا خاسار".

"إذاً، ننتظـــر! ننتظر ونراقب هؤلاء المزارعين يعطشون فيما نشرب نحن من نهرهم".

تنحـــنح جـــيلم وارتـــاح كلا الشقيقين لوجود شخص آخر يكسر التوتر بينهما.

"ستكون الخسائر أقل إذا انتظرنا باقي الفرق. هذا مؤكد".

كـــان كـــشيون يعرف أنها نصيحة جيدة، بالرغم من أن كل عضو منه كان يرغب في استئناف المعركة. لم يكن يستطيع أن يتذكر أنه تم إرغامه على اتخاذ مثل ذلـــك القرار من قبل واعتمل ذلك في صدره. أطلق لعنات لبعض الوقت، بثلاث لغات.

"اللعنة عليهم في الجحيم! حسناً، سأرسل خيّالة إلى جنكيز".

كـــان خاسار يعرف أن القرار قد كلّف شقيقه كبرياءه، وللمرة الأولى اختار عدم السخرية منه، وربت بيده على كتف كشيون.

"المهـــم في الحـــرب هو النصر يا كشيون. لا يهم كيف نفعل ذلك، أو كم يطـــول الوقت. بحلول الوقت الذي سيصل به جنكيز، ستكون أفواههم جافة مثل دجاج تحت الشمس. سأستمتع بما يحدث بعد ذلك".

مع بزوغ فجر اليوم التالي، وإلقائه ضوءاً رمادياً على وادي بانجشير، استيقظ المغـــول مـــن معسكرهم على الطرف الآخر من النهر، حيث لم يكن من الممكن مهاجمـــتهم في الليل. في البداية، لم يستطع كشيون أن يفهم لماذا يصرخ مستطلعوه الذين يتمتعون ببصر حاد. كان برد الليل قارساً، وقد نام وذراعاه داخل رداء فوق درعـــه. ســـحب ردنيه إلى الأعلى لتحرير يده التي تحمل السيف، ومدّ يده بشكل فطري نحوه عندما جاء المستطلعون يجرون نحوه.

ســـأل، وكـــان لا يـــزال خدراً من النوم والبرد: "هل هناك هجوم؟". بدا المستطلع خائفاً من نقل النبأ.

"لا أيها القائد. لقد اختفى العدو في الليل. السهل خالٍ".

استـــرخى كـــشيون. كـــان وادي بانجشير مليئاً بالصدوع والممرات في كل الاتجاهات. لا بد من أن رجال جلال الدين كانوا يعرفونها كلها.

تحـــول ذهنه إلى المستطلعين الذين كان قد أرسلهم إلى جنكيز في الأمسية التي انقـــضت. لم يكن قد أنجز مهمته كما ينبغي في وادي بانجشير، وكان عليه آنذاك إرســـال المزيد من الرجال لإطلاع جنكيز على آخر الأنباء. الأسوأ من ذلك أنه لم يصدر عنهم أي صوت، وأن رجال جلال الدين كانوا قد أخذوا نصراً آخر معهم إلى الـــتلال. كانت أرضاً صعبة التضاريس لتقفّي آثار عدو يتحرك. كان احتمال

الـــبحث عنهم في متاهة المرتفعات والوديان التي تشكّل هذا الجزء من العالم يجعله يشتعل غضباً. لم يكن مهماً أن معظم قواته بقيت على حالها. كان العدو قد رآهم ينـــسحبون. ابتلع كشيون ريقه بصعوبة عندما أدرك أنه ترك شرارة تغادر الوادي وأنهـــا قـــد تشعل العالم كله. سينتشر النبأ بأنه يمكن إلحاق الهزيمة بالمغول، وسواء أأحب ذلك أم لا، كان عليه إبلاغ جنكيز بهذا.

قال بحدّة: "أرسل متقفّي الآثار. سيكون علينا أن نطاردهم".

الفصل الخامس والثلاثون



كان الثلج يتساقط على كل مكان حوله، لكن تسوبودي كان يحب البرد. كان قد ولد في مثل ذلك المكان الذي يعد مناسباً للخدر الذي شعر به منذ قبل أوامر الخان. كان وجهه خالياً من أي تعبير، والجليد من أنفاسه يتجمع على شفته العليا بالرغم من أنه فركه مرات عديدة.

مع عشرة آلاف رجل خلفه، لم يكن قد حاول إخفاء وجوده. لم يكن جوشي أحمق، وكان يشك في أنه يعرف مكان وجود الفرقة بالضبط. فكّر تسوبودي في أن هناك احتمالاً ألا يجد سوى معسكر مهجور وسيكون مرغماً عندها على ملاحقة ابن الخان عبر الأرض المتجمدة تحت الشمس. تأكد من رفع راياته عالياً، وكانت مصنوعة من حرير أصفر لامع يمكن رؤيتها عن بعد أميال. كان جوشي سيعرف أن فرقة قد جاءت للبحث عنه، لكنه سيعرف أيضاً أن تسوبودي يقودها.

خفض تسوبودي رأسه، وشد الرداء الذي يضعه فوق درعه. كانت أسنانه تصطك، وعض على شفته. بدا وكأنه فقد القوة التي كان يتمتع بها عندما كان يافعاً، وتساءل إن كان التغيّر المفاجئ من الحرارة إلى البرد قد سلبه بعضاً من قدرته على التحمّل. كان الجسد بحاجة إلى وقت ليعتاد على مثل تلك التغيّرات، حتى بالنسبة إلى أولئك الذين ولدوا للشتاء.

كان قد كافح مع أوامره كل الرحلة إلى الشمال، تسلق جبالاً وقطع ودياناً خالية، بالإضافة إلى المرور ببلدات نائمة في الظلام. لم تكن تلك رحلة لتحقيق انتصارات وكان مع رجاله قد تجاهلوا مستوطنات يانعة للقطاف. كانوا قد استولوا على أغنام وماعز أينما عثروا عليها، لكن ذلك كان فقط عندما احتاجوا إلى

اللحــم. كــان عليــه إطعــام عشرة آلاف رجل، بغض النظر عن المكان الذي يقــصدونه. كانت جيادهم مولودة للثلج، وبدا ألها تتأقلم بسرعة أكبر من أولئك الــذين يمــتطونها، وتستعمل حوافرها لتحفر الجليد بحثاً عن أعشاب كلما توقف المحاربون للراحة.

كــان المــستطلع الذي عثر على جوشي يقود جواده أمام تسوبودي. طيلة ثمانية وثلاثــين يــوماً من الترحال الشاق، كان قد التزم الصمت التام تقريباً. آنذاك، رأى تسوبودي أنه قد أصبح متحفزاً، ورأسه يدور باستمرار. كانوا قد قطعوا أكثر من ألف مــيل منذ تركوا جنكيز، واستعملوا المطيات الإضافية بحذر. أخيراً، أصبحوا قريبين و لم يكــن أحد منهم يعرف كيف سيتم استقبالهم. ربما كانت الإشارة الأولى على وجود جوشي قرية خالية أو وابلاً من السهام ينطلق من الثلج. بالرغم من ذلك، تابعوا التقدم وبــذل القائد جهداً إضافياً مع نفسه، وكان يضع ويلغي اثنتي عشرة خطة مختلفة كل يــوم. أحــياناً، كان يعذّب نفسه بتخيل لقائه الشاب الذي كان قد رعاه ودرّبه ثلاثة أعــوام، أمضى معظمها بعيداً في الشمال. كانت الذكريات قوية، ووجد نفسه يتطلع قدماً إلى رؤية جوشي مجدداً، مثلما يرغب أب في رؤية ابنه. أجرى محادثات كاملة في ذهنه، واحدة تلو أخرى، لكنها لم تجعله يشعر بطمأنينة.

عــندما أحضر مستطلعوه غريباً إلى فرقته، كان مريحاً أن يعرف أنه قريب من نهايــة رحلــته، بالرغم من أن تسوبودي أحس بمعدته تنقبض. لم يكن مستعداً لما سيأتي، حتى بعد وقت طويل من انتظاره له.

لم يعــرف الرجل، بالرغم من أنه كان يرتدي درعاً مغولياً ورداءً فوقه، كما يفعــل تــسوبودي. عــلاوة على ذلك، بدا أنه صاحب نفوذ في أثناء تقدمه بين مستطلعين و لم يحنِ رأسه عندما وصل إلى تسوبودي. كان ينبغي له أن يكون قائد ألــف، كمــا افترض تسوبودي، وحدّق من دون أن تطرف عيناه فيما كان يتم تجــريد الرجل من السلاح والسماح له بالاقتراب. توقفت الفرقة، وبدا أن الريح القوية تشتد حولهم، تعصف بالأرض، وتثير الثلج حول حوافر جيادهم.

قال الرجل مرحّباً: "أيها القائد تسوبودي، لقد رأينا راياتك".

لم يــردّ تــسوبودي. لم يكــن لدى الرجل سلطة ليتصرف من تلقاء نفسه، وانتظر ليرى كيف رتّب جوشي للأمر.

تابع الضابط: "عليّ أن أقول إنك لست موضع ترحيب هنا أيها القائد". رفع المحاربون حول تسوبودي رؤوسهم من التحدي في كلماته، لكن الرجل لم يفزع.

"ليس هناك نزاع معك، من بين كل الرجال، لكن بكل احترام نطلب منك أن تعود أدراجك وتغادر هذا المكان".

زمّ تسوبودي شفتيه، وشعر بالجليد يتشقق بعد أن كان عالقاً عليهما.

قال: "قال سيدك أكثر من هذا يا قائد الألف". طرفت عينا الضابط، وكان تسوبودي يعرف أنه قد خمّن الرتبة بشكل صحيح. "ماذا قال لك أن تفعل إذا لم أغادر؟".

تنحنح الضابط، وتذكر فجأة أنه يتكلم إلى الرجل الأكثر احتراماً في الأمة بعد جنكيز. بالرغم من التوتر، ابتسم لوقت قصير.

"قال إنك لن تفعل، وإنك ستطرح عليّ سؤالاً، كلمة بكلمة تقريباً".

سأل تسوبودي: "حسناً؟". كان يشعر بالبرد يتسلل إلى جسده، وكان متعباً من الرحلة. شعر بذهنه يتبلّد، وأراد الابتعاد عن الريح.

"طلب مني أن أقول إنه لن يكون هناك عندما تأتي. إذا طاردتنا، لن تجد شيئاً. حتى أنت لا تستطيع تعقّبنا في الثلج، ونحن نعرف هذه الأرض. ستبدأ مطاردة تبعدك أكثر عن الخان، لكنها ستكون مضيعة للوقت". ابتلع الرجل ريقه، وازداد توتره بعد أن أخذ محاربو تسوبودي يحدّقون إليه. استجمع شجاعته ليتابع. "قال إنك علّمته جيداً، ولن تنجو من المطاردة إذا بدأتها".

رفع تسوبودي يده ليوقف أولئك الذين كانوا على وشك الاندفاع إلى الأمام وقتل المرسال. شهر العديد منهم سيوفهم بأيد جعلها البرد خدرة، وازداد غضبهم من أجله. كانت اللحظة قد حانت، وبالرغم من أنها كانت تؤذي أكثر من البرد، إلا أنه كان يعرف كيف يصل إلى جوشي.

"لم آت لمطاردتكم يا قائد الألف. خذني إلى مكان يستطيع فيه رجالي إقامة معسكر، وتناول الطعام، وأخذ قسط من الراحة. ثم سآتي معك وحدي. ستأخذني إليه".

لم يسرد الضابط في البداية. بدأ أولئك الذين مع تسوبودي يتذمرون، مطالبين بحق حمايته وسط أعدائهم. هزّ رأسه، وأطبق عليهم الصمت.

تابـع قـائلاً: "سـيراني يا قائد الألف. هل قال ذلك؟ إنه سيراني إذا جئت وحدي؟ لقد درّبته. كان عليه أن يفكر في ذلك سلفاً".

أحـنى الـضابط رأسه. اهتزت يداه فيما كان يمسك باللجام، بالرغم من أن ذلك لم يكن من البرد.

رد: "سأقودك إليه أيها القائد".

مـرت ليلة وبزغ فجر يوم آخر قبل أن يدخل تسوبودي وقائد الألف على جـواديهما إلى معـسكر جوشي. من الموهبة التي صقلتها الأعوام، لم يسع القائد سـوى أن يلاحـظ خطوط الدفاع. كانوا قد اختاروا موقعاً محاطاً بغابات كثيفة وتلال تغطيها الأشجار. كان حتى الدرب إليه مغطى بالثلج بين أشجار قديمة. كان احترام تسوبودي للمستطلع الذي عثر عليهم قد ازداد كثيراً. كان سيوصي بالرجل إذا عاش ليعود إلى فرقته.

كانت هناك خيام في ذلك المكان، مصنوعة من لبّاد سميك يقي من البرد أكثر من الحجـارة أو الخشب. كان جرف مغطى بالأشجار يحمي المستوطنة من الرياح العاتية. فـيما كان يقود جواده عبر مساحة مكشوفة، رأى تسوبودي أغناماً وماعزاً في حظائر خـشبية، تتراحم معاً في تجمّعات بيضاء. كانت الأعداد صغيرة و لم يكن متفاجئاً لرؤية أكـواخ خشبية مصنوعة من جذوع أشجار الصنوبر المثبتة معاً. كان الدخان يتصاعد مـنها والقرية تبدو دافئة وأنيقة بشكل أسعد تسوبودي. كان قد ترعرع في مثل ذلك المكان، وكان كل منـزل منفصل عن الآخر بمسالك من الطين المتجمد.

لم يمـر وصـوله مرور الكرام. وقف رجال بالكاد يعرفهم يراقبونه. كانت سمعـته أسطورية بين القبائل، لكن بعيداً عن الفرق، لم يكن يتذكر سوى همسات الأسماء والتي لم تكن قوية بما يكفي ليكون واثقاً منها. تابع بعضهم أعمالهم عندما تجـاوزهم القائـد، لكن معظمهم وقفوا متكاسلين وحدّقوا إليه، واشتاقوا عندما تذكـروا عالماً مختلفاً. رأى كومة من فراء مدبوغ، وكان يتم إعداد جلود جديدة وغسلها في أحواض خشبية. لدهشته، رأى نساء شاحبات، وبعضهن حوامل. كن يعملـن بجدٍّ مثل الرجال لبث الحياة في تلك القرية المتجمدة و لم ينظرن إلى الأعلى عندما مر بهن. لم يكن اسم تسوبودي يعني لهن شيئاً.

وقـف جوشـي ينتظـر عند باب منـزل خشبـي، وكان المبنى منخفضاً وصـغيراً، لكنه يبدو متيناً مقارنة بالخيام. كانت كتفا جوشي أكثر قوة مما يتذكر تـسوبودي، ربمـا من العمل الشاق في بناء المستوطنة. شعر تسوبودي بقلبه يخفق سـعادة لرؤيته، بالرغم من الظروف. كان سيحث مطيته على الجري حبياً، لكن قائـد الألـف مـدّ يـده، وأمسك اللجام قبل أن يفعل ذلك. مع نظرة الرجل التحذيرية، ترجل تسوبودي، مراقباً طيلة الوقت من قِبَل جوشي.

أبقـى القائد وجهه خالياً من أي تعبير عندما سمح لاثنين من المحاربين بتفتيشه بحثاً عن أسلحة. كانا دقيقين، وفتّشا بطانة ردائه وأزالا كل حافة حادة من درعه، حـتى عـندما اضـطرا إلى نـزعها بسكاكين. تحمّل تفتيشهما من دون أن ينظر إلـيهما. اهتز أحدهما بقوة لنـزع قطعة حديد من درعه، وركّز تسوبودي بصره على الرجل، وجعله يتورد خجلاً فيما كان ينهي عمله. عندما انتهيا، كانت هناك كـومة مـن القطع الحادة التي تم رميها على الثلج، مع سيفه وخنجرين فوقها. تم الكشف عن القماش الثقيل تحت درعه في أماكن عديدة، وشعر بأنه فقد بعضاً من كـرامته. عـندها فقـط تقدّم جوشي إلى الأمام، فيما وقف رجاله بالقرب منه وسيوفهم جاهزة لبتر رأس القائد.

قال جوشي: "ما كان ينبغي لك أن تأتي يا تسوبودي". كانت عيناه تلمعان، وللحظة ظن تسوبودي أنه رأى عاطفة هناك، سرعان ما خمدت.

رد تسوبودي: "كنت تعرف أنني سآتي، بالرغم من أنك ستهجر هذا المكان بعد أن أغادر".

نظر جوشي حوله.

"ظنـنت أن ذلـك يستحق المخاطرة، بالرغم من أن الكثير من رجالي أرادوا قتلك في الغابة". هزّ كتفيه استخفافاً. "لدي مواقع أخرى، بعيداً جداً. سنعيد بناء كـل شـيء". أضـحت قـسمات وجهه أقسى. "لكنك كلّفتني الكثير الآن يا تسوبودي، فقط لأنك كنت تعرف أنني سأسمح لك بالمجيء".

تمالـك تـسوبودي نفسه، وكان يعرف أن حركة مفاجئة واحدة ستنهي حياته. بالإضافة إلى المحاربين الذين يحملون سيوفاً خلفه، لم يكن يشك في أن هناك رماة يتصيدونه.

"إذاً، تأكـد من عدم إضاعة الوقت يا جوشي. رحّب بـي في معسكرك وسنتكلم".

تردد جوشي. كان الرجل الواقف أمامه أحد أقدم أصدقائه، وشخصاً يحترمه أكثـر من أي رجل آخر. بالرغم من ذلك، لم يستطع التخلص من الشعور بالفزع الـذي انتابه بحضوره. لم يكن أكثر دهاءً من تسوبودي، وكان صعباً التخلص من شعور متعاظم بالخوف.

قال تسوبودي بلطف: "سعدت برؤيتك".

أومأ جوشي. "وأنا أيضاً يا صديقي القديم. أهلاً بك في معسكري. انضم إليّ لتناول الشاي والملح. سأدعك تعيش حالياً".

لوّح جوشي للمحاربين بأن يبتعدوا، وصعد تسوبودي درجتين خشبيتين إلى المنـزل الصغير المرتفع عن الأرض الطينية. تراجع جوشي إلى الخلف ليسمح له بالدخول أولاً وتقدم تسوبودي إلى الغرفة الصغيرة خلفه.

عـندما أغلـق جوشي الباب، لمح تسوبودي رجالاً مسلحين يتجمّعون في الخـارج. كانت الرسالة واضحة بما يكفي، وحاول أن يسترخي عندما بدأ البخار يتصاعد من إبريق حديدي وُضع فوق الموقد، سكب جوشي شاياً خفيفاً، وأضاف إلـيه الحليب وقليلاً من الملح من صرة تتدلى عند الباب. لم يكن هناك سوى سرير واحد منخفض في ذلك المكان، وجلس تسوبودي على كرسي صغير، يرتشف من كوب الشاي، ويستمتع بالطريقة التي يخفف بها البرد في صدره. بدا جوشي متوتراً، واهتزت يداه فيما كان يمسك كوبه.

سأل جوشي: "هل والدتي بخير؟".

أومأ تسوبودي. "إنها بخير في الأراضي الحارة، أكثر من أي منا. أشقاؤك أيضاً يصبحون أقوى كل عام. لدى أوجيدي الآن فرقة خاصة به وتولي كذلك، بالرغم من أنهما لا يزالان صغيرين. لن أرغب في رؤيتهما يتقاتلان. والدك...".

قاطعه جوشي بحدّة: "لا أهتم لحال والدي. هل أرسلك لتقتلني؟".

فـزع تسوبودي كما لو كان قد أحرق شفتيه. بحرص، وضع الكوب جانباً، وكان لا يزال نصف ممتلئ. كان قد فكّر في ما سيقوله في هذه المحادثة مرات عدّة، لكـن لم يكن هناك شيء يمكن أن يجعله مستعداً لشعور الأسى الذي انتابه عندما

رأى جوشـي محـدداً. في تلك اللحظة، كان سيتخلى عن أي شيء ليكون بعيداً، يجول أراضي مختلفة من أجل الخان.

"لقد أصدر جنكيز أوامر قاسية يا جوشي. لم أكن أرغب فيها".

قال جوشي من دون أن يلين: "بالرغم من ذلك أنت هناء كلبه المخلص. إذاً، قل لي ماذا يريد مني".

أخذ تسوبودي نفساً عميقاً.

"لديك سبعة آلاف رجل فقط يا جوشي. لا يمكنهم الوقوف ضد فرقتي. يقع مصيرهم في ما ينبغي لي طلبه منك".

جلس جوشي مثل حجر، و لم يبدُ عليه شيء حتى تابع تسوبودي كلامه.

"إذا عدت لوحدك، فسيكونون بأمان. إذا لم تعد، عليّ أن أقتلهم جميعاً".

قال جوشي وهو يستشيط غضباً: "إذا *استطعت*".

"نعم، لكن أنت تعرف أنني أستطيع".

"لـيس إن قتلتك هنا أيها القائد. أعرف هذه الغابات. سيقاتل رجالي دفاعاً عن منازلهم".

قال تسوبودي بهدوء: "إذا خرقت هدنة، سيقاتل رجالي للثأر لي. فكّر كقائد يـا جوشـي. لقـد أحضرتهم أنت إلى هنا، بعيداً عن والدك. إنهم يتطلعون إليك للحفاظ على شرفهم وحياتهم. هل تريد أن تراهم جميعاً يلقون حتفهم؟".

نهض جوشي على قدميه، سقط كوب الشاي على الأرض وتحطّم.

"هل تتوقع مني العودة ليذبحني والدي؟ أن أترك كل ما بنيته هنا؟ أنت مجنون".

"والدك لا يريد رجالك يا جوشي. بخيانتك له، جرحته علانية. لا يهتم بالنيل مـنهم، إذا عدت معي. نعم، ستموت، هل تتوقع مني أن أكذب؟ سيتم إعدامك لتـصبح عـبرة لكل رجل آخر ربما ينقلب ضده. لكن قومك سيُتركون وشأنهم. عـندما يغـادرون هذا المعسكر، لن يأتي أحد آخر بحثاً عنهم، ليس وأنا على قيد الحياة". نهض أيضاً ليواجه جوشي، وأصبحت تعبيرات وجهه صارمة.

"لقـد سـبّبت لهم هذا يا جوشي. أنت تحمل حياتهم بيديك وحدك. إما أن يلقـوا حـتفهم، أو تأتي معي وسيعيشون. هذا هو الخيار الذي ينبغي لك اتخاذه، واتخذه الآن".

كـــان صدر تسوبودي قد ضاق من رؤية الألم في الشاب. كان يشعر به في نفـــسه، لكن مثل جوشي، لم يكن لديه خيار آخر. رأى المقاومة تخرج من جوشي بزفير بطيء وعاد للجلوس في مكانه على السرير. كانت عيناه خاليتين من أي معنى فيما كان ينظر إلى الفراغ.

قال بصوت يكاد يكون همساً: "كان ينبغي لي أن أعرف أن والدي لن يدعني وشأني أبداً. لقد منحته كل شيء ولا يزال يطارد خطواتي".

كادت الابتسامة الحزينة تفطر قلب القائد.

"ما أهمية حياة واحدة، بالمحصلة، يا تسوبودي؟ حتى إذا كانت حياتي".

شدّ جوشي قامته، وفرك وجهه بقوة بيديه حتى لا يرى تسوبودي اللمعان في عينيه.

"هـــذا مكـــان جيد يا تسوبودي. كنا قد بدأنا نتاجر بالفرو، ونبيعه في أماكن أخـــرى. كـــان رجـــالي قد عثروا على زوجات في غارات وخلال وقت قصير فقط سيكون هناك أطفال هنا لم يسمعوا أبداً باسم جنكيز. هل يمكنك أن تتخيل ذلك؟".

"يمكنني. لقد وفّرت حياة كريمة لهم، لكن هناك ثمناً لها".

حدّق جوشي إليه بصمت لوقت طويل. أخيراً، أغمض عينيه.

"حسناً أيها القائد. يبدو أن والدي أرسل الرجل المناسب ليعيدني معه".

نهض مرة أخرى، واستعاد بعضاً من توازنه فيما كان يفتح الباب ويترك الريح تندفع إلى داخل الغرفة الصغيرة.

قال، وهو يشير إلى كومة على الثلج: "خُذ أسلحتك أيها القائد".

حـــولها، كـــان العديـــد مـــن الرجال قد تجمّعوا. عندما رأوا جوشي، أشرقت وجوههم. خرج تسوبودي، متجاهلاً الرجال العدائيين فيما كان يتوقف ليلتقط سيفه وخنجـــره. تـــرك القطع المكسورة من الدرع حيث كانت وربط حزام السيف إلى خصره ودفع بالخنجرين في حذائه. لم يشاهد جوشي يتكلم إلى ضباطه، ولم يكن يعتقد أنه يستطيع تحمّل ذلك. كان جواده جاهزاً، وغريب يمسك لجامه. أومأ تسوبودي إليه كما جرت العادة فيما كان يمتطي جواده، لكن الرجل كان ينظر إلى ما وراءه.

استدار تسوبودي ليرى جوشي يقترب. كان الشاب يبدو متعباً وأقصر قليلاً، كما لو أن شيئاً نقص منه.

"عد إلى فرقتك أيها القائد. سآتي إليك خلال ثلاثة أيام. هناك أشياء عليّ أن أقولها هنا".

انحنى تسوبودي في السرج، والعار يكلله.

قال: "سأنتظرك أيها القائد".

اهتز جوشي قليلاً من تلك الكلمة، لكنه أومأ بعد ذلك واستدار مبتعداً.

كان الثلج لا يزال يتساقط عندما تلاشى ضوء اليوم الثالث. لم يكن تسوبودي واثقاً بأن جوشي سيأتي كما كان قد وعد، لكنه لم يكن قد أضاع وقته. كان رجاله مستعدين لأي هجوم، كانوا يتجمدون في أماكنهم من البرد وينتظرون. كان مستطلعوه قد خرجوا في كل الاتجاهات ولم يكن من الممكن أخذهم على حين غرة. كان يقف أمام رجاله، يشاهد الرتل في أثناء اختفائه تحت الثلج الذي يتساقط. كان يأمل بأن تختفي ذكرياته تماماً، وأن يصبح رجلاً جديداً، بدلاً من أن تعذّبه بما كان قد فعله. كان لا يزال يتذكر شعوره عندما تلقى البيتز الذهبية من يد جنكيز، *والعالم* أمامه. كان قد نذر نفسه للخان، وبذل قصارى جهده دائماً ليثبت أنه يستحق ذلك الشرف. تنهد تسوبودي. كان الخان رجلاً يتبعه المرء، لكنه لم يكن يرغب في أن يكون ابنه.

وصل إليه مستطلعوه قبل جوشي، ونقلوا إليه نبأ وجود فارس واحد يشق طريقه عبر الغابة. لبعض الوقت، كان تسوبودي يأمل بألا يكون جوشي، وأن يخاطر الرجل بحياة رجاله لنيل حريته. كان جنكيز سيفعل ذلك، لكن جوشي كان قد عاش حياة مختلفة وتسوبودي يعرفه جيداً.

عندما رأى أنه جوشي، جلس تسوبودي ساكناً من دون حراك في سرجه. بالرغم من ذلك، كان يأمل بأن يغير جوشي رأيه، لكنه اقترب أكثر حتى أوقف جواده أمام القائد.

"خذني إلى الديار يا تسوبودي. خذني ودعهم يذهبون في حال سبيلهم".

أومأ تسوبودي وقاد جوشي مطيته بين محاربي تسوبودي الذين حدّقوا إليه، ولم يفهموا أبداً ما كان قد فعله. استدارت الفرقة لتعود إلى الديار واندفع قائدان عبر الرجال نحو المقدمة.

قال تسوبودي: "أنا آسف".

نظر جوشي إليه بغرابة، ثم تنهد.

قـــال: "أنت رجل أفضل من والدي". رأى نظرة تسوبودي تقع على سيف قبضة الذئب الذي يضعه على خصره. "هل تسمح لي بالاحتفاظ به يا تسوبودي؟ لقد فزت به بطريقة عادلة".

هز تسوبودي رأسه.

"لا يمكنني. سأحتفظ به لك".

تردّد جوشي، لكنه كان محاطاً برجال تسوبودي. كشّر فجأة، منـــزعجاً من كل النـــزاع الذي كان قد عرفه في حياته.

قال وهو يفك الحزام والقراب: "إذاً، خذه".

مـــدّ تـــسوبودي يده فوقه كما لو أنه يقبّل السيف. كان جوشي ينظر إلى الأســـفل إلى السيف عندما قطع تسوبودي عنقه بحركة واحدة سريعة. فقد الشاب الوعي قبل أن يسقط عن الجواد، وتناثرت دماؤه لامعة على الثلج.

كان تسوبودي ينشج عندما ترجل ليتفقد الجسد، وكان كل زفير يخرج منه بصعوبة.

قـــال: "أنا آسف يا صديقي. أنا رجل والدك". جثا إلى جانب الجسد الممدّد لوقت طويل وكان رجاله يعرفون أن عليهم التزام الصمت.

أخـــيراً، تمالـــك زمام نفسه ووقف، يتنفس الهواء المتجمد بعمق كما لو أنه يستطيع إزالة الدماء عن يديه. كان قد أطاع الأوامر، لكنه لم يكن مرتاحاً لذلك.

قال: "عند الفجر، سنعود إلى معسكرهم. سيأتون، بعد أن مات".

ســـأل أحـــد قادة الألف: "ماذا علينا أن نفعل به". كان هو أيضاً قد عرف جوشي عندما كان لا يزال صغيراً و لم يستطع تسوبودي النظر في عينيه.

"سنأخذه معنا. عامله برفق. لقد كان ابن الخان".

الفصل السادس والثلاثون



شدّ جنكيز لجام جواده عند مدخل وادي بانجشير. كانت رياح قوية تثير الغبار في ذلك المكان الشاسع، وعلى إحدى ضفتي النهر كانت هناك مجموعات من طيور الجيَف تقفز وتتقاتل مع بعضها بعضاً. تأفّف جنكيز من ذلك المنظر قبل أن يدفع بعقبيه برفق جواده لينزل إلى الأسفل. كان جيبي يقود أولئك الذين معه، بمن فيهم أفراد الفرقتين اللتين يقودهما ابناه الصغيران. كان رجال أوجيدي قد رأوا آثار للمعارك والغارات من قبل، لكن معظم أفراد فرقة تولي كانوا لا يزالون يافعين، وبعضهم لم يتجاوزوا الرابعة عشرة من العمر بعد. تقدموا بعيون تملأها الدهشة، حتى وكز الرجال الأكثر خبرة أضلاع أولئك الذين يحدّقون ببلاهة إلى قبضة السيف.

تسع أربعون ألف رجل جنكيز إلى بانجشير، مغبّرين ونحيلين بعد رحلة شاقة. كانت فرقة تشاغاتي وحدها قد بقيت لحماية العائلات ونقلها إلى مراعٍ جديدة. كان جنكيز قد أخذ كل رجل آخر متوفر، مع جوادين إضافيين لكل واحد منهم. محملة بقرب الماء والإمدادات، هرولت القافلة الكبيرة من المطيات خلف المحاربين، مع بعض رجال فقط في الخلف لرعايتها.

مع اجتياز جنكيز الأرض الترابية، اشتدت الحرارة حتى بدا أنها تضرب رؤوسهم مباشرة. كان النهر يجري إلى يسارهم، وهو المصدر الوحيد للحياة في ذلك المكان المهجور. استطاع جنكيز رؤية رايات ملقاة على الأرض عندما اقترب من ساحة المعركة، ومن بعيد، كان الناس يهربون من بلدة بروان إلى أمان الحصن على الضفة الأخرى من النهر. لم يتوقف جنكيز عندما تقدم نحو الطيور التي تتقاتل، وتفرّقت الغربان والنسور عندما وصلت إليها جياد رجاله وكانت تدور بغضب حولهم.

كان لا يزال هناك رجلان على تلك الضفة من النهر، يجلسان مثل تمثالين مع تقـدم الخـان منهما. كان كشيون قد تركهما لإرشاد جنكيز إلى الجبال، لكنهما كانـا شـاحبين من التوتر مع اقتراب الفرق منهما. محاطين بالطيور، قرّرا معاً أنها ستكون فكرة جيدة أن يترجلا ويجثوا. رأى جنكيز الحركة ووجّه مطيته نحوهما، وتبعه أوجيدي وتولي. بخلاف والدهما، كانا يحدّقان إلى كل شيء وبدا تولي شاحباً وضعيفاً، بالرغم من أنه حاول إخفاء ذلك.

ترجل جنكيز، ولم يظهر غضبه سوى عندما اقترب غراب كثيراً منه، فضربه بهياج بعيـداً عنه، وجعل الطائر يترنح في الهواء. كانت الكثير من غربان الجِيَف متخمة حتى لم تعد تقوى على الطيران، وأخذت تثب فقط من جيفة إلى أخرى، وتفتح أجنحتها السوداء ومناقيرها كما لو أنها تحذرهم.

لم ينظـر جنكيـز إلى الجثث، سوى لتقدير عددها. لم يكن ما رآه مفرحاً. وقف عند المستطلعين وشعر بأن صبره ينفد في الحر.

قال بحدّة: "انهضا، وقدّما تقريركما".

وثـبا علـى أقدامهما، ووقفا كما لو أنهما ينتظران إعدامهما. لم يكن أحد يعرف كيف سيكون ردّ فعل جنكيز على الهزيمة.

"لقـد تـبع القائد كشيون العدو إلى الجبال يا مولاي. قال إنه سيترك رجالاً آخرين خلفه ليرشدوك إليه".

سأل جنكيز: "هل لا تزالان على اتصال بهم؟".

أومـأ كـلا الرجلين. كان ذلك يتطلب استعمال محاربين أكفّاء، لكن عادة إنـشاء سلسلة من موقع إلى آخر لم تكن جديدة. كانت المسافة بالكاد تصل إلى خمـسة أميال بين المستطلعين وكانوا يستطيعون تمرير المعلومات على طول عشرين ضعف تلك المسافة خلال وقت قصير.

قـال مستطلع: "كانت هناك قوافل مزيفة يا مولاي، لكن الفرق تفتّش كل وادي. ليست لدي أنباء عن العثور عليهم، ليس بعد".

أطلق جنكيز لعنة بصوت خافت، واشتدت قسمات وجهي كلا المستطلعين خوفاً.

سأل: "كيف تفقدون أثر ستين *ألف* رجل؟".

لم يكـــن أيٌّ من المستطلعين واثقاً إن كان السؤال يتطلب إجابة، ونظرا إلى بعضهما بيأس. كان ارتياحهما واضحاً عندما تقدم جيبـــي لينضم إلى جنكيز، والذي نظر حوله نحو ساحة المعركة بعين خبيرة. بالإضافة إلى كتل صخرية موضوعة لصد هجوم، استطاع رؤية خنادق، ومحاربين وجياد نافقة بالقرب من بعضها.

كانت الأوتاد الخشبية المربوطة معاً إما مكسورة أو ملقاة على الأرض، لكن كان يمكن رؤية بقع جافة من الدم على بعضها. كانت هناك مئات الجثث بملابس مقاتلـــي ابـــن الشاه، ملقاة بأكوام يرثى لها فيما كانت الطيور وحيوانات أخرى تـــنهش لحمها. لم يكن ذلك كافياً، ولا حتى قريباً من الكفاية، ولم يستطع جنكيز الـــسيطرة على سخطه سوى بصعوبة بالغة. وحدها فكرة أنه يجب ألا ينتقد قادته بـــصوت عالٍ حبست لسانه. كان يعرف أن جيبـــي يستطيع رؤية الحقيقة، لكن بوجود أُوجيديْ وتولي ضمن مدى السمع، بقي جنكيز صامتاً. كان جيش جلال الدين قد حصّن موقعاً، وجعله مثل مدينة أو بلدة. كان كشيون قد حاول اختراق الـــدفاعات بالقوة، بدلاً من التراجع وانتظار أن يتضوروا جوعاً. ألقى جنكيز نظرة خاطفة على الشمس التي تُحرق رقبته. كان العطش سيقتلهم أولاً، بغض النظر عن الطريقة التي كانوا قد استعدوا بها. كان الهجوم على مثل ذلك المكان عملاً طائشاً، بالرغم من أنه افترض أنه ربما كان فعل الشيء نفسه. بالرغم من ذلك، كان ذكاء شـــقيقه قد خذله. كشّر جنكيز عندما استدار نحو جيبـــي، ورأى الأفكار نفسها تنعكس على ذلك الوجه الداكن.

قـــال: "نـــاقش نقاط ضعف الاستراتيجية مع ابنيّ عندما نقيم معسكراً أيها القائد. كان عليهم إيقاف ذلك الأمير هنا. علينا الآن أن نلحق به".

اســـتدار مـــرة أخرى نحو المستطلعين، اللذين كانا لا يزالان واقفين، يبتلعان ريقهما بعصبية.

"لـــيس هـــناك شيء آخر نراه هنا، لا شيء يسعدني. دلاني على الطريق إلى شقيقي والمستطلع الثاني في السلسلة".

انحـــنى كلا الرجلين، وقاد جنكيز جواده معهما، وانطلقت فرقه خلفه بتنظيم مثالي فيما كان يعبر وادي بانجشير، ويدخل ممراً ضيقاً، يكاد لا يظهر بين الصخور البنية. بالكاد كان عرضه يكفي لمرور الجياد.

انقـضت ثمانـية أيام أخرى قبل أن يصل جنكيز إلى فرق كشيون. في ذلك الوقت، لم يكن قد سمح لرجاله بالتوقف مدة كافية لطهي طعام، حتى عندما كانوا يجدون حطباً لإشعال نار. بدت الجبال في تلك المنطقة خالية من مظاهر الحياة، ولا يـوجد فيها سوى سحالي وأعشاش عالية لطيور. عندما عثر محاربون على شجرة قزمة، قطعوها بالفؤوس وربطوا الحطب إلى مطيات إضافية لاستعماله لاحقاً.

مـع مـضيه قدماً، التقى جنكيز بالمستطلعين الذين كان كشيون قد تركهم خلفـه، وأخـذ كـل رجل معه فيما كانت الفرق تتقدم بعيداً في متاهة الوديان. أحـياناً، كانوا يقودون مطياقم فوق منحدرات صخرية أشدّ انحداراً من أن يبقوا فـوق سروجهم. لم تكن هناك آثار في ذلك المكان. بدأ جنكيز وجيبـي يقدّران صـعوبة المهمـة على كشيون. كان صعباً حتى أن يعرفا الاتجاه الذي سيسلكانه، خاصـة في اللـيل، لكن المستطلعين كانوا يعرفون الطريق وتقدموا بسرعة. عندما وصـلوا إلى خلف فرق كشيون، اصطحب جنكيز جيبـي وابنيه إلى المقدمة، بحثاً عن شقيقه. عثر عليه في صباح اليوم الثامن، عند بحيرة ماء تحيط بها قمم شاهقة.

قـام جنكيز بعمل ذي مغزى عندما ضمّ كشيون في إشارة إلى الرجال أنه لا يحمل ضغينة على هزيمتهم.

قال، من دون تمهيد: "هل أنت قريب؟".

رأى كـشيون الغضب العارم في شقيقه وفزع. كان يعرف أن عليه ألا يفسر الأمر، و لم يكن لديه شك في أن جنكيز سيناقش أخطاءه بالتفصيل عندما يصبحان وحدهما.

"ثـلاث قوافل مموّهة تتجه شرقاً يا شقيقي، لكن القوة الرئيسة تتجه جنوباً، وأنا واثق من ذلك". أظهر كشيون لجنكيز قطعة من روث جواد، وفتّتها بين يديه. "لا تزال رطبة، حتى في هذه الحرارة. لسنا بعيدين عنهم أكثر من مسيرة يوم".

قال جنكيز وهو يرفع حاجبيه: "بالرغم من ذلك، توقفت".

"لم يعـد لـدي ماء يا شقيقي. هذه البحيرة مالحة وغير مفيدة لنا. الآن أنت هنا، ويمكننا الاشتراك في قُرب الماء والتحرك بسرعة أكبر".

أصـدر جنكيـز الأمر مباشرة، من دون أن يتوقف ليرى أول قُرب الماء التي تم إحـضارها. كان لديه آلاف منها على جياده الإضافية وكانت الحيوانات معتادة على

الرضـــاعة منها كما لو أنها لم تنسَ أبداً ضروع أمهاتها. كان يشعر بأن كل تأخير مثل مهمـــاز لغـــضبه المتنامي. كان صعباً ألا يوبخ كشيون بوجود عدد كبير من الرجال يراقبون الحديث. عندما جاء خاسار وجيلم لتحيته، بالكاد نظر جنكيز إليهما.

قـــال للقـــادة الثلاثة: "لدى تسوبودي أوامر بالانضمام إلينا عندما يعود. ما مضى قد مضى. انطلقوا معي الآن وردّوا دَينكم".

أثـــارت حـــركة صغيرة انتباهه ونظر جنكيز إلى الأعلى. على إحدى القمم، رأى رجلاً بعيداً يلوّح براية فوق رأسه. نظر إلى كشيون، متشككاً.

"ما *هذا*؟".

قال كشيون بتجهم: "العدو. إنهم يراقبوننا طيلة الوقت".

قـــال جنكيز، وهو يرغم نفسه على التزام الهدوء: "أرسل ستة رجال جيدين إلى الأعلى ليقتلوه".

"لقد اختاروا أماكن يستطيع رجل واحد الدفاع عنها. لقد تجاوزناهم بسرعة كبيرة حتى لا نضيع وقتنا بالقضاء عليهم".

سأل جنكيز: "هل أُصبت بضربة شمس يا شقيقي؟". مرة أخرى كان عليه أن يكافح للسيطرة على غضبه. "إنهم عيون جلال الدين. اجعل رجالاً ينطلقون أمامنا ويقتلونهم بسهام أينما وجدوهم. لا يهم إن سقط بعض المحاربين في أثناء محاولتهم الوصول إليهم. عندما يفقد عدونا عيونه، سنعثر عليه بسهولة أكبر".

حـــدّق جلال الدين بعيداً، يراقب إشارة الراية فيما كانت ترتفع وتنخفض أربع مرات.

قال: "لقد وصل الخان إلى الميدان". انقبضت معدته فيما كان يتكلم، وفجأة بـــدت كـــل قوة جيشه واهية. كان ذلك هو الرجل الذي دمّر كل أفواج والده، جعل الفيلة تئن ألماً، واستولى بالقوة على مدن ذهبية. كان جلال الدين يعرف أنه سيأتي، وكان ذلك يُفسد عليه بهجة انتصاراته. كان كبرياء الخان يتطلب وجوده، وكان جلال الدين يعرف أنه لن يتأخر في ملاحقته.

ســـأل نواز من فوق كتفه: "كم عدد الرجال؟". لم يكن قد أمضى وقتاً في تعلم إشارات الرايات، لكن جلال الدين لم يوبخه على ذلك.

"أربـــع فرق، أي أربعون ألف رجل إضافي خلفنا. سيتحركون بسرعة أكبر الآن".

طيلة اثني عشر يوماً، كانوا قد قادوا المغول في أودية ضيقة ومسالك مضلّلة، ولم يفقـــدوا ســـوى بضع رجال فيما كانوا يشقون طريقهم عبر التلال الأفغانية. لطالما كـــان الانسحاب المفاجئ من بانجشير يمثّل مغامرة، لكن جلال الدين كان يعـــرف أن النبأ سينتشر بالسرعة التي يستطيع بها تحريك جيشه. كانت مدن على مسافة ألف ميل تنتظر سماع نبأ هزيمة رجال الخان. فكّر جلال الدين فيهم فيما كـــان يحـــدّق إلى الـــشمس الـــتي كانت على وشك أن تغيب. سيثورون عندما يسمعون. كانت الحروب ستندلع في تلك الأماكن التي تحفظ فيها حاميات المغول الأمـــن. كان كل يوم يبقى فيه على قيد الحياة يُضعف قبضة الخان على الأراضي. أقسم جلال الدين بصمت فيما كان يقف هناك. كان سيهزها حتى تتقلقل.

كـــان رجـــال قد سلروا أمامه، وتركوا التلال بعيداً خلفهم لنقل النبأ. كان جلال الدين يعرف أنه إذا استطاع صدّ الخان لموسم واحد فقط، سيزداد عدد أفراد جيـــشه مع انضمام كل رجل وفتى يستطيع حمل سيف إليه. كان سيشعل الأرض لهيـــباً إذا ردّ الـــصاع صاعين للغازي. إذا بقي على قيد الحياة. ابتسم لتوازن، الذي كـــان يقف إلى جانبه مثل خادم مخلص. كان متعباً وقدماه تؤلمانه. كان قد مشى أمـــيالاً عديـــدة ذلك اليوم، لكن الخان جاء أخيراً. كان الوقت قد حان ليمتطي جواده، ويبتعد بسرعة عن الجبال.

لم يكتـــشف جنكيز أي خطأ في الطريقة التي كان كشيون يحرك بها فرقه عبر مـــتاهة الممـــرات. كان شقيقه قد أرسل رجالاً في كل الاتجاهات، وكان هؤلاء مرتبطين بالقادة مثل خيوط شبكة معقدة تنتشر فوق التلال. كانت الأخطاء قليلة بعـــد تعلّـــم الأمور الأساسية، ومع وجود جنكيز هناك، تفادوا طريقين مسدودين وقافلـــة مـــموّهة كانت ستبعدهم عشرة أميال عن طريقهم. شعر جنكيز باحترام وضغينة في آن معاً نحو الأمير الذي يطارده. كان سيحب أن يسأل تسوبودي عن الـــرحلة إلى بحر قزوين. خطر لجنكيز أن جلال الدين ربما يكون العقل الذي أبقى عائلته بأمان وليس والده، كما كانوا قد افترضوا من قبل.

كـــان غـــريباً كم كان اسم تسوبودي يتكرر في الأحاديث بين القادة. كان جنكيز يغير مجرى الحديث بإجابات مقتضبة أو التزام الصمت، ولم يكن يرغب في مناقـــشة المهمـــة التي كان قد أرسله لإنجازها. لم يكن من الممكن تسجيل بعض الأشياء في التاريخ الذي كان تيموج يكتبه. في أثناء تقدمه، تساءل جنكيز إن كان عليه التدقيق أكثر في سجل شقيقه عن القبائل. كان جزء منه لا يزال يفكر في أنه مـــن الحماقة تسجيل كلمات بمثل تلك الطريقة، بالرغم من كل ما يمكن القيام به للإشـــراف عليها. بالرغم من أنه تذكر سخرية أرسلان الهادئة عن الشهرة، إلا أن جنكيز كان يستمتع تماماً بفكرة تشكيل ذاكرته الخاصة. في سمرقند، كان قد ذكر إمكانية مضاعفة أعداد العدو في سجلات تيموج عن المعارك وترك شقيقه يفغر فاه من تلك الفكرة.

تحـــركت الفـــرق بسرعة أكبر عبر التلال، وتركت الجزء الأسوأ من المتاهة خلفهـــا. ضـــغط عليهم جنكيز للمضي قدماً واكتشفوا آفاقاً جديدة لقدرتهم على الـــتحمل تحت ناظريه. لم يكن أحد يرغب في أن يكون أول من يدعو إلى التوقف وكانـــوا ينامون لساعات قليلة فقط، ويستمتعون أحياناً بغفوة على سروجهم بينما يمسك أولئك الذين يكونون مستيقظين بألجمة جيادهم.

خلف المنحدرات والوديان الصخرية، كانوا آنذاك يتبعون قافلة فعلية، وآثار قوة كبيرة من الرحال والجياد. إضافة إلى أكوام من روث الجياد الجاف، كان هناك بـــراز رجال يغزوه الذباب بكثافة ليتغذى عليه، والذي يصبح أقل جفافاً كل يوم. كانت الفرق تعرف أنها تقترب من العدو. بحضور الخان، كانوا متعطشين للثأر من الهزيمة في بانجشير: لن يفشلوا مجدداً، ليس وجنكيز يراقبهم. سراً، كان جنكيز يظن أن بمقدور كشيون قيادتهم عبر التلال من دونه، لكنه كان يقود الأمة ولا يستطيع أن يثق بشخص آخر لإنجاز تلك المهمة.

كـــان كـــل يوم ينقل أنباء من سلسلة المستطلعين التي تمتد ألف ميل. كانت الأيام القديمة لجيش يتحرك وحده ولا يكترث أحد له قد ولّت بعد إخضاع أراضي الشاه. كان نادراً ألا يأتي كل يوم مستطلعان أو ثلاثة يعلوهم الغبار من مدن بعيدة مـــثل سمـــرقند أو مرو إضافة إلى مناطق أخرى في الغرب. كانت الأمة المغولية قد تركت آثاراً عميقة على تراب أرض الشاه.

كان جنكيز يستمتع وينـزعج من تدفق المعلومات في الوقت نفسه. كان قد أصبح رجالاً في وقت كانت تتحرك فيه فرقة غزو من دون أن يراها أحد عبر الأرض، أو تكون مسؤولة أمامه. آنذاك، كانت لديه مشكلات لا يسعه فعل شيء بشأنها، وكان يتمنّى أحياناً لو أنه كان قد أحضر تيموج معه ليتعامل مع تفاصيل التقارير. سمع أن مدينة هرات الأفغانية قد طردت الحامية المغولية، لكنها تركت أفرادها على قيد الحياة. كانت مدينة أخرى، بلخ، قد أغلقت أبوابها ورفضت إرسال جزية عام آخر. كانت الشقوق تتسع ولم يكن في وسعه أن يقف مكتوف الأيدي حيالها. كانت مهمته إيجاد وإذلال عدو كان قد منح جرعة من الثقة لمن سبق أن هزمها. في الوقت المناسب، سيذكّر هؤلاء بالتزاماتهم نحوه.

مضت الفرق السبع قدماً بسرعة متزايدة، وشكّل ذلك عبئاً على الرجال والجياد الإضافية. نظّم جيبي عملية استبدال المطيات الإضافية كل يومين وكان كل تغيير يبث فيهم طاقة جديدة بعد أن يشعر المحاربون بجياد متحفّزة تحتهم. كان فتية صغار يسيرون مع الإمدادات خلف الجيش ولم يلاحظهم جنكيز حتى أحضر جيبي ولدين صغيرين على سرجه، مباشرة إلى الخان. كانا أسودين من التراب حتى إن جنكيز لم يتعرف إليهما في البداية. كان الفتية يرافقون الجيش دائماً، إلا أن هذين الصبيين كانا صغيرين جداً. كانوا ينقلون رسائل شفهية لمحاربين ويُسمح للأكبر سناً منهم بقرع طبول الحرب في أثناء انتظام المحاربين في تشكيلاتهم.

كشّر أحد الصبيين الصغيرين ورفعه جنكيز إلى الأعلى، مندهشاً. كان مونغكي يجلس أمام جيبي وكوبلي يختلس النظر من خلفه. كانا يتمتعان بطاقة كبيرة شأن كل الفتيان اليافعين، وكلاهما نحيلان مثل جرذين وقد لفحت الشمس الحارقة وجهيهما. عبس جنكيز فيهما واختفت الابتسامتان مباشرة. انفرجت أساريره قليلاً، وتذكر وقتاً عندما كان العالم بأسره مغامرة. كانا يافعين للغاية للخروج في مثل تلك الرحلة وشكّ في أن والدتهما، سورهتاني، ستضربهما حتى يتمزق الجلد على ردفيهما عندما يعودان إلى العائلات مرة أخرى. تساءل إن كان لدى والدتهما تولي أي فكرة عن مكان وجودهما. كان جنكيز يشك في ذلك.

سأل جيبي: "ماذا تريد أن نفعل بهما؟".

كانـــت عيـــناه تلمعان عندما نظر إلى جنكيز وكانت هناك لحظة دعابة بين الرجلين. لم يكن أحد قد طلب من الصبيين أن يبقيا مع والدهما. لم يكن قد خطر لأي شـــخص أن يُصدر مثل ذلك الأمر لصبيين يافعين جداً. لم تكن لديهما أدنى معرفة بالخطر الذي يتهدد جدهما. قطّب جنكيز حاجبيه، وتجهّم وجهه.

قال: "لم أرَهما من قبل أيها القائد".

ومـــضت عينا كوبلي بأمل مفاجئ. اختار جنكيز أن يتجاهل الوجه الصغير، الـــذي تـــوجد عليه طبقة من المخاط بين الأنف والشفة العليا. أومأ جيبـــي، وقد ارتسمت ابتسامة صغيرة على شفتيه.

رد: "مولاي الخان"، وخفض رأسه فيما كان ينطلق مبتعداً ليضع الصبيين مرة أخرى بين قطيع الجياد الإضافية خلفهم.

ابتسم جنكيز لنفسه فيما كان يمضي قدماً. كان يظن أنه جدٌّ أفضل مما كان أباً، لكنه لم يدع الفكرة تقلقه كثيراً.

تقدمت الفرق بعناد حتى وصلت إلى حافة المنطقة الجبلية. كان جنكيز يظن أنهم ليـــسوا بعيدين أكثر من بضع مئات الأميال عن وادي بانجشير، بالرغم من أنهم قطعوا مـــسافة أطـــول على طول المنعطفات والمسالك. لم يكن يعرف إن كان جلال الدين يأمل بتوسيع المسافة بين الجيشين. كاد يفعل ذلك في الأيام الأولى، لكن الفرق كانت قـــد اقتربت من جيشه، وقلّصت المسافة يوماً بعد آخر. بحلول الوقت الذي وصلوا فيه إلى نهايـــة الجبال، بالكاد كان روث الحيوانات بارداً وأيضاً براز الرجال. انطلق جنكيز مـــع رجالـــه في مقدمـــة الجيش، وكانوا أول من شعر بانتقالهم من أرض صخرية إلى أخـــرى تـــرابية تتناثر فيها الأعشاب. من خرائطه، كان يعرف أن السهل المعشوشب يقود جنوباً إلى الهند. لم تكن تلك أرضاً يعرفها، لكنه لم يكن يهتم إطلاقاً لذلك. كان مستطلعوه يعودون بوتيرة أسرع وكان يعرف مكان العدو.

كان رجال جلال الدين يفرّون من أمام أولئك الذين يطاردونهم. كان جنكيز قد دفـــع جيشه بقوة طيلة أكثر من شهر وكان محاربوه متعبين وجائعين، وبالكاد تغذيهم الحـــصص القلـــيلة المتبقية من الحليب والدم. كان نهر السند يمتد أمامهم وكان جيش جلال الدين ينطلق نحوه، يائساً ليهرب من العاصفة التي كان قد أثارها في أعقابه.

الفصل السابع والثلاثون



حـدّق جلال الدين إلى أسفل منحدر يبلغ ارتفاعه أربعين قدماً نحو نهر السند الكبير، الشريان الكبير الذي يغذي قارة على امتداد ألف ميل جنوباً وأكثر. كانت التلال حول ضفتيه خضراء، تملأها أشجار السنط (الصمغ العربي) والزيتون البري القديمة. استطاع أن يشم شذا الزهور في النسيم. كانت طيور صغيرة تحلق في كل الاتجاهات، تزقزق حذرة عندما تجمّع جيشه. كان مكاناً مليئاً بمظاهر الحياة، لكن المياه كانت سريعة الجريان وعميقة، وهكذا كان يمكن أن يصبح نهر السند بمثابة سور للمدينة أيضاً. كان إقليم بيشاور يقع على مسافة قصيرة بعد النهر واستدار جلال الدين غاضباً نحو الأمير الشاب الذي كان يقف معه، وبصره مثبت على الضفتين الخاليتين.

قال جلال الدين: "أين هي القوارب التي وعدتني بها؟".

أشار نواز بوهن بيديه، محتاراً. كانوا قد دفعوا الرجال والجياد إلى حدّ الإرهاق للوصول إلى النهر، وكانوا يعرفون أنهم عندما يعبرونه، لن يستطيع المغول اللحاق بهم طيلة شهور، إذا لحقوا بهم. كانت الهند أرضاً غير معروفة لخان المغول وإذا تجرأ على دخولها، فسيرد مئة أمير بجيوش لم يرَ مثلها في حياته. كان جلال الدين قد خطّط لحمل انتصاراته مثل جواهر بين الأمراء، حتى يتمكن من العودة مع قوة أكبر. لم يسعه سوى النظر إلى الخلف نحو سحابة الغبار البعيدة التي تتصاعد في الهواء مثل نذير.

من دون سابق إنذار، أمسك جلال الدين بسترة الأمير الحريرية وهزّه بغضب.

صرخ في وجهه: "أين هي *القوارب*؟". شحب لون نواز من الخوف وأفلته جلال الدين من قبضته بسرعة، حتى كاد يقع.

تمتم الأمير: "لا أعرف. والدي...".

سـأله جلال الدين: "هل سيتركك تموت هنا؟ وأراضيك قريبة جداً؟". شعر بهستيريا متزايدة وكان صعباً أن يقاوم رغبته بضرب الأمير الشاب الأحمق الذي كان قد وعد بالكثير.

قال نواز: "ربما لا تزال في طريقها إلينا".

همهـم جـلال الدين، لكنه أومأ برأسه. خلال لحظات، كان هناك فرسان يدفعون جيادهم بأقصى سرعة جنوباً على طول الضفتين، باحثين عن الأسطول من السـفن التجارية التي ستنقلهم إلى برّ الأمان. لم يجرؤ على النظر إلى سحابة الغبار البعـيدة، وكان يعرف أن المغول هناك، وقادمون مثل ذئاب لديها أسنان حديدية لتمزيقهم إرباً.

دفـع جنكيز جواده للجري خبباً، يحدّق إلى الأمام. كانت عيناه قد أصبحتا أكثر ضعفاً، لهذا لم يكن يثق بهما للرؤية عبر مسافات بعيدة. بدلاً من ذلك، كلّف أوجـيدي بـسرد وصف مستمر للجيش الذي يواجهونه. كان صوت ابنه مليئاً بالإثارة.

"لقـد تجمّعـوا على ضفة النهر. أرى جياداً، ربما عشرة آلاف أو أكثر على الميمـنة التي تواجهنا، ميسرتهم". توقف أوجيدي، وجال ببصره عليهم. "أرى... صـفوفاً تتشكل حول القلب. إنهم يستديرون ليواجهونا. لا يمكنني رؤية ما يوجد خلف النهر بعد".

أومأ جنكيز. لو أن جلال الدين كان قد حظي ببضعة أيام إضافية، ربما كان قـد نقل رجاله إلى برّ الأمان. بدلاً من ذلك، أظهرت السرعة التي كان جنكيز قد دفعهم للانطلاق بها أنها تستحق التعب. كان قد لحق بالأمير على هذا الجانب من النهـر. كان ذلك سيفي بالغرض. استدار الخان في السرج نحو أقرب المستطلعين إليه.

"انقل هذه الرسالة إلى القائد كشيون. سأقود القلب مع جيبـي وأوجيدي. سيقود كشيون الميمنة مع خاسار ضد فرسانهم. قل له إنه يستطيع ردّ دين الهزيمة في بانجشير وإنني لن أقبل بأقل من ذلك. اذهب الآن".

تقدم مستطلع آخر ليأخذ مكان الشاب الأول الذي انطلق مبتعداً. كان الثاني مـــستعداً وتابـــع جنكيز كلامه. "القائدان جيلم وتولي سينفذان مناورة واسعة إلى يـــساري. أريد تثبيت العدو بإحكام في مكان واحد أمام النهر. مهمتهما صدّ أي صـــف ينسحب شمالاً". كان أفراد فرقة تولي لا يزالون يافعين لإرسالهم ضد جنود متمرّســـين. كـــان تثبيت الجيش في مكان واحد عملاً شريفاً بما يكفي لرجال لا ينـــــزفون بـــسهولة. لم يكن جيلم سيحب المهمة، لكن جنكيز كان يعرف أنه ســـيطيع. كانـــت الفِرَق ستشنّ هجوماً ضد جيش جلال الدين في ثلاثة أماكن، وتحاصرهم أمام نهر السند.

خفف جنكيز من اقترابه مع انتظام تشكيل الصفوف، وأدار رأسه يميناً ويساراً ليراقـــب الفـــرق تحاكـــي خطواته. نقل أوجيدي التفاصيل الجديدة إلى الصفوف البعيدة، لكن جنكيز لم يسمع شيئاً يتعارض مع الشعور المتزايد بالترقب في صدره. تذكر وجود حفيديه مع المطيات الإضافية، وأرسل مستطلعاً آخر إلى الخلف ليتأكد من إبقائهما بعيدين عن القتال.

تقدم ببطء حتى استطاع رؤية صفوف العدو بوضوح مثل أوجيدي، وأسكت ابـــنه بإشـــارة من يده. كان جلال الدين قد اختار موقع المعركة الأخيرة. لم يكن يستطيع اختيار الميدان هذه المرة.

شهر جنكيز سيفه، ورفعه عالياً فيما كان رجاله ينتظرون إشارة الهجوم. كان الجـــيش علـــى ضـــفة النهر يعرف أن من الأفضل له ألا يستسلم. كان الأمير قد جـــازف بكل شيء عندما عاد من بحر قزوين ولم يكن لديه مكان آخر يفرّ إليه. رأى جنكيـــز فرقتيْ جيلم وتولي تتقدمان على الصفوف الرئيسة، مستعدتين لفصل وتثبيـــت الميـــسرة. إلى يمينه، حاكى كشيون وخاسار المناورة حتى أضحى المغول يـــشكلون ما يشبه الكوب الفارغ، وجنكيز في أعمق أجزائه. واجهوا ستين ألف تابـــع متعصّب ورآهم جنكيز يرفعون سيوفهم كأنهم رجل واحد بانتظاره. بوجود النهر خلفهم، كانوا سيقاتلون من أجل كل قدم على الأرض.

انحـــنى جنكيـــز إلى الأمام في السرج، فرّج بين شفتيه الجافتين ليكشف عن أســـنانه. أنـــزل ذراعه فاندفعت الفرق إلى الأمام، وركل أفرادها مطاياهم لتجري بأقصى سرعتها.

كـــان جـــلال الدين يحدّق إلى فرسان المغول الذين جرّوا غبار الجبال معهم. اهتـــزت يـــداه غـــضباً وإحباطاً عندما نظر مجدداً نحو النهر الخالي. كانت الضفة الأخـــرى وبر الأمان قريبين جداً وآله التفكير في ذلك. كان بمقدوره أن يسبح في الميـــاه، بالـــرغم من سرعة جريانها، لكن معظم رجاله لم يكونوا قد تعلموا تلك المهـــارة أبـــداً. للحظات يائسة، فكّر في تمزيق درعه وقيادتهم نحو النهر، بعيداً عن الموت الذي رآه قادماً. كان يعرف أنهم سيتبعونه، لأنهم يثقون بأن الله (عزّ وجل) سيحميهم. كان ذلك مستحيلاً. بالنسبة إلى أولئك الذين أصبحوا رجالاً في التلال الأفغانية، في صحارى ومدن، كانت المياه العميقة منظراً نادراً لهم. كانوا سيغرقون بالآلاف مع دخولهم التيار السريع.

رأى وجوهاً عديدة تستدير نحوه، تتطلع إلى بضع كلمات تشجيع فيما كان العـــدو المقـــيت يـــشكّل كمّاشتين على كلا الجناحين. كان أشقاؤه هناك بينهم، ووجوههم تشع إيماناً. كافح جلال الدين اليأس.

صرخ قائلاً: "لقد أثبتنا أنه يمكن هزيمتهم! عددهم كبير، لكن ليس إلى درجة أنـــنا لا نـــستطيع تمزيقهم مجدداً. اقتلوا هذا الخان من أجلي وستعرفون الفردوس. ادعـــوا الله (عـــزّ وجل) أن يوجه سيوفكم ولا يهرب أحد منكم من القتال حتى يـــستطيع لقـــاء الله (عزّ وجل) بعزة. إنهم مجرد رجال!". صرخ: "دعوهم يأتون. سنثبت لهم أنهم لا يستطيعون الاستيلاء على هذه الأرض".

استدار أولئك الذين سمعوه نحو خان المغول وغضب جديد يشتعل في عيونهم. رفعوا تروسهم وسيوفهم المقوّسة فيما كانت الأرض تهتز تحت أقدامهم.

بـــسرعة قصوى، أشار جنكيز إلى الأسفل بسيفه. انطلقت موجة سهام على الـــصفوف مـــن كـــلا جانبيه، وتأخر بعضها قليلاً مع قيام كل فرقة بتنظيم الأمر وإطلاق الوابل. أمامه، رأى صفوف جلال الدين تجثم على الأرض، ترفع التروس عالـــياً. تأفـــف جنكيز غاضباً، وأمر بإطلاق وابل آخر طنّ نحوهم. نجا الكثير من رجـــال جلال الدين من الضربة الأولى ثم نهضوا على أقدامهم بسرعة كبيرة، ولهذا أصـــابهم الوابل الثاني من السهام. جعلتهم سهام تستطيع اختراق صفائح حديدية يتراجعون إلى الخلف.

وضـــع أفراد الفرق على جناحيه أقواسهم على سروجهم، وشهروا سيوفهم عـــندما وصـــلوا إلى العدو. إلى يمينه، أمامه، رأى جنكيز فرقتي كشيون وخاسار تـــسحقان الصفوف الواقفة، فيما هاجم تولي وجيلم الصفوف على ضفة النهر إلى يـــساره. من هناك، أطلقوا سهماً إثر آخر باستمرار. وقع رجال جلال الدين، بعد إصابتهم من الجانب فيما كانوا يرفعون تروسهم بشكل تلقائي إلى الأمام.

شـــم جنكيـــز رائحة النهر وعرق الخوف من آلاف الرجال فيما كان يدفع مطيـــته مباشـــرة نحو القلب. كان يأمل بأن يعثر على الأمير هناك، ينتظره. كان رجال جلال الدين يتنظمون في عشرة صفوف خلف بعضهم، لكن الجياد المغولية كانت مدربة على مثل ذلك الهجوم ولم تتردّد عندما اندفعت بينهم. اخترق جنكيز الـــصفوف الثلاثة الأولى، يلوّح بسيفه ويوقع رجالاً على الأرض من تأثير ضرباته. بركبتيه، أدار المطية في مكانها، وشعر بالتواصل القوي معها عندما ركلت بقائمتيها شخصاً وجعلته يتدحرج بعيداً. جاءت مجموعة من أفضل محاربيه معه، تحمي الخان بشراسة وتشق طريقها إلى داخل الجيش.

رأى جنكيـــز أميراً يرتدي ملابس مبهرجة ويعتمر عمامة واندفع نحوه قبل أن يدفعـــه رجال جلال الدين بعيداً عنه. رأى ترساً يندفع نحوه، وقام حامله بضرب وجـــه جواد جنكيز به وجعله يدور في مكانه. قتل جنكيز الرجل، لكن تم إرغامه علـــى التـــراجع خطوة أخرى مع تقدم المزيد من الرجال نحوه، وكانوا يستعملون التروس جيداً ويتلقون الضربات من حوله.

قلـــة قليلة منهم وصلوا إلى الخان ليلقوا حتفهم. كان ألف محارب يتحركون معـــه، وكـــل منهم اشترك في معارك أكثر من أن يتذكرها. شق الإسفين المدبب الـــذي شـــكّلوه طريقه عميقاً في صفوف جلال الدين حتى استطاعوا رؤية النهر أمـــامهم. تحرك جيبـــي وأوجيدي في قلب مجموعتين أخريين إلى جانبـــي الخان، وشـــكّلوا ثلاث أشواك حادة طعنت الجيش الذي واجهوه. كل من واجه المجموعة الأولى لقي حتفه، فيما قتل رجال خلفها أولئك الذين تجاوزتهم.

كـــان الـــضجيج مـــريعاً في الحشد، والأصوات تصم الآذان. شعر جنكيز بالتعب يزداد في ذراعه وأخطأه سيف انـــزلق على طول طبقة الحديد التي تحمي فخـــذه حتى جرحه فوق ركبته. كان ذلك مجرد جرح آخر في ساقيه يُضاف إلى

مجموعة كبيرة منها يحمل جلده ندوبها. زاد الألم من سرعته وضرب بسيفه وجه المهاجم.

لم يتـــراجع رجال جلال الدين، ربما لأنه لم يكن لديهم مكان يذهبون إليه. كان جنكيز يرغب في البداية في أن تتقدم المجموعات الثلاث معاً، وتشتت صفوف العـــدو. عـــن ظهـــور الجياد، انحنوا فوق رجال على الأرض، واستفادوا من ثقل الـــسيوف ليضربوا بها إلى الأسفل بقوة أكبر من أولئك الذين تحتهم وكانوا يرون دائماً الهجوم التالي القادم نحوهم. بالرغم من ذلك، شعر جنكيز بأنه محاصر من قِبل العـــدو وكان يعرف أن رجاله ينتابهم الشعور نفسه. رأى جواداً ينهار بعد ضرب قائمتيه الأماميتين، وبقي المحارب في السرج حتى طعنه سيف في عنقه. جاء محاربون يجأرون عبر الثغرة في المجموعة، يقاتلون للوصول إلى جنكيز نفسه. استدار، مستعداً لهـــم، لكـــن رجاله كانوا سريعين ويافعين. سدّوا الطريق قبل أن يصل أحد إليه. وقف في الركاب فيما كان يتم ضربهم وإيقاعهم أرضاً عن مطاياهم.

كان الجزء الخلفي من جيش جلال الدين يتحرك مثل دوامة، مع توجه المزيد مـــن الرجال نحو الخان. كانوا يحدّقون إليه في أثناء اندفاعهم عبر صفوفهم بغضب عـــارم. رأى جنكيز ميسرة مجموعته تتراجع، وتنهار تحت ضربات العدو الموجعة. استعمل البعض تروسهم في مجموعات من ثلاثة أو أربعة محاربين، وكانوا يدفعونها معـــاً حـــتى يستدير الفرسان على أنفسهم. اندفع المزيد من الرجال عبر المجموعة المهاجمـــة، واتجهوا مباشرة نحوه. كان لدى جنكيز وقت لإلقاء نظرة خاطفة على أوجيدي، لكن الضغط هناك لم يكن له مثيل.

قـــاد جنكيز جواده إلى الخلف ثلاث خطوات، مما أفسح له مجالاً مع وصول رجال جلال الدين إليه. كان جواده يستجيب لكل أمر من ضغط ركبتيه، واستدار حـــول نفسه ليتفادى الضربة القاتلة. بتر جنكيز رأس الرجل، لكن الضربة التالية أصابت قائمة جواده الأمامية. عندما تحرك الحيوان، استدار النصل في مكانه، لكن ثقـــل الحديد كان كافياً لكسر العظم. صهل الجواد وسقط جنكيز بقوة، وارتطم بالأرض وذارعه التي تحمل السيف ممدودة أمامه. شعر بشيء ينكسر بصوت مكتوم وكـــافح ليقف على قدميه من دون أن يفهم أن المفصل قد خُلع من تجويفه. كان يبدو أن هناك أعداء يصرخون في كل مكان وفقد إحساسه بما يدور حوله.

انكفـأت مجموعته على نفسها فيما كان رجاله يحاولون حماية الخان. اندفع المـزيد مـن الخلف للقتال فيما كان أحد المحاربين يترجل ويحاول دفع جنكيز إلى سـرج جـواده. لقي حتفه في أثناء ذلك، وتلقى طعنة في الظهر فيما كان جنكيز يمتطـي الجـواد مجدداً. كان سيف الخان قد اختفى وذراعه تتدلى من كتفه، وكل حـركة تسبب له ألماً مبرّحاً. أخرج جنكيز خنجراً من حذائه بيده اليسرى ودفع الجواد الجديد بعيداً. جأر رجاله في المساحة التي تركها خلفه، واستفادوا من قوتهم للقيام بهجوم جنوني أدّى إلى مقتل العديد منهم بعد أن أبطأ التعب سرعتهم.

انـسحب جنكيـز إلى صفوف رجاله، غاضباً من الضعف في ذراعه. خلال لحظـة زالـت بـسرعة، تمنّـى لو أن كشيون كان هناك ليعيد ذراعه إلى مكانها الـصحيح، لكـن كـان هناك رجال آخرون يعرفون التعامل مع إصابات ساحة المعركة. رأى أحد ضباط الألف، وناداه باسمه عبر صفوف القتال.

كـاد الضابط يفقد رأسه عندما استدار نحو الخان، واستجاب بتوجيه ضربة سـريعة إلى قدمـي الرجل الذي حاول قتله قبل أن يشد لجام جواده ليدور حول نفسه ويشق طريقه عبر الصفوف.

قال الضابط يلهث: "مولاي؟".

رد جنكيز: "أعد ذراعي إلى مكانها".

كـان الألم حـتى ذلـك الوقت شديداً. جعل الجواد يقف بهدوء فيما كان محاربـون يندفعون حول كليهما، يحدّقون بفضول إلى الخان. أعاد جنكيز خنجره إلى حذائـه، وأمسك بقربوس السرج بقوة بيده اليسرى فيما كان يدفع بقدم فوقه وينـزل إلى الأرض. توقف الضابط يلهث، ووجهه صارم.

قال: "استلق على الأرض ووجهك إلى الأعلى يا مولاي".

فعـل جنكيز ذلك متأففاً وبقي وجهه خالياً من أي تعبير فيما كان الضابط يمسك بذراعه المخلوع ويضغط بأصابعه على المفصل.

قال جنكيز بحدّة: "بسرعة!".

وضـع الضابط حذاءه تحت إبط جنكيز ودفع بقوة، ولوى الذراع في الوقت نفسه. كان هناك صوت مكتوم آخر، ورأى جنكيز شرارات فضيّة للحظة قبل أن يختفي الألم. سمح للضابط بأن يساعده على الوقوف على قدميه وحرّك ذراعه.

"لا يــزال بإمكانك الضرب بما إلى الأسفل، لكن تفادَ رفع الذراع بعيداً عن جسدك، مفهوم؟".

تجاهلـه جنكيز. شعر بأن ذراعه أضعف مما كانت من قبل، لكنه شدّ قبضته وابتسم. كان يستطيع حمل سيف.

إلى يمينه، كان كشيون وخاسار قد دمّرا فرسان جلال الدين، وجعلا عشرات السناجين مـنهم يهربون عندما حوّلوا سيوفهم وسهامهم نحو القلب. كان رجال جـلال الـدين عـالقين بين فكي كماشة، لكنهم تابعوا القتال، وكان يبدو أنهم مـصممون على أخذ أكبر عدد ممكن معهم. كان وطيس المعركة قد هدأ بعد أن تعب الجانبان، ورأى جنكيز أنه سيفقد الكثير من الرجال بحلول نهاية اليوم. حرّك ذراعـه، ونظر أمامه إلى حيث كان أوجيدي وجيبسي لا يزالان يقاتلان. كانت مجموعـتاهما سليمتين، والعدو يتراجع أمامهما. على سهل مكشوف، ربما كان قد اندفع إلى الأمام، وكان يعرف أنهم سيندحرون قريباً. أمام النهر، هزّ جنكيز رأسه ومدّ يده نحو بوق مستطيل يتدلى على صدره.

نفـخ نغمـة طويلة تراجعت قوتها تدريجياً، ثم كرّرها. تكررت على أبواق أخرى عبر الميدان وسمعها رجاله. انسحبوا، وهم يقتلون رجال جلال الدين الذين كانـوا يحاولـون مهاجمتهم. تراجع أولئك الذين كانوا لا يزالون يمتطون جيادهم أولاً، فـيما كان على أولئك الذين يقفون على أقدامهم أن يدافعوا عن كل خطوة مع اندفاع العدو لمهاجمتهم. كان عملاً دموياً، لكن مع بدء تلاشي الضوء، كانت هناك مساحة خالية بين الفرق والجيش على الضفة.

نظـر جنكيـز بحثاً عن مراسليه ولم يرَ أياً منهم في مكان قريب منه. أرسل محـاربين بحـثاً عنهم، وبدا أن وقتاً طويلاً قد مضى قبل العثور عليهم. بعد ذلك، جعلـهم يـرفعون الراية التي تستدعي قادته. أصدر أوامر لإقامة معسكر على بعد نـصف مـيل فقـط من النهر وذهب رجاله معه. لقد فقدت وجوههم الصرامة، وتـورّدت وجـنالهم غضباً ونشاطاً. كان بعضهم يضحكون بصوت عال. جاء آخرون بمزاج متكدر، بعد أن رأوا الموت عن قرب ذلك اليوم.

تركوا صفاً طويلاً من القتلى خلفهم، وكان عدد من سقط من رجال جلال الدين أكثر من رجالهم. كان جيش الأمير قد مُزق شر تمزيق، لكن أفراده كانوا لا

يــزالون يــسخرون منهم ويصرخون بفتور، وكانت الأصوات تصدر من رجال يلهــثون متعبين. رأوا المغول يترجلون على بعد ثمانمئة خطوة عنهم. تجاهلت الفرق الجيش خلفها على ضفة النهر، وجلب أفرادها الحيوانات المحملة بالطعام والماء فيما كانوا يستعدون للمبيت.

كــان جــلال الدين لا يزال على قيد الحياة، بالرغم من أن درعه كانت قد تعرّضـــت لضربات وتلمع في أكثر من مكان. كان يلهث مثل كلب تحت الشمس فــيما كــان يراقب المغول يبتعدون من دون أن ينظروا إلى الخلف. كانت أشعة الــشمس تــصبح رمادية، وبالرغم من أنه كان مرتاحاً للهدنة، إلا أنه كان يعرف أُهــم سـيعودون عــند الفجــر. كان ورجاله سيضطرون إلى القيام بكل شيء مجدداً.

همس لنفسه: "سأموت غداً".

لم يــسمعه أيٌّ مـــن رجاله فيما كانوا يمرّرون قُرباً من ماء النهر على طول الــصف لإرواء عطشهم. كان يشعر بنظراتهم إليه عندما وقف يحدّق إلى السهل، وربما يأمل بأن يخرج بخطة ما لإنقاذهم جميعاً.

جــاء أمير بيشاور عبر الصفوف لينضم إليه عند المقدمة، واستغرق منه الأمر لحظـــات ليربـــت على أكتاف بعض الرجال ويتبادل معهم بضع كلمات تشجيع. كان أولئك الذين أُصيبوا بجروح بالغة قد بدأوا يصرخون، وأضحى الضجيج فجأة عالــياً بعــد توقف المعركة. كان العديد منهم سيموتون قبل الصباح. كان لدى جلال الدين كميات من الأفيون لتسكين الألم، كافية على الأقل لتخدير عقولهم في أثــناء احتضارهم. كان ذلك كل ما يستطيع فعله لمساعدتهم وشعر بكراهية كبيرة لخان المغول.

استدار نحو صديقه وكان كلا الرجلين يعرفان أن الأمر قد انتهى، و لم يستطع أي منهما أن يتحمّل ما كان يبدو واضحاً في عيون الآخر.

قــال نــواز بهــدوء: "أظن أن والدي أمر بإحراق القوارب. إنه أحمق، تائه بالأســاليب العتــيقة والمعــتقدات الهندوســية القديمة. إنه لا يفهم لماذا اخترت أن أتبعك".

أومأ جلال الدين، وكان لا يزال يحدّق إلى معسكر المغول، الذي بدا قريباً بما يكفي ليمسّه. كان رجال الخان قد حاصروهم بقوس كبير. لن تكون هناك رحلة سرية من الضفة تلك الليلة.

ردّ جلال الدين: "أنا آسف لأنني أحضرتك إلى هذا المكان. كانت لدي آمال كبيرة يا صديقي! أن أرى الأمر يصل إلى هذا الحد...". توقف وبصق على الأرض وفزع نواز من الأسى في صوته.

"كنت تسبح عندما كنت فتى صغيراً يا جلال الدين. هل يمكنك عبور النهر؟".

"وأترك رجالي هنا؟ لن أفعل ذلك. كنت تغرق مثل حجر يا نواز، كما أذكر. كان عليّ إخراجك بنفسي".

ابتسم صديقه من الذكرى، تنهد لنفسه، وحدّق إلى المغول الذين يرتاحون في الظلام الذي يزداد حلكة.

"أظهرنا أنه يمكن إلحاق الهزيمة بهم يا جلال الدين. لا تزال قدوة للرجال. إذا استطعت تجاوز النهر، فسيضحّون بحياتهم بسعادة. ينبغي ألاّ ينتهي الأمر هنا. خذ أشقّاءك معك وانجُ".

رأى جلال الدين يزم شفتيه وتكلم بسرعة ليحبط أي اعتراض.

"أرجوك يا جلال الدين. دعني أقود الرجال غداً. إذا تأكدت أنك نجوت، فسأقاتل من دون ندم. لقد وعدت بأن تكون القوارب هنا. لا تدعني أموت مع هذا الذنب يا صديقي. هذا كثير عليّ".

ابتسم جلال الدين برقّة عندها، وسمح لنفسه بأن يشعر بالإرهاق الذي آلم كل مفاصله.

قال: "سيكون والدك فخوراً بك، إذا عرف ذلك. *أنا* فخور بك". ربّت على كتف نواز قبل أن يترك يده تبتعد عنه.

مع بزوغ الفجر، استيقظ جنكيز، وانزعج مباشرة لأن ذراعه كانت تبدو متيبسة مثل قطعة من الحطب. فيما كان ينهض عن الأرض الباردة، احتواها بحذر شديد. مع إبقاء مرفقه إلى جانبه، كان يستطيع تحريكها إلى الأعلى والأسفل

بشكل جيد، لكن إذا أبعد طرفه عن جسده، كان يشعر بأنه رخو ويفتقر إلى القوة. أطلق لعنة بصوت خافت، وكان يكره الضعف أكثر بكثير من الألم. كان قائد الألف قد جاء إليه مجدداً قبل أن ينام، اختبر المفصل وحذّره أنه بحاجة إلى شهر استراحة، ثم إلى شهرين آخرين ليعيد بناء العضلة التي ستضمر.

وقف جنكيز على قدميه بصعوبة، وأمسك بكوب من الشاي المر قدّمه إليه محارب كان ينتظر أن يستيقظ. ارتشفه ببطء، وشعر بالحرارة تطرد البرد من أطرافه. كان قد تكلم إلى قادته، وامتدح كشيون أمامهم لإصلاح الضرر الذي أحاق بسمعة شقيقه. كان قد امتدح أوجيدي أيضاً وكان سعيداً حقاً بابنه. بدا أن أوجيدي قد اكتسب مكانة رفيعة منذ أصبح وريثه. كان يتمتع بوقار لم يحظَ تشاغاتاي به أبداً، وتساءل جنكيز من غرابة القدر. ربما كان مُسيّراً لاختيار الابن الصحيح ليرث أراضيه.

كان بمقدورهم رؤية جيش جلال الدين بوضوح مع اشتداد الضوء. كانوا قد أبعدوا الكثير من القتلى وافترض جنكيز أنه قد تم إلقاء الجثث في النهر لينقلها التيار بعيداً. لم يكونوا مخيفين جداً آنذاك، كما فكّر جنكيز. كان نصفهم تقريباً قد ذُبحوا في اليوم السابق، وبالرغم من أن ذلك ربما كان يبدو من نسج خياله، إلا أنه ظن أنه رأى استسلاماً بالطريقة التي يقفون بها بصمت ينتظرون. لم يكونوا يتوقعون أن يبقوا على قيد الحياة وقد أسعده ذلك. فكّر في المدن التي استعجلت بالتمرد عليه. ستسمع بهذا اليوم وتفكّر في ما يعنيه لها. ستكون هرات وبلخ أُوليًا مَن يرى جيوشه ولن يقبل هذه المرة جزية أو استسلاماً. سيلقّنهم درساً قاسياً: لا يمكن السخرية منه أو خداعه.

ألقى جنكيز بالكوب على العشب، وأشار بإحضار جواد نشيط إليه. انتظمت الفرق في تشكيلاتها، وبالكاد ألقى جنكيز نظرة عليها، لأنه كان يعرف أن الضباط سيعملون خلال الليل لتقديم سهام وسيوف جديدة إلى أولئك الذين يحتاجون إليها. لم يكن شاباً يافعاً آنذاك، يستطيع العمل يومين أو ثلاثة من دون استراحة. في أثناء نومه، كان الكثير من محاربيه قد عملوا، وشحذوا سيوفهم، واعتنوا بجيادهم.

عندما امتطى جنكيز جواده، رأى مونغكي وكوبلي يجلسان مع الفتية الآخرين في مكان قريب، يتشاطران قطعة من اللحم المقدّد. تقطّب جبينه عبوساً

لـرؤيتهما، ونظـر حوله بحثاً عن أقرب ضابط ليأخذهما إلى مكان آمن. قبل أن يستطيع العثور على أحد، صرخ جيش جلال الدين متحدّياً، وجعل مجموعات من الطيور التي فزعت تحلّق عالياً من الأشجار القريبة من النهر.

وقـف جنكيـز في ركابه، وركّز بصره ليرى إن كانوا سيهاجمون. بدلاً من ذلك، انشقّ جيش جلال الدين وراقب جنكيز مذهولاً فيما كان رجل واحد يخرج من بينهم إلى الأرض بين الجيشين.

حـدّق الخان إلى الفارس الوحيد. لم يكن يعرف جلال الدين بشخصه، لكن لا أحد غيره كان سيفعل ذلك. فيما كان جنكيز يراقب، وقف كوبلي ومونغكي ليشاهدا ما كان يثير اهتمام جدّهما. راقب كلا الصبيين باهتمام بالغ عندما أخرج جلال الدين سكيناً وقطع أربطة درعه، حتى وقع أجزاءً.

رفع جنكيز حاجبيه، متسائلاً إن كان يرى نوعاً من الطقوس. خلال لحظات فقط، كان جلال الدين يجلس على جواده مرتدياً ثوباً بالياً وتبادل جنكيز نظرة مع الـضباط القريبين منه، محتاراً. رأى الأمير يرفع سيفه كما لو أنه يحييهم، ثم يقذفه على الأرض لينغرس في الأرض. هل كان يستسلم؟ جاء ثلاثة شبان من الصفوف وتكلموا إليه، متجاهلين حشد المغول. بدا الأمير مرتاحاً بوجودهم وضحك معهم. راقـب جنكيز بفضول عندما وضع الرجال الثلاثة رؤوسهم على ركابه، ثم عادوا إلى أماكنهم.

فتح الخان فمه ليأمر الفرق بالتقدم، لكن الأمير أدار جواده ودفع بعقبيه بردفي مطيـته. كـان جيشه قد أفسح له طريقاً حتى ضفة النهر، وأدرك جنكيز أخيراً ما كان يفعله جلال الدين. كان الخان قد رأى المنحدر قبل يوم وفزع عندما توقّع ما سيقوم به الأمير.

وصـل جلال الدين إلى الضفة الطينية وجواده يجري بأقصى سرعة. من دون تـردّد، قفـز الجواد والرجل معاً، واندفعا من فوق الحافة. كانت الفرق قريبة بما يكفي لسماع طرطشة الماء التي تبعت ذلك وأومأ جنكيز لنفسه.

نادى منبّهاً الصبيين من ذهولهما: "هل رأيت ذلك يا كوبلي؟ مونغكي؟".

أجابه كوبلي أولاً. "رأيته. هل مات؟".

هزّ جنكيز كتفيه استخفافاً. "ربما. المسافة طويلة إلى الضفة الأخرى".

فكّر لحظة، وأراد أن يتذكر حفيداه إشارة الكراهية. كان بمقدور جلال الدين إلقاء نفسه في النهر في أي وقت من الليل، لكنه أراد أن يرى الخان شجاعة قومه. بوصـــفه فارساً، كان جنكيز قد استمتع بتلك اللحظة أكثر من أي وقت آخر في الحملة، لكن كان من الصعب أن يفسر ذلك للصبيين.

"تذكّر اسم جلال الدين يا كوبلي. إنه عدو قوي".

سأل كوبلي مرتبكاً: "هل ذلك شيء جيد؟".

أومـــأ جنكيز. "حتى الأعداء قد يتمتعون بالشرف. كان والده محظوظاً لأن لديـــه مـــثل ذلك الابن. تذكر هذا اليوم وربما في الوقت المناسب ستجعل والدك فخوراً بك".

أمامـــه، أغلـــق جيش جلال الدين الفجوة ورفع أفراده سيوفهم. تقدم أشقاء جلال الدين الثلاثة إلى الأمام ودموع الفرحة في عيونهم.

ابتـــسم جنكيز، وبالرغم من أنه لم ينسَ إرسال الصبيين إلى الجزء الخلفي من الجيش قبل أن يُصدر الأمر بالتحرك.

الفصل الثامن والثلاثون

كانـــت الأمطار قد هطلت أخيراً على سمرقند، انهمرت غزيرة على السقوف المصنوعة من الآجر في المدينة واستمرت أياماً من دون أن يكون هناك ما يشير إلى أنهـــا ســـتتوقف عمّا قريب. جرت المياه في الشوارع مثل أنهار، ولم يكن في وسع الـــسكّان ســـوى تحمّـــل ذلك. انتشر المرض بعد أن فاضت البلاليع، واختلطت محـــتوياتها النتـــنة بالمياه الراكدة، والتي أفسد بعضها حتى أسوار المدينة. بقي الهواء حـــاراً بالـــرغم من ذلك، وهجر جنكيز قصر الشاه عندما ظهر وباء جديد فتّاك. كانت الأعراض تبدأ بالتقيُّؤ والإسهال، ولقي المرضى الأطفال وكبار السن حتفهم أولاً بعـــد أن أعـــياهم المرض. لم يكن أحد بمأمن أو للمرض نمط محدّد: في منطقة واحـــدة، مـــات المئات، فيما لم يعانِ أحد في الشوارع المحيطة بها. قال أطباء تشن لجنكيز إنه لا يمكن فعل شيء مع مثل ذلك الوباء حتى يأخذ مداه.

حـــثّ الخان أرسلان على مغادرة سمرقند، لكن القائد العجوز رفض، وكان ذلـــك حقـــاً له. كانت تلك مدينته. لم يكن أرسلان قد ذكر أن الأعراض الأولى للمرض قد ظهرت عليه عندما مشى مع جنكيز إلى البوابات، ورأى رجالاً يغلقونها بمسامير. بعد التأكد من سلامة الخان، كان أرسلان قد أغمض عينيه، وشعر بحديد ساخن في أمعائه فيما كان يمشي عائداً إلى القصر عبر الشوارع المقفرة. سمع جنكيز بموته بعد عدّة أيام فقط.

عـــندما نظر جنكيز إلى سمرقند بعد ذلك، كان يشعر بغضب وأسى، كما لو أن المديـــنة نفـــسها كانـــت مسؤولة. بكى أولئك الموجودون في الداخل على الموتى أو انـــضموا إليهم بينما لجأ الخان وقادته إلى الخيام في الخارج. لم يمت أحد هناك. كانت العائلات تحصل على الماء من بحيرات إلى الشمال ولم يصل المرض إلى المخيم.

أصبح تسوبودي في مرمى البصر عندما بدأت أعداد القتلى في المدينة تتراجع والهـواء يـصبح بارداً للمرة الأولى منذ شهور عديدة. عندما اقترب القائد، ازداد التوتـر بشكل ملحوظ في المخيم. أصبح جنكيز أكثر نـزقاً حتى لم يعد أحد يجرؤ علـى الاقتـراب منه. كان موت أرسلان قد وضع لمسة أخيرة على سنة سيئة و لم يكـن واثقـاً أنه يريد سماع ما حلّ بخوشي. لم يكن أحد قد مات طيلة أربعة أيام عـندما سمـح للمدينة بفتح بواباتها أخيراً وحرق الجثث المتعفنة. كان أرسلان بين الموتى، وجلس جنكيز إلى جانب المحرقة فيما كان صديقه القديم يتحول إلى عظام ثمّ رمـاد. اجتمع رفاق كوكشو ممن يعملون عمله مكتئبين لينشدوا من أجل روح القائـد إلى أب السماء، بالرغم من أن جنكيز لم يكن يسمعهم. حَسحَسَت النيران العظـيمة في الهواء، وأحرقت آخر مظاهر المرض. بطريقة ما، كان الأمر يبدو مثل ولادة جديـدة. أراد جنكيز وضع الذكريات السيئة خلفه، لكنه لم يكن يستطيع منع تسوبودي من العودة إلى الديار.

عـندما وصل تسوبودي إلى أسوار سمرقند في النهاية، كان جنكيز ينتظره في خيمـته، ضـائعاً في أفكاره المظلمة. رفع بصره إلى الأعلى عندما دخل القائد عبر الباب الصغير، وبالرغم من ذلك، كان جزء صغير منه يأمل بأن يكون قد فشل.

سلّم تسوبودي سيف قبضة الذئب إلى الخان، وعيناه لا تُظهران شيئاً. أمسك به جنكيز بوقار، ووضع القراب على حجره وأطلق زفيراً بطيئاً. كان يبدو أكبر سناً مما يتذكر تسوبودي، وأكثر نحولاً من خوض المعارك ومرور الزمن.

سأل جنكيز: "الجثة؟".

"كـنت سأعيدها، لكن الحرارة...". استقر بصر تسوبودي على كيس كان قد أحضره معه. كان قد حمل محتوياته الذابلة مئات الأميال.

قال: "لدي رأس جوشي".

فزع جنكيز.

رد: "خذه بعيداً وادفنه أو احرقه. لا أريد رؤيته".

لمعـت عيـنا تسوبودي للحظة. كان يتحرق شوقاً لرفع الرأس من الكيس وجعـل الخان ينظر إلى الوجه الميت لابنه. سيطر على تلك الرغبة بسرعة، وكان يعرف أنها ناجمة عن الإرهاق.

سأل جنكيز: "هل قاوم رجاله بعد ذلك؟".

هزّ تسوبودي كتفيه.

"اختار بعض ضباط تشن الانتحار. جاء الباقون معي، كما اعتقدت أنهم سيفعلون. لا يزالون خائفين من أنك ستقتلهم". تنفس بعمق. "قطعت وعوداً لهم". شعر تسوبودي أن جنكيز على وشك أن يتكلم وتخلى عن حذره. قال: "لن أرى كلمتي تُكسر يا مولاي الخان".

حدّق الرجلان إلى بعضهما مطوّلاً، وكل منهما يخمّن رغبة الآخر. أومأ جنكيز أخيراً.

"سيعيشون يا تسوبودي. سيقاتلون مجدداً من أجلي، نعم؟". ضحك بصوت خافت، بالرغم من أن ذلك كان بصوت متكلّف وبشع. أصبح الصمت غير مريح حتى تكلم تسوبودي مجدداً.

"سمعت بانتصارك".

وضع جنكيز السيف جانباً، مرتاحاً لأن بمقدوره الكلام عن أشياء دنيوية.

قال: "هرب جلال الدين. أرسلت مستطلعين بحثاً عنه، لكن ليس هناك أي دليل. هل تريد المهمة؟".

"لا يا مولاي. لقد اكتفيت من الحر. الشيء الجيد الوحيد الذي اكتشفته بالذهاب شمالاً كان الشعور بالراحة في البرد مجدداً. كل شيء نظيف هناك".

تردّد جنكيز فيما كان يفكّر كيف يردّ. شعر بمرارة كبيرة في القائد ولم يكن يعرف كيف يخفّف عنه. تذكر أسوأ أوقات حياته وكان يعرف أن الزمن وحده سيداوي الرجل، وليس أي شيء يقوله. كان تسوبودي قد أطاع أوامره وكان مغرياً أن يخبره بما فعل ليستمدّ الراحة من ذلك.

حبس جنكيز لسانه. كان القائد المكتئب قد جلب شيئاً يشبه الوعيد إلى الخيمة وشعر جنكيز بتوتر غير ظاهر يزداد فيما كان يكافح للعثور على الكلمات المناسبة.

"سأنقل الأمة إلى هرات في الغرب. ضربة قوية واحدة هناك ستثير خوف المدن الأخرى. بعد ذلك، أظن أنني سأعود إلى الديار لبضعة أعوام. لقد مرّ وقت طويل، وأنا متعب".

أمال تسوبودي رأسه قليلاً، وشعر جنكيز بأن مزاجه بدأ يتعكّر. كان الرجل قد نفّذ أوامره وجوشي ميت. ماذا يريد أكثر؟

سأل: "هل سمعت أن أرسلان مات في المدينة؟".

أومأ تسوبودي برأسه ثمّ قال بهدوء: "كان رجلاً رائعاً".

تقطب جبين جنكيز عبوساً من النبرة الهادئة.

قال: "بالرغم من ذلك، لم تكن ميتة مجيدة".

مرة أخرى، لم يضف تسوبودي أي شيء إلى الحديث المتكلف، وظهر غضب الخان على وجهه.

"ماذا *تريد* مني يا تسوبودي؟ عبّرت لك عن شكري. هل تظن أنني سعيد أن ذلك قد حدث؟". ألقى جنكيز نظرة على الكيس بين قدمي تسوبودي وكاد يمدّ يده نحوه. "لم تكن هناك طريقة أخرى أيها القائد".

رد تسوبودي: "لا زلت أشعر بالأسى عليه".

حدّق جنكيز إليه، ثم أشاح بنظره بعيداً.

"كما تشاء يا تسوبودي. سيشعر كثيرون بالأسى عليه. كان جيبي صديقه، وكذلك كشيون. والدته مذهولة من حزنها، لكنهم يعرفون أن الأمر صدر مني".

قال تسوبودي متجهماً: "بالرغم من ذلك، أنا الرجل الذي قتل ابن الخان".

هز جنكيز رأسه.

قال بصوت قاسٍ: "لم يكن ابني. ضع هذا جانباً وانطلق معي إلى هرات".

هز تسوبودي رأسه.

"لا تحتاج إليّ هناك".

سيطر جنكيز على شعوره المتزايد بالغضب من الرجل. بالكاد كان يفهم ألم تسوبودي، لكن كان هناك دين ينبغي تسديده، وأدرك أن القائد لا يستطيع العودة ببساطة إلى الأمة.

قال بصوت قاسٍ: "إذاً، مرة أخرى يا تسوبودي. مقابل خدمتك، اسأل: ماذا تريد مني؟".

تنهد تسوبودي. كان يأمل بأن يشعر بطمأنينة عندما يسلم السيف والرأس إلى الخان. لكنه لم يحظَ بذلك.

"دعني آخذ الفرق إلى الشمال مرة أخرى، إلى البرد النظيف. سأحتل مدناً باسمك هناك، وأغسل عني عار ما كنت قد قمت به".

أحنى تسوبودي رأسه أخيراً، وحدّق من دون أي انفعال إلى الأرضية الخشبية فيما كان جنكيز يفكر في الأمر. كان جيبي يخطط لغارة شمالاً قبل أن يهاجمهم جيش جلال الدين في بانجشير. في أوقات عادية، كان جنكيز سيرسل القائدين من دون أي تفكير. أقلقه كثيراً البؤس الشديد الذي رآه في تسوبودي، لأنه شعر به بنفسه، لكنه قاوم. كان قد ثأر من إهانات ملوك صغار. كان الشاه ميتاً، وكل أبنائه عدا أكبرهم سناً، وكان جنكيز قد سحق مدناً من الشرق إلى الغرب. كان يبحث عن رضا المنتصر، لكنه لم يعثر عليه. بطريقة ما، كانت خيانة جوشي وموته قد أفسدا المتع البسيطة.

بعد وقت طويل، أومأ جنكيز.

"حسناً يا تسوبودي. خذ جيلم ورجال جوشي. سأضطر إلى إرسالهم بعيداً، ليتعلموا من حديد الانضباط الذي أتوقعه من أولئك الذين يتبعونني".

رفع تسوبودي ناظريه عن الأرضية، ولم يكن غافلاً عن التحذير.

"أنا وفيٌّ لك يا مولاي الخان. لطالما كنت وفياً لك".

قال جنكيز، وهو يخفّف من حدّة نبرته بجهد واضح: "أعرف ذلك". كان يعرف أنه يفتقر إلى اللمسة الرقيقة التي كان كشيون سيضفيها على مثل ذلك الاجتماع. نادراً ما فكّر جنكيز كيف كان يحكم رجالاً مثل تسوبودي، الأكثر موهبة من أي شخص آخر يعرفه. في سكون الخيمة، شعر بحاجة إلى التخفيف من حزن القائد بقول كلمات مناسبة.

"كلمتك حديد يا تسوبودي، كن فخوراً بذلك".

نهض تسوبودي وانحنى بصلابة. توقفت نظرته على الكيس قبل أن يرفعه ويضعه على كتفه.

قال: "ينبغي لكلمتي أن تكون هكذا يا مولاي. إنها كل ما تبقى لي".

كانت هرات على بعد خمسمئة ميل إلى الجنوب الغربي من سمرقند، وحولها نهران واسعان مع اثني عشر جدولاً بينهما. بعد وضع خيام الأمة على عربات،

اختار جنكيز الاقتراب من المدينة الحصن من ذلك الاتجاه بدلاً من العودة إلى الجبال حول بالتحشير والانطلاق غرباً عبر متاهة الوديان والتلال. كان تسوبودي وجيبي قد اتجها شمالاً من سمرقند، وأخذا فرقة جوشي وشعوراً كئيباً معهما. كان يتم سرد قصة تلك المطاردة والقتل همساً داخل آلاف الخيام، لكن ليس عندما يكون بمقدور الخان أن يسمع.

مرّ أكثر من شهرين قبل أن ترى العائلات حجارة هرات البرتقالية، والمدينة بجانب النهر. كانت تقوم على طبقة من الغرانيت، وبالنسبة إلى عيون المغول، كانت عتيقة بشكل لا يُصدّق. في الغارات الأولى على المنطقة، كانت هرات قد استسلمت من دون إراقة دماء، وحافظ السكان على حياتهم مقابل الجزية وقبول الاحتلال. كان كشيون قد ترك حامية من ثمانين رجلاً فقط ثم نسي أمر هرات حتى تمرّدت المدينة عليهم، بعد أن أثارتها انتصارات جلال الدين.

عندما اقترب جنكيز منها للمرة الأولى، أعجبته ضخامة حصنها. كان البناء مربع الشكل على قمة صخرية، وأسواره ترتفع أكثر من مئة قدم من قاعدة متينة، مع أبراج دائرية كبيرة تقع على كل زاوية وعلى امتداد الأسوار. عدّ اثني عشر برجاً، كل منها بضخامة البرج الذي كان قد لجأ إليه شعب بروان. كان بناءً ضخماً، يمكنه حماية آلاف الأشخاص الذين تسابقوا للدخول إليه هرباً من الفرق. تنهد جنكيز لنفسه من ذلك المنظر، وكان يعرف من التجربة أن النصر لن يكون سريعاً. كما حدث مع ينكينغ وينشوان، كان عليه محاصرتها وانتظار أن يتضور مَن بداخلها جوعاً.

تم إغلاق بوابات الحصن من دونه، لكن جنكيز أرسل ضباطاً ومترجمين ليطلب الاستسلام عندما بدأت الفرق تقيم معسكرها. لم يأتِ أي جواب، وبالكاد أرهف جنكيز السمع عندما رفع الضباط خيمة بيضاء خارج نطاق مرمى السهام. لم يكن يعلم إن كان شعب هرات يعرف طقوسه أو يهتم لذلك. كانت الخيمة البيضاء ستبقى يوماً، يتبعها أخرى حمراء ثم القماش الأسود الذي يشير إلى فناء كل من يوجد داخل الحصن.

انقضى يومان آخران قبل أن يتم تجميع المنجنيقات أمام الأسوار وبقي أبناء هرات صامتين. تساءل جنكيز إن كانوا يثقون بأسوارهم أم أنهم يفهمون ببساطة

أنـــه لا يقبل استسلاماً سلمياً مرة ثانية. انتظر متوتراً حتى طارت الحجارة الأولى، وارتدت عن الأسوار البرتقالية مخلّفة وراءها علامات مبهمة عن المكان الذي كانت قد ضربته.

رفـــرفت الخـــيمة السوداء في النسيم واسترخى جنكيز، وجهّز نفسه لحصار طويل كما كان قد فعل عدّة مرات من قبل. كان ذلك أسلوباً لا يحبه في الحرب، لكـــن مثل تلك الحصون كانت قد بُنيت لإبقاء جيوش مثل الذي يقوده خارجها ولم يكن هناك حلٌ سريع.

بالنـــسبة إلى أمة في الخيام، مضت الحياة قدماً حول هرات، ولم يعكّر صفوها سوى أصوات المنجنيقات طيلة الليل والنهار. كانت العائلات تسقي حيواناتها من النهـــر، وتركت تدمير المدينة للمحاربين. كانت الأمطار قد أنبتت أعشاباً نضرة، بالرغم من أنها كانت ذابلة آنذاك في أماكن تصلها أشعة الشمس. كانت مثل تلك الأمور اعتيادية بالنسبة إليهم، وإذا لم تسقط المدينة بسرعة، فسيرسلون القطعان إلى مراعٍ أبعد، ويتركون التلال القريبة للاستفادة منها في ما بعد.

ارتـــاح جنكيز، وكانت جروحه قد أضحت ندوباً ناتئة على ساقيه وذراعيه. لم يفكـــر في جوشي سوى بارتياح لأنه كان قد وضع حداً للخيانة. بعد أن غادر تسوبودي، بدا الخان منتعشاً، ومستعداً للانقضاض على هرات مع الأمة والبدء من جديـــد. كانت ذراعه قد شُفيت بمرور الوقت وكان يمتطي جواده كل يوم ليقوّي جسده، متجاهلاً أوجاع وآلام التقدم في العمر. كان قد أرسل تشاغاتي وكشيون لحـــصار مدينة بلخ في الشرق، لكن القوة الرئيسة للأمة كانت قد جاءت معه إلى الحصن واستمد الشجاعة من رؤية المعسكر. لم تكن زوجته بورت قد تكلمت معه مـــنذ سمعـــت بمصير جوشي، لكنه كان غافلاً عن ذلك. كان العالم تحت قدميه، وكان قوياً فيما كان ينتظر سقوط هرات.

في الـــشهر الرابع للحصار، كان جنكيز يصطاد مع ضباط حول المدينة. بعد تمضية وقت طويل في مكان واحد، لم يكن هناك الكثير من الكائنات الحية التي لم ينتـــه بهـــا الأمـــر إلى قدور العائلات. لم تبقَ سوى بضعة أرانب وكانت كائنات حذرة، معتادة على الهروب من صوت جواد أو إنسان.

كانت بلخ قد سقطت قبل شهرين وقد ذبحت فرقه سكانها، وهدمت حجارة أسوار المدينة. وحدها هرات كانت لا تزال صامدة وكان جنكيز متعباً من الحصار والأراضي الحارة. كان قد تملّكه الأمل بحصول نهاية سريعة عندما عاد كشيون وتساغاتي، لكن حصن هرات كان واحداً من أقوى التحصينات التي حاول الاستيلاء عليها.

مع انتهاء الفصل، كان جنكيز قد نقل منجنيقاته ثلاث مرات، وركّز قذف حجارتها على أقسام عريضة من الأسوار. كانت قد ظهرت عدّة تصدّعات مما أثار ابتهاجاً كبيراً في المخيم، لكنه كان يشعر أحياناً أنه يهاجم جبلاً، وبجهد كبير. صمدت الأسوار، بالرغم من الضربات التي تلقتها والتصدّعات التي ظهرت عليها في ألف مكان. بحلول ذلك الوقت، كان جنكيز يعرف أن الجوع والعطش سيدمران المدينة، لكنه جعل أسلحة الحصار تتابع عملها.

تمتم جنكيز لنفسه، وهو ينظر إلى الأعلى نحو الأسوار: "عندما ينتهي هذا، سنعود إلى الديار".

كان كشيون وخاسار قد سمعا ذلك مئة مرة من قبل من شقيقهما وبالكاد تبادلا نظرة. اندفع أرنب من مخبأه بعيداً أمامهم ودفع الثلاثة بأعقابهم بأرداف مطاياهم وطاردوه. بالرغم من ضجيج الحوافر، سمع جنكيز صرخة حادة فوق رأسه ونظر إلى الأعلى. كان هناك دائماً شخص يحدّق إلى الأسفل نحو مخيمه من فوق الأسوار، لكنه رأى هذه المرة أن رجلاً كان قد انحنى إلى الخارج كثيراً. كان المراقب سيئ الحظ بالكاد قد تمالك نفسه وتشبث آنذاك على الحافة الخارجية بأطراف أصابعه. صفر جنكيز لشقيقيه، وأشار فيما كان الرجل يصرخ طلباً للعون فوق رؤوسهم.

استدار خاسار وكشيون، وحدّقا إلى الأعلى باهتمام.

سأل خاسار: "أتراهنان؟ أراهن بجوادين على أنه سيسقط؟".

رد جنكيز: "ليس مني يا شقيقي".

كان هناك آخرون يمدّون أيديهم إلى الأسفل لسحب الرجل إلى برّ الأمان، لكنه أطلق صرخة يأس عندما شعر بيديه تنزلقان. راقب جنكيز وشقيقاه باهتمام سقوطه إلى الأسفل، وارتعاشه في أثناء ذلك. للحظة، بدا كما لو أن قنطرة نافذة

حجـــرية قد تنقذه. أمسكت يداه بحافتها، لكنه لم يستطع الصمود. فزع الأشقاء عـــندما ارتطم بالسور مجدداً، وسقط إلى الأسفل على القاعدة الصخرية للحصن. تدحرج الجسد رخواً واستقر في مكان ليس بعيداً جداً عن جنكيز. لدهشته، رأى جنكيز ذراعاً تهتز.

قال: "إنه حي".

رد خاسار: "لبضع ضربات قلب. سيقتل السقوط أي شخص".

دفع جنكيز وشقيقاه جيادهم للجري خبباً إلى حيث كان الرجل ممدداً. كان واضـــحاً أن أحد كاحليه مكسور، والقدم ملتوية. كان جسده كتلة من الكسور والجروح، لكنه نظر برعب إلى القادة، غير مصدّق أنه كان قد نجا.

شهر خاسار سيفه للإجهاز على الرجل، لكن جنكيز رفع يده.

"إذا لم تقـــتله الأرواح بعـــد هـــذا، فلن نكون من يفعل ذلك". نظر إلى الأعلى مندهشاً من المسافة التي كان الرجل قد سقط منها، قبل أن يخاطب الرجل بلغة ثقيلة.

قال جنكيز: "حظّك رائع".

صـــرخ الـــرجل عـــندما حاول أن يتحرك وحدّق هو أيضاً إلى الأعلى نحو الأسوار فوق رأسه.

رد: "لا يبدو أن... في الأمر حظّاً".

كشّر جنكيز عليه.

"خـــذه إلى طبيب يا خاسار. عندما يتم تضميد جروحه، امنحه فرساً جيدة وكل ما يطلبه".

كـــان يمكـــن رؤية المزيد من الرجال آنذاك على الأسوار فيما كانوا يحدّقون وينحنون إلى الأسفل، وبعضهم بعيدون مثلما كان ذلك الرجل الذي استقر آنذاك عند قدمي جنكيز.

قال الخان بلغته: "عندما تسقط المدينة، ستعرف كم أنت محظوظ حقاً". نظر الرجل من دون أي انفعال إليه وترجّل خاسار لمساعدته على امتطاء السرج.

تداعت أسوار هرات وسقطت في الشهر السادس للحصار. انهار أحد الأبراج مـــع الـــسور، تحطّم على الصخور أسفله وترك فجوة واسعة إلى المدينة. اجتمعت

الفرق بسرعة، لكن لم تكن هناك مقاومة. عندما دخلوا هرات، وجدوا أن الشوارع والأبنية تغصّ بالموتى والمحتضرين. تم إخراج أولئك الذين كانوا لا يزالون على قيد الحياة إلى السهل وجعلهم يجثمون لتقييدهم. استغرقت تلك المهمة وحدها عدّة أيام لأن الحصن كان مليئاً بالرجال، والنساء، والأطفال. كلّف تيموج خدمه بمهمة تعداد الأسرى على ألواح شمعية، ووصل العدد الإجمالي إلى مئة وثلاثة وستين ألفاً، وكان نصف ذلك العدد تقريباً قد لقي حتفه عطشاً أو جوعاً في الحصار. في خوفهم ويأسهم، كانوا يصرخون ويتأوهون في أثناء تقييدهم لقتلهم، وكان الصوت يقطع مسافة بعيدة بين الخيام. فتّش محاربو الخان كل غرفة، وقاعة، وقبو في المدينة حتى أضحت صَدَفَةً فارغة تملأها الجثث. لم تكن رائحة المدينة بعد الحصار تشبه أي شيء عرفوه من قبل وعمد حتى محاربون متمرسون إلى سدّ أنوفهم فيما كانوا يُخرجون الجثث المتعفنة.

كانت الشمس على وشك أن تغيب عندما انتهى تيموج من تعداده، وأصدر جنكيز أمراً بأن يبدأ القتل والذبح عند الفجر. عاد إلى الخيمة ليأكل وينام، لكن زوجته تشاكاهي بحثت عنه مع اشتداد الظلام. في البداية، لم تقل شيئاً ورحّب بحضورها. أشعلت الموقد الحديدي، حضّرت الشاي، وسخّنت أرغفة من الخبز، ولحم الضأن، والأعشاب التي كانت قد أعدتها ذلك الصباح. لم يرَ التوتر الذي كانت تخفيه عنه، وعندما قدّمت إليه طبقاً من أرغفة الخبز، أمسك بيدها وشعر بها ترتجف.

سأل: "ما الأمر؟".

أحنت رأسها. كانت تعرف أنه يستجيب بشكل أفضل للصراحة الفجّة، لكن قلبها كان يخفق بسرعة كبيرة وتتنفس بصعوبة. جثت أمامه ونسي جوعه بعد أن أثارت فضوله.

قالت: "يا زوجي، أريد أن أطلب منك معروفاً".

مدّ جنكيز يده وأمسك بيدها.

رد: "إذاً، اطلبيه".

أرغمت تشاكاهي نفسها على أخذ نفس بطيء.

قالت: "النساء والأطفال. أخلِ سبيلهم. سينقلون نبأ سقوط المدينة. إنهم...".

قال جنكيز بحدة، وهو يترك يدها: "لا أرغب في الحديث عن هذا الأمر الليلة".

قالت متوسّلةً: "يا زوجي، يمكنني سماعهم يبكون".

كـان قد أصغى إليها عندما قدمت إليه الدليل على غدر كوكشو. كان قد أصغى عندما حثّته على تسمية أوجيدي وريثاً. كانت عيناها تتوسلان إليه.

همهم جنكيز بكلام غير مفهوم، وغضب فجأةً منها.

قـال: "لا يمكـن أن تفهمـي يا تشاكاهي". رفعت رأسها ورأى أن عينيها تغصّان بالدموع. رغماً عنه، تابع كلامه.

قـال: "لست سعيداً بهذا. لكن يمكن أن أجعل من عملية القتل هذه صرخة تنتـشر إلى مـناطق لا يمكنني الوصول إليها. سينتقل النبأ من هنا، يا تشاكاهي، بـسرعة مثل أي طائر. سيقولون إنني ذبحت كل كائن حي في هرات، وأن ثأري كان فظيعاً. اسمي وحده سيدبّ الذعر بين أولئك الذين سيقفون ضدي".

شرعت تشاكاهي بالقول: "فقط الرجال...".

تأفّف جنكيز.

"الرجال يموتون دائماً في الحرب. يتوقع ملوكهم ذلك. أريدهم أن يعرفوا أنهم إذا قاومـوني، فـإنهم يضعون أيديهم بين فكّي ذئب. سيخسرون *كل* شيء ولن يـتوقعوا أي رحمـة". مدّ يده مرة أخرى وأمسك وجهها، وشعرت بجلد راحتيه المتيبّس.

"من الجيد أنك تبكين من أجلهم يا تشاكاهي. سأتوقع ذلك من زوجتي وأم أولادي. لكـن سيكون هناك دم غداً، حتى لا أضطر إلى فعل ذلك مجدداً، مئة مرة أو أكثر. هؤلاء لا يرسلون إليّ الجزية لأنهم لا يعترفون بحقي في الحكم. إنهم يحنون رؤوسـهم لأنهـم إذا لم يفعلـوا، فسأشتعل غضباً منهم وأرى كل الذين يحبونهم يتحولون إلى رماد".

فاضت دموعها، وربت جنكيز على خدّها بلطف.

"أود أن أمـنحك مـا تريدينه يا تشاكاهي. لكن إذا فعلت، فستكون هناك مديـنة أخرى العام القادم واثنتي عشرة غيرها بعد ذلك. هذه أرض صعبة والناس معـتادون على الموت. إذا كنت أريد أن أحكمهم، فعليهم أن يعرفوا أن مواجهتي تعني الدمار. عليهم أن يخافوا يا تشاكاهي. إنها الطريقة الوحيدة".

لم تـــردّ، ووجـــد جنكيـــز نفسه فجأة يشعر بالإثارة من وجهها الذي بللته الدموع. وضع طبق الطعام على أرضية الخيمة ليتناوله في الصباح ورفعها إلى سرير مـــنخفض بجانبه، وشعر بكتفه تطقطق. ارتعشت عندما وضع شفتيه على شفتيها ولم يكن يعرف إن كان ذلك من الرغبة أو الخوف.

عـــند الفجر، ترك جنكيز تشاكاهي في الخيمة، وخرج ليراقب عملية القتل. كـــان قـــد كلّف بالمهمة فرقتي ابنيه أوجيدي وتولي. كان عشرون ألف رجل قد نظّفـــوا وشحذوا سيوفهم من أجل ذلك العمل، لكن حتى ذلك العدد الكبير كان سيشعر بالإرهاق عند انتهاء الأمر.

كـــان الأسرى يجلسون محتشدين معاً في الصباح تحت ظل المدينة المدمرة فيما كانـــت الفرق تحيط بهم. كان العديد منهم يتضرعون بأصوات عالية وكان أولئك الذين يواجهون المحاربين المتجهمين يمدّون أيديهم إلى الأمام ويصرخون حتى تهوي السيوف عليهم. لم يكن الأمر سريعاً. كان المحاربون يتحركون بينهم واضطروا إلى توجـــيه عـــدّة ضربات عندما تلوّى الأسرى وهم مقيدون محاولين الابتعاد عنهم. تكـــوّم رجـــال ونساء فوق بعضهم وتلطخ المحاربون بالدماء. تكسرت العديد من الـــسيوف على العظام، وانشقت النصال الفولاذية أو انحنت. حلّ الظهر واستمرّ القـــتل، وكانـــت رائحة الدم قوية في الهواء الساكن. ترك محاربون حشد الأحياء والموتى، وكانوا يلهثون عندما شربوا ماءً دافئاً قبل أن يعودوا إلى عملهم مجدداً.

كانـــت شمـــس بعد الظهر قوية عندما أجهزوا على آخرهم، وأطبق الصمت على السهل. كان أفراد فرقتي ابني جنكيز متعبين جداً، كما لو أنهم خاضوا معركة طـــويلة وضارية. أرسلهم ضباطهم إلى النهر ليزيلوا عنهم الدماء ويغتسلوا ويدهنوا أسلحتهم بالزيت. وقفت المدينة صامتة فوقهم، خاوية على عروشها.

كـــان الـــرجل الذي سقط عن السور قد بكى جزءاً من النهار، بالرغم من أن دمـــوعه جفت بسرعة في الحرارة حتى أخذ ينشج من دون أن يذرف أخرى. كان قد تم تجـــبير كاحله المكسور ومنحه جواداً وطعاماً من قبل ضابط مغولي لم يعرف اسمه، بـــناءً على أوامر الخان. انطلق الرجل مبتعداً عندما تجمّع الذباب والطيور فوق هرات. راقبه جنكيز يبتعد، وكان يعرف أنه سينقل الأنباء إلى كل من لديه آذان يسمع بها.

فكّــر جنكيز في دموع تشاكاهي عندما وقف في ظل هرات. لم يكن قد قال لهــا إلى أين سيأخذ الأمة. كانت العائلات تعرف أنه ينوي العودة إلى الديار، لكن مكاناً واحداً آخر كان قد توقف منذ وقت طويل عن إرسال الجزية وكان سيقود جيـــشه إلى هـــناك قبل أن يرى تلك التلال والأنهار مجدداً. كانت كزي كزيا هي المكان الذي التقى فيه بابنة ملك شاحبة للمرة الأولى، والمنطقة المليئة بالحصون التي كانـــت قـــد قادته إلى عاصمة الإمبراطور. مثل حاكمي هرات وبلخ، كان والد تشاكاهي قد ظن أن الخان لن ينجو من الجيوش التي خرجت لقتاله.

ابتسم جنكيز بتكلف لنفسه عندما أصدر أخيراً أوامره للأمة بتفكيك المخيم. كان قد أمضى وقتاً طويلاً جداً بعيداً عن أراضي تشن وستكون كزي كزيا المثال الدموي الذي سيرغمهم على طاعته.

الفصل التاسع والثلاثون



انتقلت الأمة شرقاً معاً، وخلّفت وراءها شريطاً من النار والدم طال المدن والبلدات. كانت الفرق تتقدم على العائلات، وتهاجم مدناً لا تزال أكثر من أنقاض بقليل من تجربتها الأولى مع خان المغول. عندما كان الناجون يبدأون ببناء حياتهم ومنازلهم من جديد، كانت الفرق تأتي مرة أخرى لتذبح وتحرق.

بالنسبة إلى أولئك الذين كانوا يسافرون على عربات الأمة، كان هناك دائماً منظر أعمدة دخان داكن، تزداد شدّةً مع اقترابهم منها ويتركونها خلفهم في نهاية المطاف مع ظهور خيوط سوداء جديدة من بعيد. كانوا يتحركون عبر أرض مهجورة وكان جنكيز سعيداً جداً من ذلك المشهد. لم تكن لديه حاجة أخرى إلى المدن حيث كان للشاه نفوذ سابق، أو أولئك الذين يعيشون فيها. كان الدمار الذي يجلبه يجعل الأرض صحراء لجيل أو أكثر، ولن ينهضوا مجدداً ليتحدّوه. وحدهما سمرقند ومرو بقيتا على حالهما، وكان آخرون يحكمونهما باسمه. بالرغم من ذلك، كان على تيموج أن يتوسل للإبقاء على حامية لتحفظ أمن سمرقند، بمكتباتها وقصرها. كان جنكيز يغادر تلك الأرض ولم يكن سينقضي وقت طويل قبل أن يعرف أولئك الذين في الخيام أنهم عائدون إلى الحرب مع تشن. كان اثنا عشر عاماً قد انقضت على سقوط ينكينغ واشتاق جنكيز إلى رؤية أعدائه السابقين مرة أخرى. كانت الأمة قد ازدادت قوة وهذه المرة لم يكن شيء في العالم يستطيع إيقافه عن وضع قدمه على عنق تشن.

تحوّل القمر من هلال إلى بدر ست مرات قبل أن يصلوا إلى مشارف صحراء شاسعة إلى الجنوب. كانت ديار المغول تقع شمالاً نحو الجبال وتعطّش جنكيز لرؤية أرضه، لكنه تابع مسيره. قطعت الأمة أكثر من ألفي ميل إلى شتاء بارد أنعش العائلات

التي كانت قد أعيتها الحرارة الشديدة. كانت كري كزيا تقع في منطقة أبعد شرقاً، لكن جنكيز وجد متعة بالغة في الطقس المختلف، وشعر بسعادة في حقول الأرز الأخضر التي تغمرها المياه كما لو أنه عاد إلى دياره. تحسّن الصيد وجعلوا الأرض خالية من أي شيء يمكن أن يتحرك، واستولوا على قطعان من الياك والماعز بالسهولة نفسها التي كانوا يُشعلون بها القرى على أطراف أرض تشن.

في أمسية دافئة، والشمس توشك على المغيب في سماء خالية من الغيوم، جاءت تشاكاهي مرة أخرى إلى خيمة الخان. نظر إليها بسعادة، وشعرت هي بقوة الحيوية الجديدة التي يتمتع بها. كان يرتدي بنطالاً وقميصاً طويلاً يترك ذراعيه مكشوفتين واستطاعت رؤية شبكة من الندوب عليهما، وصولاً إلى أصابعه.

ابتسم عندما رأى طبق الطعام الكبير الذي كانت قد أحضرته وأخذه منها، وشمّ رائحة اللحم الطازج بسعادة. لم تتكلم فيما كان يتناول الطعام بأصابعه، ويسترخي بشكل ظاهر للعيان بعد يوم طويل. كان يمكن سماع الأصوات المسالمة للعائلات حولهما فيما كان آلاف المحاربين يأكلون ويرتاحون مع زوجاتهم وأولادهم، مستعدين لرحلة يوم آخر.

أنهى جنكيز الوجبة وتثاءب، وخرج صوت طقطقة عندما تحرك فكه. أعاد لها الطبق، وأحنت رأسها.

قالت: "أنت متعب".

ضحك بصوت خافت، وربّت على السرير بجانبه.

رد: "لست متعباً كثيراً".

بالرغم من أنها أنجبت أطفالاً له، إلا أنها كانت قد حافظت على رشاقة جسدها، وكانت تلك أسطورة عرقها. فكّر برهة في خصر بورت العريض فيما كان يمد يده إلى تشاكاهي ويتحسّس عقدة وشاحها. بلطف، رفعت يديه عنها.

قالت: "اتركني يا زوجي".

ارتعش صوتها، لكنه كان غافلاً عن ذلك ونزعت الثوب الطويل وفتحت أزرار القميص لتكشف عن جسد أبيض تحتهما. امتزجت أنفاسهما وجثت أمامه لتنزع حذاءه. لم يرها تمسك بسكين طويلة من الحذاء، وعندما ارتعشت، افترض أن ذلك كان من لمسته على صدرها. وتذوّق طعم الياسمين المرّ على جلدها.

كـــان خاسار وكشيون يمتطيان جواديهما على طرف المخيم، يراقبان القطيع الكـبير مـــن الحيوانات التي ترافق الأمة. كان الشقيقان منتشيين، يستمتعان بآخر النهار ويتحادثان بتكاسل قبل أن يعودا إلى عائلتيهما لتناول وجبة المساء.

كـــان كشيون من رأى جنكيز أولاً. ضحك بصوت خافت على شيء كان خاســار قـــد قاله فيما كان يراقب جنكيز يمتطي جواده المفضل ويمسك باللجام. استدار خاسار ليرى ما كان قد أثار انتباه شقيقه وصمت كلا الرجلين عندما دفع جنكيز الحيوان بين خيام قومه، وسلك درباً بعيداً عنهما.

في البداية، لم يفعلا شيئاً، وأنهى خاسار قصة تتعلق بزوجة أحد كبار ضباطه والعـــرض الـــذي كانت قد تقدمت به. بالكاد ابتسم كشيون من الحكاية، ونظر خاسار مجدداً ليرى أن جنكيز كان قد وصل إلى أطراف الخيام، وجواده يأخذه إلى السهل المعشوشب وحيداً.

تساءل كشيون بصوت عال: "ماذا يفعل؟".

هـــزّ خاســـار كتفيه. قال: "لنكتشف ذلك. أنت مستمع سيئ لمشكلاتي يا شقيقي. سيرى جنكيز دعابة فيها".

دفـــع كشيون وخاسار جواديهما للهرولة عبر المخيم الشاسع، واختارا طريقاً لاعتراض جنكيز عندما يترك الأمة خلفه. كان الضوء باهتاً والسهل يبدو ذهبـــي اللون، والهواء دافئاً. كانا مرتاحين عندما اقتربا منه وألقيا عليه التحية.

لم يـــرد جنكيـــز، وتقطب جبين كشيون للمرة الأولى. دفع جواده ليقترب منه، لكن جنكيز لم ينظر إليه. كان وجهه يلمع من العرق وتبادل كشيون نظرة مع خاسار عندما أخذا موقعيهما إلى جانبـــي الخان وجعلا جواديهما يحاكيان سرعة جواده.

قال خاسار: "جنكيز؟".

بالـــرغم مـــن ذلك، لم يكن هناك ردّ وأحجم خاسار، مستعداً لترك شقيقه يفسر الأمر في الوقت الذي يختاره. دفع الثلاثة مطاياهم بعيداً في الأرض المعشوشبة، حتى أضحت الخيام مجرد كتلة شاحبة خلفهم وتحولت أصوات الحيوانات إلى مأمأة بعيدة.

لاحظ كشيون أن الخان يتصبب عرقاً. كان شقيقه شاحباً بشكل غير طبيعي وانقبضت معدة كشيون عندما خشي سماع بعض الأنباء المريعة.

سأل: "ما الأمر؟ جنكيز؟ ما الخطب؟".

تابـــع شقيقه طريقه كما لو أنه لم يسمع وازداد قلق كشيون. تساءل إن كان علـــيه جعـــل جواد الخان يستدير مع جواده، وإنهاء تلك الرحلة البطيئة بعيداً عن العـــائلات. شد الخان اللجام ببطء، وبالكاد استطاع إحكام السيطرة على الجواد. هزّ كشيون رأسه مرتبكاً.

كـــان ضوء النهار يتلاشى عندما انهار جنكيز إلى أحد جانبيه وانـــزلق عن السرج. فغر خاسار وكشيون فميهما بدهشة بالغة وصرخ كشيون عندما وثب إلى الأرض ومدّ يده نحو شقيقه.

في الضوء الخافت، لم يكونا قد شاهدا البقعة التي تتسع على خصره، وكانت لطخـــة داكنة من الدم الذي سال على السرج وجانب الجواد. عندما سقط، انفتح رداءه، واستطاعا رؤية جرح بليغ.

وضـــع كشيون جنكيز بين ذراعيه، وضغط بيده على الدم المتزايد في محاولة يائسة لإيقاف تدفق الحياة منه. بصمت، نظر إلى الأعلى نحو خاسار، الذي كان لا يزال يجلس على جواده، مصدوماً.

أغمـــض جنكيز عينيه، بعد أن أيقظه ألم السقوط من ذهوله. كانت أنفاسه مجهدة، وأمسك به كشيون بقوة أكبر.

قـــال كشيون وهو ينشج: "من فعل هذا يا شقيقي؟ من فعل هذا بك؟". لم يرسل خاسار لإحضار طبيب. كان الشقيقان قد شاهدا الكثير من الجروح.

ترجل خاسار متيبساً، وشعر بأن ساقيه ضعيفتان فجأة. جثا مع كشيون، ومدّ يـــده ليمسك يد جنكيز. كان الدم على الجلد يصبح بارداً آنذاك. هبت ريح دافئة على السهل الخالي، وحملت معها الغبار ورائحة حقول الأرز.

اهتـــز جنكيز بين يدي كشيون، واسترخى رأسه إلى الخلف حتى استقر على كـــتفه. كـــان وجهه أبيض تقريباً وعيناه مفتوحتين. كانت هناك شرارة معرفة، واحتـــضنه كشيون بقوة أكبر، يرغب يائساً في إيقاف نـــزيف الدم. عندما تكلم جنكيز، خرج صوته همساً.

قال: "أنا سعيد لأنك هنا، معي. هل سقطت؟".

قال كشيون، وعيناه مغرورقتان بالدموع: "من فعل هذا يا شقيقي؟".

لم يبدُ أن جنكيز قد سمعه.

قال: "هناك ثمن لكل شيء".

أغمض عينيه مجدداً، وأطلق كشيون صوتاً من دون كلمات، يعتصره الأسى. مـــرة أخرى، فتح الخان عينيه وعندما تكلم، وضع كشيون أذنه على شفتي شقيقه ليسمع.

قال جنكيز: "دمِّروا كزي كزيا. من أجلي يا شقيقي، اقتلوا مَن فيها جميعاً". استمر التنفس سريعاً وفقدت العينان الصفراوان بريقهما عندما مات الخان.

وقـــف خاســـار مـــن دون أن يعرف أنه مات، وبصره مثبّت على الرجلين الممدّدين معاً، وشعر فجأة بأنه صغير جداً في ذلك السهل الشاسع. بغضب، مسح الدمـــوع عـــن وجنتـــيه، تنفس بعمق ليسيطر على موجة الأسى التي هدّدت بأن تـــسحقه. كانت قد جاءت سريعة وقاسية لم يتمكن من تحمّلها. تمايل عندما نظر إلى الأسفل، ورأى كيف كانت يداه ملطختين بدم الخان.

ببطء، شهر خاسار سيفه. دفع الصوت كشيون للنظر إلى الأعلى ورأى وجه شقيقه الطفولي يشتعل غضباً يمكن أن ينفجر في أي لحظة.

قـــال كشيون: "انتظر يا خاسار!" لكن شقيقه لم يكن يسمع أي شيء يمكن أن يقـــوله. اســـتدار إلى جواده، الذي يأكل الأعشاب بهدوء. قفز عليه، مما جعل الجواد يفزع ويجري مسرعاً نحو خيام قومه، وترك كشيون وحده، يهزّ الجسد بين ذراعيه.

كانـــت تشاكاهي تجلس على السرير، تمرّر يداً فوق بقعة الدم على البطانية وتحـــدّق إلى العلامة الحمراء. كانت تتحرك كما لو أنها بحالة ذهول، من دون أن تصدّق أنها لا تزال على قيد الحياة. كانت الدموع تنسال على وجنتيها من ذكرى تعـــبير وجه جنكيز. عندما طعنته، لهث، وتراجع إلى الخلف مع سكين في جسده. كان قد نظر إليها بدهشة بسيطة. كانت تشاكاهي قد راقبته عندما أخرج السكين من جسده وقذف بها إلى إحدى زوايا الخيمة، حيث كانت لا تزال هناك.

كان قد قال: "لماذا؟".

كانت الدموع تسيل غزيرة من عينيها عندما مشت نحو السكين، وأمسكت بها بيديها.

كانــت قــد ردّت، تنتحب آنذاك: "كزي كزيا وطني". كان بمقدوره قتلها آنــذاك. لم تعرف لماذا لم يفعل ذلك. بدلاً من ذلك، كان قد نهض على قدميه، ونظر إلــيها. كان يعرف أنه يحتضر، وكانت واثقة من ذلك. كانت المعرفة واضحة في عينــيه الصفراوين والشحوب المفاجئ في وجهه. كانت قد راقبته عندما شدّ الرداء فوق جرحه، وربطه بإحكام فوق بقعة متزايدة من الدم. كان قد تركها وحيدة مع السكين، واستلقت على السرير وبكت من أجل الرجل الذي كانت قد عرفته.

عــاد خاسار إلى الخيام، وجواده ينطلق مسرعاً على الدروب بين الخيام من دون أن يهــتم لأولــئك الذين كان يبعدُهم عن طريقه. تجمّد أولئك الذين رأوه عــندما فهمــوا أن هناك خطأً ما. لم يكن كثيرون قد رأوا الخان يغادر العائلات ويبتعد عنها، لكن كثيرين رأوا خاسار يعود، ووجهه يشتعل غضباً.

وصــل إلى خيمة الخان. كان يبدو أن لحظات فقط انقضت منذ رأى الخان يغادرهــا، لكــن كل شيء كان قد تغير. قفز خاسار إلى الأسفل قبل أن يتوقف جواده، وكان مذهولاً قليلاً عندما قفز على الدرجات، فتح الباب بركلة من قدمه ودخل إلى دجنة الخيمة.

تــنفس بصعوبة مما رآه هناك. كانت تشاكاهي تستلقي على سرير منخفض، وعيــناها تلمعان. تقدم خاسار خطوتين ليقف فوقها، ورأى الجرح البليغ في عنقها والسكين الملطخة بالدماء التي كانت قد سقطت من يدها. كان المكان ساكناً وقد أزعجه ذلك.

أطلق صرخة مكتومة، ومدّ يده إلى جسدها ودفعها عن السرير لتسقط ببطء إلى الأرض. بجنون، غرز خاسار سيفه في صدرها، وحزّ عنقها حتى تلطخ بالدماء، ولهث وفصل رأسها عن جسدها.

عندما ظهر عند الباب المكسور مرة أخرى، كان حرّاس الخان قد تجمّعوا بعد أن نبّهتهم صرخته. ألقوا نظرة واحدة على الدماء التي تلطخ سيفه وعينيه القاسيتين وللحظة ظنّ خاسار أنهم سيهاجمونه.

ســأله أحــدهم، وقد رفع قوساً كان سهمه موجهاً نحو صدر خاسار: "أين الخان؟".

لم يستطع خاسار أن يتجاهل التهديد، بالرغم من أنه لم يكن بمقدوره أن يتكلم بسهولة. أشار بشكل غير واضح إلى السهل المظلم خارج حلقة نيران المخيم والمشاعل التي كانت قد أضاءت المكان حولها.

قال: "لقد مات. إنه على العشب وغانية تشن التي فعلت ذلك ممددة خلفي. ابتعدوا الآن عن طريقي".

مشى بخطوات واسعة بين الحراس وبارتباك ورعب تراجعوا أمامه. لم يرَ أحد الرجال يسرع بالدخول إلى الخيمة ليتأكد من الأمر، والذي أطلق صرخة عالية سمعها خاسار فيما كان يمتطي جواده وينطلق عبر المخيم. لم يكن غضبه قد هدأ من تقطيع جسد ميت. كانت خيمة تشاكاهي قريبة وكان يسعى خلف أولادها، مصمماً على جعلهم يدفعون ثمن ما كانت قد فعلته.

كانت الخيمة فارغة عندما وصل إليها، ودخل إليها ثم خرج مجدداً خلال لحظات. رأى خادمة تشن تنكمش خائفة من القائد الملطخ بالدماء وأمسك بعنقها عندما كانت تحاول أن تجثو مذعورة.

قال وهو يضغط بقسوة: "أولاد تشاكاهي، أين هم؟".

غصّت المرأة، وأصبح وجهها أحمر حتى أفلتها. سعلت فيما كانت تستلقي على الأرض ورفع سيفه ليقتلها.

"مع بورت يا مولاي. أرجوك، لا أعرف شيئاً".

كان خاسار يتحرك آنذاك. كان جواده جافلاً من رائحة الدم عليه وانطلق بعيداً. جعل الجواد يهرول بسرعة، وسيفه منخفض فيما كان يتجول بين الخيام باحثاً عن تلك التي ينشدها. ملأت الدموع عينيه عندما فكّر في شقيقه الممدّد في السهل. سيكون هناك ثمن.

كان هناك كثير من الناس حول خيمة بورت. كان النبأ قد انتشر آنذاك في المخيم وكان المحاربون والعائلات قد أحجموا عن تناول وجباتهم أو النوم وخرجوا من خيامهم. بالكاد كان خاسار يراهم، وبصره يفتّش في الأرجاء، وتألقت عيناه أخيراً عندما عثر على المنزل الذي يريده. استطاع سماع أصوات الحياة داخله، وكان هناك كلام وضحك. لم يتردد، ورمى بنفسه على الباب الذي فُتح على مصراعيه، بعد أن تمزّقت المفصلات الجلدية.

دخل ووقف ليواجه عائلة شقيقه المصدومة. كانت بورت هناك، مع أوجيدي. كان قد وقف على قدميه قبل أن يشدّ خاسار قامته، ويده على مقبض السيف. بالكاد لاحظه خاسار عندما وقع بصره على الأولاد اليافعين الأربعة الذين كانت تشاكاهي قد أنجبتهم، وكانوا صبيين وبنتين. في ضوء المصباح، حدّقوا إلى الشبح الملطخ بالدماء، وتسمّروا في أماكنهم.

اندفع خاسار نحوهم، يرفع سيفه ليقتلهم. صرخت بورت ورمى أوجيدي نفسه على عمه، من دون أن يكون لديه وقت ليشهر سيفه. وقع الرجلان أرضاً، لكن غضب خاسار كان عارماً ولا يمكن إيقافه بسهولة. أبعد أوجيدي عنه كما لو أنه لا يشعر بوزنه ووقف برشاقة على قدميه. في جنونه، سمع صوت نصل يُشهر واستدارت عيناه ببطء ليرى أوجيدي يقف مستعداً.

قال خاسار بحدّة: "ابتعد عن طريقي!".

ارتعش أوجيدي عندما خفق قلبه بقوة، لكنه لم يتحرك. كانت بورت مَن كسرت التوتر بين الرجلين. كانت رائحة الموت عالقة في الهواء، وبالرغم من أنها كانت خائفة، إلا أن نبرة صوتها كانت هادئة بقدر ما استطاعت.

قالت: "هل أنت هنا لتقتلني يا خاسار، أمام الأولاد؟".

طرفت عينا خاسار كما لو أنه يعود من مكان بعيد.

قال: "ليس أنت. لقد مات جنكيز. هؤلاء هم أولاد غانيته".

ببطء متأنٍّ، نهضت بورت أيضاً لتقف أمامه، وتحركت كما لو أنها أفعى على وشك أن تلسع. فتحت ذراعيها لتحمي أولئك الأولاد خلفها.

قالت: "سيكون عليك أن تقتلني يا خاسار. لن تؤذيهم".

تردّد خاسار. كان الغضب العارم الذي دفعه للعودة إلى المخيم والانتقال من خيمة إلى أخرى قد بدأ يتلاشى وتشبّث به، متعطشاً للثأر. نظر إلى عيني أوجيدي، ورأى إدراكاً واضحاً هناك وسط الأسى. وقف الشاب شامخاً أمام عمه، وقد اختفت الرعشة من يديه.

قال أوجيدي: "إذا كان والدي قد مات يا خاسار، فأنا خان الأمة".

كشّر خاسار، وشعر بالغثيان والبرد عندما زال غضبه.

"ليس قبل أن تجمع القبائل وتقبل مواثيقها يا أوجيدي. حتى ذلك الوقت، تنحَّ جانباً". لم يكن يتحمّل أن يمعن النظر إلى عيني وريث جنكيز الصفراوين عندما

وقــف أمامــه. كــان هناك شبه كبير بالأب وسمع خاسار ذلك أيضاً في صوت أوجيدي عندما تكلم مجدداً.

قـال: "لــن تقتل أخويَّ وأُختيَّ أيها القائد. امضِ بعيداً، واغسل الدم عن وجهــك. ســآتي معــك إلى والدي، لأراه. ليس هناك شيء يمكنك القيام به هنا الليلة".

انخفض رأس خاسار، وشعر بالأسى يجتاحه مثل موجة كبيرة. انــزلق السيف مــن يده، وتحرك أوجيدي بسرعة ليمسك خاسار قبل أن يقع على الأرض. أداره أوجيدي نحو الباب المفتوح ونظر إلى الخلف مرة واحدة نحو أمه التي كانت تراقب ما يجري، وترتعش مرتاحة.

خاتمة



كـــان كـــل شيء جديداً. لم يأخذ أشقاء وأبناء جنكيز الخان إلى تلال أرض غـــريبة لتـــنهش لحمـــه الغربان والنسور. لفّوا جسده بملاءات من الكتان الأبيض وغمـــروه بالزيت فيما كانوا يحولون إقليم كزي كزيا إلى أنقاض مهجورة ينبعث مـــنها الـــدخان. كان ذلك آخر أوامره و لم يستعجلوا تنفيذه. مرّ عام كامل وهم يدمرون كل بلدة، كل قرية، وكل كائن حي ويتركونه يتعفّن.

بعـــد ذلـــك فقط تحركت الأمة شمالاً إلى السهول المتجمدة، وأخذت الخان الأول إلى جـــبال خنتي حيث كان قد ولد. تم غناء وإنشاد قصة حياته ألف مرة، وقـــراءتها مرة واحدة، عندما سرد تيموج الحكاية الكاملة من تاريخه. كان قد خطّ الكلمات على سجلات من جلد العجل وبقيت نفسها بغض النظر عن عدد المرات التي رواها فيها.

كـــان أوجـــيدي الخان. لم يجمع القبائل ويقبل عهودها بينما والده مسجّى بالزيت وملفوفاً بقماش. بالرغم من ذلك، كان صوته هو الذي يحكم الباقين وحتى إذا كان شقيقه تشاغاتي غاضباً من وصوله إلى السلطة، إلا أنه لم يجرؤ على إظهار ذلـــك. حـــزنت الأمة و لم يكن هناك شخص واحد تحدّى حق جنكيز في اختيار وريـــثه بعد أن رحل عنهم. حتّى بعد موته، كانوا يعرفون مجدداً ما كان قد فعله وقالـــه. كانـــوا قد نهضوا وقضوا على الأعداء. لم يكن هناك شيء آخر مهم في حساب الحياة.

مع بزوغ فجر جديد، كانت ريح باردة تهب من الشرق، تقدم أبناء وأشقاء جنكيز رتل جنازته، وتركوا الأمة خلفهم. كان تيموج قد أعدّ لكل شيء، واقتبس مـــن طقـــوس الجنازة لدى أكثر من شعب. قاد مطيته مع خاسار وكشيون خلف

عــربة تجرها جياد مطهمة. كان قائد ألف يجلس عالياً فوق الحيوانات، يحثّها على التقدم بعصا طويلة. خلفه على العربة كان هناك صندوق بسيط من خشب الدردار والحديد، والذي يبدو أحياناً صغيراً للغاية على الرجل الذي بداخله. في الأيام التي سـبقت ذلك، كان كل رجل، وامرأة، وطفل في الأمة قد جاؤوا ليضعوا أيديهم على الخشب الدافئ.

كــان حرس الشرف مكوناً من مئة رجل فقط، منضبطين ويافعين. سارت أربعــون شـابة معهم وصرخن وانتحبن لأب السماء مع كل خطوة، للدلالة على رحيل رجل عظيم وإرغام الأرواح على الحضور والاستماع. لم يكن الخان العظيم سيذهب وحيداً إلى التلال.

وصــلوا إلى المكــان الذي كان تيموج قد أعدّه واجتمع أشقاء وأبناء الخان بــصمت كئــيب فيما كان يتم وضع الصندوق داخل كوّة محفورة في الصخر. لم يتكلموا فيما كانت نساء ينحرن أعناقهن ويستلقين هناك، مستعدات لخدمة الخان في العــالم الآخــر. وحدهم المحاربون الذين أشرفوا على الطقوس خرجوا وكانت عيون العديد منهم حمراء من الحزن.

أومأ تيموج إلى أوجيدي ورفع الوريث يده بهدوء، ووقف لوقت طويل فيما كــان ينظر إلى المكان الأخير الذي سيرتاح فيه والده. تمايل قليلاً في أثناء وقوفه، وعيناه تلمعان من شراب لم يفعل شيئاً لتهدئة حزنه. نطق ابن جنكيز كلمات غير مفهومة همساً، لكن لم يسمعها أحد وترك ذراعه تهبط إلى الأسفل.

انطلق محاربون يتسلقون حبالاً على شكل أقواس في التلال. اشتدت عضلاتهم وعانــوا معاً حتى سمعوا رعداً فوقهم. سقطت حواجز خشبية وللحظة، بدا كما لو أن نــصف الجبل قد انهار ليسدّ الكوّة، وارتفعت سحابة من الغبار الكثيف حتى لم يعودوا يستطيعون التنفس أو الرؤية.

عندما انجلت، كان جنكيز قد رحل عنهم وشعر أشقاؤه بالرضا. كان قد ولد في ظل جبل يُعرف باسم ديلون - بولداخ وكانوا قد دفنوه في ذلك المكان. كانت روحه ستراقب قومه من تلك المنحدرات الخضراء.

أومأ كشيون لنفسه، وأطلق زفيراً، وزال عنه توتر لم يكن يدرك أنه يشعر به. أدار جــواده مع أشقائه، ونظر إلى الخلف مرة واحدة فيما كانوا يشقون طريقهم

عائـدين عبر الأشجار الكثيفة التي تغطي المنحدرات. كانت الغابة ستغطي الكوّة الـتي كانـوا قـد أحدثوها. خلال وقت قصير، سيكون جنكيز جزءاً من التلال نفسها. كان كشيون متجهماً عندما نظر فوق رؤوس المحاربين الشبان الذين ينطلق معهم. لن يعكر أحد صفو الخان في مرقده.

علـى بعـد بضعة أميال فقط من مخيم الأمة، قاد خاسار جواده إلى الضابط الأعلى، وطلب منه إيقاف رجاله. تقدم كل أولئك الذين كانوا قد التقوا في خيمة الخان قبل ليلة في مجموعة واحدة: تيموج، خاسار، تسوبودي، جيبـي، كشيون، جيلم، أوجيدي، تولي وتشاغاتي. كانوا بذور أمة جديدة وقد أبلوا بلاءً حسناً.

خـرجت من المخيم فرقة أوجيدي للقائهم. شد الوريث لجام جواده عندما انحنى ضباطه، ثم أرسل رجاله خلفهم ليقتلوا حرس الشرف. كان جنكيز بحاجة إلى رجال جيدين على دربه. لم ينظر القادة إلى الخلف عندما طنّت السهام مجدداً. لقي حرس الشرف حتفهم بصمت.

على طرف المخيم، استدار أوجيدي صوب أولئك الذين سيكونون القادة في الأعـوام القادمة. كانوا قد تمرّسوا بالحرب وعانوا، فردّوا على نظرته الصفراء بثقة بـسيطة بالـنفس، وكانوا يعرفون أنهم يستحقونها. كان يضع سيف قبضة الذئب الـذي كـان والده وجدّه قد حملاه من قبل. تلكأت نظرته على تسوبودي. كان بحاجة إلى القائد، لكن جوشي كان قد مات على يده ووعد أوجيدي نفسه بالنيل منه يوماً ما، ثمناً لما كان قد فعله. أخفى أفكاره، وأضحى وجهه خالياً من أي تعبير كما كان جنكيز قد علّمه.

قال أوجيدي: "انتهى الأمر. لقد رحل والدي وسأقبل المواثيق من قومي".

ملاحظات تاريخية

نـنام مطمئنين في أسرّتنا لأن رجالاً أشدّاء يقفون مستعدين في الليل لحمايتنا من أولئك الذين يودّون إلحاق الأذى بنا.

- جورج أورويل

وصـف أراض بأن جنكيزخان *استولى* عليها يحتاج دائماً إلى بعض التوضيح. عـندما اسـتولى الـرومان علـى إسبانيا وبلاد الغال، أحضروا معهم الطرقات، والتجارة، والمدن، والجسور، وقنوات الري؛ وكل مظاهر الحضارة التي يعرفونها. لم يكـن جنكيـز يبني شيئاً أبداً. كانت الهزيمة أمام جيش المغول تعني تدمير الملوك، وجيوشهم، ومدن مرموقة، لكن المغول لم تكن لديهم أبداً أعداد كافية لترك قوات كـبيرة خلفهم عندما ينتقلون إلى المكان التالي. كان المحاربون المغول قد ظهروا في أسـواق مـدن تشن، أو تراجعوا إلى أماكن بعيدة مثل كوريا وأفغانستان، لكن بـشكل عـام، حالما كان القتال يتوقف، لم يكن هناك حكم فعّال. في الحقيقة، كانـت الهزيمة من قِبل المغول تعني أن على كل القوات المسلحة أن تستسلم. وإذا انتـشر نـبأ أن *أحـداً* يحرك جنوداً، كان من المتوقّع ظهور فرقة مغول في الأفق لتمزّقهم إرباً. كان المغول يقبلون الجزية ويسيطرون على الأرض، لكنهم لم يتخلوا أبداً عن أسلوب حياتهم المتنقل عندما كان جنكيز على قيد الحياة.

إنـه مفهوم عصي على الفهم بعد ثمانمئة عام، لكن الخوف الذي كانت تبثه قـوات جنكيز المتحركة ربما كان فعالاً في السيطرة على إقليم مهزوم مثل وجود الرومان الدائم. في القرن السابع عشر، كتب المؤرخ المسلم أبو الغازي:

في ظـل حكم جنكيزخان، كان السلام يعم البلاد بين إيران وأراضي الأتراك وكان بمقدور الشخص أن يسافر من شروق الشمس حتى مغيبها يحمل طبقاً ذهبياً على كفّ يده من دون أن يعاني مضايقة من أحد.

كانت السرعة الكبيرة والدمار الهائل عاملين حاسمين في نجاح المغول. بالمحصلة، في الحملة ضدّ إمبراطور تشن، هاجمت جيوش جنكيزخان أكثر من تسعين مدينة في عام واحد. اشترك جنكيز نفسه في ثمان وعشرين حملة منها، ولم يفشل سوى في أربع حملات فقط. تاريخياً، استفاد من حقيقة أن تشن لم يكونوا قد بدأوا بعد يستعملون البارود بفاعلية في الحرب. بعد ستة أعوام فقط من سقوط ينكينغ، في العام 1221، استعمل جيش تشن قدوراً حديدية متفجرة ضد مدينة كويزهو الجنوبية التابعة لسونغ، وتطايرت منها شظايا شبيهة بالقذائف الحديثة. كان على أولئك الذين هاجموه أن يواجهوا أسلحة حقبة جديدة.

وقعت الحادثة ضد الفرسان الروس والتي ذكرتها في الفصل الأول في المدة نفسها تقريباً للحملة الصليبية الخامسة على الأراضي المقدسة. بالنظر إلى روسيا من وجهة نظر تاريخية، تم بناء الكاتدرائية الضخمة للقديسة صوفيا في نوفجورود في العام 1045 وحلّت مكان كنيسة خشبية لها ثلاث عشرة قبة كانت قائمة هناك منذ قرن. كانت روسيا وأوروبا القرون الوسطى على مشارف فترة من بناء الكاتدرائيات والتوسع النصراني الذي سيصطدم بالإسلام خلال القرون الأربعة التالية. كنت قد وصفت دروع وأسلحة الفرسان في ذلك الوقت بأكبر دقة ممكنة.

وصل المغول فعلاً إلى كوريا؛ بالرغم من أنني استعملت لفظاً قديماً هو كوريو بين دفتي الكتاب. الاسم يعني "أرض مرتفعة وجميلة". دمرت قوات المغول خارا - كيتاني، وهم فخذ من تشن كانوا قد غادروا وطنهم وأخفوا أنفسهم في جبال كوريا، بعيداً عن السلالة الحاكمة آنذاك التي أرادت القضاء عليهم.

في ما يتعلق برجال مثل شقيقه خاسار، جيبي، وتسوبودي، كان الخان قد عثر على مجموعة من القادة الذين حملوا عن جدارة اسم كلاب صيد جنكيز. لم يكن من الممكن عملياً إيقافهم؛ تحول جنكيز نحو آسيا الوسطى الإسلامية قبل اكتمال سيطرته على الصين، وحتى شمال الصين. في التاريخ، كان جيبي، السهم، معروفاً جيداً لقيامه بذلك الدور في وقت أبكر مما ذكرت، لكن مقتضيات الحبكة أدّى إلى ظهور بعض التغييرات التي كان لا بد منها أحياناً. أصبح وتسوبودي أشهر قائدين في أيامهما؛ متماثلين في المهارة، وقاسيين ووفيين تماماً للخان.

لم يكن جنكيز يقاتل ليحكم مدناً لم تكن ذات فائدة أبداً بالنسبة له. كان هدفه دائماً شخصياً، لتحطيم أو قتل أعداء محدّدين، بغض النظر عن عدد الجيوش والمدن التي تقف في طريقه. كان مستعداً للتفاوض مرة مع إمبراطور تشن بشأن ينكينغ، لكن عندما هرب الإمبراطور إلى كي - فينغ - فو، أحرق جنكيز المدينة وأرسل جيشاً خلفه. بالرغم من اتساع نطاق الدمار، إلا أنها كانت بالرغم من ذلك معركة بين جنكيز وعائلة واحدة.

جعلت أحداث أخرى جنكيز يبتعد عن طريقته الشخصية والفردية في العمليات الحربية. صحيحٌ أن أفراد إحدى قوافل الدبلوماسيين المغول - أو الجواسيس - قد لقوا حتفهم على يد شاه خوارزم. أرسل جنكيز بين 100 و450 رجلاً (وفقاً للمصدر)، واحتجزهم حاكم أطرار، قريب الشاه. بالرغم من ذلك، افترض جنكيز أن الرجل مخادع وأرسل ثلاثة رجال آخرين إلى الحاكم ليتفاوضوا على إطلاق المجموعة الأولى. لقوا حتفهم أيضاً وكان ذلك هو العمل الذي جعل جنكيز يهاجم الدول الإسلامية. في ذلك الوقت، كان ينوي بالتأكيد إنهاء غزو الصين. لم تكن لديه رغبة في فتح جبهة جديدة بالكامل ضد عدو قوي. بالرغم من ذلك، لم يكن رجلاً يتجاهل تحدياً مباشراً لسلطته. تحرك جيش المغول ولقي *الملايين* حتفهم. ذهب جنكيز وحيداً إلى قمة جبل وتضرّع لرب السماء قائلاً: "لست من افتعل هذه المشكلة، لكن امنحني القوة لآخذ بالثأر".

بعمل أغاظ جنكيز، اتخذ حاكم أطرار ما قد يكون واحداً من أسوأ القرارات العسكرية في التاريخ. ربما كان يظن أنه يستطيع السخرية من خان المغول وأن يفلت بذلك. بوصفه قريباً للشاه ولديه جيوش كبيرة، ربما لم يفكر كثيراً في تهديد المغول.

بقيت مدينة أطرار الأصلية أنقاضاً حتى يومنا هذا و لم يُعَد بناؤها مجدداً. لقي إنالشوك حتفه بصب فضة سائلة في عينيه وأذنيه. بالرغم من أنني بدّلت في ترتيب سقوط المدن، إلا أن الشاه تعرض لهزيمة وتم إرغامه على الهروب وطارده تسوبودي وجيليم، كما كنت قد وصفت. بقي متقدماً عليهم ألف ميل، عبر ما يعرف اليوم بأوزبكستان وإيران حالياً وصولاً إلى شواطئ بحر قزوين، حيث استقل قارباً مع أبنائه إلى جزيرة صغيرة. مرهقاً، توفي من ذات الرئة هناك وأخذ ابنه جلال الدين

مكانه على رأس الجيش. واجه جنكيز أخيراً مقابل نهر السند وهرب وحده تقريباً، فـيما تم سحق جيشه. كان الفتى الذي سيصبح في ما بعد كوبلي خان هناك فعلاً ويقال إن جنكيز كان قد أشار إلى شجاعة جلال الدين أمامه، كمثال عن الطريقة التي ينبغي لرجل أن يحيا ويموت بها.

الحشاشون كانت سمعتهم تتعلق بولائهم الشديد "لرجل الجبال العجوز". في حصنهم العالي، كان نفوذهم واسعاً والقصة صحيحة عن وضعهم لكعكة مسمومة علـى صدر صلاح الدين في أثناء نومه، وكانت تلك رسالة واضحة بأن يتركهم وشـأنهم في فتوحاته. بالرغم من أن جنكيز والخانات بعده دمّروا حصونهم، إلا أن الفرقة بقيت فعّالة طيلة سنوات عديدة.

تم اسـتعمال الفـيلة ضـد المغول عند أطرار، وسمرقند، وفي معارك أخرى؛ تكتـيك يائس ضد محاربين كان سلاحهم الأول القوس. لم يشعر المغول بالخوف إطلاقـاً من حيوانات الهجوم الضخمة وأمطروها بوابل من السهام. في كل مرة، كانـت الفـيلة تتعثر وتسحق صفوف محاربيها. مرة واحدة، وجد جنكيز نفسه يـسيطر على فيلة استولى عليها رجاله، لكنه أطلقها بدلاً من أن يستعمل مثل تلك المخلوقات التي لا يمكن الاعتماد عليها.

لأسباب تتعلق بالحبكة، نقلت المئذنة التي انحنى لها جنكيز إلى سمرقند. حدث ذلـك في الواقع في بخارى ولا تزال قائمة حتى يومنا هذا ويصل ارتفاعها إلى 150 قـدماً. يقال إن جنكيز خاطب تجار المدينة الأثرياء، وقال لهم عبر مترجمين إنه من الواضـح أنهـم اقترفوا آثاماً عظيمة، وإنهم إذا أرادوا إثباتاً على ذلك، فعليهم أن يأخـذوا وجـوده بينهم كعبرة لهم. لا يمكن التأكد فعلاً إن كان يرى نفسه فعلاً عقاباً من الله (عزّ وجل) أم أنه كان ببساطة غريب الأطوار.

كـان ابن جنكيز البكر جوشي القائد الوحيد الذي انقلب ضده. أخذ رجاله ورفـض العـودة إلى الديار. بالرغم من أن ذلك موثّق جيداً، إلا أن على كاتب الأدب التاريخي أن يفسّر أحياناً كيف يمكن لشيء مثل ذلك أن يحدث. كان رجاله قـد تركوا زوجاتهم وأولادهم خلفهم ويبدو ذلك غير مفهوم بالمقاييس المعاصرة. هل كانت شخصيته حقاً متميزة إلى ذلك الحد؟ ربما يبدو ذلك مثالاً غريباً، لكنني أتذكر القائد ديفيد كوريش، الذي لقي أتباعه حتفهم في حصار واكو، تكساس في

العـام 1893. قبـل أن تحلّ النهاية، كان قد أخذ زوجات أتباعه إلى سريره. ليس الأمر أن الأزواج لم يعترضوا فقط، وإنما قبلوا أيضاً حكمه بألا يناموا مع زوجاتهم أيضاً. تلـك هي قوة شخصية القائد. بالنسبة إلى أولئك الذين لا يتأثرون بذلك النـوع من الولاء، يبقى رجال مثل نلسون، وقيصر، وجنكيز غامضين دائماً. تبقى الطـريقة الـتي مات بها جوشي غير معروفة، وبالرغم من أن ذلك تم بناءً على أمر والـده، إلا أنها ليست موثّقة في السجلات. التوقيت، بأي حال، دقيق نوعاً ما. كـان يناسب جنكيز جيداً أن يموت الرجل الذي خانه بعد وقت قصير من قيادته لرجاله نحو الشمال. يمكن أن نكون واثقين أن جنكيز لم يكلّف الحشاشين بالأمر، لكن ذلك كل شيء.

كانت زوجة تولي سورهتاني واحدة من تلك الأسماء التي لها أكثر من تهجئة. أكثـرها دقـة ربما تكون سورهاهتاني، لكنني قررت أنه صعب جداً على العين؛ وينبغـي لفظ حرفي "هـ" بالتشديد عليهما بأي حال. لم تلعب سورهتاني سوى دور صـغير في هـذا الكتاب، لكن بوصفها أماً لمونغكي وكوبلي، كان لها نفوذ واسع على مستقبل أمة المغول. كنصرانية، كانت من بين أولئك الذين يؤثرون في حفـيدي جنكيز وبالرغم من ذلك سمحت لياو شو، وهو بوذي، بأن يصبح معلّم كوبلـي. بينهما، سيصبح رجلاً متشرّباً الثقافة الصينية بشكل لم يفعله جنكيز أبداً من قبل.

جمـع جـلال الدين ما يصل إلى 60.000 رجل تحت رايته بعد موت والده. بعـيداً عـن أرضـه،لا بد من أنه كان أيضاً قائداً استثنائياً. في وادي بانجشير في أفغانستان، أرغم جيشاً مغولياً على التراجع عبر نهر. مقلّلاً من شأنه، أرسل جنكيز ثـلاث فرق فقط لسحق الثورة. للمرة الوحيدة في حياة جنكيز، ارتدّ جيشه على أعقابه. خلال عام واحد فقط، كانت سمعة الجيش الذي لا يُقهر والتي عمل جاهداً على بنائها قد تحطمت. نـزل جنكيز بنفسه إلى الميدان بكل ما لديه. حرّك رجاله بسرعة كبيرة لم يستطيعوا بسببها طهي الطعام، ولحق بجلال الدين أخيراً على ضفة نهـر السند في باكستان الآن. حاصر جنكيز جيش الأمير على الضفة. لم أكن قد تابعـت سرد قصة جلال الدين هنا، لكن بعد نجاته من معركة السند، شق طريقه عـبر إيران إلى جورجيا، أرمينيا، وكردستان، وجمع أتباعاً حتى تم اغتياله في العام

1231. فــتح جيــشه القدس من دون أن يكون معه، وهكذا بقيت تحت سيطرة المسلمين حتى العام 1917.

الــرحل الذي سقط عن أسوار هرات يشكل حدثاً غريباً في التاريخ. لا تزال المدينة المهجورة قائمة حتى يومنا هذا، كما وصفتها. أبقى جنكيز بالفعل على حياة الــرحل، المذهــول لأنه كان قد نجا من مثل ذلك السقوط. كما كانت الحال في أوقــات أخرى عديدة، كان جنكيز الرجل مختلفاً تماماً عن جنكيز الخان القاسي. كــرجل، كان يستمتع باستعراض الشجاعة، مثلما حدث عندما دفع جلال الدين جواده من على حافة شديدة الانحدار. كخان، أمر جنكيز بذبح كل كائن حي في هــرات، وكــان يعــرف أن ذلك سيبعث برسالة إلى كل أولئك الذين ظنّوا أن سيطرته قد اهتزت بثورة جلال الدين. كان القتل في هرات آخر أفعاله الرئيسة في أفغانــستان. مثل تلك المدينة، كان إقليم كزي كزيا يظن أن المغول ينتشرون على مــساحة واسعة ولا يمكنهم الدفاع عن مواقع بعيدة، لهذا توقف عن إرسال الجزية إليهم. كان رفضهم ذاك هو السبب في خروج الخان من أراضي أفغانستان أخيراً، عاقــد العزم على استئناف عملية إخضاع إمبراطورية تشن، التي كانت قد بدأت قبل أكثر من عقد.

في العــام 1227، بعد اثني عشر عاماً فقط من الاستيلاء على ينكينغ في العام 1215، كــان جنكيزخان ميتاً. أمضى حوالى ثمانية من تلك الأعوام الاثني عشر في الحــرب. حتى عندما لم يكن هناك عدو واضح، كان قادته يتحركون باستمرار، ووصلوا إلى كييف في روسيا، حيث قام تسوبودي بالهجوم الشتوي الناجح الوحيد في التاريخ. من بين كل قادة جنكيز، كان معروفاً أن تسوبودي هو الأكثر موهبة. أظن أنني بالكاد منحته حقه هنا.

مــات جنكيز عندما سقط عن جواده في أثناء الهجوم على كزي كزيا للمرة الثانــية. كانت آخر أوامره تدمير كزي كزيا. هناك أسطورة ثابتة أن الخان العظيم تلقـى طعنة من امرأة قبل تلك الرحلة الأخيرة. نظراً إلى أنه كان في طريقه لتدمير كزي كزيا، كان منطقياً منح ذلك الدور للأميرة التي اتخذها زوجة. نظراً إلى أنه لا يمكن سوى تخمين تاريخ ميلاده، كان عمره بين 50 و60 عاماً. في مثل ذلك العمر القــصير، ومــن بدايات متواضعة، ترك أثراً لا يُمحى على العالم. كانت وصيته

المباشـــرة ألا يمزق أبناؤه الأمة إرباً لتحديد من يتولى القيادة. قبلوا أوجيدي خاناً. ربمـــا كانت ستندلع حرب أهلية لو أن جوشي كان لا يزال على قيد الحياة، لكنه كان قد رحل.

كـــان جيش جنكيزخان منظماً من عشرة رجال فما فوق، مع سلسلة قيادة متماسكة.

أربان: 10رجال؛ مع خيمتين أو ثلاث وإذا سافروا يحملون معدات كاملة.

جاغون: 100

الألف: 1000

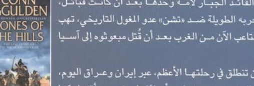
فرقة: 10.000

كـــان قادة الألف والعشرة آلاف يحصلون على مرتبة *نويان*، بالرغم من أنني استعملت *قائد ألف وقائد فرقة* للتبسيط. أعلى من هؤلاء، كان رجال مثل جيبـــي وتسوبودي *أورلوك*، أو نسور، وتقابلها رتبة المشير العسكرية.

المثير للاهتمام أن جنكيز لم يكن يهتم كثيراً للذهب، لكن صفائح صغيرة من ذلك المعدن أصبحت رمزاً للرتبة في جيوشه وإدارته المدنية. كان قادة الجاغون يحملون قطعـــة فضية، لكن النويان كانوا يحملون قطعة تزن حوالى 20 أوقية (567 غراماً) من الذهب. كان أورلوك يحمل قطعة تزن 50 أوقية.

في الوقت نفسه، كان نمو منظمة الجيش، وأسلحة الميدان، وطرقات المراسلين يـــتطلب ظهـــور نوع من ضباط التموين إلى الوجود. كان هؤلاء معروفين باسم *يورتـــشي*. كانوا يختارون مواقع المعسكرات، ينظمون عمل المراسلين على امتداد آلاف الأمـــيال بـــين الجـــيوش. كـــان ضابط يورتشي الأرفع مرتبة مسؤولاً عن الاستطلاع، وجمع المعلومات، وإدارة العمليات اليومية في معسكر جنكيز.

أخـــيراً، لأولئك الذين ربما يرغبون في معرفة المزيد عن جنكيز وأولئك الذين تـــبعوه، أنصح بقراءة كتاب جون مان الرائع: *جنكيزخان، حياته، موته وانبعاثه*، *وأمـــراء الحرب المغول* لديفيد نيكول، *جواد الشيطان: غزو المغول لأوروبا* لجيمس تـــشامبرز، *جنكيزخان* لسي. سي. وكر، وبالطبع *التاريخ السري للمغول* (المؤلف الأصلي غير معروف، بالرغم من أنني استفدت من نسخة ترجمها آرثر ويلي).



جنكيزخان، القائد الجبّار لأُمة وحّدها بعد أن كانت قبائل، والمنتصر في حربه الطويلة ضد «تشن» عدو المغول التاريخي، تهب عليه رياح المتاعب الآن من الغرب بعد أن قُتل مبعوثوه إلى آسيا الوسطى.

على الأمة أن تنطلق في رحلتها الأعظم، عبر إيران وعراق اليوم، وحتى حدود الهند. حيث ستواجه أعداءً تاريخيين وأقوياء كما واجهت على الدوام، وسيحدد نهج الخان المصير، إما النصر أو الدمار.

لقد أثبت جنكيز مقدرته كمحارب وقائد. وعليه الآن أن يواجه تحديات الحضارة وما ستعني لشعبه وقيادته. كما أن أبناءه قد أصبحوا قادة، وعليه أن يختار أحدهم قبل أن يدمروا جميع إنجازاته.

كون إيغلدن كاتب بريطاني تخصص في الرواية التاريخية. ولد في العام 1971، وتلقى علومه في جامعة لندن، ثم درّس الإنكليزية لسبع سنوات، ليرتقي بعدها إلى رئيس قسم اللغة الإنكليزية في مدارس سان غريغوري في لندن. إثر ذلك، استقال من سلك التعليم ليتفرغ لكتابة روايته الأولى «بوابات روما».

اقرأ للمؤلف أيضاً:

الجزأين الأول والثاني من هذه الملحمة الروائية التاريخية





الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com
ص.ب. 13-5574 شوران 2050-1102 بيروت – لبنان
هاتف: 785107/8 (1-961+) فاكس: 786230 (1-961+)
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

ISBN 978-9953-87-849-2

